أم الديب

تأليف
رانيا
عمارة

الجزء الرابع

رواية أم الديب الجزء الرابع

المقدمة

يحمل زياد في قلبه نيران الانتقام التي لا تنطفئ، يترقب عودة الحق مهما كان الثمن، حتى وإن كانت على يد الأشرار. فقد عاش منذ رحيل والده وقد أرهقه القهر وطأته أحزان عميقة سببها أحد السفهاء، اعتدى على حسين دون وجه حق، ليترك زياد مكسور القلب في لحظاته الأخيرة. زياد، وهو يخطو خطواته نحو مستقبل غامض، لا يعرف للراحة سبيلًا، ولا للهدوء طعمًا؛ فكل شيء أصبح مرهونًا بعودة حق والده على أكمل وجه. على جانب آخر من القصة، نجد "أم الديب"، المرأة التي تقف بجانب أخيها خلف قضبان السجن، حياتها تموج بالخزي. بعد مرور الوقت وانقضاء الأيام، تكتشف هايدي، زوجة زياد، سرًا غامضًا يسحق أمانها ويضعها في دوامة لا تنتهي. كانت قد حاولت مرارًا تحقيق حلم الأمومة، لكنها، أثناء رحلتها، تقع على هذا السر الخطير، فتفتح أمامها أبواب الشك وتدفعها نحو هاوية من الأفكار القاسية حول خيانة أخيها أحمد لزوجته.

<u>رواية بنكهة مسلسل</u>

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لصاحب هذا العمل، ولا يجوز نسخ أو إعادة إنتاج أي جزء منه بأي وسيلة كانت، سواء إلكترونية أو مطبوعة، دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

© رانيا عمارة ٢٠٢٤

الفصل الأول

وقت أليم يتسلل إلى روح "حسين" من نوافذ الكون الهالك، ويداه في أحضان فراشه الذي شهد دموعه المُنهمرة. كيف لرجل تحدى العالم العسير بشجاعته طوال الواحد والخمسين عامًا الماضية أن يقع فريسةً رخوةً في قبضة يد ضايع المُهيمن؟ ذلك الرجل الملعون الذي يهابه العالم وما فيه، كبيرهم قبل صغيرهم. الذي إذا مر أحدهم على كنفه، ولمح ظله، فرّ ملتهمًا ذيله بين أسنانه، مُسرعًا في سباق مع الزمن والظروف، كي لا تنهار ورقته بين مليارات أوراق البشر كأنه يودع عالمًا غلفه الأشرار، الذين كان ضايع على رأسهم، يلقنهم دروسه القاسية.

انهمرت دموعه، وزادت شيئًا فشيئًا، وهو يتحاكى مع روحه المُضنية، ويأنب ضميره عن فعلٍ لم يكن له يد فيه عندما وطأه ضايع بلا شفقة، ولم يضع اعتبارًا لمقامه، وإن لم يكن ذلك على الأقل كونُه عمَّ أبناء أخته. كانت تلك الوطأة بمثابة مغناطيس يجذب رجولته، ويلقي بها في مكانٍ لا يلائمه. أهانه، وأهاته تتفاقم لا يستطيع الغفو عنها رغم محاولاته الشاقة في جهاد ذاكرته التي انتصرت عليه، وهي تعرض له أكبر مآسي حياته. ها هو الآن ينتحب، ويقول بحسرة جارفة:

_ياه يا حسين، بعد كل اللي مريت بيه في حياتك، وفقدانك لأم ابنك وهو لسه صغير، كبرته وربيته لحد ما بقى راجل، جوزته البنت اللي هو بيحبها وقولت خلاص مش عايز حاجة تاني من الدنيا غير سعادة ابني الوحيد، يجي يشوفني وأنا متكسر بسبب إنسان عديم الرحمة؟ أنا ليه أتهان ويتقل مني أوي كده؟ هو أنا قليل؟ ده أنا طول عمري كبير والناس بتجيلي تستشيرني. الناس كلها بتحترمني وبتقدرني ويجي على آخر الزمن يتعمل فيك كده؟ هي دي كلمة شكرًا اللي الدنيا بتكافئك بيها؟ ياه يا حسين مكنتش تستاهل كل ده.

انزلقت دمعته، فتاهت على طرف لياقة جلبابه، ليُردف مُتألمًا، وعيناه المنتحبتان ملتحمتان على صورة زوجته المُعلقة على الجدار المُقابل له:

_انت اتقل منك أوي.

دق ناقوس الخطر حين ضاق صدره، فامتنع الهواء عن الوغول في رئتيه، وشحب وجهه، ثم باشَر نحو الحمرة. كان يسحب أنفاسه بمشقة، ويبدو أنه أصيب بذبحَة صدرية حادة، من جراءها لم يستطع حتى زعزعة ساقيه نحو الفرار. الفعل الوحيد الذي تمكن من فعله كان نداء أخيه حنفي، مأمنه وأمانه بعد زياد، الولد الوحيد الذي دفع دماء قلبه من أجل رؤيته على حافة الفورة. باع ثيابه ليرتدي أفخر الثياب، وسلب الخبز من بين فمه ليبيت متخمًا، كأنه مثال حي للأبوة الصادقة والمشاعر النبيلة. يبدو أنها لحظات الوداع الأخيرة في مشهد درامي يخضع لقلوب الأبطال. فنادى مُتوجعًا، وأصابعه المُرتجفة لا تفارق صدره، قائلًا:

_آه حنفي...حنفي.

كان المعلم حنفي مُنشغلًا بالمطبخ كما اعتاد في تحضير طلباته بمفرده بعدما جاور غليظة المشاعر 'أم الديب'. هي الرقم الأول في حياتها، والباقي صفر على حافة اليسار، يبدو متماليًا، فيسقط دون أن يكترث به أحد. لم يكن الحديث هنا عن الصفر. المقصد كان الزوج والأبناء الذين لم يجدوا ذرة توَلُّهٍ منها طيلة الأعوام الماضية. ترك "المعلم حنفي" ما في يديه، ليفر مُسرعًا يلاحق فضوله نحو دراية المجهول، وبمجرد وصوله، تجلت صدمة عارمة على ملامحه كأن أحدهم قد ربط سلكًا كهربائيًا في رأسه حتى تجمد عن الحركة. بعد ثوانٍ تمر

كأنها أعوام من الإغضاء، تقدم نحو أخيه، لا يجد ما يُقال، حيث تجمدت الحروف على لسانه، وهو جالس على طرف الفراش، يسأل بوجه مَبهوت، قائلًا:

_مالك يا حسين؟ مالك؟

في تلك اللحظة الحاسمة، تشبث حسين بيد المعلم حنفي، يُوصيه بكل ما أوتي من قوة أن يتلفظ حتى وإن كانت كلماته مُبعثرة، موصيه على زياد، لأنه كان يدرك تمامًا مدى الدرك الذي وصلت إليه العلاقة. زياد وحيدًا تمامًا، فقد والدته في سن الطفولة، كل ما كان يعلمه عنها اسمها 'نوال'. لمس أصابعها عشر مرات عندما كان يبلغ من العمر ثلاث سنوات، في كل مرة يذهب لزيارتها بالمستشفى مع والده. لم تكن متواجدة في المنزل كسائر الأمهات، حتى أنه لم ينام في أحضانها سوى مرتين فوق سرير المستشفى، وهو ينتحب طالبًا إياها إحضار حلوى المصاص. العلة كانت كابحة لوجود إخوة آخرين. لقد حذرها الأطباء من الإنجاب مرة ثانية، خصوصًا بعد تدهور حالتها المرضية. كانوا يخفون أسرارًا دفينة بشأن قرب أجلها، فالعلاج لم يكن آذنًا في استمرارها بالحياة. فكرة إنجابها أطفالًا آخرين ينخرطون مع زياد في أساه كانت أشبه بالمستحيل، لكن الوالدة لم تشكل عائقًا أمام تنفيذ أقوال الأطباء بل تقبلته بصدر رحب.

بدلًا من خسارة زياد رثاء الأم، كانت الخسارة ستكون أضعافًا حينما يرى والده بنفس مشهد والدته منذ ثلاثة وعشرين عامًا. تعددت الأسباب، والموت واحد. حتى لم يكن هناك عضد ينزع الآلام ويسكنها، هو رفيق ذاته سيعاونها في تخطي المشاق، واليد التي ستعانق رأسه هي يداه، وهو ينتحب على الرغم من شبابه، ورجولته الرادعة لإفشاء الشجن أمام الآخرين. بدأ "حسين"يسرد آخر وصاياه، وهو ينازع سكرات الموت في معركة شرسة. كأن حروفه متنازعة لا ترغب في البزوغ معًا، وكل حرف يخرج بعد عشر ثوانٍ، وعيناه مصوّبتان نحو المجهول الذي لم يره أحد سواه. المعلم حنفي أمامه منصت بشدة، وقلبه يرتجف رهبة، يخشى أن يصدق إحساسه فيُصاب بسهام الألم. حيث بدأ حسين يتحدث:

_ابني زياد أمانة في رقبتك، اعتبره ابنك وخاف عليه ولو احتاج حاجة خليك جنبه... أنا بوصيك على ابني اللي محلتيش غيره، علشان خاطري يا حنفي!

المعلم حنفي بقلق:ليه بتقول كده يا حسين؟ آني هتصل بجلال يجي يلحقك، متخافش يا حسين!

كانت محاولة خائبة حين نهض، ساعيًا في البحث عن جلال، معتقدًا أنه سينتشله من بين سكرات الوداع. لكن "حسين" نظر إليه بابتسامة طفيفة، ولامس أصابعه برفق، وأخبره وهو يصارع حتفه، قائلًا:

_خلاص يا حنفي مفيش داعي، هما واقفين أهو.

اتسع بؤبؤا عين المعلم حنفي وهو ينظر أمامه بصدمة جارفة. لكن حسين ما زال يتابع حديثه، وهو يحدق في زاوية الغرفة الشاغرة. يرى ما لا يراه أحد غيره، ويسمع أصوات الملائكة مرتقبة في هيئتهم المُنقشة. تلفظ حسين آخر كلماته، ليقترب المعلم حنفي منه أكثر، كأن صخرًا التصق بكعبيه، يعجزه عن الحركة:

_واقفين مستنيني، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.
كانت صرخة ساحقة تُرعد الأبدان حينما اهتزت القرية بأسرها إثر نحيب "المعلم حنفي" بأعلى صوته، وهو يضرب صدره بقوة قائلًا:
=حسين أخويا، حسين، حسين!

كان المنزل مُشبع بصخب قاس، كأن الزمن قد توقف. في منزل هايدي، حيث تلاشى صوت الحياة بين جدرانه. هناك، في الزاوية البعيدة، استسلم زياد لصمت وجوده. زهدٌ غريب امتلك قلبه، حتى أن فراشه أصبح ساحة يتأمل فيها عزلته، مبتعدًا عن العالم وعن طموحاتٍ حفرها في عقله منذ سنوات ماضية. ألقى جسده المُرهق فوق السرير، عينيه مثقلتين بأحمال غير مرئية، وكأن روحه تغوص في أعماق لا قرار لها، رافضًا فكرة الطعام وكأنها عبء لا طائل منه. دخلت "هايدي" بخطوات هادئة، بين يديها صينية الطعام، وجلست بقربه، ووجهها يحمل استياءً من حاله، وأطلقت كلماتها بنبرة عاتبة، محاولة أن تلامس روحه التي بدت بعيدة كالسحاب، قائلة له:
_برضه مش عايز تاكل؟

زياد برفض:وهيجيلي نفس آكل منين؟ أنا مش مرتاح ولا مبسوط يا هايدي وعمري ما هرتاح بعد اللي حصل لأبويا ده!
هايدي:انتوا برضة مسكتوش، وأحسن حل عملتوه إن خالي اتسجن... ده إنسان قليل الأدب معندوش أخلاق ولا مبادئ وطول عمره بيعمل مصايب وفي الآخر بيطلع منها بكل سهولة، ماهو ده اللي خلاه اتمادا فيها زيادة!
زياد بأَسى:وهو سجن خالك ده هيرجع صحة أبويا من تاني؟ أنا أبويا من يومها وهو تعبان، بابا عمره ما كان كده، ده كان آخره يومين وبيرجع يقف على رجله لكن المرة دي مختلفة... أنا مش مطمن!
هايدي بتأثر:ماهو طبيعي يا زياد لأن جسمه بيضعف مع كبر سنه.
زياد بعداوة:أنا نفسي أقتل الحقير ده وبرضه مش هيكفيني قتله على اللي عمله!
هايدي برأفة:معلش يا حبيبي انسى اللي حصل! كل ظالم وله نهاية وأنا حاسة إن خالي ده نهايته قربت... ماهو اللي عمله في كل الناس مكنش قليل برضه، علشان خاطري حاول تاكل! مش معقول بقالك يومين مش عايز تدوق الأكل!
زياد باستجابة:حاضر يا هايدي، مع إن ماليش نفس.
هايدي بابتسامة:دلوقتي نفسك هتتفتح.

توقف الحديث بين هايدي وزياد، لكن الشجن لم يتوقف عن بث أصدائه في الأرجاء. نظرت إليه بعينيها المفعمتين بالحنو، ومدت يدها بلمسة رقيقة على كتفه، وكأنها تسعى لنقل دفء قلبها وروحها إليه، علَّ تلك اللمسة تخفف من العذاب الذي يحيط به. تأثرت هايدي بما أصاب عمها حسين على يد خالها ضايع، فتألمت بصمت، وكل ما تمنت أن ينهض زياد من ركوده، وفي لحظة صامتة من التعاطف، بدأ زياد بتناول الطعام،

لا ليشبع جسده، بل كي لا يخذل قلب هايدي الذي يخفق قلقًا عليه، وفي مكان آخر، داخل شقة أحمد، كانت الأجواء مُشبعة بالكآبة ذاتها. جلس أحمد على الأريكة، وقد تبددت في عينيه شرارة الطموح المعتادة، كأنه يراقب أطياف الهموم وقد احتلت عالمه. بدا في حالة غريبة من العزلة، غارقًا في حزنه على عمّه، حتى أن أعماله لم تعد تحرك فيه الرغبة. جلست "جميلة" بجواره بصمت، تشعر بصمته كأنه طيف من الغياب، ثم قطعت ذلك الصمت بسؤال، لعلها تستطيع الوصول إلى ما وراء جدران حزنه، قائلة:

_برضه مش ناوي تنزل الشغل؟

أحمد بتعاسة: ماليش نفس، بابا وعمي صعبانين عليا أوي.

جميلة باستياء:بصراحة اللي حصل ده كان صعب جدًا، من يوم ما خالك جه خطوبتنا وبوظها وأنا حسيت إنه مستحيل يجي من وراه خير أبدًا.

أحمد بتنهد:في حكمة بتقول "من أمن العقاب أساء الأدب" خالي ضايع علشان عارف إنه مش هيتحاسب فسايق فيها أوي، أنا حاسس إن سجنه ده مش كفاية للي هو عمله!

جميلة بتأييد:طبعًا، ده مجرم... معقول بيقتل ويسرق ويعمل كل حاجة غلط وضميره مش بيوجعه؟ أنا بجد اللي خايفة منه إنه يخرج ويحطنا في دماغه زيادة!

أحمد بغيظ:خليه يعملها ويشوف إيه اللي هيحصله! وماما كل اللي فارق معاها خالي، لكن مش فارق معاها أبويا وعمي اللي اتضربوا واتهانوا في السن ده.

جميلة:سوري بس بجد طنط بتحب مصلحتها جدًا، بتشوف مصلحتها مع مين وتدافع عنه.

أحمد:فعلًا كلامك صح، بس أنا وهايدي ونعمة قطعنا علاقتنا بيها! ده كفاية اللي عملته في نعمة! يعني رايحة تعاتبها وتوقفها عند حدها، ومش عاجبها راحت ضارباها بالقلم! بجد أنا مجرد التفكير فيها بيعذبني.

جميلة بابتسامة:طب خلاص، ممكن؟ مش عايزين نفتكرها!

كانت سيرة أم الديب كظلٍ ثقيل يزحف على الأجواء، تعكر صفو النفوس وتلقي بظلال من الشقاء، وكانت جميلة من بين الجميع تأنف الحديث عنها. حاولت بحنان أن تحوِّل مسار الحديث، وكأنها تحاول اقتلاع أشواك الألم من قلب أحمد، فقد كانت تخشى أن يثقل صدره بالحزن كلما تذكّر تصرفات والدته وما جلبته من هموم لا تنتهي. لكن محاولتها لتلطيف الحديث كانت كمن يواجه جدارًا من الفشل. فجأة، رن هاتف أحمد، ليكسر الصمت بحدة مفاجئة. ألقى نظرة على الشاشة، وبلا تردد رفع الهاتف وأجاب بسرعة، على الجانب الآخر، كان صوت والده متوترًا، يعصف به القهر، ليصرخ في الهاتف، وأحمد يستمع، مصدومًا، حيث قال "المعلم حنفي" :

_عمك مات يا أحمد...مات بقهرته بسبب أمك، عمك مات!

انقطع الاتصال فجأة، تاركًا الهاتف ساكنًا بين يدي أحمد، وكأن الصمت الذي تبع الإغلاق حمل معه رهبة ثقيلة تغمر المكان. انتفض أحمد واقفًا، وقد انتابته حالة من القلق تجعله كمن يبحث عن مخرج غير مرئي، فبدأ بالدوران حول نفسه، محاولًا أن يلتقط خيوطًا واهية ليفهم ما حدث. كانت "جميلة" تراقبه، وعلامات الاستغراب ترتسم على وجهها، قائلة له:

=في إيه؟ طمني!

أحمد بصدمة:عمي اتوفى!

كانت البلدة مُشبعة بصمت ثقيل، كأنما الزمن توقف لحظة وصول الخبر الصادم، خبر رحيل حسين، ذاك الرجل الذي كان كالجبل في ثباته. لم يكن أحد يتوقع أن يأتي الموت في هذا التوقيت، فكأنما تسلّل في غفلةٍ، ليخطف حياة حسين ويدفع البلدة إلى دوامة من الحزن. انتشر الخبر كالنار في الهشيم، لم يترك بيتًا إلا وطرقه، فتسارع الجميع -الرجال والنساء- يرتدون ملابس الحداد، تتوشح النساء العباءات السوداء، ويكتسي الرجال بالجلابيب، ليجتمعوا كجسد واحد أمام منزل حسين، حيث الجسد مسجّى بعد أن أزهقت منه الحياة، مغسلًا وملفوفًا بالكفن، مستعدًا للقاء وجه الله. وصل الخبر لزياد، وكان قلبه يموج بألمٍ لم يعرف مثله من قبل، فأحس أن الأرض تهتز تحت قدميه، وتملكه رعشة قلب مفجوع، ورغم ما عُرف عنه من صلابة، إلا أن عقله أبى أن يستوعب رحيل والده، وفي بلدة "أبو حلاوة"، كانت الأجواء تعكس الشجن. كل شيء بدا كأنه مغطى بسواد الحداد؛ النساء يندبن بصوت مخنوق، والرجال يتحركون بوجوه مشحونة بآلام الفراق. كان زياد يسير بين الجموع، عيناه مغرقتان بدموع لا يستطيع كبحها، يقهره الفقد ويجثو على صدره كجبل ثقيل. حاول أن يتمالك نفسه، لكن الاستياء أثقل جسده حتى كاد يسقط مرارًا. هرع إليه جلال وأحمد وحامد وبقية الرجال، يساندونه في خطواته المتعثرة، وكأنما يحاولون حمل جزء من حمل الفراق عنه. أما هايدي ونعمة، فقد كانتا في حالة من الانهيار، عيونهم تفيض بدموع كالمطر لا تعرف التوقف، بينما جميلة وليالي وقفتا مذهولتين، متأثرتين بالحزن الذي غمر كل شبر في المكان. في مقدمة الجنازة، كان "أبو محمد" يمشي بخطوات ثابتة، يحمل النعش على كتفيه كمن يحمل ثقل العالم كله، وفي صوته الذي هزّ المكان بأصدائه، صاح بألم وهو يرفع صوته:

_لا إله إلا الله.

الرجال بأعلى صوت:لا إله إلا الله.
أبو محمد بصدح عالي:لا إله إلا الله.

عندما وصل الجمع إلى المقابر، خيّم صمت ثقيل كأن الأرض توقفت عن التنفس، وكأن الزمن امتنع عن الدوران في تلك اللحظة الحزينة، لحظة توديع حسين إلى مثواه الأخير. وقف الجميع في صمت يتكسر على وجوههم، والقلوب تعتصرها أحزانٌ لا يمكن للكلمات أن تصفها. تقدّم أبو محمد إلى جانب القبر، ورفع رأسه، يلقي نظرة أخيرة نحو السماء، متأملًا في هذا الفراق الأبدي، وكأن روحه تسبح مع الكلمات التي سيقولها. وبينما ارتفعت الكلمات، كان زياد يقف على مقربة من القبر، غارقًا في دموعه التي لم يتمكن من حبسها، بينما وقف أحمد وجلال إلى جانبيه، يسندانه بصمت كأنهما يشاركانه في الألم. التف حولهم الرجال، من الأهل والمعارف والجيران، وجوههم مغطاة بالأسى، وعيونهم تترقرق بدموعٍ مكبوتة، يواسي بعضهم بعضًا. حيث قال "أبو محمد" خطبته بأعلى صوت:

=عباد الله! كفى بالموت واعظًا، ووالله لو كان الأمر سينتهي بالموت لهان الأمر، لكنه مع شدته وهوله، أهون مما يليه من القبر وظلمته، وكل ذلك هين إذا قورن بالوقوف بين يدي الله الكبير المتعال، في موقف ترتج له النفوس ، وتنخلع له القلوب. يا أيها الناس اتقوا الله. أما بعد عباد الله، ونحن نسير في دروب الحياة، ونتقلب على هذه الأرض، كم نحن بحاجة إلى وقفة روحانيةٍ نجدّدُ فيها الإيمان في القلوب، ونزيل عنها غبار الغفلة والذنوب... اللهم أغفر لأحيائنا، وأمواتنا، وذكراننا، وإناثنا، وصغيرنا، وكبيرنا، ومن أحييته منا فأحيه على الإيمان، ومن توفيته منا فتوفه على الإسلام، اللهم اغفر لحينا، وميتنا، وشاهدنا، وغائبنا، وصغيرنا، وكبيرنا، اللهم أغفر له.

الجميع بصوت عالٍ:آمين.
أبو محمد بصدح مرتفع:اللهم ثبته على الحق.
الجميع بصوت عالٍ:آمين.
أبو محمد بصدح مرتفع: اللهم أغفر له وارحمه وعافه وأعف عنه وأكرم نزله ووسّع مدخله وأغسله بالماء والثلج والبرد ونقّه من الخطايا كما نقّيت الثوب الأبيض من الدنس وأبدلّه دارًا خيرًا من داره وأهلًا خيرًا من أهله وزوجًا خيرًا من زوجته وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار.
الجميع في آنٍ واحد:اللهم آمين.

بدأوا في حفر القبر، وكانت الأرض تبتلع كل ما تبقى من حياة حسين، فتتساقط الحُفر وكأنها تكشف عن الهوة التي لا مفر منها. في تلك اللحظة، كان زياد في حالة من الهلع، يركض نحوهم بجنون، يداه ترفرف في الهواء كمن يبحث عن الخلاص. صرخ بأعلى صوته، متوسل إليهم أن يوقفوا هذا المصير، وأن يتركوه يحتضن والده في عناق أخير، لكن أحمد وجلال كانا يسحبانه بعيدًا، مُحاولين أن يثبتوه على الأرض، وأن يهدئوا من روعه في تلك اللحظة العاصفة من الألم. كان زياد في حالة انهيار تام، كأن روحه قد تمزقت أمام عينيه، وقلبه كان يصرخ، غير قادر على قبول فكرة أن أمانه، وعلاقته الوحيدة التي كانت مصدر قوته في الحياة، قد انتهت. كل خطوة كانت تقترب من القبر كانت تقطع أملًا آخر في قلبه. في عزاء السيدات، في شقة حسين، كانت أجواء القهر تملأ المكان. النساء كلهن يرتدين الثياب السوداء، والعويل والنشيج يعلو في الأرجاء، وقد تداخلت أصوات البكاء لتصنع سيمفونية من الألم. كانت نعمة وهايدي بين أولئك المنكسرات، تبكيان بحرقة، وهايدي تنوح على حماها الأصيل الذي كانت تعتبره كوالدٍ آخر لها، وبينما كانت دموعها تسيل على خديها نظرت "نعمة" إليها التي كانت تبدو أكثر قهرًا، وقالت:
_لا حول ولا قوة إلا بالله، يارب ارحمه واغفر له.

هايدي ببكاء:يارب ده كان راجل طيب.
ليالي بنحيب:لا إله إلا الله، ربنا يرحمه ويغغرله ويثبته عند السؤال.
نعمة باستياء:يارب.

نظرت "جميلة" إلى هايدي، التي كانت تنتحب بصوت خافت، والقلب يصرخ بين ضلوعها، وقد تجمعت في عينيها دموع حارقة لا تنتهي. تأثرت جميلة برؤية حزنها، فشعرت وكأن قلبها ينفطر من أجلها، لا تجد كلمات كافية لتهدئتها أو تخفيف آلامها. اقتربت منها بحذر، وجلسَت إلى جانبها، ثم قالت لها:
_اهدي يا هايدي علشان خاطري!

هايدي بنشيج:أنا كنت بعتبره أبويا مش عمي! مات بقهرته بسبب ماما! ماما هي السبب في اللي حصله! أنا خايفة أوي على زياد! ده كان روحه في عمي، مكنش له غيره!كان هو كل حاجة في حياته!

رفعت "ليالي" يديها إلى السماء، ساعية للتواصل مع شيء أبعد من هذا العالم، وجسدها يرتجف بشدة من الحزن الذي يثقل قلبها. دموعها انهمرت كالشلالات، وكلماتها تخرج من أعماق الروح، فتقول:
=الفاتحة على روحه.
كانت النساء جالساتٍ، وأطفالهن في أحضانهن، وقد امتلأ المكان بشجنٍ ثقيل، بينما بدأت جميعهن في قراءة الفاتحة على روح حسين، تضرعًا وطلبًا للرحمة والمغفرة. في تلك اللحظة، نظرت تقى إلى والدتها التي كانت دموعها تنهمر على خديها، وعينيها حمراوان من كثرة البكاء، والحزن قد تغلغل في قلبها ليغشي عينيها. فتأثرت "تقى" برؤية ألم والدتها، وببراءة الأطفال التي لا تعرف إلا الطهر في مشاعرها، سألتها:
_ماما هو انتوا ليه بتعيطوا؟
بعدما أنهت "ليالي" قراءة الفاتحة، مسحت يديها على وجهها بحركة مُتعبة، محاولة أن تمحو آثار الحزن الذي طبع على ملامحها. امتزج بكاؤها مع ارتعاش يديها، والألم قد تسلل إلى كل جزء في جسدها، فلم يعد بإمكانها التحكم به، لتجيبها بنبرة هادئة:
=عشان عم أبوكي اتوفى... ادعيله يا تقى!

تقى بتعجب:يعني إيه يا ماما؟
ليالي ببكاء:يعني راح لربنا فوق في السما.
تقى باستغراب:طب ليه مقعدش معانا هنا؟ واشمعنا هو اللي راحله؟
ليالي بهدوء:عشان ده نصيبه ومكتوبله ومحدش يقدر يمنع نصيبه مهما يحصل.

خرجت "نعمة" عن صمتها، وحاولت أن تكبح دموعها، لكن الصوت الذي تَفجّر من داخلها كان أضعف من أن تُخفيه. بدأت في النواح بصوت عالٍ، بينما قالت في جزع:
_يا عمي يا غالي، حقك على راسنا... ولا هيفيد بإيه؟ هو يعني هيرجع اللي راح؟ آه يانا آه.
وصلت أم قمر الدين وسامية إلى المنزل، وقد ارتدتا الثياب السوداء، التي تعكس أعمق مشاعر التعاطف. كانت خطواتهما ثقيلة، وكأن كل خطوة تشارك في حمل الفقد. بمجرد دخولهما، اقتربتا من هايدي واحتضنتاها بقوة، كما لو أن ذلك العناق هو الوسيلة الوحيدة لتخفيف التبرُّم الذي كان يتساقط من أعين الجميع. ثم توجهتا

إلى نعمة، لكن "أم قمر الدين" لم تستطع أن تخفي استياءها، فابتسمت بابتسامة قاسية وأمسكت بكف هايدي وقالت:
_شدي حيلك يا حبيبتي، البقاء لله.

هايدي بدموع:ونعم بالله.

عانقت "سامية" هايدي بقوة، محاولة أن تضمد جراح قلبها المُتألم، وأخذت تنظر إليها بعينين ملؤهما الشفقة، وكلماتها تحمل في طياتها كل معاني المواساة، قائلة:
_البقية في حياتك يا هايدي.

هايدي بجَوًى:حياتك الباقية.

بسطت أم قمر الدين وسامية الكراسي المطوقة التي جلبتاها معهما، وجلستا عليها بتأنٍ، كما لو كانتا تسعيان لإثبات نوع من التفرد في هذا المشهد التعيس، إذ رفضتا الجلوس على الأرض أو الأريكة مثل باقي النساء. كانت الغرف كلها مزدحمة بالنساء الباكيات، والأجواء مملوءة بالجنازة، فيما تتخلل قراءة القرآن في التلفاز هذه اللحظات، كأنها تهدئ النفوس المثقلة. في تلك الأثناء، اقتربت "هبة" من ليالي، وعيناها مغمورتان بالسخرية، بينما نقلت لها استياءها من تصرفات أم قمر الدين وابنتها الكبرى، قائلة لها:
_شايفة اللي أنا شايفاه؟ جايبين معاهم كراسي، قال إيه عشان ميقعدوش على الأرض زينا، ليه هما أحسن مننا ولا إيه؟ طب والله لا قاعدة على كرسي أنا كمان!

نهضت هبة بعنادٍ، مُتعمدة مواجهة غرور أم قمر الدين وسامية بتحدٍ صريح. توجهت إلى حديقة منزل حسين، وجلبت كرسيًا بلاستيكيًا بسيطًا، ثم عادت به، وجلست أمامهما بغرور، كأنما أرادت أن تبرز اختلافها عنهن. وسط نحيب النساء وأجواء الحزن التي كانت تغلف المنزل، قالت "أم قمر الدين" بدموعٍ ثقيلة تنساب من عينيها:
_أستاذ حسين كان راجل محترم جدًا، أنا زعلت جدًا لما وصلي خبر وفاته.

إحدى السيدات بتَرَح:أه والله، ده كلنا مش إنتي بس يا هانم! ده كان كل الناس بتحبه، سبحان الله كان القبول في وشه.
أم قمر الدين باستياء:ربنا يرحمه ويغفر له.

كانت "السيدة الريفية"، التي بدت في زهرة الثلاثينات من عمرها، تتذكر ملامح تشبه إلى حد كبير ملامح سامية، وكأنها رآتها في شاشة التلفاز في وقتٍ ما، لكنها لم تستطع أن تتذكر أي برنامج أو مناسبة كانت قد شاهدتها فيه. نظرت إليها بتمعن، ثم توجهت بالكلام إلى أم قمر الدين، وقالت بصوتٍ يحمل بعض الحيرة:
_يارب، هو أنا الصراحة بشبه... هي الأستاذة اللي معاكي مذيعة صح؟

أم قمر الدين بتعاسة:أيوه.
السيدة الثلاثينية بفضول:أنا بقول كده برضه، أصل شوفتها في التليفزيون قبل كده، ما شاءالله عليها زي القمر، هى بنتك صح؟
أم قمر الدين بلُطف:أيوه بنتي.
السيدة الثلاثينية بتطفل:ما شاء الله، طب ينفع أتصور معاها؟
ام قمر الدين بإحراج:سوري احنا في عزا، مش وقته خالص!
السيدة الثلاثينية بلا مُبالاة:ماهو يا أستاذة كل الناس بتعمل كده! إنتي مبتشوفيش في عزا النجوم والممثلين بتبقى الناس بتجري جري وراهم عشان ياخدوا معاهم كام صورة؟
أم قمر الدين باعتراض:دي ناس قليلة الذوق ومش عاملة أي إحترام لا للمتوفي ولا لأهله!
السيدة الثلاثينية باهتمام:على رأيك يا ست، طب عندك بنات غيرها؟
أم قمر الدين بصياح:إيه؟ أسئلة أسئلة مبتزهقيش؟ نو إحساس خالص؟ لو سمحتي خلينا في اللي احنا فيه بقى، متعصبينيش!
السيدة الثلاثينية بخوف:خلاص يا ست مكنش كام سؤال يعني!

لقد فاض الكيل من كثرة أسئلة السيدة الريفية الثلاثينية، التي كانت تستغل لحظة العزاء كفرصة لعرض نفسها وإثبات نجاحها في الوصول إلى المشاهير أمام سلفاتها. في البداية، كانت أم قمر الدين تتجاوب معها بحذر، محاوِلةً تجنب إحراجها أو جعلها تشعر بالخجل قبال الآخرين. لكن مع تكرار الأسئلة، بدأت أم قمر الدين تشعر بالامتعاض يتسلل إليها، فخرجت عن صمتها وصاحت فيها بعصبية غير معتادة، مُدركة تمامًا أن هذا ليس الوقت المناسب لهذا النوع من الحديث. وفي الوقت نفسه، كانت سعاد حاضرة في مراسم العزاء، وإن كانت تأثرت بما حدث، إلا أن دمعة واحدة لم تسقط من عينيها. ومع ذلك، كان ما يزعجها أكثر هو غياب أم الديب عن الحضور، وهو ما جعلها تشعر بخجل كبير. لذا قررت أن تبتعد قليلًا عن الحضور، فخرجت إلى حديقة المنزل الصغيرة، وأخرجت هاتفها المحمول، فرفعته إلى أذنها وهي تراقب الباب بعينين حذرين، خشية أن يقترب أحدهم منها في تلك اللحظة. بينما كانت أم الديب، في شقتها، جالسة أمام التلفاز، مستمتعة بلحظات من الراحة مع طعامها، غير مُدركة لما يجري في الخارج، قالت "سعاد" لها:
_مينفعش كده يا بسمة! الناس كلها خدت بالها إنك مش حاضرة وسطينا، الناس هتاكل وشنا!

أم الديب بلا اكتراث:وآني مالي؟ هزودكم إيه لو جيت؟ الميت هيصحى من تربته؟ اللي مات مات خلاص، خلينا في اللي جاي.

سعاد بتنبيه:خدي بالك، ده جوزك وعيالك مستحلفينلك! متفكريش إن الحوار اتقفل كده، ده لسه هيتفتح تاني!
أم الديب بصياح:ياكش يولعوا كلهم، كانوا بيدوني إيه؟ نعمة وأحمد وهايدي متفقين عليا هما التلاتة وعاملين عليا رباطية ولا كأني أمهم، تكونش ليالي اللي لعبت في دماغهم؟
سعاد بتعجب:هو كل حاجة ليالي هي السبب؟ ما تطلعيها من دماغك بقى وتريحينا وخلينا في كلامنا دلوقتي! هتيجي العزا ولا لا يا بسمة؟
أم الديب بعناد:لا يا سعاد ياختي وريحي نفسك!
سعاد بإحباط:زي ما تحبي، السلام عليكم.

أغلقت سعاد الهاتف وهي فاقدة الأمل تمامًا، بعد أن بذلت كل جهدها في محاولة لنصح وإرشاد أم الديب، لكنها كانت تدرك أن الأخرى لا يمكنها أن تُرَكِّز إلا فيما تؤمن به، فكأن عقلها صلب كالصخر لا يتغير ولا يتأثر، ولا يقتنع إلا بمعتقداتها التي رُسِّخت في ذهنها. وبعد أن انتهى الحوار الذي كان يعكس حجم الكارثة التي ألمت بالجميع، دخلت "أم الديب" إلى المطبخ، تضع الطعام في الطبق وكأنها لم تشعر بأي عبء داخلي. ثم جلست أمام التلفزيون، متكئة على أريكتها، تشاهد مسلسل "أريد رجلًا" بينما تتابع الأحداث بابتسامةٍ مشوشة على شفتيها، بينما كانت تمضغ الجزر والخبز البلدي. نظرت إلى الشاشة بدهشة، كأن شيئًا غريبًا قد لفت انتباهها، وسألت نفسها بتعجب:
_ايهي دهي الحلقة الكام؟ الولية دهي شبهي، أمال إيه؟ قوية وجامدة زي الحجر، الله يباركلها.
قطمت أم الديب قطعة من الخيار مع الجبن القديم، غير آبهة بما يحدث حولها من مصائب ومشاهد حزن. كانت في عالمها الخاص، تأكل بهدوء وكأن كل ما حولها ليس أكثر من تفاصيل عابرة. بعدما دفنوا حسين، بدأ الجميع في العودة في طريقهم إلى شادر العزاء الذي نُصب أمام منزل الراحل. لكن زياد، الذي كان يحمل قلبًا مثقلًا بالقهر، بدأ يشعر بشيء غريب في جسده. قبل أن يصلوا إلى مكان العزاء، بدأ يرتجف بشكل غير طبيعي، وبدأ التشنج يعصف به مع كل خطوة، وكأن حزنه على فقدان والده قد بدأ يتسرب إلى جسده بشكلٍ لا يمكنه تحمله. وأمام أعين الجميع، سقط فجأة على الأرض، مغشيًا عليه، وكأن الحياة قد سلبت منه كل ما تبقى من قوة. هرع أحمد والرجال نحوه بسرعة، وأخذ "أحمد" يهزه بيديه محاولًا إيقاظه، بينما كان يصرخ بأعلى صوته:
_زياد!

جلال بصراخ:هاتواماية بسرعة!

ركع "أحمد" بجانب زياد، وكان جسده مائلًا نحو الأرض، يلامس التراب دون أن يهتم لما يحدث حوله. كل ما كان يشغل ذهنه في تلك اللحظة هو أن يوقظ زياد من غيبوبته التي سقط فيها فجأة. كانت يده ترتعش وهو يهز جسده بقوة، ويصرخ بأعلى صوته، قائلًا:
_زياد! زياد! زياد!

أشرف بصراخ:مابة يا جماعة بسرعة الله يكرمكم!

انقض "حامد" على عزاء السيدات، ودخل الشقة وهو يصرخ بأعلى صوته، وكلماته تحمل صدى الألم الذي يعتصر قلبه، قائلًا:
_هاتوا مابة بسرعة، زياد أغم عليه!
تلفظت "هايدي" بصراخ مدوي، بينما نهضت من مكانها بسرعة وكأن الأرض تحت قدميها تحترق. كانت عيناها مليئتين بالدموع، وأصوات النحيب من حولها تزيد من حجم الألم في صدرها:
=زياد؟
ركضت ليالي مُسرعة إلى المطبخ، وهي تهرع لتحضر الماء، بينما اندفعت هايدي ونعمة إلى الخارج، يركضن وراء حامد، وكأن قلوبهن قد انفجرت من شدة القلق. في تلك اللحظة، نهضت أم قمر الدين، وجميلة، وسامية، جميعهن وقفن في مكانهن، يراقبن المشهد دون حراك. في الخارج، كانت "هايدي" تجري نحو موضع سقوط زوجها خلف حامد، وكأن خطواتها تحاول اللحاق بحياة تفر من بين يديها. وصلَت إلى زياد، الذي كان ملقى على الأرض، فأخذت الكوب من ليالي، وهي تنضح المياه على وجه زياد بأيدٍ مرتجفة، يائسةً في محاولتها لإعادته إلى الوعي، ثم، سلمت الكوب لنعمة، وهي تعول بأعلى صوتها، وكأنها تستغيث بالسماء:
_زياد أبوس إيديك متروحش مني! هموت يا نعمة مش قادرة، أبوس إيديكم اتصرفوا! زياد اصحى! يا زياد بقى حرام عليك...آه!

كانت هايدي تقدم الماء لزياد بيدين مرتجفتين، يملؤهما الخرع من أن يحدث له مكروه في لحظة فجيعته على والده الراحل، الذي كانت دماؤه لا تزال تنبض في قلبه، لم تهدأ بعد. استمرت في رش الماء على وجهه، علَّها تساعده على استعادة وعيه، ومع مرور اللحظات، بدأ الرجال يهرعون نحوه، وأخذوه في السيارة إلى شقة جلال، حيث صعدوا به على أكتافهم، وكان الجميع يلاحقهم في الطريق، يعجزون عن كبح دموعهم. كانت هايدي منهارة تمامًا، تبكي بحرقة، وتكاد تسقط على الدرج في طريقهم إلى الطابق العلوي، وأثناء ذلك، شعرت أم الديب بحركة في المنزل، فخرجت على عجل، وكان وجهها يعكس شدة سعادتها، وكأن شيئًا لم يحدث. بينما كان أحمد يرفع زياد بعناية، يدعمه جلال وأشرف، متحملين ثقله في هذه اللحظة العصبية،قالت "هايدي" بنشيج:
_براحة عليه علشان خاطري!
وصل الرجال إلى الشقة، حاملين زياد بعناية حتى وضعوه على السرير في غرفة ليالي. بينما كانت "هايدي" إلى جانبه، لم تفارقها دموعها، وجلست إلى جانبه، تبكي بحرقة، تلطم وجهها بكل يأس، وكأنها تُحيي ذكرى الماضي بألم لا يمكن احتماله. صرخاتها تعالت في الأرجاء، بينما كانت يداها لا تفارق يداه، قالت بصراخ:
_أنا مش هسمح لأي مخلوق على وش الدنيا إنه يضيع زياد مني! اللي بيحصلنا ده حرام حرام والله حرام، ربنا ينتقم منك يا ماما ويحرق قلبك زي ما حرقتيلي قلبي! إنتي مش أمي إنتي بقيتي عدوتي اللي بتتلذذ بعذابي! يا نعمة يا ليالي الحقوني! يارب بقى يارب، كده كتير عليا...ارحمنا وريحنا منها! أنا تعبت أقسم بالله تعبت!

جرت ليالي بسرعة نحو هايدي، واحتضنتها بقوة، محاولةً أن تهدئ من روعها في تلك اللحظة المليئة بالشجن. بينما كانت نعمة تمرر يديها على كتفها، محاولةً منحها قليلًا من العزاء، وكانت هبة تقف إلى جانبهما، صامتةً، تراقب الموقف دون أن تعرف ماذا تقول في هذا الوقت العصيب. في تلك اللحظة، دخل جلال وأحمد ونعمة شقة أم الديب، كل واحد منهم يحمل همًّا مختلفًا في قلبه. فدخلوا من الباب بسرعة، ووجدوا أم الديب جالسة على الأرض، تأكل وتستمتع بمشاهدتها التلفاز، وكأنها في عالم آخر بعيد عن الحزن الذي يحيط بهم. أول ما دخل جلال، لم يستطع كبح سخطه، فركل الطاولة بقوة، فسقط التلفاز على الأرض، مكسورًا، يضيف إلى الفوضى التي كانت تسود الشقة. وقفت أم الديب على الفور، مذهولة، تعلو ملامح وجهها المفاجئ مع صوتها الساخط الذي امتلأ بالصراخ، وكأنها تشعر بأن شيئًا قد فقده السيطرة. وبعد لحظات، دخل حامد وعم سلامة وأشرف وأبو محمد وراء جلال، وقد بدت أجواء القلق مشتعلة في صالتها، فقالت "أم الديب" لجلال بصدمة:
=إيه يابن الكلـ* اللي إنت عملته دهو؟ إنت اتعبطت في مخك ولا إيه يالا؟

جلال بعجيج:عليا الحرام من ديـ، لأطربقها فوق دماغك ياما وأخلي عاليها واطيها!**
أحمد بصياح:انتي السبب في موته! أنا مش هسيبك إلا لما تتسجني زي خالي ضايع! إنتي لا يمكن تكوني أم إنتي شيطانة! ضيعتي الراجل وابنه وبهدلتي أبويا، ومسيبتيش حد فينا يعيش مبسوط زي باقية الناس! إنتي اللي زيك لازم يموت! إنتي سبب كل مشاكلنا في الحياة!

كان أحمد متعصبًا للغاية، يضرب يديه على الحائط في حالة من الانهيار الشديد، وكأن أعصابه قد انفجرت، لاهثة من شدة نيران الغضب التي كانت تجتاح جسده. أما جلال، فدخل الغرفة وكأن كل شيء من حوله قد انفجر، فركل الأثاث بعنف، وسحقه تحت قدميه. كانت قدماه تضغطان على السرير حتى تحطم وتفكك، بينما سقطت المرآة على الأرض، وتكسرت إلى قطع صغيرة، حتى أن خزانة الملابس تفككت تمامًا، متفجرة في أرجاء الغرفة. بينما كانت أم الديب تصرخ بصوتٍ عالٍ، تلتمس النجدة من نعمة، وكأنها ما زالت تظن أنها ستساعدها، غير مُدركة أن نعمة قد انحازت إلى جانب عائلة الراحل، وأنها لم تعد معها في هذه اللحظة. كانت "أم الديب" تصرخ بجنون، ضارعةً إليها بالنجاة قائلة:
_يا لهوتي الحقيني يا نعمة! الحقي أمك!

نعمة بجلجلة:أسكتي! محدش فينا عاوز يسمع صوتك! ارتاحتي ياما لما الراجل مات بسببك؟ فشيتي غلك؟انتي متفرقيش حاجة عن خالي ضايع! انتوا الإتنين قتالين! حسبنا الله ونعم الوكيل فيكي.
أبو محمد بضجة:أمانة عليك يا جلال تهدى إنت وأخوك وأختك، دي مهما كان أمكم!

كان أبو محمد يحاول بكل ما في وسعه أن يسيطر على الموقف، يربط جلال وأحمد، هو وبقية الرجال، محاولًا تهدئتهم، إلا أن الاحتدام قد بلغ مداه وأصبحوا في حالة ثوران لا يمكن السيطرة عليها. كانت أصواتهم تعلو، تصرخ، وتصيح في وجه أم الديب، وكل كلمة تصدر منهم كانت كالعاصفة. انتشرت الأصوات في أرجاء الحي، مما جعل الجيران يخرجون من نوافذ منازلهم، يراقبون ما يحدث بدهشة، مستمعين للنزاع الحاد الذي

كان يمزق الهدوء. وأمام هذا التصاعد العنيف، دخل "حامد" في حالة من الفزع، جسده يرتجف، وكأن شدة المشهد قد اختلطت مع قلقه، فتلفظ قائلًا بصوت متقطع:
_استهدوا بالله يا جدعان!

عم سلامة باعتراض:مش وقته الكلام ده! احنا في إيه ولا إيه؟
جلال بوعيد:مش هسيبك ياما!

ظل جلال يشتعل بالحنق، وكان على وشك أن يوجه ضرباته إلى أم الديب، لكن شيئًا ما منعه في اللحظة الأخيرة، وكأن يدًا خفية قد منعته من إتمام ما كان ينوي فعله. تراجع قليلًا، متأملًا ما حوله، وهو لا يستطيع أن يهدأ. في تلك اللحظة، خرجت كلمات "أم الديب" بصراخ مدوٍ، قائلة:
_هتضرب أمك يا جلال؟ عاوز تمد إيدك على أمك اللي كبرتك؟ أمك اللي جابتك للدنيا وشالتك على راسها إنت وأخواتك؟
يتبع....

الفصل الثاني

لقد تسللت الصدمة إلى قلب أم الديب كما يتسلل السهم في صدر العاجز، لتجثم بثقلها على صدرها حينما رأت ابنها جلال وقد تجرأ عليها بوقاحة تخترق حواجز الاحترام، حتى باتت كرامتها مهددة أمام عينيها. لقد نسي - في لحظة ضياع - أنها تلك التي حملته تسعة أشهر بين جنبات روحها، واحتملت آلامًا تفوق الاحتمال لأجله، ليكبر ويفهم أسمى معاني الإحسان. ورغم قسوة سلوكها أحيانًا، كان ما بدر منه تجاوزًا لا يُغتفر، إذ رمقته بصدمة تلتهب في عينَيها، بينما هو غارق في غياهب العمى عن بصيرته، كأن عقله قد تاه في لجّة فقده. إذ غاب عنه عمه حسين، ذلك الرجل الذي كانت الأخلاق تتزين باسمه، وكانت الروح تسمو برفقته؛ رجل قلَّما تجد قلبه يحمل ضغينةً أو عداوةً لأحد. ومع هذا الرحيل، خلّف في قلب جلال وأهل القرية وجعًا لا يُمحى. وبدون تروٍّ، انطلق "جلال" بصرخة تجتاح المنزل، وهو يصيح:

_أسكتي ياما، مش عاوز أسمع كلمة منك! تصدقي بالله؟ أنا نفسي ربنا ياخدك، ده مش أنا لواحدي! ده كلنا بقينا نتمنى نرتاح منك ومن قرفك!

أم الديب بنواح:يا لهوي يا خرابي! ابني بيغلط فيا يا خلق، ابني بيكرهني يا ناس...ابني بيقل أدبه عليا ونسى إن آني أمه... يا خسارة بطني اللي شالتك إنت وأخواتك.

أحمد بصياح:أنا كرهتك وقلبي هيفضل شايل منك لآخر يوم في عمري! مستخسرة فينا نفرح؟ ده إنتي مبتعمليش كده مع أعدائك، جاية تعملي معانا احنا كده؟

نعمة بإعوال:حسبنا الله ونعم الوكيل فيكي ياما، ربنا ينتقم منك دنيا وآخره ويقهرك زي ما قهرتي زياد على أبوه.

وسط الصيحات المتوالية من أبناء أم الديب، وتحت قوة غضبهم، كان "أبو محمد" يصرخ في وجهها، صوته يملأ الأرجاء، والكلمات تخرج منه بكل قسوة، قائلًا:

=ليه كده يا أختاه؟ الراجل مات بقهرته من اللي عملتيه فيه! ده حتى النبي عليه أفضل الصلاة والسلام كان دايمًا يقول "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين، وقهر الرجال" الراجل منينا صبره يفوق الجبال وهو ذات نفسه جبل يستحمل اللي محدش يستحمله ولما يوصل للمرحلة دي يبقى الموضوع كبير أوي أوي! لازم تكفري عن ذنبك يا أختاه، اللي عملتيه ده هيفضل في رقبتك ليوم الدين!

لكن بدلًا من أن يلقى أبو محمد نتيجة إيجابية بعد محاولته تقديم الموعظة، كانت "أم الديب" في حالة إنكار تام لما جرى. صرخت فيه بعصبية، وجحظت عيونها من السُخط، وكل كلمات أبو محمد لم تصل إلى قلبها. ردّت بصخب، ولسانها يلهج بالإنكار:

_اتهد إنت ياخويا وبطل شغل الشيوخ دهو! بدل مانت بتديني درس كنت اسفخ العيال قلمين ربيهم! إن كان أبوهم معرفش يربيهم فا....

لكن "جلال" لم يحتمل سماع المزيد من حديث أم الديب، فبتر كلامها في الحال، وأطلق صوته عاليًا، مليئًا بالاحتقان، وكل كلمة منها كانت تزيد من نار غضبه اشتعالًا، قائلًا:

=يسفخ مين ياما؟ هو إنتي شايفاني عيل صغير؟ ده أنا راجل متجوز ومخلف! طب وربنا مانا ساكتلك!

ترك جلال الشقة وهو يهمس بتوعد شديد لأم الديب، ملوحًا بعزم لا مثيل له، بينما كانت نعمة تعول على فقدانها لعمها، صفعت وجهها في مرارة، وكأن قلبها قد تمزق بداخلها. أما أبو محمد، فقد كان يكتفي بالتسبيح والاستغفار، وهو يشعر بأسى تجاه التصرفات المتهورة التي أدت إلى هذا الوضع. كان أحمد في قمة الغضب، وجهه متجهم وعيناه تشتعلان بالحنق، فيما كان الرجال من حوله يحاولون تهدئته، محاولين السيطرة على انفعالاته. في تلك الأثناء، خرجت أم الديب خلف جلال، وحين وصلت إليه، كانت خطواتها ثقيلة، وصوتها عالي، وكأنها تحاول فرض نفسها في لحظة لم تكن لتكون، وهي تلفظ كلماتها وسط الجلبة:

_آني مبتهددش واللي عندك إعمله يا جلال! وسعوا من وشي! كل واحد يغور مطرح ما جه والتلافزيون اللي إنت كسرته دهو يا جلال هتجيبلي واحد غيره وعلى حسابك! واللقمة اللي متهنتش بيها على يدك هخليك تروح تجيبلي زيها ومن أحسن المطاعم.

ثم، وسط الهمسات الممزوجة بالأسى، سقطت "أم الديب" على الأرض، كما لو أن ثقل العالم قد تجمّع فوق قلبها. تهاوت على ركبتيها، يديها تتلمس وجهها وكأنها تبحث عن إجابة لما جرى. كانت تصفع وجهها بحرقة، والدموع تتساقط من عينيها بلا توقف، بينما تعول بحرقة أشد، قائلة:

_يا لهوتي... يا خرابي.

خرج الجميع من شقة أم الديب دون أن يلتفتوا إليها، تاركين إياها في حالة من الانهيار، بينما كانت همسات الحزن تتصاعد في المنزل. عادوا إلى مكان العزاء، حيث استمرت الأجواء المشحونة بالألم، وكلما زاد الزمن، ازدادت قسوة الحزن في قلوبهم. أما في شقة جلال، كانت هايدي جالسة بجانب زياد على السرير، تعبر عن قلقها المستمر. كانت عيونها مُتعلقة به، وكأنها تتمنى أن يعود إلى وعيه ليعود معها إلى عالمهما الذي اختطفته الآلام، وبينما كانت تتأمل وجهه المرهق، فتح زياد عينيه فجأة، كأنه استفاق من حلم مرير، وعاد تدريجيًا إلى الواقع، لكنه وجد نفسه محاطًا ببحر من الآلام، حيث قالت "هايدي" له بنحيب:

_زياد! أنا كنت هموت عليك، إنت كويس صح؟ زياد يا حبيبي رد عليا! زياد أنا ماليش غيرك!

زياد بإرهاق:أنا تعبان أوي يا هايدي!

ضمت "هايدي" زياد إلى صدرها كأنها تحميه من كل عواصف الحياة، وضربت على كتفه بحنان الأمومة الذي لا يعرف حدودًا، بينما انهمرت دموعها بغزارة، تحمل معها الحب الذي يفيض من أعماقها. وفي تلك اللحظة، بدا وكأنها تستعد لمواجهة العالم بأسره، مُستعدة لخوض أي معركة أو مواجهة أي خطر، فقط لأجل حمايته؛ فمشاعرها كانت كالسيل الجارف، تفيض على روحها بصدق لا يتزعزع، وهي تقول:

_علاقتي بماما أنا خلاص قطعتها للأبد، اللي يجي عليك يبقى جه عليا، أنا بجد مش مصدقة إن كل ده حصل! هتقوم وتقف على رجليك من تاني، أنا مابقاش يهمني أي حاجة غيرك انت!

عاد الرجال إلى شادر العزاء قرب منزل حسين، حيث كانت الآيات القرآنية تتردد بصوت الشيخ، تتغلغل بين حنايا القلوب، وكأنها تواسي الأحزان الكامنة في الصدور، بينما اصطف الناس في سكينة، يقدمون كلمات العزاء المحملة بالصبر والمواساة إلى أحمد، وجلال، والمعلم حنفي. وفي تلك الأثناء، انبثقت من بعيد سيارة مرسيدس سوداء، تشع ببريق الفخامة، وكأنها تحمل بين طياتها هيبة أصحابها وثراءهم. ترجل "باسم" منها برفقة قمر الدين، ولأول مرة تطأ قدماهما أرض القرية سويًا، متجليين بروح من التضامن في لحظة كهذه.
اقترب باسم بخطواتٍ متزنة، صافح أحمد بإحساس يخترق صمته، ثم قال له بصوتٍ مختنق بالأسى:
_البقاء لله.

أحمد باستياء:ونعم بالله، اتفضل يا عمي.
قمر الدين بحزن:البقاء لله.
أحمد بشجن:ونعم بالله.
قمر الدين بمواساة:شد حيلك!

صافح باسم وقمر الدين كل الحاضرين في شادر العزاء، وبتواضعٍ جم دخلا إلى الداخل حيث جلسا بين الرجال، تجلل وجههما بملامح الوقار التي تليق بالموقف، وعلى مقربة من سيارتهما الفاخرة، كان ثلاثة حراس ينتصبون كالجبال بثبات، يرتدون بدلات سوداء فاخرة، في استعدادٍ دائم لمواجهة أي طارئ مُحتمل، وكأن وجودهم كان جدارًا من الحماية الصامتة. وفي تلك اللحظة، كان الحزن مخيمًا على المكان، والجميع غارقون في جو من الخشوع، يستمعون بتركيز إلى تلاوة الشيخ، التي كانت تتردد في الآذان. ما إن استقر بهم المقام، حتى مال "عم سلامة" نحو أشرف، وهمس له بحديثٍ خافت:
_كان قلبي حاسس إن الست دي مش هتهدى إلا لما تجيب لعيالها مصيبة!

أشرف بتصديق:تصدقني لو قولتلك إن إحساسي هو هو نفس إحساسك بالمللي؟ الست دي مكروهة أوي يا حمايا... أهل بلدها كلهم محدش بيحبها ولا بيقبلها وطول عمرها معروفة إنها بلطجية ولسانها طويل ومحدش قادر عليها، واللي مقوي قلبها أخوها البلطجي اللي اسمه ضايع، ده حتى جلال معروف في البلد هنا بالبلطجة... ماهو هيطلع لمين يعني؟ ماهي دي أمه.
عم سلامة بثقة:لا بس جلال بيجي عند لياليي ويقف! الشويتين اللي بيعملهم برا البيت ميقدرش يعملهم معاها.
أشرف بشك:الله أعلم يا حمايا، ماهو أصل الرحمة مبتتجزأش.

حضر "حامد" وفي ايده ابنه محمد، يبدو وكأنه خائفا عليها وسط الحشد ثم جلس بالقرب من والده عبد الغني، وعم سلامة، وأشرف، ثم قال بتأثر لما حدث في منزل أم الديب:
_يا باي علي اللي حصل هناك، ولا أه صحيح مانتوا كنتوا موجودين، بس بجد حالتهم تصعب على الكافر.

عبد الغني بفضول:إيه اللي حصل يا حامد؟
حامد بأسى:جلال وأخوه ونعمة نزلوا خناق مع حماتي وصوتهم كان مجلجل البلد بحالها، هما يزعقوا وهي تصوت يابا، راح جلال كاسرلها التليفزيون وقلبلها طبلية الأكل، ومكفاهوش دخل ودغدغ أوضة النوم.
عبد الغني بثقة:الست دي مش عاقلة، مخها مش سليم!
عم سلامة بحصافة:لا وحياتك سليم، دي عاملة زي الحية، بس هي اللى بتستعبط.
عبد الغني بدهشة:ومش حرام الراجل اللي مات مقهور ده؟
عم سلامة بتعجب:وهي دي بيفرق معاها حلال ولا حرام؟
عبد الغني باكتراث:هو الحاج حسين الله يرحمه، كان عنده عيال؟
حامد بتأكيد:أمال إيه يابا؟ عنده ابنه زياد ماهو ده اللي أغم عليه ودناه شقة جلال! ومتجوز هايدي.
عبد الغني بصدمة:هايدي أخت جلال؟
حامد باستياء:أيوه ما هما مناسبين بعض... ربنا يرحمك يا حاج حسين كنت راجل عاقل ودماغك توزن بلد.
عبد الغني بتبرُّم:الله يرحمه ويغفرله.
أشرف وحامد في آنٍ واحد:يارب.

رأى عبد الغني في أم الديب امرأة قد شاب تصرفاتها الجنون، معتقدًا أنها تفتقر إلى العقل السليم والاستواء الذي ينعم به الآخرون. لكن عم سلامة كان له رأيٌ آخر؛ فقد كان يرى فيها امرأة ناضجة، تحمل في طياتها فكرًا محنكًا، لكنها تتعمد اللعب على وتر الجنون، تتظاهر بسلوكيات غريبة لتُبرر أفعالها الطائشة، كمن يتستر خلف درع المرض، فيطلق عليها الآخرون العذر قائلين "ليس على المريض حرج". غير أن صدمة عبد الغني كانت جارفة، حينما اكتشف أن زياد متزوج من هايدي، ابنة أم الديب، في حين كان يظن أنها زوجة أخرى غيرها، لكن كلمات حامد أكدت له الحقيقة بوضوح. بعيدًا عن هذه الأحاديث، جلس قمر الدين إلى جانب والده باسم، يستمعان بشيء من الاندهاش إلى همسات الفلاحين من حولهم، أولئك الذين كانوا يتهامسون بتوجس، زاعمين أن أم الديب هي من تسببت بوفاة حسين، وكأن لعنتها أطبقت عليه. عندها، التفت "قمر الدين" إلى والده، مملوءًا بالدهشة، وقال له بصدمة خافتة:
_هو اللي أنا سمعته ده بجد؟

باسم بفضول:إيه اللي إنت سمعته؟
قمر الدين:إن عم أحمد اتوفى بسبب والدته!
باسم بحيرة:والله مانا عارف، بس جميلة بتقول إنه اتوفى بسببها، ولكن أنا مش عارف أي تفاصيل تانية.

قمر الدين بتوجس:دي تبقى مصيبة لو مات بسببها! احنا ازاي هنآمن على جميلة وسطهم؟
باسم باطمئنان:أختك ملهاش أي علاقة بيها وبعيد عنها والتعامل سطحي جدًا... ده غير إن الست دي متقدرش إنها تزعل جميلة لأنها عارفة كويس احنا هنعمل إيه! ده زائد برضة إن أحمد واخد موقف كبير جدًا بعد اللي حصل من والدته، وتقريبًا قطع علاقته بيها لأنه كان بيعتز جدًا بعمه وابنه.

قمر الدين باستحقار:أنا عمري في حياتي ما شوفت أم بالشكل ده، إيه القسوة والجبروت اللي هي فيه ده؟

داخل منزل حسين، كانت أجواء العزاء تخيم على قسم السيدات، حيث اجتمعت أم قمر الدين وبناتها، سامية وجميلة، متألقات بهدوءٍ وجمال، فسرقن الأنظار من حولهن. فالسيدات الريفيات كنَّ يرمقنهن بنظرات تحمل الغيرة تارةً والإعجاب تارةً أخرى، تتهامس أصواتهن خافتةً، متحدثات عن رونق هذه العائلة، وجمالها اللافت، ومع مرور الوقت، كانت النساء يدخلن لتقديم العزاء ويخرجن، وكل منهنَّ تواسي هايدي التي تغرق في دموعها، ونعمة التي تتألم بصمتٍ ثقيل، وفي ركن بعيد، كانت ليالي تجلس إلى جانب والدتها وأختها هبة، مستغرقةً في حديث هادئ، يحاول تخفيف الحزن الجاثم. وسط هذا المشهد، التفتت "جميلة" نحو والدتها، وقد لمعت عيناها بنظرة تساؤل، وهمست بنبرة خافتة، قائلة:
_سيليا وأسيل عاملين إيه يا مامي؟

أم قمر الدين بسكينة:متقلقيش عليهم يا حبيبتي! أنا سايباهم هما ولارا عند نرمين، علفكرة هي كانت عايزة تيجي بس قولتلها خليكي إنتي في يوم تاني.
جميلة برفض:لا تيجي إيه؟ هو ده مكان حد يقعد فيه؟ خليها هناك أحسن.
سامية باشمئزاز:جميلة عندها حق، بجد واحنا داخلين البلد دي مش عارفة حسيت بخنقة رهيبة، الله يكون في عون الناس اللي عايشة هنا عالطول.
أم قمر الدين بحُنكة:لا الناس اللي عايشة هنا أكيد متعودين على العيشة دي... احنا بس اللي مستغربين علشان حياتنا مختلفة عنهم، والحمدلله مليون مرة إنها مختلفة.
جميلة بارتياح:أه بجد الحمدلله، دي كانت تبقى مشكلة!

كانت سامية وجميلة تتطلعان حولهما بنظرات تحمل مزيجًا من الاستغراب والتقزز، إذ لم تألفا أبدًا حياة الريف بكل بساطتها وخشونتها؛ فقد نشأتا منذ نعومة أظفارهما بين جدران القصور المُهيبة، محاطتين بترف لا ينضب، والخادمات يقمن بخدمتهما دون كلل، حتى إن أيديهن لم تعتد يومًا حمل ملعقة أو ترتيب سرير. فقد كانت الحياة بين جدران القصور تزخر بكل أسباب الراحة، مُحاطة بفراش من ريش النعام، ما جعل حياتهما في كنف الريف تبدو كأنها عالم غريب بعيد كل البعد عن عالميهما المخملي. ومع انقضاء الساعات، بدأ كل واحدٍ من الحضور يغادر، رويدًا رويدًا، حتى خلا منزل حسين من النساء، وانتهى شادر الرجال ليغدو المكان أمام البيت فارغًا، حيث انطفأ صوت تلاوة القرآن الكريم، واختفت الكراسي، وعاد كل شيء إلى سابق هدوئه المعتاد، وكأن العزاء لم يكن يومًا، ومضت الأيام بألمها الصامت، حتى أتى ذلك اليوم الذي قرر فيه "زياد" رفع صورة والده حسين على جدار شقته، وكأنها رمز خالد أمامه، يذكره بظلال الأب ورحيله. اختار إطارًا كبيرًا، فخمًا يليق بتلك الذكرى، وعندما علق الصورة وتأكد أنها تستقر بثبات على الحائط، وقف أمامها بصمت، يتأمل ملامح والده الهادئة، التي كانت تتجلى كأنها تلقي عليه الحنين، قائلًا:
_وحشتني أوي يا بابا، هما أه كام يوم بس حاسس إنهم سنين، كده تمشي وتسيبني؟ عملت زي ما ماما عملت؟ أنا دلوقتي بقيت يتيم الأب والأم بعد ما كنت يتيم الأم بس! إنت كنت كل حاجة في دنيتي، أبويا

وصاحبي... طب قولي هعيش من بعدك ازاي؟ مش كنت بتقولي هسلمك لعروستك بإيدي؟ وأنا اللي هشيل ولادك وهجيبلهم كل اللي نفسهم فيه؟ أنا بجد مش قادر أستوعب فراقك عني!

انهمرت الذكريات على زياد كالسيل الجارف، لتغمر قلبه بكل لحظة عاشها برفقة والده حسين، منذ أيام الطفولة البريئة وحتى لحظة الفراق الأليم. تلاحقت الصور في ذهنه، وكأنها شريط سينمائي لا ينتهي، فازدادت دموعه انهمارًا حتى بلغ بها الأسى مداه، وأحس بأن روحه تمزقت تحت اللوعة، وبينما كان غارقًا في حزنه، متشبثًا بخيط الذكريات، قطع صوت جرس الباب صمته المطبق. تمالك نفسه وتوجه ليفتح الباب، لتقع عيناه على أحمد واقفًا أمامه. كان وجه "أحمد" مفعمًا بالحزن، يحمل في قسماته شعورًا بالفقد، ليقول له:

_هتفضل حابس نفسك كده كتير؟ متخافش، أنا مبقاش يهمني إنها أمي! هي اللي هدت كل حاجة بإيديها ومعملتش حساب لحد فينا... ماما لازم تاخد جزائها!

وضع "أحمد" يده برفق على كتف زياد، كأنها محاولة صادقة لمشاركة بعض من العبء الذي يثقل قلبه. كانت لمسته حانية، تحمل كل معاني المواساة، وأردف:

_عمي راح في مكان أحسن بكتير من هنا، أنا متأكد إنه مبسوط دلوقتي.

زياد بشجن:بابا مش مبسوط ولا مرتاح في تربته، عارف هيبقى مرتاح امتى؟ لما اللي اتسبب في موته ياخد جزائه! ازاي هينام مرتاح وهو اتغدر بيه من أمك وخالك؟ ازاي؟

أحمد باطمئنان:متقلقش خالي ضايع جلسته بكرا في المحكمة وماما بقى مش عارف لسه هيحصل معاها إيه!

خرجت "هايدي" من الطُرقة، وعيناها تتبعان خطواتها في ضباب من الحزن، حتى وقع نظرها على أحمد. تقدمت نحوه بسرعة، واحتضنته بحنان، كأنها تحاول أن تجد في ذلك العناق ما يخفف من الفقد. ثم انفصلت عنه قليلًا، وهمست له بكلمات ترتجف من بين شفتيها:

_تعالى يا أحمد أدخل!

لكنها لم تتمالك نفسها من الصدمة حينما وقع نظرها على دموع زياد، التي كانت تنهمر بغزارة، تنبع من أعماق قلبه المكسور. تراجعت قليلًا، مغلقة عينيها في محاولة لاستيعاب المشهد، وكأن صدمة الواقع ضربتها. وقفت أمامه، ثم همست له بلهجة مفزوعة:

_إيه ده؟ مالك يا زياد؟

أحمد بحُزن:زياد موجوع على أبوه يا هايدي! لازم كلنا نحط إيدينا في إيد بعض علشان نرجع حق عمي!

هايدي بابتئاس:أنا معاك من غير أي حاجة! بس يا ترى جلال ونعمة هيحطوا إيديهم في إيدينا ولا هيرفضوا؟

أحمد بتَشَوُّش:جلال عادي، لكن المشكلة في نعمة، هي اللي ممكن ترفض.

هايدي بريبة:ما ده اللي أنا حاسة بيه، حاسة إنها هترفض! أصل دي نعمة وأنا عارفاها كويس، تطلع تطلع وتنزل على مفيش.

أحمد بإصرار:هي حرة في قرارها، لكن أنا عن نفسي مش هتنازل!

دخل أحمد الشقة، وجلس إلى جانب زياد وهايدي في صالونهم المُريح، حيث تعالت أصواتهم بين حديثٍ وآخر عن القصاص والعدالة المنتظرة. كانت الأحاديث تدور حول الحالة التي يعيشها الجميع بعد أن ألقت الشرطة القبض على ضايع المجرم، وهو الخبر الذي أجَّل، مؤقتًا، أحلامهم في استعادة الحقوق المهدورة. في تلك اللحظات، كان قلب كل واحد منهم يحترق بنيران المظلومين، فكما يقول المثل: "نيران المظلوم أشد من مائة بركان يثور"، وأملهم في أن يُعيد الحق التوازن إلى حياتهم، ويطفئ تلك النيران التي كانت تعصف بقلوبهم ببرودة العدل، وفي تلك الأثناء، كان أحمد وهايدي يُدركان جيدًا ما تمر به نعمة، وكيف أن شخصيتها المترددة قد تدفعها إلى اتخاذ قرارات متناقضة، وهو ما حدث بالفعل. بينما في شقة جلال، ترددت الأخبار عن القبض على أم الديب، مما دفع نعمة إلى التراجع عن قرارها أمام المحكمة، وترددها كان ظاهرًا في موقفها أمام القضاة. كان "جلال"، في تلك اللحظة، مليئًا بالسخط، شعر أن الحق يبتعد عنه، فما كان منه إلا أن اندفع بغضب، يصرخ في وجهها، قائلًا:

_جرا إيه يا نعمة؟ بقى بعد كل اللي حصل من أمك وبرضة مش عاوزة تقفي معانا وخايفة عليها؟

نعمة ببكاء:حرام عليك يا جلال! إنت نسيت؟ دي أمنا! على آخر الزمن تترمي وسط الحرامية والمجرمين؟
ليالي بتبسم:يا نعمة يا حبيبتي فكك من جو حلال وحرام اللي أمك ذات نفسها معملتش بيه! دي اتسببت في موت عمكم وحرمت زياد من أبوه ودلوقتي الواد بقى يتيم الأم والأب.
نعمة بنواح:عاوزين تعدموا أمي؟ لعلمكم بقى أنا مقدرش أعيش من غيرها وبدعي كل يوم إنها تخرج منها على خير!
حامد بإنصاف:لا يا نعمة اللي بتقوليه ده ميرضيش ربنا! ده ربنا اسمه العدل وميرضاش بالظلم... أمك ظالمة وظلمت الناس معاها، اركني مشاعرك على جنب وفكري في الصح.
ليالي بإلحاح:اسمعي كلامنا يا نعمة! وبإذنك يارب بكرا كلنا هنشهد على اللي أمك عملته.

كان الجميع حول نعمة، يضغطون عليها بشتى الوسائل، يحاولون إقناعها بأن تعترف بالحقيقة حول ما حدث لعمها على يد خالها البلطجي، الذي لا يملك أي ذرة من الإنسانية. كان حامد، الذي ترك كل أعماله في ذلك اليوم، يقف إلى جانبها، حاملًا عبءًا ثقيلًا من أجل أن يلين قلبها. لم يكن وحده، بل كان معها أخيها وزوجته ليالي، يحيطان بها، يلحّان عليها بالاعتراف، وفي عيونهم أملٌ كبير أن تنقشع الغمامة التي تكتنف الحقيقة. لكن نعمة، بكل ضعفها أمام موقفها الحرج، كانت تخشى فقدان رضا والدتها، وكانت تضع خوفها الأكبر في أن تصبح عاقة، مطرودة من رحمة الله، وقد ضاع نور قلبها في ليلٍ لا ينقشع. كان التردد يشتعل داخلها، فقد حاولت جاهدة أن تبتعد عن الحقيقة المؤلمة، وتغلق أبواب الذكرى التي تعيدها إلى لحظات طفولتها مع والدتها، حين كانت تحتضنها بحنوٍ لا يوصف. لكن حينما خرج "جلال" عن شعوره، وانفجر الغضب في صدره، ليصل إلى حدود التهديد، مهددًا بقطع علاقته معها إن استمرت في التهرب من الحقيقة، وأصبحت سيفًا مسلطًا على قلبه وقلب عائلته، قائلًا بصخب:

_وربنا لو ما شهدتي معانا يا نعمة ما هتكوني لا أختي ولا أعرفك ومش هحب أشوف وشك ولو صدفة!

نعمة بصراخ:ماللي انتوا بتطلبوه مني ده صعب يا ناس! هو انتوا بتطلبوا مني أشهد على واحدة غريبة؟ دي أمي! وبعدين هشهد على إيه؟ وأنا مكنتش موجودة أساسًا.
ليالى بسخرية:ده على أساس إننا اللي كنا موجودين؟
جلال بانفعال:بقولك إيه يا حامد اتصرف إنت مع مراتك ألا دي تعبتني!
حامد بهدوء:اهدى بس يا جلال!

فشلت كل محاولات جلال في إقناع نعمة، وكأن الكلمات التي كانت تتردد على لسانه كانت تتناثر في الهواء بلا تأثير، حيث لم يكن في شخصيته ما يعين على الحوار أو المناقشة. كان جلال قد اعتاد دومًا على فرض إرادته بالقوة، لا بالكلمات، فهو شخص ضيق الخلق، سريع الغضب، لا يحتمل الجدل. بالنسبة له، كانت الكلمة التي ينطقها تعني الفعل الفوري، دون أي مساحة للتردد. وفي مواجهة هذا الموقف الصعب، اضطر جلال إلى اللجوء إلى "حامد"، عسى أن يكون له تأثير في قلب نعمة المتردد. ابتسم حامد ابتسامة هادئة، تحمل في طياتها نوعًا من التفاهم، قبل أن يوجه كلامه إلى نعمة. كانت تلك الابتسامة بمثابة محاولة لتهدئة الأجواء الملبدة بالغيوم، ثم قال بلين:
_اسمعي يا نعمة! إنتي ممكن متشهديش بحاجة وتقولي إنك مكنتيش موجودة وتبقي ارتاحتي وريحتي.

جلال بصخب:ياض كل ما عدد الشاهدين يزيد، هيخلي أمك تاخد جزائها أسرع!
ليالي بتهكم:وده في قانون العدل ولا قانونك إنت يا جلال؟
جلال بتوهُّم:مش عارف، بس حاسس بكده، لعلمكم أنا كان نفسي أطلع محامي من وأنا صغير بس ربنا مأرادش وخلاني سواق توكتوك قد الدنيا.

أردف "جلال" حديثه لحامد، وقد ارتسمت على وجهه علامات الضيق، مُنتظرًا أن يسانده بكلمات معسولة:
_طب بذمتك ياض حد يعرف يسوق زيي؟

حامد بدعم:لا ازاي؟ ده إنت مَعلمة يا جلال.
جلال بحزم:أمال؟ بكرا هننزل كلنا بربطة المعلم على المحكمة وكل واحد يحكي اللي حصل من طأطأ لسلامو عليكو، آمين؟
حامد، وليالي بمُساندة:آمين.

لم تجب نعمة، بل بقيت صامتة، عيونها تغرق في بحر من الدموع التي تنهمر بغزارة، كأنها كانت تترجم كل ما يعصف بقلبها من تردد. كانت عيونها تبحث عن إجابة لن تجدها، أو ربما كانت تخشى قول الحقيقة. أما

"جلال"، فقد نظر إليها بترقب، وكأن الزمن توقف لحظة أمامه، منتظرًا منها كلمة واحدة، تلك الكلمة التي كان يشعر أن لها تأثيرًا أكبر من أي شيء آخر. إذ قال لها بصوتٍ حازم:
_يا نعمة!

نعمة بإرغام:أمين يا جلال.

أخيرًا، وبعد معركة داخلية مريرة، وافقت نعمة على الشهادة، رافضة أن تظل أسيرة لخشيتها أو لضميرها الذي كان يصرخ في وجهها كل لحظة. كان القرار الذي اتخذته نهائيًا، ولا مجال لتراجعه، فقد كانت تعرف جيدًا رد فعل جلال القاسي إذا تراجعت عن موقفها. كانت تدرك أنه، رغم كل شيء، كانت مضطرة للمضي قدمًا في هذا الطريق، حتى لا تخسر عائلتها، خصوصًا في ظل المعركة التي كانت تدور حول أم الديب. كانت تعيش لحظة رهيبة من القلق، حيث كانت تخشى مرور هذا اليوم، وتخشى أن يأتي اليوم التالي الذي سيقابل فيه الجميع الحقيقة المُرة، مما يجعل قلبها يظل في حالة من التهديد المستمر، وفي صباح اليوم التالي، بينما كانت الأجواء مشحونة بالترقب، ذهب الجميع إلى المحكمة عدا جميلة التي كانت منشغلة مع فتياتها في النادي، وحامد الذي كان منهمكًا في أعماله، حيث كان يصنع ساندويتشات الكبدة الشهية للزبائن. أما باقي أفراد الأسرة فقد توجهوا إلى المحكمة، وكان الصمت يلفهم جميعًا. أما نعمة، فقد كانت تخطو خطواتها بتردد، قدمها تقف في مكانها، ثم تخطو الأخرى بحذر شديد، وكأن كل خطوة نحو المحكمة كانت تؤلم قلبها أكثر. كان خوفها يتضاعف مع كل لحظة تقترب فيها من القاعة المزدحمة بالمحامين والناس، حيث الهواء كان مشبعًا بالترقب، والصوت مكتوم تحت التوتر، وعندما دخلوا القاعة، بدأ القاضي في نداء الأسماء، والجميع جالسون في صمت، وكأن الزمن توقف ليرتقبوا لحظة الشهادة التي ستكشف عن الحقيقة، وفي منتصف نداء الأسماء، عندما وصل الدور إلى قضية ضايع، توقف "القاضي" للحظة، نظر في الأوراق أمامه، ثم رفع صوته لينادي، وسط ذلك الصمت المطبق الذي عمّ القاعة:
_في كام شاهد على الواقعة هنا؟

جلال:ستة يا باشا.

نظر "القاضي" في الأوراق أمامه بعناية، وكان الصمت قد عمّ القاعة وكأن الجميع ينتظرون تلك اللحظة الحاسمة التي ستغير مجرى القضية. كانت العيون معلقة عليه، تتبع كل حركة من يديه، وكل نظرة يرسلها إلى الأوراق التي بين يديه. ثم رفع رأسه فجأة، وقبض على الميكروفون بقوة، ليطلق صوته القوي في أرجاء القاعة قائلًا:
_معانا أستاذ جلال حنفي الديب، اتفضل!
نهض "جلال" من بين أخوته، وقد امتلكه شعور من الثقة القوية، وعيناه مشدودتان نحو المنصة الخشبية التي كانت تبعده عن الجميع. تقدم بخطوات ثابتة، وكان جسده يعلوه تفاعل داخلي، محاولًا استجماع كل قوته من أجل لحظة الشهادة هذه. قبل أن يصل إلى المنصة، حك فروة رأسه بحركة سريعة، كأنه يحاول تهدئة نفسه

أو ترتيب أفكاره داخل عقله، ثم وقف أمام المنصة، وجعل أنظاره تتوجه إلى القاضي، ليأخذ نفسًا عميقًا، ثم أطلق كلماته بطلاقة:

=الله يخليك يا باشا، هما كلمتين على السريع مش هكتر... أنا اليوم ده كنت خارج في مشوار ورجعت على بيت عمي لقيتلك خالي ضايع نازل ضرب في أبويا وعمي وسط أخواتي وأجواز أخواتي، كلنا قومنا نسلك ما بينهم وبعدين خالي ضايع هرب واختفى محدش فينا لحقه.

كان "ضايع" خلف قضبان الحديد، محاطًا بالحنق الثقيل الذي لا يقطع إلا صوت خطوات الحراس بين الحين والآخر. كان يستمع بتوتر إلى شهادة ابن أخيه عليه، الذي ترعرع بين يديه، وكان في يوم من الأيام يعتبره الأمل في أن يحقق له السيطرة. لكن تلك الأيدي التي ربت عليه كانت تعلم أنها ستصنع منه وحشًا عنيفًا، بلطجيًا يزرع الفساد في كل زاوية من هذا المجتمع. كان ضايع يشعر بسُخط في أعماقه، يشتعل كالبركان الذي يحاول أن يخمده الحديد الذي يقيّد حركته. لم يستطع تحمل أن يسمع ما كان يراه خيانة من ابن أخيه، فازداد غيظه. بدأ يوطأ على القضبان الحديدية بعنف، كأنما يريد أن يحرر نفسه من القيود التي تكبله، وفتح فمه ليصرخ في وجه جلال، قائلًا:

_بقى كده يابن أختي؟ ده اللي أنا ربيتك عليه يا زبالة؟ده أنا هدفنك بس لما أخرج! وهاخد حقي منكم واحد واحد! مش ضايع اللي يتعمل معاه كده!

يتبع....

الفصل الثالث

رفع "القاضي" يده فوق خشب المنصة بقوة، فارتد صدى وقعها كصاعقة سكنت أرجاء القاعة، ليكبح صخب "ضايع" الذي دوّى صوته بسخط عارم يهدد "جلال" وأفراد الأسرة جمعاء. وتململ الحضور في رهبة من هيبته، ثم أمسك القاضي بالميكروفون وصاح بصوت يجلجل، مخاطبًا "ضايع" بنبرةٍ لا تقبل العصيان:

_أسكت!

التفت "القاضي" إلى "جلال" بعينين تفيض بالدهشة، وسأله بصوت يختلط فيه الاستفهام والريبة، مستقصيًا عن أصل هذا النزاع الغامض الذي دفع "ضايع" إلى الاعتداء على "المعلم حنفي" و"حسين":

=انتوا إيه اللي وداكم بيت عمك اليوم ده؟

جلال بصدق:كان عمي عامل عزومة عائلية على الضيق كده وعشان هو وأمي مبيحبوش بعض مرضاش يعزمها عشان هتمسك فيه.

أما "أم الديب"، التي كانت تقف خلف قضبان الحديد بجانب أخيها "ضايع"، فقد شدت بيديها على تلك القضبان بقوة حتى كادت تحنيها، وصرخت بصوت يفيض بالمرارة، وكأن صدى صرختها ينذر بما لا يُحمد عقباه، قائلة:

_يا لهوي دهو عيل كداب! الكلام دهو محصلش ده آني وحسين المبق... أقصد حسين أخو جوزي كنا زي السمنة على العسل.

القاضي باستفهام:يعني هي اتضايقت منه علشان كده فقررت تبعت أخوها له؟

جلال بوضوح:لا يا باشا، أمي برضة ست عاقلة ومش هتعمل كده عشان معزمهاش! هي أصلها كانت شاتماه قبل كده وهو كان واخد على خاطره منها.

القاضي بتساؤل:إيه سبب المشكلة القديمة؟

جلال بكذب:أصل كان في خلافات على جهاز العروسة، إكمن ابن عمي متجوز أختي.

القاضي:تمام.

خرج "جلال" من المنصة بخطى هادئة، وتوجه ليجلس بين إخوته، وقد انفرجت أساريره براحة عميقة بعد شهادته التي جردت والدته وخاله من قناع البراءة، مُستعيدًا بذلك حق والده المفقود. كانت "أم الديب" و"ضايع" يرمقانه بنظرات تنضح حقدًا وكراهيةً، كأنما تعهدوا في دواخلهم بردّ الضربة بأشد منها. وفي تلك الأثناء، تقلّب "القاضي" في أوراق القضية بتأمل متعمق، ثم رفع رأسه ليصدح بصوته الهادر، مناديًا على المدعو الثاني:

_اللي بعده أحمد حنفي الديب، اتفضل!

خرج "أحمد" بخطوات متثاقلة من بين إخوته، مُتوجهًا إلى المنصة التي وقف فيها "جلال" من قبل، كان الارتباك يغمره، وعيناه تجولان في أرجاء القاعة بحثًا عن أي طمأنينة وسط عاصفة القلق التي اجتاحت صدره. وبصوت متردد، بدأ حديثه، محاولًا ترتيب كلماته كمن يسير على حبل رفيع فوق هاوية، حيث قال:
=شكرًا، أنا الحقيقة محضرتش الواقعة.
في تلك اللحظة، انتفضت القاعة كأنما وقع عليها صاعقة، واتسعت أعين الجميع دهشةً. تسللت الشكوك إلى قلوبهم، فظنوا أن "أحمد" قد تراجع عن قراره وأنه لن يدلي بشهادته ضد "أم الديب" و"ضايع"، بل سيخضع لما اتفقوا عليه من قبل. مرت لحظات من الصمت المشوب بالترقب، إذ كان "أحمد" يجمع حروفه المتناثرة كحبات عقد انفرط في لحظة خوف. ثم رفع رأسه، واستجمع أنفاسه، ونطق بصوت تملؤه الثقة، بينما تتجه نحوه كل الأنظار في انتظار كلمته الحاسمة:
_ولكن سمعت اللي حصل من باقية أخواتي، بس روحت المستشفى وشوفت أبويا وعمي وكانوا متبهدلين جدًا بعد الضرب اللي خدوه من خالي ضايع، وبعد يومين عمي مات بقهرته بسبب اللي أمي عملته.

القاضي:كنت فين وقت المشكلة؟
أحمد:كنت مسافر مع مراتي وزياد ابن عمي وأختي.
القاضي:تمام.

بعدما طرح "القاضي" أسئلته المتتالية على "أحمد"، أجاب الأخير بصوت هادئ متزن، يحمل بين نبراته رزانة الواثق، حتى انتهى دوره، فعاد إلى مقعده بين إخوته، وقد تبددت من ملامحه بقايا القلق. تصفح القاضي الأوراق أمامه للمرة الثالثة، كأنما يزن الحقائق ويستحضر الحقيقة المخبوءة بين السطور، ثم رفع صوته عبر الميكروفون بنبرة مسموعة، مناديًا على المدعوة الثالثة:
_اللي بعده، هايدي حنفي الديب.

خرجت "هايدي" من بين إخوتها، تتسلل من مقعدها وقد ارتسم الاستياء بوضوح في عينيها، كأنما نالت دموعًا من عينيها قبل قدومها إلى هذه المواجهة. ارتفعت حمرة على جبينها، تكشف عن اضطراب يسكنها، وراحت تخطو نحو المنصة بخطوات مترددة، مُدركة أنها هذه المرة في قلب الأنظار، وأن كل حركة وكل نظرة تحت المجهر. وقفت قبالة القاضي، ذاك الذي عُرف بهيبته الصارمة، ونظرت إلى الأرض بخجل، لبرهة بدت كأنها سراب هارب، ثم جمعت شجاعتها، ورفعت وجهها المثقل بالعبرات، وبدأت حديثها بصوت هادئ يحمل بين طياته صدقها واضطرابها:
=زي ما أحمد أخويا قال إننا كنا مسافرين في شهر العسل ورجعنا أول ما سمعنا الخبر وروحنا المستشفى، كان بابا وعمي تعبانين جدًا.

أكملت "هايدي" حديثها، ومع كل كلمةٍ تنطقها كانت الحقيقة تنجلي كاشفةً عن وجهٍ آخر لأم الديب وأخيها "ضايع". توالت الشهادات من أفواه أفراد العائلة، كلٌّ يروي ما يعرفه من حقائق مزلزلة، كأنما اتفقت قلوبهم

على اجتثاث الباطل وتعرية الزيف. وحين جاء دور "نعمة"، رمقت "أم الديب" بنظراتٍ يغلبها الخوف؛ فالموقف شديد الوطأة، وهي الأقرب إليها من بين الجميع، وتشعر بوخز الحيرة. لم تخطر شهادة "نعمة" في بال "أم الديب" يومًا، فلم يكن يخامرها الشك في ولائها رغم توقعاتها السابقة بشهادة الآخرين ضدها، أما هذه المرة، فقد خفق قلبها برعبٍ، وضجت شرايينها بدماء الذعر. أحكمت قبضتيها على القضبان، تكسو وجهها ملامح الاستعطاف البائس، وهمست بصوتٍ غائرٍ بين شفتين متيبستين، وكأنها تهمس بأملٍ ضئيل لا يكاد يسمع وسط ضجيج الحضور في قاعة المحكمة:

_لا يا نعمة!

ارتبكت "نعمة" أمام ذلك الموقف العصيب، وكأنما الكلمات تتكسر في حلقها ولا تجد لها سبيلًا للخروج. كانت الحقيقة التي كانت تخفيها تتساقط من بين شفتيها بصعوبة، وحروفها تتلعثم في فمها وكأنها تكاد تعجز عن النطق بها. ارتجفت أطرافها، بينما كانت عيناها تلمح إلى "أم الديب"، قالت:

=أنا كنت....

نظرت "نعمة" إلى أخواتها بعينين مشدوهتين، يكتنفهما التردد، وكأنما قلبها ينبض بأوجاعٍ لم تجد لها مفرًا. اجتاحها ارتجافٌ غائر، وارتعشت شفتاها قبل أن تنطق بالكلمات التي كانت تقاومها، وأردفت:

_أنا كنت عند عمي حسين و.....

القاضي:كملي يا أستاذة!

نعمة بتلعثم:كنا معزومين عند عمي حسين ودخل علينا خالي ضايع و.... ومسك أبويا وعمي ضربهم.....

بعد أن انتهت "نعمة" من شهادتها، واستمع القاضي إلى أقوال كل أفراد العائلة التي اجتمعت في شهادتها وتوافقت تمامًا دون أدنى تغيير، عاد الجميع إلى المنزل مثقلين بالصمت، رغم أن وجوههم كانت تعكس نوعًا من الراحة الزائفة. لكن "نعمة" كانت في حالة من الانهيار الداخلي، حين ألقت بجسدها على السرير وكأنها تحاول الهروب من ثقل الحقيقة التي حملتها طوال الجلسة. كانت تنتحب بحرقة، والدموع تتساقط كالشلال، وأنفاسها تتصاعد في صدور متقطعة، كأنها تواجه عاصفة عاتية في قلبها. كان ضميرها يعذبها، يندب قلبها على ما فعلته، على كونها شهدت ضد والدتها التي طالما احتضنتها، لتكون بذلك قد خسرتها للأبد. أما "أم الديب"، فقد عادت إلى سجن النساء، بينما "ضايع" سُجن في مكان أشد قسوة، في سجن العقرب بين المُجرمين، غير أن الحرب الحقيقية لم تبدأ بعد؛ فهي ستنفجر حين يعلن "ضايع" عن هروبه من هذا السجن الذي يعد كابوسًا لا يرحم. في تلك الأثناء، كان "عمر" يبكي في الصالة، يصرخ بشدة، شوقًا إلى حليب والدته التي كانت تعول. حمله "حامد" بين يديه، محاولًا تهدئته بصوت حنون، لكن محاولاته باءت بالفشل. وضعه على الأريكة ثم دخل إلى غرفة "نعمة"، وقال لها بصوت هادئ لكنه يحمل في طياته قلقًا كبيرًا:

_ابنك بيعيط يا نعمة، اطلعي رضعيه!

نعمة بصراخ:مش منيلة حاجة وسيبني في حالي!
حامد بدهشة:كل ده عشان اعترفتي على أمك؟ مش هي اللي كانت مطلعة عينكم؟ طب ده حتى البيت راق، هو كان لازم كل ده يحصل عشان أمك تسيب البيت وتمشي؟
نعمة بسُخط:شكلك شمتان في أمي يا حامد، ولو طلع اللي في دماغي صح مش هيحصلك كويس!
حامد بهزل:الله يسامحك يا نعومي، مش بذمتك كانت ليل نهار مجلجلة البيت بصوتها؟ الله يسامحها بقى كانت حنجرتها قد النفق.

نهضت "نعمة" من على السرير وكأن شجن العالم كله يضغط على كتفيها، وعباءتها مبللة بالدموع التي لم تكف عن النزول، وعيناها غارقتان في حمرة القهر التي استوطنتهما بعد شهادة الأيام القاسية. كانت مصدومة من سخرية "حامد" وتهكمه على والدتها، فانتقلت نبرتها من البكاء الموجع إلى العويل المرير، وتغير وجهها إلى مسرح من السُخط، ثم قالت له:
_يا نهارك أسود ومنيل، إنت بتتريق على أمي؟ مش كانت حلوة وعليها عسل؟ دلوقتي بقيت كخة؟ إخص عليك يا حامد، مليون إخص عليك.

دفعت "نعمة" "حامد" خارج الغرفة بصعوبة، مُحاولة دفع الألم الذي يحاصرها بعيدًا عن وجوده. ثم أغلقت الباب في وجهه بعنف، دون أدنى احترام لمشاعره. ظل "حامد" يطرق الباب بإلحاح، لكن صوت بكاء "نعمة" داخل الغرفة كان يغطي كل شيء، حيث كان نحيب عمر يزداد كلما تصاعد نحيبها. لم يحتمل "حامد" هذا الصخب، فقال من خلف الباب وهو يحاول تهدئتها:
=افتحي يا نعومي، الكلام أخد وعطا... طب ده زمان ليالي مرات أخوكي قلبها بيرقص من الفرحة دلوقتي، ربنا يرزقنا بربع فرحتها دلوقتي.

صرخت "نعمة" في وجه "حامد"، وصوتها كان تعبيرًا عن حزنها ورفضها التام سماع أي كلمة منه، فقد كانت غارقة في بحر من الندم، بينما كان نواحها يتصاعد ويملأ أركان الغرفة. طالبت منه أن يبتعد عن الباب، آملة أن يغادر حياتها كلها. أما "حامد"، في حديثه كان يعتقد أن السجن قد جلب نوعًا من الراحة له ولعائلته، فكان المنزل بعد سجن "أم الديب" مليئ بسكينة غير مألوفة، هدوء لم يعرفوه منذ دخولها إلى حياتهم. كانت الأجواء قد تغيرت تمامًا، وتحولت تلك الجدران إلى ملاذ من السلام.

بينما "ليالي"، فقد لم تتمالك نفسها من الحبور، فالعقل والقلب كانا يتصارعان في داخلها بين الفرح والانتصار، وبين شعور بالذنب والحرج. وأطلقت الزغاريد من أعماق قلبها، مملوءة بالبهجة في صالة شقتها، بين زوجها وابنتها، مُعلنة نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة في حياتهم، وقالت بفرحٍ:
_ولسه الزغرودة الكبيرة لما أمك يتحكم عليها بالإعدام، ياه أنا أول مرة أفرح كده يا جلال!

جلال بتعجب:وانتي إيه ضمنك إنها هيتحكم عليها بالإعدام؟ مش يمكن تخرج منها زي الشعرة من العجين؟

ليالي بخوف:كده بتهبطني يا جلال؟ بدل ما تسيبني فرحانة؟ طب ده أنا الود ودي أوزع شربات على البلد بحالها، بس مش دلوقتي لما نتأكد إن أمك اتحكم عليها.
جلال بسعادة:ياريت يا ليالي، هو إنتي يا بت فكرك إن أنا عاوز أمي تخرج؟ تبقي عبيطة! أنا عايزها تتحبس انشالله يجي عشرين سنة ولا تاخدلها مؤبد وأهو نبقى ارتاحنا منها للأبد... دي من ساعة ما اتاخدت والبيت رايق، أنا مش فاهم ليه أبويا مش عايز يقعد في الشقة! ما هي خلاص مشيت وسابتهالنا مخضرة.
ليالي بحدة:يمكن أبوك لما بيجي هنا بيفتكر الذكريات المهببة اللي عاشها معاها... ده في كل ركن ريحة أمك.
جلال بقهقهة:نرشله معطر بس يجي.

ليالي بضحك:طب بقولك يا جلال أبوس إيديك راضيني! دي فرصة متتعوضش، احنا ننزل مصيف نروق على حالنا كام يوم وناخد نعمة وحامد، وهبة وأشرف، وأبويا وأمي، قبل ما يحصل حاجة ونلاقي أمك طالعالنا من تحت الأرض!
جلال بابتسامة:ماشي يا ليالي عشان عيونك الحلوة، بس نعمة مش هترضى، دي قلبها متقطع على أمي.
ليالي بغبطة:نتحايل عليها لحد ما توافق، والنبي يا جلال!
جلال ببشاشة:ماشي يا ليالي، اطلعي قوليلها وأنا رايح مشوار على السريع.
ليالي بفرح:قشطة يا جلال.

أخيرًا، وبعد الكثير من التردد، وافق "جلال" على السفر مع العائلة، لكن ليس إلى الغردقة كما كان مُقترحًا، فقد كان يعلم جيدًا أنه لا يستطيع تحمل تلك المصاريف الباهظة التي تفوق قدراته المالية، فالفجوة بينه وبين "أحمد" كانت شاسعة، وكل خطوة جديدة كانت تفضح تباين المستوى المادي بينهما. لكن رغم ذلك، كان سعيدًا لأن في ذلك السفر قد يتنفس الجميع قليلًا من ضغوطات الحياة، ولعل تلك الرحلة تكون بداية لنهاية معاناة دامت طويلًا. سعدت "ليالي" بما حدث، حيث ارتسمت على وجهها ابتسامة مغلفة بالفرح، ولم تترك الفرصة تفلت من يدها. بمجرد أن خرج "جلال" مُتجهًا نحو المحامي ليراجع قراره بشأن بيع الشقة، شعرت "ليالي" أن الفرصة قد حانت لتتخذ خطوة أخرى في مخططها. فصعدت إلى شقة "نعمة" بصحبة ابنتها "تقى". أما "حمود"، فكان دائمًا منشغلًا بلعبه مع أبناء الجيران في الشارع، غير مُدرك لما يجري حوله، وعندما طرقت "ليالي" الباب، ارتعد جسد "حامد" فجأة، وأصبح قلبه ينبض بسرعة، حيث شعر بشيء غير مألوف، كأنما هناك أمر ما يلوح في الأفق. اقترب من باب الشقة وسأل بصوت مُكتظ بالريبة:
_مين؟

ليالي بتبسم:أنا يا حامد!

فتح "حامد" الباب ففاجأته "ليالي". كانت ابتسامته تخفي وراءها ارتياحًا غير مرئي، ونظر إليها وقال بابتسامة حقيقية:

_طب والله كنتي لسة في بالي يا ليالي.

ليالي بضحك:ازاي بقى إن شاء الله ؟
حامد ببشاشة:كنت بقول يعني إنك زمانك طايرة من الفرحة.
ليالي بابتسامة:واد فهيم برضة، أيوه أنا فرحانة وطايرة من الفرحة، بس أوعى تقول كده قصاد نعمة لا تزعل! دي مهما كان أمها برضة.
حامد ببسمة:معلوم، هو حد يقدر يتكلم معاها تاني؟ طب دي حتي مقموصة مني عشان أمها.
ليالي بترقب:طب بقولك، إيه رأيك نطلع كلنا مصيف نغير جو؟ وأهي فرصة بما إن حماتي محبوسة.
حامد بلهفة:ياريت، ده الواحد زهقان زهق، شوف بقالنا قد إيه عايشين في مشاكل وحوارات.
ليالي بسرور:طب خلاص اقنع نعمة معايا إننا نسافر.
حامد بابتسامة:من عينيا الإتنين، أدخلي وخبطي عليها!

دخلت "ليالي" الشقة، كأنها نسائم النهار التي تخللها خيوط الشمس، فطرقت باب نعمة، تلك الطقوس التي ترددها الأرواح في لحظات الانتظار، وصوتها يتنقل بين جدران الشقة، يناديها بنداءٍ يعبق بالأمل:
_افتحي يا نعمة، أنا ليالي!

عندما علمت نعمة أن الطارق ليس حامد، بل هي "ليالي"، نهضت من سريرها فجأة، كما لو أن وقع الخبر قد زلزل أعماقها، ومسحت دموعها المخبأة في ثنايا قلبها بكم جلبابها البالي، ثم اقتربت من الباب بيد مرتعشة، فتحت لها بالمفتاح، وقالت بصوتٍ غارق في المرارة، ووجهها قد تكلله العبوس:
=خُشي يا ليالي.

ليالي بتبسم:أنا مش هدخل في حتة! تعاليلنا إنتي في الصالة! عايزينك احنا الاتنين!
نعمة بقلق:انتوا الإتنين؟ ليه في إيه؟
ليالي بإلحاح:تعالي بس هتعرفي!

جذبت ليالي نعمة من يديها برفقٍ، كأنما هي حبل أملٍ يشدّها من هاوية الألم، وجلست معها على الأريكة، بينما كان الرضيع عمر قد غفى أخيرًا بعد بكاءٍ طويلٍ، قد أرهق صوته جدران الشقة، فألقى "حامد" نظرة عليهما، ثم أضاف بابتسامةٍ لا تخلو من الأسى:
_طب هعملكم حاجة تشربوها.

ليالي:لا متعملش حاجة، هما كلمتين مش هطول.
حامد بتقدير:ازاي بس؟ ميصحش، ده إنتي في بيتنا.
نعمة بصخب:في بيتي أنا، متجمعش!

حامد بمزاح:بقى لسه زعلانة مني يا نعومي؟
ليالي بجدية:بُصي يا نعمة.

كانت نعمة لا تزال غارقة في مستنقع الاستياء، تلك الجراح التي أثخنت قلبها، بعدما أصبحت والدتها وراء جدران السجن، بعدما كانت تبيت في منزلها في أمانٍ، وكأنما قد سلب منها السكون الذي طالما عاشت فيه. أما ليالي، فبدأت تتحدث بطريقة غير مباشرة، كأنما تُسدل الكلمات بلطفٍ وتُدرجها بين سطور حديثها دون أن تفتح الموضوع كله دفعة واحدة. مررت يداها برفق فوق جبين المولود، بينما هي تروي لنعمة ما يدور في خاطرها، وفي ذات اللحظة، دخل حامد إلى المطبخ بحركة هادئة، ملأ البراد بالماء، ثم وضعه فوق النيران المُشتعلة على الموقد، ليعد لهما أكواب الشاي التي يحمل فيها عبق الدفء، وهو ينصت باهتمام لأحاديثهما التي تتسرب عبر أرجاء الصالة. كانت جميلة، تلك المرأة المعتادة على ترك بناتها لدى أم قمر الدين، ولكن بعد أن تزوجت هايدي، بدأت تتركهن عندها وقت عملها، كما لو أن الزمن قد أخذ منحنى جديدًا في حياتها. كان أحمد وجميلة في طريقهما إلى المصعد الكهربائي بعد فترة قصيرة في البرنامج التلفزيوني، يتبادلان الحديث برفق بينما المصعد ينقلهما بين الطوابق. جميلة كانت متألقة في زيها الرسمي، الحقيبة الصغيرة في يدها كأنها رمز لأناقتها، وكعبها العالي يخطو بثقة على الأرض، بينما كان أحمد يرتدي بدلة كحلية بسيطة، مكمّلة برقة القميص الأبيض. في خلفية المشهد، كانت موسيقى المصعد الهادئة تخلق جوًا من السكينة، فأخذت "جميلة" تنظر إليه، ثم قالت بصوتٍ هادئ، ممتلئ بالتساؤل:
_يعني لسه مفيش جديد في القضية؟

أحمد:احنا كلنا شهدنا عليها، بس مقولكيش خالي ضايع كان بيبصلنا بغل من ورا الحديد كأنه مستحلفلنا! بس كل ده مأثرش فيا ولا هزني!
جميلة بقلق:أنا كده قلقت أكتر، خايفة يعرف مكان الـ Nursery بتاعة سيليا ويعمل حاجة!
أحمد بامتعاض:ده أنا مش هيكفيني فيه قتله! ولا يقدر أصلًا! معتقدش إنه هيخرج منها.

وصل المصعد الكهربائي إلى الطابق المطلوب، فخرج أحمد وجميلة منه، وكأن الصوت الحاد لكعب جميلة الذي يرن على الأرض هو إيقاع يعزف على أوتار السكون، هيئتها المثيرة للإعجاب تضفي عليها طابعًا من الجاذبية التي لا تخطئها العين. كانا، رغم سنوات العمر والزواج والإنجاب، لا يزالان يظهران كأنهما في أوج خطبتهما، حيث لا يتسرب إلى وجهيهما أي أثر للتغيير، وكأن الزمن قد اختار أن يتوقف عند لحظة معينة. ثم طرق أحمد الباب بلُطف، ففتحت "هايدي" الباب لهما، مرتديةً بيجامتها البسيطة. كانت أنوار شقتها موصدة، لا تتسلل منها سوى أشعة الشمس التي تغسل الأثاث بهدوء، وكأن المكان يحتفظ برحابة السكون. احتضنت هايدي أحمد بحفاوة، ثم جميلة، وقالت لها بابتسامة حانية:
_تعالي يا جميلة.

جميلة بفضول:البنات فين؟

هايدي بجذل:ناموا، لعبنا شوية مع بعض، وأكلتهم، ونيمت أسيل وشوية وسيليا دخلت تنام هي كمان.
أحمد:طب أنا هدخل آخدهم أوديهم شقتنا.
هايدي برفض:لا لا سيبهم براحتهم لحد ما يصحوا وهما يبقوا يجوا! وبعدين ياريت نقضي اليوم مع بعض، محتاجين نقعد مع بعض كتير الفترة دي!

لكن "جميلة"، التي لم تجد في هيئتها ما ينسجم مع هذا اللقاء الذي يستدعي التغيير، قررت أن ترجع إلى شقتها لتبدل ثيابها، فتغسل وجهها عن مكياجها الذي كان يشوه البراءة، ثم تعود لهايدي، وقالت بابتسامة:
_أوكي يا هايدي، طب أنا هروح أغير وهرجع تاني!

هايدي ببسمة:ماشي مستنياكي.

عندما عادت جميلة إلى شقتها، كانت أنفاسها تتسارع، وكأن كل خطوة تخطوها نحو داخل منزلها هي لحظةٌ تحاول فيها أن تخلع عن نفسها أعباء اليوم الثقيلة التي كانت قد بدأت منذ لحظة مغادرتها النادي، حيث وضعت طفلتيها في أمان عمتهما، ثم تابعت حياتها بتلك الوتيرة السريعة مع أحمد، ذاهبةً معه إلى العمل، لتعود أخيرًا إلى منزلها. بينما كان "أحمد"، جالسًا على الأريكة، تائهًا في تأملاته العميقة، عينيه تتنقل بين زوايا الصالة، كمن يبحث عن شيء مفقود في الأركان، في حين أن عقله كان يسبح في عالمٍ من الخيالات البعيدة عن الواقع، أما هايدي، فقد جلست بجوار أخيها، فسألها أحمد بصوتٍ هادئ:
_زياد فين؟ مشوفتوش يعني.

هايدي بتَرح:زياد في الحمام بياخد شاور، من ساعة وفاة عمي حسين وهو مش متظبط ودايمًا قاعد لواحده بيفكر، مش عارفة هو ناوي يوصل لإيه!
أحمد باستياء:ماهو اللي حصل مش هين! زياد كان متعلق بعمي أوي، مكنش ليهم إلا بعض، يجي في آخر أيامه يتهان ويتضرب من كلب زي ضايع؟ طب والله ده حلال فيه القتل.
هايدي بتأثر:حتى بابا مبقاش مستحمل، أبقى إتصل إطمن عليه!
أحمد:أنا كده كده كنت ناوي أكلمه.

استخرج "أحمد" هاتفه من جيب بنطاله بحركةٍ معتادة، ليجد نفسه في لحظةٍ تتطلب التواصل، فرفع الهاتف إلى أذنه واتصل بالمعلم حنفي، ثم سأل بابتسامةٍ مرسومة على شفتيه، تكتنفها نبرة من الإحسان:
_ألو يا حبيبي، عامل إيه؟ طمني عليك!

بعدما فاتحت ليالي "نعمة" في موضوع السفر، كان الاعتراض هو أول رد فعل ينطلق من قلب نعمة المكلوم، فهي لم تستطع أن تجد في نفسها القدرة على الاستمتاع بمغريات الحياة بينما والدتها ملقاة وراء قضبان السجن،

وحبست روحها في مأساة لا يمكن تجاوزها، فصاحت فيها، وهي لا تستطيع كبح مشاعر الشجن، قائلة باعتراضٍ حاد:
_انتي عبيطة يا ليالي؟ تبقى أمي مسجونة واحنا رايحين نتفسح؟ ماهي لو أمك اللي اتسجنت كان زمانك مقطعة نفسك من العياط علشانها، لكن إنتي ولا فارق معاكي!

ليالي:الله يسامحك يا نعمة، أنا بعمل كل ده علشانك.
نعمة بسخرية:علشاني ازاي؟ قولي علشانك انتي! علشان جميلة من ساعة ما سافرت وانتي هتموتي وتعملي زيها وأول ما أمي اتسجنت جاتلك الفرصة عشان تعملي اللي إنتي عاوزاه.
ليالي بوضوح:علفكرة أنا مش فرحانة في أمك! أنا مضايقة من المشاكل اللى بتحصل، عايزين نفصل شوية! وانتي كمان لازم تفصلي وتروقي دمك، يا عالم ما يمكن أمك تخرج منها، هو احنا خلاص يعني عرفنا المستقبل؟

حامد بإلحاح:يا نعمة اسمعي كلامنا، ده احنا بقالنا سنين على الهم ده! والسنة قبل اللي فاتت مكنتش سفرية مظبوطة، كانت كلها هم ومشاكل، نسيتي ولا أفكرك؟
نعمة بتعاسة:ده مش وقته يا حمو، أقصد يا حامد.
حامد بزهزقة:يبقى لسه زعلانة يا نعومي، على العموم فوقي لنفسك وافرحي، احنا هنعيش حياتنا مرة واحدة!
ليالي بإصرار:افرحي وفرحينا يا نعمة! العيال مخنوقين ونفسهم يخرجوا!
نعمة باعتراض:اخرجوا لواحدكم، أنا مش رايحة معاكم.
ليالي ببشاشة:والفسحة عمرها ما تبقى فسحة من غيرك، إنتي اللي بتحلي أي حاجة.

صمتت نعمة، والكلمات قد تاهت بين حنايا قلبها، ولم ترد على ما طرحته ليالي، فارتسمت على وجه الأخيرة بهجةٌ، ظنت في صمتها موافقة ضمنية، كما لو أن الصمت كان جوابًا لا يحتاج إلى تفسير. فرفعت "ليالي" حاجبها، وتألقت ابتسامتها في وجهها، ثم قالت بتهلل:
_السكوت علامة الرضا، يبقى وافقتي، هكلم هبة وأقولها هي كمان.

استغلت ليالي سكون نعمة وحالة الصمت التي غلفت الشقة، فأخرجت هاتفها بسرعة من جيب عباءتها، وتوجهت بمكالمتها إلى هبة وأشرف لإطلاعهم على رغبتها في السفر، متفائلةً بعرض فكرتها عليهم. لم تتردد هبة في الموافقة، بل رحبت بالفكرة فورًا، وأعربت عن حماسها لما سيتحقق من استمتاع، بينما أكدت عم سلامة تأييده لهذا القرار. أخيرًا، أصبح السفر أمرًا حتميًا، في غياب أم الديب التي طالما قيدت أفراحهم، وتسبب شرها في تأجيل لحظات سعادتهم. أما صابر، الذي كان يعمل في دول الخليج، فكانت حياته تدور حول كسب المال من شركات النفط، بهدف تحقيق حلمه في الزواج بسهولة، إضافة إلى مساعدة والده في تطوير المزارع التي كانت تشكل عماد قوت الأسرة. في المقابل، في مقهى أبو حلاوة، حيث كان المكان يغص

بالزوار من محبي كرة القدم الذين كانوا يهتفون بحماسة أمام الشاشة الضخمة التي تبث المباراة، جلس جلال برفقة المحامي، يحتسيان الشاي واليانسون المغلي في جو من الصخب. وبينما كانا يتبادلان الأحاديث، قال "المحامي":
_مفيش حل غير إنك تستغل غياب أمك وتقلب الشقة على عقد البيع.

جلال بارتياب:ويفرض أمي مش حاطاه في الشقة؟ هجيبه منين؟
المحامي:جرب، إنت خسران إيه؟
جلال بقلق:مش عارف، بس حاسس إن أنا هتعب نفسي على الفاضي.
المحامي:زي ما تحب، بس لو عايز تبيع البيت ممكن أخلصلك الحوار ده كله في ساعة زمن.
جلال:طيب أنا هقوم وأخلص الحوار ده.
المحامي:أبقى طمني!

نهض "جلال" من على الكرسي، بعدما فرغ كوبه من الشاي الذي كان قد ارتشفه ببطء، وكأنه يود أن يطيل لحظة الهدوء التي منحته إياها تلك الرشفات. قام بتعديل قميصه، وصافح المحامي بحرارة، ثم قال بصوتٍ عالٍ وهو يغادر المقهى:
_سلامو عليكو.

المحامي:وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

أنهى المحامي مشروبه في هدوء، ثم غادر المقهى مُتوجهًا إلى مكتبه. كان "جلال" قد استعان بهذا المحامي الصغير المتخصص في المشروعات والأراضي الزراعية، الذي كان يسهل عليه التواصل معه في أي وقت. بعد مغادرة المحامي، ركب جلال التوك توك الذي كان ينتظره أمام المقهى، واتجه به نحو منزله في حالة من الترقب. حين وصل، خرج بسرعة وصعد إلى شقة أم الديب، وهو على يقين بأنها لن تكون موجودة في تلك اللحظة. بدأ يبحث في أرجاء الشقة، وكأن الأمل يملأ قلبه في العثور على عقد المنزل، ليغلق أحد الملفات العالقة في حياته:
_يارب ألاقيه وأخلص بقى.

بعد ربع ساعة من البحث المتواصل، اكتشف جلال بلاطة مفكوكة من مكانها في البلاكونة. رفعها بحذر، ليجد ورقة مخبأة تحتها. فامتلكته مشاعر الانتصار، وكأن اكتشافه هذا قد جاء ليزيل عن كاهله همًا طالما أثقل عليه. أخذ الورقة بين يديه، نظر إليها بتركيز، ثم ابتسم ابتسامة مليئة بالثقة وهو يشعر بأنه اقترب خطوة من تحقيق مراده، وقال:
_هو ده الكلام.

فتح "جلال" الورقة بسرعة، ليكتشف أنها عقد البيع الذي كان يبحث عنه. ارتسمت على وجهه ابتسامة واسعة، وكأن عبئًا كبيرًا قد زال عن قلبه. شعر بشعور من السرور وهو يمسك بالعقد بين يديه، وقال:
_أخيرًا؟ ده أنا طلع عيني عشان ألاقيك، الحمدلله يارب إنك أنقذتني.

أخرج "جلال" هاتفه من جيب قميصه، وأجرى الاتصال بالمحامي بينما كان يخرج من الشقة ويغلق الباب خلفه. نزل على الدرج بسرعة، وكل لحظة تأخير قد تؤثر على ما هو قادم. وعندما أجاب المحامي على الاتصال، قال جلال له بنبرة حازمة:
_بقولك، أنا لقيت عقد البيع، أجيلك فين؟

خرج جلال من المنزل وهو في حالة من الترقب، يتواصل مع المحامي عبر الهاتف. ركب التوك توك واتجه به نحو مكتب المحامي ليريه عقد البيع، ويقررا معًا الخطوة التالية قبل أن تخرج أم الديب من السجن في أي لحظة. كانت تلك اللحظات حاسمة، والجميع على أهبة الاستعداد لما سيحدث. بينما في شقة زياد، كان أحمد لا يزال مشغولًا بالحديث مع المعلم حنفي عبر الهاتف، بينما كانت هايدي بجواره، تمسك هاتفها وتنصت بعناية لما يدور من حديث. في الجهة الأخرى، كان المعلم حنفي مُستلقيًا على سرير حسين رحمه الله، لا يقوى على مغادرة المنزل، بينما كانت آثار التعب ما زالت جلية على جسده. بدأ يتلاشى الألم تدريجيًا، لكن مع ذلك كانت الجروح العميقة ما زالت تحتفظ بأثرها. عندها قال "أحمد" بحزم:
_ما تيجي يا بابا تقعد معانا يومين بدل قعدتك لواحدك!

المعلم حنفي باحتجاج:لا آني مش هسيب بيت عمك حسين الله يرحمه، هفضل فيه لحد ما أحصله.
أحمد بحزن:بعد الشر عليك، متقولش كده تاني! ربنا يديك طولة العمر ويخليك لينا.
المعلم حنفي بقهر:وهو الفاضل من العمر هيكون أكتر من اللي راح؟
أحمد بأمل:لا يا بابا عشان خاطري بلاش الكلام ده! احنا كلنا بنحبك وعايزينك وسطنا، متحرمناش من قربك لينا!
المعلم حنفي بابتئاس:بعدين، لما المزاج يروق.
أحمد بابتسامة:وهيروق امتى؟
المعلم حنفي بتبرُّم:عمره ما هيروق، آني مش مصدق إن حسين مات، ياه يا حسين ياخويا يا غالي مكنش لينا غير بعض... سابني ومشى على فجأة، ملحقتش أودعه.
أحمد بجوى:ربنا يرحمه ويغفر له، عمي حسين كانت كل الناس بتحبه، عمره ما زعل حد منه أبدًا وكان دايمًا بيجبر بخاطر كل الناس...هي الدنيا كده تاخد الحلو وتسيب الوحش.
المعلم حنفي بتأوه:زي ما خدت أخويا وسابت أمك، حسبنا الله ونعم الوكيل فيكي يا بسمة، نفسي أشوفك متقطعة قصاد عينيا عشان قلبي يرتاح على اللي عملتيه فينا!
أحمد:اللي ظلم مصيره يتظلم! وماما وخالي لازم ياخدوا عقابهم ويعرفوا إن الله حق!
المعلم حنفي:وحتى لما ياخدوا عقابهم، عمك مش هيرجع، عمك خلاص راح!

أحمد بتبسم:شوفت بقى إن حالتك النفسية صعبة؟ علشان كده بقولك تعالى أقعد معانا، على الأقل نهون على بعض اللي حصل.
المعلم حنفي:لو كنت عاوز آجي عندك، كنت روحت عند أخواتك هما الأقربلي، لكن آني مش عاوز أروح في حتة، آني عاوز أفضل في مكاني!
أحمد ببشاشة:خلاص يا بابا أنا هسيبك على راحتك، بس اعمل حسابك كل يومين هتلاقيني عندك بطمن عليك!
المعلم حنفي بحزن:تنور يابني.

بينما كان "أحمد" يتحدث مع والده، لاحظ حركة هايدي التي أشارت له بأنها ترغب في مواصلة الحديث مع المعلم حنفي. فهم أحمد إشارتها على الفور، وأشار برأسه موافقًا قبل أن يلتفت إلى والده، ثم قال:
_بنورك يا حبيبي، هايدي عايزة تكلمك.

أخذت "هايدي" الهاتف من يد أحمد، وأكملت حديثها مع المعلم حنفي، محاولَةً أن تبث فيه بعض الطمأنينة. ثم قالت له بحنان، متعاطفة مع حالته:
_ألو يا بابا، عامل إيه؟ طمني عليك!

المعلم حنفي بأسى:بخير، إنتي عاملة إيه إنتي وزياد؟
هايدي بابتسامة:الحمدلله.

تبادلت هايدي الأحاديث مع والدها، محاولَةً إخراجه من ظلمات الحزن والغرق في لُجج الشجن إلى نور النسيان الذي لا يعكر صفوَه الزمن، فالحياة، رغم قسوتها، لا تتوقف عن مسيرتها. ستستمر، ولو كانت على غير أفضل حال. فكل شيء في الحياة يبدأ صغيرًا في الحجم، ويتسع مع مرور الأيام، إلا النسيان، فهو وحده الذي يتقلص ويتضاءل حتى يختفي، كأنما يذوب في عتمة الماضي. أما هم، فلم يكن في أيديهم من حيلة سوى التفويض، التفويض لله أولًا، ثم للقضاء الذي سيقتصّ من المذنبين، لتكون العدالة هي الكلمة الأخيرة. ظلّ خبر السفر ينتقل بين الألسن حتى بدأ العزم يتفاقم، فتهيأت العائلة لهذه الرحلة المُنتظرة، وبعد أيام قليلة، همّت النساء بتجهيز حقائبهن، وانطلقت السيارة التمناية مع جلال الذي كان معروفًا ببراعته في القيادة، فمقدامًا كان في السيطرة على المسار، متقنًا فنون الطريق. في مقدمة السيارة، جلس جلال وأشرف، وفي المنتصف جلست نعمة، وليالي، وهبة، أما في الخلف فجلس عم سلامة وتباهى حاملين الأطفال على المقعد الأخير. انطلقت السيارة في وقت مُبكر، قبل أن يطلع ضوء الشمس، لتصل العائلة إلى راس البر في الساعة العاشرة صباحًا. خرج الجميع من السيارة، وتوجهوا إلى العمارة المصيفية، حيث استأجر أشرف شقتين متجاورتين تطلان على البحر، بمسافة متوسطة تحافظ على جمال المشهد دون إغراق في التفاصيل. نظر الجميع يمينًا ويسارًا، وقال "أشرف" بدهشة:
_ما شاءالله، الشقة زي اللي في الصور بالمللي، مختلفتش عنها في حاجة.

المالك:احنا دايمًا عندنا مصداقية، والحمدلله شغالين كويس جدًا أربع شهور الصيف.
جلال بإعجاب:الله ينور، مش ناوي تنزلنا في سعر الشقة؟
المالك باعتراض:أنا نزلتلكم من تمنها متين جنيه، إنت عارف كده هيبقى خسارة ليا لو نزلت أكتر من كده!
حامد برفض:لا ينزل فيها إيه؟ ده سعرها لُقطة الله يباركلك.
جلال بصياح:جرا إيه ياض هو إنت هتلغي وجودي ولا إيه؟

تضايق "جلال" من تدخلات حامد، مستشعرًا في أعماقه أن كل كلمة يصدرها حامد كانت بمثابة محاولة لإلغاء وجوده وكأنما يحجب عن الأنظار بصمته الفعّال. ولم يستطع جلال أن يظل مكتوف اليدين أمام هذا الاستفزاز الذي يمس كرامته. فخرج صوته عاليًا، ثم توجه إلى المالك، معبرًا عن رغبته في استئجار الشقة، لكنه لم ينس أن يذكر شرطه الحاسم: أن يكون السعر في أدنى حد ممكن، قائلًا:
_لا بقولك إيه يا عمهم لو منزلتش من تمنها وربنا آخد الجماعة وأمشي وهتبقى خسران شقتين!

المالك بهدوء:مش كده يا أستاذ جلال، الكلام أخد وعطا، الأمور متتاخدش قفش كده!
ليالي:أصبر بس يا جلال! دي بـ ٤٠٠ جنيه في الليلة، عاوز إيه أكتر من كده؟
جلال بجلبة:لما الرجالة تتكلم، الحريم تتكتم!

خافت ليالي من رد فعل جلال، فاستشعرت في أعماقها أن سكوتها هو الأنجع، تاركة إياه في قناعاته الجامدة التي ترى أن تدخل النساء في أحاديث الرجال أمرًا مستهجنًا، كأنما يلامس حدود محرمات لا ينبغي تجاوزها. وبالرغم من كل ذلك، لم تجد سوى الصمت ملاذًا لها، في حين واصل "جلال" حديثه بثبات:
_بُص يابا! شكلك مش عارف أنا مين! اسأل في أي حتة وهما هيقولولك جلال الشبح اللي مفيش أشبح منه!

المالك برفض:مينفعش اللي إنت بتقوله ده! أنا نزلت متين جنيه، هنزل إيه أكتر من كده؟

رفض المالك أن ينخفض السعر أكثر من ذلك، فرفع نظره إلى الرجال الصامتين الذين كانوا يتبادلون نظرات غير مرئية بعيدًا، كأنما يراقبون ما سيؤول إليه الأمر، ثم، وبتعبير وجهه الذي بدا وكأنما يضيق به الصبر، قال "المالك":
_ما تقولوا حاجة يا أساتذة!

جاء أشرف وعم سلامة سريعًا إلى حيث الصوت المرتفع، كأنما يستشعران أن هناك أمرًا ما يتصاعد. اقترب "أشرف" من المالك، فجره بعيدًا عن الأنظار بهدوء، حيث راح يربت على كتفه وكأنما يخفف عنه التوتر. همس في أذنه بصوت خفيض، ثم سأله بحذر:
_إيه المشكلة؟

المالك:أستاذ جلال عاوزني أنزله تاني في سعر الشقة، وأنا كده هبقى خسران أكتر من اللي خسرته.
أشرف:طيب بص، إنت بما إن اليوم عندك بـ ٦٠٠ جنيه يعني المفروض تاخد مننا في خمس أيام، تلات آلاف جنيه من الشقة الواحدة، يعني قول إن الشقتين بست آلاف جنيه.
المالك:تمام.
أشرف:بص، إنت هتقول إنك نزلت ٤٠٠ جنيه لكل شقة وأنا هدفعلك الباقي من معايا، أصل جلال ده عقله صغير واحنا كلنا دايمًا بناخده على قد عقله.
المالك بخور:يا أستاذ مينفعش، ماهو ممكن يعرف كده!
أشرف:لو حصل أي حاجة أنا المسئول، تمام؟
المالك بإتفاق:اللي تشوفه.

بعد الاتفاق الذي تم بين "أشرف" ومالك العمارة بصوت خافت، عادا إلى جلال، الذي كان ما يزال غارقًا في تفكير ساخط. ابتسم أشرف ابتسامة هادئة، تحمل في طياتها نوعًا من الرضا، كمن وجد الحل وسط العواصف. ثم قال له بنبرة مطمئنة:
_أستاذ محمود نزل ٤٠٠ جنيه، مبسوط كده يا جلال؟

جلال بموافقة:إذا كان كده ماشي.

هدأ "جلال" بعد الاتفاق الذي أزال الكثير من توتره، فاستعاد بعضًا من هدوئه الذي فقده في لحظات الانفعال. نظر إلى حامد، الذي كان يقف جانبًا في صمت، ثم قال له بنبرةٍ تحمل في طياتها العزم على استئناف المهام:
_تعالي معايا يا حامد نطلع حاجتنا!

حامد باستعداد:يلا بينا.

نزل "جلال" وحامد معًا، يحملان الحقائب بيديهما، وكأن كل خطوة نحو الشقة تقترب من فصل جديد في الرحلة. ثم صعدا إلى الشقة التي كانت مكدسة بمستلزمات العائلة، حيث امتلأت كل زاوية بأغراضهم التي تشرح تفاصيل حياتهم. أخرج جلال المال من جيبه، وقام بتعداد الأوراق بحذر، ثم نظر إلى المالك، وقال له:
_كده معاك ألف جنيه يا معلم.

المالك:ماشي يا باشا.

استلم "المالك" الأموال بيدين ثابتتين، وبدأ في عدها ببطء، ليتأكد من كل رقم كما لو كان يحرص على أن لا يفوته شيء. وعندما تأكد من صحتها، رفع وجهه بابتسامة خفيفة، مليئة بالاطمئنان، وقال بهدوء:
_كده مظبوط.

جلال بتعجب:وانت إيه يا عم أشرف، مش هتدفع؟

أشرف بابتسامة:أه هدفع طبعًا.

أخرج أشرف ألف جنيه من محفظته، وأعطاها للمالك بكل هدوء، كأنه يطوي صفحة أخرى من الإجراءات. بدأ "المالك" في عد المال، وعيناه مركّزتان على الأوراق بحذر، ليضمن أن كل شيء في محله. وبعد أن تأكد من صحتها، رفع رأسه وقال بابتسامة ترحيبية:
_كده مظبوط، نورتونا.

أشرف بتبسم:الله يخليك.

خرج المالك، وتبعه "أشرف" بهدوء، حيث كانت خطواتهما تتسارع قليلًا حتى اختفيا عن أنظار جلال. حينها، وأمام غيابهم عن الساحة، أخرج أشرف باقي المبلغ من محفظته، وأعطاه للمالك في خفة، كمن يود أن يُنهي الأمر دون إثارة انتباه أحد. ثم قال له بنبرة سرية:
_كده تمام؟

المالك بتوقير:تمام يا أستاذ أشرف، والله إنت الوحيد فيهم اللي بتفهم.
أشرف بتبسم:حبيبي.

غادر المالك بخطوات سريعة، تاركًا وراءه فراغًا ملؤه الصمت، بينما دخل أشرف الشقة بخطى متأنية، عازمًا على حمل حقائبه وتنظيمها. توجه بها إلى الشقة المجاورة، حيث كانت نعمة وليالي وزوجاهما وأطفالهما قد استقروا، في حين كانت هبة وأسرتها مع والديها في شقة أخرى. كانت الصورة تتشكل شيئًا فشيئًا، لتكتمل تفاصيل الرحلة. ولكن، ومع كل خطوة، كان من الواضح أن تدخلات جلال، التي كانت قد أثارت بعض التوترات، لن تمر دون أن تترك أثرًا.

يتبع....

الفصل الرابع

بعد أن استقر كل منهم في شقته، واختاروا الغرف التي تفتقر إلى ما تحفل به العمارات الحديثة من رفاهيات، كان هذا المكان البسيط يكفيهم ويزيدهم دفئًا، إذ التفُّوا كعائلة واحدة؛ فانبعثت في قلوبهم أحاسيس أخّاذة، تغمرهم بسكينة لم يحلموا بها في أرقى الأبنية. كانت نعمة تحاول تهدئة طفلها عمر الذي تعالت صرخاته كأنما يناجي سكينة لا يجدها، فتميل به يمنة ويسرة بين ذراعيها، تتنقل به في الغرفة التي ألبسها الظلام ثوبًا من الصمت، حتى دخلت "ليالي" بغير أن تنبس بكلمة، وكأنها تُسدل ستار الطمأنينة على المشهد، فالتفتت نحوها وهمست لها:

_عمر نام؟

نعمة بإرهاق:أيوه نام، ده مغلبني، صاحي طول الليل بيعيط، ده أنا منمتش إلا ساعتين على بعض.
ليالي:طب حطيه وشغليله المروحة، الجو حر في الأوضة دي!
نعمة:طيب ماشي.

وضعت نعمة طفلها برفقٍ على السرير، كأنها تضع قلبها ليخلد إلى راحته، ثم أوصدت الباب للمنتصف، غير راغبة في أن تقطع تمامًا صلتها به، وخرجت بصحبة ليالي إلى الشرفة. هناك حيث البحر يظهر من بعيد كمرآة سماوية تزينها زرقة الأحلام، كان مشهده كالسحر يبعث في أرواحهم فرحة تتفتح كنبات يروي نفسه من قطرات الأمل. وفي حين نزل جلال وحامد يتجولان سيرًا على الأقدام، يستكشفان المنطقة لدقائق معدودات، جلست "ليالي" ونعمة على تلك الكراسي البلاستيكية البسيطة، التي باتت عروشًا من فرح، ثم بادرت ليالي بفرحة تنبض في كلماتها وقالت:

_شايفة الحلاوة والجمال؟ بقى بذمتك القاعدة هنا ولا قاعدة البيت؟

نعمة ببؤس:قاعدة البيت أرحملي، مانتي مش عارفة أنا فيا إيه ولا إيه!
ليالي بفرح:يا بت بطلي هبل بقى وطلعي الكلام ده من دماغك! ده هما يومين وعايزين نستغلهم صح، طب أقولك؟ ده جلال مجهزلنا أكلة سمك إنما إيه على كيف كيفك وهيجيبلنا جمبري كمان! أنا أه عمري ما دوقته بس بيقولوا طعمه حلو أوي... فكي بقى يا نعمة!

عاد "جلال" وحامد وأغلقا باب الشقة خلفهما بإحكام، تاركين وراءهما ضجيج العالم بأسره، ثم اتجها نحو الشرفة حيث الأفق المفتوح يناديهما بعذوبة. وقف جلال يتأمل مشهد البحر المتألق في البعيد، ذلك الامتداد الأزرق الذي يملأ النفس راحة، فابتسم بعمق، ثم قال بملء استمتاعه المتدفق:

_يا سلام على منظر البحر من بعيد، شايف ياض؟

حامد بسعادة:أمال؟ بس حاسس إنها المرة دي هتبقى سفرية الهنا عشان حماتي مش معانا.
ليالي بتمني:يسمع من بوقك ربنا يارب.

تأملت "ليالي" وجه جلال وقد انعكس عليه بريق البحر البعيد، وكأنها ترى في عينيه انعكاس أحلامها المتوهجة، ثم بادرت بحماس يشع من كلماتها، قائلة:
_يلا يا جلال خُش غير عشان ننزل البحر!

ثم التفتت "ليالي" نحو نعمة وقد ملأتها مشاعر الغبطة العارمة، وفرحتها لا تسعها، فأردفت بنبرة يغمرها السرور:
_يلا يا نعمة!

ثم انحنت نحو الأطفال، وقد غمرتها موجة من الحنان وواصلت حديثها لهم:
_يلا يا عيال!

جلال بإرهاق:مش أرتاح الأول يا بت؟ ده المشوار كان ابن كلب.
حامد:خلي جلال يرتاح شوية عقبال ما آخد أشرف ونروح نشتري الفطار.
ليالي:خلاص ماشي.

خرج حامد من الشقة بخطوات ثابتة، تتبعه ليالي مُسرعةً نحو الشقة المجاورة حيث كان صوت أختها ووالديها يناديها بدفء العائلة. أما "جلال"، فجلس مكانها على الكرسي، وقد ظهرت على ملامحه دهشة غامضة، وهو يتابع خطواتها بنظرة تملؤها التساؤلات. لم يستطع كتم استغرابه، فناداها بصوتٍ يحمل تعجبًا:
_رايحة فين يا بت؟

ليالي بتبسم:هنده أمي وهبة وأبويا عشان نفطر كلنا سوا.

غادرت ليالي الشقة واتجهت إلى شقة والديها، حيث استقبلتها هبة والأسرة بابتسامات دافئة بعدما غيروا ثيابهم متأهبون لمصيف عائلي ممتع. وفي تلك الأثناء، كان الأطفال يمرحون في الصالة أمام جلال، يملؤون المكان ضحكات بريئة كأنها ترنيمات فرح. خرج "جلال" من الشرفة بعد أن امتلأت روحه بنسيم البحر، ونادى طفله حمود بنبرة حانية:
=واد يا حمود!

حمود بتبجيل:إيه يابا؟
جلال بتحذير:أنا داخل أريح ساعة، محدش يوجع دماغي!
حمود بابتسامة:طب بقولك يابا.

جلال بإنهاك:إيه؟
حمود بنَهَم:ما تجيب خمسة جنيه أجيب كيس شيبسي ليا أنا ومحمد!

أخرج "جلال" ورقة الخمس جنيهات من جيب بنطاله بحركة هادئة، ونظر إلى حمود نظرة تنبض بالمسؤولية، ثم قال له بنبرة تنبيه تنم عن حرص الأب واهتمامه:
_خد ياض، اديها لجوز عمتك، إياك تنزل لا تتوه!

حمود بطاعة:ماشي.

دخل جلال الغرفة، ومال بجسده على السرير ليلتقط بعض الراحة قبل أن يبدأ يومه المزدحم بالأعمال، بينما كان الأطفال قد توجهوا إلى الشقة الثانية عند جدهم وخالتهم بصحبة محمد، يملأهم النشاط. وقبل أن ينزل حامد مع أشرف من الشقة، التفت "حمود" إليهما وهو يحمل في يده ورقة الخمس جنيهات، ووجه حديثه إلى حامد بنبرة تحمل في طياتها بعض الجدية:
=عمي حامد! هاتلي كيس شيبسي بخمسة جنيه!

حامد بإغراء:ما تيجي معانا إنت ومحمد وهجيبلكم باكو بسكوت!
حمود:أروح ياما؟
ليالي:روح.

استأذن حمود من والدته قبل أن يخرج إلى الشارع، بينما كانت نظرات ليالي تَغرق في عمق قلب الأم المحمّل بالقلق. همست "ليالي" إلى حامد بتوصية لم تتزحزح عن شفتَيها، كلماتها حانية ولكنها مشوبة بالخوف، تحمل في طياتها دعوات سرية بأن يحفظه الله أينما ذهب:
_بس والنبي ياخويا خد بالك منه!

حامد بتبسم:متقلقيش حمود في عينيا!

ثم التفت إلى أشرف، وعينيه ترقّان بسرعة كأنه يريد أن يُسرع الزمن، وقال له باستعجال:
_يلا يا أشرف!

نزل حامد وأشرف، ومعهما حمود ومحمد، في خطوات سريعة لشراء الطعام، بينما "ليالي" خرجت بصحبة والدها ووالدتها، وهبة وابنتها، مُتجهين نحو الشقة الأخرى، وعندما دخلوا، تقدمت ليالي قليلًا نحو والدها، وملامح وجهها تعكس احترامًا كبيرًا، وقالت له بتبجيل:

_تعالى يابا اتفضل!

تنحنح "عم سلامة" بصوته الخشن قبل أن يخطو داخل الشقة، متأنيًا حتى لا يقتحم المكان على نعمة وهي دون حجاب، لكن ما لم يكن يعلمه هو أنها قد دخلت لتوها إلى الغرفة لمولودها عمر، ومع ذلك، لم يتردد في أن ينطق قائلًا:
_ياللي هنا!

ليالي بضحك:مفيش حد يابا غير نعمة وجلال دخل يرتاح شوية.
عم سلامة:الله يكون في عونه، ده كان سايق مسافة كبيرة.

دخلت العائلة إلى البلكونة، حيث كان هناك انتظارهم على أتمّه، إذ كانت الكراسي مرتبة حول الطاولة، كأنها دعوة للراحة والحديث. نظرت "ليالي" إلى أسرتها بابتسامة مشرقة على وجهها، وقالت بحبور:
_كله يهون عشانكم يا غاليين، أقعدوا ارتاحوا!

هبة بقلق:هي نعمة مالها؟ حاساها مش مبسوطة!

جلست "ليالي" على الكرسي وسط عائلتها، وكلها حيوية ومليئة بالدفء العائلي الذي يملأ الشقة. تنفست بعمق، وأجابت بنبرة هادئة:
_أيوه، إنتي خدتي بالك؟

هبة بشك:من ساعة ما ركبنا معاكم وهي مش مظبوطة، هو في حاجة حصلت ولا إيه؟
ليالي:مانتي عارفة إنها مضايقة عشان أمها! دي مكنتش عايزة تيجي لولا إلحاحي عليها أنا وجوزها.
عم سلامة:طيب ما تندهوها بدل ما هي قاعدة لواحدها!
ليالي:حاضر يابا.

نادت "ليالي" على نعمة بأعلى صوتها، والكلمات تحمل بين طياتها دعوة دافئة للانضمام إلى لحظاتهم السعيدة. فقالت بحماسة:
_يا نعمة، نعمة!

خرجت "نعمة" من الغرفة مرتدية حجابها، وكانت ملامح وجهها تبدو أكثر هدوءًا وكأنها قد استعادت بعضًا من راحة البال. تقدمت نحوهم، وسألت ليالي بابتسامة خفيفة على شفتيها:
=إيه يا ليالي؟

لكنها، حينما التفتت، فوجئت بوجود باقي أفراد العائلة، فسرعان ما أعدلت حجابها على وجهها، محاولةً أن تخفي إحراجها. ثم قالت ببسمة رقيقة:
=إيه ده، انتوا جيتوا؟ طب والله ما خدت بالي.

تباهي بشفقة:ماهو عشان إنتي مشغولة باللي في دماغك يا بتي.

جلست نعمة معهم بهدوء، محاولةً استعادة شعورها بالانتماء إلى تلك اللحظة الدافئة. ثم نظر إليها "عم سلامة" بعينين مليئتين بالجدية، وقال لها برصانة:
_هو لو إنتي نكدتي على نفسك يا نعمة، أمك هتخرج؟

نعمة باستياء:لا مش هتخرج.
عم سلامة بحصافة:يبقى عيشي يومينك، وافرحي بيهم، يا عالم يمكن ميتعادوش تاني!
هبة بتأييد:أه يا نعمة، انسي اللي فات وافرحي! اللي فات مبقاش بإيدينا نرجعه، أوعي تكشري لا العيال تاخد بالهم وتحس، احنا كلنا لازم نفرح وفرحتنا مش هتكمل إلا بيكي!
ليالي بسعادة:خلاص بقى يا نعمة، روقي كده!
نعمة بابتسامة:حاضر عشانكم بس، ده ربنا العالم انتوا غاليين عندي قد إيه!

تباهي ببشاشة:ربنا يبارك فيكي وفي عيالك يا نعمة، وما نشوف فيكي أي مكروه أبدًا.
نعمة بأمل:يارب يا أم ليالي يارب.

هدأت نعمة، وتحولت حالتها المزاجية تدريجيًا إلى الأفضل مع كل كلمة طيبة قالها أفراد العائلة، الذين كانوا يلحون عليها بضرورة نسيان الماضي وطيّ صفحاته المؤلمة، وفتح باب الأمل لفرصة جديدة قد تكون أجمل وأكثر إشراقًا. كان هذا الضغط العاطفي بمثابة العلاج، حيث ارتسم الانشراح على وجهها، وأضاءت عيناها ببريق التفاؤل، بينما اتسع صدرها ليشمل كل سعادة ممكنة، وكأنها تتنفس هواءً جديدًا، بعيدًا عن كل ما مضى. بدأت نعمة تستشعر حلاوة الوقت، وتتطلع إلى أيام المصيف التي قد تكون الفرصة الوحيدة التي لا تتكرر، فرصة لتجربة حياة جديدة بدون شبح أم الديب الذي كان يسيطر على تفكيرها. كانت فرصة حقيقية للتمتع بكل لحظة، بعيدًا عن كل العوائق. في تلك الأثناء، كان حامد وأشرف يذهبان مع حمود ومحمد لشراء طعام الإفطار من أي مطعم يقابلهم في شوارع رأس البر، حيث كان صوت ضحكاتهم وأحاديثهم يملأ الجو، في حين أن "ليالي" نهضت بابتسامة واسعة على وجهها، وكأنها قد استعدت لكل شيء. كانت تحمل في قلبها رغبة شديدة في إضافة لمسة من السعادة إلى المائدة، فقررت تجهيز المقبلات التي ستقدم جنبًا إلى جنب مع الطعام، وعندما نظرت إلى نعمة وهبة، كان في عينيها إشراقة من الهدوء، وقالت لهما:
_يلا قوموا انتوا الإتنين! عايزين نجهز للفطار اللي هيجيبوه، هناكل هنا ولا في البلاكونة؟

نعمة بانشراح:في البلاكونة.
ليالي بحماس:طيب يلا بينا!

استقامت نعمة مع هبة، متجهتين برفقة ليالي إلى المطبخ الصغير، ذلك المكان البسيط الذي كان يحتوي على رخامة طويلة وصنبور مياه، وثلاجة موضوعة في زاوية، وموقد صغير لإعداد الطعام، وخزانة تحتوي على أواني بأشكال وأحجام مختلفة. بدأت ليالي في فتح الأكياس التي تحتوي على الخضروات والفواكه، فاستخرجت الطماطم ووضعتها داخل إناء، ثم شطفتها جيدًا تحت مياه الصنبور، بينما كانت نعمة تهتم بوضع زجاجة المشروب في الثلاجة حتى تبرد، فيما كانت هبة تفتح العلبة البلاستيكية التي تحتوي على البيض، وأخذت تضعه بعناية في الثلاجة. كان لكل واحدة منهن دورها المهم في تلك اللحظة الصغيرة التي تشعر فيها كل واحدة بأنها تساهم في إتمام صورة العائلة المتكاملة. في شقة هايدي، كان صباحها يختلف كثيرًا عما اعتادته في السابق. استيقظت بارتياح، متمتعة بحريتها التي كانت مفقودة في ظل سيطرة أم الديب قبل الزواج. كانت تملأ أرجاء المكان بحضورها المُستقل، تسير كما تشاء، تتخذ قراراتها بحُرية، وتعيش اللحظة كما تود. دخلت إلى مطبخها الأمريكي المفتوح على الريسيبشن، حيث كان يحتوي على كل ما تحتاجه لتحضير وجبة الصباح بكل راحة. فتحت ثلاجتها الجديدة، التي كانت قد اختارتها بعناية لتناسب احتياجاتها، وبدأت في تحضير الإفطار لها ولزوجها زياد، الذي كان لا يزال غارقًا في نومه بين الظلام الكاحل الذي يحيط بغرفته. فجأة، رن جرس الباب. تحركت "هايدي" بهدوء نحو الباب، وعندما فتحته، فوجئت بسيليا تقف أمامها، وببراءتها التي كانت تبعث في قلبها شيئًا من الألفة، ابتسمت لها هايدي، ولم تستطع إلا أن تضحك، تعبيرًا عن السرور، وقالت:
_إيه ده سيليا حبيبتي؟ تعالي يا قمري!

دخلت "سيليا" الشقة، بينما كانت هايدي تتقدم بخطوات سريعة نحوها، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة دافئة، لتحتضنها بلُطف، ثم قالت لعمتها:
=ازيك يا عمتو؟

هايدي بفرح:الحمدلله يا حبيبتي، إنتي عاملة إيه؟
سيليا بلباقة:كويسة، أنا صحيت من النوم وجيت هنا ألعب معاكي، أصل مامي وبابي مبقوش يلعبوا معايا بقالهم كتير!
هايدي بسعادة:ده إنتي نورتي الدنيا كلها، إيه رأيك نفطر سوا؟
سيليا بفضول:عندك كورن فليكس و ميلك؟
هايدي بتفكير:عندي لبن، بس إيه الكورن فليكس ده؟
سيليا بمرح:معقول يا عمتو مش عارفة يعني إيه كورن فليكس؟
هايدي بضحك:لا أنا عايزة أعرف منك انتي!

سيليا:دي رقائق الدرة يا عمتو، بنحط عليها الميلك وناكلها!

دخلت "هايدي" إلى المطبخ، وكانت سيليا تتبعها بخطوات هادئة، ثم توقفت قليلًا، حيث لاحظت هايدي أنها لم تكن على دراية بماهية رقائق الذرة، فقد نشأت في بيئة تعودت فيها على تناول الرقاق الفلاحي بالحليب والسمن. كانت تلك الوجبات البسيطة التي تحمل في طياتها عبق الذكريات القديمة. توجهت هايدي مباشرة نحو الثلاجة، واستخرجت قطعة من الجبن الطازج، ثم قالت بابتسامة خافتة:
_والله يا سيليا اللي أعرفه إن الرقاق هو اللي بيتحطله اللبن، مجربتش بصراحة الكورن فليكس ده، طب إيه رأيك تفطري من الأكل اللي عمتو هتعملهولك؟

سيليا باكتراث:أوكي يا عمتو، هو أونكل زياد فين؟
هايدي بود:أونكل زياد نايم، إيه رأيك نجهز الأكل سوا؟
سيليا بموافقة:أوكي.

حملت هايدي سيليا بين ذراعيها برفق، ثم رفعتها برشاقة لتضعها فوق الرخامة الجلاكسي اللامعة، حتى تتمكن من مشاهدة طريقتها في الطهو بكل سهولة. كانت يديها تتحركان بسرعة، تعكس شهور من الخبرة في تحضير الطعام. استخرجت الجبن من الطبق الفلين بكل حرص، ثم وضعته في الطبق السيراميك الأبيض اللامع الذي كان يعكس الضوء بشكل جميل. بعد ذلك، بدأت تقطع البسطرمة بسكين حاد فوق اللوح الخشبي، وفجأة اتجهت نحو الموقد لتضع البسطرمة فوق السمن البلدي الذهبي، الذي بدأ يصدر صوتًا طيبًا مع بداية تحميره. ثم أضافت البيض بعد قليل، وهو يتناثر فوق المزيج، ليكتمل الطعم مع رشة من الفلفل الأسود. وسط هذا الجهد، ومع رائحة الطعام التي بدأت تملأ الشقة، نظرت "سيليا" حولها بفضول، ولاحظت غياب الأطفال عن المكان، فقد كان المنزل هادئًا جدًا، وخاليًا من ضوضائهم المعتادة. أخذت لحظة للتفكير، وتساءلت:
_هو إنتي ليه معندكيش أطفال ألعب معاهم زي أونكل جلال وعمتو نعمة؟

هايدي بخجل:علشان أنا لسه متجوزة من كام يوم، فلسه بدري شوية، أمال صحيح أسيل فين؟
سيليا:أسيل نايمة جنب مامي وبابي، هما ليه بينيموها جنبهم وأنا بانام لواحدي؟
هايدي بإيضاح:علشان هي لسه صغيرة وممكن تعيط في أي وقت، لكن إنتي كبيرة وشطورة مش بتعيطي.
سيليا بحصافة:يعني أسيل مش شطورة؟
هايدي بابتسامة:لا هي لسه صغيرة يا حبيبتي، لما تكبر هاتنام جمبك.

استفاق "زياد" من نومه في حالة من التخبط، حيث كان يسير وهو يتلمس الجدار برفق، عينيه نصف مغلقتين والرؤية لا تزال ضبابية. فرك رأسه بأصابعه ببطء، محاولًا إزالة بقايا النوم التي ما زالت تلقي بظلالها عليه. كان يتثاءب بشكل متكرر، وثيابه مبعثرة بشكل عشوائي، كما كانت دلالات النوم واضحة على وجهه، من تعب الصباح المبكر. لكن ما لبثت رائحة البيض بالبسطرمة أن اخترقت حواسه، لتغزو رئتيه وتنعشه، مما

دفعه للاستيقاظ تمامًا. كانت همسات جدال هايدي وسيليا تظل تتردد في رأسه. استمر في السير حتى وصل إليهما، ليعطي ابتسامة بسيطة، وهو يقول:

_صباح الخير.

هايدي وسيليا في آنٍ واحد:صباح النور.

زياد ببسمة:ازيك يا سيليا؟

سيليا بلطافة:الحمدلله يا أونكل زياد، أنا كنت بسأل عليك!

هايدي بضحك:أيوه سيليا كانت بتسأل عليك وقولتلها إنك نايم.

سيليا بتمني:ينفع نلعب سوا يا أونكل؟

زياد بتحنن:ماشي بس مش دلوقتي!

لم يكن زياد في حالة تسمح له باللهو كما كانت سيليا تأمل. كانت نفسيته المحطمة تشكل حاجزًا نفسيًا قويًا، يرفض أي محاولة للهو أو التفاعل مع ما حوله في ذلك الوقت. كان يحاول جمع شتات ما تبقى من نفسه الهزيلة، يراوغه الدوار الذي خلفه الاستيقاظ المفاجئ، فتجده يظل صامتًا، وكل كلمة تحتاج لمجهود خارق للرد عليها. أفرغت "هايدي" البيض بالبسطرمة في الطبق بحركة سريعة، ثم بدأت في تفريغ الجبن التركي الناعم ولانشون الدجاج داخل نفس الطبق. كان المطبخ يمتلئ برائحة الطعام الطيبة التي بدأت تغري الحواس. بعد أن انتهت من ترتيب الأطعمة بعناية، اقتربت من زياد برفق، عيونها مليئة بالحنو، وسألته بنبرة لطيفة:

_عامل إيه دلوقتي يا زياد؟

زياد باستياء:زي مانا مفيش أي جديد.

هايدي بدعم:شد حيلك يا زياد! بكرا تقف على رجليك من تاني، هي أه فترة صعبة بس إنت قدها!

زياد ببسمة خافتة:صح عندك حق يا هايدي.

هايدي بإتِئاد:أدخل الحمام وفوق كده لحد ما أخلص!

زياد:ماشي.

دخل زياد المرحاض، وصك الباب خلفه بإحكام، مختبئًا في هذا المكان ليحاول استعادة هدوئه بعد الاستيقاظ المفاجئ. بينما كانت هايدي تواصل تحضير الإفطار، مشغولة بين الأطعمة ومحادثات مرحة مع سيليا. في مكان بعيد، كانت هناك مشاهد قاسية في سجن النساء. حيث كان قطيع من النساء يصرخون تحت العنف الجسدي الشنيع الذي تعرضن له على يد أم الديب، التي كانت لا ترحم أحدًا. كانت تجلس وسطهن في دائرة قسرية، قد تكون قد شكلتها بالإكراه، بينما كانت بعضهن تتمنى لو تستطيع الهروب من هذه اللحظات الجهنمية، ولكنهن كن متسمّرات في أماكنهن، محبوسات في سكون غريب. كانت أم الديب تروي حكاياتها مع ليالي، تحكي عن كل شيء بطريقة قاسية، لتجبر الجميع على الاستماع إليها. وفي نهاية حديثها، وجهت سؤالًا لهن: "من المخطئ؟" فأجاب الجميع في صوت واحد: "أم الديب". عندها، تفجر الحنق في قلبها، فاستمرت في

تشبثهن بعنف، وهي تطأ رؤوسهن واحدة تلو الأخرى، عازمة على إهانتهن بكل طريقة ممكنة. انتزعت نعلها بعنف، وصوبته تجاه وجوههن، لتسقط الضربات الثقيلة الواحدة تلو الأخرى. ثم قفزت عليهن، مقتلعة شعراتهن بين يديها، والجميع في حالة من الذعر، يصرخون بأعلى أصواتهم، كأن صرخاتهم تتناثر في أرجاء السجن.
في تلك اللحظة، استغاثت "إحدى النساء" بصوت هزيل، بينما كانت أم الديب تجلس فوق رأسها بكل قسوة:
_يا لهوي.

أم الديب بجبروت:بقى آني أحكيلك علي المخفية ليالي تقومي تدافعي عنها؟ ليه تعرفيها ولا إيه يا بت الكلـ*؟
السيدة بصراخ:طب سيبيني أبوس إيديكي! أبوس رجليكي طيب!
أم الديب بغل:آني لسه مخدتش حقي منك، ده آني هطين عيشتكم كلكم واحدة واحدة!

وقفت "إحدى النساء" في وجه أم الديب، وكأنها استجمعت ما تبقى من قوتها، معترضة على الطغيان الذي تعرضت له صديقتها، رغم خوفها الواضح من بطشها. كانت يديها ترتجفان، لكن عينيها كانت مليئة بالحزم، وكأنها قد نفد صبرها. حاولت التحدث، فكان صوتها مترددًا أول الأمر، ثم قالت بصوت منخفض:
_حرام عليكي يا ست، بطلي ضرب فيها! ده إنتي بقالك عشر ساعات نازلة فيها عجن، بقى كل ده عشان قالتلك إن مرات ابنك مظلومة معاكي؟

أم الديب بصياح:انتي جيتيلي منين إنتي التانية؟ طب تعاليلي إنتي كمان!
السيدة بصراخ:يا لهوي!

فرت السيدة الأخرى بعيدًا في محاولة يائسة للهروب من بطش أم الديب، لكن الأخيرة كانت أسرع منها، فاندفعت كالوحش، قافزة فوق رأسها بكل قوة، وقد تملكتها بقسوة، وكأنها لا تعرف الرحمة. كانت تطأ رأسها بعنف، تخضعها تحت سيطرة لا تترك لها مجالًا للهرب. امتزجت صرخات النساء في أجواء السجن بشكل غير طبيعي، وكان الصوت يعلو حتى يمكن لأي شخص يسمعه أن يعتقد أن هناك حريقًا شب في المكان. ورغم أن أم الديب تتجاوز المائة وخمسة وخمسين سنتيمترًا في طولها، إلا أن قوتها التي لا توصف جعلتها تبدو أكبر وأقوى من أي شخص آخر. وفي تلك الأجواء المرهوبة من الجبروت، كان هناك اثنان من النساء جالستين بالقرب من بعضهما البعض، يهمسان في حذر، محاولة إخفاء حديثهن عن أعين أم الديب. قالت "مديحة" بصوت خافت:
_يا ساتر عليها، دي غلبت الفتوة جمالات.

هناء بقلق:الست دي محدش قادر عليها، ربنا ياخدها ويريحنا منها بقى.

كانت أم الديب تمارس قوتها في السجن وكأنها لا تقيم وزنًا لأحد، تضرب تارة هذه وتارة تلك، وكلما فرّت إحدى النساء منها، كانت تنقض عليهن من جديد بعنف، وهي لم تعرف يومًا الرحمة. كانت قوتها تُنسب إليها

كأسطورة داخل جدران السجن، حيث كانت تعتبر نفسها فوق الجميع، تتحدى العالم بأسره في قدرتها على البطش. لم يكن هناك من يجرؤ على مواجهتها. لكن فجأة، ظهرت سيدة ذات هيبة ساطعة، ممتلئة الجسد، وطويلة القامة، حيث بلغ طولها مائة وسبع وسبعين سنتيمترًا. كانت بشرتها حنطية مُشعة، وشفتاها ممتلئتان بشكل طبيعي، دون أن يطرأ عليها أي تغير بفعل عمليات تجميل. كانت حواجبها حادة، تعكس شخصيتها الحازمة. امرأة شديدة التحمل، صلبة الطباع، وحادة الملامح. كانت هذه السيدة هي المنافسة الحقيقية لأم الديب. وقفت السيدة، التي تدعى "جمالات"، بثبات، يداها مستقرّتان على خصرها، وكأنها لا تهاب ما يحيط بها. كان حجابها مربوطًا على منتصف رأسها، فيما كانت خصلات شعرها تنساب بحرية من تحت الحجاب. رغم أنها تعرف باسم "أم الفار"، إلا أن ذلك اللقب لم يكن يعكس حقيقتها الآن. ففي سن العشرين، كانت قد نشأت في أجواء من الهلع، حتى أنها كانت تجفل من رؤية أي خيال بشري، وكأنها تشارك الفئران في خصائصها الهلوعة، وقد أطلق عليها زملاؤها في السجن هذا اللقب بسبب تلك السمات التي حملتها في شبابها.

دخلت جمالات السجن في سن العشرين، مُتهمة في قضية قتل غير موثقة، ثم مكثت بين جدرانه، حيث أصبحت من أعتى السجينات وأكثرهن قوة. مع مرور السنوات، اكتسبت الشجاعة والصلابة التي جعلتها واحدة من الأشداء في السجن. واليوم، في عامها الثالث والأربعين، كانت قد أصبحت شخصية يهابها الجميع. وعندما حانت اللحظة، نطقت "أم الفار"، كما كانت تدعى، بكلمات حاسمة، تعكس قوة شخصيتها:
_قومي!

أم الديب بصدمة:انتي بتكلمي مين يا ولية انتي؟
أم الفار بحسم:بكلمك انتي، قومي!

نهضت "أم الديب" فجأة، وتغيرت ملامح وجهها، فقد امتلأت عيناها بالسخط العارم، لتنتفض كأنها وحش جائع يبحث عن فريسته. دون أن تنتظر لحظة، انقضت على أم الفار بكل عنف، مسددة ضرباتها إلى عنقها بعزم وكأنها تريد أن تبث فيها كل ما تحمله من غل، وقالت لها بنبرة مكتظة بالتحدي:
_آني قومت مش عشانك، لا! آني قومت عشان أربيكي وأعرفك ازاي تتكلمي مع أم الديب بعد كدهو! اسمعي يا ولية وحطي الكلام دهو حلقة في مناخيرك إكمنك شبه الجاموسة اللي على علبة الجبنة! آني محدش يتكلم معايا كدهو! أم الديب دهي ملكة! كل الناس تحترمها ويشيلوها فوق راسهم واللي يقل منها يستحمل اللي يجراله!

أم الفار بلا مُبالاة:خلصتي الفيلم الهندي بتاعك ده؟ مين اللي محفظك الكلمتين دول يا ست؟ أم الفار ميقدرش عليها غير اللي خلقها!

أفلتت أم الفار يد أم الديب عن عنقها في لحظة حاسمة، ودفعتهما بعيدًا عنها بكل قوتها، ثم اقتربت بسرعة وطأتها برأسها، محطمة بذلك كل مقاومة في طريقها. ولكن أم الديب، التي لم تُعرف يومًا بالاستسلام، لم

تصمت أمام هذا الردّ القوي، بل انتقمت بضربة أشد قسوة، وضاعفت الوطأة، لتسقط أم الفار على الأرض وهي تئن من الألم. ومع ذلك، لم تتوقف المعركة، بل زاد اشتعالها، حيث سقطتا معًا، تتقلبان فوق بعضهما البعض، في صراع بدني قاسي لا يهدأ. تارة كانت أم الديب في الأعلى، وأم الفار تحتها. النساء اللواتي حولهن كن يشاهدن هذا الصراع بقلوب تتسارع، فكل واحدة منهن كانت تعلم أن هذا ليس مجرد شجار، بل معركة حقيقية بين اثنتين من أقوى بلطجيات السجن. كان المشهد أشبه بمعركة شرسة، بلا حدود، حيث كانت القوى تتنازع بينهما في تواصل عنيف دون رحمة، وفجأة، دوى صوت فتح الأبواب الثقيلة، ليقطع هذا الاشتباك الدموي، ودخل "الضابط" بسرعة بين الجموع، صائحًا بأوامره القوية:
_ثبوت! إنتظام!

انتهت المعركة بشكل مفاجئ، حيث نهضت كل منهما، تتنفس بصعوبة وتعدل ثيابها المُتعرجة التي تجعدت بفعل الشجار العنيف. كانت الأنفاس مُتسارعة، والوجوه متورمة من أثر الضربات المتبادلة، لكن في تلك اللحظة، بدا وكأن الأرض نفسها توقفت عن الدوران. التفتت كل واحدة إلى الأخرى بعينين ملتهبتين، لكن فجأة صرخ "الضابط" بأعلى صوته:
_إيه اللي حصل؟

أم الديب بعجيج:الولية دهي...
الضابط بصياح:أنا مسألتكيش انتي! متردیش!
إحدى النساء بارتباك:هقولك يا حضرة الظابط، الست أم الديب كانت بتحكي لدي عن مرات ابنها ولما التانية قالتلها كلمة حق معجبهاش الكلام راحت نازلة فيها تلطيش من الساعه واحدة بالليل لحد دلوقتي، ولما الست أم الفار جات توقفها عند حدها جات الست أم الديب قلت أدبها عليها ومسكوا في بعض!
الضابط بحزم:بسمة فوزي عباس الديب! حبس انفرادي!
أم الديب بتعجب:يعني إيه؟

غادر الضابط الزنزانة دون أن يلتفت أو يجيب على تساؤلاتها، تاركًا وراءه حالة من الضياع. كان الباب الحديدي يصدح وهو ينغلق خلف الضابط بصوت ثقيل، كما لو كان يُغلق فم السجن نفسه. سيطرت الهمسات على الجو، فتنهدت "إحدى السجينات" وقالت بصوت خافت:
_يعني هتتحبسي لواحدك.

أم الديب بنواح:يا لهوتي آني معملتش حاجة يا ناس، آني مظلومة! الحقوني يا خلق! الحقوني ياهو! ده آني مبتطلعش مني العيبة!

ما إن استحضرت "أم الديب" في ذهنها صورة تلك المرأة التي كانت سببًا في وقوعها خلف قضبان السجن، حتى اشتعلت في قلبها نيران السخط المستعر، فقفزت عليها دون تردد، وهي تضغط عليها بكل ما أوتيت من قوة، كأنما تدوس الأرض بقدميها العاريتين، قائلة:
_انتي السبب يا بت الكلـ*! هطلع القديم كله فوق جتتك! يا خرابي على بختك يا أم الديب!

استمرت أم الديب تُسقط حِملَ غضبها على تلك المرأة بقسوةٍ، بينما كانت صرخاتها المتقدة تملأ الزنزانة حتى اجتاح العساكر الغرفة، ليقتادوها إلى سجنٍ انفرادي غارق في العتمة، لا ينسل منه سوى خيطٍ رفيعٍ من الضوء، وفي الجانب الآخر، داخل قصر "أم قمر الدين"، كانت تجلس بطمأنينةٍ في الصالون، تتذوق لذة فنجان قهوتها المعتق ببطء، حتى نزل قمر الدين بخطى واثقة، وجلس قبالتها، فنظرت إليه بعينيها المليئتين بالحب، وابتسمت له ابتسامة دفينة، وقالت بحنان:
_حبيب مامي، عامل إيه يا روحي؟

قمر الدين بتبسم:الحمدلله، أنا رجعت امبارح متأخر، وبصراحة كنت مقتول من التعب، قولت أنام وأفوق وأقولك اتفقنا على إيه!
أم قمر الدين باكتراث:ها يا حبيبي طمني، اتفقتوا على إيه؟
قمر الدين بابتسامة:قررنا إننا نخلي الفرح في ظرف تلات شهور، بس اليوم بالتحديد هيكون معاكي إنتي وبابا، عايزين نروحلهم يوم ونتفق معاهم!
أم قمر الدين بسرور:خلاص يا روحي، مبروك مقدمًا.

قمر الدين ببشاشة:الله يبارك فيكي يا حبيبتى، أمال علاء فين؟ بقالي كام يوم مبشوفوش!
أم قمر الدين:أخوك في الجونة بقاله كام يوم مع أصحابه ومش ناوي يرجع دلوقتي.
قمر الدين:مقالش يعني.
أم قمر الدين:يمكن مجاتش الفرصة! وبعدين مانت عارف إن علاء الدين محدش بيعرف عنه حاجة بسهولة، دايمًا مطلع عينا علشان بس نعرف عنه معلومة!
قمر الدين بمزاح:علاء الدين ده مش شايل هم حاجة.
أم قمر الدين بتبسم:أخوك لسه صغير، وأكيد هيجيله يوم وهيشيل المسئولية زيك!
قمر الدين:حِلني بقى.

ما إن نهض قمر الدين من مجلسه، مُستعدًا للتوجه إلى شركته، حتى ارتسمت على وجه "أم قمر الدين" علامات الدهشة، غير مُتوقعة مغادرته في هذا الوقت، فنظرت إليه بعينيها المتسائلتين، باحثة في قسمات وجهه عن سبب خفي، ثم قالت له بصوتٍ يغلفه شيء من الاستفهام:
_يا حبيبي إنت لحقت تقعد؟ ده إنت كل يوم تيجي تقعد دقيقة وتمشي، أنا مابقتش أعرف أقعد معاك خالص!

قمر الدين بانشغال:مانتي عارفة يا حبيبتي إن الشغل كتير وبابا بقى الله يباركله مشيلني الليلة كلها لواحدي.
أم قمر الدين ببسمة:ربنا معاك يا قمر الدين، أهم حاجة شغلك طبعًا بس لينا قاعدة سوا لما ترجع وإياك تقولي إنك تعبان ومحتاج ترتاح!
قمر الدين بابتسامة:حاضر يا حبيبتي، متقلقيش! يلا عايزة حاجة؟
ام قمر الدين بحُب:سلامتك يا حبيبي، باي.
قمر الدين:سلام.

في هذا الصباح كانت أشعّة الشمس تتسلل بين ستائر نافذة القصر الفاخر، بدأ قمر الدين رحلته خارج المنزل، وانفردت والدته بلحظاتٍ تذوق فيها القهوة. لكن سرعان ما تلاشت تلك السكينة، فتوجهت إلى المطبخ تبحث عن النظام الذي لطالما كان جزءًا من كيانها، لترى مشهدًا أبعد ما يكون عن توقعاتها. تراكمت الفوضى، ولفّ المكان شعورٌ بالإهمال، وكأن النقاء الذي كانت تحرص عليه قد انطفأ تحت التراخي. بداخلها ثار السخط، وغرقت في بحرٍ من خيبة الأمل تجاه التسيب الذي طال قصرها. صعد صوتها بنبرةٍ مصدومة، وهي تعبر عن حنقها الصارخ تجاه الخادمة التي ظلت تُعدّ جزءًا من نظام بيتها لسنوات، ثم اتخذت القرار الحاسم بإنهاء خدماتها. خرجت من المطبخ، يتملكها الغضب الممتزجة بالشجن، وسارعت إلى غرفتها.

هناك، أخذت هاتفها بيدٍ ترتجف من الموقف العسير، واتصلت بزوجها باسم، متحدثةً إليه بلهجةٍ جمعت بين الحزم والشكوى، مستعرضةً تفاصيل الإهمال الذي غمر المنزل. لكن حديثها واجه ردودًا لم تشفِ غليلها، فكل ما حصلت عليه كان وعدًا ضبابيًا بالإصلاح. أغلقت الهاتف، مُحبطةً من عدم تجاوب زوجها بالاهتمام الذي كانت ترجوه، فتوجهت لتتصل بابنتها نرمين بحثًا عن مشورةٍ تروي عطشها للحلول، ولكن لم تجد الرد الذي يواسي وحدتها. دفعتها تلك الخيبة إلى أن تختار الهروب إلى لحظات استرخاء تنسيها قليلًا تلك الأعباء، فتجهزت للسباحة ونزلت إلى الحوض، لعل الماء يُسكن الاضطراب في صدرها، وفي زاوية أخرى من مصيف راس البر، كانت ليالي ونعمة يجلسان بهدوء في البلكونة، مُستمتعين بنسيم الصباح، وقد قدما حامد وأشرف لهم بفطورًا شهيًا. فبعدما وزعوا الطعام فوق الطاولة واجتمعت العائلة قالت "ليالي" لحمود:
_روح انده جلال!

حمود:ماشي.

غادر حمود البلكونة بخطواتٍ هادئة متجهًا نحو والده المستلقي على سريره. في تلك الأثناء، كانت "هبة" تلتفت نحو عبير روائح الطعام المصري المُتصاعد، ذلك العبق المميز الذي يروي الأفئدة قبل البطون، يغمرها شعور بالانسجام وهي تتذوق الباذنجان المقلي، مُسافرة من خلاله في نكهات الذكريات العتيقة، حيث قالت:
_يا سلام على ريحة الأكل، حاجة تفتح النفس!

نعمة بابتسامة:ولا شوية السلطة اللي أنا عملتهم بقى.

ليالي بضحك:تسلم إيديكي يا نعمة.

استفاق جلال من نومه على صوت حمود الذي أيقظه بخوف بادٍ، ينبئه أن العمارة تتهاوى بمزاح، فاستجمع جلال وعيه للحظة، يتساءل عمّا يجري بقلق، إلا أنه أدرك بعدها أن ابنه كان يمزح فقط لإثارة خوفه. وبضحكة ممتزجة بالتوبيخ، وبخ جلال ابنه على هذه المزحة الثقيلة، قائلًا إن عليه أن يتحلى برصانة أكبر ويترك تصرفات الأطفال. غير أن حمود، بابتسامة طفولية، رد عليه بأنه لا يزال صغيرًا ولا يُفترض أن يتصرف كالكبار. ضحك جلال على رد ابنه، ثم حمله بين ذراعيه، وخرجا معًا من الغرفة مُتوجهين إلى البلكونة، حيث جلسا مع بقية العائلة. بينما "عم سلامة" ابتسم في صمت، ثم قال:
_صحي النوم يا جلال!

جلال:مانا صحيت أهو يا عم سلامة.
ليالي بانشراح:يلا كلوا، بسم الله.
جلال:ناوليني الطعمية يا ليالي، هو انتوا مجيبتوش فول ولا إيه؟

بسطت ليالي يدها، ووضعت طبق الفلافل أمام جلال. التفّت العائلة حول المائدة، وبدأ كل فردٍ يتناول ما تهفو إليه نفسه من الأطباق الشهية، حيث ضحك "أشرف" بصوتٍ يفيض بالمرح، وعلق ببهجة:
_سلامة الشوف ماهي قدامك أهو يا جلال!

جلال بنعاس:الساعة اللي نمتها مكفتش، فتلاقي الواحد مش مركز.
حامد ببشاشة:متقلقش البحر هيفوقك!
جلال بانزعاج:ما قولنا بلاش بحر في اليوم اللي مسافرين فيه! هو الواحد قادر على كل الكلام ده؟
أشرف بحُنكة:خد بالك يا جلال، اليوم اللي بيعدي علينا بيتخصم من أيام المصيف واحنا دافعين مبلغ وقدره على السفرية دي!
جلال بتسلط:طب بصوا بقى الخروجة دي هتكون على كيفي!
ليالي باستغراب:ازاي؟
جلال بحسم:يعني أنا اللي هقول نروح فين ومنروحش فين!

مالت "هبة" نحو ليالي برفق، لتهمس في أذنها بصوت خافت لا يكاد يُسمع وسط ضجيج العائلة وانشغالهم بتذوق الأطباق، قائلة بتعجب:
_هو جوزك من اولها تحكمات كده ولا إيه؟

ليالي:أصبري بس! دلوقتي هيفك وهيبقى زي الفل!

استعادت هبة وليالي مواقعهنّ حول المائدة، لينخرطا مجددًا في أحاديث العائلة المتنوعة التي تنساب بحرارةٍ. وفي تلك اللحظة، التفت "عم سلامة" بنظرة وقورة، كحكيم يزن كلماته بميزان العدالة، وبدأ يغمس الخبز البلدي في طبق الفول الحار بيد ثابتة، ثم قال:

_كل واحد يقول رأيه يا جلال والصح هو اللي هيمشي!

جلال بتحكم:أنا بالصلاة على النبي، عاوز أخدكم في شط النخيل سمعت إنه أحسن شط فيكي يا راس البر!
ليالي بقلق:لا يا جلال ده بيقولوا إنه غريق واللي بينزل فيه مبيطلعش تاني!
أشرف:لا التاني في إسكندرية، ده الحكومة قفلته لما لقيته بيضم أكبر عدد ضحايا، لكن هنا أمان الأمان!

تجاهل "جلال" حديث أشرف كما لو أن الكلمات لم تلتقط، بينما استمر في سَرط الخيار، يغمسه في الجبن القديم، وبينما كان يشبع رغبته، أشار بيده نحو طبق السلطة الخضراء الذي كان يعكس ألوان الحياة الطازجة، وقال:

_ناوليني السلطة يا ليالي، إكمن الطعمية متتبلعش إلا بالسلطة.

مدت ليالي طبق السلطة إلى جلال، بينما كان ذهن "نعمة" يسرح في غياهب الذكريات، فتسللت فجأة إلى قلبها صورة المصيف الذي قضوه قبل عامين، تلك الأيام التي حملت في طياتها أحداثًا غير محمودة. تذكرت نعمة ما جرى، فأصابها شعور بالاشمئزاز، ثم قالت بتقزز:

_طب فاكرة يا ليالي السنة قبل اللي فاتت؟ راح جلال يجيبلنا طعمية طلعنا منها شعر وقماش.

ليالي باشمئزاز:أه فكرتيني.

ثم، بعدما ساد الصمت للحظة، انفجرت "ليالي" في ضحكة كبيرة، رغم ما حملته من لحظات طريفة. بدأت تسرد أحداث المصيف بأسلوبٍ فكاهي، حتى أن كل فرد من العائلة بدأ يبتسم، متأثرًا بطريقتها العفوية في إحياء اللحظات القديمة. وبينما كانت تروي حكاياتها، أخذت قطعة من الفلافل، وغمستها في طبق السلطة الخضراء، وقالت:

_أه والله يابا إنت وأمي، كل ما نفتح واحدة نلاقيها فيها شعر، متفهموش الراجل كان لسه حالق دقنه قبل ما يكور الطعمية ولا إيه نصيبته!

عم سلامة بضحك:احمدوا ربنا، ده الراجل اللي فاتح جنب بيتنا عمك مطلع منها صرصار قبل كده.
هبة بتقزز:يا لهوي يابا، دي حاجة تقلب البطن!
تباهي باعتراض:طب بس يا سلامة لا يقرفوا! وهي الحاجات دي تتقال على الأكل برضة؟
جلال بمرح:امال لو سمعتوا حكاوي أمي هتعملوا إيه؟ ده انتوا هتجيبوا كل اللي في بطنكم!

نعمة بضحك:أسكت يا جلال متقرفهمش، والنبي ما تفكرني!

كأن لحظة الانتقام قد حانت، فقرر جلال أن يكشف النقاب عن أسرار والدته المدفونة في أعماق الزمن. امتلأ قلبه بالحقد، وتملكت يده رغبة عارمة في فضح ما كان قد ظل مخفيًا طويلًا. شرع في سرد تفاصيل خاصة كانت تُعدّ مقززة، تلطخ سمعة والدته في الماضي، عازمًا على نشرها قبال الجميع دون اكتراث.
يتبع....

الفصل الخامس

لم يتردد "جلال" لحظةً في كشف المستور، فقد اعتزم أن يزيح الستار عن الحقائق الحالكة التي تكمن خلف جدران منزلهم، ويكشف أمام العائلة وجهًا من وجوه السوء المتأصل في روح أم الديب، متحدثًا بشجاعة ليقصّ عليهم واحدةً من تلك الحكايات التي تعري بشاعة الخُلق وتكشف عن قذارتها:

_أسكتي يا بت خليهم يسمعوا!

جلال بضحك:اسمع يا عم سلامة! أمي في مرة كان عندها برد شديد واللي يعرف أمي كويس عارف إنها متتوصاش في النتانة، أبويا داخل عليها لقالك الأصفرة في الخلاط! يسألها ده إيه؟ متردش! وبعد ما ضربته حطته في برطمان وكل يوم تدهن بيه وشها وأنا وقتها الفضول خدني، ألاقيلك أمي ماسكة البرطمان ومقربة وشها وبتمليه، ولما حكيت لأبويا وعرف راح اتخانق معاها، راحت مدشدشة البرطمان باللي فيه على دماغه! أبويا قعد أسبوع مغطس راسه في الماية بصابون.

انفجرت ضحكاتهم كأمواجٍ عاتيةٍ ترتطم بصخور البحر، حتى بدت أنفاسهم تتقطع وتعلق الطعام في حناجرهم، والمرح قد احتل أرواحهم وسلب منهم كل وقار. وسط هذه الهالة من الضحك، كانت "نعمة" تتمايل كغصنٍ يشتد به الريح، وهي على وشك السقوط من على كرسيها، ولم تستطع كبح الضحكات المتصاعدة من أعماقها، فقالت:

_أسكت يا جلال! فضحتها ياللي ربنا يفضحك، آه يآني.

ليالي بقهقهة:طول عمرها معفنة، لا مؤاخذة يا نعمة!
نعمة بضحك عارم:طب وإيه اللي خدته لما عملت كده؟
جلال بضحك:أنا عارف دماغها دي فيها إيه؟ ده دماغها دي في عالم لواحدها.
هبة بتهلل:الحمدلله، ربنا ريحكم منها، دي كانت زي الهم على القلب.
حامد بزهزقة:يخربيت كده، الله يمسيكي بالخير يا حماتي.
عم سلامة بضحك:انت ازاي أبوك مطلقهاش بعد اللي عملته ده؟

جلال بمزاح:أصله مكمل معاها تحت تهديد السلاح.
عم سلامة ببشاشة:مجيبتوش الحاج ليه؟ كان غير جو معانا.
جلال بابتسامة:قولناله بدل المرة ألف، هو اللي راكب دماغه ومش عاوز يتحرك في حتة.
عم سلامة بتأثر:عشان زعلان على أخوه، الله يعينه على اللي هو فيه، حسين ده كان راجل كُملة، محترم وكل الناس تشهد بإحترامه.
ليالي بتعجب:وانت تعرفه منين يابا؟

عم سلامة بإعزاز:كان معايا في نفس الفصل وأنا في الإبتدائية، وكمل معايا لحد الإعدادية، وبعدين راح مدرسة تانية، كان الوحيد اللي ساكت في الفصل ولو حصل أيها حاجة هو اللي بيصلح الأمور ببعض، عمر ما حد شاف منه حاجة وحشة، عشان كده الناس زعلانة عليه.

نعمة بتأييد:أه والله، إنت قولت كلمة حق يا عم سلامة، يمكن اللي حصل ده اللي زود ناري شوية من ناحية أمي، أمي كان لازم تتسجن وتاخد جزائها من بدري.

بعد أن كانت الضحكات تغمر الأرجاء وتغمر القلوب بفيض من البهجة العابرة، خيَّم صمت ثقيل على العائلة، وتحوّل الحديث من المرح إلى ذكريات حسين، ليجرّهم إلى عوالم من الشجن والشوق المستتر. تغيرت ملامحهم، والذكريات أثقلت أرواحهم، وعادوا إلى تناول الطعام بوجوه مطرزة بأسى دفين. مدّ "جلال" يده ببطء نحو رقائق البطاطا، ثم نطق:

_افتكرولنا حاجة عدلة يا جدعان! احنا جايين نغير جو مش ندوش في دماغنا زيادة!

ليالي بحماس:بصوا بقى انتوا هتاكلوا وتنبسطوا، وزي الشاطرين هتدخلوا تلبسوا ألا أنا منظر البحر وحشني أوي أوي.

أشرف:أنا عن نفسي خلاص شبعت.

تباهي بتعجب:وانت كلت حاجة يا أشرف؟

أشرف بابتسامة:أه الحمدلله، أنا أصلي عامل ريجيم.

عم سلامة بجدية:ريجيم إيه يا راجل؟ أقعد كمل أكلك!

أشرف:لا كده تمام أوي، الحمدلله.

نهض أشرف بهدوء عن الكرسي واتجه نحو الصالة، حيث استقر على الأريكة أمام التلفاز، تاركًا جو العائلة المكتظ بأحاديث مختلطة خلفه. راقبه جلال بإحساس الراحة المكنونة، وكأن ابتعاد أشرف أزاح عبئًا خفيًا عن روحه، فتنهّد بعمق، وكأنّها زفرة تروي ثنايا الصدر. أمسك بطبق الفول بين يديه، وراح يلتهمه بنهم، يمسح أطرافه بالخبز البلدي بمهارة من تعوّد على لذة تلك الوجبة الشعبية المتواضعة.

في تلك الأثناء، انشغلت ليالي بأطفالها، توزع عليهم الساندويتشات الصغيرة بأمومة مترفقة، فيما كانت نعمة تتابع محمد أيضًا. على الجانب الآخر، كانت الطفلة الصغيرة، ابنة هبة، منهمكة في تناول الخضار المهروس. تسلل أفراد العائلة من على المائدة واحدًا تلو الآخر، حتى انتهوا جميعًا من تناول الطعام، لينتقل المشهد إلى المطبخ؛ حيث كانت النساء يتشاركن في جمع الأطباق الفارغة، محملات بها بأيدٍ مثقلة، ويتعاونَّ في غسلها بالصابون، مغمورات بحديث هامس يدمج بين المرح والتعب. وفي المقابل، اجتمع الرجال مع الأطفال في الصالة، متحلقين حول التلفاز، يتبادلون الأحاديث العابرة. بدأت ليالي بإعداد الشاي، تضع البراد على النار بهدوء ينبئ بالألفة، بينما كانت نعمة تنظف الفاكهة، تقلب عناقيد العنب بين يديها وتغسل حبات التين البرشومي.

أما في شقة أحمد، كان الصمت يعم العمارة إلى أن قطعه صرخة آسيل المتدفقة من غرفتها، لتستفيق "جميلة" بقلق بالغ، وقد أزاحها الصوت عن سكينة نومها. نهضت مُسرعة نحو الغرفة، تلتقط آسيل بين ذراعيها وتضمها إلى صدرها بعطف، ساعية لإخماد اضطراب صغيرتها، قائلة:
_أسيل، يا حبيبتي إنتي بتعيطي من بدري؟ تعالي نغير وناكل الأكل الحلو الجميل بتاعنا ونلعب شوية! ولا إيه رأيك ناخد شاور؟

بينما كانت "جميلة" تحمل طفلتها أسيل بين ذراعيها، مرت سريعًا من أمام الريسيبشن، لكن نظرتها توقفت فجأة؛ الريسيبشن كان خاليًا منها بشكلٍ أربكها، وكأنّ شيئًا ضاع في لحظة خاطفة. شعرت بقلق يجتاح قلبها، وراحت تبحث عنها في كل زاوية من زوايا الشقة، تسير بخطى متسارعة، تتفحص كل ركن بنظرات قلقة، وهي تنادي:
_سيليا...سيليا إنتي روحتي فين؟

خرج "أحمد" من المرحاض بخطوات هادئة، وقد وضع المنشفة الزرقاء على كتفه بشكل عفوي، وتوقف عند عتبة الباب، وألقى على جميلة نظرة ملآنة بالهدوء، وقال:
_سيليا راحت عند هايدي.

جميلة بقلق:طيب ومقالتليش ليه؟ أنا بجد خوفت عليها!
أحمد:أنا لما ملقيتهاش روحت لهايدي واتأكدت إنها عندها.

خرج أحمد برفقة جميلة وطفلتهما إلى الريسيبشن، وخلفه ابتسامته التي تعكس الاطمئنان، كانت "جميلة" تخفي قلقًا داخليًا يتسلل إلى أفكارها. كانت فكرة بقاء سيليا عند هايدي لفترات طويلة تثقل كاهلها، تشعر أن هذا المكوث قد يصبح عائقًا يُثقل على هايدي ويكبح رغبتها في ممارسة حياتها، فقالت:
_هايدي من ساعة ما اتجوزت وسيليا عالطول عندها، أنا خايفة هايدي تزهق منها!

رفع "أحمد" أسيل بين ذراعيه بحنان، وجلس بها على الأريكة، وبينهما لغة خاصة من الدفء لا تحتاج للكلمات. جلست جميلة بجوارهما بصمت يغمره سكون الحي. أمسك أحمد بيد ابنته وقبّلها بلُطف، ثم نظر إلى جميلة بعينين يملؤهما الدعابة، وقال:
_إيه الكلام اللي بتقوليه ده يا جميلة؟ هايدي بتعشق سيليا وإن كان عليها عايزاها تعيش معاها.

جميلة بتضايق:لا أنا مقدرش أعيش من غيرها، هي آخرها تقضي معاها يومها، لكن تعيش معاها ليه؟ هي مامتها ماتت؟

أحمد بصبابة:بعد الشر عليكي يا جميلة، ربنا يخليكي لينا وميحرمناش منك أبدًا، ده إنتي اللي منورة علينا حياتنا!
جميلة برقة:بقالي كتير مسمعتش الكلام الحلو ده! أنا كده هتعود!
أحمد بتبسم:سامحيني يا جميلة، اتحطينا في مليون مشكلة وكان في حاجات كتير غصب عني، لكن خلاص من النهارده حياة جديدة!
جميلة بحبور:أوكي يا حبيبي، اعمل حسابك أنا عازمة هايدي وزياد عندي النهارده!
أحمد بضحك:وانتي اللي هتطبخي؟
جميلة بثقة:طبعًا، ما اللي متعرفوش إن أنا الفترة اللي فاتت كنت بحاول أتعلم وصفات جديدة، عشان منشتريش أكل Take away بعد كده!
أحمد بتعشُّق:ولو عايزة نعيش على التيك اواي أنا معنديش أي مشكلة، المهم راحتك!

جميلة بابتسامة:لا يا حبيبي، احنا قولنا النهارده حياة جديدة، يبقى كله جديد في جديد! على العموم روح بلغ هايدي على ما أدى شاور لأسيل!
أحمد بغرام:ماشي يا جميلة.

نهضت "جميلة" من مكانها برفق، ثم حملت صغيرتها أسيل بين ذراعيها بحنو، ونظرت إلى وجه الطفلة الذي يعكس براءةً ونقاءً نادرين، ومالت برأسها نحوها، وقالت:
_يلا يا سيلو يا قمر انتي!

دخلت جميلة المرحاض بسيليا، تاركةً وراءها أجواء الشقة التي بدأت تخلو من الحركة، بينما كان أحمد قد قرر الخروج لتغيير الأجواء قليلًا. اتجه نحو شقة هايدي، وفي طريقه وهو يلتفت إلى الدرج، لاحظ حركة غريبة. فاجأه "ضايع" الذي كان يقف أعلى الدرج، يراقبه بنظرات حادة تحمل الريبة. لم يمهله ضايع الفرصة ليتنفس، بل قفز بحركة مُفاجئة نحو الأسفل، وهبط بجانبه بخفة وحرفية كأنه نزل من قمة جبل، ثم أمسك به بعنف. فزع "أحمد" من هذه المفاجأة وصرخ بصوتٍ عالٍ:
_انت ازاي خرجت؟ وإيه اللي جابك هنا؟ ده أنا هوديك في ستين داهية!

ضايع بسخرية:كان غيرك عملها يا روح أمك! أنا المرة دي مش هعمل حساب لا لأمك ولا لجلال! أنا جاي آخد تاري!
أحمد بصراخ:انت ازاي بجح أوي كده؟ بعد كل اللي عملته وليك عين تيجي؟ ده إنت في ظرف نص ساعة هتكون مشرف في السجن وياريت تبقى توفر محاولاتك في الهروب لأنك كده كده راجع تاني!
ضايع بانتقام:أنا هحرق قلب مراتك عليك، ده أنا هوريك اللي عمرك ما شوفته!
أحمد بعجيج حار:ولا تقدر تعمل حاجة! والشويتين اللي بتعملهم مع أي حد تاني متجيش تعملهم عليا أنا!

فجأة، نجح أحمد في انتزاع نفسه من قبضة ضايع، فاندفع بقوة ليصطدم به في لحظة من الاحتدام الطارئ، ثم بدأ الضرب بينهما يتنقل من جهة لأخرى بشكل مُتسارع، كل ضربة تتبعها أخرى وكل واحد منهما يسعى لإثبات قوته على الآخر. كانت الحركة تتسارع بسرعة مُفاجئة. خارج هذا المشهد المُشتعل، كانت "هايدي" في شقتها، تقوم ببعض الأعمال اليومية، لكن فجأة، انتبهت لصوت غريب، بدا وكأنه ليس من النوع العادي الذي يصدر داخل العمارة. شعرت بشيء غير طبيعي يحدث خلف الأبواب، فاقترابها من العين السحرية جعلها تكتشف الحقيقة الصادمة. رأت أحمد وضايع، أخاها، في حالة اشتباك، يتبادلان الضربات بلا رحمة. اختلطت مشاعرها من الصدمة والفزع، فهرعت بسرعة نحو الباب، فتحته بعجلة، وصوتها يعمّ العمارة، مدويًا في الممرات، ويهز الجدران، مُستنجدة بالجيران، وهي تعول:

_الحقوني، الحقوني...أخويا! خالي البلطجي هرب من السجن!

خرج زياد من الشقة مُسرعًا، ليجد أحمد وضايع في قتالٍ عنيف، وكل منهما عازم على إبراز قوته على الآخر. لم يتردد زياد لحظة، فاندفع نحوهم في محاولة لإيقاف هذا الاشتباك المتهور. لكن بدلًا من التدخل فقط، أخذ يضرب ضايع مع أحمد، مما جعل المعركة تزداد اشتعالًا. في تلك اللحظات، كانت "هايدي" قد انتابتها نوبة من التوتر الحاد، فركضت نحو هاتفها لتتصل بالشرطة، لكنها كانت في حالة اضطراب. يديها ترتجفان، وأفكارها مشوشة، وعينيها تائهة بين ما يحدث وما يجب عليها فعله. الهاتف سقط من يديها دون أن تلاحظ، بينما كانت تحاول أن تتنفس، قالت:

_ألو، ياربي بقى!

خرجت "سيليا" من الشقة، لكن مشهد ما كان يحدث حيالها جعل قلبها يقفز في صدرها، فقد رأت أحمد وضايع وزياد في اشتباكٍ عنيف، يتبادلون الضربات بلا رحمة. لم تُفكر لحظة في عواقب هذا الصراع، بل هرعت بسرعة نحو والدها، ودون وعي منها، اندفعت داخل المعركة بكل قوتها، تحاول بكل ما تملك من طاقة أن تبعد يدي ضايع عن والدها، وهي تود أن تحميه من وحشية الشجار، قائلة بصراخ:

_بابي! سيب بابي! مالكش دعوة بيه!

زياد بصخب:يا كلب يا حقير، أقسم بالله ما هسيبك! إنت اللي اتسببت في موت أبويا، أبويا اللي كان أغلى حاجة عندي حرمتني منه يا وسخ!

بينما كان الجميع غارقًا في العنف، لم يلاحظ أحد تحرك سيليا وسط الصراع. كانت قد اقتربت بخوف من الجثث المُتشابكة، عازمة على حماية والدها بكل قوتها، لكن فجأة، أمسك ضايع بها وسحبها بعيدًا عنهم، ليقف بها في مكان آخر على الدرج. تجمد "أحمد" في مكانه، قلبه يرتعد وهو يشاهد ابنته بين يدي خاله، الذي كان يبدو أكثر قسوة من أي وقت مضى. مشهد ابنته في قبضة المجرم جعل يده ترتجف، وعيناه مليئتان بالخوف. بصوتٍ مرتجف، هتف بألم:

_سيب البنت، سيبها بقولك!

زياد بترهيب:سيبها! إنت عارف جدها يبقى مين؟ دول هيودوك في ستين داهية!
ضايع باستخفاف:وأنا بحب أروح في داهية، أصل اتربيت عليها من وأنا قد كده!
أحمد بصياح:بقولك سيبها! عارف يا ضايع؟ لو البنت حصلها خدش خفيف كده، مش هيكفيني فيك قتلك!

داخل الشقة، انتاب جميلة شعور غريب بأن هناك أمرًا غير طبيعي يحدث، كأن شيئًا خفيًا كان يهدد أمان منزلها. فجأة، شعرت بشيء داخلها يدفعها نحو الباب، ففتحته بسرعة واندفعت خارجة. وما إن خرجت حتى فوجئت بمشهد لا يصدق؛ ضايع كان يمسك بابنتها سيليا بين يديه، وقد أخذها بعيدًا عن كل شيء آمن. صرخت "جميلة" وركضت نحوه بكل ما تملك من قوة، مُحاوِلةً انتزاع ابنتها من بين يديه. لكن ضايع كان أسرع منها، فاندفع هاربًا بها، تاركًا إياها في حالة من الذعر، حيث نطقت بإعوال:
_بنتي...الحقوني! بنتي، سيليا، سيليا!

بمجرد أن نزل ضايع بها، كان أحمد وزياد في إثره، يركضان خلفه بكل قوتهم، لا يتركون له مجالًا للهروب، والعزيمة في عيونهم تتصاعد مع كل خطوة. بينما هايدي لم تجد سوى أن تندفع نحو "جميلة"، التي كانت تصرخ بصوت يقطع نياط القلب. كادت جميلة أن تسقط من شدة النحيب، يدها ترتجف وهي تحاول التماسك، قائلة باستغاثة:
_بنتي آه بنتي، بنتي يا هايدي رجعولي بنتي أبوس إيديكم!

اندفعت "هايدي" إلى الداخل بخطى متسارعة، يكسو وجهها توتر يكاد ينطق، وأمسكت هاتفها محاولة الاتصال بأم قمر الدين، ولكن الصمت كان سيد الموقف، فلا إجابة تأتيها. ازدادت أنفاسها اضطرابًا، فهتفت بسخط يخالطه قلق:
_ردي بقى، هو ده وقته؟

لكن هايدي لم تكن تعلم أن أم قمر الدين كانت غارقة في عالم آخر تمامًا، تعيش لحظات من البهجة الفارهة في حوض السباحة، حيث المأكولات الفاخرة تحيط بها، وشاشة العرض الضخمة تقابلها لتكمل المتعة التي ترفل فيها. في المقابل، كان الشارع مسرحًا لحدث مأساوي، إذ اندفع ضايع بأقصى سرعته، يحمل "سيليا" بين يديه بطريقة وحشية، وصوت صرخاتها يتردد في الفضاء، وعيناها تلمعان بالدموع، تتشبث بآخر أمل، وهي تمد نظراتها نحو والدها، وتقول بصوت متهدج:
_بابي الحقني، بابي!

ضايع بتهكم:ودعيه أصل دي آخر مرة هتشوفيه فيها!
أحمد بصخب:متخافيش يا سيليا، احنا معاكي!

اندفع ضايع إلى شارع جانبي كرياح عاصفة، يتحرك بسرعة جنونية كأنه صاروخ، بينما كان أحمد وزياد يلهثان خلفه، وقد أضناهما الركض وكادت أنفاسهما أن تتلاشى. فجأة، لاحت لـ "زياد" فكرة كوميض برق، فأشار بسرعة نحو الشارع القريب، وصاح بصوت مخنوق:
_دخل من هنا...بسرعة!

بينما كانوا يركضون بجنون، كانت العيون تترقبهم بدهشة ووجوه المارة تكتسي بالاستغراب. توقف "أحدهم"، والقلق يرتسم على ملامحه، وسأل:
_في إيه؟

زياد بجلبة:خطف البنت مننا، والله ما حد فينا هيسيبك يا ضايع الكلب!

هرعت جموع الناس خلفهم، مدفوعين بالفضول والرهبة، محاولين اللحاق بضايع، ولكن كأنه شبح تبخر في الهواء، اختفى كالسراب في لحظة خاطفة. وقف "أحمد" يلتقط أنفاسه المتقطعة، ووضع يده في جيبه يتحسس هاتفه ليجد الفراغ يجيب عليه. عندها، عقد حاجبيه وصرخ بعصبية يعتصرها السخط، وقال:
_فين الموبايل؟ أنا سيبته في البيت؟

زياد بخرع:انت حافظ رقم حد من أهل مراتك؟
أحمد بصياح:هحفظ إيه ولا إيه؟ عددهم كبير، تعالى نرجع البيت بسرعة!
زياد بصراخ:التأخير غلط على حياتها، ده ممكن يعمل فيها أي مصيبة!
أحمد بحيرة:أنا مش عارف أعمل إيه، مش عارف!
زياد:اهدى طيب، تعالى نرجع البيت بس بسرعة!

عاد أحمد وزياد إلى المنزل بسرعة، يلتقطان أنفاسهما بصعوبة، ليجدا جميله منهارة تمامًا، تصرخ بلا توقف، بينما كانت هايدي بجانبها، تحاول الاتصال بأم قمر الدين، التي لم تجب. أما أم قمر الدين، فقد كانت تستمتع بوقتها في حوض السباحة، بعيدة عن أي اضطراب، واضعة هاتفها على الوضع الصامت ومبتعدة به عن الماء لتجنب الإزعاج. في تلك اللحظة، اقتربت منها ابنتها منى بخطوات واثقة، تبتسم ابتسامة وادعة تحمل حديثًا عن خططها المقبلة. دار بينهما حديث لطيف عن المناسبة القادمة لقمر الدين، وبينما كانت منى تستعد للمغادرة، التفتت إلى هاتف والدتها ولاحظت عددًا من المكالمات الفائتة. أشارت إلى الأمر بلباقة، لكن أم قمر الدين لم تعر الموضوع اهتمامًا، مبررة أنها تحب أن تبقى بعيدة عن الهاتف أثناء استمتاعها بالماء، معتبرة أن الانغماس في اللحظة أهم من أي اتصال. أنهت منى حديثها بأدب، متمنية لوالدتها وقتًا سعيدًا، ثم غادرت وهي مطمئنة. بينما في مصيف رأس البر، اجتمعت العائلة بينما انشغلت النساء في المطبخ، وكان الأطفال يلعبون على الأرض، تتملكهم الرغبة في اللهو بالأموال، فتحدث "حمود":
_هنلعب بالفلوس واللي هيكسب هياخد الفلوس كلها ماشي؟

محمد:الفلوس دي بتاعتك؟
حمود بدناءة:أه فلوسي، أصل أنا كنت بحوش من ورا أبويا، كان كل ما ينام أفتح الدولاب وأسحب خمسة جنيه لحد ما بقى معايا فلوس كتير!
تقى بصياح:انت حرامي وأنا هقول لبابا عليك!

ثم رفعت صوتها بالنداء، مستغيثة بوالدها بكل ما أوتيت من قوة:
_يا بابا، بابا!

حمود بوعيد:لو قولتيله هنفخك!
تقى باستغاثة:يا بابا!
حمود بصياح:بقولك إيه، أسكتي!

انتبه "جلال" لنداء ابنته الذي اخترق السكون، فتقدم نحوهم بخطوات ثابتة، وعيناه تحملان تساؤلًا عميقًا، ثم بادر بالسؤال نحو حمود:
_إيه ياض؟ صوتكم عالي ليه؟

تقى بجرأة:حمود بيسرقك يا بابا.
جلال بغضبوانتي إيه عرفك الكلام ده؟
تقى:ماهو قال قدامنا.
حمود بتوعد:وربنا لأسفخك كف!
جلال بحدة:انت ياض، تعالى!

جلس جلال على الأريكة، فنهض حمود بسرعة، خوفًا من أن ينال عقابه، وكانت عيناه تلاحق أخته بنظرات مليئة بالغل، مستنكرًا إقدامها على إفشاء سره. وبينما كان الجو مكتظًا بالخرع، انفجر "عم سلامة" ضاحكًا، قائلًا:
_ياه عليكم عيال أشقيا بشكل وبالأخص الولا حمود.

أشرف بضحك:ده يتفاتله بلاد.

رفع "جلال" يده على كتف حمود، قائلًا بصوت خشن يعتصره السخط:
_الكلام ده بحق وحقيقي؟

حمود بخور:لا دي كدابة، دي بتألف يابا!
جلال بحدة:عارف لو خدت مليم ساغ من فلوسي هعمل فيك إيه؟
حمود ببسمة:لا متخافش، أنا أمين!
جلال باستهزاء:أه وماله، العبوا بعيد وعلى الله أسمع زعيق تاني!
حمود بخوف:ماشي.
جلال بحسم:يلا خد أختك وابن عمتك وامشوا!

غادر الأطفال على الفور من أمام جلال، مُتجهين نحو أمهاتهم في المطبخ، حيث انفجرت قهقهة "حامد" فجأة، وقال:
_فين أيام ما كانت العيال لسه صغيرة، دي كانت والله أيام.

جلال:العيال بتكبر بسرعة، أمال إنت فكرك إيه؟
عم سلامة ببهجة:ربنا يخليهملكم ويباركلكم فيهم.
حامد بتمني:يارب يا حاج.

رن هاتف أشرف، فرفع سماعته وأجاب على المكالمة، حيث تحدث مع والدته بلهجة مطمئنة، مؤكدًا لها أن كل شيء على ما يرام. أخبرها أن هبة في المطبخ مع ليالي، ثم قام بإعطاء الهاتف لحامد الذي تحدث بدوره مع والدته التي سألت عن حال الأسرة، مع تبادل التحيات والاطمئنان على الجميع، بما فيهم عم سلامة وجلال. كان عم سلامة يدعو لأم أشرف بالصحة والعمر الطويل، بينما كان حامد يسرع في إنهاء المكالمة، قائلًا إن الوقت غير مناسب للحديث عن نعمة. في المطبخ، كانت النساء مشغولات بغسل الفاكهة وتجهيز الشاي. كانت ليالي تنظم تحضير العصير، حيث قررت أن يترك جزء منه للتقديم بعد الغداء، بينما وضع جزء آخر في الثلاجة ليظل باردًا. لاحظت هبة المشروبات في الثلاجة وأبدت إعجابها بحرص ليالي على تحضير المشروبات للمساء، ثم أضافت أنها ستذهب لتغيير ملابس طفلتها قبل أن يخرجوا. أكملت ليالي العمل في المطبخ مع نعمة وتباهي، ثم خرجوا حاملين المشروبات، والفاكهة، فقال "عم سلامة" بابتسامة وهو يستلم كوب الشاي من تباهي:
_تسلم الأيادي.

تباهي بحنان:بألف هنا وشفا... مدوا إيديكم كلوا!

وضعت ليالي وتباهي العصائر والفاكهة على الطاولة بتأنٍ، حيث كانت الألوان الزاهية للعنب، والتفاح، والموز، والتين البرشومي تزين الطبق. بدأ كل واحد من الحاضرين تناول ما يفضله، فتلتقط إحداهن قطعة

من الفاكهة بينما يلتقط الآخر كوبًا من الشاي. بينما كان "جلال" يأخذ حبات العنب بتأمل، ووجهه يعكس الهدوء، قال لحامد بلهجة حاسمة، مُحاولًا أن يفرض نوعًا من السيطرة:

_بص بقى يا معلم، الشط ده له دخلتين!

حامد بانصات:معلوم.
جلال:أنا هدخل بيكم من الدخلة التانية.
حامد بفضول:اللي هى إيه؟
جلال:مش عارف، أبقوا شغلولنا النوت عشان نتابع.
أشرف بضحك:قصدك النت يا جلال!
جلال بانفعال:جرا إيه يا عم؟ وانت هتعدل عليا ولا إيه؟ اسمه النوت هو إنت هتفهم أكتر مني ولا إيه؟ ما في إيه؟ مش فاهم!
ليالي بقلق:طب خلاص... بقولكم والنبي سيبوا شوية لهبة.
أشرف بابتسامة:أمي بتسلم عليكي يا حماتي.
تباهي بإعزاز:الله يسلمها يابني ويسترها وما يحرمنا من سؤالها علينا أبدًا.

خرجت هبة من الغرفة، تحمل ابنتها الصغيرة بين يديها بعدما انتهت من تغيير ملابسها. كانت نظراتها تتنقل بين ابنتها وحضورها، فقالت "تباهي" لها بلهجة تملؤها الحنان:

_هاتي التليفون يا هبة أكلم حماتك!

هبة:حاضر ياما، استني!

أحضرت هبة الهاتف من على الطاولة في البلكونة، وعادت إلى والدتها، وسلمته لها، بينما كانت تباهي تتمعن النظر في الهاتف، بحثًا عن جهة الإتصال "أم أشرف". أخيرًا، ابتسمت عندما وجدته، وأسرعت بالاتصال، ليجيب صوت صديقتها أم أشرف، التي رحبت بها بحفاوة وسألت عن أحوالها بكل محبة. في هذه الأثناء، جلست هبة على المقعد بجانب ابنتها الصغيرة، تتناول الفاكهة ببطء، بينما كانت أنظارها تتنقل بين ما حولها. كان الجميع غارقًا في الحديث، شاربين الشاي، وأيديهم تتنقل بين حبات الفاكهة الطازجة. كان الجو ملآنً بالأنس، لكن "عم سلامة" كان يطوف بعينيه بين الحضور، مفكرًا في غياب المعلم حنفي، الذي كان دائمًا حاضرًا في مثل هذه التجمعات، قائلًا بحنين:

_بس القاعدة دي كان ناقصها المعلم حنفي.

جلال:يلا بقى تتعوض مرة تانية، يكون المزاج تمام.
عم سلامة:على خير إن شاء الله.

دخل كل فرد من العائلة إلى غرفته، واحدًا تلو الآخر، يملؤهم الحماس لرؤية البحر. ارتدى الجميع ملابسهم المناسبة للرحلة، حيث ارتدى الرجال الشورتات بينما كانت النساء ترتدين البوركيني، أما الأطفال فكانوا يحملون العوامات بأيدٍ صغيرة، مستعدين للانطلاق نحو البحر. عندما اجتمعوا جميعًا في السيارة، انطلقت بهم نحو الشاطئ، وسط ضحكات الأطفال وتبادل الأحاديث. كانت السيارات تمر بجانبهم على الطريق، والنوافذ مفتوحة، تسمح لهم بالتنفس واستنشاق الهواء العليل. وصلوا إلى الشاطئ بعد رحلة قصيرة، فركن جلال السيارة بين صفوف السيارات المتراصة، ثم نزلوا منها جميعًا. توجهوا لاستئجار طاولتين من أحد الصبية، الذين كانوا يساعدون الزوار في ترتيب أماكنهم. جلسوا حول الطاولات، مستمتعين بالجو المشمس، بينما هرع البعض منهم إلى البحر ليغمرهم الموج، بينما بقي الآخرون على الكراسي تحت المظلات يستمتعون بالمنظر.

في منزل أحمد، عندما وصل مع زياد، فوجئا بعائلة جميلة التي تجمعت حولها، يواسونها في محنتها. كانت جميلة جالسة في منتصف الأريكة، وقد اجتمع حولها سامية وباسم، بينما كانت صرخاتها تتناثر في الأرجاء، تغمر المكان بالشجن. أما هايدي، فكانت في شقتها، تبكي بحرقة على اختطاف ابنة أخيها. في تلك اللحظات العصيبة، مالت يد "سامية" برفق نحو أختها، تواسيها بحنان، وقالت:
_اهدي يا حبيبتي عشان خاطري أنا طيب! حقك وحق سيليا هيرجع من الحيوان ده، والموضوع هيتحول لقضية رأي عام!

باسم بحسم:ده أنا مش بس هجيبلك حقك وحق بنتك يا جميلة، ده أنا هخليه يكره اليوم اللي جه فيه الدنيا! وهعرفه إن الله حق... باسم وكل اللي في دايرته ممنوع حد يقرب منهم ولا يفكر بس يلعب بديله معاهم!
جميلة بإعوال:مش هقدر أستحمل فيها حاجة وحشة يا بابي! أنا بجد هموت على سيليا!
قمر الدين بصياح:الكلب الوسخ ده ازاي عمل كده؟ أنا فعلًا مستغرب ومش مصدق ازاي يتصرف معانا احنا التصرف ده؟ ده احنا من أكبر عائلات البلد وكل الناس بتعملنا ألف حساب! شكله كده ميعرفش احنا مين، لكن أنا بقى هعرفه!
جميلة بنشيج:علشان خاطري يا بابي ترجع حقها، أنا عايزاها ترجع لحضني من تاني، مش هقدر أعيش من غيرها!
باسم بثقة:متقلقيش يا حبيبتي! أنا عملت مكالماتي وهما دلوقتي بيشوفوا الإجراءات اللازمة.
سامية باستياء:اهدي يا روحي عشان خاطري! هترجعلك والله، ثقي فينا بس! احنا كلنا في ضهرك!
جميلة ببكاء:يارب.

مررت سامية يديها برفق على كتف جميلة، محاولة أن تهدئ من روعها، ثم عانقتها بحرارة وقبلت رأسها، متأثرة بما حدث لسيليا، تلك اللحظة التي كانت مليئة بالحزن، عسى أن تجد جميلة في هذا العناق بعض السلوى. بينما كان "أحمد" يخرج من الغرفة، كان يكتنفه التعجب، ويملأه السؤال عن كيفية هروب "ضايع" واختفائه المفاجئ. خطواته كانت ثابتة، وعيناه تبحثان عن جواب، وهو يصلب طوله في الممر، يسأل عن آخر التطورات التي تخصه:

_إيه اللي إنت وصلت له يا عمي؟

باسم بجَزع:انت عارف إن أنا ليا علاقة وطيدة بوزير الداخلية وأصدقاء جدًا جدًا... الحقيقة مبيرفضليش أي طلب وده لمكانتي الكبيرة عنده، أنا كلمته وقالي متقلقش هيتجاب من تحت الأرض ومش بعيد إنه ياخد إعدام خصوصًا إنه قتل ضحايا كتير، ده غير السرقة وتجارة الأعضاء والمخدرات! خالك ده كسر الأرقام القياسية في الأعمال المنافية للأداب والأعمال الإجرامية.
أحمد بتبرُّم:جميلة كانت خايفة من حاجة زي دي إنها تحصل... أنا بس اللي محطتش الموضوع في دماغي! معرفش إنه هيحصل كل ده وكمان قصاد عينينا!
قمر الدين بتعهُّد:يوم ما يتعدم أنا عليا دبح تلات عجول، الواحد فيهم وزنه طن، بس ياخد جزاءه والناس ترتاح من شره.
أحمد بتنهد:أنا خايف يعملها زي ما عملها قبل كده وهرب، أصل اللي زي ده مالوش مالكة ولا له إيد بتوجعه.

باسم برصانة:كل واحد فينا له إيد بتوجعه، بس في اللي بيبين وفي اللي بيخبي نقطة ضعفه، واحنا لازم نعرف إيه نقطة ضعفه!
قمر الدين بسخرية:واحنا هنعرف ازاي بقى إن شاء الله؟ هنجيبه ونسأله إنت إيه نقطة ضعفك عشان نستغلها؟
باسم بتضايق:مش ده قصدي يا قمر الدين! وياريت متكونش مُتسرع!
أحمد بتفهم:أنا فاهم قصد عمي، بس هو نقطة ضعفه باينة للعلن، الخمور والبيرة والمخدرات والقرف اللي بيشربه.
باسم برصانة:بالظبط، أكيد هو مدمن مخدرات، وأنا لازم أوصل المعلومة دي لسيادة الوزير ولازم يتعمله تحليل مخدرات وإذا ثبت الأمر هيكون في صالحنا جدًا إننا نمنع عنه القرف ده!
قمر الدين بتعجب:وحضرتك كده بتنتقم منه ولا بتساعده لما تمنع عنه المخدرات؟

كان الجميع يتحدث، هذا يناقش وهذا يطرح أسئلة، لكن "جميلة" كانت صامتة، تذرف الدموع بصمت، وكأنها لا تجد كلمات تعبر عن ألمها. فجأة، نهضت، وكأنما خرجت عن شعورها، وعيناه تتلألأ بالدموع، وصرخت بصوت مدوٍ ارتد صداه في الحي، يكاد يوقف الزمن من حولها:
_أنا كل ده ميهمنيش! أنا اللي يهمني بنتي ترجع لحضني، أنا هموت نفسي لو سيليا حصلها حاجة!

لكن هروب "ضايع" من السجن، أو حتى اختطافه لابنتها، لم يكن الفعل الأخير الذي يمكن أن يمر بسلام. إذا تركته الشرطة، كان لا بد من إيجاده في أقرب وقت، قبل أن ينفذ مخططاته الأخرى. صمت الجميع بينما كانت جميلة تصرخ بكل ما في قلبها من ألم. في تلك اللحظة، نهضت سامية بسرعة، ضمت جميلة إلى صدرها بحنان، محاولةً أن تمسح عن وجهها تلك الآلام، بينما وقف أحمد بجانبهم، يحاول أن يخفف عنها بما أوتي من

صبر. أما أم قمر الدين، فقد كانت بعيدة عن كل هذه الأحداث المأساوية، لم تكن تعلم بما حدث حتى الآن، وغابت عن ذهنها تلك التطورات السريعة التي أخذت الجميع في دوامة من الفزع.

يتبع....

الفصل السادس

هدأ "باسم" من روع ابنته جميلة، ناظرًا في عينيها بعمق يفيض بالطمأنينة، ثم قال بصوتٍ يحمل يقين الوعد:

_متخافيش يا جميلة! أنا بوعدك إن بنتك هترجع لحضنك النهارده قبل بكرا!

جميلة بنحيب:أنا الدقيقة بتعدي عليا كأنها سنة! استفاد إيه لما خد بنتي وهرب؟ حد يقولي!
قمر الدين:خليكي هادية شوية عن كده واحنا بنوعدك إن كل حاجة هترجع لطبيعتها من تاني!
جميلة بسخرية:أكون هادية؟ بنتي مخطوفة وأكون هادية؟ إنت بتقول أي كلام يا قمر الدين؟ مانت لو مكاني كان زمانك بتلف حوالين نفسك!
سامية بحدب:علشان خاطري يا حبيبتي! طول مانتي متعصبة وتعبانة كده مفيش حاجة هتتحل! فمن فضلك حاولي تهدي بقدر الإمكان عشان نقدر نتصرف، ممكن؟

نظرت جميلة إليها بعينين تغشاهما هدوء مؤقت، والكلمات قد شُلّت في حضرة الألم، واكتفت بالصمت الممزوج بالرجاء. ساعدتها سامية على الجلوس برفق، تحتضنها بشفقة الأم التي تداري جراح الزمن. في الجانب الآخر، كان باسم وقمر الدين في سباق مع الزمن، لا تهدأ هواتفهما لحظة، يتصلان بالجهات المختصة بكل ما يملكانه من أمل مختلط بالخوف، وصوتيهما المتكرر كل دقيقتين يحمل رجاءً ثقيلًا بعودة سيليا قبل أن تمتد إليها يد الموت. أما ضايع، فقد تلاشى في سراب غامض، يقوده حقد دفين وظروف غريبة نحو درب الانتقام. أول ما فعله هو التوجه لمنزل أحمد، حاملًا معه نية مُظلمة للانتقام منه بعد أن شهد ضده في المحكمة. لم تكن غايته مجرد إيذاء أحمد، بل كان يتربص بالعائلة بأكملها، عازمًا على جعل كل فرد فيها يدفع الثمن، لكنه اختار أن يبدأ بأحمد أولًا.

في سجن النساء. كانت أم الديب تواجه مصيرها في الحبس الانفرادي. الأرضية القذرة تحتها كانت شاهدةً على ذلها، والجدران المظلمة تطوقها بهالة من الوحشة. جلست متربعة على الأرض، تفكر بخطة يائسة للهرب. وسط الظلال القاتمة، لمحت قطعة حديدية مهملة في زاوية الغرفة الضيقة. نهضت إليها والتقطتها، ثم قررت ابتلاعها في حركة جنونية يائسة، وكأن الألم بات سبيلًا للحرية. صرخاتها اخترقت صمت السجن، فتردد صوتها بين الجدران الموحشة. سرعان ما استجاب "أحد العساكر"، دافعًا الباب بعنف وقد غمره الانزعاج من صخبها، ثم سألها:

_إيه يا ست؟ دوشتينا، مالك في إيه؟

بركت "أم الديب" على الأرض، تتوسل للعسكري بعينين غارقتين في الذل، تضرب بكفيها على بطنها بعنف، محاولة دفع الألم الذي استبد بها إلى الخارج. كانت أنفاسها متقطعة، ووجهها مكسوًا بشحوب الموت، تصرخ بصوت تخنقه المرارة، محاولة أن تثير شفقتَه، قائلة:

=يا لهوتي، بطني بتتقطع يا خلق، في حاجة بتقطع في مصاريني! يا خرابي انجدني يا راجل انت! أبوس إيديك ورجليك تنجدني!

العسكري بهلع:اصطبري طيب!

أوصد العسكري الباب خلف أم الديب بسرعة، تاركًا وراءه صدى صراخها يتردد كآهات حبيسة بين الجدران، ثم اندفع نحو مكتب مأمور السجن يلهث من القلق، يخبره باضطراب أن إحدى السجينات توشك أن تسقط صريعةً تحت الموت. لم يتردد المأمور، فأمره بنقلها فورًا إلى مستشفى السجن لتلقي العناية اللازمة. عاد العسكري بصحبة زميله إلى الزنزانة الضيقة، وحملا أم الديب وهي تتلوى بين يديهما، تصدر أنينًا يقطع نياط القلوب. تحركوا بسرعة عبر الممرات القاتمة نحو المستشفى، حيث استقبلها الفريق الطبي.

أُدخِلت أم الديب على الفور إلى غرفة العمليات، وبدأ الأطباء سباقًا مع الزمن لإنقاذ حياتها. أجروا تنظيرًا دقيقًا أكد وجود القطعة الحديدية، فشرعوا في استخراجها بواسطة المنظار الجراحي. دام العمل الجراحي نصف ساعة، كانت فيها بين الحياة والموت. حين انتهى الفريق، نقلوها إلى غرفة العنبر وأعادوها إلى سريرها، بين المرضى الآخرين، حيث ألقت بضعفها على الوسادة، وانتهت رحلتها مع الألم. حينما استفاقت أم الديب ببطء، شعرت بجسدها مثقلًا بالإنهاك، وسمعت همسًا قريبًا. كانت "الممرضة" واقفةً بجانب السرير، توجه حديثها إلى زميلتها، وهي تعلق على حالة أم الديب، قائلةً:
_الحمدلله إنها بقيت أحسن.

أم الديب بإنهاك:أحسن إيه؟ انتوا مين؟ آني فين؟
الممرضة بقلق:انتي مش فاكرة أي حاجة خالص؟
أم الديب بصراخ:آني مين يا ناس؟ آني نسيت اسمي.

غادرت الممرضتان الغرفة، تاركتين أم الديب تصرخ بصدمة، وقد فقدت إدراكها لاسمها ومنشأها. توجهتا إلى مكتب الطبيب على عجل، حيث كان منشغلًا بالعمل على الحاسوب. بادرت "إحداهما" قائلة بقلق واضح عن حالتها:
_بقول لحضرتك يا دكتور، المريضة اللي عندنا، اللي جات من سجن النسا نتيجة بلع آله حديدية، هي مش فاكرة أي حاجة خالص وبتسأل عن نفسها وإيه اللي جابها هنا!

الطبيب:طب ثواني أنا جاي معاكي!

نهض "الطبيب" من على مكتبه بسرعة وتبع الممرضة إلى عنبر المرضى. وصل إلى سرير أم الديب، حيث وقف أمامها بملامح هادئة، محاولًا تهدئة العلة التي كانت تلف الغرفة. نظر إليها باهتمام، ثم سألها:
_أستاذة بسمة، ازيك؟

أم الديب بارتياع:انت مين؟
الطبيب بتبسم:أنا دكتور أيمن اللي بتابع حالتك، ممكن أتكلم معاكي؟
أم الديب بصراخ:آني عبيطة يا ناس، آني مخي تعبان!
الطبيب:اهدي!

نظر "الطبيب" إلى الممرضة نظرة مختصرة، ثم أشار برأسه نحو الباب، قائلًا بحزم هادئ، مطالبًا إياها بالمغادرة ليتسنى له متابعة حالة أم الديب بشكل منفرد:
_روحي إنتي يا رشا!

غادرت الممرضة العنبر بهدوء، تاركة الطبيب بمفرده مع أم الديب. جلس "الطبيب" على الكرسي قبال سريرها، ممسكًا بورقة وقلم في يده، وأخذ يحدق فيها للحظة قبل أن يوجه إليها سؤاله بعناية، محاولًا فهم حالتها بشكل أفضل، قائلًا:
_انتي إيه اللي خلاكي بلعتي الحديدة؟

أم الديب بخَبَال:أصل وآني صغيرة أمي خدتني للداكتور قالي إنتي عندك نقص حديد ومن يومها وآني كل ما بلاقي حديد قصادي ببلعه.
الطبيب بدهشة:حديد إيه اللي بتبلعيه؟ إنتي عندك أولاد يا حاجة؟
أم الديب بعَتَه:عندي تلاتة، جوزي وأمي وخالتي.
الطبيب باستغراب:أنا بقولك عندك أولاد! عيال يعني إنتي اللي مخلفاهم!
أم الديب بإختبال:أمال؟ عندي، بس جارتي اللي مخلفاهم.
الطبيب بجدية:ماهي لو جارتك اللي مخلفاهم ميبقوش عيالك انتي! على العموم أنا هعرضك على دكتور نفسي.

دون الطبيب حالة "أم الديب" في الورقة بسرعة، ثم غادر الغرفة بنية إحضار طبيب نفسي بعدما شعر أن حالتها قد تحولت من مرض عضوي إلى اضطراب نفسي، إذ بدا له أنها تمر بحالة عقلية متدهورة تحتاج إلى تدخّل متخصص. ما إن غادر، حتى انفجرت أم الديب في صراخ مدوٍ، وأخذت توطأ رأسها بعنف على الوسادة. بينما تنوح بصوت يتسارع ويخفّ في آن واحد، والكلمات تختلط في ذهنها وتصبح بلا معنى، قالت:

_نفوخي مصدع يا خلق! الحقوني ببرشامة! أمي يوم ما ولدتني وقعت على نفوخي نزلت في بلاعة، من يومها وآني مصدعة والصداع ماسكني، آه يا نفوخي آه.

كانت أم الديب تحاول بكل الوسائل أن تظهر نفسها في حالة من اللامبالاة، تقاطع الكلمات وتردد هراءً علّها تجد طريقًا لتخفيف حكمها أو لإخراجها من السجن. بينما كانت "إحدى النساء" في العنبر تمر بمرض عارم، نظرت إلى أم الديب بتعجب، وقد شعرت بصدق أن حالتها تفوق الحدود، فغمغمت في نفسها، متسائلة عن حقيقة ما يجري، ثم قالت لها:
_انتي سليمة زينا يا حاجة؟

أم الديب بغلاظة:وانتي مالك يا ولية؟
السيدة بخرع:أنا غلطانة.

ندمت السيدة على سؤالها، وشعرت بأن فضولها قد زاد من تعقيد الأمور، فانشغلت بمرضها تاركة أم الديب في حالة من الجنون، حيث استمرت في الثرثرة بأحاديث بلهاء، وعقلها قد تمزق بين خيوط الواقع والخيال. بعدما أخبر الطبيب العضوي صديقه "الطبيب النفسي" بحالة أم الديب، دخل الأخير إلى العنبر ليكشف على حالتها ويشخصها ويبدأ في علاجها. تقدم بخطوات هادئة نحو سريرها، وابتسم ابتسامة واسعة تحمل مزيجًا من التعاطف والاحترام، ثم بدأ بتوجيه حديثه إليها بلغة لطيفة، قائلًا:
_أهلًا بحضرتك.

أم الديب بخَرَف:يا أهلًا يا أم سيد.
الطبيب بصدمة:أم سيد؟

لم يكن الطبيب يتخيل أن الحالة التي وصل إليها عقل أم الديب ستكون بهذا التعقيد، فاضطر للجلوس أمامها على الكرسي، محاولًا بعناية أن يتحدث معها بطريقة مهنية، بحثًا عن جذور هذه الاضطرابات المتعددة التي بدت قد سكنت أعماق شخصيتها. كان عقله مشغولًا بالبحث عن الأسباب التي دفعت بها إلى هذه النقطة، بينما كانت أم الديب تستمر في غمرتها بأفكار متشابكة، لا سبيل للولوج إليها بسهولة.

في مصيف رأس البر، حيث كانت الأجواء مشبعة بحرارة الصيف ونسمات البحر، كانت ليالي تجلس، وهي حاملة عمر بين يديها، بجوار والدتها التي كانت ترفع يديها على سيارة الأطفال التي كانت تحتوي ابنة هبة النائمة. بينما كانت باقي أفراد العائلة قد توغلوا في البحر، مُستمتعين بمياه البحر المُنعشة.

الشاطئ كان يعج بالمصيفين البسطاء الذين جاءوا من مختلف الأماكن، أغلبهم من الريف، قادمين للاستمتاع بيومين من الراحة وسط عام طويل مليء بالكد والعمل. أصوات الأمواج كانت تتناغم مع الهواء، والصفير، إضافة إلى نداءات بائعي الثياب، والبطاطا، والترمس التي كانت تنتشر في الأجواء. كان الصوت المميز لبائع البطاطا الحلوة يعلو على باقي الأصوات، فأرادت "تباهي" أن تشتري منه، فمدت يدها نداءً نحو بائع البطاطا، وسألته:

_بكام البطاطا يا حاج؟

أخبرها بائع البطاطا بالسعر، فقررت أن تشتري منه أربع أطباق، كل طبق يحتوي على قطعتين من البطاطا الحلوة. كان بائع البطاطا قد خزن الثمار منذ الشتاء الماضي ليقدمها بشكل فريد في موسم الصيف، حيث كان يزينها بالشوكولاتة والمكسرات مثل السوداني، مما جعلها تبدو أكثر إغراءً لرواد الشاطئ الذين يبحثون عن شيء لذيذ. في أعماق البحر، كانت نعمة وهبة وتقى تسبحن معًا، تستمتعن بالمياه الباردة التي كانت تنتعش بها أجسادهن في مواجهة حرارة الشمس. بينما كان الرجال والأطفال يلهون في دائرة كبيرة بالبحر، يمرحون ويلعبون، في مشهد يبعث على البهجة. فجأة، قال "جلال" لهم بحماس، يحثهم على الانضمام لتحدي:

_أنا هعمل تحدي معاكم، بس الحريم برا ميدخلوش في التحدي معانا!

عم سلامة بضحك:تحدي إيه يا جلال؟

أشار "جلال" بيده نحو المثلث الذي يتباعد بمسافات شاسعة عن الشاطئ، حيث كانت المياه تبدو أكثر عمقًا وظلامًا، وهو مكان يتطلب سباحًا ماهرًا لبلوغه. كانت الأمواج هناك تتلاطم بقوة، مما يزيد من صعوبة الوصول إليه. ثم قال لهم، بصوت يحمل تحديًا:

_شايفين المثلث اللي هناك ده؟

حامد بتمعن:أه ماله؟
جلال:هعد لحد تلاتة واللي هيوصل هناك الأول هيكسب.
أشرف بحماس:هيكسب إيه؟
جلال بسماجة:هيكسب من غير حاجة، أهو كسبان بالإسم!
أشرف:لا احنا عايزين حافز يشجعنا! بصوا أنا هعد لحد تلاتة واللي هيكسب هياخد هدية بحق وحقيقي مش كلام وخلاص!
عم سلامة بتضامن:ماشي يا أشرف موافقينك.
حامد باستعداد:ماشي يلا بينا.

نظر جلال إلى "أشرف" ببغضاء، حيث كان يعجز عن تقبل وجوده، وكان يشعر برغبة عارمة في توجيه صفعة قوية له، لكن ما منعه من ذلك هو كونه زوج أخت زوجته. مع ذلك، حاول جلال كتم مشاعره، موجهًا نظره إلى المثلث البعيد. أما أشرف، فكان يبدو مُستعدًا، ثم قال:
_يلا، يلا يا حامد!

أشرف بتأكيد:عم سلامة ها!
عم سلامة بقلق:ما تخرجوني من الموال ده يا أشرف! هو أنا صحتي في السن ده هتكون زي صحتكم؟ ده انتوا لسه في عز شبابكم، ربنا يحفظكم يارب، بس أنا مش هقدر!
أشرف بإجلال:لا يا عمي لازم تدخل معانا! وبعدين هو إنت ماسك العكاز في إيدك وبتقول أه؟ مانت لسه صحتك شباب أهو!
عم سلامة برهبة:يابني السن له حكمه!
أشرف بإلحاح:جرب بس مش هتخسر حاجة!
عم سلامة:ماشي.

وقف الجميع في خط متوازي، كل منهم يستعد لما هو قادم. كانت الأنفاس تتسارع، والقلوب تخفق في انتظار اللحظة الحاسمة. بدأ "أشرف" بالعد التصاعدي، صوته قويًا وواثقًا، قائلًا:
_يلا، واحد... اتنين... تلاتة.

بدأ الجميع في التوجه نحو المثلثات البرتقالية التي تلوح في وسط الشاطئ، فكل منهم كان يجاهد في المياه، حيث كانت الحركات متعثرة، وثقيلة، وكأنها تحدي للقوة. أما جلال، فكان الأسبق، فهو الذي اجتاز المسافة قبلًا وأصبح في مقدمة الركب. فقال له "أشرف"، بصوت حافل بالود:
_الله ينور عليك يا جلال.

جلال:بُص بقى يا معلم منك له، نرجع بقى لحد الشط!
أشرف:خلاص ماشي، حتى أكبرلكم الهدية شوية.
جلال:تمام.

ثم اصطفوا جميعًا في خط متوازٍ، وكل منهم يحدق في الأفق، منتظرًا لحظة انطلاق السباق. بدأ جلال العد التنازلي بصوت عالٍ، فمن يصل إلى بداية الشاطئ أولًا، سيكون له الفوز بالجائزة، حتى أطل "جلال" مرة أخرى في المقدمة، فكان الفائز للمرة الثانية. حينها مسح وجهه من مياه البحر المالحة التي لم تزد إلا عزيمته، وتنفس بعمق، ثم قال:
_فين الهدية بتاعتي يا عم؟

أشرف بإرهاق:بالليل بقى لما نرجع.
جلال بارتياب:وأنا إيه ضمني إنك قد كلمتك؟
أشرف:جرب ومش هتخسر.
حامد ببشاشة:لا يا جلال مالكش حق، أشرف كلمته زي السيف على رقبته!
جلال بحدة:أما نشوف.

ليعود كل منهم إلى السباحة بمفرده من جديد، وكأنهم ينسجون حكاياتهم الخاصة في مياه البحر التي لا تنتهي. وفي تلك اللحظة، دخلت "ليالي" إلى دائرة السباحة المخصصة للسيدات، حيث كانت تسبح بذراعيها بحركة انسيابية، ومع كل ضربة يد، كانت المياه تصطدم برأسها، فيتطاير الرذاذ نحوها، وقالت بانسجام تام:
_الماية هنا حلوة أوي!

هبة بسرور:أيوه أنا كنت خايفة تطلع غريق، أصل أنا مبعرفش أعوم.
نعمة بمزاح:وحياتك ما حد فينا بيعرف يعوم، اللي احنا فيه ده بيسموه عوم كلابي.
هبة بضحك:على رأيك.

خرجت هبة من المياه، وقد تساقطت قطرات البحر من جسدها، لتستدعي ابنتها الصغيرة، عازمة على أن تغمرها بمياه البحر، لتلهو معها وتعلمها كيف تتأقلم مع هذه الأمواج العاتية. لكن "ليالي"، التي كانت تراقبها بصمت، نظرت إليها باستغراب، ثم قالت، بصوت يحمل نبرة تساؤل:
_رايحة فين يا هبة؟

هبة:هجيب البنت وجاية.

بعدما وصلت هبة إلى والدتها، جلست على الكرسي بجانبها لتستريح قليلًا، مستمتعة بلحظة من الهدوء بعد عناء السباحة. أما "نعمة" فقد شعرت أن هبة قد ترددت في البداية عن السماح لابنتها بالنزول إلى المياه، خوفًا عليها من تلك الأمواج المتلاطمة. فابتسمت بخفة، ثم التفتت إلى ليالي وقالت:
_شكل هبة كانت خايفة عليها.

ليالي بتأكيد:أيوه أصل هي وأشرف راحوا قبل كده شط في إسكندرية وطلعت الماية عالية، راحت واخداها وخارجة وحلفت ما هي نازلة تاني وفضلت طول اليوم قاعدة برا.
نعمة:ليها حق تخاف بصراحة، مفيش أغلى من الضنا.

اتجه "حمود" بقاربه الصغير نحو والدته، وهو يحدق في المياه بعينين مليئتين بالعزم، راغبًا في أن يتخلى عنها ويغمر جسده في البحر كما يفعل الكبار، محاولًا إثبات نفسه في هذا الفضاء اللامتناهي. وعندما اقترب منها، قال لليالي:

_ياما أنا عاوز أقلع العوامة وأعوم زي أبويا!

ليالي باعتراض:لا، على الله حد فيكم يقلعها! هو أنا مستغنية عنكم ولا إيه؟
حمود بدهشة:اشمعنا أبويا، وعمي حامد، وعمي أشرف بيعوموا من غيرها؟
ليالي بحدة:عشان هما بيعرفوا يعوموا، لكن إنت وأختك مبتعرفوش.

رفضت ليالي رفضًا قاطعًا أن يسبح طفلها بدون قاربه الصغير، فقد كان خوفها يطوق قلبها كحبل مشدود، لا تقوى على قطعه، فسلامة ابنها لا تقدر بثمن. لم تكن تملك أغلى من أسرتها، وكانت ترغب في العودة معهم كما ذهبوا، دون نقصان في أحدهم. شعر حمود بالخيبة في أعماقه، إذ عاد إلى والده، وعيناه مليئتان بالأسئلة التي لم تجد لها جوابًا. في تلك اللحظة، نظرت "نعمة" إلى ليالي، وهي تتأملها، ثم قالت برفق:

_طب ما بقولك يا ليالي ما نعلمهم العوم دي فرصة! إكمن الولا محمد كام مرة يقولي عاوز أعوم في الترعة وأنا مبرضاش، بصراحة بخاف عليه بعد الشر يغرق.

ليالي بإرشاد:ياختي الترعة فيها بلهارسيا، أسكتي والنبي ماحنا ناقصين أمراض.
نعمة:لا دي المية الراقدة، إنما المية الجارية بتبقى نضيفة وزي الفل، لولا بس أهل حتتنا مبهدلينها بالزبالة واللي بتغسلك فيها المواعين واللي بتغسل فيها الهدوم.
ليالى بتقزز:ماهي دي ياختي حاجة في حد ذاتها تخليكي متنزليش الواد في المية!
نعمة باقتناع:على رأيك.

دخلت هبة المياه، حاملة ابنتها بين يديها بحرص شديد، كأنها تحمل قلبها بين ذراعيها. كانت رأس الصغيرة مستندة على كتف والدتها، تنعم بالأمان في حضنها، فيما كانت هبة تتفادى الأمواج، تحمي ابنتها من تلك الزخات الموحشة التي قد تزعزع سكينتها. تقدمت بهما إلى حيث كانت ليالي ونعمة، حتى وصلت، فأعطت "ليالي" ابنة أختها قبلة حانية على يدها، ثم ابتسمت وقالت بلُطف:

_العسل كان نايم ولا إيه؟

هبة بزهزقة:أه كانت نايمة.
ليالي بإعزاز:حبيبة خالتها.

ثم قبلت رأس طفلة أختها بحنو بالغ، وكأنها تغمرها بكل حبها. كانت هبة تحرك قدمي الصغيرة بلُطف في المياه، تساعدها على التعود على السباحة، لتكون قادرة على مواجهتها بثقة، وتترعرع لتصبح سباحة ماهرة

لا تعرف الرهبة. كان الجميع منهمكًا في السباحة وسط صخب الأمواج المتلاطمة، وأحاديث الناس التي تملأ الأفق، مع الصفير المتواصل ونداءات الباعة المتجولين. بينما كانت "تباهي" جالسة على الكرسي على الشاطئ، تأكل البطاطا بالملعقة وتستمتع بلحظاتها الخاصة، وبينما كان الموج يلامس قدمها، تحدثت مع أم أشرف عبر الهاتف عن كيفية صنع السمن البلدي، قائلة:
_أه مانا بعملها زيك بالظبط، هو في ناس بتربها بإيديها وناس بتعملها على النار، بس مبتبقاش مرملة تحسي إنها قلبت زبدة.... مانا وانتي زي بعض في حاجات كتير.... الله يخليكي كل الناس بتقول نفس الكلام، الحمدلله إن نفسي حلو في الأكل دي نعمة وفضل من عند ربنا.

قدمت لحظة لعب الكرة في المياه بين رجال العائلة، وهم يقفون في دائرة متراصة، يتبادلون الكرة بينهم بحركة سريعة، وأصواتهم تملأ الشاطئ. كان البحر يضج بالحياة، والأمواج تصفق حولهم كأنها تصفق لمهاراتهم. فجأة، خرج حامد من الدائرة، عازمًا على إحضار محمد الذي كان بين ذراعي نعمة، فبادر بمسارعة الخطى. حينها باعدت "نعمة" يديه عن ابنها بحذر، ثم قالت له بدهشة في صوتها:
_إيه ياخويا في إيه؟

حامد:هاخد الواد يدخل معانا جوا.
نعمة بخرع:لا والنبي سيبه هنا! المياة جوا غويطة.
حامد بإلحاح:يا بت متخافيش! هاتيه بس!

مد حامد يديه نحو محمد، ورفعه فوق كتفيه برفق، ودخل به إلى دائرة رجال العائلة. نظرت "نعمة" إليه، وشعور من القلق يسيطر عليها، فابتعدت عن مكانها وأسرعت خطواتها نحوه، عينيها تراقبان ابنها عن كثب، بينما كانت الأمواج تصطدم بالشاطئ وتبتلع الصوت من حولها، قالت بنبرة مرتفعة:
_خليك مع أبوك متبعدش عنه يا محمد!

محمد بطاعة:ماشي.

بدأت العائلة في لعب الكرة البلاستيكية الزاهية، يتنقلون بها بين أيديهم بسرعة، كل منهم يلتقطها ثم يمررها بحركة مرحة. كانت ضحكاتهم تتردد في الهواء، تغمر الشاطئ بالحيوية. وفي وسط هذه الأجواء، باعد "أشرف" وعم سلامة عنهم، حيث ابتعدا قليلًا ليشتركا في حديث خاص. نظر أشرف إلى حماه بابتسامة، وأخذ يتحدث إليه بنغمة تحمل الود:
_بقالك سنين إنت يا عم سلامة مشوفتش البحر.

عم سلامة:بقالي يجي عشرين سنة.
أشرف بدهشة:ياه ده بجد؟

عم سلامة بتبسم:أمال؟ احنا اللي زينا بيركز في شغله عشان يعرف يأكل عياله، آخر مرة جيت البحر كانت العيال صغيرة قد كده!
أشرف بضحك:بس إنت خلاص كسرت القاعدة، وبعد كده لازم ننزل كلنا سوا، ملايين الدنيا متعوضش لمة العيلة اللي بتدي روح في أي سفرية.
عم سلامة بارتياح:أه والله يا أشرف، ربنا يديمها علينا نعمة ونفضل متجمعين كده دايمًا.
أشرف:يارب.

عم سلامة من الأشخاص الذين لا يقدرون النزاهة، رجل عملي، حياته تدور بين الأراضي الزراعية، حاصدًا المحاصيل، وتجارة المواشي. بدأ العمل منذ كان صبيًا في العاشرة من عمره، يتحمل المسؤولية بكل ما تحمله من معانٍ. وعندما تزوج، كانت تباهي تساعده في بيع الألبان والجبن في الأسواق، لكنها مع مرور الوقت رفضت ذلك، وأمرها بالراحة في دارها ليتوسع عمله ويصبح من أعيان الفلاحين. كانت رؤيته للبحر قد تكررت ثلاث مرات، كانت آخرها حينما كان أبناؤه أطفالًا. في تلك الأثناء، كانت "نعمة" تسبح في المياه، فاجأها تحسن مزاجها لهذا الحد، وعينيها تلمعان بالسكينة، بينما قالت بانسجام:
_الله، أنا مبسوطة أوي! ده طلع إحساس إنك تشوفي البحر من بعيد غير لما تنزلي الماية، تحسي كده إن همومك وأحزانك بيتغسلوا من جوا.

ليالى بغبطة:أوي يا نعمة، أنا عن نفسي عاوزة أعيش هنا طول حياتي بعيد عن بلدنا واللي قالت واللي عادت واللي نيلت، ده حتى منظر البيت بقى بيقفلني من الدنيا واللي فيها.

فجأة، استحضرت "نعمة" فكرة بيع المنزل، تلك الفكرة التي كانت تتردد في ذهنها منذ فترة مثل ليالي. نظرت إلى السماء، باحثة عن إجابة بين الغيمات، وتتمنى أن تتحقق تلك الرغبة التي كانت تراودها، قائلة:
_عارفة يا ليالي؟ أنا نفسي أعيش في شقة واسعة وحلوة في مكان حلو، تفتحي الشقة تلاقي المنظر قدامك يفتح نفسك على الحياة!

ليالي باطمئنان:ياختي مفيش حاجة بعيد عن ربنا... هروح لجلال.

أحيت نعمة فكرة بيع المنزل في عقل ليالي، ففتحت أمامها بابًا جديدًا للتغيير. لم تستطع "ليالي" أن تتجاهل الفكرة، فقررت أن تذهب خصيصًا إلى جلال، وتدفعه تدريجيًا نحو الحديث عنها، بينما كانت تجاهد في عبور المياه التي كانت تتلاطم من حولها. كانت خطواتها متثاقلة، راغبة في طرح الموضوع معه. حينما اقتربت منه، قالت بتعسر وهي تجذبه نحوها:
_يا باي، هو إنت مبتتشدش ليه؟ طب ده حتى احنا في الماية.

جلال باهتمام:عايزة إيه يا ليالي؟

ليالي بفضول:عملت إيه في حوار البيت؟ نسيت أسألك إكمن بقالنا كام يوم مشغولين في حوار المصيف وبنرتبله.
جلال:المحامي هيشتغل في الحوار لما نرجع عشان أبقى فاضي أتابع معاه.

ليالي بقلق:ومخلتوش يشتغل ليه من دلوقتي؟ هو إنت ضامن الظروف؟ أهو بقى اللي أنا خايفة منه إن أمك تخرج ويبوظ كل تخطيطنا ده.
جلال:لا تخرج إيه؟ دي مش أقل من ١٥ سنة سجن، يكون حمود على وش جواز.
ليالي بغيظ:ماهي كل مرة كده! أمك تعمل المصيبة وتخرج منها، واحنا عايزين نخلع قبل ما هي تطلع من السجن.
جلال بتبشير:مش يمكن تاخد إعدام؟

ليالي بتمني:يسمع من بوقك ربنا يارب، طب قولي هتأكلنا إيه النهارده ياخويا؟
جلال بهزل:فول وطعمية.
ليالي بسخرية:فول وطعمية في المصيف؟ وجاي على نفسك ليه؟
جلال بمزاح:يا بت بهزر معاكي! أكلة السمك اللي وعدتكم بيها، ده احنا هنعمل وليمة سمك النهارده.
ليالى بتهلل:بجد والنبي؟
جلال بابتسامة:أه وحياتك، افرحي بقى!

ضحكت ليالي، وعادت إلى نعمة وهبة مرة أخرى، لكن هذه المرة كانت السعادة تفيض منها بشكل غير طبيعي، وكأنها تجد نفسها في حلم، حيث كل شيء حولها يساهم في إشعال شعور الفرح في قلبها. كانت الأمواج تلمس قدميها بلطف، والهواء العذب ينساب فوق حجابها، فشعرت وكأنها في عالم آخر. نظرت "هبة" إليها بدهشة، تتسائل عن سر هذا التغير المفاجئ، ثم قالت بفرح:
_إيه يا ليالي فرحانة كده ليه؟ ما تفرحينا معاكي!

ليالي بسرور:جلال عازمنا على أكلة سمك وجمبري النهارده.
نعمة بثقة:مادام قالك يبقى هيعملها.
هبة برفض:بس احنا عايزين كباب وكفتة!
ليالي بحبور:ياختي النهارده سمك، بكرا كباب وكفتة وكل يوم حاجة جديدة، ياه على دي سفرية، طب والله مبسوطة.

في مستشفى السجن، حيث مر ساعتان من الحوار المكثف، كان "الطبيب النفسي" يستخدم جميع الأساليب التي تعلمها في الجامعة لعله يصل إلى فهم ما يدور في ذهن أم الديب. لكن كلما حاول أن يفسر ردودها،

كان يشعر وكأنها تغلق أمامه جميع الأبواب. عندما سألها عن هويتها، أجابته بثبات، مُنتحلة شخصية زوجها عن عمد، وكأنها لا ترى نفسها سوى في صورته. شعر الطبيب بالدهشة، ثم قال لها باستغراب:
_أنا عايز أفهم يعني إيه اسمك حنفي؟ هو في ست في الدنيا اسمها كده؟

أم الديب بعَتَه:أيوه آني اسمي كدهو.
الطبيب بجدية:طيب يا ستي ما....
أم الديب بصياح:ايهي ستك مين ياللي تتشك في جنابك؟ ده آني لسه صغيرة، وردة مفتحة، طب ده آني عيالي لسه في الحضانة.

الطبيب بصدمة:انتي مش قولتي إن عيالك كبار ومتجوزين ومخلفين؟ يعني جدة!
أم الديب ببَلَه:مقولتش الكلام دهو، إنت هتقولني كلام مقولتوش؟
الطبيب بتضايق:أنا هتعب معاكي جدًا في العلاج، ده أصعب الحالات اللي بقابلها مبتبقاش كده، ده إنتي حالة غريبة.
أم الديب بصخب:بُص يا بتاع انت، آني ناسية اسمك!
الطبيب:ربنا يسامحك.
أم الديب بتبسم:هيسامحني عشان آني طيبة وقلبي زي البفتة البيضة.
الطبيب بانزعاج:يعني إنتي مش فاكرة أي حاجة؟
أم الديب بمراوغة:لا مش فاكرة.
الطبيب:ماشي.

دون "الطبيب" حالة أم الديب في الورقة، ثم نهض من مقعده بقلق، وأخذ يخطو خطوات بطيئة، كأنما يفكر في كل كلمة قبل أن ينطق بها. كان الاضطراب جليًا على وجهه، فهذه الحالة كانت تزداد غموضًا مع كل لحظة. نظر إليها بتمعن وقال لها بصوت جاد:
_هجيلك تاني، أوعي تنسيني!

أم الديب:ماشي ياخويا، مع ألف سلامة.

لأول مرة، شعر الطبيب الثلاثيني بحالة من العجز التي لم يعهدها في مسيرته المهنية، فقد وقف أمام حالة أم الديب وكأنها لغز معقد لا يستطيع حلّه، رغم معرفته التامة بالأساليب العلاجية التي تدرّب عليها طوال سنوات دراسته. كان يدرك في أعماقه أن ما تبدو عليه من سلوكيات هو مجرد تمثيل لما وصفه بالبلادة، لكنها في الحقيقة كانت صاحبة عقل سليم تمامًا، ومع ذلك كان أمامه امرأة مريضة عقليًا ونفسيًا تعاني من اضطرابات لا يمكن حصرها، وكل محاولاته لفهمها أو مساعدتها كانت تنهار في كل مرة. وهو يسير في الممر الطويل، كان يعيد التفكير في تلك الحالة الغريبة التي لم يصادف مثلها من قبل، ويسترجع صورها

وكلماتها في ذهنه، ليجد نفسه أمام معضلة يزداد تعقيدها مع مرور الوقت. في نفس الوقت، داخل العنبر، كان المرضى يراقبون "أم الديب" عن كثب، يشعرون برهبة منها، وكأنهم ينتظرون لحظة انفجارها الذي قد يطالهم في أي وقت، فكانت ملامح وجهها العابسة كفيلة بأن تشرح لهم الكثير عن الشر الذي قد ينبعث منها. أما هي، فكانت تمتلئ بالعزيمة، وتوعدت أبناءها جميعًا بأنها ستخرج من السجن مهما كلفها الأمر، مصممة على أن تجد وسيلة للهروب من هذا المكان الذي لا يليق بها، قائلة:

_ماشي يا جلال إنت وأحمد، ونعمة، وهايدي لما أخرجلكم بس!

في شقة أحمد، وصلت أم قمر الدين بعدما كان الحدث المروع قد بدأ يتكشف أمامها، فقد كانت قد تنبأت بخبر اختطاف حفيدتها حيث كانت داخل حوض السباحة عندما دخلت منى إليها وبدأت تبكي، وما إن سمعت صراخها حتى أدركت فداحة ما حدث. سرعان ما خرجت من حوض السباحة، وصعدت إلى غرفتها بسرعة، وكأنها تدرك أن كل لحظة تأخير قد تعني مزيدًا من الخطر على حفيدتها. ارتدت ثيابها على عجل، ثم ركبت سيارتها مع ابنتيها منى ونالا، عازمة على الوصول إلى منزل جميلة في أسرع وقت ممكن. لكن في الوقت نفسه، كانت نرمين في عملها، غارقة في تفاصيل عملها اليومي في صالونها الحريمي، تتابع السيدات العاملات معها، لم تكن تعلم عن الحادثة التي تعرضت لها سيليا حتى وصلها الخبر المفجع، فاختلطت مشاعرها بالدهشة والاستياء، ولم تلبث أن تحركت فورًا نحو منزل أختها، بينما كان علاء الدين، بعيدًا عن أي مسؤولية، لا يكترث سوى باللهو مع الفتيات في الملاهي الليلية على الساحل، وكأن لا شيء يهمه. وبمجرد وصول أم قمر الدين وبناتها إلى منزل جميلة، انقضت "جميلة" في حضن والدتها، منتحبة بقوة، وملامح وجهها مليئة بالعتاب، فكانت تعاتبها على غيابها، بينما كانت دموعها تفيض، والجميع حولها لا يعرفون كيف يواسيها، فقالت:

_كده يا مامي لما تحصلي مشكلة، متكونيش أول واحدة جنبي؟

أم قمر الدين بحزن:والله يا جميلة ما سمعت الفون ولا كنت أعرف، سامحيني يا حبيبتي حقك عليا!
نرمين بقلق:إيه آخر الأخبار يا أحمد؟
أحمد بقهر:مستنيين نعرف، هما اللي مفروض بيدوروا على ضايع دلوقتي.
نرمين بشناعة:بجد إنسان مقرف، أنا شوفت صورته اشمئزيت منه جدًا، المفروض كان يتعدم من زمان ويريحوا الناس منه!
أحمد بأسى:ده المفروض بس الحكومة بتخاف منه، مفيش بقى غير الجهات العليا هي اللي هتقدر تتصرف معاه التصرف السليم.
نرمين بطُمأنينة:على العموم متقلقوش، احنا ميفرقش معانا كل الكلام ده وأي حاجة بتحصل الحمدلله بتتحل في وقتها.

جلست نرمين على الكرسي، وقد وضعت ساقًا تلو الأخرى في حركة توحي بالتوتر، وهي تحاول بشدة الاتصال بقمر الدين لتعرف ما حدث بالكامل، حيث كانت تنتظر منه أخبارًا تطمئن قلبها الذي بدأ يزداد قلقًا

مع مرور الوقت. كان قمر الدين قد خرج مع باسم، بصحبة مجموعة من رجال الأمن المختصين والحرس المرافق لهم، للبحث عن المفقود وتتبع كل تحركاته التي قد تقودهم إلى مكانه، بينما كانت غرف المراقبة المركزية بوزارة الداخلية تتابع الوضع عن كثب، والشرطة قد بدأت في فحص شوارع الشيخ زايد واحدة تلو الأخرى بشكل دقيق، بينما في المناطق المجاورة كان رجال الأمن يباشرون مهامهم بحراسة مشددة، متأكدين أن كل زاوية ستكشف عن شيء قد يساعد في الوصول إلى الضايع، بينما كانت جميلة لا تكاد تحتمل فكرة فقدان ابنتها، تعيش لحظات من الرعب. لكن "أم قمر الدين" لم تستطع سوى أن تضم ابنتها إلى صدرها، تحاول أن تشعرها بالأمان في هذا الوقت العصيب، بينما قالت بشجن:
_خلاص بقى يا روحي! بجد أنا زعلانة من نفسي أوي إني مكنتش معاكي لو مش مصدقاني اسألي أختك منى وهي هتقولك إن أنا كنت في الـ Pool وعاملة الفون سايلنت حتى في ناس كتير كلمتني وأنا فعلًا مسمعتش!

سامية:خلاص يا ماما، حصل خير.

كان جميعهم يواسون جميله بحنان، يحاولون تهدئتها وتخفيف آلامها، ولكن كل لمسة كانت تزيد من حزن قلبها، بينما في شقة هايدي، كانت هي وزياد جالسين على الأريكة في الصالة، حيث كانت "هايدي" تبكي بحرقة على ما آلت إليه الأمور، على مصير ابنة أخيها، وتتابع التفكير في تلك اللحظات الصعبة التي مروا بها، عيونها ممتلئة بالدموع التي لم تستطع إيقافها. كان قلبها يعتصر من الخوف على الصغيرة التي فقدت الأمل في عيونها، وحينما نظرت إلى زياد، قالت:
_حرام يحصلها أي حاجة، سيليا دي زي الملاك والله، كل حاجة فيها حلوة، أنا بحبها أوي كأنها بنتي!

زياد بقلق:ربنا يرجعها لأهلها بألف خير.
هايدي بنحيب:يارب.
زياد بخيبة:ده احنا جرينا جري ورا خالك، تحسيه مركب عجل في رجله، بيجري بسرعة فائقة، محدش فينا قدر يلحقه!
هايدي بنشيج:علشان متعود على كده من زمان، خالي ضايع ده سفاح مش إنسان طبيعي، أنا بجد هفرح أوي لو هو مات.
زياد باستفهام:هو ازاي عرف مكانا؟

هايدي بحيرة:مش عارفة، بس يمكن ماما اتكلمت قصاده في مرة ولا حاجة.
زياد باضطراب:دي تبقى مصيبة لو رجع هنا تاني! الله أعلم المرة الجاية هيعمل إيه!
هايدي برهبة:لا يا زياد بجد متخوفنيش! يا نهار أسود يعني أبقى خارجة من الشقة عادي ألاقيه في وشي زي ما حصل مع أحمد؟
زياد:شكلنا كلنا هنمشي من هنا ونشوفلنا بقى شقة في حتة تانية.

هايدي:ده لو متعدمش، إنما لو اتعدم فخلاص بقى مش هتفرق.

فكرة مُرعبة أن يستيقظ أحدهم ليجد ضايع حياله في أي لحظة، فكرة بثت الرعب في قلب زياد وهايدي، اللذين كانت المخاوف تتغلغل في عقليهما طوال الوقت، متخيلين ما قد يحدث إذا وقعت الكارثة، بينما كان الجميع في الخارج ينخرطون في بحث متواصل استمر لخمس ساعات طويلة، مشحونة بالقلق، حيث كانت فرق البحث تمشط كل شارع وكل حي وكل زاوية بعناية شديدة، حتى تمكنوا أخيرًا من تحديد موقع ضايع في منطقة معزولة تحت الأرض، داخل غرفة واسعة تخيم عليها العتمة، في مشهد ينذر بالخطر، وهناك كانت سيليا مربوطة بإحكام على كرسي مغطى بمسامير حادة تضغط على جسدها، والمكان نفسه يعكس وحشية من فيه، فيما كان ضايع يتحرك نحوها بخطوات مثقلة بالشر، ونظراته تكشف عن نية لا تعرف الرحمة، إذ كان يرى في ملامحها انعكاسًا لأحمد، ذلك الشخص الذي شهد ضده في المحكمة وأطاح بآماله، ليصب عليها كل غضبه وكأنها المسؤول الوحيد عن أوجاعه، وعندما اقترب منها، بسط يديه نحو عنقها، وبدأ يخنقها بقوة، غير عابئ بصراخها الذي غمر المكان في محاولة بائسة لطلب النجدة، بينما كانت الغرفة تختنق بالوحشية، صرخت "سيليا":

_مامي! يا مامي!

فجأة تدخل القدر في اللحظة الحاسمة، حينما اقتحمت الشرطة المكان بسرعة خاطفة، مدفوعة بنداء الواجب وصرخات الاستغاثة التي وصلت إليهم كطعنات في الضمير، لتطلق النيران على ضايع الذي كان يتشبث بلحظة عنف أخيرة، وبينما اخترقت جسده خمس رصاصات متتالية بدقة، سقط على الأرض بلا حراك، جسده المثقل بالكراهية يبدو وكأنه استسلم أخيرًا لقسوة المصير. تقدم "أحد رجال الأمن" بخطوات ثابتة إلى الداخل، وعيناه تجولان في الغرفة بين آثار الصراع ووجه سيليا المغمور بالدموع، وسأل:

_ إيه؟ مات؟

يتبع.....

الفصل السابع

بعد أن خرَّ ضايع مصابًا بطلقٍ ناريٍّ، مرتميًا في دمائه، أحاطت به عتمة اللاوعي، لتتسارع خطوات القوات المُسلحة نحو المكان، تملأ الزوايا بحضورهم المُهيب. تقدَّم الضابط بخطوات ثابتة وجثا على ركبتيه قرب الجسد المسجّى، ليتحسس وجهه ويتأكد من غيابه عن الوعي. انشغل رجال الأمن بفك وثاق سيليا، التي كانت تجهش بالبكاء بحرقةٍ تتخللها شهقات مكتومة. وفجأة، اقتحم باسم وقمر الدين المكان بسرعةٍ يملؤها الترقب. نظر "الضابط" إليهم بعدما أيقن أن ضايع قد غاص في عوالم الغياب، ليقول بصوتٍ يمزج بين الحزم والغموض:

_تقريبًا، عمومًا هنتأكد في المستشفى.

تقدَّم "باسم" وقمر الدين بخطواتٍ متأنية نحو الضابط، يحملان بين ملامحهما شعورًا يجمع بين الامتنان والرهبة. مدَّ باسم يده ليصافح الضابط بحرارةٍ تنطق بما يعجز عنه اللسان، وقال بصوتٍ يغمره الامتنان:

_متشكر جدًا لجهود حضرتك في القبض على المجرم ده.

الضابط بابتسامة:متقولش أي حاجة! احنا تحت أمر سعادتك يا باسم باشا ونتمنى إن اللي حصل ده ميحصلش مرة تانية.

في تلك اللحظة، حمل قمر الدين سيليا بين ذراعيه بحنانٍ يواسي ضعفها، واقترب بها نحو الضابط وباسم. كانت سيليا تبكي بحرقة، ويداها تتشبثان بعنق خالها كأنها تستمد منه الأمان الذي افتقدته طويلًا، فقد كُتب لها عمر جديد بعدما كانت قاب قوسين أو أدنى من الموت على يد المجرم ضايع. وبينما يسير بها خطواتٍ بطيئة، انتحبت "سيليا" بصوتٍ مخنوق بالوجع، وقالت له بشكوى تحرق القلوب:

_كان هيموتني يا خالو، ودوني لمامي وبابي!

مرَّر "قمر الدين" أصابعه فوق خصلات شعرها، يهدئ روعها بلمسةٍ حانية، ثم انحنى وقبَّل رأسها برفقٍ يمزج بين الحب والطمأنينة، وقال بصوتٍ ملؤه الحماية:

=متخافيش يا حبيبتي! حمدالله على سلامتك!

باسم بتَرَح:هات البنت يا قمر الدين!

ناول قمر الدين سيليا لجدها باسم بحركةٍ مفعمة بالثقة، فتلقَّاها بين ذراعيه بعناقٍ يفيض حنانًا، وكأن نظراته تقول لها دون كلمات: "أنا هنا، ولن أدعك تخافي أبدًا." ومع ذلك، لم يتوقف نحيب سيليا الذي كان يروي حكاية ألمها. ألقى "الضابط" نظرةً إليها، وبسمة خافتة ترتسم على وجهه رغم صرامته، وقال:

_حمدالله على سلامة الأمورة الصغيرة، والحمدلله إننا لحقناها على آخر لحظة.

باسم بارتياح:الله يسلمك يا رؤوف باشا، بجد مش عارف أشكرك ازاي إنك رجعت البنت لحضننا! والدتها مكنتش هتقدر تعدي اليوم من غيرها، مانت مشوفتهاش كانت حالتها صعبة جدًا!

الضابط بحبور:دلوقتي والدتها هتطمن وهنفرح كلنا.

وقف باسم يتبادل الحديث مع الضابط لخمس دقائق، قبل أن يتوجه نحو سيارته، حاملًا سيليا بين ذراعيه كأنها أثمن ما يملك. جلس بجواره قمر الدين، بينما اتخذ الحرس مكانهما في المقاعد الأمامية. انطلقت السيارة بصمتٍ مطمئن، متجهة نحو شقةِ جميلة، والزجاج الأسود يحجبهم عن ضجيج العالم الخارجي. في الخلف، أخرج "قمر الدين" هاتفه، رفعه بهدوء، وضغط على الشاشة ليجري اتصالًا. ارتسمت على وجهه ابتسامة نصرٍ عابقة بالرضا، وكأن كل شيء عاد أخيرًا إلى نصابه، وقال:
_الحمدلله سيليا رجعت لحضننا، بلغ جميلة وطمنها!

أحمد بصدمة:لقيتوا سيليا؟ لقيتوها فين؟
قمر الدين بسكينة:زميل بابا خد مجموعة معاه وضربنا ضايع بالنار والحمدلله إن سيليا بخير.
أحمد بقلق:طيب انتوا فين؟
قمر الدين بتبسم:متتعبش نفسك، احنا كده كده جايين!
أحمد بلهفة:طيب ماشي متتأخروش، سلام.

انتهت المكالمة بين أحمد وقمر الدين، فجلس أحمد على الأريكة، ملامحه تحمل مزيجًا من الارتياح والقلق. اقتربت "جميلة" بخطواتٍ مُتسارعة، وعيناها تغمرهما لهفة الأم التي تنتظر إجابةً تُبرد نار قلبها، وسألته بصوتٍ يفيض شوقًا وقلقًا على ابنتها:
_بنتي مالها؟ حصلها إيه؟

أحمد بانشراح:متخافيش يا جميلة! الحمدلله سيليا طلعت بخير وخالي ضايع اتضرب بالنار، وهيجوا دلوقتي بيها!
أم قمر الدين بسرور:الحمدلله، افرحي بقى يا حبيبتي، خلاص بنوتك رجعتلك بألف سلامة!
سامية بفرح:حمدالله على سلامتها يا جميلة.
جميلة ببهجة عارمة:الله يسلمك، الحمدلله يارب، أنا كنت شايلة هم هعدي يومي إزاي من غيرها! أنا عمري ماكنت هعرف أنام ولا هرتاح ثانية، بجد .Thank goodness
نرمين بغبطة:الحمدلله يا روحي.

نهضت نرمين من مكانها، وبدون تردد، احتضنت جميلة بحنان، كأنما كانت تلك العناق هو كل ما تحتاجه لتستعيد توازنها بعد ما مرّت به. تبعتها والدتها وأخواتها، كل منهن تتقدم خطوة نحوها، يطبعن على جسدها

علامات الاطمئنان بعد أن نجت ابنتها من قبضة السفاح. كان الجو مليئًا بالتهاني، ومع كل كلمة تهنئة كانت تعبيرات وجوههن تروي قصص الصبر. في تلك الأثناء، كانت الشرطة قد أخذت ضايع إلى المستشفى، حيث اكتشفوا أنه لا يزال على قيد الحياة. اضطروا إلى نقله إلى مستشفى السجن بعد أن تأكدوا من حالته الحرجة، ليظل محجوزًا هناك حتى يتماثل للشفاء. بينما كانت الممرضة تضعه على الأجهزة الطبية، كان قلبها يكاد يخرج من صدرها بسبب قلقها، فقد علمت أنه الرجل الذي يُحكى عنه في كل زاوية في مصر كأكبر سفاح. كان وجهه شاحبًا، وعيناه المطفأتان تحملان شرًا خفيًا، ما جعلها ترتعد خوفًا من استيقاظه المفاجئ. في كل لحظة كانت تتخيل أن يفتح عينيه ليهاجمها، كما لو أنها كانت داخل فيلم رعب حقيقي.
عندما انتهت من مهمتها، فرت من الغرفة، محاولة الهروب من الموت نفسه، وهي تشعر بعيناه تلاحقانها في الظلام. أما في شقة هايدي، حيث كانت تعيش في حالة من الحزن الشديد، لم تجف دموعها بعد. فجأة، قطع الصمت صوت صراخ قريب، فاندفعت هي وزياد بسرعة نحو المصدر، ليجدا جميلة على الدرج، محتضنة ابنتها بقوة، بينما كانت دموعها تنهمر بلا توقف. حولها كانت عائلتها، كل واحدة منهم تحمل في عينيها مزيجًا من الفرح، وقد قالت "جميلة" بلهفة:

_بنتي حبيبتي! روح قلب مامي! يا روحي انتي، يا روحي.

باسم بتبسم:الحمدلله يا جميلة إنها رجعتلك بألف سلامة، علشان تعرفي إننا كلنا في ضهرك وإن اللي بيجي علينا مبيكسبش!
قمر الدين بافترار:مبروك يا حبيبتي على رجوع سيليا.
جميلة بتهلل:الله يبارك فيك يا حبيبي، ربنا ميحرمنيش منكم أبدًا.

عانق أحمد ابنته بحنانٍ غائر، بينما كانت دموعها تسيل على خديها، وكأن قلبه يخفق بقوة، يلامس ظهرها بيديه في حركةٍ تطمئنها وتُعبّر عن الاشتياق والحب الذي لا يمكن للكلمات أن تصفه. ثم، نهضت "جميلة" برفق، وعانقت والدها باسم بحركة مليئة بالامتنان. كانت عينيها تغرقان في دموعها، لكنها لم تكن تستطيع أن توقف تدفقها، فتعلقت به، معبرة له عن كل ما لا تستطيع قوله. قالت له بصوتٍ مختنق، مملوء بالإعزاز:

_ربنا يخليك ليا يا بابي، أنا من غيرك !Nothing

باسم برثاء:ربنا يخليكي ليا إنتي يا حبيبتي ويحفظك إنتي وكل أخواتك ومشوفش فيكم حاجة وحشة أبدًا!
جميلة بسعادة:يارب يا بابي يارب.

عانقت "أم قمر الدين" جميلة بحنوٍ عميق، كأن قلبها يتحدث عن مدى محبتها. كان ذراعاها يحيطان بها كأنها تواسيها على ما مرّت به، وقالت لها بصوتٍ دافئٍ ملآن بالطمأنينة:

_يارب دايمًا مبسوطة يا روحي.

جميلة بابتسامة:يارب.

قبلت "سامية" جبين سيليا الباكية، ودموعها تتساقط على وجهها بلُطف، محاولة أن تمسح عن قلبها كل آلامها. ثم قالت لها بصوتٍ مليء بالحُب:

_ألف مليون مبروك على رجوعك يا لولي!

حملت أم قمر الدين حفيدتها أسيل بين ذراعيها بحنانٍ بالغ، وقبّلت رأسها ووجنتيها برفقٍ كما لو كانت تزيل عن وجهها كل تعب الأيام. نظرت "سيليا" في عينيها، والدموع ما زالت تملأ عينيها، ثم قالت لها بشكوى تُعبِّر عن كل ما يعصف بها من مشاعر تعيسة:

_كان عايز يخنقني يا نانا بسملة!

أم قمر الدين بصدمة:كان عايز يخنقك ازاي يا سيليا؟
أحمد بعَجَب:يعني إيه كان عايز يخنقك؟
سيليا بنشيج:كان هيموتني يا نانا...بابي!

أخذ "أحمد" طفلته من أم قمر الدين، واحتضنها برفق، مطمئنًا إياها بحنانٍ يفيض من قلبه. كانت يديه تحيط بها كأنها درعٌ يحميها من كل أذى، ثم قال لها بشفقة عميقة، وهو يمسح على شعرها:

_خلاص يا حبيبتي حقك عليا، الحمدلله إنك كويسة، والإنسان ده أنا مش هرحمه بس يصبر عليا!

جميلة بإعوال:كان عايز يموت سيليا؟
باسم بهدوء:اهدي بس يا جميلة! المجرم ده خلاص اتضرب بالنار، ومتقلقيش مش هيقدر يقرب ناحيتكم تاني!

نظر "أحمد" إلى الجدار المقابل، وكانت نظراته تتأمل الفراغ وهي تبحث عن مخرجٍ من الألم الذي يعصر قلبه. أفكاره تتسابق، وروحه مشحونة بالحنق والتصميم على الانتقام من خاله المجرم الذي كان على وشك قتل طفلته. همس بصوتٍ منخفض، مليء بالتوعد:

_ماشي يا خالي! أنا وانت الأيام بينا مخلصتش!

أم قمر الدين بابتسامة:خلاص يا جميلة! أدخلي ارتاحي إنتي وجوزك وبنتك! إنتي أعصابك تعبانة من بدري!
باسم:يلا يا حبيبتي أدخلوا ارتاحوا!
أحمد بإكتهاء:لا يا عمي! تعالوا بس اتفضلوا ارتاحوا نتغدا مع بعض حتى!
باسم برفض:لا يا حبيبي شكرًا، أنا سايب كل اللي ورايا وجيت علشان خاطر عيون سيليا حبيبتي.

قبل "باسم" رأس حفيدته قبل أن يغادر، ويداه ترتعشان من شدة العاطفة التي تغمر قلبه. نظر إليها بعينين تملؤهما الحنو، وقال لها بصوتٍ دافئ، يكاد يذوب فيه كل ما مرّ به:
_خلاص يا سيليا متعيطيش بقى!

سيليا بسكينة:أوكي يا جدو.

قبل أن يغادر "باسم" لعمله، بعد أن ترك كل مشاغله جانبًا من أجل حفيدته، التفت نحو أسرة جميلة، وابتسم ابتسامةً تحمل بين طياتها راحة البال وطمأنينة القلب، قائلًا:
_يلا عايزين حاجة؟

أحمد بإنعام:سلامتك ألف سلامة يا عمي، متشكر على وقفتك جنبنا.

باسم بابتهاج:متشكرنيش! ده اللي لازم يحصل، هو أنا عندي كام سيليا؟
أحمد بامتنان:ربنا يخليك لينا والله.

عانقت "أم قمر الدين" جميلة بحنانٍ ساحق، ثم قبَّلت وجنتيها قبلتين في الهواء، تلك القبلة التي كانت تحمل في طياتها كل الحب. ابتسمت وقالت لها، وعيناها تتلألأان بالفرح:
_خدي بالك من نفسك يا حبيبتي!

جميلة باطمئنان:حاضر.
قمر الدين:هنبعتلكم حراسة على باب العمارة تحت!
أحمد بتبسمماشي يا قمر الدين، شكرًا.
قمر الدين بوداد:احنا واحد مفيش شُكر!

حمل "قمر الدين" سيليا برفق في ذراعيه، وقال بوداعٍ يملؤه الأمان، وهو يرفع كفه في الهواء كأنما يودع كل آلام الماضي:
_يلا سلام يا سيليا.

عانقت "سامية" جميلة بحبٍ ناء، فكان كل حضن منها هو طوق نجاة للأخرى. ثم قالت لها باهتمامٍ شديد، وقد غمرتها مشاعر الأخت الكبرى:
_متخافيش من حاجة وأنا كل شوية هكلمك!

جميلة بتفاؤل:أوكي يا سامية.

قبلت "نرمين" أختها جميلة قبلتين في الهواء، تعبيرًا عن محبتها ووداعها الحار قبل أن تغادر مع العائلة. ابتسمت في وجهها ابتسامة مليئة بالطمأنينة، وهي تطمئنها بأن الأيام القادمة ستكون أفضل، ثم توجهت مع عائلتها، وهي تقول:
_خير يا عمري، متقلقيش!

جميلة بارتياح:أوكي، يارب

وقف قمر الدين أمام المصعد الكهربائي، يضغط الزر بينما يقف جميع أفراد الأسرة خلفه. كانت "أم قمر الدين" في النهاية، عيونها مليئة بالشفق على سيليا التي لا تزال تجترّ آثار الألم، ثم وجهت نظراتها إلى أحمد وابنته، حيث كان قلبها يفيض بالحنان. نظرت إليهما بعمق، وقالت:
_باي باى يا حبيبي، باي يا سيليا!

سيليا باستياء:باي يا نانا.

وصل المصعد الكهربائي إلى الطابق المطلوب، فركب فيه قمر الدين ووالديه وأخواته، ليضغط على زر الصفر، مما دفع المصعد للانطلاق نحو الأسفل. كل واحد منهم كان يحمل في قلبه رغبة في مواصلة عمله بعد أن اطمأنوا على سلامة سيليا، التي هي الآن في أيدٍ آمنة. كانت جميلة وأحمد يحيطان بابنتهما، يحتضنانها بحب. في تلك اللحظة، بدأ زياد يتحرك نحوهم، تلاه بسرعة "هايدي" التي كانت تتقدم بخطوات سريعة، تحاول أن تبعث الأمل في قلب جميلة. بسطت هايدي يديها فوق ذراع جميلة، تعبيرًا عن التضامن، بينما ارتسمت على وجهها ابتسامة دافئة، وقالت:
_مش عايزاكي تزعلي! أهم حاجة إن سيليا رجعتلنا بألف سلامة.

جميلة بتلبية:صح، الحمدلله.
زياد بنُصح:خدوا بالكم منها! وياريت متسيبوهاش لواحدها بعد كده!
أحمد بتأثر:محدش فينا بيسيبها لواحدها.

بدأ أحمد بالحديث عن سيليا التي غادرت في اللحظة التي كان فيها يتعرض للضرب من قبل خاله، مما سمح لها بالفرار دون أن يشعر بها أحد. بينما جميلة، وهي تحتضن سيليا، أعربت عن عزمها على عدم تركها وحدها مرة أخرى، مؤكدة أنها تعني لها الكثير. لكن سيليا، في ردها، أعربت عن سعادتها بعودة جدها في

الوقت المناسب. بينما زياد تناول الموضوع الجاد، حيث اقترح أن يستغل والد جميلة علاقاته لإصدار حكم بالإعدام على خاله، دامغًا على خطورة الوضع بعد فقدانه لأبيه. أضاف أحمد أن الأمور لن تكون سهلة مع هؤلاء الأشخاص الآثمين. دخلت جميلة مع سيليا إلى الغرفة، معبرة عن عزمها على إعداد الطعام المفضل لها وشراء ألعاب جديدة. على شاطئ البحر، كانت أجواء النهار قد بدأت تتلاشى مع اقتراب المساء، بينما كان جلال وأسرته لا يزالون مستمتعين بالجو، الذي كان مزيجًا من النسيم العليل والأمواج المتناغمة. ومع حلول الليل، تغيرت الأجواء شيئًا فشيئًا، فبدأت تباهي تشعر بقلق يملأ صدرها، وكأنها شعرت بشيء غامض يقترب. كانت تحذر من خطر الشياطين، مما جعلها تسرع في نداءهم. استجابت نعمة بسرعة لنداء تباهي، وبدأت تنادي على الأطفال بحذر للخروج من المياه، موجهةً إياهم نحو الأمان.

أما ليالي، فقد عبرت عن رغبتها في البقاء على الشاطئ، غير مكترثة بقلق البقية، متمسكة باللحظة الأخيرة من السكون الذي يحيط بهم. في تلك الأثناء، طلب حامد من جلال الخروج من المياه، مذكرًا إياه بأن الليل قد حل، لكن جلال، مُصرًا على الاستمرار في التمتع بالماء، رفض بشدة، وكأنه يرفض أن تنتهي هذه اللحظة التي تجمعه بالبحر. عندما قرر الجميع العودة إلى الشقق، كانت ليالي تحمي أطفالها في المرحاض، وفي غرفة النوم، جلست نعمة مع ابنها "عمر"، ترضعه الحليب من الزجاجة بحنان، ساعية لتهدئة قلبه بعد يوم طويل. في الصالة، كان الرجال يجلسون في انتظار دورهم للاستحمام، وهم يتحدثون عن ملوحة البحر التي أرهقت جلودهم. وكان "حامد"، وهو يراقب جلال بنظرة تحمل الفضول، سأله:
_هنتغدا إيه يا جلال؟

جلال:سمك وجمبري وكابوريا ياض ومحدش هياكل هنا! احنا بعد ما نستحمى نخرج ناكل في المطعم وأهو في الآخر كله بالنص.

حامد:ده احنا كده عايزين مبلغ وقدره، ده احنا الله أكبر علينا ١١ فرد من غير العيلين اللي لسه في اللفة.
جلال بحسم:أه ماهو أنا هدفع ٥٠٠ وانت ٥٠٠ وأشرف ٥٠٠ وعم سلامة ٥٠٠، طب ده حوار الشقة أنا كنت عامله عشانكم يا أغبيا، هو لما أنا أدفع ١٤٠٠ في شقة، ما كده هنسف تراب في باقي أيام المصيف! إنما اللي وفرته من فلوس السكن حطيته من تاني ناحية في مصاريف الأكل، أمال إيه؟ ده أنا دماغي شغالة على آخرها.
حامد بضحك:طب وربنا دماغك دي متكلفة وأنا اللي فاكرك بتعمل كده عشان بخيل.

كان جلال وجهه مشوه بالسخط، يضغط على حامد، جاعلًا الجدار خلفه نقطة تحكم في المعركة التي كان يظن أنها تتجاوز حدود النقاش. أخرج سكينه بسرعة، والشرر يطير من عينيه كأنما كان يتحول إلى شخص آخر، مستشعرًا الإهانة التي ألحقت به. كان قلبه ينبض بسرعة، وعقله يصرخ مطالبًا بحقوقه المهدورة، مؤكدًا أن لا أحد يستطيع التقليل من قيمته أو اتهامه بما لا أساس له. في تلك اللحظة، كانت نعمة قد خرجت من الغرفة بسرعة، تلهث في محاولة يائسة لتهدئة الوضع. كانت تعلم أن الأمور قد تصل إلى حدٍ لا يمكن

السيطرة عليه، فاندفعت نحو جلال بكل ما في طاقتها لتبعده عن زوجها. لكن "جلال"، الذي كان في لحظة احتدام، صرخ قائلًا:
_هو مين ده ياض اللي بخيل؟ ما ترد ياض! اتكتمت ليه؟

نعمة بفزع:سيبه يا جلال! أمانة عليك ما تعمله حاجة! مكنتش كلمة، استهدى بالله! ده إنت الشيطان راكبك مانت لو بتصلي كان الشيطان سابك في حالك، إنما هو أُص المشاكل كلها.
جلال بحدة:اتعدل ياض ومتنساش إن أنا أخو مراتك!
حامد بضحك:مالك يا جلال؟ ده أنا كنت بهزر معاك، نزل اللي في إيدك بس لا حد فينا يتعور!
نعمة بجلبة:خلاص بقى يا جلال، سيبه! في إيه؟

ترك جلال حامد فجأة، وجلس على الكرسي وكأنما عبثًا حاول أن يهدئ من نفسه، لكن توتره كان لا يزال يملأ الشقة. كان الجميع يراقبونه بصمت، عيونهم مليئة بالخوف من أي تصرف غير متوقع قد يصدر منه. حيث قال "جلال" بانزعاج:
_انت مابقتش عاجبني اليومين دول!

حامد بتلجلج:ليه بس يا جلجل؟ هو إيه اللي حصل بس؟

ارتعش حامد في مكانه، مستشعرًا أن الأمور بدأت تخرج عن السيطرة. كان التوتر يزداد في الجو، وعيناه تتنقلان بين جلال والمحيطين بهم، غير قادر على تحديد ما سيحدث بعد ذلك. حينما نادى جلال باسمه بلقب الدلع، كانت تلك إشارة لما هو أسوأ. نهض "جلال" للمرة الثانية، وعيناه تتوقدان بالشرر، بينما رفع السكين في وجه حامد، متوعدًا إياه بكلماتٍ لا تخلو من التهديد، ثم قال بصخب:
_جُلجل مين يالا؟ ده أنا راجل وسيد الرجالة! جلال ميتدلعش، اللي بيتدلع ده من العيال التوتو! إنت هتتعبط ولا إيه ياض؟

نعمة بصراخ:يادي النيلة عليا، سيبه بقى يا جلال! هو إنت لا كلام حلو عاجبك ولا كلام وحش عاجبك؟ أمال إيه اللي يعجبك؟
جلال بعجيج:خلي جوزك في حاله، مش عاوز أمد إيدي عليه وأقل منه قدامك إنتي والعيال!
حامد بهلع:شكرًا يا أخو مراتي، مكنش العشم برضة.

ترك جلال حامد فجأة، وجلس على الأريكة منفعلًا، متأملًا في الفراغ وكأنما كان يبحث عن متنفس من الحنق الذي يعصف به. أما حامد، فقد وقف هناك، مرتجفًا من الخوف، عينيه تتنقلان بين جلال ومن حوله. نظرت نعمة نحو أخيها، وقد تجمعت الغيوم على وجهها، ثم قالت باستياء:
_ربنا يهديك يا جلال.

كانت مياه البحر قد أثرت على جسد "جلال"، وجعلت كل جزء فيه يشعر بالملوحة التي تلتهم بشرته، مما جعله لا يطيق المزيد من التحمل. مع مرور الوقت، بدأ صبره ينفد بسبب طول المدة التي قضتها زوجته في المرحاض، وهي تقوم بتحميم الأطفال وتعتني بهم. كان ينتظر ليخلص نفسه من شعور الإزعاج الذي بدأ ينهش أعصابه. أخيرًا، لم يستطع التحكم في نفسه بعد الآن، فرفع صوته بصياح:

_خلصي يا ليالي! إنتي هتحمي العيال في سنة؟ وربنا أستحمالكم في حوض المطبخ، أنا جتتي بتاكلني!

جلس حامد ونعمة على الأريكة، وكان حامد لا يستطيع رفع نظره عن وجه جلال، تملؤه الرهبة، خائفًا من أن يعود الأخير إلى حالة الغضب التي دفعته للاشتباك معه. في تلك اللحظة، شعرت "نعمة" بالقلق، وقالت برقة:

=أصبر بس ياخويا شوية، زمانهم قربوا يخلصوا!

جلال بسُخط:أدينا مستنين أهو، على الله يخلصوا بقى.

وضع جلال ساقًا فوق الأخرى، مسترخيًا في مكانه بينما كان ينتظر انتهاء زوجته وأطفاله من التحمم. كانت النظرة في عينيه تميل إلى الملل، فضغط على جهاز التحكم عن بعد ليشغل التلفاز، مشغولًا في مشاهدة فيلم لعدة دقائق، كأنه يحاول تهدئة أعصابه حتى يحين دوره للاستحمام. في الداخل، كان المرحاض يعج بالحركة، حيث كانت ليالي تصب الماء على رأس حمود تارة، وعلى تقى تارة أخرى، وهي تدلك رؤوسهم بالصابون وتسكب الماء بعناية، رغم أنها كانت لا تزال ترتدي ثياب البحر.

في شوارع الشيخ زايد، حيث كان الليل قد حل والهدوء قد لفّ المكان، كانت الإضاءة تنير الشوارع بطريقة دافئة، تمنح المكان سكينةً وطابعًا هادئًا. في المقعد الخلفي من السيارة، كان باسم وأم قمر الدين يجلسان معًا. بينما كان السائق أمامهما منهمكًا في الطريق، يستمع إلى موسيقى أجنبية هادئة تملأ السيارة بالألحان العذبة. كان باسم يتحدث عبر الهاتف مع وزير الداخلية، الذي كان له الفضل الكبير في مساعدته خلال الأزمة الأخيرة. كان يشعر بامتنان عميق لهذا الدعم، خاصة عندما تم القبض على ضايع وإيداعه السجن، المكان الذي يليق به ليحمي الجميع من شروره. "باسم"، معترفًا بعرفان، قال له بسرور، معبرًا عن امتنانه الكبير لهذه المساعدة:

_والله العظيم ما هيكفيني أشكرك ولو من هنا لمليون سنة قدام، إنت ليك فضل عظيم عليا بعد ربنا.

الوزير بتعاضُد:دي أقل حاجة أقدر أقدمهالك يا باسم باشا، إنت اللي ليك فضل كبير عليا من قبل ما أوصل للمكانة العظيمة دي، خصوصًا إنك إنت السبب فيها!

باسم بامتنان:احنا قبل ما نكون أصحاب، فاحنا أخوات، وواحد مفيش فرق بينا! متتصورش فرحة جميلة بنتي كانت عاملة ازاي لما سيليا رجعت لحضنها!

الوزير بتكاتُف:وده اللي أنا عايزه وهي سعادتكم، مش عايز حاجة أكتر من كده، والحمدلله إننا كنا سبب في سعادتك إنت وأولادك برجوع بنتكم سيليا.
باسم بإعزاز:ربنا ميحرمنيش منك وأشوفك دايمًا في أعلى المراتب، وعلشان الخبر الجميل ده أنا عازمك إنت والمدام والأولاد على أكبر سفرة عشا تليق بمكانتك عندي، وممنوع الرفض لأن أنا هفضل وراك لحد ما توافق!

الوزير باستجابة:وأنا مقدرش أرفض طلب سعادتك، احنا تحت أمرك!
باسم بغبطة:حبيبي يا سعادة الوزير، ربنا يديم الحب ما بينا.
الوزير بسكينة:يارب، ومتقلقش المجرم ضايع نهايته الموت، عايزكم تفرحوا وتريحوا قلبكم من أي خوف أو قلق!
باسم باطمئنان:وازاي نقلق بس وسعاتك موجود؟ أنا في إنتظارك إنت والمدام والأولاد بكرا على العشا.
الوزير:إن شاء الله.
باسم ببشاشة:مع ألف سلامة.
الوزير:الله يسلمك.

بعدما انتهى باسم من مكالمته مع وزير الداخلية، وضع الهاتف جانبًا ورفع نظره إلى "أم قمر الدين" التي كانت تراقب وجهه بتفهم. ابتسمت له برقة، ثم سألت بحنان واضح في عينيها:
_إيه يا حبيبي؟ هيجوا بكرا؟

باسم بتبسم:طبعًا، أنا عايز أفخم وأنضف وأغلى أنواع الأكل! أنا بعد ما أوصلك هتفق على غزالتين في المزرعة، وبداية من صباح بكرا يكون الاكل بيجهز، مش عايز أي غلطة!
أم قمر الدين بلهفة:طبعًا يا حبيبي، أنا هوصيهم بكده كويس وهعرفهم إنك مش عايز نص غلطة! وكمان عايزة ألحق أحضر نفسي علشان ولاء هانم لما تيجي أكون مستعدة لإستقبالها.

ابتسم باسم في صمت، عينيه مركّزتين على الطريق أمامه بينما كان يتأمل في حركة السائق، يغمض أحيانًا جفونه والتفكير في المستقبل يزاحم عقله. أما أم قمر الدين، فقد عادت لاهتمامها بهاتفها، تقلب بين الرسائل، وقد ارتسمت على وجهها ملامح التمني. كانت تفكر في كيفية تحضير وليمة كبيرة تكريمًا للوزير وأسرته، تقديرًا لجهوده في إيداع ضايع السجن، بعد كل ما ارتكبه من جرائم راح ضحيتها العديد من الأبرياء. لكن الأمور أخذت منحى مختلفًا، فحينما حاول ضايع التجرؤ على غيره، كانت تلك اللحظة هي آخر فرصة له، حيث اقتربت نهايته مع اقتراب حبل المشنقة حول عنقه. بعد دقائق، وصلوا إلى القصر. نزلوا من السيارة بحركات متقاربة، أيديهما متشابكة وكأنهما في بداية حياتهما الزوجية، بينما كان الوقت قد مر وتغيرت تفاصيل حياتهم، ليصبحوا الآن أجدادًا. في شقة أحمد، كان مستلقيًا على الأريكة أمام التلفاز، بينما كانت جميلة منهمكة في حموم "سيليا" داخل المرحاض. بعد أن انتهت من شاور الطفلة، أخذتها إلى غرفة

الملابس، حيث ارتدت لها أفخم البيجامات بعناية، ثم بدأت بعمل تسريحتها بأدواتها الخاصة. بعد أن انتهت، قبّلتها على جبينها بحنان، وحضنتها بشدة، وقالت لها برقة:
_ميرسي يا مامي، شعري بقى حلو أوي!

جميلة برِثاء:العفو يا روحي، إنتي توءمري وأنا أنفذ، ربنا يخليكي ليا يا حبيبتي.

ضمت جميلة سيليا إلى حضنها أكثر، وقبلتها بحُب ناء. كانت أسيل قد بدأت أخيرًا تمشي على قدميها بعد فترة طويلة من الاعتياد على الزحف على الأرض. شاهدت "جميلة" ابنتها وهي تحبو وتتلمس خطواتها الأولى في هذا العالم، فامتلأ قلبها بالسعادة. نظرت إليها بابتسامة مشرقة، وقالت لها بسرور، معبرة عن حبها الكبير:
_معقول؟ إنتي بقيتي تمشي على رجليكي؟ أنا بجد مبسوطة أوي! إنتي بقيتي تمشي بجد!

ثم حملت "جميلة" طفلتها أسيل بين ذراعيها، وقبلت جبينها بحنان، ثم أعطت سيليا نفس المعاملة، فقبلت وجنتها بالتساوي، كي تبقى المحبة والاهتمام بلا أي تفضيل بينهما. كانت أسيل تحمل ملامح ملائكية، وجهها الطفولي البريء كان يشع بريقًا من البراءة، ورائحتها الزكية التي لا تخلو من عبير الحليب. حركاتها كانت عفوية. نظرت جميلة إلى صغيرتيها بحب عميق، وقالت بحنو:
=الله، إيه الـKiss القمر دي؟ إنتي عارفة دي مين؟

لكن "أسيل" كانت تحاول نطق كلمة "ماما"، ولسانها ما زال متعثرًا، رغم المحاولات البريئة التي تنم عن رغبتها في التعبير. فبذلت جهدًا كبيرًا وهي تتلو الكلمات بأصوات غير واضحة، لكن بعد لحظات، قالت بصوت خافت، يكاد يلامس القلوب:
_مما.. ما... ما.

جميلة بضحك:يا روحي، دي أختك الكبيرة!
سيليا بمرح:هي أكيد يا مامي مش هتعرفني دلوقتي!
جميلة بثقة:بس لما تكبر أكتر هتعرف تميز مامي عن بابي عن أختها.

ثم قبلت "جميلة" وجنة أسيل مجددًا، وضمتها لصدرها بقوة، وهي تريد أن تحتفظ بها إلى الأبد، لتغمرها بحب لا نهاية له، وكأنها تخشى أن يفلت منها ذلك النعيم الصغير. وقالت، وقد امتلأ قلبها بحُب لا يوصف:
_إيه القمر ده؟

بينما كانت "جميلة" مع طفلتيها في غرفة الملابس، رن جرس الباب، وكان الصوت المفاجئ يحمل بين طياته شيئًا غامضًا. تحركت سيليا عفويًا باتجاه الباب، وفضولها الصغير دفعها للتحقق ممن قد يكون خلفه. لكن جميلة، وهي تشعر بالقلق على ابنتها، اعترضت طريقها بسرعة، وقالت لها بصوت حنون ولكن يحمل تحذيرًا:

_لا لا خليكي هنا أوعي تخرجي!

وضعت جميلة أسيل على السرير بهدوء، ثم خرجت من الغرفة لتحرك يدها نحو الباب. لكن قبل أن تفتح، فوجئت بأن أحمد هو من تقدم لفتح الباب. وعندما فتحه، وجدوا هايدي واقفة أمامهم، تحمل صينية طعام في يديها. كان وجهها يحمل تعب اليوم، فقد أمضت وقتًا طويلًا في المطبخ لتحضير هذا الطعام بكل جهد. ابتسم "أحمد" بابتسامة دافئة، وقال لها ببشاشة:

_تعالي يا هايدي أدخلي!

جميلة بود:تعالي يا حبيبتي اتفضلي!

دخلت هايدي الشقة بحذر، حاملةً الصينية البايركس برفق شديد، وكأنها تحاول الحفاظ على محتوياتها الثمينة. وضعتها برفق على الطاولة، وتأكدت من أن غطاء الصينية لا يزال يغطي الطعام، مخفيًا محتوياته عن الأنظار، رغم أن الزوايا كانت تشير إلى أنها معكرونة بالبشاميل. كان الجميع ينظرون إليها بترقب، وبدا أنهم يقدرون جهدها في تحضير الطعام وسط الأجواء المشحونة التي عاشوها منذ الصباح. أوصد أحمد الباب خلفه ودخل وراءها، ليقف حيالها بجانب جميلة وسيليا. كانت "هايدي" تدرك تمامًا حجم الهموم التي كانت تخيم على قلوبهم، مما أثر على روحهم وأفقدهم رغبة في الطعام. فقالت بخجل، وعينيها مليئة بالحنو:

_دي حاجة بسيطة كده، انتوا من الصبح والمود مكنش حلو ومادام المود مش حلو يبقى مكلتوش حاجة.

جميلة:طيب تعبتي نفسك ليه بس يا هايدي؟
هايدي بمحبة:ولا تعب ولا حاجة، دي حاجة بسيطة كده.
أحمد بحنان:ربنا يخليكي لينا يا حبيبتي يارب.

تقدم أحمد نحو "هايدي" بحركة عفوية مليئة بالامتنان، ثم قبل رأسها برقة، وهو يريد أن يعبر عن شكره العميق على ما فعلته من أجلهم. اندهشت هايدي قليلًا، لكن ابتسمت بخجل، ثم ردت برقة:

_حبيبي، أنا ماليش غيركم!

تقدمت سيليا نحو عمتها هايدي، عينيها تتلألأ بفرح بريء، وعانقتها بقوة، معبرة عن محبتها وامتنانها لها. ابتسمت "هايدي" برقة، وسألتها بحنو، وهي تمسح على شعرها:

_عاملة إيه يا حبيبتي؟

سيليا برقة:الحمدلله يا عمتو.
هايدي بابتسامة:يدوم الحمد يا حبيبتي.
جميلة بلُطف:أقعدي ارتاحي يا هايدي، طيب مجيبتيش أكلك ليه؟ ناكل كلنا مع بعض!

هايدي بإحراج:لا احنا كلنا، معلش بقى تتعوض مرة تانية.
أحمد بفضول:عاملالنا إيه بقى؟
هايدي بمزاح:لا دي مفاجأة، شوف إنت بقى!
أحمد بتخمين:مكرونة نجرسكو صح.
هايدي بتأكيد:صح، أنا عرفت إن جميلة بتحبها فقررت أعملهالها علشان أفرحها.

نزع أحمد الغطاء عن الصينية برفق، وتأكد من يقينه حينما رأى المعكرونة النجرسكو الزاهية، مغمورة بالجبن الموزاريلا المحمر الذي يضيف لها لمسة ذهبية ومذاقًا لا يُقاوم. كانت نكهة الصوص الأبيض تتساقط بلُطف تحت الصينية، سائلة وأكثر تفردًا، مما جعلها تشبع العين قبل الذوق. اتجهت "جميلة" بسرعة نحو هايدي، وقامت بعناقها بحُب، معبرة عن شكرها العميق لجهودها التي بذلتها في تحضير هذا الطعام المميز، وقالت بصوت مفعم بالعاطفة:
_يا روحي، إنتي عايزة تفرحيني؟ بجد إنتي أحسن واحدة أنا عرفتها، إنتي حلوة من جوا وبرا بجد يا هايدي!

هايدي بضحك:انتي اللي حلوة وزي القمر، لا زي إيه؟ ده إنتي القمر نفسه!
جميلة بغبطة:حبيبتي.... يلا بقى ندوق الأكل!
سيليا بفُكاهة:بابي هات الأطباق! إنت ساكت ليه؟
أحمد بظرافة:حاضر يا حبيبتي، أجيبلك طبق كبير يا سيليا ولا طبق صغير على قدك؟
سيليا بحُنكة:أنا صغيرة يبقى طبق صغير!
أحمد بضحك:صح.
هايدي بإفترار:ربنا يخليهالكم يارب وتفرحوا بيها هي وأسيل.
جميلة بتمني:يارب يا روحي وعقبال ما نشوف Your Baby.
هايدي بخفارة:إن شاء الله.

دخل أحمد المطبخ بينما جلست جميلة وهايدي وسيليا حول الطاولة، يتبادلن الحديث بأصوات خافتة ملؤها الود. قام أحمد بإحضار الأطباق والشوك، ثم فتح الثلاجة بيده الماهرة وأخرج زجاجة عصير المانجو، وسكبه في الأكواب بحذر. عاد إلى الطاولة، وبدأ في ترتيب كل شيء في مكانه، كما لو كان يضع اللمسات الأخيرة على لحظة هادئة. جلس بعدها إلى جانبهم، وبدأت جميلة في تقطيع المعكرونة، فملأت الأطباق،

ليبدأ الجميع في تناول الطعام. ولكن بعد قضمة من المعكرونة، تذوق "أحمد" النكهة الفريدة، فرفع حاجبيه وسأل بشك:
_لا إنتي شكلك جايبة المكرونة تيك اواي صح؟

هايدي:خالص، أنا اللي عاملاها والله.

عندما كانت جميلة تتذوق المعكرونة بتركيز، وعيونها تراقب كل قضمة، محاولة اكتشاف كل نكهة فيها، نظرت إليها "هايدي" بترقب، تنتظر رد فعلها، وسألتها بصوت هادئ مفعم بالقلق:
_إيه رأيك يا جميلة؟

جميلة بذُهول:حلوة أوي تسلم إيديكي، لأ وعاملاها زي مانا بحبها بالظبط، Thank you يا حياتي!
هايدي بسعادة:بالهنا والشفا.
أحمد بمزاح:يعني بتراضي مرات أخوكي، وسايبة أخوكي ذات نفسه؟ مهانش عليكي تعمليلي أكلة بحبها مرة؟
هايدي بابتسامة:هعملك اللي إنت عايزه والله، بس جميلة النهارده نفسيتها كانت تعبانة أوي فأنا حبيت أفرحها ولو بحاجة بسيطة.
جميلة بخِفة:هايدي دي في قلبي بجد، إيه الطعامة والحلاوة دي؟
هايدي بقهقهة:لأ ومكترالك الجبنة على الوش!
جميلة بسرور:تحفة، أمواه.

أرسلت جميلة قبلة سريعة في الهواء بيديها نحو هايدي، ثم واصلت تناول المعكرونة اللذيذة، مستمتعة بكل قضمة. كان الجميع يأكلون بتلذذ، وكل واحد منهم يتبادل النظرات المليئة بالرضا عن الطعام الذي لا يمكن مقاومته. بينما كانت هايدي تتابعهم في صمت، تتراقص ابتسامتها الخجولة، وكأن ردود أفعالهم الإيجابية تملأ قلبها بالفرح، وتزيد من بهجتها. وفي وسط تلك اللحظة الممتعة، نظرت "سيليا" إلى عمتها هايدي بعينيها اللامعتين، وقالت بتردد:
_ممكن تعمليلي تشيز كيك يا عمتو؟

هايدي بمرح:أه طبعًا يا سيليا اللي إنتي عايزاه، بس تساعديني!
سيليا برصانة:أوكي أنا كده كده عارفة الطريقة!
هايدي بروعة:طيب برافو.
أحمد بشك:انتي سايبة زياد لواحده؟
هايدي باستياء:حاسة إن زياد متغير من ناحيتي، حتى مابقاش يحب ينام جنبي كأني زعلته في حاجة وأنا مش قصدي!

رغم أن العلاقة بين زياد وهايدي بدأت على أساس مجذور، إلا أن مسارها قد يواجه تحديات قد تؤثر في استمراريتها. منذ البداية، كان هناك حواجز نفسية بينهما، حيث كانت هايدي تتجنب قرب زياد منها وتتعامل معه وكأنه أخ، رغم أنهما زوجان، وهو أمر قد يخلق فراغًا عاطفيًا في العلاقة. مثل هذه التصرفات قد تُشعر زياد بالإحباط وتجعله يعيد التفكير في استمرارية علاقتهما. إذا استمر هذا التباعد العاطفي بينهما، قد يصل زياد إلى مرحلة يشعر فيها أن التضحيات والجهود التي يبذلها في العلاقة لا تجد نفس الاهتمام من هايدي. قد يدفعه ذلك إلى اتخاذ قرار قاسي بالانفصال، خاصة إذا كان يفتقد الحميمية والتواصل الذي يطمح إليه في حياته الزوجية.

يتبع....

الفصل الثامن

الاعتراف بالحق فضيلة لا يُدركها إلا العاقل المتبصر. رغم عمق العلاقة الأخوية التي تجمع أحمد وهايدي، إلا أن "أحمد" كان يدرك في أعماقه أن التعايش في حياة زوجية على هذا النحو المنفر أمر لا يمكن احتماله، ليس فقط بالنسبة لزياد، بل لأي رجل يحمل ذرة من الكرامة الإنسانية. فقد يُغض الطرف عنها لشهر أو شهرين، لكن الاستمرار بها مدى الحياة محض وهم لا يتحمله منطق. وبينما كان أحمد يتناول المعكرونة النجرسكو، رفع عينيه نحو هايدي وقال لها بحزم لا يقبل التردد:

_بصراحة حقه! انتوا متجوزين داخل في أسبوعين وانتي عالطول بتصديه وانتي فاهمة الباقي بقى!

هايدي بإحباط:أنا مش قصدي أعمل كده! يا جماعة افهموني! أنا الجواز بالنسبالي مش بالطريقة دي، أنا شايفة الفرق بينه وبين الخطوبة إننا كل واحد كان عايش في بيت أهله وبعد الجواز بقينا عايشين مع بعض، فاللي هو ليه منفضلش زي ماحنا؟ ليه دايمًا بنربط حياتنا بالشكل ده؟

جميلة بوضوح:سوري يا هايدي، بس يعني إنتي مأفورة الدنيا شويتين! جربي تتعاملي مع كل حاجة إنها عادي، طول مانتي حاطة العقد دي في دماغك يبقى عمرها ما هتتحل!

هايدي بتضايق:يا جماعة بجد بلاش الكلام في الموضوع ده! هو لو بيحبني هيقدر إحساسي، لكن هو مش عايز إلا اللي في دماغه وبس!

أحمد بانزعاج:هايدي! أنا مش عايز يحصل مشاكل ما بينكم بعد كده! خلي الحياة سهلة! ماهو لو واحد هيتجوز بالطريقة دي كان عاش في بيت أهله أحسنله.

هايدي ببلاهة:ماهو كده كده كان هيتجوز، سواء اتجوزني ولا اتجوز غيري فهي هي!

أحمد برصانة:لا مش هي هي! مش كل الناس بتعمل زيك يا هايدي وكان ممكن يلاقي اللي يريحه عكس مانتي بتعملي معاه!

نهضت هايدي وهي تحمل في وجدانها ثقلًا من الإحباط، وقد تجسدت مشاعرها في تبدل ملامح وجهها بشكل صادم. أدركت حينها حجم الكارثة التي تنسج خيوطها بيدها، كارثة قد تُسقطها في هاوية الانفصال دون رجعة. خيمت الصدمة على وجوه الحاضرين وهم يتابعونها بنظرات مذهولة، حتى قطعت "جميلة" الصمت بسؤال يفيض بالتعجب:

_رايحة فين؟

هايدي بابتئاس:هرجع الشقة بقى، تصبحوا على خير.

أحمد بارتياب:انتي زعلتي طيب؟

هايدي بعَبسة:لا مزعلتش، بس عايزة أنام، باي!

خرجت هايدي من شقة أخيها، حاملة على عاتقها أثقال الهموم، عائدة إلى شقتها التي كانت تبدو لها في تلك اللحظة فارغة من كل معنى. أغلقت الباب خلفها بقوة، محاولة أن تغلق معه ضجيج الأفكار الذي أرهق

روحها. في تلك الأثناء، بقي أحمد وجميلة حول طاولة العشاء، لكن الحديث عن هايدي لم يفارقهما. بقلق ظاهر، أخبر أحمد زوجته أنه يشعر بأن حديثهم قد نكأ جراحها وأعاد إليها أوجاعها المكبوتة، فبادرت جميلة بتأكيد إحساسه، مشيرة إلى أنها تشعر بالشجن ذاته الذي يخيم على قلبها.

وفي شقة هايدي، كانت "هايدي" تسير في الممر الضيق المؤدي إلى غرفة نومها بخطوات مترددة، كأنها تخشى مواجهة ما ينتظرها هناك. عندما فتحت باب الغرفة، وقع بصرها على زياد مستلقيًا على السرير، مستغرقًا في تصفح هاتفه دون أن يكترث لوجودها، غارقًا في عالمه الافتراضي الذي بات ملاذه من واقعهم المتوتر. تقدمت هايدي بخطى مثقلة وجلست بجانبه على حافة السرير، حيث لاحت في عينيها مشاعر متضاربة بين الألم والرغبة في الحديث. أخذت نفسًا عميقًا، وكأنها تجمع شتات شجاعتها، ثم قالت بصوت مفعم بالحيرة:
_عامل إيه دلوقتي؟

زياد بلا اكتراث:الحمدلله أحسن.

ثم مال زياد بجسده بعيدًا عنها، وكأن بينهما حواجز خفية تتراكم يومًا بعد يوم، تفصل بين قلبين كانا يومًا أقرب ما يكونان. تطلعت إليه "هايدي" بدهشة، وقد ارتسمت على وجهها الصدمة التي لم تستطع إخفاءها، وسألته بصوت مرتجف يفيض بالاستفهام والتوجس:
_في حاجة ولا إيه يا زياد؟ مالك بتبعد ليه؟

زياد بحدة:مش ده بقى العادي ما بينا؟ مستغربة ليه؟
هايدي بتلجلج:هو أنا زعلتك في حاجة طيب؟
زياد بتهكم:خالص، إنتي معملتيش حاجة عشان أزعل! إنتي قايمة بدورك على أكمل وجه، بتعملي الأكل وبتروقي البيت وبتغسلي وبتعملي كل حاجة.
هايدي بريبة:مش يمكن افتكرت عمي حسين الله يرحمه؟
زياد بترح:أنا فاكر أبويا في كل وقت، أبويا مبيروحش من على بالي ولا قادر أنساه ولا قادر أطلعه من دماغي!
هايدي بقلق:أمال في إيه طيب؟ ممكن توضحلي!
زياد بجفاء:انتي عارفة كل حاجة يا هايدي، أنا بقيت حاسس إن أنا عايش مع واحدة غريبة، مش مع البنت اللي بحبها وكنت عايز أتجوزها من زمان!

نهضت "هايدي" بصمت، لم تنبس بكلمة، عاجزة عن إيجاد ما يواسي صدمتها أو يخفف من الشعور الذي اجتاحها. انسحبت من الغرفة بخطوات مثقلة، حاملة في قلبها غضبًا مكبوتًا وترحًا لا يُحتمل. دخلت الغرفة الأخرى وأوصدت الباب خلفها، لتقف أمام المرآة، عيناها تائهتان تبحثان عن نفسها التي باتت تجهلها. بدأت

تخلع ملابسها وترتدي أخرى، في محاولة عبثية لتغيير حالتها وكأنها تهرب من ذاتها. أمسكت بأحمر الشفاه ومررته على شفتيها، لكن فجأة، وكأن السخط تفجر من سفحها، مسحته بيدها بعنف عارم حتى بدت آثار لونه على وجهها. لم تستطع أن تكبح دموعها أكثر، فانفجرت تبكي بحرقة، ممسكة بحواف المرآة وكأنها تخشى أن تنهار معها، وهمست بصوت مختنق بالأسى:

_يارب أكون بحلم، زياد بيقولي أنا الكلام ده؟ بعد ما كان بيجري ورايا علشان أتجوزه؟ مانتي برضة اللي غلطانة! إنتي مش مدياه حقوقه وعايشة معاه زي ما أبوكي وأمك كانوا عايشين مع بعض! المشكلة إنكم لسه عرايس جداد، يعني مفيش مشاكل مع بعض! لكن أبويا وأمي كانوا حياتهم كلها مشاكل فكان في سبب قوي يمنعهم من كل ده! إنتي غلطانة ولازم تصلحي غلطك ده، لازم تتغلبي على العقد الكبيرة اللي جواكي! وتعرفي إن ده جوزك مش واحد غريب! طيب ازاي هو في حد بيتغلب على اللي جواه ده في يوم وليلة؟أحمد وجميلة عندهم حق في كلامهم، أنا كده بدمر حياتي بإيدي!

كانت الأحاديث حول هايدي تتوالى، تلامس الواقع الذي كانت ترفضه بشدة وتصر على أن وجهة نظرها وحدها هي الصواب. لكن مع مرور الوقت، بدأت تلك الكلمات تأخذ شكلًا ملموسًا، خاصة بعدما استمعت لحديث زياد الذي لمّح فيه بنبرة جافة إلى نفور يملأ علاقتهما وتباعد لم يعد يخفيه. تذكر زياد كل شيء، من غربته مع والده في الخارج، إلى الأموال التي جمعها ليحقق لهايدي كل ما أرادته، ليعود ويجدها تتعامل معه تعامل يشبه تعاملها مع أحمد وجلال، رافضة أن تمنحه مكانة الزوج الذي يحلم بها. خسر والده، وهايدي كانت تزيد شعوره بالوحدة، إذ لم يتغير شيء منذ زواجهما سوى ازدياد المسافات.

في مصيف رأس البر، تجمعت العائلة حول طاولة طويلة وسط ضجيج المهرجانات التي صدحت من المحلات والمطاعم. على بُعد، دارت عجلات الملاهي، والناس يتنقلون في الشوارع المكتظة بالوجوه السعيدة. جلس الجميع يتناقشون حول ما سيأكلون. حضر النادل ممسكًا بدفتر صغير وقلم، وبدأ جلال يتحدث إليه، مشيرًا إلى الأطباق التي اختارها، بينما كان النادل يدون الطلبات دون أن يرفع عينيه، متنقلًا بالقلم بين الأصناف المكتوبة، قال "جلال":

_بُص يا معلم، تلاتة كيلو سمك بلطي مقلي، حلو الكلام؟

النادل:حلو.

ليالي باشتهاء:هاتلنا أربعة كيلو سمك بلطي صينية يا جلال وخلي الإتنين كيلو مقلي.

جلال:تمام.

ثم التفت "جلال" نحو النادل بعد أن انتهى من تدوين الطلبات الأساسية، وأضاف بصوت حازم:

_وتلاتة كيلو جمبري.

أشرف:واتنين كيلو كابوريا، واتنين كيلو سبيط.

جلال بتعجب:إيه السبيط ده؟
أشرف:نوع كده زيه زي الجمبري والكابوريا، بس لونه أبيض.
جلال بقلق:ويفرض طلع وحش يا عم يبقى فلوسنا اترميت على الأرض؟
أشرف بثقة:جرب على ضمانتي، إنت مش خسران حاجة!
جلال بوعيد:وربنا لو السبابيط دي طلعت وحشة لانت اللي تشيل الليلة كلها!

ضحك النادل بخفة على زلة لسان جلال أثناء نطقه أحد أسماء الأطباق، مما أثار حنق الأخير الذي بدا واضحًا على ملامحه. قبل أن ينطق بكلمة، سارعت "ليالي" بغمزة سريعة نحوه، محاولة كبح انفعاله المعتاد في مثل هذه المواقف. انحنت قليلًا نحو الطاولة وقالت بصوت خافت يحمل مزيجًا من الخور والحزم:
_أسكت يا جلال متفضحناش بقى!

أشرف بضحك:بعيدًا عن إنك ناطقها غلط بس تمام.
جلال بصياح:هو إنت ياض كل شوية هتعدل عليا؟ هو إيه؟ مفيش حد بيعرف يتكلم غيرك؟ إيه شايفنا عيال صغيرة بالبزازات؟
عم سلامة بحسم:يا راجل خلي بالك طويل، ماهو برضة إنت نص كلامك غلط، ده يا بخت من بكاني وبكى عليا ولا ضحكني وضحك الناس عليا!
جلال بصخب:وهو أنا حد يقدر يجي ناحيتي يا عم سلامة؟ ليه شايف جلال قصادك عيل خرع؟ لا إله إلا الله وأنا اللي بقول أمي غايبة وهتبقى الفسحة تمام، تيجوا انتوا تنكدوني وتعكروا مزاجي؟
نعمة بابتسامة:استهدوا بالله، احنا جايين نغير جو مش نحرق في دمنا!
أشرف بإنعام:خلاص يا جلال حقك على راسي.
جلال بعجيج:هو كل مرة كده يا عم؟ مالك كده في إيه؟
أشرف بتبسم:خلاص حقك على راسي.
حامد بضحك:روقوا ده انتوا هتاكلوا أكلة سمك هتحلفوا بيها باقية السنة لحد ما نيجي هنا تاني.

فيما كان جلال يصيح، وكأنه يتحين الفرصة لاقتناص أي كلمة تصدر عن أشرف ليشعل فتيل نزاع جديد، بدا وكأنه يبحث عن أدنى سبب ليبرر شغفه بالشجار. انتبه الناس في الشارع إلى صوت العائلة الذي طغى حتى على ضجيج الأغاني الصاخبة المنبعثة من المحلات المجاورة. تصاعدت الأدخنة من مطاعم السمك والدجاج المشوي والمأكولات السورية والكشري، بينما تبادل العاملون النظرات في دهشة، منصتين إلى صوت جلال الساخط الذي اخترق الأجواء. في خضم هذا التوتر، مالت "تباهي" برأسها نحو هبة وهمست في أذنها بتعجب:
_هو ماله جوز أختك روحه في مناخيره كده ليه؟

هبة بسُخط:عالطول بيتخلق ويتنرفز، أنا خايفة أشرف يمسك فيه في مرة إكمنه زودها أوي!

تباهي:لا حول ولا قوة إلا بالله، ربنا يهديهم يارب.

عادت تباهي وهبة إلى مكانهما من جديد، بينما كانت هبة مشغولة تمامًا مع ابنتها، التي كانت ترفعها بين ذراعيها أمامها، مستندة على الطاولة المغطاة بالمشمع البلاستيكي الأحمر، محاولة أن تُنسي نفسها ضجيج المحيط. أما "جلال"، فقد وضع يده فوق رأسه في محاولة لتهدئة الألم الذي بدأ يتسرب من ضغط الدم المتدفق إلى رأسه، ثم نظر إلى أشرف بعينين ملؤهما التوتر وقال بانفعال:
_اطلب إنت أنا مش طالب! دمي محروق.

نظر "أشرف" إلى النادل بابتسامة هادئة، ثم قال له بنبرة لا تخلو من الجدية:
_بص يا أستاذ عايزين اتنين كيلو سمك بلطي مقلي وكيلو سمك بلطي صينية، وتلاتة كيلو جمبري صينية، واتنين كيلو سبيط، واتنين كيلو كابوريا، و١١ طبق رز صيادية اللي هو البني ده، والسلطات بقى والعصير على عددنا.

بعد أن انتهى "النادل" من كتابة الطلبات، بدأ يعد الموجودين على الطاولة ليجلب المشروبات بما يتناسب مع عددهم. ثم نظر إلى أشرف باهتمام، مستفسرًا:
=١١ حاجة ساقعة، حاجة تاني؟

أشرف باكتفاء:لا كده تمام، شكرًا.

غادر النادل إلى المطعم، ليبدأ الطباخون في تحضير طلبات العائلة التي كانت تنتظر بفارغ الصبر انتهاء الوجبات. اتكأ "أشرف" على الكرسي، وبسط ذراعيه خلف ظهره في استرخاء، رافعًا كفيه الاثنين خلف رأسه، وكأنه يخلع عن جسده الضيق، ثم قال بارتياح:
_شوفوا بقى مظبطكم على الآخر.

جلال بصياح:يا جدع إنت متنرفزنيش! هو إنت دافع لواحدك؟ ماحنا كلنا دافعين زيك!
هبة بثورة:هو إنت مالك ومال أشرف يا جلال؟ حاطه في دماغك ليه؟ وكل ما يتكلم كلمة تتشال وتتهبد؟

نظر "جلال" إلى أشرف، مشبعًا بالاعتراض على تدخل النساء فيما يخص الأمور بينهما، ثم انفجر قائلًا بصخب:
_شايف؟ أهي النسوان بدأت تتدخل ما بينا!

أشرف بدهشة:مالك يا جلال؟ ما تهدى على نفسك! ده إنت من صباحية ربنا وكل كلمة تشبط معايا فيها!

عم سلامة:هتكبرولي؟
أشرف بتبجيل:نكبرلك، ده إنت الخير والبركة يا عم سلامة.

نظر "عم سلامة" إلى جلال بحذر، فقد أدرك صمته الذي يحمل بين طياته عدم احترامه لقراره، ثم قال بنبرة هادئة لكن قوية:
_مردتش يعني يا جلال!

جلال بإرغام:نكبرلك يا عم سلامة.
عم سلامة بنُصح:تحبوا على راس بعض، وصافي يا لبن! والشبطان اللي بيحصل ما بينكم ده ميتكررش تاني!
جلال بانفعال:ماهو اللي بيقول كلام يـ....
عم سلامة بحدة:أنا قولت إيه؟

جلال باضطرار:ماشي يا عم سلامة، عشانك إنت بس!
عم سلامة بتوجيه:بوسوا على راس بعض!

نهض جلال من على كرسيه، وقبل رأس أشرف لكن بوجه متجهم، كمن أُجبر على فعل ذلك رغم أنف مشاعره. بدوره، بادل أشرف نفس القبلة على جبهة جلال، فاستعادا هدوءهما وعادا إلى أماكنهما من جديد، وكأن الحائط الذي كان يفصل بينهما قد تلاشى. شعر "عم سلامة" بارتياح جسيم بعدما تمكن من تهدئة الأجواء، وأصلح الخلاف الذي كان يهدد بالانفجار. ابتسم ابتسامة هادئة، وقال:
_أيوه كده، الله يحفظكم من المشاكل ويهديكم.

هبة بعبوس:ربنا يهدي.
ليالي بابتسامة:خلاص حصل خير.
حامد:أمال الأكل بياخدله قد إيه؟
نعمة بتخمين:قول كده نصاية.
حامد ببشاشة:طب قومي نقف قصاد البحر شوية!

نهض حامد ونعمة من على الكراسي، ليتوجهوا نحو البحر، حيث يقفا لبرهة، فيستمتعان بنسماته العليلة وجماله الساحر تحت ضوء القمر. كانت أمواج البحر تتمايل، وكأنها تنساب في تناغم مع لحظاتهما الصاخبة. وضعت "نعمة" طفلها بين يدي ليالي، وابتسمت لها بابتسامة دافئة، ثم قالت برقة:
_خدوا بالكم من عمر!

ليالي:حاضر في عينيا.

قبلت ليالي رأس عمر، وهي تضعه في اعتبارها كطفل من أطفالها، مشبعة عينيها بحب لا يوازيه حب. كان عم سلامة ينشغل بحوار جاد مع أشرف حول الأمور التجارية، محاولًا إيجاد حلول لأفكار تتعلق بالمستقبل. أما تباهي وبناتها، فقد كن يتحدثن سويًا بنبرة خافتة، تتناثر الكلمات بينهن كهمسات تزين الأجواء. وفي مكان آخر، كان جلال يجيب على تساؤلات حمود حول طعم الجمبري، حيث أخبره أنه لم يكن يعلم حقًا كيف يكون طعمه، لأنه لم يجربه من قبل، وفي تلك الأثناء، كانت الأمواج تزداد اشتدادًا تحت ضوء القمر الفضي الذي طبع بريقه على سطح المياه. وقف حامد بجوار نعمة، مستغرقًا في تأمل مشهد البحر، حيث كان الهواء العليل يلامس وجوههم برفق، وهو يحمل معه راحة وطمأنينة. تنهد "حامد" بارتياح ثم قال بسعادة:

_ياه على الهوا، حاجة كده ترد الروح!

نعمة بمُتعة:أيوه ده ياريتني سمعت كلامكم وجيت من بدري، أنا جيت هنا نسيت أمي وأبويا ونفسي واسمي وكل حاجة يا واد يا حمو، حاسة كده إن أنا اتولدت من أول وجديد.
حامد بتولُّه:طب عارفة يا نعومي؟ لو مكنتيش جيتي مكنتش أنا كمان جيت، هي الفسحة تبقى فسحة من غيرك؟
نعمة بحبور:روح اللهي يخليك ليا وتنجبر يارب.
حامد بضحك:فاكرة لما جلال شافنا مع بعض وعملك حوار يومها؟
نعمة بقهقهة:أيوه أمال؟ ده نفس اليوم اللي ظهرلنا فيه حيوان البرضك.
حامد بصدمة:حيوان إيه يا بت؟
نعمة بضحك:حيوان البرضك، أصل أمي كانت مسمية السلعوة حيوان البرضك، ياه ياما كان عليكي كلام، رغم إنها كانت مطلعة عنينا بس كانت بتضحكنا من قلبنا بجد.
حامد باشتياق:طب والله ليها واحشة، يا ترى يا حماتي عاملة إيه دلوقتي؟

كانت نعمة الوحيدة التي مهما تعرضت من أم الديب من قسوة، حتى وإن كانت تصعقها بأسلاك الكهرباء، تظل مخلصة لها وتشتاق إليها كما لو كانت جزءًا منها، على عكس أخواتها اللاتي يكنَّ دائمًا في حالة من البغضاء تجاهها ولا يطيقن ذكر سيرتها. في المصيف، كان المكان مغمورًا بالحياة، فالأشخاص من مختلف الأعمار يتنقلون بين أرجائه: بعضهم يحمل بالونات ملونة في يديه، وآخرون يتناولون المثلجات وسط الزحام، بينما يقف البعض أمام المطاعم يختارون ما يشتهون، وكل شيء محاط بالصخب الممزوج بالموسيقى التي تعزف في الخلفية، وفي مستشفى السجن، خرج الطبيب النفسي من مكتبه وهو يحمل الروشتة بيده، متجهًا نحو عنبر المساجين. دخل الغرفة حيث كانت أم الديب مستلقية على سريرها، وجلس على الكرسي أمامها. كانت البشاشة تملأ وجهه وهو ينظر إليها بعينين مفعمتين بالاهتمام. ولكن فجأة، كأنما

اجتاحها هجوم مفاجئ، صرخت "أم الديب" بوجهه، متظاهرة بأنها لا تعرفه، وكأنها تعيش في عالم آخر، متبعة ادعاءها بأنها مصابة بالزهايمر، قائلة:
_انت مين؟

الطبيب بتبسم:أنا الدكتور بتاعك! دي خامس مرة تسأليني نفس السؤال! ممكن يا حاجة نتكلم بجد بقى؟
أم الديب بصياح:وهو إنت حد قالك إن آني بهزر؟
الطبيب:شوفي يا حاجة....

لكن قبل أن يواصل الطبيب كلامه، نهضت "أم الديب" فجأة عن سريرها، مما جعل جزءًا من حديده ينكسر تحت ثقل وزنها، وكأن الأرض نفسها آثرت أن تعبر عن مقاومتها. حينما تحركت، اقتلعت حجابها عن رأسها، ليظهر شعرها المجعد الذي كان أشبه بمثلث متشابك يبرز بشكل غريب فوق كل أذن، كأنه خصلات متمردة لا تجد لنفسها مكانًا ثابتًا. وفي تلك اللحظة، تشبثت بلباسها الأبيض، وفجأة، ارتفعت صراخاتها، ممتزجة بالاستغاثة، قائلة بإعوال:
_الحقوني يا خلق آني مش شايفة حاجة! الداكتور ضربني على عيني! يا لهوتي يا مصيبتي، آه يا عيني آه.

الطبيب بصخب:ضربتك إيه يا ست انتي؟ هو أنا جيت ناحيتك ولا لمستك؟
أم الديب:ايهي وآني هستنى لما تلمسني؟

الطبيب بتأكد:علفكرة بقى أنا متأكد إن عقلك سليم ١٠٠٪ بس إنتي اللي بتستعبطي!
أم الديب بصياح:ياكش تولع إنت واللي جابوك يا راجل انت!
الطبيب بجلبة:أنا مسمحش لقلة الأدب اللي بتحصل دي! أنا هخليهم يرجعوكي السجن تاني وأنا هعتزل أم المهنة دي خالص!

نهض "الطبيب" من على الكرسي، وعيناه ملؤهما الارتباك، فاقتلع بالطوه الأبيض بعصبية شديدة وألقاه على الأرض مع الروشتة، وكأنهما كانا عبئًا ثقيلًا لا يستطيع تحمله بعد الآن. فجأة، بدا وكأنه أصيب بلعنة الجنون نفسه، وتدفقت قهقهاته بشكل هيستيري بين كل كلمة والأخرى. بعدما كان يُضرب به المثل في العقلانية والرجاحة. كان يعالج المجانين والمرضى النفسيين طوال سنوات عمره، يداوي الأرواح المُضطربة، لكنه الآن كان في حاجة ماسة لمن يعالجه هو، قائلًا:
_مش معقول اللي بيحصل ده! أنا هكلم مدير المستشفى وأقوله على كل اللي بيحصل!
ثم خرج الطبيب من العنبر وهو يتضاحك بقوة، كأن ضحكاته تعبير عن فوضى عقله الذي انهار تحت ما كان يشهده. بينما بقيت "أم الديب" جالسة على السرير، وعينيها تنظران في الفراغ، تفكر بدهشة في ما

حدث لتوها. كان وجهها مشوشًا، وكأنها بدأت تستوعب ما جرى، لكنها لم تجد جوابًا شافيًا. فقالت بذهول، وهي تكاد لا تصدق ما يحدث حولها:
=ايهي الراجل اتعبط، يكونش اتعبط بسببي؟

في القصر، كانت الأجواء هادئة وراقية، والموسيقى الأجنبية تنساب فيه بشكل مستمر، تُضفي على المنزل جوًا من الفخامة. الأضواء الصفراء والبرتقالية تضيء الصالون الشاسع ومدخل القصر، فتخلق سحرًا من نوع خاص ينعكس على الجدران والأثاث الفاخر. كل ركن من القصر كان نظيفًا تمامًا، كما لو أن يديّ الزمن لم تلمسه أبدًا. الخادمات، اللواتي ارتدين مريلة التنظيف، كن يعملن بجد على أكمل وجه، يزيلن بقايا الأتربة بعناية فائقة، سواء في الصباح أو المساء. كان هناك ثلاثة نساء يعملن لمدة ثلاثة أيام في الأسبوع، وثلاث أخريات يعملن لأربعة أيام، ينظفن كل زاوية من القصر بكل دقة. أما في الخارج، فكان الجنايني يعتني بالحديقة، يقص الزوائد بعناية ليجعل الأشجار متساوية، كما لو كان يُهذب الطبيعة بأيديه. على البوابة، كان الحراس يقفون في صمت، منتبهين لكل حركة، وهم جزء من الحماية التي يفرضها القصر.

نزلت "أم قمر الدين" إلى الطابق الأرضي، فكان صدى كعبها يملأ المنزل وهو يرتطم بالبُورسلين الناعم، مُصدرًا ألحانًا عالية تشبه عزفًا خفيًا. توجهت نحو الخادمات اللاتي انتهين من تنظيف المدخل، وكانت ملامحها تحمل جدية، حيث كانت تفكر في إعداد وليمة كبيرة لأسرة وزير الداخلية، وقد قالت:
_اعملوا حسابكم بكرا عندنا أكبر عزومة لسيادة الوزير ومراته وأولاده! عايزة أحلى وأجمل عزومة، وعلفكرة مش انتوا خالص اللي هتعملوا الأكل، أنا هبعت الغزلان لأكبر مطعم في القاهرة ولكن انتوا هيكون عليكم رص الأطباق وتجهيز السفرة!

توليناز:أوامرك يا ست هانم.
أم قمر الدين:عايزة الأيس بوكس يتجهز فيه أحسن وأجمل وأغلى المشروبات! ده سيادة الوزير انتوا فاهمين يعني إيه؟
توليناز:من عنينا الإتنين يا ست هانم.
أم قمر الدين:أوكي.

اتجهت أم قمر الدين إلى الخارج نحو حديقة القصر، حيث كان البستاني جالسًا وسط الزرع الأخضر، يحتسي الشاي بهدوء. كان رجلًا في الخمسين من عمره، تبدو على وجهه ملامح البساطة والرهق من تعب الحياة، وهو يسعى بكل قوته لتربية خمسة أبناء: ثلاث بنات وولدين، جميعهم في سن العشرين أو أكثر.
كانت يديه، رغم ما تحملاه من سنوات من العمل الشاق، تحملان لمسات من التفاني في العناية بالحديقة.
وقفت "أم قمر الدين" إزاءه، كانت خطواتها ثابتة. ثم تحدثت بنبرة لطيفة، خالية من الغرور:
_عم جمال! عايزة دخلة حلوة أوي قصاد البوابة الرئيسية علشان لما سيادة الوزير يوصل بألف سلامة، وياريت تعلق صورته إعتزازًا وإحترامًا له!

نهض "البستاني" في الحال، منتصبًا في احترام لمقام أم قمر الدين، فكانت حركته سريعة لكنها مليئة بالهيبة. رفع يديه في تقدير، ووجه نظره إليها، ثم قال بصوت خافت:
=حاضر، أشيل التماثيل ولا أخليها؟

أم قمر الدين بحسم:أكيد طبعًا، ده بكرا يوم تاريخي مش هيتكرر تاني! يلا اتفضل!
البستاني بابتسامة:أوامرك.

اتجهت أم قمر الدين عائدة إلى القصر، حيث كان البستاني قد استأنف شرب الشاي، جالسًا بجانب الراديو الذي كان يعزف أغاني عبد الحليم حافظ بصوت خافت. كانت نغمات أغانيه تملأ الأجواء بنغمة حنينية هادئة، وكأنها تواسيه في وحدته، وتضاف لمسة من السكينة في محيطه المليء بالزرع الأخضر.

أما "أم قمر الدين"، فكانت تمشي بخطوات بطيئة وتفكر في نفسها، عينيها تائهتين بين تفاصيل ما ينقصها لإعداد وليمة الغد. بدا عليها بعض التردد، وكأنها تبحث عن شيء ما في ذاكرتها، ثم قالت بحيرة، بينما كانت تتأمل في الطريق أمامها:
_ناسية إيه؟ ناسيه إيه؟ آه الـ Dessert! كيك ولا حلويات شرقية؟ لسه مش عارفة، يارب اليوم يطلع حلو زي ما بتمنى.

صعدت أم قمر الدين إلى الطابق العلوي، حيث دخلت غرفتها الزهية المزينة بالتراث الحديث، التي تضفي على المكان جوًا من الفخامة. جلست على المقعد الوثير، وأخذت هاتفها في يدها لتدون كل ما ينقصها من مستلزمات لإعداد الوليمة الفاخرة التي خططت لها لمعالي الوزير وأسرته. كانت تفكر في كل التفاصيل بعناية، ترغب في أن تكون الوجبة على أعلى مستوى، وأجود أنواع الطعام. في الجهة الأخرى، وبعد أن أنهى البستاني شرب شايه، نهض وخرج من القصر متوجهًا إلى المطبعة في المدينة. كان يحمل مهمة صغيرة، لكنها كانت جزءًا من التحضير الكبير للوليمة. طلب من المطبعة أن يصنعوا بانر ضخمًا يحمل صورة الوزير ليعلقوه على مدخل القصر، ليُظهر الاحترام لهذه المناسبة.

أما في شقة هايدي، كانت جالسة على السرير في غرفة الأطفال، تميل بركبتيها نحو صدرها، وفي قلبها شيء يعتصرها. لم تستطع أن تحتمل الكلمات القاسية التي خرجت من فم زياد، والتي كانت بالنسبة لها بمثابة صدمة. كانت تراه منذ بداية زواجهما الأمان الذي لطالما كانت تبحث عنه، ولم تتوقع أن يلقى قلبها هذا الجفاء. شعرت بأنها فقدت كل شيء من حولها. فجأة، انفتح باب غرفة "زياد"، وخرج منها ببطء وهو يستمع إلى صوت بكائها. دخل الغرفة بهدوء، وعندما شعرت هايدي بدخوله، سرعان ما مسحت دموعها بسرعة في كم بيجامتها، محاولة إخفاء ما في قلبها. جلس أمامها في صمت، كان الصمت بينهما يملأ المكان، ثم نظر إليها بهدوء، وقال:

_انتي بتعيطي يا هايدي؟

هايدي بتلعثم:لا ده أنا... ده أنا جالي دور برد!
زياد بثقة:بس إنتي بتعيطي مش دور برد ولا حاجة زي ما بتقولي! هو أنا هتوه عنك برضة يا هايدي؟

صمتت هايدي، ولم تجب على كلامه، مما جعل ما في قلبها ينكشف أكثر أمام حصافة "زياد". اقترب منها ببطء، كان يشعر بوجعها دون أن يتحدث. تحرك نحوها، ومد يديه ليشعر بحضورها بشكل أقرب، فشعر هو نفسه بكثافة السكون الذي يملأ الغرفة. أمسك يديها بلُطف، كأنما يحاول أن يطمئنها بتلك الحركة، وعيناه لم تفارقا عينيها المملوءتين بالدموع. نظر في عينيها، حيث رأى الألم، ثم قال بصوت هادئ مليء بالندم على حديثه القاسي السابق:
_أنا آسف على الكلام اللي قولته، أنا معرفش قولت كده ليه! يمكن علشان فراق أبويا مأثر على نفسيتي وبيخليني أقول كلام كتير مش عارف معناه! أوعي تزعلي مني! أنا بحبك أوي وراضي بيكي في كل الحالات، ومش عايز أي حاجة غير إنك تكوني مرتاحة! حتى لو ده على حساب راحتي فمش مهم! المهم إنتي وبس.

ثم قبل رأسها برفق، وجذبها إلى حضنه وكأنما يحاول أن يضمد جراح قلبها. لكن "هايدي" لم تستطع أن تتمالك نفسها، فاندفعت دموعها بشدة، وانفجرت في بكاء مرير، بصوت عالٍ مليء بالأسى. كان صوتها يعبر عن ألمٍ غائر، كأن كل شيء كان ينهار في لحظة واحدة. فقالت بأسف:
_لا يا زياد أنا اللي آسفة وعارفة إن أنا زودتها أوي، إنت برضة ليك حقوق زي مانا ليا حقوق! أنا هاجي على نفسي وأعملك كل حاجة إنت عايزها حتى لو الحاجة دي مش مريحاني!

زياد بحنان:وأنا مش عايزك تعملي حاجة إلا لو إنتي اللي عايزاها، أنا مش عايز أشوفك زعلانة! عايزك دايمًا مبسوطة!

صمتت هايدي، ولم ترد. الكلمات قد تاهت منها في لحظة الضعف. نظر "زياد" إليها، ثم استمر في كلامه، محاولًا أن يجد كلمات تُصلح ما فُقد:
_أنا عارف إنك استغربتي من طريقتي لإنك متعودتيش مني على كده! بس صدقيني كان غصب عني، سامحيني على الكلام اللي قولته علشان أرتاح!

هايدي بنشيج:مسامحاك من غير أي حاجة المهم إنت اللي تسامحني!
زياد بامتنان:انتي معملتيش حاجة وحشة علشان أسامحك! بالعكس إنتي بتعمليلي كل حاجة انا محتاجها ومش بتتأخري عني في حاجة.

هايدي بنحيب:أنا النهارده حسيت إنك كان ممكن متكملش معايا، حسيت إنك اتغيرت عليا بعد ما شوفت فيك اللي مشوفتوش من أبويا وأمي وأخواتي!
زياد بضحك:ده أنا مسيبتكيش من عمايل مرات عمي! يبقى هسيبك من مشكلة بسيطة زي دي؟

هايدي باستياء:انت ازاي استحملت كل ده؟ أنا لو مكانك مكنتش استحملت دقيقة!
زياد بتبسم:علشان أنا شاريكي ومش فارقلي أي حاجة تانية غيرك، وكان لازم أستحمل وآجي على كرامتي علشانك!
هايدي بشجن:خلاص اللي كانت بتعملنا مشاكل مشيت! دي أكتر حاجة مريحة قلبي.
زياد بهُيام:وحتى لو خرجت، مفيش جن أزرق هيبعدني عنك! لا مرات عمي ولا غيره! أنا هفضل معاكي لآخر يوم في عمري!
هايدي بتعشُّق:ربنا ما يحرمني من وجودك جنبي أبدًا، أنا اللي بحبك أوي!

قبل زياد رأس ويد هايدي بكل حُب، وهو ينقل إليها جرعة من الحنان التي تلقاها من والده في طفولته، حيث كان يُعلمه كيفية معاملة النساء بلُطف واحترام، وكيف يجعلهن يشعرن بقيمتهن العالية. بعد تلك اللفتة الرقيقة، تبدل الاستياء في قلب هايدي إلى فرح، وسكنت روحها. شعرت أخيرًا بمكانتها الحقيقية لديه، بأنها لم تكن مجرد شريك عابر، بل كانت قلبه وملاذه. ابتسم "زياد" ابتسامة واسعة، وهو يشعر بالراحة، وكأن الخلافات التي كانت بينهم قد ذابت تمامًا، فقال:
_حبيبتي يا هايدي ربنا يخليكي ليا، بلايستيشن ها؟

هايدي بخجل:مبعرفش ألعب على البلايستيشن.
زياد بلهفة:أنا هعلمك يا ستي، قومي معايا بس كده وأنا هفضل وراكي لحد ما تتعلمي وتغلبيني كمان!
هايدي بضحك:ماشي.

تشبث زياد بيد هايدي، ونهضا معًا متجهين نحو الصالة الواسعة. جلست هايدي على الأريكة، مبتسمة، بينما بدأ زياد في تشغيل البلايستيشن، فأوصل الكهرباء ثم جلس بجوارها. سلمها جهاز التحكم، وأعد اللعبة في أجواء مليئة بالإثارة. اختار كل منهما الشخصية التي يفضلها، وبدأوا في اللعب معًا. كانت هايدي خائفة قليلًا من أجواء الرعب التي تعيشها اللعبة، لكن زياد كان بجانبها يشجعها، ويعلمها كيفية اللعب بسهولة. في مصيف رأس البر، انتهى الطباخون من تحضير الوجبات الفاخرة، التي تنوعت بين السمك البلطي المحمر، والسمك بالصلصة والخضروات، والجمبري والسبيط المقلي، والكابوريا، إلى جانب الأرز والمقبلات المتنوعة. بدأ النادل بتوزيع الأطباق على الطاولة بشكل منظم، مراعيًا نصيب كل فرد، مع العصائر المثلجة التي أضافت لمسة انتعاش للأجواء. ثم غادر النادل ليترك العائلة تستعد للوجبة، حيث بدأ الجميع يشمرون أكمامهم استعدادًا للطعام. حتى "جلال" الذي لم يتوان عن التقاط قطعة من السمك، وبدأ في قطمها دون أن ينظفها من الشوك، معبرًا عن إعجابه بالطعام بطريقة غير معتادة، قائلًا:

_الله أكبر، أكل عسل.

ليالي بتحذير:براحة يا جلال، كده الشوك يقف في زورك!
جلال بلا مبالاة:خليه يقف، كده كده فيماية.

كانت هبة تراقب والدتها بنظرة تحمل شيئًا من التساؤل، وكأن هناك شيء غير ناطق يتبادلونه في هذه اللحظة، شيء يتعلق بطريقة تناول جلال للطعام، دون أن يصرحوا به. أما "عم سلامة"، فقد نظر إلى أصناف الطعام المتنوعة على الطاولة باندهاش، ثم نظر إلى الأطفال الذين يحيطون به، وقال لهم بصوت هادئ:
_ما شاء الله، مدوا إيديكم وكلوا يا عيال!
فتحت "ليالي" السمكة بعناية، ونظفتها من الشوك تمامًا، ثم وزعتها في أطباق الأطفال بحرص، كأنها تعد لهم طعامًا مليئًا بالاهتمام. قالت لهم بابتسامة رقيقة:
=خد يا حمود، خدي يا تقى.
لم تنسَ "ليالي" ابن نعمة، بل نظفت له السمكة بعناية، ثم مدتها له بحرص، وقالت لنعمة باهتمام وهي تمدها بلحم السمك:
=خدي يا نعمة أكلي محمد!

نعمة:ماشي يا ليالي.

وضعت "نعمة" لحم السمك على أرز محمد، ثم أمسكت بالجمبري بعناية، وقالت لابنها بحنو:
_خد يا محمد كُل!

محمد بدهشة:ده إيه ياما؟
نعمة بحسرة:ده الجمبري اللي عمرنا ما دوقناه، الله يمسيكي بالخير ياما ده حتى القراميط اللي بتعوم في الترعة ما كنا نعرف طعمها إيه!

ثم قشرت نعمة الجمبري وأكلته بتلذذ، بينما كانت نظراتها مشوبة بالحزن على المعيشة الضنك التي عاشتها مع والدتها، حيث كانت أم الديب تمنع عنهم كل ما لذ وطاب، وتُجبرهم على تناول الجزر المسلوق كالأرانب. بينما كانت "تباهي" تضع لحم السمك فوق الأرز البني مع السلطة الخضراء، قالت بضحك:
_للدرجة دي أمكم كانت منشفاها عليكم يا نعمة؟

نعمة بندامة:أه وحياتك يا أم ليالي، الناس كلها كانت تاكل السمك إلا احنا، كانت أمي معيشانا على السلطة وساندوتشات الجزر، طب والنبي هو في حد في الدنيا يعمل اللي أمي بتعمله ده؟
هبة بضحك:أديكم اتفكيتوا منها، دي لو كانت كملت شوية كمان كان زمانكم انتحرتوا ولا طبيتوا ساكتين.
ليالي بفرح:أه والله.

قشرت "ليالي" الكابوريا بعناية، واستخراج لحمها الطري، ثم تناولته بفرح، وقالت لنعمة بضحكة شامتة وهي تعطيها السبيط المقلي:
_كُلي يا نعمة كُلي.
تذوقت "نعمة" السبيط المقلي فنال إعجابها بقوة، فابتسمت وأشارت إلى الكابوريا قائلة:
=الله ده طِعم أوي، أما أدوق الكابوريا دي هي كمان.

أمسكت "نعمة" الكابوريا بحذر، لكنها لم تكن تعرف كيف تكسرها في البداية. لاحظت ليالي حيرتها، ففتحتها أمامها بمهارة وسهولة، فتذوقت لحمها الطري، وقالت بصدمة:
_حلوة أوي، بس اللحمة اللي فيها مش كتير.

أشرف:أمال بقى لو شوفتوا الاستاكوزا هتعملوا إيه؟ مليانة بخيرات الله، ده أنا مرة واحد صاحبي عزمني في مطعم في إسكندرية وجابولنا الاستاكوزا، كلناها من هنا وشبعنا وباقية الأكل محدش بصله، أصلها كبيرة ومليانة لحمة.

عم سلامة باشتهاء:شوقتنا للبتاعة دي يا أشرف!
أشرف بوعد:إن شاء الله في مرة آخدك وأدوقك.
تباهي:الله طب خدنا معاك احنا كمان، يعني انتوا تاكلوا كل ما لذ وطاب واحنا في البيت عايشين على البطاطس؟
أشرف بتبسم:من عينيا يا حماتي ده إنتي تؤمري!

تناول أشرف الجمبري مع الأرز البني بينما كانت تباهي تأكل السبيط المقلي بشغف، أما جلال فكان ينزع لحم السمك دون شفقة، وكأن الطعام مجرد مهمة ينفذها دون أي اهتمام بتذوقه. كان المشهد أشبه بمعركة غذائية وليست مجرد وجبة غداء، حيث كان كل فرد منهم يندمج في الأكل وكأنهم يتنافسون على سرعة الانتهاء. النساء كن منهمكات في تنظيف الشوك من السمك بعناية شديدة، حتى لا يعلق في حنجرة الأطفال. ومع كل هذا الازدحام الغذائي، كانت قلوبهم ملآنة بالفرح. بعد نصف ساعة من هذا الهجوم اللذيذ، بدأ الجميع في مسح الأطباق فتركوا وراءهم القشور والجلود، والأشواك، وعظام الكابوريا. شربوا المشروبات بعدها بارتياح، ثم دخلوا المرحاضات لغسل أيديهم بعناية. توجه جلال مع أشرف وحامد نحو المحاسب لدفع

الحساب، وقد بدا على ملامحهم الراحة بعد هذه الوجبة التي تركت تأثيرها في نفوسهم، فسأله "جلال" باهتمام:

_كام يا معلم؟

المحاسب:ألفين ومية.

من المحتمل أن جلال، الذي يبدو أنه يرفض التنازل بسهولة، قد يشعر بالاستياء الشديد عندما يواجه المبلغ الباهظ الذي سيضطر لدفعه. في حال كان حانقًا بسبب السعر المرتفع، قد تتصاعد الأمور إلى شجار عنيف مع المحاسب، خاصة إذا شعر أن المبلغ غير عادل أو مبالغ فيه. هذا قد يؤدي إلى مواجهة تؤثر على جميع من في المطعم.

يتبع....

الفصل التاسع

كان المبلغ فاحشًا، نعم، ولكن جلال لن يتحمل العبء وحده؛ فالتقاسم سيكون عدلًا بين الأربعة رجال، حيث يسهم كل واحد منهم بمقدار خمسمائة جنيه، عدا أشرف الذي اختار أن يزيد حصته ويساهم بمقدار ستمائة جنيه. عندئذ، تحدث "جلال" إلى الجميع بنبرة حازمة، مؤكدًا على موقفهم:

_احنا ممعاناش إلا ألفين جنيه، كل واحد يطلع من جيبه ٥٠٠ جنيه... يلا يا جدعان!

استخرج كل رجل منهم المال من جيبه، وسلّموه لجلال، الذي بدأ يعدّ الأوراق بعناية حتى تأكد من صحتها، ثم سلّمها للـ "محاسب" الذي أعاد عدّ الورقات بدقة متناهية، وحرص على ترتيب كل ورقة في مكانها المحدد داخل الدرج. وبعدما تحقق من صحة العملية، رفع رأسه إليهم بابتسامة تحمل في طياتها حفاوةً، قائلًا:

_تمام نورتونا.

أشرف بتهلُّل:ده بنورك.

عم سلامة ببشاشة:ربنا يخليك.

كانت النساء والأطفال في الخارج، ينتظرون الرجال على أحر من الجمر حتى خرجوا إليهم، فبدأوا مشيهم على الكورنيش الفسيح الذي بدا خاليًا من هدوء الليل الذي يكسره بين الفينة والأخرى صخب المهرجانات، وأضواء المصابيح التي تلألأت كالجواهر في السماء. كانت روائح المشويات تتناثر في الأجواء، تنعش الأنفاس وتثير الحواس. وبينما كان جلال يسير بجانب حمود، كان خلفهم أشرف وعم سلامة وحامد، ومن ورائهم النساء والأطفال يخطون خطواتهم الصغيرة في ذلك المسار الصاخب. كان الجميع يقتربون من الملاهي، التي ينساب منها صراخ الأطفال وضحكاتهم الممزوجة بالحماسة، مزيج من الفرح والهلع. نظر "حمود" إلى تلك الملاهي بتمني، كانت عينيه تلمعان بشغف وهو يراقب الأطفال الذين ينطلقون في دوائر السعادة حول الألعاب، راغبًا في أن يعيش تلك اللحظة من المتعة التي كان يبدو أنها قد فاتته. ثم تردد قليلًا قبل أن يهمس لجلال قائلًا:

_يابا!

جلال بفظاظة:عاوز إيه؟

حمود بمَيْل:أنا وتقى ومحمد عايزين نركب المراجيح!

جلال بخشونة:لا مفيش لا مراجيح ولا بتاع، إنت نسيت اللي جرا لعمتك بسبب أم المراجيح؟

مدّ "عم سلامة" خطواته باتجاه جلال، محاولًا أن يقرّب المسافة بينهما كما لو كان يسكب كلمات من بين شفتين محمّلتين بالحكمة والتجارب التي لا تنسى. كانت عيناه تتأملانه، ويشعر بأن الوقت يمضي سريعًا، وأن أيام المصيف لن تتكرر. أطلق تنهيدة خفيفة، ثم قال بصوت هادئ لكنه مليء بالإصرار:

_يا عم خليهم يركبوا! ده انتوا بتيجوا هنا مرة في السنة!

جلال باعتراض:وأنا هستنى لما عيل من العيال يقع من لعبة فيهم ورجله تتكسر؟ وأهو في الآخر الفسحة هتبقى ميتم وهيتعكنن علينا كلنا!
حامد بتفاؤل:يا عم تُف من بوقك! فال الله ولا فالك، هو لازم كل سنة يعني حد يتكسر ولا يجراله مصيبة؟
حمود بإلحاح:والنبي يابا والنبي!

تعلّق حمود بذراع جلال، وعينيه تلمعان ببريق الإصرار، كأنما يستحثّ الزمن ليمده بفرصة لتجربة الألعاب التي طالما حلم بها. وبينما كانت خطواتهم تقترب من الملاهي، كان صوت صياح والدهم يتسلل إليهم، معبّرًا عن رفضه لتلك الرغبة الملحة. حينئذ، استمعت "تقى" إلى ذلك الصوت، فشعرت بالخذلان يخيم على قلبها. التفتت إلى الليالي، وألقت إليها بكلمات مفعمة بالشكوى، مبديةً أسفها على الحال الذي لن يلبّي رغباتهم:
_يا ماما، بابا مش عاوز يركبنا المراجيح عشان عمتي نعمة!

ليالي بتعجب:وانتوا مال عمتكم بالموضوع؟
نعمة بتخمين:يكونش عشان اللي حصلي السنة قبل اللي فاتت؟
ليالي باطمئنان:تصدقي ممكن، بس لا مش هيحصل حاجة، اللي جرا السنة اللي قبل اللي فاتت كان بسبب أمك واللي عملته فينا.
هبة بفضول:هي عملت إيه؟
ليالي بضحك:تعالي ياختي أقولك!

بينما كانت هبة تحمل طفلتها بين ذراعيها، وتحتضنها برفق بالغ، كانت الصغيرة غارقة في نوم هادئ وسط صخب الليل، نائمة على كتف والدتها الحنونة، لا تكترث بأصوات الضوضاء حولها. اقتربت ليالي من أختها، ثم وقفت معها جانبًا، همست في أذنها همسات خفيفة، تخللها ضحكات ناعمة، سرعان ما تحوّلت إلى قهقهات عالية جذبَت الأنظار من كل جانب. في خضم تلك اللحظة البهيجة، قالت "هبة" لليالي بقهقهة مرحة:
_والله؟ بالذمة ده حصل؟

ليالي بضحك:أه والله.
هبة بِافترار:لا دي لاسعة رسمي، دي عايزة اللي يحدفها على العباسية!
ليالى بمرح:تعالي أكملك اللي حصل!

قاربت ليالي من أذن هبة للمرة الثانية، همست لها بأسرار أم الديب التي كانت تثير ضحكاتهم أكثر فأكثر، حتى اختلطت ضحكاتهم في الهواء كأنها ألحان من الفرح تنساب بين نسمات الليل. ازداد ضحكهما حتى

كادا أن يسقطا على الأرض من شدة الضحك النابع من أعماق قلبيهما. في تلك اللحظة، شعرت نعمة بالملل من كثرة الحركة، فقررت أن تجلس على الكورنيش بجانب حامد وطفليها، بينما توزعت العائلة حولهم.
أمامهم كان متجر للمثلجات، تكتظ طاولاته بالزبائن مما يوحي بأن جودته عالية. نظر "حامد" إلى المتجر لبرهة، ثم التفت إلى نعمة وقال بابتسامة:
_عاوزين چيلاتي يا نعمة، حاجة ترطب علينا حر الصيف.

نعمة بلا انتباه:وهو في دكاكين هنا بتبيع چيلاتي؟
حامد بتأكيد:أمال إيه؟ قدامك أهو، أنا هاخد محمد وهروح أجيبلنا چيلاتي.
نعمة:ماشي ياخويا.

نهض حامد متشبثًا بكف صغيره محمد، الذي كانت أصابعه تتداخل مع أصابع والده بكل براءة. اقترب من جلال الذي كان يدخن سيجارته بهدوء، بينما كان أشرف غارقًا في شاشة هاتفه، وعيناه تتنقلان بين الكلمات والأرقام. أما عم سلامة، فقد كان يراقب الأجواء حوله، مستمتعًا بأصوات الضحك التي تعبق في الهواء.
اقترب "حامد" منهم، ثم قال بنبرة هادئة:
_بقولكم يا جدعان أنا رايح أجيب چيلاتي من الدكان ده، حد عاوز حاجة أجيبهاله؟

جلال:اسأل ليالي والعيال!
حمود:أنا عاوز چيلاتي مانجا!

نظر "حامد" إلى تقى، وعيناه تحملان تساؤلًا، ثم قال لها بصوت خافت:
_وانتي يا تقى؟

تقى:هاتلي عصير مانجا يا عمي حامد.
حامد بضحك:هو النهارد اليوم العالمي للمانجا ولا إيه؟

التفت "حامد" إلى عم سلامة، وعيناه تعكسان اهتمامًا عميقًا، ثم سأله بلهجة جادة تُظهر حرصه على ما يهم:
_وانت يا عم سلامة؟

عم سلامة بقناعة:هاتولي أي حاجة أنا راضي.

وجه "حامد" سؤاله الأخير إلى أشرف، وأخذت ملامحه تعبيرًا من الترقب، ثم قال بصوت هادئ لكنه يحمل في طياته رغبة في الحصول على إجابة:

_وانت يا أشرف؟
نهض "أشرف"، وأدخل هاتفه في جيبه بحركة سريعة، ثم نظر إلى حامد بعينين جادتين قبل أن يجيب بصوت مؤكد، ثم قال:
=أنا جاي معاك.

حامد باستعداد:طيب يلا بينا.

ذهب حامد برفقة طفله محمد وأخيه أشرف إلى متجر المثلجات، حيث وقفا وسط الزحام في انتظار دورهما. كانت الأجواء مليئة بحركات البشر الذين يتنقلون بين الطاولات، يحمل البعض أطباق الأرز بالحليب والمكسرات، بينما الآخرون يستمتعون بطاجن أم علي بالقشدة، ولا يخلو المكان من زبائن يذوقون الجيلاتي اللذيذ أو يتناولون المشروبات الباردة التي تنعش الأجواء. بينما كان الحديث بين ليالي وهبة يتجول حول أم الديب وتصرفاتها الطريفة، قالت "هبة" بنبرة مشحونة بالبغضاء، مُعبّرة عن استيائها مما تفعله:
_ده اللي زي دي ربنا ياخدها ويريحكم منها، ده مفيش واحد يوحد ربنا طايقها... ده لا جيرانها ولا عيالها ولا قرايبها ولا أي حد!

ليالي:جاتها القرف، يلا داهية لما تاخدها بوش أمها اللي يقطع الخميرة من البيض، تعالي نقعد بدل وقفتنا دي!

جلست هبة وليالي على الكورنيش، مستأنفتين حديثهما مع نعمة، بينما كان الأطفال يلهون أمام أعينهم، يتنقلون بين المارة بكل براءة وبهجة. بعد خمس دقائق من الوقوف في الزحام، خرج حامد وأشرف محملين بالمثلجات اللذيذة التي اختاروا منها. اقتربا من العائلة، وبدآ بتوزيع ما اختاروه بعناية. مد "حمود" يده بابتسامة، وقال:
_أنا چيلاتي مانجا.

وزع "حامد" المثلجات والمشروبات على حمود وتقى وعم سلامة، وهو ينظر إليهم بابتسامة خفيفة، ثم قال بنبرة ودية تحمل في طياتها لمسة من الاهتمام:
=خد، خدي يا تقى، خد يا عم سلامة!

بعدما تشبث الجميع بمثلجات الكونو المقرمش، نظر "جلال" إليهم باستخفاف، بعدما انتهى من علبة السجائر التي كان يدخنها. كانت عينيه تحملان تعبيرًا من اللامبالاة، يراهم في خفةٍ، كما لو أنهم يميلون إلى الحلوى ببراءة الأطفال الذين لا يستطيعون مقاومتها. أما هو، فلم يكن يجد في تلك اللحظة ما يرضي مزاجه سوى السجائر، فشعر بحاجة ملحة إلى واحدة أخرى، وقال:
_أنا شغل الچيلاتي ده ميمشيش معايا، أنا عاوز سيجارة، حد فيكم معاه سجاير؟

أشرف:أنا مبشربش.
حامد:ولا أنا.
عم سلامة:أنا بطلتها من سنين، يا راجل دي بتجيب أمراض الدنيا واللي فيها، حافظ على بدنك عشان عيالك!
جلال بضحك:هو أنا في حاجة بتحوق فيا يا عم سلامة؟
عم سلامة بخوف:هتقر على نفسك ولا إيه؟ أسكت واحمد ربنا!

بينما كان الجميع منهمكًا في لعق المثلجات وأكل البسكويت، كان محمد يغفو بعينيه الموصدة، يحدوه أمل في نوم ساحق يريح جسده الذي أنهكته أمواج البحر. كان يمسك بالمثلجات تارة، ثم يغمض عينيه في لحظات أخرى، وكأن النعاس يستولي عليه في كل مرة. في آخر لحظة، عندما تغلب عليه الإرهاق، همس لوالدته بصوت خافت، معبرًا عن شدة نعاسه:
_أنا عاوز أنام ياما!

نعمة:خلص الچيلاتي بتاعك وبعدين نبقى نروح.
محمد ببكاء:عاوز أروح ياما، ماليش فيه!
نعمة بانزعاج:يا واد متعيطش إنت راجل!

التفتت "نعمة" إلى حامد، وهي تتلذذ بكل لقمة من المثلجات التي بين يديها، بينما كان هو الآخر غارقًا في لحس مثلجاته، غير مبالٍ بما حوله. نظرت إليه برفق، ثم قالت له، متأملة في تفاصيل لحظتهم الصغيرة:
_ما تشوف الواد يا حامد!

حامد باهتمام:عاوز إيه يا محمد؟
محمد بنشيج:عاوز أنام.
حامد بحنو:شوية وهنرجع البيت، خلص الچيلاتي اللي في إيدك بس!
محمد باستجابة:ماشي.

تناول محمد المثلجات وهو غير مستمتع، فالتعب كان قد استولى عليه بعد يوم طويل من اللعب والسباحة في البحر. كانت عيناه ثقيلتين، وكان يعافر بشدة ليتمكن من إنهاء الحلوى بسرعة، لكن كلما اقترب من النهاية، كانت المثلجات تذوب بفعل حرارة الصيف، فيسقط بعضها على الأرض، ما يزيد من عذابه. وبعد خمس دقائق من الجهود المضنية، انتهى أخيرًا من رحلته مع المثلجات، تاركًا وراءه آثارًا ذائبة على يديه. بعد دقائق أخرى، مسحت العائلة أيديها بالمناديل، ثم نهضوا جميعًا ليكملوا جولتهم في شوارع رأس البر، حيث تجولوا بين المعارض المزدحمة بالأواني والمكياج والملابس. كانت الشوارع تعج بالزوار والباعة

المتجولين، بينما كان حامد يحمل محمد بين كتفيه، والطفل يغفو في هدوء، في حين حملت نعمة عمر بين ذراعيها. مروا بجانب مهرجانات الرقص والسيرك، حيث كان الصخب يملأ الأجواء بألوانه المُبهجة.

ظلوا يتجولون في المدينة حتى بلغت الساعة الواحدة من منتصف الليل، حيث قرروا ركوب السيارة والعودة إلى العمارة المصيفية. دخلوا شققهم وأخذوا وقتًا لتغيير ثيابهم استعدادًا للنوم. الأمّهات، بعد أن نام أطفالهن، كانت قد أغمضت أعينهن أخيرًا لتغرق في نوم غائر. في اليوم التالي، كانت الشمس قد أشرقت ساطعة، لتضيء المكان كله بنورها الذهبي. استيقظت "هايدي" من نومها، وتفاجأت بأنها تجد زياد بجانبها في السرير. لم يظهر عليها القلق أو الخوف كما في المرات السابقة؛ فقد كانت قد قررت أن تُظهر شجاعتها، وقالت ببشاشة:

_صباح الخير.

زياد بابتسامة:صباح النور يا حبيبتي.

هايدي بفضول:الساعة دلوقتي كام؟
زياد:الساعة ١١.
هايدي بصدمة:ياه ده احنا صاحيين متأخر أوي.
زياد بضحك:طبعًا، مش نايمين اتنين بالليل؟ ده احنا طول الليل نلعب بلايستيشن، بس مش بذمتك اتعلمتي؟
هايدي ببشاشة:أه طبعًا، أنا من غيرك مكنتش اتعلمت أي حاجة، يلا بقى أنا هقوم أجهز الفطار.

نهضت هايدي من السرير، وأطلت على الغرفة التي كانت تشع بنور الصباح، ثم خرجت منها بخطوات هادئة. تبعها "زياد"، مبتسمًا، عاقدًا العزم على توصيل خبر سعيد لها. كانت ملامح وجهه تعكس مزيجًا من الفرح والتفاؤل، وكأن الخبر الذي يخبئه يحمل بين طياته الكثير من الأمل. اقترب منها، وملأ الأجواء بنبرته الهادئة، قائلًا لها:

_خدي بالك احنا معزومين النهارده عند حد!

هايدي بشَده:احنا؟
زياد:أه طبعًا، مش عارفة مين؟
هايدي بشغف:لا، مين؟
زياد بتبسم:جميلة مرات أخوكي قررت إنها تعزمنا عندها النهارده.
هايدي بضحك:طب مش تقول من بدري إنها جميلة؟ هي قالتلك كده امتى أصلًا؟
زياد ببشاشة:بعد ما صحيت بشوية لقيت الباب بيخبط، فتحت لقيتها جميلة.

واصل زياد حديثه وهو يسترجع لحظات من الماضي، عندما كانت الذكريات تتوالى كصور تتجسد أمام عينيه. تذكر تلك اللحظة التي فتح فيها عينيه على صوت جرس الباب، فالتفت إلى هايدي، ليجدها غارقة في نوم عميق، لا يبدو عليها أنها ستستفيق قريبًا. بحذر، رفع الغطاء عن جسده، ونهض في الظلام بهدوء تام، محاولًا ألا يوقظها. خرج من الغرفة باتجاه باب الشقة، وعندما فتحه، تفاجأ بـ "جميلة" ، التي كانت تقف أمامه مرتدية البيجامة، وشعرها مرتب بعناية، كأنها تخرج لتوها من حلم هادئ. نظرت إليه برقة، وعينيها تحملان شيئًا من الود، ثم قالت له بصوت منخفض:
_صباح الخير.

زياد باستحياء:صباح النور.
جميلة بفضول:هايدي صاحية ولا نايمة؟
زياد بتبسم:لا هايدي نايمة.
جميلة ببشاشة:طيب، لما تصحى عرفها إن أنا عازماكم النهارده على الغدا!
زياد بخجل:طيب ليه التعب ده بس؟

جميلة بابتسامة:ولا تعب ولا أي حاجة، احنا كلنا بقينا واحد، وانت لو تعرف غلاوة هايدي عندي مكنتش سألت السؤال ده.
زياد بإعزاز:عارف والله من غير أي حاجة.
جميلة ببشاشة:أوكي، باي.
زياد:مع السلامة.

أغلق زياد الباب برفق بعد أن تأكد من دخول جميلة شقتها، وعاد إلى حديثه مع هايدي، وهو يسترجع تفاصيل الموقف في ذهنه. عندما أنهى سرد القصة، شعر بشيء من الارتياح وهو يرى تأثير كلماته على "هايدي"، فقد كانت عينيها تحملان نظرة مفعمة بالحب تجاه جميلة، بعد أن زادت غلاوتها في قلبها. كانت ابتسامتها تعكس سعادة خفية، شعورًا بالسلام الداخلي. نظرت إلى زياد بحبٍ وأخذت تنطق بكلمات من أعماق قلبها، معبرة عن محبتها الكبيرة لجميلة، قائلة:
_أنا اللي بحبها أوي بجد، غلاوتها عندي من غلاوة نعمة، أنا هعمل تشيز كيك لسيليا، هي كانت طالباها مني وناخدها علشان مندخلش إيدينا فاضية.

زياد بحصافة:طيب يا حبيبتي ليه تتعبي نفسك لما ممكن ننزل نشتريها وخلاص؟
هايدي باقتناع:فكرة برضة.
زياد:أنا هدخل آخد شاور وانتي اعملي الفطار وناكل وننزل نشتري شوية طلبات للبيت.
هايدي:ماشي يا حبيبي.

أرسل زياد قبلة لهايدي على الهواء، ثم دخل المرحاض وفتح صنبور المياه. تدفقت المياه باندفاع، وكان الصوت المصاحب للماء يجعل الأجواء متجددة. بدأ في إزالة ثيابه استعدادًا للاستحمام، بينما كانت هايدي في المطبخ، تعد الطعام باهتمام. أخرجت الطعام من الثلاجة، وأخذت تحضّره بعناية. مسحت القدر بالقليل من الزيت باستخدام الفرشاة، ثم وضعت شرائح الخبز في الداخل لتأخذ لونًا ذهبيًا جميلًا. أضافت الجبن الموتزاريلا واللانشون والزيتون والطماطم المقطعة بدقة، وهي تصنع الوجبة التي ستجمع العائلة معًا، بكل حُب ورغبة في إسعادهم.

في عنبر المستشفى، كانت أم الديب تشعر بتوتر بالغ تجاه المرضى من حولها، بل وحتى تجاه الممرضين. لم يكن أحد في مأمن من احتدامها، حيث كانت دائمًا في حالة من التمرد، تتشاجر مع الجميع، وتطلق كلمات جارحة وغير أخلاقية. في تلك اللحظة، حين كانت أم الديب مستلقية على سريرها، اقتربت منها الممرضة، تحمل الحقنة استعدادًا لإعطائها العلاج. وعندما التقت عيون "أم الديب" بالممرضة، كانت نظراتها مليئة بالتحدي، بينما كان صوتها يخرج غليظًا، كأنما تنبئ بعاصفة من السخط، قائلة:
_انتي مين يا ولية؟ وعاوزة مني إيه؟

الممرضة بدهشة:في إيه بس يا حاجة؟ هو أنا هاكلك؟ ده إنتي هتاخدي الحقنة، ومتخافيش إيدي خفيفة!
أم الديب بصراخ:عاوزة تموتني يا خلق! عاوزة تجيب أجلي يا هو، يا دهوتي... يا خرابي يا خرابي يا خرابي...يا مصيبتك السودة يا أم الديب!

نهضت أم الديب من على السرير فجأة، وبدأت تلطم وجهها بجنون، كأنها تفقد سيطرتها على ما حولها. كانت حركاتها عشوائية، تحمل في طياتها الكثير من السخط والرفض. الممرضة، التي كانت واقفة في مكانها، لم تستطع إلا أن تراقبها بذهول، تتساءل عن السبب وراء هذا التصرف الغريب. سرعان ما شعر "الطبيب" بحالة من الارتباك، فدخل إلى الغرفة بسرعة، عينيه تحملان القلق، وسأل بفزع عما يحدث، محاولًا فهم ما يجري وسط هذا الاضطراب:
_هو في إيه؟ إيه الدوشة دي؟ إيه اللي بيحصل هنا؟

الممرضة بهلع:أول ما عرفت إن أنا هديها الحقنة من ساعتها وهي شغالة صويت.

كانت "إحدى المريضات" جالسة في صمت تام، تراقب ما يحدث حولها، لكن ما لبثت أن عدلت جلستها بحركة هادئة، ثم بسطت يديها فوق فخذها، وكأنها تستعد لطرح ما في صدرها. نظرت إلى الطبيب والممرضة، ثم بدأت تروي لهما ما عاشته طوال تلك الليلة بسبب تصرفات أم الديب. كانت الكلمات تتدفق من فمها، محملة بكل أبعاد المعاناة. تحدثت عن الصراخ الذي كان يعم الأجواء طوال الليل، وكيف كانت أم الديب تسب كل فرد من أفراد عائلتها، تدعو عليهم واحدًا تلو الآخر. وصفَت كيف كانت تشد شعرها بعنف،

وتقفز فوق المرضى الذين كانوا نائمين، وكأنها طائرة مفزعة تحلق في سماء الليل المظلم، تصنع الفزع بقصد، قائلة:
_دي طول الليل قارفانا صويت ومش عارفين نتخمد منها ونازلة تلطيش فينا كلنا! مرة هاتولي ابني ومرة هاتولي بنتي ومرة تدعي على جوزها ومرة تشتم في مرات ابنها، أنا دماغي ورمت منها!

أم الديب بغلاظة:انتي بتشتكيلهم مني يا بت الكلـ*؟ بتشوهي صورتي قصاد الخلق؟ تعاليلي يا بت الكلـ*!

طارت أم الديب فجأة نحو السيدة، ممسكة برأسها بعنف، ثم انتزعت الحجاب من على رأسها، مستخدمة إياه لخنق السيدة بشدة. كانت الحركات عنيفة، كأنها لم تترك مجالًا للسيطرة على الموقف. ومع الصراع المحتدم، انكشف شعر أم الديب المجعد الذي كان يبدو كخيوط من الأسلاك الشائكة، متشابكًا وغير مرتب. كان منظر شعرها في تلك اللحظة لافتًا جدًا للـ "طبيب"، الذي لم يستطع تجاهل خشونته الشديدة، فوقف مشدوهًا، يتأمل بصيلاته المتشابكة، قائلًا بصدمة:
_دي عايزة بلسم! ولا أقولك فرد بروتين أحسن!

الممرضة بصخب:هو احنا في إيه ولا إيه يا دكتور؟

ركضت الممرضة بسرعة خارج العنبر، تستنجد بالأمن لإنقاذ الموقف ووقف هذه المهزلة التي أصبحت خارج نطاق السيطرة. جلبت معها مجموعة من زملائها الممرضين، الذين تضافرت جهودهم جميعًا ليفكوا قبضة أم الديب الشريرة عن السيدة. كانت تلك اللحظات مليئة بالضوضاء، بينما الممرضون حاولوا بكل قوتهم أن يبعدوها عنها. بعد جهد مضنٍ، تمكنوا أخيرًا من تحرير "السيدة" من قبضتها، التي تركت أثرًا من الألم. حاولت السيدة أن تتنفس بعمق، فتفجرت صرخاتها في أرجاء العنبر، معبرة عن شدة الرعب الذي عاشته، قائلة:
_آه، كانت هتموتني!

اجتمعت الأربع ممرضات حول أم الديب، يحاولن تجليسها على سريرها بالإكراه، وسط صراخها الحاد ومعاناتها العارمة. كانت تعول بشدة، وكأنها تواجه مقاومة غير مرئية، ولا تملك القدرة على التوقف عن هياجها. وبعدما تمكنوا أخيرًا من إعادتها إلى السرير، وجلسوا حولها محاولين تهدئتها، قالت لها "إحدى الممرضات"، وقد بدت على وجهها دلالات السخط من تصرفاتها المتكررة:
_حرام عليكي كل ده علشان إيه؟

أم الديب بصراخ:اخرسي يا ولية! مش عاوزة أسمع منك كلمة!

اقترب الطبيب من أم الديب بحذر، محاولًا لمس شعرها الخشن للتأكد من ملمسه، متجاهلًا الفوضى التي كانت تسود العنبر. لكنه لم يتوقع رد فعلها العنيف. فجأة، رفعته بيدها بكل قوتها، وضربته كفًا قويًا على وجهه، ما جعله يتمايل ويسقط على الأرض، يدور ككرة بيضاء تتدحرج. كان الصوت الذي أحدثته الصفعة يملأ المستشفى، بينما هو يرقد على الأرض محاولًا التماسك. نظرت إليه "أم الديب" بفظاظة، وعينها مليئة بالاحتدام، قائلة:

_خدوا البتاع دهو من هناهو، غور من وشي! هو آني هلاقيها من عيالي ولا منكم؟ اتفوه عليكم!

مدت "الممرضة" يدها للطبيب في محاولة منها لمساعدته على النهوض، وهي ترتجف من الصدمة مما حدث لتوّه. كانت ملامح وجهها تصف الفزع، إذ لم تتوقع أن تصل الأمور إلى هذا الحد. وبنبرة متسارعة، قالت له بحذر:

=إيه اللي خلاك قربت منها بس؟ هي دي حد قادر عليها؟ دي طلعت عينا كلنا.

خاف الممرضون من رد فعل أم الديب العنيف، فسرعان ما سحبوا الطبيب بعيدًا عن السرير، واختفوا عن الأنظار. مرت خمس دقائق، وكأن الزمن توقف في تلك اللحظة. أم الديب كانت جاثمة على السرير كالمسمار، لا ترمش عيناها، ولا يتحرك لها ساكن، وكأنها تمثال جامد، صامتة تمامًا، ثم فجأة، ودون سابق إنذار، نهضت على حافة السرير، وأخذت ترفع ذراعيها في الهواء وكأنها تطير في الفضاء، بينما أغلقت عينيها بشكل مُريب. كان المشهد مقلقًا للغاية، خاصةً بالنسبة لـ "سيدة" أخرى في الغرفة، كانت تعاني من مرض السكر والضغط، ولا تستطيع الحركة بسهولة. لكنها، رغم ضعفها، عندما شاهدت تصرفات أم الديب الطريفة التي تخللتها جنونًا، تحركت بسرعة بعيد، لتصرخ في وجهها بذهول، محذرة إياها من عواقب ما تفعله، قائلة:

_يا لهوي، إنتي هتعملي إيه يا حاجة؟

أم الديب بخَبَال:هطير.
السيدة بنواح:تطيري إيه؟ إنتي فاكرة نفسك حمامة؟

قفزت "أم الديب" فجأة فوق سرير المريضة المقابلة لها، فانقضت عليها بكل قوتها، ما أدى إلى تحطيم السرير نصفين وسقوطه على الأرض. انزلقت المريضة تحتها، بينما أم الديب لم تبالِ بما حدث أو بما أصابها من تضرر. لم تهتم بتعديل ثيابها أو تداري شعراتها المجعدة التي كانت متشابكة، بل نهضت سريعًا على ساقيها، تصرخ بكل قوة، وكأنها تطلق زئيرًا من داخلها. ثم قفزت فوق رأس المريضة، وطأتها بقسوة، وقالت لها بصوت هادر مملوء بالامتعاض:

_انتي جيتيلي منين؟ طلعتيلي من تحت الأرض يا روح أمك؟

السيدة بنواح:آه.

أم الديب بقساوة:ده آني هوريكم أيام سودة! خدي يا بت الكلـ*!

استمرّت أم الديب في وطء السيدة بكل قوتها، مستخدمة يديها ورجليها في الهجوم العنيف. كانت السيدة تصرخ بصوت مدوٍ، محاولَة الهروب من قبضتها الشريرة، بينما تجمع المرضى والممرضون حولهما، محاولين التدخل لفض النزاع وإنهاء هذه الفوضى التي اجتاحت العنبر. في الوقت ذاته، هرب بعض المرضى من المكان حاملين محاليلهم الوريدية، خوفًا من أن يأتي دورهم ليصابوا بضربة مماثلة. كان صراخ أم الديب يتردد في أرجاء المستشفى، وكل زاوية في العنبر تعج بالضجيج. في تلك اللحظة، مر "أحد الأطباء" سريعًا على المشهد، وألقى نظرة سريعة على ما يحدث، ثم تحول بسرعة نحو مكتب المدير، خطواته تعكس استياءه من الوضع، وهو يطلب بشدة إطلاق سراح أم الديب، قائلًا:
_الست دي لازم تمشي من هنا! دي من ساعة ما جات وهي مطلعة عنينا ومش راحمة حد فينا.

المدير بقلق:إيه اللي حصل؟

دخلت "الممرضة" مكتب المدير بخطوات مرتاعة، وكان وجهها شاحبًا من هول ما شهدته في العنبر. حاولت أن تتماسك، لكنها لم تستطع أن تخفي التوتر الذي أصابها. قالت بتلعثم، وكأن الكلمات تتعثر في حلقها:
_هقولك يا دكتور إبراهيم، الست دي مخها ضارب منها أه والله! وكل ما نديها حقنة مُهدئة لأجل تبقى أحسن، لا الحالة تسوء مننا أكتر! بقالها يومين نازلة تلطيش في العيانين اللي عندنا في العنبر، حتى الدكتور مرحمتهوش، ده بيقولك إنها في السجن كانت بتضرب الستات اللي جوا ولما ودوها حبس انفرادي بلعت حديدة عشان يجيبوها هنا، ولا بقى الله أعلم إيه اللي كان في نيتها.

المدير بخرع:الست دي خطر علينا كلنا، فعلًا لازم تمشي!

فجأة، فتح المدير جهاز الكمبيوتر بسرعة وأرسل بريدًا إلكترونيًا إلى مأمور سجن النساء، متضمنًا تقريرًا مفصلًا عن حالة أم الديب في المستشفى، وما آل إليه الوضع من فوضى عارمة. كان البريد يصف مقدار المشكلات التي تسببت بها، وكيف أن جميع الأطباء اتفقوا على ضرورة إجلائها في أسرع وقت ممكن. أكد التقرير على أن أم الديب كانت قد وصلت إلى مستوى من الفوضى لم يبلغه حتى أخطر المجرمين، وأنه لا يمكن لأي سجن أن يضمن سلامة منشآته في حال بقيت هناك. أوضح التقرير أيضًا أنه حتى في حالة وضعها في زنزانة انفرادية، كانت قدرتها على التدمير لا تقل عن قدرة المخلوقات الوحشية.

أما في منزل المعلم حنفي، فقد كانت الشقة غارقةً في السكون، حيث جلس وحيدًا على الأريكة في صمت مطبق. لم يعد هناك ضحك الأطفال أو شجاراتهم المعتادة التي كانت تملأ الأجواء بالحياة. كان يلتفت في زوايا المنزل الفارغ، يحاول أن يجد شيئًا يُشعره بالحياة من جديد بعد سفر أبنائه. كان يستمع إلى القرآن

الكريم عبر الراديو، محاولة منه لتهدئة قلبه الحزين على فراق أخيه حسين، الذي غيّبته الحياة. في تلك اللحظة، عندما كانت الذكريات تغلفه كالعتمة، سمع صوت طرقات على الباب فجأة. تفاجأ المعلم حنفي من الزيارة، وبخطوات مترددة اقترب ليفتح الباب. وعندما فتحه، صُدم لرؤية أم الديب أمامه، سليمة وكأنها لم تمر بتلك اللحظات العصيبة، ابتسامتها مشعة في وجهه. وقف المعلم حنفي مذهولًا، كأنما يرى شبحًا قد عاد من عالم آخر. اقتربت منه "أم الديب" بخطوات واثقة، وعينيها تلمعان بشدة، وقالت بشوق:
_تعالى في حضني يا حنفي يا جوزي يا غالي! كانوا يومين زي الزفت من غيرك إنت والعيال، هو آني كنت عارفة أنام ولا آكل لقمة من غيركم؟

ابتلع "المعلم حنفي" ريقه بصعوبة، وكان قلبه يدق بسرعة وكأنما في انتظار الإجابة التي قد تحمل معه مصيرًا غامضًا. ارتبك في مكانه للحظة، وعينيه لم تبارحا وجه أم الديب، الذي أطل عليه بابتسامة غريبة، فسألها:
=انتي خرجتي ازاي؟

أم الديب بضحك:مش آني طلعت مجنونة؟ أي والنعمة مجنونة، أحمدك يارب... آني اللي زي قلبه طيب عشان كدهو ربنا نجدني من السجن وقرفه.

ثم جلست "أم الديب" على الأريكة مقابل المعلم حنفي، مسترخية وكأن شيئًا لم يحدث، وكأنها لم تكن مصدرًا للفوضى في كل مكان مرّت به. في حين أن المعلم حنفي كان لا يزال يحدق بها بذهول، لم يستطع التخلص من صدمته. أضافت حديثها بنبرة مازحة:
_أسكت يا حنفي! مقولكش السراير عاملة ازاي، دورين فوق بعض والنسوان متلزقة جنب بعض تلزيقة سودة! تلف كدهو تلاقي واحدة، تلف كدهو تلاقي واحدة تانية ولا الأكل بقى مقو....

أمسك المعلم حنفي بها بشدة، وعينيه تتسارعان بالسخط، حتى بدا وكأن كل مشاعر الغضب في قلبه انفجرت في تلك اللحظة. خنقها بيديه وكأنه يسعى لتفريغ كل ما في صدره من قهر، ولسان حاله يصرخ في صمت مع كل لحظة تعذيب تمر. كانت "أم الديب" تحاول جاهدة جذب الهواء إلى رئتيها، ولكن يداه كانت تحيط بعنقها بكل قوة، ولا مكان للرحمة في هذا الموقف، وبصوت متقطع وبصراخ يائسة، قالت:
_انت...بتعمل... إيه....

المعلم حنفي بقسوة:هرجع حق أخويا اللي مات مقهور بسببك...المرة دي مفيش حد ينجدك مني، عيالك في المصيف محدش فيهم حزن عليكي! وأحمد وهايدي بعيد، محدش غيري آني وانتي اللي هنا... هفضل خانقك لحد ما تقابلي وجه كريم يا بسمة!
أم الديب بإعوال:يابن الكلـ* يا عرة الرجالة، هتموت مراتك عشان أخوك حسين المبقع؟ ده نصيبه وقدره...أهو غار في ستين داهية، هو اللي كان بيلعب في نفوخك وبيقويك عليا!

المعلم حنفي بجبروت:متخافيش! هبقى أقرالك الفاتحة ولو إن اللي زيك مفيش حاجة هتحوق في ذنوبه اللي بعدد شعر راسه!

رفعت أم الديب ساقيها، ثم انفجرت في ضربه ساقًا قويًا في بطنه، كأنما أرادت أن تُسقِط العالم من حوله. وأول ما ألقى الجسد عند الجدار، عاد إليها، وثبّت كتفها بقوة، ليصعد نصل غضبه إلى عنفٍ أشد. ثم سكب ضربة تلو الأخرى في جسدها، حتى سقطت في دائرة الظلام، فاقدة الوعي. دخل بها إلى الغرفة، حيث قيدها بالأصفاد إلى السرير، محيطًا يديها ورجليها بالحبال التي كانت تنبض بالعنف، ثم لصق فمها بالشريط. أدار المفتاح في الباب بصوت حاد، وغادر، ليصرخ في الهواء:
_اتفوه عليكي يا بت الكلـ* يا تربية المواشي.

ثم عاد للجلوس مجددًا فوق الأريكة، وملامح الحنق لا تزال تلوح في وجهه، كأنها طيف لا يغادر. كان ذهنه مشغولًا بما لم يتحقق، متمسكًا بحلم استرجاع حق أخيه الذي مات قهرًا على يد تلك المخلوقة. في تلك اللحظة، تهاوى عالمه على فكرته الوحيدة: إعادة الحق المسلوب، فأخرج هاتفه الصغير من جيب جلبابه المملوء بالهموم، وضغط على الأزرار ليصل إلى جلال. في تلك اللحظة، كان جلال يستحم في مرحاض شقة المصيف، فيما كانت "ليالي" جالسة أمام التلفاز، تحيط بها ضحكات الأطفال، وعينها تسجل رنين الهاتف الذي كان ينطلق في هدوء. نهضت على عجل، وطرقت الباب، ثم نادت بصوت مسموع:
_يا جلال، يا جلال.

جلال باهتمام:إيه يا ليالي؟ في إيه؟
ليالي:التليفون بتاعك بيرن.
جلال:مين اللي بيتصل؟
ليالي:حمايا.
جلال:طب ردي شوفيه عاوز إيه!
ليالي:طيب.

جلست ليالي على الكرسي، وردت بصوت هادئ، ولكن ابتسامتها كانت تحمل بين طياتها شيئًا من الرقة. وفي تلك اللحظة، كانت نعمة جالسة على الأريكة، يدها تتحرك بانسجام وهي تقطع البطاطا لتسقط قطعها برفق في الطبق. وفي ذلك الجو الهادئ، قالت "ليالي" للمعلم حنفي بابتسامة ودودة:
_ازيك يا حمايا؟ عامل إيه؟

المعلم حنفي بقهر:حماتك خرجت من السجن يا ليالي!
ليالي بصراخ:يا لهوي، خرجت ازاي؟

المعلم حنفي بشجن:أهي خرجت، أنا ربطت أمها في السرير ولزقتلها حنكها باللزق، أنا قولت أعرفكم عشان لما ترجعوا متتصدموش.
ليالي بنواح:يا لهوي يا لهوي يا لهوي.

اختلط صراخ ليالي بصدح مياه المنضحة في المرحاض، وهي تلطم وجهها بكل يأس، بعد أن علمت بخروج حماتها التي كانت قد تعشمت في غيابها، لكن لم تجد منها سوى الخيبة. سريعًا نهضت، وطرقت الباب على جلال لتخبره بما حدث. أما "نعمة"، فقد وضعت صينية البطاطس فوق الطاولة بحركة هادئة، ثم مسحت أصابعها في ثيابها، وأمسكت الهاتف بيدها لتواصل الحديث بدلًا من ليالي. سألت والدها بصوتها الجاد:
_ألو يابا، مالها ليالي بتصوت ليه؟

طرقت "ليالي" الباب بقوة، وهي تعول في صوتها صرخات الألم، قائلة:
_يا جلال، الحق يا جلال أمك خرجت! يا لهوي عليا وعلى بختي، مفيش حاجة بتكمل... يا نهارك الأسود وليلك الأزرق فوق دماغك يا ليالي!

لفَّ "جلال" جسده بالمنشفة، وخرج مسرعًا، لم يكتمل استحمامه بعد، فبقيت آثار الصابون عالقة بسيقانه المغطاة بالشعر الكثيف، في إشارات لا تخطئها العين إلى رجولته الصارخة. وبينما كانت أنفاسه متسارعة، أطلق صوته الجهوري، سائلًا بحدة:
_خرجت ازاي؟

ليالي باستياء:معرفش، أنا إيه عرفني؟ وأبوك بيقول إنه رابطها في السرير عشان متتحركش.
جلال بلا اكتراث:ولا كأن حاجة حصلت، ما تخرج ولا تتنيل احنا هنعملها إيه؟ نجيب صاجات ونروح نترقصلها تحت البيت؟ وربنا ما حد فينا سائل فيها وعلى الله حد يرجع يتكلم معاها تاني، اللهم بلغت اللهم فاشهد!

في ختام حديث "نعمة" مع المعلم حنفي عبر الهاتف، توجهت إلى ليالي، والبسمة تشرق على وجهها كالشمس في سماء صافية، حينما بلغها خبر خروج والدتها من السجن. فأطلقت الزغاريد التي ملأت الأجواء فرحًا، قائلة بحماس:
_الحمدلله أمي خرجت بألف سلامة.

جلال بصياح:انتي عبيطة يا بت؟ بتحمدي ربنا إنها خرجت؟ هنرجع للهم والقرف تاني! أهو ده اللي كنت مقلق منه.
ليالي بصراخ:آه يا بختي الأسود آه، مفيش فرحة بتكملي على خير، آه.

جلال بعجيج:جرا إيه إنتي التانية؟ مبحبش أنا ولولة النسوان دي!واحدة فرحانة والتانية عمالة تلطم وأنا قاعد هنا في النص شايل طين فوق دماغي!

خرج "حامد" من الغرفة، والتعجب يملأ ملامح وجهه، فسأل بلهفة، وكأنما يبحث عن إجابة تسكن دهشته:
_في إيه يا جلال؟

جلال بامتعاض:مفيش، يا دوب أمي خرجت من السجن بس.
حامد بصدمة:أوبس يا معلم، دي هتطين عيشتنا لما نرجع.
جلال بانفعال:تطين عيشة مين ياض؟ ما تتعدل وتنقي ألفاظك! أنا محدش يقدر يقرب مني! ده أنا أسد!
حامد بخَوَر:ربنا يسترها، دي هتخلي الجاي علينا سواد السواد.
نعمة:متقولش كده يا حامد ده أنا أمي طيـ...
حامد بسخرية:متكمليهاش، عارف هتقولي إيه! أمك طيبة، ده أنا اللي طيب والمصحف، قال طيبة قال.

بتر حامد حديثها فجأة، مستهزئًا من دفاعها المستميت عن والدتها، التي كانت في نظره بعيدة كل البعد عن الفئة الطيبة التي يُتَوقع منها العطاء. كان الجميع على علم بحقيقتها اللصوصية، إلا نعمة التي تقبلت الخبر بكل هدوء، بل ابتسمت وتابعت قطع البطاطا بتأنٍ، بينما كانت دندنة فرحها تملأ أرجاء الشقة كأنما هي في عالم آخر.

أما في مدينة الأثرياء، حيث لا شيء يشبه الأحياء الفقيرة، نزلت هايدي وزياد إلى الماركت، وهو المكان الذي يفيض بكل ما تشتهيه الأنفس من الرفاهية. كان زياد يدفع عربة التسوق، تتدحرج على الأرض بسلاسة، بينما كانت هايدي بجواره تتنقل بين الأرفف بعينين مستغرقتين في اختيار الأطعمة. تملأ عربة التسوق بتنوع مستلذ، تضع الأجبان الفاخرة، والمعكرونة بمختلف الأنواع، والأرز الأبيض الذي لا يخلو منه منزل، إضافة إلى الحليب، السمن الذهبي، والزيت الذي لا غنى عنه، وكل ما يلزم لإتمام رفاهية المنزل. بعد نصف ساعة من التسوق، امتلأت العربة حتى تكاد تنفجر من كثرة المشتريات، فاندفعا نحو المُحاسب الذي بدأ في مسح البضائع على جهازه بحركة معتادة، بينما كان زياد يراقب بحذر. دفعا الحساب بابتسامة متبادلة، وأخذوا الأكياس المملوءة بالمنتجات، وكانت الحقائب الثقيلة في يد كل منهما تثقل خطواتهما، حتى أن المشي بها كان تحديًا. وقبل أن يغادرا الحي، قال "زياد" بصوت عذب، يحمل في نبرته شيئًا من التفكير:
_في حلواني هنا هنشوف عنده التشيز كيك ولا لا.

هايدي بإرهاق:ما كنا عملناها في البيت أحسن وخلاص! يفرض ملقينهاش؟ هنفضل نلف كتير ونص اليوم هيضيع!
زياد:لا مش هيضيع، إن شاء الله هنلاقيها.

خطا العروسان بخطوات تنبض فرحًا إلى متجر الحلويات، حيث الألوان الزاهية والأطياف المتراقصة من أشكال الحلوى الشهية تملأ المكان حياة. امتزجت الأجواء بعبق الفانيليا الساحر الذي يأسر الأنفاس، بينما عطر الشوكولاتة الداكنة ينساب كهمس في الأذهان، يسلب العقول ويذيب القلوب. ألقى "زياد" الأكياس عن كاهليه، وقد امتلأت يداه بآثار الحقائب الثقيلة التي أرخت بصمتها الحمراء على أصابعه، ثم انطلق يتجول بين أروقة المتجر، متأملًا في روائع الباترينة التي تعج بالحلويات المتلألئة كأنها نجوم ليلة صافية. وما إن وقعت عيناه على التشيز كيك بألوانها الناعمة ونضارتها المغرية، حتى التفت إلى هايدي بابتسامة، وقال:
_أهو لقيناها، مش قولتلك؟

ثم التفت "زياد" إلى البائع وقد اعتدل في وقفته، مشيرًا بيده نحو التشيز كيك التي بدت كلوحة فنية تُغري الأبصار، وقال بنبرة يغمرها الفضول:
_لو سمحت دي بكام؟

البائع:الفور سيزون بـ ٥٠٠ جنيه.

اقتربت "هايدي" برقة كزهرة يانعة تلامس نسيم الصباح، وهمست في أذن زياد بخجل يكاد يُرى لونه على وجنتيها، وقالت:
_طيب مانا قولتلك نعملها احنا أحسن!انت مش شايف؟ دي غالية جدًا!

زياد بمحبة:مش مهم، أنا بحب أي حد من طرفك واللي بتحبيه أنا كمان بحبه وعايز أفرحه!

وأردف للبائع:
_أنا عايز التشيز كيك الفور سيزون!

ابتسم البائع ابتسامة وادعة تُشعُّ منها أجواء الترحيب، وأخذ التشيز كيك برفق كأنه يتعامل مع قطعة من الفن، ثم وضعها في العلبة بعناية تُشعر الناظر بأهمية اللحظة. انطلق العروسان بخطوات هادئة نحو المحاسب لدفع الحساب، وهناك، التفت "زياد" إلى الموظف وسأله بصوت واثق:
_في دفع بالـ credit card؟

المحاسب:أه في.
زياد:اتفضل.

بعد أن دفع العروسان الحساب، حملوا ما ابتاعوه من حلوى وساروا يتعثرون بخطوات مثقلة، كأن أثقال الأكياس تعاندهم في كل خطوة. وبينما كانا يوشكان على مغادرة المتجر، استدار زياد ومد يده بحنان يفيض رجولة، وأخذ كل الأكياس من يد هايدي، رافضًا أن تتحمل العناء، محاول حماية أنوثتها من أعباء الحياة. تحمّل زياد ثقل الأكياس بين يديه، حتى بدا عليه الإجهاد، وظهر التأثير في أطراف أصابعه، لكنه لم يشتكِ. عندها، نظرت "هايدي" إليه بعينين غمرهما الشفقة، وبتلقائية نزعت منه علبة الحلوى قائلة بلطف يلامس القلوب:
_يا حبيبي مينفعش كل حاجة عليك كده!

زياد بحنو:انتي تحطي رجل على رجل ومتشيليش أي حاجة!
هايدي برفض:يابني بس! عادي لو شيلنا كل حاجة بالنص، أنا شايفة يعني إن كل ده كتير عليك.
زياد بضحك:بس الحاجات دي كلها خفيفة جدًا بالنسبالي!
هايدي بدهشة:يا سلام؟
زياد بإصرار:طبعًا، ممكن بقى مالكيش دعوة؟
هايدي بضحك:ماشي.

توقف زياد وهايدي جانبًا لبعض الوقت، تلتقط أنفاسهما بعد جهد الحمل. لم تمضِ سوى لحظات حتى أشارت هايدي إلى سيارة أجرة اقتربت منهما ببطء، ثم أمرت السائق بفتح حقيبة السيارة، حيث وضعا فيها كل مشترياتهما بعناية. صعدا إلى السيارة معًا، وقد ارتسمت على وجهيهما علامات الرضا، وانطلقا في طريقهما إلى منزلهما، وفي تلك الأثناء، في حديقة قصر "أم قمر الدين"، كانت هي مستلقية على الشازلونج، تحفّها أجواء الفخامة، وأمامها حوض السباحة الذي يعكس زُرقة السماء كلوحة بديعة. وبين يديها الهاتف، تتحدث إلى أحد أرقى المطاعم في المدينة، تتفق معهم بجدية ممزوجة بتفكير كبير على تفاصيل الوليمة التي تنوي إعدادها لهذا اليوم. قالت بصوت يحمل نبرة الموازنة:
_أيوه بالظبط، عايزة الغزالتين سُلام أوكي؟ لا لا مش عايزة أي حاجة تتقطع، وكل غزالة فيهم تتحشي حمام محشي وورق عنب ومكسرات! وعايزة أربعة كيلو كباب، وأربعة كفتة، وعايزة أربعة كيلو عِرق فلتو.... لا لا لا أوعى تقطع حاجة! أنا عايزة كل حاجة سليمة زي ما هي، التقطيع ده على الخدامات اللي عندي في الڤيلا!

يتبع....

الفصل العاشر

كان "باسم" مُشرقًا متأهبًا في ذلك اليوم، مستعدًا بكل ما في ذاته لاستقبال لحظة اللقاء مع الوزير الموقر. بعد أن اغتسل وتطهر بجعل المياه تلامس جسده برفق، انطلق إلى غرفة الملابس ليداعب خصلات شعره بأشعة الاسشوار، فتناثر منها بريق العناية. ثم ارتدى من أبهى الثياب، التي طالما ارتآها عنوانًا للذوق الرفيع، ورش عطره المفضل الذي يعطر الأجواء بأريجٍ فواح، ثم نزل إلى الأسفل بثقةٍ ووقار. وأثناء نزوله السلالم، صادفته ابنته منى، فاحتضنها بحنان الأب المحب، وعيناه تلمعان بالود، وقال لها مبتسمًا:

_ازيك يا حبيبتي؟

منى ببشاشة:الحمدلله يا بابي.

واصل باسم سيره بخطى ثابتة حتى بلغ الطابق الأول، حيث كانت زوجته، أم قمر الدين، تجلس في الصالون الملكي على الكرسي الوثير، وهي غارقة في حديث طويل عبر الهاتف. كانت أصابع يديها تلمع، مزينة بطلاء الأظافر الأحمر اللامع، الذي يضيف إلى يديها لمسة من الأناقة المتجددة. أما وجهها فقد تزين بالمكياج الناعم المتقن، الذي أبرز جمالها الطبيعي ونعومتها المدهشة. وعلى الرغم من أن أم قمر الدين وأم الديب تنتميان إلى ذات المرحلة العمرية تقريبًا، إلا أن الفارق كان جليًا، فبينما كانت يد أم الديب تكشف عن عمرها الحقيقي بكل تفاصيله، كانت يد "أم قمر الدين" تمنح انطباعًا شبابيًا يتماشى مع سن الأربعين. كانت تجري محادثة طويلة عبر الهاتف مع إحدى المعارف، تتباحث معها في أمر الحلويات التي ستُقدَّم لأسرة الوزير، وبينما كان الحديث يتنقل بين الموضوعات، اختتمت المكالمة قائلًا:

_أوكي..تمام....باي.

جلس "باسم" على الأريكة الفاخرة، وهو يضع ساقًا فوق الأخرى بكل وقار، مستعرضًا جسده في هيئة تليق بمقامه، ونظراته تحمل بين طياتها الاهتمام. ثم انطلق صوته، مُحاطًا بعبير الاحترام، وسألها:

=ها اتفقتي على إيه؟

أم قمر الدين باطمئنان:كل حاجة تمام يا باسم، متقلقش!

باسم:ماشي يا بسملة.

نزل قمر الدين مع نالا من الطابق العلوي، ووسط خيوط الضوء الخافتة التي تسللت من النوافذ، كانا يسيران بهدوء على السلالم. بينما كانا يقتربان من الصالون، كانت "نالا"، على الرغم من جمال لحظة اللقاء، تشعر بثقل هذه الوليمة التي كانت تنتظرها، وقد أعياها التفكير في مواجهة الوزير وأسرته. كان الخوف من علو مقامهم يعتصر قلبها، فضلًا عن تفضيلها البقاء في غرفتها، حيث تستمتع بقراءة الكتب أو تنغمس في رقصات الباليه التي لطالما كانت ملاذها الخاص. ترددت كثيرًا، ثم قالت لأخيها بصوت خافت:

_مش عارفة هل هقدر أحضر العزومة دي ولا لا!

قمر الدين بتعجب:ازاي بس؟ لازم تحضري طبعًا، لازم كلنا نكون موجودين أنا وانتي ومنى، كده كده علاء الدين مسافر.
نالا بضحك:هبتدي أغير من علاء الدين، مكنش خدني معاه بدل قعدتي في الڤيلا؟ I Really Feel Bored.
قمر الدين بمزاح:اتشطري بس كده يا حبيبتي وخلصي جامعة على خير، وانزلي شغل! وصدقيني مش هيكون عندك أي ملل، هيكون عندك إرهاق وضغط شغل بس.
نالا بقهقهة:لا كده طمنتني بجد.

حتى وصلوا إلى والديهما، وعندما رآهم والديهم، ارتسمت ابتسامة رقيقة على وجه "والدتهم"، فامتزجت نظراتها بالفرح الذي ملأ عينيها، وانشرح قلبها للقاء أحبائها. كان وجهها ينبض بالغبطه كما لو أن تلك اللحظة كانت مرسومة في فصول الزمن، فقالت لهم:
_هاي يا حبايبي، أخباركم إيه؟

جلس "قمر الدين" ونالا مع والديهما في جوٍ من الألفة، حيث وضعت نالا ساقًا فوق الأخرى بكل ليونة، متكئة على الأريكة في سكونٍ يبعث على الرقة. أما أخاها قمر الدين، فقد شبك أصابعه ببعض، بينما كانت ابتسامته تشرق على وجهه في طمأنينة. نظر إلى والدته بعينيه التي تتألق بحبها، وأجاب بلهجة مرحة:
_الحمدلله، إنتي عاملة إيه يا بسومة؟

أم قمر الدين بحنق:بخير، مش قولتلك بلاش بسومة دي؟
قمر الدين بهزل:بدلعك، أللاه في إيه؟ فيها إيه يعني لما الواحد فينا يدلع مامته حبيبته؟

اقتربت "أم قمر الدين" من ابنها، ومدت يديها برفق لتشدَّ على خديه، في حركة تفيض حنانًا، ثم انفجرت ضاحكة بحبٍ، فابتسمت وقالت بخجلٍ واضح، والكلمات تتمايل بين شفتيها:
_انت كده بتحرجني!

باسم باهتمام:عاملة إيه في الجامعة يا نالا؟
نالا برقة:الحمدلله يا بابي كله تمام.
باسم:في أي حاجة واقفة معاكي أو محتاجة حاجة؟
نالا ببسمة:لا يا حياتي كله تمام.
باسم ببشاشة:لو احتاجتي أي حاجة بلغيني!
نالا:حاضر.

نظرت "أم قمر الدين" إلى نالا بتركيز، ولاحظت أن شعرها كان كما هو، غير مُصفَّفٍ كما اعتادت أن تكون عليه، فاستبان لها أنها لم تُعطِ شعرها عناية خاصة في غرفة الثياب. تسمرت عيناها للحظة، ثم ارتسمت على شفتيها تعبيرات من الدهشة التي سرعان ما تحولت إلى سؤال مستفهم، فقالت لها:
_إيه ده يا نالا؟ معقول معملتيش شعرك؟

نالا:مانتي عارفة يا مامي إن أنا إحتمال محضرش العزومة.
باسم باستغراب:ليه رايحة فين؟
نالا:مش هروح في مكان، هفضل في أوضتي، إنت عارفني يا بابي بتحرج جدًا.
باسم بدهشة:ليه يا نالا إيه الإحراج في كده؟ ده سيادة الوزير وعشرة عمري ودايمًا بيجي هنا هو وزوجته وأولاده وكنتي بتقعدي معاهم مفيش أي مشاكل، ليه غيرتي رأيك؟
أم قمر الدين بتفهم:نالا كبرت وبقيت آنسة، لكن زمان كانت لسه صغنونة فمكنتش فارقة أوي يعني.
باسم بلُطف:لا يا حبيبتي إنتي هتحضري معانا والموضوع مفيهوش أي إحراج! ممكن؟
نالا باستجابة:حاضر.

ابتسمت "أم قمر الدين" ابتسامة هادئة مليئة بالحب، ثم نظرت إلى نالا بعينيها التي امتلأت بالعناية، وقالت لها بصوت حنون، لكن يحمل في طياته نوعًا من الأمر:
_طيب يلا قومي ظبطي شعرك وقولي لأختك منى، لازم نكون في أحسن لوك النهارده!

نهضت "نالا" ببطء، ورفعت رأسها برفق، حيث بدت علامات التقدير على ملامح وجهها، ثم أجابت بأدبٍ:
=حاضر يا مامي..أنا طالعة، عن إذنكم!

باسم:اتفضلي.

صعدت نالا إلى غرفة الثياب بخطى هادئة، حيث كانت تحيط بها الأجواء من كل جانب وكأنها مستودع من الذكريات. فتحت الدرج برفق وأخرجت جهاز السشوار، وأوصلته بمصدر الكهرباء، ثم بدأت بتسريح شعرها تحت حرارته المتدرجة، محققةً له نعومةً تليق بمقام المناسبة. بينما كانت "أم قمر الدين" في الأسفل، تتأمل في صمت وتراقب ابنها، وقالت له باستغراب:
_وانت بقى هتعمل إيه؟

قمر الدين:لا أنا قاعدلكم النهارده، شغل مفيش شغل، اشمعنا أستاذ باسم بيه يرتاح وأنا لا؟
باسم بضحك:انت هتعمل راسك براسي ولا إيه يا ولد انت؟

نهض "قمر الدين" بخفة، واقترب من والده، ثم انحنى وقبّل رأسه بكل احترام، وهو يضحك ضحكة دافئة تنم عن الألفة. بعد أن اعتدل في وقفته، قال بمزاح، وعيناه تلمعان ببريقٍ من المرح:
_وأنا أقدر برضة؟ ده إنت حبيبي! عمومًا متقلقش ساعتين في الشركة وراجع تاني، سلام.

خرج قمر الدين من القصر متجهًا إلى الشركة ليُنجز بعض الأعمال العاجلة قبل ميعاد الوليمة. كان الجو في الخارج يعج بالحركة؛ حيث كان العمال يعلقون بانرًا ضخمًا يحمل صورة وزير الداخلية، بالإضافة إلى اسمه وعلم مصر الذي كان يرفرف عاليًا في سماء القصر. بينما كان البستاني يوزع الورود في الممر، تنوعت أشكالها وألوانها بين الأحمر والأبيض. كان البانر يعكس فخامة المناسبة، مكتوبًا عليه عبارة "أنت واجهتنا المشرفة أمام العالم، سعداء بزيارتك لنا أنت وأسرتك الكريمة". بعد أن ركب قمر الدين سيارته، انطلق من القصر في صمتٍ، حيث كان يختلط في قلبه شعور بالجدية لإنهاء مهامه بسرعة. وفي تلك اللحظة، كانت "أم قمر الدين" تراقب أبناءها، وقد امتلأ قلبها بالفخر وهي ترى كيف انتقلوا من مرحلة المراهقة إلى الشباب الناضج، يتحملون المسؤولية بثقة وأداء رفيع، مما جعلها تشعر بطمأنينة، فقالت:
_الأولاد كبروا، حقيقي مبسوطة بيهم جدًا.

باسم بسرور:وأنا كمان، متتصوريش فرحتي بيهم عاملة ازاي! ربنا يباركلنا فيهم.

ظل باسم وزوجته يتحدثان بفخر عن كل فرد من أفراد العائلة، حيث كانا يشاركان بعضهما أفراح اللحظات القادمة ويستعرضان إنجازات كل منهم، بينما كانت الخادمات تتحرك في كل مكان حولهما بأناقة، يؤدين مهامهن بتفانٍ، فكانت واحدة منهن تنظف بعمق وتتنقل بين الغرف بكل دقة، وأخرى تلمع زجاج الشرفات المطل على الحديقة الرحيبة، بينما كانت الثالثة تقوم برص الأطباق بعناية أمام كل كرسي وتوزع الملاعق والشوك والسكاكين بشكل متساوٍ ودقيق على المفرش الأبيض الناصع الذي كان يضفي على المائدة لمسة من الفخامة. في الوقت نفسه، تلقت أم قمر الدين مكالمة هاتفية تُخبرها أن الطعام قد تم إعداده بنجاح وأنه في طريقه إليها، فما أن انتهت المكالمة حتى خرجت الخادمات لتستلم الطعام الذي كان قد وصل في صواني كبيرة، تفوح منه رائحة شهية تبعث على الجوع، وعندما دخلوا به إلى المطبخ بدأوا في تفريغه في الأطباق، حيث كان الشكل يهمهم أكثر من المضمون، ويحرصون على أن تكون التقديمات في أبهى صورة. بينما في شقة أحمد، كان زياد وهايدي قد استقرا، حامليْنِ علبة التشيز كيك التي طلبتها "سيليا" بدقة، وبعد أن تسلمتها سيليا، اغتمرت ببهجة شديدة، وشعرت بحماسة لا توصف، فاقتربت من عمتها لتحتضنها بحُب، وقالت:
_ميرسي يا عمتو على التشيز كيك، إنتي جيبتي تشيز كيك كبيرة أوي!

هايدي بزهزقة:لا متشكرنيش أنا! أشكري عمو زياد لأن هو اللي جابهالك لما عرف إنك عايزاها!

في الحال، احتضنت "سيليا" زياد بحركة سريعة، ثم أجلسها على ساقيه برفقٍ، وكل لحظة كانت تتطلب حنانًا خاصًا. جلسا معًا في هدوءٍ، وأعينها تشع من الامتنان، فتعبّر عن تقديرها لما فعله لها، قائلة:

_ميرسي يا أونكل زياد، دي طعمها حلو جدًا.

أحمد بضحك:طعمها حلو ازاي؟ هو إنتي كلتي منها؟
سيليا بتردد:الصراحة؟

قاربت "سيليا" من أذن زياد بحذر، خاشية أن تشيع كلماتها في الهواء، ثم همست بصوت خافت، يحمل بين طياته معاني التوجُّس، قائلة باحتراسٍ:
_أنا كلت منها حتة صغننة خالص، من غير ما مامي تاخد بالها، أوعى تقول لحد!

زياد بقهقهة:لا متخافيش ده سر ما بينا!
أحمد بهشاشة:سر إيه ده بقى إن شاء الله؟
زياد بمزاح:لا دي أسرار، متدخلش بينا لو سمحت!
أحمد بمرح:لا خلاص إذا كان كده ماشي.

نهضت هايدي بخفة لتساعد جميلة في وضع الطعام داخل الأطباق، بينما كان "أحمد" يراقبها ببصره، فاستغل تلك الفرصة المناسبة ليسأل زياد عن تطورات علاقته مع هايدي، وقد بدت على وجهه ملامح الترقب، فهو لم يعد يتحمل هذا الفضول الذي يعتصر قلبه. كان يتمنى أن يسمع خبرًا سعيدًا، ثم تلفظ:
_إيه الأخبار؟

زياد بتعجب:أخبار إيه؟

صمت أحمد للحظة، إذ كان قلبه يملؤه الأمل، ولكن بعد أن فكر "زياد" جيدًا في السؤال وأخذ وقتًا للتأمل، بدأ يدرك المقصد العميق من استفسار أحمد. كانت الأسئلة تتسارع في ذهنه، ليكتشف أن أحمد كان يتوقع أن يسمع خبرًا سعيدًا، فاهتزت نبرة صوته وهو يجيب بحذرٍ:
_يا عم أسكت بقى لا تيجي وتسمع!

أحمد:هايدي بعيد، مش هتسمع حاجة أصلًا.

ابتسم زياد ابتسامة خافتة، كانت تحمل بين طياتها الإجابة التي أراد أن يطمئن بها أحمد، وكأن ابتسامته تقول "نعم، كل شيء على ما يرام". فغمرت الطمأنينة قلب أحمد، وضحك بسعادة، وهو يشعر بالارتياح الكامل تجاه أخته وحياتها. في هذه الأثناء، كانت هايدي تواصل مساعدتها لجميلة في رص الأطباق فوق الطاولة، حيث كانت الأطعمة التي أعدتها "جميلة" مستوحاة من المطبخ الإيطالي، لكنها تفيض بنكهة شهية

لا تقاوم، فكل طبق كان يحمل لمسة من التميز. وعندما وضعت آخر طبق، نظرت إلى أحمد وزياد وهما يتبادلان الحديث بصوت خافت، وبابتسامة لطيفة قالت:
_اتفضلوا يلا!

أحمد بضحك:قوم يا زياد! هو إنت غريب؟
زياد بابتسامة:لا مش غريب.

اجتمع الجميع حول الطاولة، حيث جلس كل فرد أمام طبقه، الذي كان ينبعث منه عبيرٌ شهيٌ يملأ الأجواء ويغري الحواس. كانت الأطباق مرتبة بشكلٍ فني، تأملت "هايدي" في الأطباق للحظة، وظهرت على ملامح وجهها علامات الإعجاب، فقالت بابتسامة رقيقة تتمازج مع بريق عينيها:
_تسلم إيديكي يا جميلة على الأكل التحفة ده.

ضحك أحمد وهو يدير وجهه ببعض الاستغراب، ثم نظر إلى علبة الطعام التي كانت جميلة قد أخفتها بعناية بين تكدس الأكياس خلف الأريكة، وكأنها تسعى لإخفاء السر الذي كان يلوح في الأفق. بدأ يتضح له أن جميلة لم تكن هي من أعد الطعام بيديها كما كان يُعتقد، بل اشترت الطعام جاهزًا من أحد المطاعم الشهيرة في المدينة السكنية. ومع ذلك، ظن زياد وهايدي أن "جميلة" هي من أعدته، فقالت جميلة:
=بالهنا والشفا ياحبيب....

لكنها حينما لاحظت ضحك زوجها، تجمدت ملامحها فجأة، وتبدلت ابتسامتها إلى وجه عابس يعكس استغرابها وقلقها، فشعرت وكأن الضحك كان يحمل بين طياته تساؤلات غير متوقعة. لم تكمل حديثها السابق، بل اكتفت بصمتٍ ثقيل، ثم قالت بنبرة متوترة:
=إيه في حاجة ولا إيه؟

أحمد ببشاشة:لا خالص يا حبيبتي تسلم إيديكي!

نظرت جميلة إلى زوجها وضحكت بخفة، وعلمت على الفور أنه قد اكتشف أن الطعام ليس من صنع يديها، بل هو طعام "تيك أواي" من أحد المطاعم الشهيرة. كان ضحكها يحمل في طياته نوعًا من الخجل والمزاح معًا. ثم نظر "أحمد" إلى زياد وهايدي، وبعد أن لاحت على وجهه ابتسامة مرحة، طلب منهما بلُطف أن يتناولا الطعام قائلًا:
_كُل يا زياد متتكسفش! كُلي يا هايدي!

هايدي:دايمًا متجمعين سوا يا حبيبي، يارب.

أحمد بتمني:يارب يا هايدي.

غاص الجميع في لذاذة الطعام، وتذوقوا النكهات بكل شغف، بينما كان جو الجلسة يعج بالحديث والضحكات. لكن في المنتصف، رن هاتف أحمد الذي كان مرميًا على الطاولة، فرفع أحمد عينيه قليلًا ليجد اسم "جلال" يضيء على الشاشة. ومع ذلك، كانت "جميلة" تراقب الوضع عن كثب، وبدت ملامحها تحمل قليلًا من التوتر، فقد كانت ترغب في أن يستمر الجميع في تناول الطعام دون مقاطعات. فرفضت أن يوقف أحمد طعامه من أجل مكالمة هاتفية، وقالت بانزعاجٍ:
_مش وقته سيبك من الفون! لما تخلص أبقى رد!

أحمد بمُبالاة:طيب هشوفه بس عايز إيه!

سرعان ما استجاب أحمد للمكالمة، وأجاب بابتسامة عفوية، غير مدرك لما ينتظره من خبر سيعكر صفو اللحظة التي كان يعيشها مع عائلته. كان جلال في تلك اللحظة يقف في بلكونة الشقة المصيفية، متكئًا ببطنه على سور البلكونة، وهو يسند بيده اليمنى هاتفه على أذنه، بينما كانت يده اليسرى ممسكة بسيجارة يتنفس دخانها في أجواء الليل المفعمة بالحياة. كان الشارع يعج بالأغاني الشعبية الصاخبة، والموسيقى تتداخل مع ضوء الشوارع الخافت، في حين قال "أحمد":
_ازيك يا جلال؟ أخبارك إيه؟

جلال بسُخط:أمك خرجت ياض وأبوك حابسها في الأوضة زي الفار!

في تلك اللحظة، شعر أحمد بشيء من الاختناق، فابتلع ريقه بصعوبة وبدأ يشرق، بينما استمر في السعال، محاولًا التقاط أنفاسه بعد سماعه الخبر المفاجئ. سارعت جميلة إلى تقديم كوب الماء له بسرعة، فلم يتردد في تناوله، وشربه على عجل ليخفف من الصدمة. وبعد أن استعاد أنفاسه قليلًا، نظر الجميع إليه بارتباك، وكانت النظرات تتبادل بين الحضور. ثم، وبعد لحظة من الصمت، قال "أحمد" بصدمة في صوته:
_يا نهار أسود ومنيل، هي مين دي اللي خرجت؟

هايدي بشك:ماما خرجت؟

ثم توقفت عن تناول الطعام، وكذلك زياد، بينما كان أحمد يراقب الوضع بقلق. نظر إليها زوجها بانزعاج، وأخذت ملامحه تتغير بشكل مفاجئ، إذ شعر فجأة بثقل الخبر الذي سمعه من أحمد. كانت تلك الحقيقة التي سمعها تكاد تزلزل كيانه، وكأنها موجة من الصدمة التي تهز توازنه، فكلما استمر في التفكير بها، زادت قسوتها على قلبه. إذا ضاع حق أبيه، فكيف له أن يستمر في الحياة؟ كيف له أن يتصالح مع نفسه في ظل

هذا الظُلم؟ في تلك اللحظة، كان "جلال" قد عدل من وقفته في بلكونة الشقة، واستدار ليواجه الناحية الأخرى حيث كان يتابع الناس المارة في الشارع، مُستمتعًا بمنظر الحياة اليومية، وقال بلهجة مملوءة بالضيق:

_أمك اللي خرجت، وأبويا عجنها ضرب وحبسها في الأوضة، أنا اتغميت أوي ياض لما عرفت!

أحمد باحتدام:وهو علشان إنت اتغميت تقوم تغمني معاك أنا كمان؟ بقى أخبار زي دي تجيلي على الأكل؟ ياريتني سمعت كلام جميلة ومردتش.

جلال بتحذير:أنا حبيت أعرفك عشان متروحش زيارة لأبوك في يوم و تلاقيها مستنياك زي القضا المستعجل، خد احتياطاتك إنت والموجودين!

أحمد بغضب:طيب، سلام.

جلال:سلامو عليكو.

انتهت المكالمة، فوضع جلال هاتفه في جيبه بأريحية، وعاد لمتابعة استنشاق دخان سيجارته بهدوء، بينما كانت الأجواء في الشقة تحتفظ بهدوءٍ غريب. دخلت ليالي في تلك اللحظة حاملة طبق العنب الأخضر والتين الشوكي، مقدمة إياه بكل لطف، لكن الجلسة في شقة أحمد كانت قد فقدت جزءًا من حيويتها بعد أن توقف الجميع عن تناول الطعام، باستثناء سيليا التي كانت غارقة في عالمها الخاص، لا تشغل بالها إلا باختيار فستان عروستها اللعبة. عندما بدت كل الملامح مشوشة، نظرت "جميلة" إلى زوجها وقد أصابها الفزع جراء ما سمعته، وسألت بصوت خافت:

_في إيه؟

أحمد بتردد:ماما خرجت من السجن.

الجميع في آن واحد:إيه؟

نهض زياد من على كرسيه فجأة، ووقف بثبات، كأن الاحتدام يراوده كشيطانٍ يعبث به، حيث كانت ملامحه مشحونة بالحنق، وعيناه تتقدان بالهواجس. لم يهدأ بعد سماع الخبر المزلزل عن خروج أم الديب من السجن، وكأن تلك اللحظة قد غيرت كل شيء في عقله ووجدانه. كانت أفكاره تتصارع داخله، فلم يجد الراحة في صمته، ولا السكون في جسده. أما هايدي، فقد نهضت هي الأخرى، محاولةً تهدئة من ثورانه، وهي لا تعلم ماذا تقول، فكل كلمة كانت ستظل عالقة في حلقها دون أن تجد لها معنى. في القصر، كان كل فرد قد ارتدى ثيابه الفاخرة، مستعدًا لاستقبال وزير الداخلية وأسرته، بينما كانت المائدة قد أُعدت بكل ما لذ وطاب من الأطعمة الفاخرة، والخدم يعملون بجد لتنظيم المائدة بشكلٍ يليق بالحدث. وفي الريسيبشن، كانت "أم قمر الدين" تقف مع باسم، منتظرين وصول الضيوف، وعينها تتنقل بين الساعة وأمام الباب، حتى سألت زوجها باهتمام:

_إيه يا باسم وصلوا ولا لسه؟

باسم بلهفة:خلاص أهو قدام البوابة.

خرجوا من القصر وسط أجواء من الحفاوة والاحتفالات التي كانت تعم المنزل، حيث كان اثنان من الحرس يفتحان البوابة بحذر، لتدخل بعدها السيارة المرسيدس الفاخرة وسط مشهد مبهر من إطلاق النيران في الهواء ورمي الورود في كل مكان، احتفالًا بوصول معالي الوزير، الذي كان له دور بارز في إنقاذ سيليا من قبضة المجرم ضايع. كانت السيارة، التي تغطي زجاجها التعتيم، تسير بخطى واثقة، تحمل بين طياتها هيبة، وعندما وصلت السيارة إلى بوابة القصر، هرع الحراس على الفور لفتح الباب، وكانوا يفتحون أبوابها بتنظيم كبير، ليخرج الوزير وأسرته، واحد تلو الآخر، في مشهد يبهر الأنظار. أسرة مكونة من خمسة أفراد، الأب الذي كان يرتدي بدلة سوداء أنيقة، والأم التي ارتدت زيًّا ملكيًا يشبه أزياء ملكات الفرنسيين، وثلاثة أطفال، اثنان منهم ذكور، وأنثى، جميعهم في سن المراهقة. اقترب "باسم" من صديقه العزيز بخطوات رسمية تنم عن التبجيل، وعانقه بقوة وسط ترحيب دافئ، ثم قال بحفاوة:
_يا أهلًا وسهلًا، ده انتوا نورتوا الدنيا كلها.

الوزير ببسمة:متشكر، الدنيا منورة بوجودكم.

بعد أن صافح باسم الوزير، اقترب قمر الدين وأخواته منى ونالا، وتبادلا المصافحات باحترام مع الوزير وأفراد أسرته، حيث كانت الأجواء مليئة بالمجاملات اللائقة التي يحظى بها الجميع. في هذه الأثناء، صافحت "أم قمر الدين" زوجة الوزير، "ولاء"، التي كانت تشغل منصب مديرة الأمن العام، وتعد إحدى الشخصيات البارزة في المجتمع، صاحبة تأثير كبير في الأوساط السياسية. بعد أن تبادلتا التحية، نظرت أم قمر الدين إلى "ولاء" ضاحكة، وأخذت تراقب تفاصيل ملامحها بابتسامة إعجاب، ثم قالت بإشادة:
_إيه القمر والحلاوة دي؟ بجد تجنني..خطيرة طول عمرك!

ولاء باشتياق:ميرسي يا حياتي، عاملة إيه؟ وحشاني!
أم قمر الدين بإعزاز:انتي وحشاني أكتر بكتير.

ثم التفتت "أم قمر الدين" إلى فتياتها، وقد ارتسمت على وجهها ملامح الاعتزاز، وقالت بحبور وقد أضاءت عيونها:
=تعالي يا منى إنتي ونالا!

قاربت الفتيات من "ولاء"، فخطت "منى" خطوات نحوها، وعانقتها باعتزازٍ، ثم قالت بكل رقة:
_أهلًا بحضرتك يا طنط.

أما "نالا"، فقد اكتفت بتبادل سلام اليد مع "ولاء"، ثم قالت بابتسامة طفيفة تحمل في طياتها التقدير:
=أهلًا بيكي.

ولاء بدُعابة:أهلًا بيكم يا قمرات، ما شاء الله زي القمر.
أم قمر الدين بوداد:ميرسي، إنتي اللي قمر.

مدت "أم قمر الدين" يدها للوزير لتصافحه بحرارة، وقالت بترحابٍ وابتسامة واسعة:
=أهلًا بسيادة الوزير، نورت الدنيا!

الوزير برزانة:متشكر ليكي يا بسملة هانم، الحقيقة كان نفسي أشوفكم من زمان أوي ولكن باسم عارف اللي فيها.
باسم بوقار:طبعًا عارف، كفاية بس ولو نشوفك خمس دقايق، دي بالدنيا وما فيها!
الوزير بإعزاز:ربنا يخليك يا باسم باشا.

أشار "باسم" بيديه على فتياته مقدمًا إياهن لمعالي الوزير، وقال بابتسامة عريضة تحمل الفخر:
_البنات.

صافحت "منى" الوزير بتبجيل، قائلة بتهذيب:
=أهلًا بحضرتك.

رفعت "نالا" يدها لتصافح الوزير، ناطقة بتلطف:
_أنا نالا، حضرتك فاكرني؟

الوزير ببشاشة:طبعًا فاكركم، وأنا أقدر أنساكم؟ البنات كبروا وبقوا عرايس زي القمر.
باسم بانشراح:ربنا يخليك.

مد "باسم" يده لزوجة الوزير باحترام، وقال بابتسامة دافئة:
_أهلًا بيكي يا هانم.

ولاء بتبسم:أهلًا بيك يا باسم باشا.

باسم باحترام:اتفضلوا!

أشار باسم بيديه نحو بوابة القصر، وقال بابتسامة توحي بالدعوة للدخول، حيث عبر الرجال في المقدمة يتبادلون الحديث تحت أنوار القصر الساطعة، بينما كانت السيدات يضحكن في الخلف، تنساب ضحكاتهن بين الأجواء الفاخرة. وصلوا جميعًا إلى غرفة الطعام، ليجدوا على الطاولة الطويلة أفضل الأطعمة التي أُعدت بعناية فائقة، كانت تشم رائحتها اللذيذة في كل زاوية. وعندما نظرت "ولاء" إلى الأجواء من حولها، تعجبت من رغبة أصحاب القصر في بدء تناول الطعام مباشرة دون أن يأخذوا قسطًا من الراحة أولًا، فسألت بابتسامة تحمل نوعًا من الدهشة:

_عالطول كده؟

أم قمر الدين بتأكيد:طبعًا يا روحي، ناكل الأول قبل ما الأكل يبرد وكده كده السهرة طويلة إن شاء الله.

باسم بتوقير:اتفضلوا!

ثم جلسوا جميعًا يتناولون الطعام، وحولهم الخادمات يقفن في صمت خلفهم، كأنهن رهن إشارة من أصحاب القصر، مستعدات لخدمة أي طلب. لم يكن الطعام يحتاج إلى وصفٍ طويل، فقد كان شكله يحكي عن ذاته، كل طبق ينبض بالجمال والرقي. وقبل أن ينغمسوا في متعة تناول الطعام، قال "باسم" بلُطف:

_البيت بيتكم مش عايز يكون في أي إحراج!

أم قمر الدين بخِفة:على راحتك يا سيادة الوزير إنت والمدام والأولاد.

الوزير:متشكر ليكي ولذوقك الرفيع.

أم قمر الدين بحفاوة:أهلًا بيكم، نورتونا!

ولاء:ربنا يخليكي.

انغمس الجميع في لذة الطعام، بينما كانت نالا تشعر ببعض الاحراج لوجود الذكور المراهقين على نفس الطاولة، مما دفعها لتناول الطعام ببطء، ترفع بصرها بين الحين والآخر نحوهم، في حين لاحظت والدتها هذا التردد، فهَمست لها بحنو، وأشارت بإشارة بسيطة، كي تشجعها على التصرف بصورة أكثر طبيعية. أما في منزل أم الديب، فقد كان المعلم حنفي مستغرقًا في نومه على الأريكة في الصالة، بينما كانت أم الديب تُحدث ضجيجًا في الغرفة بعد أن تحرك اللزق عن فمها بشكل مفاجئ. نهض المعلم حنفي فجأة بشر، ممسكًا بعصاه، ودخل الغرفة بخطى سريعة، ليعبر عن استيائه، بينما كانت "أم الديب" تتلفظ بصوت عالٍ، قائلة:

_انت هتهبب إيه؟

بعدما دخل المعلم حنفي الغرفة بعصاه الكبيرة، وعندما رآته أم الديب، أطلقت صرخاتٍ مدوية، لكنها كانت غير قادرة على التحرك، إذ كانت مربوطة، فأقبل إليها بسرعة ليبدأ بضربها بعنف، حتى أصبحت آثار

الدماء تغطي جسدها بالكامل، واستمر في ضربها حتى فقدت الوعي للمرة الثانية. خرج بعدها من الغرفة، والغل يملأ قلبه، متوعدًا باسترجاع حقه وحق أخيه المتوفي منها. اتجه إلى هاتفه العتيق ذو الأزرار المكسورة، لكنه كان يتعامل معه بمهارة، فسرعان ما اتصل بجلال. في تلك الأثناء، كانت النساء مع أطفالهن في الغرف، وجلال وحامد جالسان على الأريكة أمام التلفاز. وحين رن هاتف جلال، أجاب على الفور ليصله صوت "والده" القاسي وهو يقول بلهجة حازمة:

_آني كسرت عضم أمك لحد ما أغم عليها، آني هخلي الجاي سواد فوق دماغها، مش هرحمها يا جلال!

جلال بضحك:اعمل ما بدالك فيها يابا مابقتش فارقة، ده إنت شفيت غليلي وأنا قاعد بعيد معملتش حاجة.
المعلم حنفي بصلابة:آني قاعدلها لحد ما ترجعوا وهطين عيشتها! أصل الموت راحة ليها وآني مش عاوزها ترتاح.
جلال بابتهاج:تسلم الإيد اللي لبت العلقة التمام يابا، أيوه كده إنت أبويا اللي أعرفه، كده تعجبني! إنما جو الضعيف المنكسر ده مينفعش معاها! أمي عاوزة اللي يصبحها ويمسيها بعلقة عشان تلم نفسها شوية!

المعلم حنفي بحدة:ده آني على كده هعجبك أوي الأيام الجاية.
جلال بسرور:وده المطلوب يا حاج، أما قولي أخبارك إيه؟ بتاكل وتشرب ولا إيه نظامك؟
المعلم حنفي بامتعاض:ماليش نفس يا جلال، لما شوفتها نفسي اتسدت.
جلال بانشراح:سيبك منها وروح ظبط دنيتك، هات أكلك وشربك وأقعد اتمزج قصاد التلفزيون!
المعلم حنفي:ماهو باظ ياخويا! مانت اللي كاسره يوم وفاة عمك لما دخلت تتخانق إنت وأخواتك مع أمك!
جلال:أه صح، طب ولا تزعل نفسك هبقى أبعتلك الراجل يصلحه، المهم مزاجك يبقى في العالي!

فجأة، استفاقت "أم الديب" من غيبوبتها، وجدت نفسها غارقة في ألم جسيم، لكنها لم تستطع إخراج صوتها. كان الألم يعتصر قلبها وجسدها، رغم ذلك كانت تستغيث بصوت غير مسموع، تتحسس رأسها المغمورة بالدماء، وأصابها ارتجاف قوي وهي تقول بألم، هامسة:

_حد يجي يشيلني يوديني عند الداكتور! في دم بيشر من كل ناحية يا عالم... يا حنفي!

لكن "المعلم حنفي"، الذي كان على مقربة، سمع أنينها الضعيف، فالتفت إليها بوجه ساخط وقال بصياح:

_غوري يا ولية بصوت أمك ده!

وأردف لجلال بلا مبالاة، وهو يرمق الهاتف ببرود:

_يلا يا جلال سلملي على الموجودين واحد واحد أصل أنا ليلتي مع أمك هتطول النهارده.

جلال بانشراح:من عينيا يابا يوصل.
المعلم حنفي:مع السلامة.

جلال:سلام.

أغلق المعلم حنفي الهاتف مع جلال، ودخل مرة أخرى إلى غرفة أم الديب، حيث بدأ يواصل ضربها بكل قسوة، عاقدًا العزم على أن ينقض عليها حتى يتأكد من إشباع حنقه. استمر في ضربها حتى فقدت الوعي مرة أخرى، ودماؤها تلطخ جسدها الملقى على الأرض. ثم خرج من الغرفة وهو مملوء بالحقد، غاضبًا إلى أبعد الحدود.

في القصر بعد أن انتهى الجميع من تناول الطعام، اجتمعوا في الصالة الواسعة، حيث تتناثر أمامهم أصناف من النعم، تتألق بين أطباق الحلويات وأطباق الفاكهة الملونة وأكواب العصائر الطازجة والمكسرات المتنوعة. جاءت الخادمة بهدوء، توزع الأطباق عليهم بلطف. كان باسم ممتلئًا بالسعادة، مشعًا بهالة من الامتنان تجاه ضيوفه الكرام، وقد عبّر عن فرحه بزيارة الوزير، ليشعر الأخير بدوره بالسرور، وقد وعدهم بتكرار هذه المناسبة الجميلة في ضيافته. لم تكن أم قمر الدين إلا متحمسةً للقاءات مستقبلية معهم، مُعبّرة عن احترامها لهذا التواصل. على درج القصر، وقف قمر الدين مُنشغلًا بمكالمة هاتفية مع خطيبته، مطمئنًا إياها بحديثه الدافئ، موضحًا أن زيارة الوزير منعتهم من زيارته لعائلتها، لكنه عازم على تنظيم الأمر قريبًا، إذ بدا ملتزمًا بترتيب تفاصيل الزفاف بخطوات أسرع. انتهت المكالمة، وعاد قمر الدين بعدها إلى المجلس، ليجد والده مستغرقًا في الحديث عن المستقبل. حين سُئل ابن الوزير الأكبر عن حلمه المهني، أعلن رغبته في أن يكون طبيبًا للأسنان، فعبّر باسم عن إعجابه بهذا الاختيار، مبديًا أمله في أن يمنحهم "هوليوود سمايل" في المستقبل.

كانت أم قمر الدين مشغولةً بسؤال "ولاء" عن أحوال بناتها؛ فجاء الرد أنها سعيدة بأحفادها الصغار: "لارا" ابنة سامية، و"حمزة" ابن نرمين، أما جميلة فقد أضافت بريقًا إلى العائلة بابنتيها "سيليا" و"أسيل". كان الحديث عن تلك الأسماء الرنانة كفيلًا بإضفاء الفرح. حين سُئلت عن بناتها منى ونالا، ذكرت أن منى تدير معرضين للأنتيكات والفنون، في حين أن نالا ما زالت تواصل دراستها الجامعية، وعاشقة لرقصات "البالية". جاء الحديث في نهاية المطاف حول خطط قمر الدين لافتتاح شركته الخاصة، ولكن باسم أبقى تلك التفاصيل طي الكتمان، مؤكدًا أن سياسة العائلة تعتمد السرية في الإعلان عن المشاريع، لحماية الأفكار من المنافسة الشديدة. توافق الجميع مع ذلك، معتبرين أن الحفاظ على الأسرار التجارية خطوة ذكية لحماية تطلعاتهم. ختامًا، بادر قمر الدين بشكر الوزير على حضوره، ليبادله الوزير التحية بمودة، ويعبّر عن سعادته بوجوده بينهم. في منزل أحمد، كان الخبر التعيس قد أثّر على حواسهم بشكل ملحوظ، فكما تحولت الوجبة الشهية إلى مرارة في أفواههم، تحول جو المنزل إلى حالة من الصمت. لم يتمكن أحد من استكمال الطعام، فقد كان وقع الخبر شديدًا على قلوبهم. اجتمع الأربعة على الأريكة، كل منهم غارق في أفكاره، حتى "زياد" الذي كاد أن يجن من هول الصدمة، فاندفع قائلًا بوجوم:
_خرجت؟ يا نهار أسود، طب ازاي؟

أحمد بصدمة:ده أنا قولت إنها لابسة مش أقل من ١٥ سنة، طب خرجت ازاي من غير محامي؟ وهو إيه اللي حصل أصلًا علشان تخرج؟

زياد بقهر:أنا المهم عندي إن خالك ضايع ده يتعدم! مش مهم أمك تخرج ولا لا، لأن أنا كنت متوقع حاجة زي دي أنها تحصل بس اللي متوقعتوش إنها تخرج بالسرعة دي!

أحمد باستغراب:ازاي مش مهم تخرج ولا لا؟ مش هي اللي زقت خالي علشان يعمل فيهم اللي حصل؟

زياد بحنق:مانا بقولك إن أنا كنت متوقع إنها تخرج، هي دى أول ولا تاني مرة تعمل مصيبة؟ ماهي ياما عملت وكانت بتخرج منها.

هايدي:هي فعلًا كانت بتخرج منها، بس المرة دي مختلفة، دي متهمة في قضية قتل! هي أه مقتلتش عمي حسين الله يرحمه بس كانت السبب الرئيسي ورا اللي حصله.

زياد باهتياج:ضايع لو خرج أنا ههد الدنيا فوق دماغ الكل!

ثم أردف لِأحمد بوعيد، وعيناه تشعّان بالغضب:

_حق أبويا أنا مش هسيبه يا أحمد!

لم يكن زياد ليصل إلى ربع قسوة ضايع، ذلك المجرم الذي يعيث فسادًا على كل بقعة من الأرض، رغم أن الشرور التي يتركها خلفه تتناثر كالأشواك في طريق كل من يمر بها. فزياد، رغم أنه قد نشأ في ظروف قاسية، لم يتربَّ على قسوة قلب ضايع، ولم يتعود على هذه الهمجية، فقد عاش حياته يمشي بجانب الحائط، يخشى أن يسيء إلى مهابته كرجل، وأن يجرح قلب والده الذي لطالما كان مصدره القوة. ولكن بعد أن فقد والده، بات لا يخشى شيئًا، فكل شيء أصبح تافهًا مقارنة بما فقده، ولم يعد هنالك ما يستحق الخوف. عزم على أن يقاوم الشر بكل قوته، وأن يطيح بالطالحين في معركة ليس فيها سوى النصر أو الهزيمة، ولكنه، عزمًا وإصرارًا، كان على يقين من أن النهاية ستكون حتمًا لصالحه.

يتبع....

الفصل الحادي عشر

لم يكن استرداد الحق مقتصرًا على زياد وحده، بل كان القصاص غاية أحمد أيضًا، تدفعه حرقة الفقد وألم الفراق لعمه الغالي، وسعيًا لرد اعتبار أبيه الذي تجرّع مرارة الذل على يد خاله الفاسق. الاثنان أظهرا إصرارًا عنيدًا، كمن يتسابق لانتزاع كأس النصر من بين أنياب ضايع. لم يكن الشر منحصرًا في ضايع وحده، بل كان خلف كواليسه من يحرك الخيوط الخفية، أم الديب، التي شجعت وأعانت، وارتكبت من الجرائم ما يجعلها جديرة ليس بالسجن فقط، بل بالموت الذي يقتصّ من أفعالها. وبينما كانت الأفكار تشتعل في أذهانهم، يراجعون ما جرى ويستشرفون ما سيأتي، قطع "أحمد" الصمت بشجاعة، وقال بصوت يفيض بالعزم:

_ولا أنا هسيب حق عمي! وأنا زعلان زيي زيك على اللي حصل، ولكن عارف كويس إن إنت زعلك أكبر بكتير لأنه أبوك! وبعدين هو من امتى حد فينا راضي عن تصرفات أمي وخالي ضايع؟

زياد بغَيظ:الثنائي دول هما اللي بيشجعوا بعض على الغلط! محدش فيهم بيقول للتاني عيب وحرام لأن دي تربيتهم من البداية.

هايدي بتفكير:أنا مش فاهمة ليه خالي ضايع مطلعش زي خالي أبو محمد؟ الإتنين أخوات أه لكن عكس بعض تمامًا، واحد في قمة الأدب والاخلاق ورجل دين، والتاني بلطجي ومحدش عارف يلمه وكل أسبوع طالع بمصيبة أكبر من اللي قبلها.

أحمد:متخافوش يا جماعة! أنا هبقى أكلم بابا تاني وأفهم منه كل التفاصيل، المهم كلوا!

لقد طوت الأحداث صفحات كل شيء في عقولهم، حتى الحلوى، وكأن الذكريات قد انمحت من ذاكرتهم، وغشيهم سحر اللحظة الراهنة. غير أن "جميلة" ، بحضورها الرقيق وحديثها العذب، أعادت إلى السطح ما كان مدفونًا في أعماق النسيان، وذكّرتهم بابتسامة خفيفة، قائلة:

_اتفضلوا يا جماعة! بقالكم ساعة بتتكلموا ونسيتوا الـ Dessert.

هايدي بخجل:معلش يا جميلة، الكلام خدنا.

مد كل واحد منهم يده نحو طبق التشيز كيك، مُحاولين في كل لقمة أن يطمروا الماضي في ركام النسيان، وينقلوا أرواحهم إلى مساحة من الألفة. امتزجت أصواتهم وهم يغوصون في أحاديث شتى، متنقلين بين أجواء الذكرى وأحلام المستقبل، بينما تارة يتذوقون الحلوى اللذيذة، وتارة يرتشفون العصير المنعش، وكأنهم يجدون في الطعام والشراب متنفسًا لحمل ثقيل ينوء به وجدانهم، وبعد ساعات طويلة من السهر، حيث انغمست عيونهم أمام شراسة الشاشة التي أغرقتهم في عوالم الرعب، ومع صوت الفشار المتناثر ونكهة الكراميل والجبن التي تفوح، حان وقت الوداع. خرجوا أخيرًا، يغادرون الشقة وقد تركوا وراءهم ذكرى طيبة مع أحمد وجميلة والفتيات الصغيرات اللواتي ملأن الأرجاء بالضحكات.

وفي مكان آخر، داخل قصر أم قمر الدين، انتهت ليلة سعيدة جمعت الوزير وأسرته، حيث كان الكرم عنوان الطاولة المكدسة بأشهى الأطباق. لكن ما أن انفض الجمع، حتى تحولت الطاولة إلى عبء ثقيل على كاهل الخادمات اللواتي أسرعن بجمع الصحون والأواني، وأصواتهن تتداخل مع قرقعة الأطباق أثناء حملها لتفريغ بقايا الطعام وتنظيفها في غسالة الأطباق. وبينما كانت الأيدي تعمل دون توقف، كانت أم قمر الدين تقف بعيدًا عن كل ذلك، غير مكترثة سوى بإزالة مكياجها المتقن، قبل أن تتجه إلى سريرها الوثير، تبحث عن الراحة بعد ليلة طويلة. أما في صباح اليوم التالي، ومع بزوغ شمس يوم جديد، استيقظ المعلم حنفي على عادته، لكن خطواته قادته مباشرة إلى الغرفة التي تقبع فيها "أم الديب"، غارقة في نومها الثقيل. كانت مقيدة، وحبالها مشدودة كأنها تكبل معها جزءًا من حريتها الهاربة، بينما آثار الدماء التي جفت على جبهتها ووجهها أضفت لونًا قاتمًا كالحزن على ملامحها الشاحبة. دون أن يتردد، خرج المعلم حنفي بخطوات مسرعة، ليعود حاملًا جردلًا مملوءًا بالماء البارد. وبحركة حازمة، أفرغه عليها دفعة واحدة، كأنما أراد أن يوقظها من سبات ليس فقط للنوم، بل للواقع القاسي الذي تنتظره. استيقظت وهي تشرق بالماء وتسعل بشدة، قائلة:

_آه يآني، دهيماية سليق أبو قردان؟

المعلم حنفي باستفزاز:لا وانتي الصادقة، دي ماية قاعدة الحمام! عبيتهالك في الجردل ما هي دي اللي تليق بمقامك يا بت العرر، بقى جاية تعمليهم عليا؟ ده إنتي أبوكي كان بياع برسيم، ده آني هنفخك وهطلع ديكك بس أصبري عليا بس!

أم الديب بنواح:بتكب عليا ماية قاعدة الحمام يا حنفي؟ الحقوني يا ناس!

المعلم حنفي بصخب:مسمعش صوتك! إنتي تتكتمي، وياريت تطولي بالك معايا ده احنا موالنا لسه موال!

ثم استدار المعلم حنفي تاركًا الغرفة، كأنما ينسحب لينسج خيوط مؤامرة جديدة، أكثر إيلامًا وأشد وطأة. كانت خطواته الثقيلة تضرب الأرض برتابة، لكن وقعها في قلب "أم الديب" كان كالصواعق، ينبئ بكارثة وشيكة قادمة لا محالة. ارتجف جسدها الضعيف وهي تتابعه بنظرات يائسة، غارقة في دوامة من الرعب. أحكمت القيود حولها قبضتها وهي تحكم على أملها الأخير بالاختناق. ومع هذا الضغط الخانق، انطلق صوتها المبحوح، وهي تقول:

_هتعمل إيه تاني ياللي ربنا ياخدك؟

صمت المعلم حنفي، ولم ينبس ببنت شفة، كأنما أراد لصمته أن يكون أبلغ من أي رد. اختفى لدقائق، تاركًا خلفه جوًا مشحونًا بالغموض، بينما عيون "أم الديب" تطوف في أرجاء الغرفة، وهي تقول بصراخ:

_هو راح فين؟ ماله مكتوم كاتمة الكحك كدهو ليه؟ايهي يكونش هيجيبلي ماية تاني من الحمام؟ يا عيني عليكي يا بسمة، اتبهدلتي من جوزك.

عاد المعلم حنفي بعد نصف ساعة، وقد حمل بيديه طبقًا ممتلئًا بالدجاج والبط المذبوح، ما زالت الريشات عالقة بأجسادها كأنها تحكي عن حياةٍ أُزهقت للتو. دخل الغرفة بخطوات بطيئة لكنها تحمل وطأة مقصودة، بينما "أم الديب" ما زالت مقيدة، تتبع بعينيها ما يحمله بترقب. وعندما وقع بصرها على ما في الطبق، أطلق قلبها إنذارًا غامضًا. ارتعش صوتها المبحوح مجددًا، واندفعت تسأله بصوتٍ عالٍ:
=انت جايب الفراخ دهي منين؟

المعلم حنفي بلا اكتراث:عارفة الفراخ والبط دول جايبهم منين؟ من على سطحنا!

تركها المعلم حنفي مرة أخرى، متجهًا نحو المطبخ، وصمته المدروس يضيف لهيبًا إلى نار حيرتها المتأججة. أما "أم الديب"، فلم تستطع تمالك نفسها، وانفجر صراخها مدويًا، يتردد صداه بين الجدران. لقد كانت بخيلة حتى النخاع، تمنع نفسها وأولادها من أبسط الملذات، وترى في ذبح دجاجة واحدة لتُطعمهم إسرافًا لا يغتفر. والآن، وهي تنظر إلى الطبق المملوء بما تراه "ثروة مهدورة"، شعرت وكأن السنين التي أفنتها في جمعهم قد بُددت بلمح البصر. تسارعت دقات قلبها، وقالت بنواح:
_فراخي وبطي يا حنفي، بتلعب بديلك إكمني مربوطة؟ وحياة ربنا لأوريك!

عاد "المعلم حنفي" إلى الغرفة، وعلى وجهه ابتسامة ماكرة، فكان يستمتع برؤية أم الديب تغرق في دوامة سخطها. حمل الراديو معه، ووضعه في زاوية قريبة، ثم أدار المؤشر بحركة متعمدة، حتى اخترقت أنغام الأغاني الشعبية أجواء الغرفة. وقف قبالها، يرمقها بنظرات تتراقص بين السخرية والهدوء، ثم قال بلهجة تفيض بالتهكم:
=ياريت يا ولية تبطلي صويت، مش عارف أسمع أغاني وآني بنتف ريش الفراخ والبط بتوعك اللي آني لسه دابحهم عشان أتغدا وأتعشا بيهم النهارده وبكرا!

تركها المعلم حنفي مجددًا، وأغلق الباب خلفه دون أن يلتفت، تاركًا أغاني أم كلثوم تصدح في الغرفة، تتداخل كلماتها العذبة مع صرخات "أم الديب" التي تعلو كلما زادت أنغام الأغاني توغلًا. كانت تقول بصوت متهدج، كأنها تخاطب السماء أو تطلب إنصافًا من القدر:
_يا لهوي، يا خرابي، البط والفراخ بتوعي اتدبحوا! عيشتي طول عمرك تربي فيهم يا بسمة عشان يكبروا وتعمليلك مزرعة ويجيلك فلوس ويطلعلك دهو من تحت الأرض ويدبحهملك...آه يا فراخي آه... حد يجي يفكني! دراعي وجعني!

سلق المعلم حنفي كل الدجاج والبط، وتركهم يغليون على نار هادئة كما لو كان يطبخ عذابًا طويلًا، حتى أصبحوا جاهزين، ثم حملهم في طشت بلاستيكي واسع، يسير بخطى ثابتة نحو الغرفة. دخل بهم، ووضع (الطشت) حيال أم الديب بحركة مهيبة، ثم خرج على عجل لإحضار الكرسي، وعاد ليجلس أمامها، مريحًا جسده ببطء، واضعًا رجلًا على رجل، وكأنما كانت تلك الجلسة تمثل نوعًا من السيطرة الصامتة. خفض

صوت الأغاني تدريجيًا حتى أصبح همسات خفيفة، بينما كانت أم الديب ما تزال تواصل صراخها، كأنها قد سُلبت صوتها في بحر من الظلم. وفي تلك اللحظة، اتصل "المعلم حنفي" بنعمة، وهو يبتسم ابتسامة هادئة، لا تخلو من سخرية، ثم قال ببرود شديد:
_ألو يا نعمة، صباح الفل عليكي.

أم الديب باستغاثة:الحقي أمك يا نعمة! أمك اتبهدلت أوي!

لكن "نعمة"، التي كانت غارقة في حديثها مع والدها، لم تستمع لنداء أم الديب في البداية، حيث كانت جالسة على الأريكة المريحة، تتحاور مع والدها بابتسامة مشرقة. كانت تجيب بإيجابية على كل كلمة، حيث قالت بلهجة مفعمة بالحيوية:
_صباح الخير عليك يابا، هو إيه الصويت اللي جنبك ده؟

المعلم حنفي بكذب:ده التلافزيون.
نعمة:هو مش جلال كسره وباظ؟
المعلم حنفي:لا لا ده آني في بيت عمك الله يرحمه.
نعمة باهتمام:الله يرحمه يابا، طمني عليك فطرت ولا لسه؟
المعلم حنفي بابتسامة:لا مآني بتصل بيكي عشان عاوز أسألك، البط والفراخ بيتعملوا ازاي؟

بينما كانت نعمة تغرق في حديثها مع والدها، كان صراخ "أم الديب" في الخلفية يتردد في أرجاء الغرفة كصوت غريق يتشبث بأمل ضائع. كان قلبها يعتصره الألم وهي تشاهد طيورها المذبوحة، التي كانت تُمثل شقاها وعرق سنواتها، تُغمس في قدر من الماء وتُلقى في الطشت كأنها مجرد بقايا لا قيمة لها، قائلة:
_فراخي وبطي!

نعمة بارتياب:هو إيه الصوت ده يابا؟ أنا حاساه حد بيصوت!
المعلم حنفي بتجاهل:مآني لسه قايلك إنه التلافزيون!
نعمة:ماشي يابا، إنت جيبت الفراخ والبط منين؟
المعلم حنفي:البط والفراخ بتوعنا، أمك بقالها خمس سنين بتربي فيهم وعمرنا ما شوفنا دبوس فرخة حتى.
نعمة بصراخ:يا لهوي! دي أمي يجرالها حاجة لو عرفت! دول غاليين عليها أوي.

لكن كل محاولات "أم الديب" كانت بلا جدوى، كانت الكلمات تتناثر منها دون أن تجد أذنًا صاغية، وكأن الهمسات تذهب أدراج الرياح. في النهاية، وبكل ما تبقى لها من قوة، أطلقت مسبتها لزوجها، قائلة:
_يا حنفي الكلـ*، يابن الكلـ* يا واطي.

نعمة بشك:هو إنت حد بيشتمك يابا؟
المعلم حنفي بانفعال:يا نعمة مانا قولتلك إنه التلافزيون! يلا خلصيني وقولي يإما هتصل بليالي هي اللي تقولي!
نعمة:حاضر يابا هقولك أهو.

كانت المكالمة مسموعة بأعلى صوت في أذني أم الديب، تكاد تشعر بحرقة القهر تتسرب عبر صمام قلبها وهي ترى ما زرعته بصعوبة، يُحصد بسهولة دون أدنى رحمة من جانب المعلم حنفي. لقد كانت شحيحة في ذبح فرخة واحدة فقط، فكيف لها أن تتحمل رؤية جميع طيورها تُسلب منها، وكأنها لا تملك شيئًا بعد الآن؟. المعلم حنفي، من جانبه، كان يخطط لتخزين الطيور بعد تنظيفها، ليطهو دجاجة واحدة لنفسه، في محاولة للتعويض عن حرمانه طوال السنين الماضية. أما نعمة، فقد كانت تشرح له بمهارة كيفية صنع الدجاجة بالبطاطا في الفرن، وصفتها بطريقة ليالي الفريدة التي تشتهر بمذاقها الرائع، وفي بلكونة الشقة المصيفية، حيث كان عم سلامة وزوجته وابنته وزوجها أشرف جالسين حول الطاولة البلاستيكية البيضاء، كان أشرف لا يرضى بوجود جلال الذي فرض هيمنته على الجميع، مريدًا أن يثبت قوته ويظهر قدراته.
وقال "أشرف" بسخط شديد:
_الصراحة أنا مش مبسوط، كان لازمته إيه عم جلال ده يجي معانا؟ ده فاضحنا وكل كلمة بخناقة وأنا ماسك نفسي من أول يوم ومش عايز أتكلم لأن إنتي عارفة اللي هيحصل كويس!

هبة بتضايق:هو مش إنت يابا خليتهم يحبوا على روس بعض ليلة إمبارح؟
عم سلامة:حصل وقدامكم كلكم، أصل جلال خُلقي ومبيحبش حد يقلل منه، من الآخر عاوز الناس كلها تشكر فيه.
أشرف بانزعاج:وهو كان حد قل منه يا عمي؟ هو حد بيجي ناحيته أساسًا؟ ده هو اللي بيدور على المشاكل بمنكاش.
عم سلامة:مانا عارف يا أشرف يابني، إنت ابن ناس متربي ومتطلعش منك العيبة! هو اللي مخه على قده، يبقى ناخده على قد عقله.
تباهي بحنو:معلش يا أشرف طول بالك وخليك إنت أحسن منه! ده إنت العاقل أبو المفهومية كلها.

أشرف بانفعال:ماهو بقى اللي بيجننه إن أنا العاقل أبو المفهومية، عايز يبقى هو العاقل الحلو اللي مفيش منه اتنين وكل الناس تطبله وتقوله أحلى كلام، وغيره يتعاملوا أزبل معاملة!
هبة:هي الصراحة ساعات ليالي بتشتكيلي منه ومن عصبيته بس بترجع تقولي في الآخر إنه طيب وقلبه أبيض، بس متقلقش يا أشرف أنا هتكلم معاها وأقولها إن دي حاجة مضايقاك!

أشرف باعتراض:بس! أوعي تتكلمي في حاجة! أه عشان الكلام يوصل ويقول إن أنا اللي غيران منه مش العكس! يا جماعة الله يكرمكم أنا راجل ماليش في الحركات التعبانة دي! ونازل يومين أروق عليا وعليكم وأرتاح من هم الشغل شوية.

ابتسم عم سلامة ابتسامة عذبة لأشرف، في محاولة منه لتهدئة قلبه وإرضائه، فقد كان أشرف أقرب الناس إلى قلبه، وأحبهم إليه من بين أفراد العائلة، إذ كان يعلم تمامًا أن جلال، بعصبيته المتأججة وأطباعه المتقلبة، لم يكن يحظى بمودة الجميع. كان جلال شخصًا غير متزن نفسيًا، يحمل في قلبه اضطرابًا واضحًا ينعكس على تصرفاته، بينما كان أشرف على النقيض تمامًا؛ عاقلًا، رزينًا، متروّيًا في قراراته، يفكر في كل كلمة قبل أن يلفظها، وعقله نقي، ينبع من بيئة طيبة وخلوقة. ولذلك، كانت العائلة كلها تنحاز إلى أشرف دون تردد، وتوثق فيه لصفاء ذهنه واستقامته. ثم قال "عم سلامة"، وهو يبعث في نفسه الطمأنينة ويمنح أشرف نظرة تشجيعية:
_حقك على راسي، طلع جلال من دماغك وهتلاقي الدنيا حلوة! بس سيبك منه ومتاخدش على كلامه!

أشرف بطاعة:حاضر يا عم سلامة، اللي تشوفه أنا هعمله ولو إن يعني دي حاجة مش مريحاني، بس تمام.

كان أشرف مطيعًا لعم سلامة، إذ كان ينظر إليه على أنه والده الثاني، لا مجرد حماه، فالعلاقة بينهما كانت تتجاوز حدود العلاقة العادية لتصل إلى درجة من التقدير، كما لو كان عم سلامة مصدرًا للأمان والحكمة في حياته. وعندما رن جرس الباب، نهضت هبة بخفة لتفتح الباب، بينما "عم سلامة" بعينين مليئتين بالخبرة قال بنصحٍ رجيح:
_ريح هترتاح! ما هي المشاكل كده تبدأ بكلمة صغيرة وتكبر من الطرفين لحد ما توصل لكارثة، حكم عقلك وخد كل واحد على قد عقله!

فتحت هبة الباب، لتجد أمامها ليالي، التي أضاءت الزيارة وجهها بابتسامة دافئة، وحضورها يعيد للنفس الراحة. نظرت "ليالي" إلى أختها بعينين مليئتين بالود، وسألتها بصوت هادئ:
_انتوا صاحيين من امتى؟

هبة:صاحيين من ساعة.

دخلت هبة وليالي إلى البلكونة، حيث كانت أشعة الشمس تتسلل بين أوراق الشجر، وتضيء المكان بألوان دافئة. جلستا مع العائلة حول الطاولة، التي كانت مغطاة بأدوات الطعام البيضاء اللامعة، فتألقت الوجوه، ثم قالت "ليالي" بابتسامة مشرقة:
_صباح الفل عليكم.

عم سلامة بحُب:صباح الحلاوة والقشطة

تمايلت "ليالي" بجسدها نحو والدتها، فاحتضنتها بلطفٍ كما لو كانت تلتمس منها الراحة، ثم طبعت قبلة حانية على وجنتيها، وقالت بحنان:
_ازيك ياما؟ عاملة إيه؟

تباهي ببشاشة:الحمدلله يا بتي.

نظرت "ليالي" إلى أشرف بترددٍ خفيف، وكلماتها تتسابق في صدرها ولا تعرف أيها تنطق أولًا، ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة، وقالت له بودٍ:
_ازيك يا أشرف؟

أشرف:الحمدلله.
ليالي بتردد:أنا قولت أخطف نفسي قبل ما جلال يرجع بالفطار هو وحامد! جيت يعني أقولك كبر دماغك من جلال، أنا عارفة إنك واخد على خاطرك منه ومش عايز تتكلم عشان المشاكل، بس بعد ما بوستوا روس بعض أضمنلك إن جلال بقى صافي من ناحيتك.

نظر "أشرف" إلى هبة بنظرة تحمل في طياتها شكًا خفيفًا، وكأن سحابة من الريبة قد ألقت بظلالها على قلبه، ثم سألها بلهجة مترددة، تفيض بالارتياب:
_هو إنتي اتكلمتي في حاجة يا هبة؟

هبة بصدق:والله ما اتكلمت، ليالي بتتكلم من نفسها!
ليالي:هبة مقالتش حاجة، أصل إمبارح حسيت من بصاتك لجلال إنك شايل منه.
أشرف:جلال أنا بعتبره زي حامد أخويا ومباخدش على كلامه.
ليالي ببسمة:طب والله ده طيب وحنية الدنيا فيه واللي عايز يكسب قلبه يجيله من الكلام الحلو.

أشرف بحصافة:تطبيل يعني؟
ليالي بإحراج:مش أوي كده، بس نمشيها تطبيل... أنا بتأسفلك بالنيابة عنه.
أشرف بسكينة:لا مفيش حاجة، حصل خير.
ليالي بفرح:ربنا ما يجيب زعل بينكم، يلا تعالوا هناك عشان نفطر!
أشرف باعتراض:لا احنا هنفطر هنا!

ليالي بذكاء:يبقى لسه زعلان.

اعترض أشرف على الذهاب إلى الشقة الثانية، متذرعًا بعدم رغبته في لقاء جلال، إذ إن الموقف الأخير قد ترك في النفوس جراحًا غائرة، وأصبح الهواء مشبعًا بشحنات من البغضاء الذي لا يُحتمل. كانت ليالي تراقب رد فعله، وأدركت بوضوح أن أشرف لا يزال يحمل في قلبه ضغينة تجاه زوجها، فالعلاقة بينهما لم تلتئم بعد، والهمسات في الجو تنبئ بذلك. التفتت "ليالي" نحو هبة، وتفوهت:
_ما تقولي حاجة يا هبة!

هبة:خلاص بقي يا أشرف مش هيتكلم في حاجة تاني!
أشرف باعتراض:أنا قاعد هنا، عايزين تروحوا روحوا انتوا!

نهض "عم سلامة" بحركة واثقة، وكانت كل خطوة يخطوها تحمل معها سنوات من الحكمة، ومدّ يده إلى أشرف بحركةٍ دافئة، ثم قال له بإلحاح:
_طب والله مانا متحرك من غيرك، أنا خلاص حلفت، هتكسر حلفاني؟

أشرف باحتفاء:وأنا أقدر برضة؟
عم سلامة:يبقى قوم، يلا، يلا!

جذب عم سلامة أشرف بقوة، وكأنما كانت يداه تحملان أمرًا لا يقبل التأجيل، فنهض أشرف، متبعه في ذلك جميع الأفراد الذين استجابوا للنداء، ونهضوا هم الآخرون ببطء، يتجهون نحو الشقة الأخرى ككتلة واحدة من العائلة. وبينما كانوا يسيرون باتجاه البلكونة، التي كانت تُنيرها أنوار الشمس، نظرت "ليالي" حولها بدهشة، وعينيها تفتشان عن حمود في كل زاوية، ثم سألت نعمة:
_هو حمود راح فين؟

نعمة:نزل مع جلال وحمو.

رفعت "نعمة" هاتفها فوق أذنها، وهي تحمل بين يديها سراجًا يضيء طريق المعرفة، بينما كانت تحادث والدها عبر الخط الهاتفي، شرحت له بتفصيلٍ كيفية صُنع الدجاج بالخضروات، وهي تقدم له وصفة لمجموعة من الذكريات العائلية الجميلة. قالت باكتراث، وعينيها تلمعان بالحماسة:
_ألو يابا، كنا بنقول إيه؟

جلست العائلة حول الطاولة، وكانت الأجواء مشحونة بالدفء، فكل شخص في مكانه يحمل في قلبه شوقًا غير معلن. فجأة، انقضت "تقى" بأحضان خالتها، وكأنها تبحث عن ملاذٍ في دفء حضنها، ثم قالت لها بحماس:
_خالتي هبة!

هبة بدُعابة:نعم يا تقى؟
تقى بنَهَم:أبقي هاتيلي شنطة زي بتاعتك!
ليالي بحدة:بس يا بت! عيب اللي بتقوليه ده!

اعترضت ليالي على نظرة ابنتها التي كانت تتطلع إلى ما في يد غيرها، متمنية أن يكون لها مثله، معتبرةً ذلك تصرفًا يعكس الجشع وعدم الرضا بما لديها. كان حديثها مع تقى جافًا، كما لو كانت كلماتها أشواكًا تعبر عن ضيقها من هذا التصرف. لكن في تلك اللحظة، تدخلت "هبة"، وعانقت الطفلة برفق، ثم التفتت إلى ليالي بعبوسٍ ظاهر على وجهها، وقالت لها بحزمٍ:
_مالكيش دعوة يا ليالي!

ثم أردفت إلى تقى، بصوت يملؤه الحنان، وكلماتها تحمل في طياتها حبًا يفوق التعبير، وقالت لها بلطفٍ:
_حاضر يا تقى هبقى أجيبلك واحدة زيها بالظبط!

ليالي بفظاظة:هو أنا مش قولتلك متحطيش عينك على حاجة مش بتاعتك يا بت؟
تباهي بسطوة:خلاص بقى يا ليالي! البت عاجباها شنطة خالتها وعايزة واحدة زيها، إيه كفرت؟

تركت "تقى" حضن خالتها، كأنما كانت تنشد مغامرة جديدة، لتقفز في حضن جدتها، التي كانت تحيطها بحبٍ لا ينتهي، وقالت لها بمحبة واسعة:
_بحبك يا ستي.

قبلت جدتها وجنتي حفيدتها بحبٍ، كأن قبلة على وجنتيها تحمل كل الذكريات الجميلة، وكل لحظة دفء في حياتها. ثم قالت "تباهي" لها بلين:
_أنا اللي بحبك أوي يا قلب ستك انتي.

تعجبت "ليالي" من دلال ابنتها الزائد على الخالة والجدة، وهي تفيض بكلمات معسولة، وتتحدث بنبرة ودية، وكأنها تزين كل لحظة بعبارات غارقة في الحب. تأملتها لحظة، ثم قالت بعدم رضى، وقد بدا في ملامحها بعض الاندهاش من هذا التصرف:

_يا حول الله يارب.

ضحك عم سلامة وأشرف على رد الفعل، وتبادلوا الأحاديث بحميمية في الخارج، وضحكاتهم تعبير عن لحظة من الانسجام في ظل الجلسة العائلية. بينما في الداخل، كانت نعمة تشرح لوالدها طريقة تحضير الدجاج، تروي له كل التفاصيل الدقيقة كما لو كانت تروي قصة مفعمة بالاكترات. وعندما انتهت من حديثها، شكرها "المعلم حنفي"، قائلًا بتقديرٍ:

_طيب يا نعمة ألف شكر!

نعمة ببسمة:بألف هنا وشفا يابا.
المعلم حنفي:سلميلي على عم سلامة وأم ليالي وكل الموجودين معاكم هناك!
نعمة:من عينيا.
المعلم حنفي:مع السلامة.

قفل "الوالد" مع نعمة المكالمة الهاتفية، ثم دخل المطبخ وهو يتحرك بخطوات ثابتة، وكأن عقله يركز في كل تفصيل من تفاصيل ما سيقوم به. استخرج الخضروات من الثلاجة، وغسلها بعناية كما لو كان يحرص على أن يكون كل شيء في مكانه، ثم أضافها إلى قدر الماء الذي كان يغلي على الموقد، وعندما بدأ الماء يثور بالغليان، أسقط الدجاجة فيه برفق، فكانت جزء من عملية دقيقة لا تحتمل الخطأ. وفي القدر الآخر، بدأ يضيف البط مع البصل والطماطم، ممعنًا في إضافة التوابل التي ستمنح الطعام نكهة لا مثيل لها، وهو يضع لمسته الخاصة في كل مكون. ثم أخرج ثلاث بطاطات، وقطعها إلى دوائر متساوية بعناية فائقة، وغسلها جيدًا، ليقوم بعدها برصها في الصينية، وبعد مرور ساعة إلا ربع، كانت الدجاجة قد استوت، فأخذ الحساء وأضاف لها الصلصة والتوابل، ثم أدخلها الفرن، ليبدأ في صنع الأرز في قدر آخر. كان كل شيء يسير كما خطط له، بينما كانت أم الديب، التي كانت مربوطة داخل الغرفة، تصرخ بألمٍ ومرارة، وبعد جهود شاقة، رص الطعام في الأطباق بعناية، ثم وضعه على صينية كبيرة، كأنه يجهز وليمة لا تُنسى. دخل الغرفة أخيرًا، وجلس إزاءها، في الوقت الذي كانت فيه تصرخ، فمد يديه بكل هدوء وفصل لحم الدجاج بهدوء، وقال بسخرية، بينما يلتهم طعامه:

_آني مش فاهم إيه الولية اللي كل حياتها صويت في زن دي؟ ما تتهدي شوية مش عارف أتمزج بالأكلة المحترمة دي! طب تصدقي يا ولية إن الأكل ده له طعم عنك؟ يا سلام على ورك الفرخة ولا صدر البطة مع حتة بطاطساية كده، أيوه يا سلام.

أم الديب بصراخ:بيحش فراخي يا عالم، الفراخ اللي متعبش في تربيتها! آني اللي روحت اشتريتهم وهما كتاكيت وكبرتهم وعلفتهم وهو جاي ياكلهم على الجاهز! ده آني مرضتش أدبح ولا واحدة فيهم في فرح هايدي، تقوم إنت دابحهم؟ يا لهوي يا لهوي، ماشي يا حنفي آني هوريك!

كان "المعلم حنفي" مستمتعًا بالطعام إلى أبعد حد، كأن كل قضمة من الأرز بالبطاطا بالصلصة هي لحظة نادرة من لذائذ الحياة، يتنقل بها بين طعمها الغني ونكهتها المميزة التي كانت تروي جوعه بشكل لم يعرفه منذ سنوات. وبينما كان يمتص بقايا الدجاج من أصابعه بتلذذ، فجأةً رن موبايله، فالتفت ليرى اسم أحمد يظهر على الشاشة. ولم يُفقده الهاتف انغماسه في الطعم الشهي، بل أبطأ قليلًا ليكمل ما تبقى من طعامه، ثم مسح يديه سريعًا على المنديل، ليحسن استجابته للمكالمة، وهو يرفع سماعة الهاتف قائلًا، بينما لا يزال طعم الطعام في فمه:

_ألو يا أحمد، طب ده إنت حماتك بتحبك، ده أنا لسه طابخ شوية فراخ وبط مع حلة بطاطس، حاجة عال العال.

أحمد باهتمام:بالهنا والشفا يا بابا، إنت في بيت عمي؟

المعلم حنفي بتلذذ:لا آني في بيتنا، طلعت دبحت الفراخ والبط اللي أمك مربياهم وطبختهم وهي لما عرفت ركبها مية عفريت بس هقول إيه؟ ياكش تولع، ده آني رابطها ربطة معلمين ولا جن أزرق يعرف يفكها.

لا يزال المعلم حنفي يرفع الملعقة إلى فمه، مستمتعًا بآخر قضمة من الطعام، حينما فوجئ بكفٍ باسل يضربه بقوة، كأنما كان الضرب قاصدًا أن يُسلب منه متعته. أطاح الكف بالأكل من على رجله، حتى سقط على الأرض وكأنه قد فقد كل شيء في لحظة مفاجئة. ثم، وهو يحاول الحفاظ على توازنه، تعثّر وسقط من على الكرسي، ليتدحرج أرضًا في مشهد لا يُصدق، وكل ذلك والمكالمة مع أحمد مفتوحة، وعندما نظر نحو الباب، رأى "أم الديب"، التي كانت قد فكّت رباطها وأطلقت نفسها في لحظة انتقام لا تخلو من عنف. تقدمت بخطوات ثابتة نحو المعلم حنفي، وقالت بصوت غليظ:

_آني تعمل معايا كدهو؟ آني هقتلك، هقتلك! وآخد عزاك بنفسي يا حنفي!

المعلم حنفي بفزع:انتي اتفكيتي ازاي؟ ده آني لافك بتاع مية لفة!

سحبته أم الديب من لياقته بقوتها لحد ما وقف قصادها وهو بيترعش، وقالت له بشر:

_مش هتبقى أكتر من لفة الحبل اللي هيتلف حوالين رقبتك دلوقتي يا معتق يا خسع!

المعلم حنفي بصياح:آني مسمحـ....

انهالت أم الديب على رأس المعلم حنفي بكف يدها بقوة، كأنما كانت تصب كل احتدامها المكبوت في تلك الضربة، حتى صدى الصوت ارتطم بالجدران كأنه ناقوس إنذار. ثم انحنت نحوه بغضب عارم، وأمسكت بتلابيبه بقوة لتشده عن الأرض، وهو يصرخ مستغيثًا بصوت مرتجف يملؤه الذعر، وكأنه يوقن أن نهايته باتت قريبة. وفي ذات اللحظة، كان "أحمد" على الطرف الآخر من المكالمة، قد التقط أصوات الصراخ، فشعر بفزع شديد، وكأن شيئًا كارثيًا يحدث، وقال بصوت مُضطرب:

_ألو يا بابا...بابا...إيه الصوت ده؟
رفعت "أم الديب" يدها مجددًا، وفي لحظة غليان عاطفي لا تحتمل، وجهت له كفًا آخر بقوة لم يستطع جسده تحملها، حتى سقط على الأرض مغشيًا عليه، بلا حراك، وكأنها قد أطفأت نور إدراكه للحظة. وقفت تنظر إليه، والدموع تتدافع في عينيها كأنها سيل جارف من الغضب، ثم رفعت رأسها إلى السماء، وقالت بنواحٍ عالٍ:
_بتربطني وبتضربني وكمان دبحت الفراخ والبط علشان تاكل وتملي كرشك؟ خد!

لم تتوانَ "أم الديب" عن استكمال انتقامها، إذ وطأت زوجها بسيقانها بقوة على فخذه، وكأنها تُفرغ امتعاض سنوات مكبوتة في لحظة واحدة. لم تكتفِ بذلك، بل رفعت يدها وصفعته بقسوة على وجهه، صوت الصفعة دوّى كالرعد في الغرفة، وكأنما أرادت أن تترك أثرًا لا يُنسى. بينما كان هو يتلوى من الألم ويئن، قالت بإعوالٍ:
_آني هوريكم أيام سودة يا جلال إنت وأبوك وأخواتك! كلكم اتفقتوا عليا لكن وحياة النعمة لأمرمطكم على ترابة شارعنا! ده آني هخلي اللي ما يشتري يتفرج، هعرفكم كلكم أم الديب لما بتنتقم بتاخد حقها ازاي!
كانت أم الديب تتحرك بخطوات ثقيلة، عيناها تقدحان شررًا وكأنها تُعد العدة لجولة أخرى من الانتقام الأسود، عازمة على أن تُذيق كل من أمامها وابلًا من عاصفة سخطها. في تلك اللحظات، كان "أحمد" يستمع إلى كل ما يحدث عبر المكالمة المفتوحة، وقد تجمد في مكانه حينما أدرك أن والده قد تلقى ضربًا مهينًا. شعر بأن الأرض تميد تحت قدميه، وهمس لنفسه برهبة:
_أنا حاسس إنها عملت فيه مصيبة! ولو روحت مش ضامن أرجع بيتي سليم، ماهو مادام هي ناويالنا على كل ده يبقى مش هنسلم من شرها، مفيش غير إن أنا أتصل بجلال ونعمة وأقولهم كل حاجة!

بعدما أنهى جلال وحامد وحمود شراء الطعام، قرروا السير على أقدامهم عائدين، إذ كانت المسافة قريبة ولا تستدعي استخدام سيارة. وبينما كانوا يسيرون وسط شوارع رأس البر التي تضج بالحركة والنشاط، كانت الأضواء تصف بريقها على واجهات المطاعم التي انتشرت على الجانبين، كل منها يزدحم بالزوار. نظر "حامد" حوله متأملًا هذا الكم الكبير من المطاعم بأسمائها الجذابة وروائحها الشهية التي تعبق في الهواء، ثم التفت نحو جلال وقال له بتفكيرٍ:
_في مطعم شايفه واحنا بنتمشى بالليل على الكورنيش بيقولوا حاجته حلوة أحسن من المطعم ده بكتير.

جلال:ياض أوحش أحسن مش فارقة! المهم إننا ناكل ونشبع، ولا هو كتر مصاريف وخلاص؟
حامد:مش يمكن يطلع أرخص؟ نبقى نسأل، احنا خسرانين إيه؟

رن هاتف "جلال" بينما كان يسير بخطوات ثابتة باتجاه العمارة المصيفية، يحمل الأكياس في إحدى يديه وينظر إلى الطريق الممتد أمامه. توقف للحظة ليرى اسم أخيه أحمد على شاشة الهاتف، ثم أجاب المكالمة، وقال له، وهو لا يزال مستمرًا في السير دون أن يبطئ:

_ألو.

أحمد بارتباك:أنا عايزك في موضوع مهم يا جلال وياريت كلامي توصله لنعمة!
جلال بفضول:موضوع إيه ده؟

حكى أحمد لجلال كل ما سمعه خلال المكالمة الهاتفية، مؤكدًا أن أم الديب تشاجرت مع المعلم حنفي في مشهدٍ ملؤه الفوضى. كان جلال منصتًا باهتمام، مستوعبًا كل كلمة، بينما كانت عيناه تتفقدان الطريق أمامه، ويده الأخرى تحمل كيس الفطور بحذر. بدا على وجهه القلق، بينما واصل أحمد الحديث عن سعيه للتفاهم مع باقي إخوته للاتفاق على حل لمواجهة تسلط والدتهم، ووضع حدٍ للتوتر الذي يهدد استقرار العائلة. في مكان آخر، وبالتحديد في قصر العائلة، حيث لا تزال آثار وليمة الأمس تترك خلفها بقايا الطعام، وقفت "أم قمر الدين" في المطبخ محاطة بالخادمات. وبينما كانت البقايا تُرمى للحيوانات في الشوارع، حرصت أم قمر الدين على فرز الطعام النظيف الذي بقي في القدور، وقررت تخصيصه لإطعام الفقراء في عمل خيري. نظرت إلى الخادمات بحزم، وقالت لهن:
_خدوا الأكل النضيف وبس وهناخده إطعام! مش عايزة حد فيكم ياخد من بواقي الأكل! مفهوم؟

الخادمة:حاضر يا ست هانم.

اقترب كلب "أم قمر الدين" بخفة، يحك جسده في سيقانها وهو يتمايل برقصات عفوية، كأنما أراد أن يعبر عن مدى تعلقه بها وولائه المطلق. توقفت عن عملها للحظة، وأحنت جسدها نحوه برفق، تمد يدها لتداعب رأسه بحنانٍ بالغ. رفعته بحب بين ذراعيها، وكأنها تضم كائنًا صغيرًا من عائلتها، وقالت له بصوت دافئ يفيض عطفًا:
_ليلو حبيبي انت، بموت فيك، بعشقك، إنت كلبوب خطير...متقلقش الأكل بتاعك هيكون جاهز دلوقتي حالًا، أمواه.

ثم قبلت كلبها بحنان، كأنما هو طفلها الصغير الذي لا تكف عن رعايته، ممسكة برأسه في حضنها، ثم التفتت إلى الخادمة التي كانت تقف في المطبخ بانتظار تعليمات جديدة، وقالت لها بصوت رقيق لكنه يحمل في طياته جديّة:
_الدراي فود ينزل حالًا لليلو!

الخادمة بوضوح:الدراي فود خلص للأسف.
أم قمر والله بدهشة:خلص ازاي؟ أنا جايبة باكيت ضخم من يومين، لحق يخلص؟ مين فيكم اللي بياخده؟ انطقوا!
الخادمة:والله ما حد فينا بياخده، هناخده نعمل بيه إيه بس يا ست هانم؟ ده أكل كلاب.

جاءت "منى" من خلف والدتها، وتسللت خطواتها بخفة، ثم أحنت رأسها نحو الأرض حياءً، وكأن الخجل يعصر قلبها، فاعترفت بصوتٍ منخفض ولكن واضح، أنها هي من استهلكت طعام الكلب دون أن تخبر أحدًا. شعرت بارتباكٍ شديد، فقالت بصوتٍ مكسور لكنه صادق:
_أنا يا مامي!

أم قمر الدين بصدمة:انتي اللي بتاخدي أكل ليلو؟
منى بابتسامة:أيوه يا مامي كنت بأكل كلاب الشارع، محدش مهتم بيهم ولا بيحطلهم أكل!
أم قمر الدين بتضايق:أوه ماي جاد، كنتي عرفيني!
منى بتبسم:سوري يا مامي بس ده خير وأنا بعمله.
أم قمر الدين ببشاشة:أوكي يا منى، أنا مش زعلانة منك لأنك بتعملي خير، ودي حاجة هتكون في ميزان حسناتك يا حبيبتي!

سعدت أم قمر الدين بأن ابنتها منى تسعى دومًا للخير مع الحيوانات، وتوليهم اهتمامًا لا يقل عن اهتمامها بالبشر. كانت تعرف جيدًا أن منى هي القلب الرقيق، مرهفة الحِس، تلك الفتاة التي تُحب الكائنات الضعيفة، وتُسقيها الحنان، محبة للكلاب، عاشقة للقطط، ومولعة بجميع المخلوقات، لا تميز بينها، بل تعتني بها جميعًا. دائمًا ما تطعمهم بروح محبة، وهي تمنحهم جزءًا من قلبها الذي لا يتوقف عن العطاء. تقبلت "أم قمر الدين" الموقف بهدوء، وعرفت أن هذا هو جزء من طبيعة ابنتها الطيبة، فابتسمت برضا، ثم قالت للخادمة التي كانت تضع اللحم في الأطباق، بنبرة هادئة:
_حطي سوفت فود لليلو يا تولينار!

الخادمة بصراحة:السوفت فود خلص يا هانم.
أم قمر الدين بانزعاج:لا لا لا مش معقول، كده الموضوع زاد عن حده! معقول إنتي يا منى بتاخدي الدراي والسوفت فود ومش عاملة أي حساب لليلو؟
منى بخجل:سوري يا مامي مش هتتكرر تاني، بعد كده هشتري باكيت الدراي فود من فلوسي!
أم قمر الدين باستياء:المشكلة مش في الفلوس، المشكلة في عدم الصراحة اللي بقيت موجودة ما بينا! ليه كده يا منى؟ بقى بتاخدي الأكل من ورا مامي؟ يا حبيبتي أنا مش معترضة إنك بتعملي خير، بس كنتي عرفيني!

لم يكن العمل الخيري هو السبب في ضيق أم قمر الدين، بل ما أثر في نفسها وأثقل قلبها هو أن منى لم تضع كلبهم في الحسبان، فقد كان الجائع لا يجد طعامه كما اعتاد، مما جعل قلبها يعتصر الأسى على ما بدر من ابنتها، رغم محبتها الكبيرة لها. ولكن في تلك اللحظات، وبينما كانت أم قمر الدين تغرق في أفكارها،

نزل "قمر الدين" فجأة من الطابق العلوي، مرتديًا ملابس الخروج، وكأن عبير الفرح يرافقه. اقترب منها بحماس، وجذب والدته نحوه، ثم ابتسم لها ابتسامة واسعة، وقال بلُطف:
_تعالي بس وسيبك من موضوع ليلو والدراي فود والكلام ده!

أم قمر الدين بشجن:خلاص يا منى أطلبي باكيت تاني دلوقتي حالًا، حرام يا حبيبي الكلب جعان!
منى ببشاشة:حاضر يا مامي دلوقتي حالًا أهو.

استخرجت منى هاتفها من جيبها بسرعة، ثم فتحت الإنترنت، لتبحث عن طعام كلبها على الموقع الذي اعتادت الشراء منه. كانت تشعر بحاجة لإصلاح الموقف بسرعة، لذلك أجرت طلبًا للدراي فود والسوفت فود، حتى تتمكن من إنهاء هذا الإزعاج الذي أثقل قلب والدتها. بينما كانت تنتظر تأكيد الطلب، عانقت كلبها بحنان، كأنها تخبره بأن طعامه على وشك الوصول، وأنه لن يبقى جائعًا بعد الآن. في تلك الأثناء، جلست أم قمر الدين بجوار ابنها الأكبر على الأريكة، وهي منصتة بكل انتباه لما سيقوله. بدا على وجهها مزيج من الفضول والانتظار، بدأ "قمر الدين" كلامه بحماس، وهو ينقل لهما مشاعر حماسية مدفوعة برغبة في التغيير، قائلًا:
_بصي بقى يا ستي!

أم قمر الدين باحتدام:ستي؟

يتبع....

الفصل الثاني عشر

المزاج اليوم يفتقر إلى صفاءه، فقد كان أم قمر الدين معتادة على استيقاظ يعجّ بالطاقة الإيجابية والنشاط، إذ كانت تفتح نافذتها التي تطل على الحديقة، فتسري في نفسها لذة النظر إليها، ثم تنزل إلى الطابق الأرضي، فتتناول مشروبها في حضن الحديقة، لا تفارقها قطعة شوكولاتة أو كوكيز لذيذ، ثم تمارس رياضتها المفضلة وتستحم في مرحاضها الذي يجمع بين عبق التراث وجمال الحداثة. لكن تصرف ابنتها منى أحدث خللًا في هذا الروتين، أما قمر الدين الذي نطق باسمها قائلًا "ستي"، فقد شعرت وكأنها قد أنجبته في الريف بعيدًا عن صخب المدينة، فأطلقت عليه نظرة مشحونة بالاستياء، ليضحك "قمر الدين" بعدها قائلًا، في مزاح:

_مش المعنى نفسه، مش المعنى الحرفي يعني! ركزي معايا بس! النهارده بالليل هاخدك من إيديكي إنتي وبابا ونروح نتفق مع أهل سارة على الفرح ونشوف إيه اللي ناقصنا!

أم قمر الدين بدهشة:إيه يا حبيبي تاخدنا من إيدينا دي هو احنا أطفال ولا قاصر؟
قمر الدين باستغراب:يا ماما مالك النهارده بس؟ في إيه؟
أم قمر الدين بتضايق:ماهو مش معقول خالص اللي إنت وأختك بتعملوه ده، هي بتتصرف من دماغها ومش بتستأذني، وانت لغيت شخصياتنا خالص وانت كمان بقيت تتصرف من دماغك.
قمر الدين بجدية:صدقيني أنا ولا بتصرف من دماغي ولا أي حاجة، أنا بس علشان كنت متفق معاها إننا هنروح إمبارح ومروحناش علشان العزومة، وبصراحة كان شكلي وحش قدامها، ولعلمك أنا مش فاضي غير النهارده!

أم قمر الدين بتأزم:ولما إنت مش فاضي يا قمر الدين غير النهارده، هتروح تتفق على إيه؟ معروفة الفرح قرب يعني تجهيزات ومواضيع كتير! هتجيب وقت منين لكل ده لما إنت مشغول؟
قمر الدين:عادي يا حبيبتي هفضي نفسي ساعتين كل يوم.
أم قمر الدين بضحك:لا لا بجد ضحكتني، ساعتين يا حبيبي ميكفوش أبدًا! ده جواز، عارف يعني إيه جواز؟
قمر الدين بتبسم:طبعًا عارف، طيب قوليلي بس مالك النهارده مودك مش مظبوط ليه؟ في حاجة حصلت؟
أم قمر الدين بسخرية:ضوفري اتكسر يا قمر الدين!

نهض "قمر الدين"، وقد استشعر دهشة شديدة مما صدر عن حديثها، فكان الكلام الذي نطقت به ينم عن تهكم واضح على الوضع، فاجأه هذا التغيير في نبرتها. ضحك قهقهة مدوية، ثم اقترب منها، محتضنًا ذراعيها، وقبل رأسها بعاطفة غامرة، وأردف بكلمات تنبع من قلبه المفعم بالحنو:

_سلامتك يا حبيبتي، زي ما اتفقنا بقى، ها؟

خرج قمر الدين من القصر مُسرعًا، كأنما هو على موعد يقتضي العجلة، وركضه المتسارع يعكس حالة من التوتر والاندفاع. نظرت إليه أم قمر الدين بوجه مفعم بالانزعاج، وقد تملكتها مشاعر الضيق جراء عجزه عن تخصيص لحظات قليلة للجلوس معها، فقط خمس دقائق، لتوجه إليه كلماتها بصوت مشوب بالحزن:
_الولد مبقاش عارف يقعد معايا خمس دقايق على بعض، أمال لما يتجوز هيعمل إيه؟

بعدما طلبت "منى" طعام الكلب، اقتربت من والدتها، وأخبرتها بكلمات مؤكدة، وقد بدت في عينيها ملامح العزم:
_خلاص يا مامي أنا طلبت أوردر وHalf An Hour هيجي.

أم قمر الدين:أوكي.

جلست منى قبالة والدتها، غارقة في لهوها بهاتفها، بينما ظلت أم قمر الدين صامتة لبرهة، تتأمل المشهد في صمت. ثم نهضت، متوجهة إلى متابعة الخادمات اللواتي كنّ يغلفن الطعام بعناية قبل أن يُرسل إلى الفقراء، فعمل جماعي دؤوب تم إنجازه بمهارة. بعد أن انتهت الخادمات من إعداد الطعام، حملنه في حقيبة السيارة، وانطلقن مع السائق عبر شوارع القاهرة، حيث بدأن في توزيع الطعام على المارة الذين دعوا لهن بالخير. بينما في القصر، وصل طعام الكلب، فخرجت منى لاستلامه، ثم حملته إلى داخل القصر، حيث أطعمت كلبها الذي راح يترقص ذيله فرحًا، في مشهد يعكس فرحة لا تنتهي. أما في منزل "أم الديب"، فقد كانت جالسة على الأرض قبالة المعلم حنفي وهو معنف بالأربطة، وقد وضعت على فخذيها طبقًا كبيرًا يحتوي على الأرز والدجاج والبطاطا، فقالت له بسخرية، وهي تلتقط قضمة من طعامها:
_الفراخ زفرة، طب والنبي ولا إنت فاهم حاجة، مش فالح غير في المعايبة على أكلي وانت أكلك أطين من الطين.

فاق المعلم حنفي، وحرك العظمة عن وجهه، في حركة عابثة تعكس قلة الاكتراث. بينما راحت "أم الديب" تميل بجسدها إلى الأمام، وتلصق وجهها به بعنف، موجهة إليه كلماتها بنبرة ساخطة، فصاحت بصوت عالٍ:
_اللي أرميه على وشك متشيلهوش! فاهم ولا لا؟ جاتك الهم سديت نفسي.

نهضت أم الديب، تجرّ قدميها نحو المطبخ لتغرف طبقًا آخر من الطعام، رغم أنها قد أفرغت بالفعل ما يكفي لإطعام ثلاثة أفراد. أما الآن، فهي في طريقها إلى وجبة تكفي تسعة أشخاص، وعادت أمام المعلم حنفي، وقد امتلأت يديها بالبط المحمر، تتلذذ بكل قضمة، مستمتعة بعذوبته وهي تلقى العظام فوق رأسه، وهو مربط اليدين، عاجز عن الحركة، وفمه مغلق باللاصق، بينما هي تملأ معدتها الجائعة، فتتلذذ بالطعام الذي سخرت منه سابقًا. وفي شقة المصيف، كانت الأسرة كلها مجتمعة حول الطاولة، حيث تنوعت الأصناف المصرية التي احتلت المكان، من الفول والفلافل إلى الجبن بالطماطم ورقائق البطاطا. كان الحديث ينساب

بينهم وهم يتناولون طعامهم بشغف، يتناقشون في ما سيفعلونه مع أم الديب عند عودتهم من المصيف. وفي وسط هذا الجو العائلي، قال "جلال" بضيق وهو يغمس قطعة من الخبز في الفول الحار، يقضمها مع المخلل، ثم أضاف:

_وبعدين يا نعمة في أم الموال ده؟

نعمة بحَيْرة:والله ما عارفة يا جلال، قولولنا يا جماعة نعمل إيه؟

ليالي برصانة:أنا هقولكم تعملوا إيه! أمكم دلوقتي ناويالكم إكمنها لقيت الكل فجأة بقى ضدها، فاحنا هنعمل إننا قلبنا عليها وإننا جايين في صفها علشان تدينا الأمان ولو مخططة لحاجة تطلعها من دماغها ونفضل شوية على الحال ده وفجأة نخترعلها أي مشكلة ونمسك فيها وتبقى جات من عندها، يعني أنا وجلال نقاطعها بمشكلة، وانتي يا نعمة تقاطعيها بمشكلة تانية، المهم مشاكلنا تبقى مختلفة عن بعض! ماهو أصل اللي مجننها مننا إننا قالبين عليها عشان موت عمكم حسين اللي هي كانت سبب فيه.

نعمة بقلق:طب ماحنا لو قلبنا عليها تاني، هترجع تخططلنا في مصيبة جديدة!

جلال برفض:لا كلامك يا ليالي مدخلش دماغي الصراحة ولا حاسه، هو إيه اللي نعمل قلبنا عليها وفجأة نتخانق معاها وكل واحد بمشكلة شكل؟ ده كلام عبيط.

ليالي بسخرية:بقى كده يا جلال؟ طب قولنا ياخويا إنت الحل يا أبو العريف!

جلال بذكاء:احنا نخلينا زي ماحنا ولما نرجع وتلاقينا كلنا قالبين عليها هتعدل نفسها غصب عنها، إنما يا خايبة لو اتعدلتي معاها هترجع بالألعن من كده!

لم يكن "عم سلامة" راضيًا عما يحدث لابنته مع أم الديب، فقد كانت كرامته وقلق الأبوة يغليان في صدره، مما جعله يعترض على ما يجري. وبينما كان يغمس قطعة الخبز البلدي في الجبن القديم، نظراته تحمل معاني الرفض والتساؤل، فقال باعتراض:

_أنا مش راضي عن اللي بيحصل ده يا جلال! مش قولتوا هتشوفوا شقة تانية؟ عملت إيه صحيح في حوار البيت؟

جلال:لسه متأجل شوية لحد ما ربنا يسهل.

نعمة بقلق:بيت إيه ده يا جلال؟ أوعى يكون بيتنا!

جلال:أه بيتنا، مانا مش هعيش حياتي كلها مشاكل ونكد، أنا لازم آخد ليالي والعيال وأخلع من قدامها.

نعمة باستياء:إخص عليك يا جلال، وهنهون عليكم تبعدوا عننا؟

جلال:لا يا بت نبقى نشوفلكم شقة جنبنا، بس الحوار يتحل بس!

ليالي بتنبيه:والنبي يا نعمة أوعي تتكلمي قصاد أمك بنص كلمة عشان خاطري ألا دي لما بتدب بوزها في حاجة بتبوظها!

نعمة بشجن:لا متخافيش، سركم في بير، بس والنبي ما بلاش تمشوا أنا مقدرش أبعد عن ليالي! ده أنا روحي فيها.
ليالي بحنو:ولا أنا أقدر أبعد عنك وعشان كده هنشوفلك شقة معانا وخلينا نمشي كلنا بربطة المعلم.
نعمة بتبرُّم:ماشي يا ليالي.
ليالي بابتسامة:خلاص بقى يا بت متزعليش، ماحنا هنبقى سوا!
نعمة بجوى:مش زعلانة.

كان قرار جلال ببيع الشقة بمثابة صدمة قوية بالنسبة لنعمة، فقد أحاطت بها مشاعر الاستياء، إذ لم تكن تستطيع تصور الابتعاد عن ليالي، تلك التي لم تكن مجرد زوجة أخيها، بل كانت روحها وملاذها الذي تجد فيه راحة بالها. كانت متعلقة بجلال وزوجته ارتباطًا عميقًا، وكانت ترغب في قضاء أيام حياتها إلى جانبهم، لا تفارقهم. وبينما كانت تأكل الخبز بالبيض والعجوة، كان الشجن يعتصر قلبها، حتى كادت الدمعة أن تفر من عينيها، لكنّها تماسكت، محاولة السيطرة على مشاعرها تلوح في ملامح وجهها المتجهم، وفي مكان آخر، حدث أمر غامض عندما هرب ضايع من المستشفى في ظروف غامضة، دون أن يراه أحد، على الرغم من وجود الحراسة المشددة. دخلت "الممرضة" إلى غرفته بقلق، لتحقق في حالته وتقدم له العلاج، لكن سريره كان خاليًا تمامًا. فزع قلبها، وجرت مُسرعة نحو مكتب مدير المستشفى، وهي تصرخ:
_الحقني يا دكتور، المجرم ضايع هرب من المستشفى!

المدير بفزع:يا نهار أسود احنا كده روحنا في ستين داهية! يعني إيه هرب؟ هي وكالة من غير بواب؟
الممرضة بخوف:أنا دخلت الأوضة ملقيتهوش والحديد اللي كان مربوط فيه اتفك!

نهض الطبيب مسرعًا وتوجه نحو غرفة المراقبة، تلاه الممرضة التي كانت تحمل في قلبها اضطرابًا شديدًا بسبب الحيرة. طلب المدير من الموظفين أن يعيدوا تشغيل الكاميرات، فبدأ الموظف في استرجاع الفيديو، باحثًا في أجزائه عن أي دليل قد يكشف عن كيفية هروب ضايع، في أي وقت وقع ذلك، وأين كانت الثغرات الأمنية، وبينما كانت الصور تتسارع على الشاشة، نظر "المدير" إلى الممرضة نظرة مشوبة بالهاجس، فسألها بصوت منخفض، يعكس التوتر الذي يسكنه:
_انتي آخر مرة دخلتيله كانت من امتى؟

الممرضة باضطراب:من ساعتين بس.

استدار "الطبيب" نحو الموظف، مُحْدِقًا بنظرات تفيض بالحزم، ثم أمره بإعادة الكاميرا، قائلاً بصوت يعلوه سلطان القرار:
_رجعلي الكاميرات في آخر ساعتين!

الموظف باستفسار:هو هرب ولا إيه؟
الطبيب:هرب أه لكن لسه هنتأكد.

أعاد الموظف تشغيل كاميرا المراقبة، مستعرضًا تسجيل الساعتين الأخيرتين بعناية، حتى تأكد بلا ريب أن ضايع قد فرّ هاربًا، بينما رجال الأمن يلاحقونه بجهد مستميت. لم يجد سبيلًا للهرب إلا عبر نافذة الغرفة، التي اقتلع قضبانها الحديدية بيديه العاريتين، ثم حملها وهرب بها كمن يستهزئ بالقيود. عندها، صرخ "الطبيب" بصوت تهتز له الغرفة، قائلًا:
_هرب! احنا روحنا في ستين داهية.

لقد فرَّ ضايع هروبًا تكتيكيًّا، فما فتئ أن تَسَبَّبَ في إخفاء أثره بمهارة، كما لو أنه خَلَقَ مسارًا من الظلال لا تُدْرَكُهُ العيون. وما لبث الخبر أن وصل إلى وزير الداخلية في لحظةٍ، فتبين له أن الحراسة المشددة لم تكن إلا سرابًا ضاع وراءه الأمل، بل كانت سببًا في خرابٍ لم يكن في الحسبان، إذ أُطلقَتْ حراساتٌ أخرى في أرجاء المدينة، منتشرة في كل صوبٍ لتلتهم الأرض بحثًا عنه. وفي منزل العروس سارة، خطيبة قمر الدين، حيث تَجَمَّعَتِ الأسرتان في الصالون يَتَلَذَّذُونَ بأطيب الفاكهة، ويمتزج سُكْرُ العصيرِ بنغمة الضحكات، والخادمات يتحرّكنَ كظلالٍ رقيقة بين الحضور، كان الاتفاق بين باسم وأهل العروس قد شارف على الاكتمال، فتناثرت الكلمات في الهواء حول تفاصيل الزفاف، الذي سيمثل بداية جديدة. وعلى وجه "والد العروس"، ارتسمت ابتسامةٌ، تحمل في طياتها حروفًا من الأمل، وقال:
_إن شاء الله هنكون متفقين جدًا ومش هنختلف في أي حاجة.

باسم ببشاشة:ربنا ما يجيب خلاف أبدًا.
رشدي بتبسم:يارب، احنا عايزين شقة دوبلكس في الـ Nile City.
باسم بسرور:احنا تحت أمرك في كل اللي تطلبه!
رشدي ببسمة:ربنا يخليك.

الشقق هناك تُباع بملايينٍ من العملات، فهي غاليةٌ للغاية، ولكن باسم، ذلك الملياردير الذي يَجُودُ بثرائه حتى ليتجاوز المدى، قد يكون أعلى من هذا بكثير، حتى أن غناه يتخطى تصوُّرات العقل. وفي تلك اللحظة، قطع رنين هاتفه المحمول السكون، فنهض "باسم" من على كرسيه بنباهةٍ تامة، وعيناه تعكسان اهتمامًا شديدًا، وقال لأهل العروس:
_عن إذنكم، هرد على التليفون.

رشدي بتبجيل:أه طبعًا، اتفضل!

خرج باسم إلى الحديقة، حيث نسيم الهواء يلامس وجهه بلمساتٍ باردة، فاستجاب للمكالمة بكل تركيز، قائلًا بصوتٍ عميقٍ:
_ألو مين؟

مدير المستشفى:ضايع هرب من المستشفى وقلبنا عليه الدنيا كلها ومحدش فينا لاقيه!
باسم بصياح:ماهي كوسة، لما بلطجي زي ده يهرب تبقى كوسة، دي كارثة بكل المقاييس! هو ده اللي اتفقنا عليه؟ أنا هقفلكم المستشفى دي وأبقوا بيعوا مناديل على الطريق! باسم لما يؤمر حد أوامره تتنفذ بالحرف! ضايع ده يطلعلي من تحت الأرض، مفهوم؟
مدير المستشفى بخرع:حاضر.

قفل باسم الهاتف وهو غارق في غضبٍ عارم، فملامح وجهه تكاد تتجسد فيها غيومًا من التوتر، ثم عاد إلى موضعه على الكرسي، وكأنما حِملٌ ثقيلٌ قد ألقي على قلبه، وفي تلك اللحظة، تجلّت "أم قمر الدين" ، وقد أضاء وجهها بسؤالٍ ملؤه الاهتمام، فقالت:
_في إيه يا باسم؟

قمر الدين بارتياب:هرب صح؟
باسم بتضايق:هرب بس أنا مش هسيبه وهجيبه لو كان في سابع أرض!
رشدي:اهدى يا باسم، أعصابك تتعب! وهو هرب ازاي وانت بتقول إن كان في حراسة مشددة قصاد أوضته؟
باسم بندم:من غبائي أخدتهم عشان كنت محتاجهم معايا في مشوار، ياريتني كنت سيبتهم ولا كل ده كان حصل!

أم قمر الدين بهاجس:ضايع لازم حل نهائي معاه لازم يسرعوا بإعدامه وإلا لو اتمسك هيهرب تاني زي ما عملها قبل كده!
باسم بتشوُّش:ده اللي هيحصل، على العموم أنا هرجع حراسة تاني على باب عمارة جميلة.
رشدي:ده تصرف مظبوط يا باسم، اعمل كده قبل ما يروح عندهم!
قمر الدين:خليك يا بابا! أنا هعمل كل حاجة مكانك!

أخذ قمر الدين الهاتف المحمول بيدٍ مرتجفة، ثم توجه إلى الحديقة ليجري مكالمةً، وهو عازمٌ على تصحيح الأمور بعد الكارثة التي داهمت حياتهم فجأة، كالعاصفة التي لا تبقي ولا تذر. أما في الصالون، حيث كان باسم غارقًا في همومه، قد علا وجهه عبوسٌ يعكس ما يعتمل في صدره، فنهضت "والدة العروس"، وتقدمت إليه بخطوات هادئة، ثم قالت له بصوتٍ رقيق، لكنه مشبع بالثبات:
_معلش يا أستاذ باسم، أنا هقوم أعملك ليمون يهدي أعصابك شوية.

أم قمر الدين بتعحب:هي الشغالة مشيت ولا إيه؟
والدة العروس:طبعًا من بدري، هحكيلك بعدين! عن إذنكم!
أم قمر الدين:اتفضلي.

دخلت والدة العروس إلى المطبخ بعزمٍ، عازمةً على إعداد المشروبات بنفسها بعدما غادرتها الخادمة المصرية التي كانت قد أضأت المكان بحضورها، ليحل محلها اثنان من البنغال في مساء الأمس، لا يعرفان من المأكولات إلا ما هو مألوف في بلادهما، وسيحتاجان إلى وقت طويل كي يتقنوا الوصفات المصرية بمذاقاتها المتنوعة. أما في الحديقة، حيث كانت الأجواء تتنفس الهمس، قال "قمر الدين" لأحد الحراس في الهاتف بحزمٍ لا يخلو من القلق:
_ألو يا خيري! ارجع إنت ومنعم على عمارة جميلة هانم... لا لا على باب العمارة، ممنوع تطلعوا فوق! بس قبل ما تعملوا كده اطلعوا اتأكدوا إن العمارة مفيهاش اللص الحقير ده وبعدين انزلوا واستقروا تحت!... تمام مع السلامة.

ثم عاد "قمر الدين" إلى كرسيه بين أسرة خطيبته، وعيناه تحملان همساتٍ من القلق على والده المنزعج، فكأنما وجد في قلبه رغبةً ملحة لتهدئة العاصفة التي تعصف بمشاعره. نظر إليه بعينٍ هادئة، وسعى ليطمئنه، فقال بصوتٍ هادئ لكنه حاسم:
_خلاص يا بابا أنا قولتلهم اللي إنت عايزه.

رشدي:خلاص بقى يا باسم مش كده!
باسم بهدوء:ماشي، كنا بنقول إيه؟

عادت العائلة لتبادل الأحاديث، وقد ارتسمت على وجوههم ملامح التآلف، فكان والد سارة يجتهد في بث الطمأنينة إلى نفس باسم، مستنفدًا كل وسيلة ممكنة لتهدئة ما اعتمل في صدره من قلق. أما والدة العروس، فكانت منهمكة في إعداد مشروب الليمون المثلج، ذاك الشراب الذي حمل في نكهته البرودة، وكأنما يسري في الأرواح ليخفف التوتر. خرجت به أخيرًا وهي تعلوها بشاشة المُضيف، فقامت بتوزيعه على الجميع، ثم جلست بينهم تُشاركهم أطياف الحديث حول تفاصيل زفاف قمر الدين وسارة، في جو يفيض بالألفة. أما في شقة أحمد، فقد كان جالسًا على سريره، متأملًا شاشة هاتفه كأنما يحاول فك رموز أفكاره المبعثرة. فجأة، قطع صمت المكان صوت جرس الباب يرن رنّة ملؤها الغموض. نهض أحمد على عجل، واتجه نحو الباب بخطوات يملؤها الفضول، ليفتحه ويجد أمامه رجلًا غريبًا، مهيب الطلعة، يرتدي بدلة سوداء توحي بالجدية. كان الرجل أقرب ما يكون إلى الحرس، فما كان من "أحمد" إلا أن سأله بفضول لا يخفى:
_مين؟

الحارس بجدية:احنا حرس باسم بيه، وواخدين أوامر منه إننا نفحص العمارة، ونستقر تحت على باب العمارة لحمايتكم.
أحمد بدهشة:حمايتنا من إيه؟ ماهو ضايع خلاص اتسجن!
الحارس:دي أوامر.
أحمد:طيب اتفضل!

غادر الحارس بخطوات واثقة، تاركًا خلفه ظلالًا من التساؤلات في ذهن أحمد، الذي أغلق الباب برفق وكأنه يغلق على فضول يتنامى بداخله. عاد إلى غرفته متثاقل الخطى، محاولًا استيعاب ما حدث. وفي تلك اللحظة، اخترق سكون المكان صوت هاتف "جميلة" يرن بإلحاح، فاستجابت للمكالمة بنبرة يلفها الاحترام. وحينما سمعت صوت والدتها من الطرف الآخر، قالت بصوت تغلبه المودة:
_أه يا مامي...ليه في حاجة ولا إيه؟

أم قمر الدين:طبعًا في، ضايع هرب من المستشفى!
جميلة بصراخ:هرب تاني؟ يارب بقى كده كتير أوي، كده أوفر! يعني هيجي تاني؟ المرة اللي فاتت خطف سيليا، المرة الجاية هيعمل إيه؟
أم قمر الدين بتقيُّد:أنا مش عارفة أتكلم كويس! بس اللي أقدر أقولهولك إن باباكي بعت حرس لحمايتكم.
جميلة بخوف:أوكي يا مامي.
أم قمر الدين بتبسم:هكلمك لما أرجع، لأننا عند سارة.
جميلة بضيق:أوكي.
أم قمر الدين بابتسامة:باي يا حبيبتي.
جميلة بقلق:باي.

انتهت المكالمة بين جميلة ووالدتها، لكن كلماتها ظلت عالقة في ذهنها كصدى لا ينقطع، فتسللت رهبة مبهمة إلى أعماق قلبها، وكأنها تستشعر شيئًا خفيًا وراء الأفق. جلست على طرف السرير بجوار زوجها، مترددة بين البوح والصمت، فيما كان "أحمد" يتأمل ملامحها بعينين تشعان اهتمامًا. لم يستطع كبح فضوله أمام ما رأى من اضطرابها، فسألها:
_في إيه يا جميلة؟

جميلة بتردد:خالك هرب.
أحمد بفطنة:علشان كده بقى عمي بعتلنا حرس.
جميلة برهبة:أنا كنت حاسة إنه هيهرب! بس كنت بكدب نفسي، يارب أعمل إيه؟ ده مجرم! أنا بجد خايفة على البنات أوي.

أحمد بثقة:متقلقيش يا جميلة! أنا هجيب حرس على حسابي ويبقوا معانا في كل حتة ووقتها ضايع مش هيقدر يقربلنا لحد ما يتمسك تاني ويؤمروا بإعدامه!
جميلة بخوف:كل ده مش هيغير أي حاجة من خوفي عليهم! احنا لازم نمشي من العمارة دي و نغير المكان! أنا مش هستنى لما بنت من البنات يحصلها حاجة بسببه!
أحمد باستجابة:حاضر يا جميلة بس استني شوية لما نشوف مصيره إيه!
جميلة بتوجُّس:لا لا لا أنا مش هستنى دقيقة كمان! إنت حالًا تنزل تشوف شقة في كمباوند تاني ولا شقة ليه؟ خلينا في ڤيلا أحسن.

أحمد بلُطف:يا حبيبتي مانا مش جاهز لموضوع الڤيلا ده دلوقتي! وبعدين احنا لازم نرجع شغلنا تاني، احنا من ساعة ما سافرنا بطلنا نروح الشغل وأجازتنا طولت أوي!
جميلة بِارتعاب:ازاي هقدر أروح شغلي وأنا خايفة على البنات يبقوا هنا لواحدهم؟ ماهو ممكن جدًا يتهجم على هايدي والبنات.
أحمد:بس هايدي هتقدم على المدرسة اللي جنبنا وهتنزل شغلها تاني، وزياد هيبقى في شغله وكلنا هنكون في شغلنا، يبقى هنضطر إننا نوديهم لطنط وهناك أمان عن هنا.
جميلة:أوه مش معقول، ده أنا نسيت خالص إن هايدي هتنزل شغلها قريب! خلاص هنستنى شوية ونشوف إيه هيحصل!

لطالما كان قلب الأم أشد حذرًا من الرياح العابرة، يخشى على أبنائها حتى من ذرة غبار قد تحمل أذى خفيًا، وهكذا كان حال جميلة، يزداد خوفها اضطرامًا حين بلغها خبر هروب ضايع. هذا الشخص الذي لا يترك لهم مجالًا للشعور بالأمان، فبعد كل نزاع، يتربص بهم كالظل الباحث عن الانتقام. كانت أفكارها تدور في رأسها كدوامة لا تعرف الاستقرار، كل نبضة من قلبها تسارع الأخرى وهي تترجم خوفها المتصاعد. لكن أحمد، بثباته، كان دائمًا يحاول تهدئة عاصفتها الداخلية، يزرع كلمات الطمأنينة كأنها أزهار ربيع في أرض قاحلة. أما في شقة هايدي، فقد كان الجو مشبعًا بالحركة. كانت تجمع أوراقها بعناية، تضع شهادة تخرجها في الملف مع صورها ومتطلبات الوظيفة التي ستقدمها للمدرسة، وهي تحلم باللحظة التي تحقق فيها حلمها بأن تصبح مُعلمة. في الزاوية الأخرى من الغرفة، كان "زياد" يقف أمام المرآة بكل ثقة، يضبط خصلات شعره بحركات مدروسة كأنها لوحة يرسمها. مضيفًا إلى هيئته إشراقة مميزة. بينما هو منهمك في العناية بمظهره، التفت نحو هايدي وسألها بلهجة مرحة:
_وانتي هتقدمي في مدارس حكومية ولا خاصة؟

هايدي بجَزَع:هقدم في مدرسة إنترناشونال اللي سيليا فيها، بس خايفة أوي ميقبلونيش!
زياد باستغراب:ومش هيقبلوكي ليه؟ مانتي ما شاءالله عليكي معاكي بكالوريوس تربية لغة عربية، ومستواكي في الإنجليزي حلو وعندك خلفية عن كل حاجة بتحصل في الحياة.

هايدي بقلق:ادعيلي يا زياد أصل المدارس دي مش زي المدارس اللي عندنا في البلد! أقدم كام ورقة ويقبلوني وخلاص! لا دي في انترفيو وكام حاجة كده وبصراحة خايفة.
زياد باطمئنان:متقلقيش من حاجة، وهتتقبلي وهتقولي زياد قال!
هايدي بتمني:يارب يا زياد يارب، أنا كده جمعت الأوراق المطلوبة هشيلها فوق بقى وإن شاء الله الصبح نروح نشوف.

زياد بابتسامة:ماشي يا حبيبتي..طب بقولك، نطلب أكل بقى؟
هايدي بتعجب:ليه؟ مانا كنت هجهز الأكل!
زياد بحنو:ماهو احنا عايزين ننام بدري ونصحى بدري خصوصًا يعني إن الإنترڤيو المفروض بتكون على تسعة أو عشرة الصبح!
هايدي بخجل:مش عايزة أكلفك حاجة بجد!
زياد بحنان:أوعي تقولي كده تاني! قوليلي إنتي عايزة إيه وأنا هطلب!

لم ترغب هايدي يومًا في تحميل زياد عناءً أو تكليفًا، فقد كانت ترى خدمته شيئًا أقرب إلى العطاء غير المشروط، لدرجة أنها كانت على استعداد للتضحية بميعادها المهم غدًا إن لزم الأمر. فقد كان عليها الاستيقاظ مبكرًا لمرافقته إلى المقابلة الوظيفية في المدرسة، أما زياد، فبكل حب، أظهر تقديره لتلك الروح النقية. أمسك بهاتفه، وطلب وجبتين تُرضيان رغبتها، كما لو أنه يقرأ أمنياتها قبل أن تعبر عنها.

بينما كان زياد ينجز طلب الطعام، استغلت هايدي اللحظة لتُكمل ترتيب أوراقها بعناية فائقة، ثم وضعتها في حافظة أنيقة وأودعتها داخل خزانة الثياب كأنها تخزن بها جزءًا من طموحها، وفي اليوم التالي، ومع خيوط الصباح الأول، نزل زياد وهايدي معًا باتجاه المدرسة، يحدوهما أمل جديد. كانت المدرسة كبيرة وعظيمة الهيبة، بواجهات زجاجية لامعة وحدائق مُنسقة تنطق بالفخامة، إذ كانت إحدى المدارس الدولية التي تحمل طابعًا مختلفًا في تصميمها. نظر كل منهما إلى الآخر بابتسامة صغيرة، فقال "زياد" :
_الله، كل دي مدرسة؟ ده أنا مكنتش عايش.

هايدي بذهول:أنا حاسة إنها مول، يارب أتقبل هنا يارب.
زياد بأمل:بإذن الله يا حبيبتي هتتقبلي، أنا واثق خير في ربنا وتيجي كل يوم على المنظر الحلو ده، طب إيه؟ ما تشوفيلي شغل معاكي هنا!
هايدي بضحك:لا يا حبيبي إنت معايا بكالوريوس تجارة، يعني هناك في البنك مش هنا!
زياد بإفترار:طب وإيه المشكلة؟ ما أمسكلهم الحسابات في المدرسة!
هايدي بتفكير:تصدق ممكن! تعالى نسأل!

كانت هايدي تحمل في قلبها أمنية خفية، تود لو أن زياد يقدم أوراقه للعمل في نفس المدرسة بوظيفة تناسب تخصصه كخريج كلية التجارة، ليعمل في قسم الحسابات. فكرة أن يجتمعا في مكان واحد ويكملان مشوار العمل معًا كانت تمنحها شعورًا بالأمان وتزيد من ثقتها بنفسها، وكأن وجوده بجانبها يمدها بقوة مضاعفة لمواجهة الحياة. حينما توغلت هذه الفكرة في رأسها، لم تتردد في اتخاذ الخطوة الأولى. وقفت بجانب زياد واتجها معًا إلى مكتب التقديم، وكأنهما يسيران نحو تحقيق حلم جديد. كان المكتب مرتبًا بعناية، والموظفة الجالسة خلفه تبدو منشغلة بين الأوراق وشاشة الحاسوب. اقتربت هايدي بخطوات هادئة لكنها واثقة، وألقت التحية على الموظفة بنبرة ودودة، ثم سألتها عن إمكانية تقديم زياد للعمل في قسم الحسابات. رفعت "الموظفة" رأسها بابتسامة خفيفة، وبعد لحظة من التفكير، أجابتها بنبرة حاسمة تخلو من التردد:

_طبعًا ينفع، إيه اللي قل نفعه بس؟

هايدي:طيب وظيفته هنا هتكون إيه؟

الموظفة:هيمسك المحاسبة المالية هنا في الـ School، وهيكون له مكتب! ومرتبه هيكون حلو هيعجبكم، بس لازم يقدم أوراقه الأول وهيتعمله Interview.

هايدي باكتراث:إيه الأوراق المطلوبة؟

شرحت الموظفة الأوراق المطلوبة لتعيين زياد في قسم الحسابات، وكان شرحها دقيقًا، مما جعل الأمل يتجدد في قلوبهم ويزداد رسوخًا في أذهانهم. باتت الفكرة أقرب إلى الواقع، وأخذ كل منهما يتخيل مستقبله في هذا المكان الفخم، يعملان جنبًا إلى جنب. أما في مكان آخر، حيث يختلط المشهد بين العبث والمرارة، استيقظ "المعلم حنفي" ليجد نفسه ملقى في مياه الترعة، تحيط به القاذورات التي خلفها الريفيون، تطفو حوله الحيوانات النافقة في مشهد كاد أن يقتل ما تبقى من اتزانه. شعر بثقل معدته التي امتلأت من هذه المياه القذرة دون أن يدري، وكأن كل رشفة منها كانت تنذر بعقوبة من نوع آخر. نظر حوله بذهول، وجالت عيناه في المشهد الكابوسي الذي وجد نفسه فيه. لم يستطع تمالك أعصابه، فصرخ بصوت مليء بالذعر، وقال:

_آني فين؟ آني يومي أسود كنت عارف، آه يا ضهرك يا حنفي وعلى بختك المايل وعلى اللي جرالك!

نهض "المعلم حنفي" مترنحًا، وقد باغته مشهد أشد فزعًا مما تخيله، جاموسة طافية على سطح الماء، تتقاذفها التيارات حتى اقتربت منه حاملة معها مأساة أخرى. استبد به الهلع، وظل يصرخ كمن يحاول طرد الكابوس بصوته، يدفعه الأمل الباهت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. حاول الابتعاد عنها رغم ضعف جسده وثقل خطواته وسط الماء، وبأنفاس متقطعة ونبرة أثقلها التعب، قال بصوت عالٍ كأنه يشكو لحظته المريرة:

_منك لله، آه منك لله، منك لله يا بسمة.

نهض بصعوبة بالغة، مستندًا بيد مرتعشة على جذع شجرة شامخة، وجسده يقطر ماءً كأنما عانق البحر في لجّته. سار مترنحًا صوب بيته، والعيون تترقبه في دهشة، حتى إذا بلغ مشارف الدار، لمحه "أحد جيرانه"،

المرتدي جلبابًا تقليديًا تنضح عليه ملامح البساطة الريفية، فاقترب منه بخطًى حثيثة، وسأله بصوت حنون يحمل قلقًا ظاهرًا:

_مالك يا معلم حنفي؟ إيه اللي عمل فيك كده؟ وإيه اللي مغرق هدومك؟

المعلم حنفي بحسرة:بسمة هي اللي عملت فيا كده، ضربتني وعدمتني العافية ومكفهاش! صحيت لقيتني نايم في قلب الترعة!

الجار بشفقة:لا حول ولا قوة إلا بالله، تعالى معايا يا حاج لا تكمل عليك وتموتك إكمنها فتوة ومحدش قادر عليها!

أخذ الجار المعلم حنفي إلى بيته بحفاوة، حيث ساعده على الدخول واعتنى به. أشار المعلم حنفي إلى حاجته للاغتسال وتبديل ملابسه، فأظهر الجار شهامة وكرمًا عندما قدم له المساعدة دون تردد، مجسدًا وصايا الأخلاق الحميدة التي تجمع بين الجيران. دخل المعلم حنفي إلى المرحاض، وبعد أن استحمى وبدّل ملابسه، انفجر في بكاء غائر وهو يردد التساؤلات عن أحوال الدنيا التي تغيرت حتى أصبحت النساء تعتدي على الرجال، مسترجعًا ذكرياته بمرارة. في مكان آخر، عند هايدي، اكتمل تحضير الأوراق اللازمة، فتوجهت لإجراء مقابلة العمل. انتظرت في الخارج قبل أن تدخل إلى القاعة، وبعدما دخلت خضعت لمجموعة من الأسئلة التي أجابت عليها بسرعة وثقة. كان زياد يراقبها من خلف الزجاج، متأملًا حضورها بابتسامة تحمل مشاعر خفية. انتهت المقابلة وأُبلغ المدير، هايدي بأن الرد سيأتي خلال عشرة أيام. غادرت المكان بابتسامة عذبة، بينما ظل "زياد" يتابعها بنظرات مليئة بالإعجاب، وسألها:

_ها طمنيني، عملتي إيه؟

هايدي بسكينة:الحمدلله جاوبت، بس هيردوا عليا بعد عشر أيام.

زياد بفرح:براڤو عليكي أنا كنت متأكد إنك هتجاوبي، طيب هنيجي تاني ولا هما اللي هيبعتولنا؟

هايدي:لا هما اللي هيبعتوا على الإيميل بتاعي.

زياد بفخر:أنا مبسوط بيكي بجد!

هايدي بسعادة:أنا اللي مبسوطة أوي إن ربنا بعتلي أحسن إنسان في الدنيا! واقف جمبي ودايمًا في ضهري، بجد مش عايزة حاجة من الدنيا تاني غير إنك تكون جنبي دايمًا.

زياد يشعر بفخر عظيم لوجود هايدي في حياته، إذ يرى فيها شريكة ملهمة تستحق كل الدعم والتشجيع، فلا يتوانى عن دفعها بثبات نحو تحقيق أحلامها. من جانبها، تُكنّ له هايدي حبًّا عميقًا، ممتنة لعطائه اللامحدود، مما زاد من تعلقها به وترسيخ عشقه في قلبها. اقترب "زياد" منها، وأمسك يدها برفق، ثم جذبها نحوه وقبّلها بحنان عاطفي يعكس مشاعره، مانحًا لحظتهم سحرًا استثنائيًا، قائلًا:

_وأنا دايمًا جنبك يا أحلى هايدي في الدنيا كلها، ربنا يخليكي ليا يا حبيبتي وأشوفك دايمًا ناجحة.

غمرت "هايدي" مشاعر الفرح التي اجتاحت قلبها، فلم تتمالك نفسها واقتربت منه لتحتضنه بقوة، معبرة عن امتنانها وسعادتها البالغة بوجوده في حياتها، قائلة:
=بحبك!

زياد بعشق:أنا اللي بحبك أوي، يلا بينا!

بذلت هايدي قصارى جهدها في السعي وراء الوظيفة التي طالما حلمت بها، والآن تركت كل شيء بين يدي الله، تاركةً بقلبها يقينًا تامًا برحمته. خرجت برفقة زياد إلى أحد المقاهي الراقية في المدينة السكنية، حيث جلسا في أجواء هادئة تملؤها الموسيقى الخفيفة، وكلٌ منهما غارق في أفكاره، بينما النادل يتنقل بين الطاولات يقدم الخدمة. نظرت "هايدي" حولها بعينٍ مملوءة بالإعجاب بجمال المكان، ثم عبّرت عن فضولها قائلة:
_ودي بقى أعتبرها بمناسبة إيه؟

زياد بتولُّة:اعتبريها بمناسبة إنك إن شاء الله كمان عشر أيام هتتقبلي في المدرسة.
هايدي بضحك:بس خد بالك إنت حطيت الموضوع ده في دماغي وأنا مش ههدي ولا أرتاح إلا لما تكون معايا في نفس المدرسة!
زياد ببشاشة:والله أنا هقدم أوراقي ولو اتقبلت يبقى كويس جدًا، خصوصًا إننا هنروح ونيجي مع بعض كل يوم!
هايدي بمزاح:ونبقى مع بعض في البيت والشغل وكل مكان، وكده متقدرش تلعب بديلك وأنا بعيد عنك!

زياد بتعشُّق:اللي يبقى معاه القمر ده كله ميقدرش يبص برا! أنا عينيا مابتشوفش غيرك ولا عمري أقدر أبص لغيرك! أنا اتعلمت من أبويا ازاي أكون"ابن أصول" وعيني مليانة وأرضى باللي ربنا اداهولي، عارفة يا هايدي؟ بابا عمره ما بص لواحدة تانية غير أمي وكان دايمًا بيعاملها بما يرضي الله، أنا أه كنت صغير ومفتكرش حاجة، بس اللي يثبت كلام أبويا إنها حتى بعد ما اتوفيت مقدرش يتجوز غيرها! قالي "أمك مكانها مليان وعمره ما يفضى أبدًا حتى لو غابت" كنت بقوله يتجوز لأن ده حقه، لكن كان رافض لسببين؛ وهو حبه لأمي وإنه مش عايز يتجوز واحدة وتبهدلني، أبويا ضيع عمره كله عليا لحد ما كبرت وبقيت زي مانتي شايفة كده.
هايدي باستياء:عارفة والله وده اللي مطمني إن اللي مربيك راجل، أنا أفتكر طنط الله يرحمها لما كنت زمان أوي باجي أنا وأحمد عندكم ونبات بالأيام، والله كنت بحس بحنية الأم فيها رغم إنها مش هي اللي خلفتني، إنما اللي خلفتني نفسها مكنتش بحس منها ربع الإحساس ده! أنا عيشت عمري كله وأنا حاسة إن أنا يتيمة الأم!
زياد بدهشة:أنا بستغرب جدًا لما بشوف مرات عمي بتعاملكم المعاملة القاسية دي، بقول ازاي دي أمهم؟ فين غريزة الأمومة؟ ازاي انتوا حتة منها وبتعمل فيكم كل ده؟فعلًا الأم اللي ربت مش اللي خلفت.

هايدي:لو طنط كانت عايشة كانت عوضتني عن الإحساس ده، هما بيقولوا الحما صعبة مع مرات ابنها، بس هي الوحيدة اللي كانت هتكسر القاعدة دي وهتثبتلنا قد إيه هي أحن أم في الدنيا!
زياد بتعاسة:ربنا يرحمك يا أمي ويرحمك يا أبويا.
هايدي ببسمة:خلاص يا زياد! احنا مش جايين هنا نقلب المواجع! تعالى نتكلم في أي موضوع تاني.

بينما كان الحديث بينهما يسير في مسار مليء بالرومانسية، انحرف النقاش فجأة نحو ذكريات حزينة وأحداث معكرة للصفو، مما أثقل الأجواء التي كانت تنبض دفئًا. شعرت هايدي بانزعاج من هذا التغيير، فبادرت، بروحها المشرقة، إلى قطع ذلك الخيط الحزين، معبّرة عن رغبتها الصادقة في أن تبقى هي وزوجها في حالة من الغبطة دون أن يُفسد اللحظة أي حديث كئيب. بحنانها المعتاد، دعت زياد لأن يركزا على الجمال من حولهما، وأن يستمتعا بما يقدمه الحاضر من نعيم بسيط لكنه ثمين.

يتبع....

الفصل الثالث عشر

طلب زياد مشروبات مثلجة وتشيز كيك بالفراولة له وهايدي، إذ كان حديثهما مفعمًا بالتفاؤل، ينبض بالأمل تجاه المستقبل، وكأنهما يرسمان لوحة زاهية لأيام قادمة. وفي الجوار، كان المشهد مختلفًا تمامًا، حيث أثارت أمور المعلم حنفي دهشة الجار، الذي لم يُخفِ استغرابه من صبر المعلم وتحمّله العجيب لأم الديب.

خرج المعلم حنفي من المرحاض بعد أن رتّب هيأته وارتدى ثيابه بعناية، ثم جلس برصانة بجوار الجار في مدخل المنزل العتيق، الذي كان يزدان بنفحات التراث الريفي الأصيل، حاملًا في زواياه حكايات الزمن الغابر. عندئذٍ، وبنبرةٍ يغلب عليها الذهول، التفت "الجار" إلى المعلم حنفي وقال:

_انت ليه مطلقتهاش لحد دلوقتي يا حاج؟

المعلم حنفي بتعاسة:لو أخوها إتكل على الله ومات هطلقها، ماهو اللي واقفلي زي الخازوق، هو إنت فاكر إن آني مكمل معاها علشان سواد عيونها؟ ده ممضيني على أوراق توديني في داهية! ده غير إيده اللي متتوصاش في ضرب النار، ده ممكن يطخني عيارين نار يجيب أجلي لو وصله الكلام ده.

الجار بدهشة:هو مش اتسجن؟

المعلم حنفي بتأكيد:أه اتسجن، بس هيهرب منها زي ما عملها قبل كده، هو اللي زي ده حد يقدر عليه؟

الجار بشفقة:الله يعينك يا معلم حنفي، ده إنت غلبان وغلب الدنيا فيك.

شعر الجار بشفقة عميقة تجاه المعلم حنفي، ذاك الرجل الذي صار رمزًا للصبر والجلَد، حتى كاد أهل القرية أن يقيموا له تمثالًا شامخًا في مدخلها، تخليدًا لسنواتٍ طِوالٍ قضاها متحمّلًا عبء العيش مع أم الديب، وحين بلغ الكلام مبلغ القلب المثقل، نهض "المعلم حنفي" من على الكرسي بخطى مثقلةٍ بالآلام، وقد غرغرت عيناه بدموعٍ عصيّة، تروي حكاية جرحٍ دفينٍ أنهك الروح. ثم نطق بصوت يتهدّج بالحسرة:

_ادعيلي يا حاج.

الجار بتأثر:الله يعينك وينصرك على مراتك.

المعلم حنفي بأسى:يارب.

نهض "الجار" من على الكرسي وكأنما أثقلته كلمات المعلم حنفي، فلم يجد في نفسه إلا أن يُجاريه في حركته، علّه يلتقط خيط الحكاية الموجعة. أدار وجهه نحو المعلم بعينين متسائلتين، ثم سأله بصوت متردد:

_طب إنت رايح فين؟

المعلم حنفي باستياء:رايح لأخوها أبو محمد.

الجار:ربنا معاك، توصل بالسلامة.

غادر المعلم حنفي بخطوات متثاقلة، تتقاذفها همومه كما تتقاذف الرياح ورقة خريف ذابلة، وخرج من المنزل مُتجهًا نحو دار أبو محمد، عله يجد عنده معينًا أو نصيرًا يخفف من وطأة ما أثقل كاهله. أما "الجار" ، فقد تبعه وقد علا وجهه الحزن، وخرج وهو يضرب كفًا بكف في حسرة لا تخفى، قائلًا بشفقة:
_لا إله إلا الله.

بعد مضيّ برهةٍ من الزمن، وصل المعلم حنفي إلى دار أبو محمد، شقيق أم الديب، وقد بدا عليه التعب وكأن الأميال التي خطاها اختزلت سنوات من الصبر. وقف أمام الباب العتيق الذي تشوبه آثار الزمن، ورفع يده بتردد، ليطرق عليه طرقاتٍ ثقيلة. لم يطل انتظاره حتى فُتح الباب ببطء، لتظهر من خلفه "زوجة أبو محمد" "الثالثة" ، امرأة منتقبة تتشح بالسواد، يعكس حضورها هالة من الحياء. وقفت بخجل، تحني رأسها نحو الأرض، دون أن ترفع عينيها، وقد بدا صوتها وديعًا خافتًا وهي تقول برهبة ممزوجة بحياء:
_يا مرحب بيك يا حاج حنفي.

المعلم حنفي باهتمام:أبو محمد هنا؟
الزوجة الثالثة بحياء:لا لسه واصل الجامع من شوية.
المعلم حنفي بحيرة:الجامع اللي هنا ولا فين؟
الزوجة الثالثة بتأكيد:أه اللي جنب البيت.
المعلم حنفي:طيب، سلامو عليكو.
الزوجة الثالثة:وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

ظلت الزوجة الثالثة لأبو محمد واقفة عند الباب، تتسلل بنظراتها خلف المعلم حنفي حتى تأكدت تمامًا من ابتعاده عن المنزل، ثم أوصدت الباب برفقٍ بالغ، وكأنها تخشى أن يثير صوت الإغلاق شيئًا من اللغط. عادت بخطوات هادئة إلى داخل الشقة، حيث ألقت جسدها المرهق على فراشها لتعود إلى نومها.

نساء أبو محمد الثلاث كن يعشقن النوم عشقًا لا يُضاهيه شيء، يتركن أطفالهن صباحًا في الكُتاب تحت رعاية أبيهم، ليظلن في سكينة وراحة لا يعكر صفوها شيء، ومع مغيب الشمس، ينهضن من قيلولتهن الطويلة، يتهيأن بإيقاع هادئ لتحضير العشاء، حيث تتشارك الأيدي في صنع الأطباق. أما المعلم حنفي، فبعدما علم بمكان أبو محمد، توجه بخطوات تعيسة إلى المسجد المجاور للمنزل، حيث وجد أبو محمد جالسًا في الصف الأمامي يختتم صلاته، وقد أسلم لتوه سلام اليمين واليسار. اقترب "المعلم حنفي" وجلس بجانبه بخشوع، ثم مدّ يده يصافحه بحرارة تنبض بما يثقل قلبه، وقال بصوت خافت:
_حرمًا يا حاج.

أبو محمد بوداد:جمعًا يا حاج حنفي، طمني عليك وعلى الأولاد!

أعدل أبو محمد جلسته بعناية، حتى صار وجهه قبالة المعلم حنفي مباشرة، وبدت على ملامحه ابتسامة ودودة، تحمل في طياتها ترحيبًا. كانت عيناه تنطقان بالاهتمام، وكأنه يقول للمعلم: قل ما في صدرك، فإن في الإنصات عزاءً. تردد "المعلم حنفي" في البداية، وقد بدت عليه علامات الحيرة، وكأن كلماته تتصارع داخله، تخشى الخروج. ثم تنهد بعمق، قبل أن ينطق بنبرة تخنقها العَبرة، قهر يوشك أن يتحول إلى بكاء مكتوم، وقال:

_آني جايلك تشوفلي حل مع الولية المسعورة اللي في البيت دي.

أبو محمد بقلق:لا إله إلا الله، إيه اللي جرا بس؟

المعلم حنفي بحسرة:خرجت من السجن، مش عارف خرجوها ازاي! هربت ولا إيه نصيبتها؟ قومت رابطها إكمن دي لو اتفكت بتعمل مصايب، والصراحة نزلت فيها ضرب ماهو من قهري. ضيعت تلاتين سنة عايش مع واحدة مطلعة عيني ومش عارف أطلقها ولا أخلع منها بسبب أخوكوا ضايع اللي مهددني وممضيني على أوراق توديني السجن ولو مدخلتش السجن هيخلص عليا!

أبو محمد بحزن:لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

المعلم حنفي بتبرُّم:قومت أعمل لقمة ترم عضمي وآني باكل لقيتهالك اتفكت بقدرة قادر ومسكتني ونزلت فيا ضرب خرشمتني وآني راجل كبير وحالتي ما يعلم بيها إلا ربنا.

أبو محمد بتأثر:لا إله إلا الله.

المعلم حنفي باستياء:أصحالك من النوم ألاقيني متكاوم في ترعة! قومت، وجاري أبو سيد خدني عنده خدتلي دش وأداني هدمة من دولابه أداري بيها نفسي... آني يتعمل فيا كده على آخر الزمن يا أبو محمد؟ ده بدل ما تبوس إيدي ورجلي؟ آني أتضرب منها؟

أبو محمد بتضايق:أستغفر الله العظيم، أختي بسمة مفيش فايدة فيها، ياما نصحناها هي وضايع، بس هقول إيه؟ الكلام يدخل من هنا ويطلع من الناحية التانية.

المعلم حنفي بقهر:هاتلي حقي منها يا أبو محمد! إنت راجل دين وحافظ كتاب الله واللي بيحصل ده ميرضيش ربنا! ده آني مش عارف أروح بيتي! ده حتى مفتاح شقة حسين أخويا مش معايا، مش عارف راح فين!

مدّ أبو محمد يده برفق إلى كتف "المعلم حنفي"، وفي تلك اللحظة، أخرج المعلم حنفي يده إلى جيبه يتحسس مفتاح منزله، ولكن ما لبث أن اكتشف بعد بحثٍ مضنٍ أنه غير موجود، ليزداد وجهه شحوبًا، وقد أدرك يقينًا أنه لن يجد مأوى هذه الليلة سوى الشارع. نظر إلى الأرض مليًا، وكأنما يخاطبها بحديث مكتوم لا يسمعه أحد، ثم رفع عينيه إلى أبو محمد، وقال بهموم:

_أهو شوفت! هبات في الشارع آني ولا أعمل إيه؟

أبو محمد بإعزاز:ده إن مشالتكش الأرض نشيلك احنا فوق دماغنا!

المعلم حنفي:الله يخليك.
أبو محمد:طب قوم يا حاج خلينا نعمل اللي علينا والباقي هنسلم أمرنا لله، قوم!

نهض المعلم حنفي متأبطًا أملًا ضعيفًا، ليذهب مع أبو محمد مُتجهين إلى منزل أم الديب، وكان في قلبه ترددٌ شديد؛ فهو يعلم أن إقناعها أمر ليس باليسير، ولكن لم يعد له خيار آخر سوى أن يلتمس من قلبها شيئًا من الرحمة كي يُبقي نفسه بعيدًا عن الشارع، ذلك الميدان المتوحش الذي قد يتعرض فيه لهجمات كلاب الشوارع الجائعة، وفي المسجد، كان الأطفال يلهون ويلعبون، يملؤهم صوت المرح والضحكات البريئة التي لا تَعي واقعًا من حولهم. قبيل مغادرة أبو محمد، أوصاهم بعدم مغادرة المسجد أو التفريط في ما هم فيه من راحةٍ حتى يعود إليهم. أما في مكتب باسم بالشركة، فقد كانت الأجواء مشحونة بشكل غير مُتوقع. تغيرت موازين الكون فجأة، وتحطمت الخطط التي كانت تُنسج في الخفاء، بعد أن بلغهم خبر هروب ضايع من السجن. الوضع الذي كان يبدو مسيطرًا عليه تحول إلى فوضى عارمة. الوزير كان يتحدث مع باسم في الهاتف، يعتذر منه خجولًا، وعينيه تلمعان بالخجل بعد أن كان قد أعد له باسم وليمة ضخمة احتفالًا بالقبض على ضايع، الذي كان يُعد من أخطر المجرمين في مصر. لكن الوضع الآن ازداد سوءًا مع هروب ضايع، الأمر الذي أفقد الوزير الكثير من هيبته أمام باسم، حاول "باسم" أن يتمالك نفسه، ثم قال بصوت هادئ:
_حضرتك مالكش ذنب في اللي حصل، حضرتك عملت اللي عليك ولكن هروبه ده راجع لعدم الأمان المتواجد بالمستشفى، وبرضة دي غلطة مني إن أنا أخدت الحرس، لو كنت سيبتهم مكنش كل ده حصل.

الوزير بثقة:متقلقش يا باسم باشا، ضايع هيتجاب صدقني! خليه يلف لفته وهيلف يلف وهيرجعلنا تاني!
باسم:محدش فينا هيسمح باللي بيحصل ده إنه يستمر كتير.
الوزير:عايزك ترتاح يا باسم باشا وتطمن تمامًا، اللي احنا فيه ده فترة مؤقتة وهتنتهي!
باسم باطمئنان:أنا مطمن من غير أي حاجة، وشكرًا لتعب حضرتك.
الوزير بتبسم:متشكرنيش احنا واحد! لو في أي جديد هبلغك.
باسم ببشاشة:تمام يا سعادة الوزير.
الوزير بجدية:مع السلامة.
باسم بضيق:مع ألف سلامة.

بعد أن أنهى باسم محادثته الهاتفية مع الوزير، الذي كان يعتذر له بسبب هروب ضايع من السجن بعد أن كان المفترض أن يحتفلوا سويا بمناسبة القبض عليه، جلس باسم في صمت داخل مكتبه. كان عقله شاردًا، يفكر في تداعيات هذا الحدث المفاجئ على سير أعماله وخططه المستقبلية. على الرغم من أنه كان محاطًا بالكثير من الأوراق والملفات على مكتبه، إلا أن ذهنه كان مشتتًا بسبب الموقف، وكان يود أن يستجمع تركيزه على العمل. لكن فجأة، دخلت إحدى الموظفات حاملةً أوراقًا تطلب توقيعه عليها، مما جعله يعود إلى الواقع بشكل سريع. كلما انتهى من التعامل مع موظف، دخل آخر، وكأن العمل في المكتب لا يتوقف أبدًا.

في مصيف رأس البر، حيث كان الجو هادئًا والمياه تدعو للراحة، كانت الأسرة تستمتع بالسباحة في البحر. كل أفراد العائلة، من رجال ونساء وأطفال، كانوا يلهون في المياه في جو من المرح، ومع ذلك، كان حمود قد توقف فجأة عن الحديث، واكتفى بالاستمتاع بهدوء تام، متأملًا في المياه، ليعبر عن شعوره بحرارة الماء، التي كانت بالنسبة له أكثر سخونة من المعتاد دلالةً على تبوله فيها. كان هناك تفاعل سريع بين أفراد الأسرة على تعليقه، خصوصًا جلال الذي أطلق تعبيرًا ساخرًا تجاهه، موجهًا له سؤالًا مستغربًا حول ما إذا كان هو من سخن المياه. ثم جاء الرد من ليالي التي عبرت عن استغرابها العارم، ما جعل الموقف يأخذ طابعًا فكاهيًا بين أفراد الأسرة. بينما كان المعلم حنفي وأبو محمد يتجهان نحو منزل أم الديب، كان المعلم حنفي في حالة من التوتر الشديد، يخشى من رد فعل أم الديب تجاهه بعد كل ما حدث. كان في حالة من القلق، خصوصًا لأنه كان يعلم مدى صعوبة إقناع أم الديب بالتصالح معه، نظرًا للشدة التي كانت تظهرها في تعاملها معه. كانت "أم الديب" جالسة على الحصير كما هي عادتها، مُنهمكة في تناول الجزر المسلوق. إذ أن طريقة تناولها للطعام كانت وكأنها تستعد للرد على ما سيحدث. وعندما طرق أبو محمد الباب، توقفت فجأة عن الأكل، وكأنها شعرت بشيء مختلف، وعندما استمعت لصوت الطرقة، ارتفعت نبرة صوتها فجأة، وهي تصيح متسائلة:

_مين اللي على الباب؟

أبو محمد:أنا أبو محمد يا بسمة.

فتحت "أم الديب" الباب ببطء، وعينيها تلمعان بوميض من الفضول، بينما كانت تمسك بالجزرة بين يديها وتتناول منها قضمة صغيرة، نظرت إلى أخيها أبو محمد، ثم وجهت حديثها إليه بنبرة مليئة بالحنان:

_يا ألف مرحب.

حينما رأت أم الديب المعلم حنفي واقفًا خلف أخيها أبو محمد، تجمدت ملامحها للحظة، ثم شعرت بشيء من الحنق يشتعل داخلها. كانت نظراتها تشتعل نارًا، وكأنها كانت على وشك أن تعتدي عليه، ولكن حاول "أبو محمد" أن يباعدها عن المعلم حنفي، ممسكًا بذراعها ليمنعها من التوجه نحوه. بصوت هادئ ولكنه يحمل نوعًا من الرفق، قال لها ليهدئ من غضبها:

_أصبري بس يا بسمة! هو أنا جايبه وجاي عشان تمدي إيدك عليه؟

أم الديب بصراخ:جايبه معاك ليه؟ بقى بتشتغلني يا أبو محمد وعامل إنك جاي لواحدك وانت جايبه معاك؟

ثم أردفت للمعلم حنفي بسخرية، وقد ارتسمت ابتسامة تهكمية على شفتيها:

=جايبهولي يا حنفي عشان يدافع عنك؟

أبو محمد بخَور:صلي على النبي!

أم الديب بهدوء:عليه الصلاة والسلام.
أبو محمد:نتكلم كلمتين من غير لا ضرب ولا شتيمة، وحياة حبيبك النبي.
أم الديب بسكينة:ماشي ياخويا خُش!

دخلت أم الديب وجلست على الأريكة، وما زالت تمضغ آخر قطعة من الجزر بين أسنانها، وكأنها تستهلك كل لحظة من هذه الهدوء الذي يسبق العاصفة. بعدها دخل أبو محمد، وتبعه المعلم حنفي، الذي كان يمشي خلفه بخطوات ثقيلة، وكل شيء حوله يبدو غريبًا بعض الشيء. نظر أبو محمد حوله بتفحص، ثم توقف نظره على التحديثات التي قامت بها أم الديب في الشقة. أصابته الدهشة حينما اكتشف أنها قامت بهدم غرفة بناتها بالكامل، لتفتح المساحة على الصالة وتوسّعها. كان ذلك قرارًا مفاجئًا، أظهر جليًا رغبتها في تغيير كثير من الأمور في حياتها، ولكن الطريقة التي اتخذت بها هذا القرار كانت غير متوقعة تمامًا. فجلس بجوارها، بينما المعلم حنفي جلس في الجانب الآخر، وكل منهما يراقب الآخر بنظرات لا تخلو من الاستفهام. ثم قال "أبو محمد" بصوت مرتجف:
_إيه ده يا بسمة؟ إنتي كسرتي أوضة البنات؟

أم الديب:أمال إيه؟ أصل الصالة صغيرة قد علبة الكبريت، قولت أوسعها شوية، وكده كده البت اتجوزت.
أبو محمد بتمني:ربنا يباركلها في حياتها ويرزقها الذرية الصالحة، بُصي يا أختاه، عايزين نتكلم كلمتين بما يرضي الله.
أم الديب بتعجب:كلمتين إيه دول؟
أبو محمد بإتزان:انتوا كبار في السن مش عيال صغيرة بتتشاكل على أتفه كلمة، ده أول هام! إنما تاني هام الإحترام ما بين الزوجين ده أساس نجاح العلاقة، يعني لا ينفع إنتي تشتميه ولا هو يشتمك! ولا إنتي تضربيه ولا هو يضربك!
أم الديب بصياح:دهو راجل قليل الربابة ويستاهل كل اللي بيجراله.

انفجر "المعلم حنفي" في وجه أم الديب، وعيناه تكادان تشتعلان من الغضب. نهض فجأة من مكانه، وضرب بيده على الطاولة التي كانت أمامه، حتى كادت تطيح بما عليها. لم يستطع كبح مشاعره أكثر، فصرخ بأعلى صوته، قائلًا:
_بقولك إيه يا ولية! احترمي نفسك!

أم الديب بعجيج:غور من هناهو يابن الكلـ* انت! إيه اللي جابك؟ انطق جاي هناهو تهبب إيه؟
أبو محمد بصخب:سكوت، مش عايز كلمة! لاحول ولا قوة إلا بالله، هو إنتي مبتعرفيش تتكلمي إلا بالغلط والسب والصوت العالي؟ يا بسمة ده جوزك وانتوا عشرة سنين وما بينكم عيال وأحفاد، اللي بيحصل ده عيبة كبيرة أوي.
أم الديب باستهزاء:إن طلع العيب من أهل العيب ميبقاش عيب.

أبو محمد بصدمة:يعني إنتي من أهل العيب؟
أم الديب بصياح:ايهي آني بتكلم عليه مش عليا! ده آني طالعة من دار محترم وبوقي دهو عمره ما يطلع منه الغلط أبدًا!
أبو محمد برجاحة:ماهو باين عليكي... بُصي يا أختاه! اعقلي إنتي وجوزك واحترموا بعض! انتوا مش عيال صغيرة ولا مراهقين، الحاج حنفي داخل على السبعين سنة وانتي داخلة على الستين سنة!
أم الديب بدلال:آني لسه صغيرة وهفضل صغيرة!
المعلم حنفي بسخرية:تفضلي صغيرة دي في حالة واحدة؛ إن الزمن يقف ونبقى ارتاحنا من بعض!
أم الديب بجلبة:مسمعش صوتك! إنت تترزع مكتوم! آني مش هسمع حد غير أخويا أبو محمد!

ثم هدأت نبرة صوتها، وتوقفت لحظات لتتأمل المعلم حنفي بعينيها التي خلت من الغضب، وحولت نظرها إلى أبو محمد الذي كان يجلس بجوارها. ثم قالت بصوت أكثر هدوءًا، لكن لا يخلو من حدة:
_اتكلم ياخويا!

أبو محمد بإجلال:أستسمحك تجيبي مفتاح شقة الحاج حسين، مش إنتي اللي خدتيه برضة؟
أم الديب بكذب:آني مخدتش حاجة!
أبو محمد:لا خدتيه وأنا متأكد، هاتيه يا بسمة ياختي وكفاياكي عناد في جوزك، ده راجل غلبان ومالوش غيرك!
المعلم حنفي ببغضاء:لا ليا غيرها عادي، خليها تجيب المفتاح بس!
أم الديب بغلاظة:قولت إيه؟
المعلم حنفي بخوف:مقولتش حاجة ووطي صوتك! آني وداني صفرت.
أبو محمد بإلحاح:قومي يا أختاه الله يهديكي! وبعدين هو احنا لينا بركة إلا انتي؟ ده إنتي أختنا الكبيرة الغالية.

نظرت أم الديب للمعلم حنفي نظرة تقزز واضحة، ثم دخلت إلى الداخل بسرعة، لتعود بعد لحظات ومعها المفتاح في يدها. دون أن تبدي أي نوع من الرحمة، قامت برمي المفتاح في وجه المعلم حنفي، وكأنها تريد أن تبعده عنها إلى الأبد. وأول ما تأكد "المعلم حنفي" أنه حصل على المفتاح، انفجر في وجهها بسبٍ عنيف، وعيناه تكاد تدمعان من الغضب. صرخ بأعلى صوته قائلًا:
_يلا يا بت الكلـ*، يتحرق اليوم اللي شوفتك فيه!

بينما كان المعلم حنفي يستعد للخروج من الشقة، ويهم بالتحرك نحو الباب، نظرت إليه "أم الديب" بنظرة ثابتة يغلفها خبث واضح، وكأنها كانت تنتظر هذه اللحظة طويلًا. تمالكت نفسها للحظة، ثم قالت له بصوت هادئ لكنه مليء بالخبث:

=يا حنفي! المفتاح اللي معاك دهو مش مفتاح شقة حسين أخوك، آني بس حبيت أجرب وألبيلكم طلبكم وأشوف هتاخد مصلحتك وتقل أدبك عليا ولا إنت جاي ندمان بحق وحقيقي!

دخلت أم الديب الغرفة وأغلقت الباب خلفها، وكأنها تسدل ستارًا من الصمت على ما جرى. أما المعلم حنفي، فقد كان واقفًا في مكانه، وعيناه تتقدان من السخط، وكان يخرج من أذنه وكأنها سحب من الدخان. "أبو محمد"، الذي كان قد شاهد ما جرى، شعر بضيق جسيم، ورغم محاولاته لتهدئة الأمور، بدا أن الوضع قد خرج عن سيطرته. فتنهد بحزن، وقال بصوت منخفض لكنه مليء بالأسى:
_كان لازم تسبها يعني يا أخي الكريم؟ استحمل بقى اللي هيجرالك منها!

ترك أبو محمد "المعلم حنفي" في الشقة وخرج مُسرعًا، محاولًا الابتعاد عن الموقف الذي أصبح يضغط عليه من جميع الجوانب. لكن المعلم حنفي لم يستطع كبح غضبه، فاتبعه على الفور، وعيناه تتطاير منها شرارات الامتعاض. وعندما وصل إلى الباب، صرخ بصوت عالٍ:
_يا أبو محمد! يا أبو محمد!

لكن أبو محمد لم يلتفت إلى صراخ المعلم حنفي، واستمر في مسيرته خارج المنزل، وكأن كل شيء وراءه أصبح مجرد صدى بعيد لا يعنى له شيئًا. أما في مكان آخر، على الشاطئ حيث كانت العائلة تلهو وتستمتع، كانت "تباهي" قد أحضرت قدر الملفوف على البحر، وجلس بالقرب منها عم سلامة. كان الهواء عليلًا، وأمواج البحر تتلاطم برفق. أخذت تباهي تغرف الطعام في طبق عم سلامة، وكانت عينيها تلمعان بالسخاء، وكأنها تجد في تقديم الطعام نوعًا من المُتعة. وقالت له بابتسامة عريضة، وهي تمده بالطبق:
_كُل يا حاج بألف هنا وشفا!

عم سلامة باشتهاء:تسلم إيديكي.
تباهي بلُطف:بألف هنا.

ثم التفتت نحو محمد، الذي كان يلهو مع حمود في الرمال، وتستمتع برؤية الأطفال وهم يركضون ويلعبون بحرية. رفعت يدها وأشارت له بابتسامة حانية، ثم قالت بصوت مرتفع قليلًا لتصل إليه:
_محمد روح اندهم يجوا ياكلوا!

محمد:ماشي.

نهض محمد بسرعة وركض باتجاه باقي أفراد العائلة ليخبرهم بقدوم وقت الطعام، بينما كانت تباهي تتفاخر بحرفيتها في إعداد الطعام، وتغرف الملفوف "المحشي" في الأطباق بدقة. أما "عم سلامة"، فقد كان

مستغرقًا في تناول الكوشة المحشوة بالأرز بالخلطة الطيبة، وهو يتذوق كل قضمة كأنها تجربة جديدة. أعجب كثيرًا بنكهة الطعام، وكان ينظر إلى زوجته بابتسامة امتنان قائلًا:
_يا سلام على الطعامة، إيديكي دي تتلف في حرير في عمايل المحشي، طب ده أنا أمي مكنتش بتعمله حلو كده.

تباهي بضحك:سبحان الله مع إن هي اللي معلماني عمايل المحشي، ده أنا كنت جاية عندكم مبعرفش الألف من كوز الدرة.
عم سلامة بإفترار:وأديكي بقيتي بريمو في عمايل الأكل وكل الناس بتحلف بأكلك!
تباهي بسرور:الحمدلله إن ليالي وهبة طالعين زيي، الله يرحمك يا حماتي إنتي اللي علمتيني أنا والبنات.

كان عم سلامة يشعر بسعادة غامرة وهو يلاحظ كيف أن بناته قد ورثن مهارة الطهي الممتازة من والدتهن. فقد كان الطعام الذي تحضره دائمًا مميزًا في نكهته، ولا يمكن لأي شخص أن ينسى الطعم الفريد الذي تتميز به. كل من تذوق طعامها، لا سيما المحشي وغيره، كان لا بد أن يشيد بجودة المكونات وطريقة التحضير. العائلة كانت دائمًا سخية في تقديم أفضل الأطعمة، حيث كانوا لا يترددون في إعطاء الطعام حقه الكامل، معتقدين أن الطعام هو مظهر من مظاهر الاهتمام. في تلك اللحظة، خرج جميع أفراد العائلة من البحر، إلا جلال وحامد اللذان كانا يسبحان وسط الناس، يستمتعان بالماء والجو الجميل. وبينما كانوا يخرجون، كانت "تباهي" قد استعدت لجمع الجميع، فالتفتت نحو العائلة بكل حنان، وقالت:
_تعالي يا ليالي إنتي وهبة! تعالى يا أشرف يابني!

جلس كل فرد من العائلة على مقعده البلاستيكي، حيث كانت أشعة الشمس الدافئة تلامس وجوههم بلُطف، فتجفف جلدهم من مياه البحر المالحة التي تلتصق بهم بعد السباحة. كانت الأجواء مريحة، والهواء عليل. ثم قدمت "تباهي" طبقًا من المحشي المشكل لليالي، الذي كان يحتوي على جميع الأنواع التي تحبها العائلة. نظرت إلى ليالي بابتسامة دافئة وقالت لها بنبرة مليئة بالحب:
_خدي إدي العيال وهغرفلكم أهو!

ليالي:ماشي ياما.

قدمت ليالي طبق المحشي للأطفال، بينما كانت تباهي تواصل توزيع المحشي في باقي الأطباق على أفراد العائلة، حيث كانت تحرص على إتمام مهمتها بعناية. كان الأطفال جالسين حولها، يلتهمون الطعام بشهية مفتوحة، فيما كانت ليالي تطمئن على الجميع. أما تباهي، فقد طلبت منها أن تنادي على جلال وحامد ليأكلا، إلا أن ليالي أخبرتها أن الاثنين سيأكلان لاحقًا. استمرت تباهي في إطعام أفراد العائلة، ثم طلبت من هبة أن تعطي زوجها طبقًا من المحشي.

في هذه الأثناء، كان جلال وحامد قد قررا إقامة سباق إلى مكان بعيد على الشاطئ، ولكن فجأة توقف حامد عن الحركة بسبب شد عضلي مفاجئ. هرع جلال نحوه، محاولًا مساعدته، ثم نقله بسرعة إلى الشاطئ. حيث أن نعمة التي كانت قريبة، ركضت نحوهم، وبدأت في الاستفسار عن حالته. جلال طمأنها أن حامد يعاني من شد عضلي في قدمه بسبب السباحة. ومع أن حامد كان متألمًا، فقد أعرب عن امتنانه لجلال لإنقاذه من الموقف. بعدما اطمأنت نعمة عليه، تركوه ليواصل راحته على الشاطئ، بينما جلال توجه إلى تباهي ليتناول طعامه. جلال استفسر عن نوع المحشي الذي أعدته، بينما كانت هبة تسأل عن حال حامد. حيث أن عم سلامة الذي كان يراقبهم، طلب من أشرف أن يتوجه إلى حامد ليتحقق من حالته. في تلك اللحظة، جلال لم يبدِ اهتمامًا كبيرًا بالموقف، فبدأ في التحدث مع ليالي، متسائلًا عن سبب انزعاجها منه. فيما بعد، ذهب أشرف إلى حامد ليتأكد من وضعه، ثم نصحه بأن يضع قدمه في ماء دافئ بعد العودة إلى المنزل. بعدما قضى زياد وهايدي وقتًا ممتعًا في المقهى، وتبادلا الضحكات والتقاط الصور التذكارية معًا، ركبوا التاكسي عائدين إلى المنزل. في السيارة، كان "زياد" يشعر بحماسة كبيرة وهو يتطلع إلى رد فعل هايدي على تجربتهما في المكان. نظر إليها بعينين مليئتين بالترقب، ثم قال مُتسائلًا:

_إيه رأيك؟ مش ده أحسن من الكافية التاني؟

هايدي بتبسم:بصراحة أه والخدمة كويسة أوي، والأكل والعصاير تحفة، إنت عرفته منين؟ أحمد اللي قالك صح؟

زياد بسعادة:بصراحة هو اللي قالي، فأنا حبيت نجربه، المهم مبسوطة دلوقتي؟

هايدي بسرور:طبعًا، كفاية بس إن أنا معاك!

نظرت "هايدي" من نافذة السيارة لوهلة، يفكر ذهنها في فكرة تناول الغداء مع أحمد وجميلة في هذا اليوم. كانت الفكرة تثير فيها بعض الحماسة، إذ بدت وكأنها تود استكمال هذه اللحظات الجميلة معهم. ثم التفتت إلى زياد بابتسامة هادئة، وسألته بحذر:

_بقولك، إيه رأيك نتغدا مع أحمد وجميلة النهارده؟

زياد بموافقة:مفيش أي مشكلة، بس ياريت هما اللي يجوا عندنا! بصراحة مبكونش مرتاح وأنا عندهم وبحس إن أنا مش واخد راحتي.

هايدي:خلاص ماشي، هقول لجميلة ولو فاضية يجوا عندنـ....

قبل أن تنهي هايدي كلمتها، لمحت من نافذة السيارة مشهدًا غريبًا جعل قلبها يقفز في صدرها. رأت، ضايع، خالها الهارب، يركض بين شوارع المدينة بسرعة هائلة، مختبئًا بين الأشجار، يحاول أن يتجنب الانتباه. كان يتحرك بذكاء، وكأن لا أحد يراه، ولكن "هايدي" لم تكن تستطيع تجاهل هذا المشهد المُريب. بسرعة، وبدون تفكير، صرخت في زياد، محذرة إياه:

_زياد زياد... مش ده خالي ضايع؟

نظر زياد إلى حيث أشارت هايدي، وعندما ركز في النظر، تأكد تمامًا من أن ما رآه كان حقيقة. كانت الصدمة كبيرة، إذ أن هذا الرجل الذي عرفوه كان قد اختفى لفترة طويلة، لكن رؤيته الآن في هذا الوضع الغريب جعل قلب زياد ينبض بسرعة. يبدو أن ضايع قد هرب ليحقق هدفًا آخر، ربما للانتقام من الجميع.

يتبع....

الفصل الرابع عشر

بعد أن ألقى "زياد" بنظره من النافذة، لمح شبحًا يعدو بعيدًا حتى اختفى بين ثنايا المنازل المتراصة، فأيقن في أعماقه أنه هو بلا شك. حينها أدرك أن حق والده قد تلاشى كالغبار المتناثر في الريح، فقد أمضى أيامه متشبثًا بأمل استرداد ذلك الحق المغتصب. فانطلق صارخًا بصوت يحمل لوعة السنين:
_يا نهار أسود، ده هو! هو ازاي خرج؟

هايدي بِالتباس:يبقى هرب من السجن!
زياد بمَهابة:أهو ده اللي أنا كنت خايف منه.

انتبه "السائق" إلى ملامح وجوههم التي رسمت الخوف بوضوح، وإلى ارتجاف أصواتهم التي حملت قلقًا جليًا، فأيقن بوجوب التدخل لانتشالهم من محنتهم. عرض عليهم مساعدته بلهجة واثقة، قائلًا وهو يوزع انتباهه بين تركيزه على الطريق وتعامله مع تعقيد الشوارع المتشابكة:
_في مشكلة أقدر أحلها؟

زياد بتردد:لا لا مفيش حاجة، ركز في طريقك!

عندما بلغ "زياد" وهايدي مدخل العمارة، كان أول ما قاما به أن توجها مباشرة إلى شقة أحمد. طرقا الباب بإلحاح حتى فتح لهم أحمد، وقد بدا عليه الاستعداد للخروج، مرتديًا ملابسه ومتأهبًا للرحيل. نظر إليه زياد بعينين تتقدان انفعالًا، وقال بصوت يحمل مزيجًا من السخط والحيرة:
_احنا شوفنا خالك ضايع! خالك هرب!

أحمد بهدوء:مانا عارف إنه خرج.
زياد بصدمة:عارف ومقولتلناش؟
أحمد بلُطف:اهدى بس يا زياد! أنا محبتش أقولكم حاجة لأني مكنتش عايز أخوفكم، بس متتلقوش عمي بعت حرس على باب العمارة تحت.
زياد بصياح:يعني إيه؟ يعني حق أبويا ضاع؟ وأنا اللي كنت بصبر نفسي بإن حقه راجع من الكلب ده؟

تصاعد غضب زياد كأنما موج عاتٍ يهجم على شاطئ صامد، وبدت ملامحه مشتعلة بألوان من السخط والخيانة. عروق وجهه البارزة ويداه المرتجفتان عكستا ثورة داخله لا تهدأ. كان يدور في الطُرقة كوحش محاصر، يضرب الجدار بقوة، وكأن في ذلك متنفسًا لحنقه الذي لا ينفك يزداد. على الجانب الآخر، كان أحمد جامدًا في مكانه، كأنه تمثال صامت في مواجهة الرياح. ملامحه لم تحمل سوى الهدوء، وكأن داخله بحر ساكن، إلا أن عيناه كانت تعكس ألمًا دفينًا. لم يحاول الدفاع عن نفسه، بل ظل صامدًا، يراقب انهيار زياد أمامه بصمت ثقيل. في تلك اللحظة، تقدمت "هايدي" خطوة للأمام، مترددة بين الاقتراب والابتعاد، وقد

بدا على وجهها مزيج من الصدمة والخرع. نظرتها الحائرة بين زياد وأحمد كانت تحمل ألف سؤال، لكنها سألت:

_ووصلتوا لإيه؟ هيسيبوه يهرب؟

أحمد:لا طبعًا ده مش هيحصل، هما دلوقتي قالبين الدنيا عليه والموضوع بيكبر كل يوم عن الأول وأول ما يلاقوه هيعجلوا بإعدامه لأنه ممكن يعملها تاني ويهرب.

زياد بصياح:لو حق أبويا مرجعش أنا مش عايز أعرفكم تاني!

خرج زياد بخطوات سريعة ساخطة، ودخل شقته وصك الباب بقوة، تاركًا خلفه جوًا مشحونًا بالحزن. بينما هايدي بقيت ثابتة في مكانها، ملامحها تفسر صدمة حقيقية، وعيناها متسعتان مُحاولة فهم ما حدث. لكن أحمد انخفض بنظره نحو الأرض، وكأن ثقلاً كبيرًا يضغط على كتفيه. ظل صامتًا، يتجنب النظر في عيني هايدي، بينما خيم الصمت على العمارة، فقالت "هايدي" باعتذار:

_أحمد! متزعلش من زياد، هو مش قصده والله، هو من كتر زعله طلع الكلام منه كده! لكن انت... يعني... إنت عارف كويس إنه بيحبك!

أحمد بتفهم:أنا مخدتش على كلامه يا هايدي، وياريت تروحي وراه تهديه وتعرفيه إن ضايع نهايته قربت!

هايدي بإحراج:حاضر، بس ممكن متزعلش منه؟

أحمد بتضايق:مفيش أي حاجة.

مرر أحمد يده على كتف هايدي بابتسامة خفيفة، ثم اتجه بخطوات ثابتة نحو المصعد، ونزل يركب السيارة، وانطلق نحو وجهته، حيث كان يستعد لمقابلة عمل. أما هايدي، فقد عادت إلى شقتها بخطوات بطيئة، وأغلقت الباب برفق خلفها، وهي مثقلة بمشاعر مختلطة بين الخجل والضيق مما حدث. دخلت غرفتها لترى زياد جالسًا على السرير، ملامحه ما زالت مكتظة بالانفعال. عيناه كانت تحدقان في الفراغ، وكأنما يعيد في ذهنه تفاصيل الشجار مرارًا. شعرت "هايدي" بثقل الجو من حولها، لكنها لم تستطع تجاهل ذلك الشجن، فتقدمت نحوه بحذر، وقالت:

_إيه يا زياد الكلام اللي قولته لأحمد ده؟ وهو ماله باللي خالي بيعمله؟

زياد بندم:مكنش قصدي يا هايدي، أنا بس حاسس إن حق أبويا بيضيع وأنا قاعد في مكاني ساكت، هايدي إنتي أكيد عارفة قد إيه أنا بتعذب بسبب اللي حصل ده! أنا بتحرك قدامك وعايش عادي لكن من جوايا ميت ومش حاسس بالدنيا!

هايدي باستياء:لا يا زياد، ياريت تطلع الأفكار دي من دماغك! وهو لو متمسكش علشان اللي عمله في عمي هيتمسك علشان اللي عمله في ناس كتير أوي، أحمد قالي أطمنك بإن حقه راجع! ممكن يا زياد تهدى شوية عن كده وتعتذر لأحمد عن الطريقة اللي اتكلمت بيها معاه؟

زياد بإصرار:أنا هروحله!
هايدي بدهشة:تروحله فين؟ أحمد خلاص نزل، اتصل بيه أو استنى لحد ما يرجع!
زياد بإنكفاء:أنا هكلمه بس مش دلوقتي!
هايدي بترح:ماشي يا زياد.

ندم زياد على ما بدر منه تجاه أحمد، خاصةً أنه أدرك جيدًا أن أحمد لم يكن مسؤولًا عن تصرفات خاله. كان شعورًا مريرًا داخله، لكن في نفس الوقت، شعر أن الوقت ليس مناسبًا للاعتذار، فالحديث في تلك اللحظة قد يؤدي إلى تفاقم المشكلة بدلًا من حلها. قرر أن يترك الوقت يمر، ليهدأ قليلًا ثم يتوجه للاعتذار بشكل مناسب. أما أحمد، فقد بدا غير متأثر بكلام زياد، بل كان يتفهم تمامًا وضعه. مر اليوم بسلاسة، حتى جاء اليوم التالي. بعد أيام مليئة بالمرح والذكريات الجميلة في المصيف، حان وقت العودة. استيقظوا في الصباح الباكر، وكل شخص بدأ في جمع أغراضه وتحضير الحقائب. ليالي كانت تتحرك بين الغرف، تتأكد أن كل شيء قد تم جمعه من آواني وملابس. حرصت على ألا يُنسى شيء، فكانت تتفقد الزوايا وتعيد النظر في الشقة، وعندما تأكدت أن كل شيء جاهز، انطلق الجميع في تحضير الحقائب.

جلال حمل الحقائب مع الرجال ونزل بها إلى السيارة بينما تبعته النساء وأطفالهن. الأجواء كانت مليئة بالحركة، ولكن كان هناك نوع من القلق يسيطر على الجميع. بينما كان جلال يقدم المفاتيح لصاحب الشقة، أظهرت وجوههم التوتر الذي كان يخيم عليهم بسبب العودة. لم يكن لديهم يقين حول كيف سيواجهون "أم الديب" بعد هذه الساعات التي مضت. أثناء صعودهم على الدرج، كان الإنهاك قد بدأ يظهر على ملامحهم، لكن الخوف من المستقبل كان أكبر من أي شيء آخر. كانت "نعمة" تحمل عبء العودة أكثر من أي وقت مضى، وكل خطوة كانت تزيد من تساؤلاتها حول ما قد ينتظرهم في النهاية، فقالت لليالي:
_أنا خايفة أوي يا ليالي لا أمي تشبط فينا!

ليالي بشجاعة:خلاص ياختي مابقتش فارقة، أنا عن نفسي اللي هيفكر بس يتكلم معايا نص كلمة، هوريله اللي عمره ما شافه!

وصل حامد وجلال إلى شقتيهما بعد رحلة المصيف المُبهجة، وضعوا الحقائب في أماكنها، وأخذ كل واحد منهما لحظة ليتأمل في تفاصيل الرحلة التي حملت الكثير من الذكريات. لكن، كما هو الحال دائمًا بعد مغامرات كهذه، كان الواقع ينتظرهم، ومعه بعض القلق والتساؤلات حول ما سيحدث لاحقًا. أما نعمة وليالي، فقد وصلتا مع أطفالهما إلى شقة "أم الديب"، لتفاجئا بأن الباب مفتوح، وكانت أم الديب جالسة في الصالة أمامهما. كانت مشغولة بتقشير الخيار، ولكن المنظر كان طريفًا للغاية. كانت تأكل القشور وتضع اللحم في طبق قديم، عفا عليه الزمن، يحمل صدأً من كثرة الاستخدام. رفعت "أم الديب" رأسها فجأة، ونادت بصوت عالٍ، قائلة:
_يا جلال!

ثم، بينما كانت نعمة وليالي تقفان خارج الشقة، تتبادلان النظرات في صمت، توجهت "أم الديب" بكلماتها مباشرة إلى حمود الذي كان يقف بجانب الباب. كانت تعبيرات وجهها لا تُظهر أي مفاجأة لرؤيتهم، وكأنها كانت تتوقعهم، وواصلت الحديث بهدوء:

_انده أبوك يالا!

حمود:أبويا طلع.

أم الديب بحسم:اندهولي وعلى الله حد فيكم يطلع شقته إلا لما تيجوا هناهو الأول!

صعدت ليالي بتصميم، بينما كانت "أم الديب" تجلس في مكانها وكأنها تنتظر هذا اللحظة بفارغ الصبر. كان ملامح وجهها مشوشة بين الاستفهام والغضب، وعيونها تتبعهم بحذر. ثم، فجأة، وجهت أم الديب حديثها بصوت مرتفع وصارم، محذرة إياهم:

_آني قولت محدش يطلع!

وقفت "ليالي" مكانها، وملامحها تتغير بين العصبية والقلق. وضعت يدها على خصرها، وتكاد الأرض تهتز تحت وطأة سخطها. كانت نظراتها حادة، وعينها تتسابقان مع أفكارها التي تشتعل بالغضب. ثم، وبصوتٍ مرتفع، قالت لنعمة:

_شايفة يا نعمة؟

نعمة بخرع:أصبري بس وخليها تعدي على خير!

أم الديب بحدة:تعالوا!

دخلت نعمة وليالي مع الأطفال الشقة وهم يشعرون بارتباك ظاهر، وكان الخوف يعتصر قلوبهم من تصرفات أم الديب التي كانوا يدركون أنها تجهز لهم شيئًا غير متوقع. الجو داخل الشقة كان كئيبًا، وكأن هناك كارثة تلوح في الأفق. أما "أم الديب"، فقد كانت لا تزال جالسة في مكانها، تأكل قشور الخيار دون أن تلتفت إليهم، وعينها مثبتة على حمود. فجأة، رفعت رأسها وألقت عليه نظرة حادة، ثم قالت له بحدة:

_اطلع يالا انده أبوك وجوز عمتك!

حمود بانزعاج:طيب.

صعد حمود ومحمد، وعقبهما تقى، إلى شقة والدهم، وكانوا جميعًا يحملون آثار الشمس الحارقة على أجسادهم، وكأنهم قادمون من مكان بعيد. كانوا في حالة مُرهقة من حرارة المصيف، وبمظهرهم الذي بدا متغيرًا، خشي الجميع أن تكون أم الديب قد أعدت شيئًا غير متوقع. وصلوا إلى الشقة ليخبروا آباءهم أن أم

الديب ترغب في جمع العائلة كلها لإلقاء كلمة حاسمة، لا تقبل النقاش. في الأعلى، كان جلال في المرحاض يغسل يديه استعدادًا لتناول وجبة الفطور، مُستعدًا لاستقبال اليوم الجديد. بينما في الأسفل، نهضت أم الديب من مكانها ببطء، تركت الخيار المهمل وقشوره المبعثرة على الطاولة، ثم وقفت أمامهم، تحدق في وجوههم بتلك النظرة التي لا تترك مجالًا للشك. أما ليالي، فقد كانت لا تزال واقفة بثبات، يدها على خصرها بكل كبرياء. ثم، وبصوت غليظ يعكس صرامتها، قالت "أم الديب":

_بقى يا بت منك ليها طالعين ومش هاين عليكم تعدوا عليا تشوفوني؟

لم تُجيب واحدة منهما، ووقفتا تتبادلان النظرات بتردد، وكل واحدة منهم تتجنب أن تكون البادئة بالكلام. كانت العيون تتنقل بين الوجوه، والكلمات عجزت عن الخروج. ثم، أضافت "أم الديب" بنبرة ساخرة:

_ايهي مالك يا بت إنتي وهي كل واحدة بتبص للتانية ليه؟

ثم، توجهت بحديثها إلى نعمة، وقد شعرت بتسلط السخرية يتسلل إلى كل كلمة تنطق بها. نظرت إليها بنظرة متعالية، وقالت:

_اتفسحتوا كويس يا بت؟

نعمة بقلق:أه الحمدلله.

أم الديب باستهزاء:حمدالله على السلامة ياختي منك ليها، أمكم مرمية في السجن وانتوا رايحين تتفسحوا ولا هاممكم، ماهي لو واحدة تانية اللي أمها اتسجنت كان زمانها مخلصة تراب بلدهم كله على دماغها!

ليالي بحدة:وأنا أمي الحمدلله طول عمرها في حالها لا ليها في المشاكل ولا في القرف، الدور والباقي على اللي بيحبوا المشاكل زي حباب عينيهم.

نعمة بخوف:يلا يا ليالي، احنا جايين من سفر وعايزين نرتاح!

أم الديب بقسوة:آني اللي يجي داري ميشوفش فيه راحة!

فجأة، تغيرت نبرة صوتها بشكل مفاجئ، وتحولت من السخرية إلى الصراخ العالي الذي ملأ المنزل. كانت عيونها تتسع بالحنق، وقد فاض بها الكيل، فقالت بصوت مرتفع ومليء بالتهديد:

_من النهارده تنزلوا تخدموني وتنضفولي الدار تخلوه يبرق! واللي مش هتنزل آني هطين عيشتها! واللي هتفتح حنكها بكلمة آني هوريها أسود أيام حياتها، فاهمين ولا لا؟

هرعت "ليالي" ونعمة بعمر إلى الأعلى، يركضون بسرعة بسبب؛ غلاظة صوت أم الديب الذي لا يُطاق. دخلت ليالي شقتها بسرعة، وأغلقت الباب وراءها بقوة، وهي تحاول إغلاق العالم كله خلفه. داخل الشقة، كان جلال يقف قبال المغسلة يغسل وجهه. وعندما دخلت ليالي وأوصدت الباب، على الفور، صاحت ليالي في أولادها بحدة، وهي توجههم إلى غرفتهم، قائلة:

_أدخلوا أوضتكم يلا!

ثم دخلت المرحاض حيث كان جلال يجفف وجهه بالمنشفة. كانت خطواتها سريعة وعيناها تحملان الكثير من الانفعال. وبصوت مرتفع، قالت بعجيجٍ عالي وكأنها غير قادرة على كبح ما في صدرها:
_انت تشوفلي صِرفة مع أمك يا جلال! أمك دي عِرقها طاقق منها، وربنا مانا نازلة أخدم حد وتشوفلنا شقة في داهية تانية، أنا خلاص معتش ساكتالها!

جلال بتعجب:وانتوا إيه اللي دخلكم عندها؟ احنا مش اتنيلنا قولنا محدش يتكلم معاها تاني ولا تدوها وش؟
ليالي بصراخ:قعدت تزعقلنا عشان ندخل ولما طنشتها وطلعت، صوتها على أكتر من الأول، راحت نعمة واخداني ودخلنا بالعافية، راحت معبطة بالكلام وقالت تنزلوا تخدموني من النهارده مانت مسمعتهاش بودنك، بقولك إيه هاتلي حقي منها يا جلال ألا هنزل أديها قلمين ومش هيهمني لا إنت ولا غيرك!
جلال برهبة:انتي عبيطة يا بت؟ تدي أمي قلمين؟ تديها قلمين عشان تطيح فينا كلنا؟

خرج جلال من المرحاض، وجلس على الأريكة وهو يضع المنشفة بجانبه. لكن "ليالي"، التي كانت تحمل داخلها بركانًا من المشاعر المكبوتة، رفعت المنشفة بعصبية وألقتها بعيدًا في حركة فجائية، ثم جلست بجواره بانفعال مَنين، وكل شيء في داخلها قد انفجر دفعة واحدة. بصوتٍ يكاد يختنق بالانفعال، قالت بنبرة واشكة على الانتحاب:
_طيب يا جلال، قولي العمل إيه؟

جلال بسكينة:العمل عمل ربنا.
ليالي بانفعال:هو إيه العمل عمل ربنا؟ مانت ضعفك معاها هو اللي مسوي فينا الهوايل، مانت لو كنت تقفلها مكنش كل ده حصل!
جلال بتبسم:أصبري وانتي تنولي!
ليالي بامتعاض:طيب أما نشوف.

نهض جلال فجأة واتجه نحو باب الشقة، مما جعل "ليالي" تتعجب. اعتقدت في لحظة أن وجهته هي النزول لملاقاة والدته، خاصة بعد ما تسببت به من ضغوط جعلت حياتها مليئة بالظلام. نظرت إليه بقلق، ثم قالت بنبرة مشوبة بالامتعاض:
_رايح فين؟

جلال:رايح للمحامي اللي هيخلصلنا الحوار كله في ساعة زمن.
ليالي بضيق:هتصل بيك ومتكنسلش عليا!
جلال بابتسامة:وماله؟ يلا سلامو عليكو.
ليالي باستياء:وعليكم السلام.

خرج جلال من الشقة بخطوات ثابتة، وعينيه مليئتان بالعزم على إنهاء كل شيء. نزل بسرعة، وعندما وصل إلى طابق أم الديب، تسارعت خطواته أكثر فأكثر، وكأنها كانت محاولة للهروب منها. قبل أن تناديه، كان قد قرر فعل ما في ذهنه، فاستمر في طريقه دون أن يلتفت إليها، وكأنه لم يسمع شيئًا. ركب التوكتوك بسرعة واتصل بالمحامي، عازمًا على إيجاد حل لمشكلة بيع الشقة، حتى يتمكنوا من شراء شقة جديدة والابتعاد عن تأثيرات أم الديب التي لا تحتمل.

بينما في شقة ليالي، بعد أن استقر الأطفال في الغرفة وبدؤوا باللهو معًا، كان الجو داخل الغرفة هادئًا على الرغم من فوضى الضجيج الطفولي. ولكن "ليالي" رفعت حاجبها بطريقة توعد، وعينيها تحملان نية انتقامية. كانت تدرك أن الأمور لن تمر هكذا، وأن القادم سيكون مختلفًا، وعلقت على ذلك في نفسها، قائلة:
_مش إنتي عاوزة تذلي فينا؟ احنا بقى اللي هنذلك وهنلففك حوالين نفسك، الأيام جاية!

نهضت ليالي من مكانها، ثم دخلت غرفة النوم بهدوء. بدأت في تغيير ثيابها، وأخرجت ملابسهم من الحقيبة، ثم وضعتها داخل وعاء بلاستيكي برتقالي اللون، ركنت الوعاء جانبًا لتفرغ مكانها. فتحت الخزانة واختارت عباءة منزلية، ارتدتها، وكأنها تحتاج إلى قليل من الراحة بعد عناء الصباح. حملت الوعاء البلاستيكي، ودخلت المرحاض، حيث بدأت في إضافة المياه والصابون إلى الوعاء حتى امتلأ بالماء الأبيض المائل إلى الزرقة. ثم توجهت إلى المطبخ، حيث بدأت في تجهيز فطور بسيط للعائلة. أخرجت عجين الفلافل من الفريزر، ثم فتحت كيس الفول لتبدأ في تحضير المكونات باهتمام، متفهمة حجم المسؤولية الملقاة على عاتقها. في الوقت نفسه، كان زياد قد قرر أخيرًا أن يذهب للاعتذار لأحمد، فاستعد للخروج في وقت مبكر من الصباح. توجه إلى شقته، حيث كان أحمد في الداخل. كان المكان هادئًا، محاطًا بضوء الشمس الذهبي الذي دخل من النوافذ، مما منح جوًا دافئًا على الصالة الواسعة. جلس "زياد"، خجولًا، على المقعد، وهو يتجنب رفع نظره في البداية، ثم نظر للأسفل، كما لو كان يحاول تجميع شجاعته. بعد لحظة من الصمت، رفع عينيه وقال بكلمات مليئة بالندم، يعبر عن شعوره بالخطأ الذي ارتكبه:
_أنا آسف، أكيد إنت عارف إيه السبب اللي خلاني أقول كده وأكيد هتعذرني!

أحمد بتفهم:أنا عارف من غير أي حاجة ومقدر إحساسك وحاطط نفسي مكانك كمان! أنا اللي عايزك تعرفه إن حق عمي حسين راجع وهيجي اليوم اللي تشوف ده بعينيك.
زياد:طيب ازاي وكل شوية المجرم ده بيهرب؟ ماهو ما دام هرب مرة هيهرب مليون مرة!
أحمد:مش كل مرة بتسلم الجرة، إنت لو تسمع اللي أنا سمعته هتعرف إن كلامي صح! يا زياد، أنا حمايا له سلطة ونفوذ في كل حتة واللي بيجي في طريقه بيمسحه! وبعدين هو إنت شوفت ضايع فين؟
زياد:كان ناحية المستشفى بس على الناحية التانية، هايدي شافته وقالتلي ولما أنا بصيت لقيته هو فعلًا!
أحمد:طيب خليك معايا ثواني!

مد "أحمد" يديه بهدوء، والتقط الهاتف من على الطاولة التي كانت أمامه. بدأ في التمرير بين الأرقام بنظرة مركزة، بحثًا عن الرقم الذي يحتاجه. حين وجده، اتصل بأحدهم، وعلى وجهه كانت تظهر علامات الجدية، فقد كان يعي تمامًا أهمية هذه المكالمة. بينما الهاتف يرن، كان يفكر في الوضع بعناية، وبعد أن تلقى الرد، تحدث بسرعة وبصوت هادئ لكن حاسم:
_صباح الخير، ياريت تبلغ أستاذ باسم إننا شوفنا ضايع في نطاق الكمباوند ناحية المستشفى.

حين أجابه الرجل على الهاتف، بدأ يوجه له سؤالًا محددًا، وهو يبحث عن تفاصيل حاسمة. باعد "أحمد" الهاتف قليلًا عن رأسه، ورفع نبرته ليعطي انطباعًا جديًا، ثم نظر إلى زياد الذي كان جالسًا بجواره، وسأله:
_كانت مستشفى إيه؟

زياد:بصراحة مش فاكر، مبصتش على الإسم.

رفع "أحمد" الهاتف نحو رأسه من جديد، وتحدث بنبرة جادة ومليئة بالتركيز، كأن كل كلمة تحمل وزنًا كبيرًا:
_بص هو مش فاكر، بس المهم إنه هنا في الكمباوند. خلاص تمام.... مع السلامة!

بعد حديث دام لدقيقتين، انتهت المكالمة أخيرًا. وضع أحمد هاتفه على الطاولة بحركة ثابتة، والقلق الذي كان يرافقه قد تباطأ قليلًا بعد الحصول على بعض الإجابات. نظر "زياد" إلى أحمد بعينين تحملان الاهتمام والقلق في آن واحد، ثم سأل بصوت منخفض لكن مفعم بالفضول:
_عملت إيه؟

أحمد:بلغتهم بآخر الاخبار، بحيث يقدروا يوصلوله أسرع، بس بما إنه رجع هنا تاني يبقى لسه حاططنا في دماغه!
زياد بقهر:وعمره ما هيطلعنا، أمال أنا باكل في نفسي ليه؟
أحمد بسُكون:على العموم متقلقش!
زياد ببشاشة:لسه زعلان؟
أحمد بابتسامة:صدقني خلاص، إنت أخويا ومقدرش أزعل منك!

عانق زياد أحمد عناقًا أخويًا طويلًا، وكأنهما يشاركان لحظة هامة في حياتهما، فقد كان أحمد أكثر من مجرد ابن عم لزياد؛ كان أخًا وصديقًا في آن واحد. تجمعهما ذكريات عديدة وأسرار مشتركة، كانت حياتهم متشابكة إلى حد كبير. فهذه اللحظات، مهما كانت صغيرة، كانت تعني الكثير لكل منهما. وفي تلك اللحظة، دخلت "جميلة" إلى الصالة حاملة صينية أنيقة، تحتوي على فنجانين من القهوة ذات الرائحة الزكية، وخبز

التوست المحشو بحشوات لذيذة، بالإضافة إلى الخبز الفينو الطازج، والزيتون الذي أضفى مذاقًا خاصًا على الطاولة. وضعت الصينية على الطاولة بابتسامة هادئة، ثم قالت لهما بلُطف:
_ربنا يخليكم لبعض.

زياد بابتسامة:تعبتي نفسك ليه؟
جميلة بإعزاز:خالص دي حاجة بسيطة كده.
زياد بامتنان:شكرًا لتعبك.
جميلة ببسمة:العفو، دي ولا أي حاجة.

غادرت جميلة المائدة ودخلت المطبخ لتتناول فطورها، تاركة زياد وأحمد في الصالة يتناولان الطعام بمفردهم. بعد لحظات من الراحة، ألح أحمد على زياد أن يتناول الطعام دون ترد. بدأوا في تناول الفطور بهدوء، مستمتعين بكل لقمة، دون أي شعور بالخجل، وقد أصبحت اللحظات تمر بسهولة بين الحديث والضحك، وفي نهاية تناول الطعام، دخلت "سيليا" بعد أن انتهت من فطورها هي الأخرى. توجهت مباشرة نحو زياد، وعانقته بحُب عارم، فهو بالنسبة لها أكثر من مجرد قريب، إذ تعتبره في مقام أحمد، وتكن له حبًا كبيرًا. ضمتها إليه بلُطف، وقالت بشوق في صوتها:
_أونكل زياد، وحشتني!

زياد بحنان:وانتي كمان أوي يا سيليا، طمنيني عليكي عاملة إيه؟
سيليا بخِفة:أنا كويسة وانت؟
زياد بابتسامة:أنا كويس برضه.

جلست "سيليا" فوق ركبتي والدها، وعيناها تتلألأ بالبراءة والدلال الطفولي. كانت تضع يدها الصغيرة على صدره وتبتسم بحُب، ثم قالت له بصوت ملؤه الدلال:
_مش إنت قولتلي هتجيبلي Dried Fruits من الماركت؟

أحمد بضحك:ياه يا سيليا إنتي مش هتبطلي أكل حلويات؟ كده أسنانك هتبوظ!
سيليا بلباقة:لا يا بابي أنا بغسل أسناني كل يوم بالـBrush!
أحمد بتهلل:خلاص هبقى أجيبلك بس بشرط!
سيليا باستغراب:إيه هو؟
أحمد بضحك:تأكليني معاكي أنا وأونكل زياد!
سيليا بابتسامة:أوكي هديكم من معايا، أنا طيبة أصلًا.

ضحك أحمد وزياد على تلقائية سيليا وحديثها الذي سبق عمرها، فهما كانا يدركان تمامًا أن هذا الجيل يختلف عن الأجيال التي سبقته في الكثير من الأشياء، بما في ذلك البراءة والسهولة في التعبير عن رغباتهم. وبينما بدأوا في شرب مشروب الفراولة بالحليب، شعروا بنوع من الراحة، وكأن هذا الفطور كان بمثابة هروب مؤقت من مشاغل الحياة، فنسوا ما حدث في اليوم السابق وأخذتهم اللحظة إلى عالم آخر بعيد عن الأحزان. في المقابل، كان جلال قد اتفق مع المحامي على لقائه في المقهى. جلسا معًا بين الرجال وصخب المقهى، حيث كان الصوت مختلطًا بين حديث الزبائن وضوضاء القرية. بدأ "المحامي" الحديث بابتسامة على وجهه، وهو يفتح ملف القضية أمامه، مظهرًا قدرًا من الاطمئنان، وقال:

_ألف حمدالله على السلامة.

جلال:الله يسلمك.

المحامي بتعجب:فين العقد؟

جلال بجدية:العقد في البيت، إنت بس اديني التمام وأنا هجيبهولك.

المحامي:ماحنا مش هنقدر نعمل أي حاجة من غيره، لازم تجيبهولي وبعدين نشوف.

جلال بصياح:جرا إيه يا عم؟ مانت قايلي الحوار هيخلص في ساعة زمن! كلامك اتغير ليه؟

المحامي:مانا قولت الكلام ده بناءًا على إنك هتيجي ومعاك الورق! هو أنا ازاي هروح للمحكمة وأغير البيانات وأنا مش معايا الورق اللي يثبت صاحب البيت؟ وبعدين في حاجة مهمة حتى لو الورق معانا لازم الحاجة تروح بنفسها وهي اللي تمضي!

جلال بانفعال:يا جدع إنت مقولتليش الكلام ده! إنت قولت الحوار هيخلص في ساعة زمن، لا قولت نجيب أمي وهي اللي تمضي ولا قولت كل ده!

المحامي:طيب أديك عرفت أهو.

جلال باستغراب:طب وأنا هجيب أمي تمضي ازاي؟ طب ما أتصرفلك في بطاقتها يا عم ونبقى خلصنا ومش لازم تيجي ولا تتنيل.

المحامي:لا لازم هي اللي تيجي بنفسها!

جلال بتضايق:يا عم ما تسهل الدنيا، هو إيه اللي لازم لازم لازم؟هيجرا إيه لو مجاتش؟

المحامي:أنا مش هتكلم معاك كمحامي وهقولك كلام فلسفي كبير، أنا اللي أقدر أوصلهولك إن المحكمة لازم يكون قدامها مالك البيت ببطاقته وهو اللي يمضي بنفسه!

جلال بانفعال:جرا إيه يابا؟ إنت بتتكلم كده ليه؟ شايفني بصمجي؟ ده أنا معايا دبلوم صنايع قد الدنيا، إيه يا عم مالك في إيه؟

المحامي بحزم:احنا بنتكلم في الصح يا أستاذ جلال، قولت إيه؟

جلال:ماشي يا عم، أما نشوف.

ارتشف جلال الشاي بالنعناع وهو يفكر في كلمات المحامي، يتأمل تفاصيل الحديث التي كان يدور في ذهنه. كان عازمًا على جلب العقد ليبدأ الإجراءات اللازمة لبيع الشقة. كان يعرف أن العثور على مشتري لن يكون بالأمر الصعب، فالسوق يشهد حركة مستمرة، لكن العقد نفسه هو ما كان يشكل التحدي الأكبر. حين انتهى من شرب مشروبه، قرر أن يعود إلى المنزل. ركب التوكتوك واتجه بسرعة إلى هناك، حيث كان في ذهنه خطة محددة، لا بد أن يتخذ خطوات حاسمة.

عند وصوله، لم يتردد في الاتصال بهايدي، طالبًا منها أن تشاركه في تسهيل أمر البيع. فكر في أنه سيكون من الأفضل أن يتم التعاون بينهما لضمان سرعة تنفيذ الخطة. كانت هايدي في المطبخ، تعد القهوة المثلجة بعد أن تناولت فطورها. في لحظة ما، رن هاتفها فجأة، وكانت تلك المرة الأولى التي يتصل فيها جلال بها مباشرة، خاصة وأن العلاقة بينهما لم تكن متوافقة تمامًا من قبل. توقفت "هايدي" عن تحضير المشروب، ووضعته جانبًا، ثم نظرت إلى الهاتف بدهشة، غير مصدقة أن الاتصال جاء منه، وقالت:
_جلال؟ غريبة يعني، عايز مني إيه؟

ثم استجابت للمكالمة وهي منهمكة في تقليب مشروبها بالملعقة، محاولة إخفاء الدهشة التي شعرت بها. رفعت الهاتف إلى أذنها بحذر، وأخذت نفسًا عميقًا، وقالت:
_ألو.

كان "جلال" يصعد الدرج في تلك اللحظة، منشغلًا بأفكاره، يحاول تنظيم الكلمات التي سيقولها. كانت خطته تتبلور في ذهنه بسرعة، ويريد التأكد من أن هايدي ستفهم ما يعانيه. وصل إلى باب شقة أم الديب، وأوقف نفسه للحظة قبل أن يجيب على الهاتف، وقال بنبرة حازمة:
=ازيك يا هايدي؟

هايدي بتردد:الحمدلله.
جلال:بقولك! كنت عاوزك في حوار بس ياريت الكلام ميوصلش لحد!

صعد جلال على الدرج، متجهًا إلى شقته، بينما كانت هايدي تتابع حديثه باهتمام. أجابت "هايدي" بنبرة هادئة، رغم أنها كانت تشعر ببعض التردد:
_طيب ماشي.

جلال بمكر:انتي عارفة إن أمي عاملالنا حوارات كل يوم أنا وليالي! والصراحة مابقناش قادرين نستحمل! والصراحة عاوزين نبيع الشقة وناخد شقة في حتة تانية، ومفيش حل غير إن أمي تمضي بنفسها على العقد.
هايدي بتعجب:طيب وأنا إيه علاقتي بالموضوع برضة؟

جلال:هنقول لأمي إن المأذون لسه موثقش عقد الجواز في المحكمة، وإنه لازم يتوثق! وعشان يتوثق لازم الأم والأب يروحوا يمضوا وانتي عارفة إنها مبتعرفش تقرا.
هايدي بتهكم:يا سلام ده على أساس إن الموظفين مش هيجيبوا سيرة عقد البيت؟ ماهو أكيد هيجيبوا سيرة وهتعرف.
جلال:لا المحامي هو اللي هيتعامل، هي بس اللي هتمضي ونخلع في ساعتها.
هايدي بحيرة:براحتكم، بس لو حصل حاجة هيكون على مسؤوليتك!
جلال:خلاص تمام، عاوزة حاجة؟ طب سلام.

أغلق جلال قبل أن يعطي فرصة لهايدي للرد، فدخل شقته بسرعة ليحضر العقد الذي كان يعده خطوة مهمة في خطة البيع. بينما كانت ليالي جالسة تتناول الإفطار مع أطفالها حول الطاولة الأرضية، "الطبلية"، مشاهدين التلفاز الذي يعرض برنامجًا مفضلًا لهم. الجو في الصالة كان مريحًا، والطعام يملأ الشقة برائحته الشهية. أما "هايدي"، فقد أخذت مشروبها وجلست على الأريكة، والتفت إلى الشقة حولها للحظة، قبل أن تعود لتفكر في مكالمة جلال. قالت في نفسها بدهشة:
_هو إداني فرصة أرد أصلًا؟ حاجة غريبة.
دخل زياد الشقة مع سيليا التي رغبت في البقاء بجانب عمتها بعد أن غادر أحمد للعمل. حينما رأت "هايدي" ابنة أخيها، ارتسمت البسمة على وجهها وظهرت القلوب في عينيها، فمدت ذراعيها لضمها بحنان، وكأنها تشتاق لحظة كهذه، وقالت باشتياق:
_سيليا حبيبتي، وحشتيني أوي!

سيليا بود:انتي كمان يا عمتو، إنتي قاعدة لواحدك؟
هايدي باستغراب:أيوه، بس ليه؟
سيليا بلطافة:أنا جيت أقعد معاكي!
هايدي بتعلُّق:حبيبتي، إيه رأيك أعملك أيس كوفي؟
سيليا:لا يا عمتو أنا شربت Mango Juice من شوية.

جلس زياد على الأريكة، بينما كانت "هايدي" تشرب القهوة المثلجة بهدوء. نظرت إليه بدهشة، متفاجئة من صمته في هذا التوقيت، ثم وضعت الكوب جانبًا وسألته بفضول:
_طب وانت يا زياد؟

زياد:أنا شربت فراولة.
هايدي بارتباك:طيب بقولك! جلال لسه مكلمني!
زياد بشَدَه:عايز إيه؟

هايدي:عايز يبيع شقته وماما طبعًا مش هتوافق لأن عقد البيت بإسمها، فهو عايز يغير ملكيته من ماما له هو ومش لاقي حجة يقولهالها، تخيل عايز يقولها إيه؟
زياد باستفسار:إيه؟
هايدي:عايز يقولها إن المأذون لسه موثقش عقد الجواز في المحكمة وعايزينا نروح مع بابا وماما ويمضوا قال إيه كده في إعتقاده إنه يتوثق، وطبعًا ماما مش بتقرا ولا بتكتب فمش هتعرف إن ده عقد بيع البيت.
زياد باعتراض:طيب انتوا هتكونوا متفقين على الحوار الأهبل ده، في المحكمة بقى إيه عرفهم بالحوارات دي كلها؟ أكيد هيقولوا إنه عقد بيع البيت لو هي سألت وكل حاجة هتتكشف!
هايدي بحيرة:ماهو ده اللي أنا قولتهوله والله، طب وبعدين أعمل إيه؟

زياد برفض:لا احنا ملناش دعوة بالمواضيع دي علشان لما يحصل مشكلة محدش يدخلنا فيها، مش كل ما أخوكي تطلع فكرة في دماغه يقوم ساحبنا وراه، أنا بصراحة مش موافق على الفكرة دي!
هايدي:يعني أقوله إيه لو كلمني؟
زياد:قوليله إنك مش موافقة! ولا أقولك قوليله إن أنا اللي مش موافق علشان ميزعلش منك.
هايدي:حتى لو زعل عادي، كده كده أنا وجلال علاقتنا سطحية جدًا.
زياد:مادام هي علاقة سطحية يبقى ياريت مندخلش العشم ما بينا وقوليله إن أنا رافض!
هايدي بطاعة:ماشي يا زياد.

رفض زياد الاتفاق مع جلال بشأن خطة كاذبة، مؤكدًا أنه لن يشترك في أي أمر قد يؤدي إلى كارثة عند انكشافه. كان زياد واضحًا في رغبته في الابتعاد عن المشكلات، فهو يفضل العيش بسلام بعيدًا عن النزاعات. هايدي بدورها كانت متفقة معه تمامًا، فهي لم تكن لتتصرف في هذا الأمر دون موافقته، وكان قرارهما مشتركًا بعدم التورط. بعدما غادر أحمد إلى العمل، كانت أسيل لا تزال غارقة في نومها بغرفتها، بينما جلست جميلة في الصالة، منشغلة بالحديث مع قمر الدين. كانت تتناقش معه بحماس حول آخر تفاصيل اتفاقية زفافه، التي يتم ترتيبها بين العائلتين. كانت "جميلة" تسأل قمر الدين بفضول، قائلة:
_أه يا حبيبي، واتفقتوا على إيه؟

قمر الدين بتبسم:إن شاء الله الفرح يوم ٢٥ الجاي ده!

اليوم الثاني عشر من الشهر، وقمر الدين يدرك أن الوقت يضيق بسرعة، والتحديات تتزايد أمامه لتجهيز عش الزوجية في هذا الفارق القصير. كان يعي جيدًا أن المهمة ليست سهلة، لكنها حتمية. قرر أن يضغط على نفسه بطريقة كبيرة، مستخدمًا كل طاقاته، ليتأكد من أن كل شيء سيكون جاهزًا قبل يوم الزفاف.

يتبع....

الفصل الخامس عشر

تملكت الدهشة "جميلة" حين أدركت أن موعد الزفاف قد اقترب، فالوقت الضيق لن يمكّن العروسين من إعداد كل التفاصيل المرتقبة. حتى المدعوون، كيف لهم أن يتهيأوا ويقتنوا ما يلزمهم من ثياب في هذه العجالة؟ كان هذا كله عبئًا ثقيلًا يجثم على صدر جميلة، فما كان منها إلا أن مدت يدها المرتجفة نحو كوب الكابتشينو، وهمست بذهول:

_انت بتهزر؟ ٢٥ الجاي؟ ده خلاص قرب جدًا، وانت هتلحق تجهز إنت وسارة؟

قمر الدين بإيجاب:موضوع الشقة ده هيخلص النهارده إن شاء الله وفي خلال أسبوع هتكون الشقة خلصت، إنما الفرح والفستان والبدلة والكلام ده سهل جدًا مش هياخد وقت.

جميلة باستغراب:يعني خلاص يوم ٢٥، ده آخر كلام؟

قمر الدين بتعجب:أيوه يا جميلة، مستغربة ليه؟

جميلة بسرور:ولا مستغربة ولا حاجة، ألف مليون مبروك يا حبيبي، ربنا يتمملك على خير إنت وعروستك.

قمر الدين بفرح:الله يبارك فيكي يا جميلة، عقبال سيليا وأسيل.

جميلة بتمني:يارب يا حبيبي، هبقى أكلم سارة أباركلها.

قمر الدين بابتسامة:ماشي يا جميلة، وأنا هبقى أكلم أحمد أعزمه.

جميلة ببشاشة:أوكي يا حبيبي، باي.

قمر الدين بتبسم:مع السلامة.

نهضت "جميلة" من مكانها بخطى مثقلة، واتجهت إلى غرفة الملابس لتجرب الفساتين واحدًا تلو الآخر. كانت تشعر في أعماقها بأنها زاد وزنها قليلًا بعد ولادتها أسيل، وكلما ارتدت ثوبًا وجدته ضيقًا، لا ينساب على جسدها كما اعتادت. وبعد طول محاولات أرهقت صبرها، غمرها الإحباط فانتزعت الفساتين وألقتها جانبًا بحركة تحمل في طياتها الاستياء، ثم صاحت بانفعال:

_أوه ماي جاد، أنا تخنت! معقول ده بقى جسمي؟ أنا كان جسمي حلو جدًا قبل الجواز! لازم أنزل جيم لحد يوم الفرح!

عاد "أحمد" من عمله عائدًا إلى المنزل، ليحضر بعض الأوراق التي نسيها، فوجد جميلة جالسة في زاوية الغرفة، ملامح وجهها غارقة في العبوس. اقترب منها بخطوات هادئة، ونظر إليها بعينين مليئتين بالقلق والحب، ثم سألها بلُطف:

_مالك يا جميلة؟ إيه اللي مضايقك؟

جميلة بإحباط:بجد حاسة إن أنا تخنت أوي بعد ما خلفت أسيل.

أحمد بتدعيم:بس أنا مش شايف إنك تخنتي بالطريقة اللى بتقولي عليها! إنتي تخنتي حاجة بسيطة جدًا تكاد تكون غير ملحوظة.

جميلة بإصرار:لا لا لا أنا حاسة إن وزني زاد كتير عن العادي!
أحمد بمُغازلة:صدقيني يا حبيبتي وزنك حلو أوي، إنتي يمكن بيتهيئلك!
جميلة بيأس:أوكي بص!

ثم أدارت "جميلة" جسدها ببطء، لتكشف له بوضوح أن الفساتين التي كانت في الماضي واسعة عليها، أصبحت الآن ضيقة، وهو ما تسببت فيه تغيرات حملها بأسيل، حيث أدت التقلبات الهرمونية إلى تغيرات جسدية ملحوظة، وزيادة في وزنها. قالت وهي تحاول السيطرة على مشاعرها:
_شوفت إن أنا وزني زاد!

أحمد بلطافة:وأنا هفضل أقولك إن دي حاجة بسيطة أوي، ممكن مرتين تلاتة في الجيم وترجعي زي ما كنتي.
جميلة ببؤس:تفتكر؟
أحمد بابتسامة:طبعًا، وبعدين إنتي جميلة في كل الحالات، اسم على مسمى! واضح إن طنط كان ليها نظرة في الموضوع ده!
جميلة بفرح:ميرسي يا حياتي.

مهما تزايد وزن جميلة، فإنها تظل في عيون أحمد أجمل من كل الجميلات، ملكته المتوجة، تاجًا يزين رأسه ولا يفارقه. هي بحق ملكة جمال، صاحبة شخصية مؤثرة وجذابة، كالمغناطيس الذي يأسِر القلوب، فتجذب من حولها بسحرها اللامتناهي ولسانها البليغ. اقتربت منه ببطء، وعانقته بحُب، قلوبهما متصلة بروابط العشق الأبدي. فقبل أحمد رأسها بحنان، ثم أمسكت "جميلة" بذراعيه بلُطف، وعدّلت له ملابسه، وقالت برقة:
_كده very Nice!

أحمد بغرام:مش هيكون أحلى من عينيكي!

ثم احتضن جميلة برفق، كأنما يريد أن يمحو عن قلبها كل الهموم، قبل أن يخرج مُتجهًا إلى غرفة النوم ليحضر الأوراق الهامة التي تركها، مُسرعًا للعودة إلى عمله. وفي خضم انشغاله، عقد العزم أن تساعده جميلة على استعادة مكانتها بين زملائها وجمهورها الذين يتوقون لرؤيتها من جديد على الشاشة. وهو يغلق الحافظة البلاستيكية بعناية، همس لها:
_اعملي حسابك هتنزلي معايا من بكرا، ها؟

جميلة بسعادة:أوكي، بليز خد بالك من نفسك!
أحمد بسرور:حاضر، باي.
جميلة بحُب:باي.

ظلت جميلة واقفة على باب الشقة، تراقب أحمد وهو يغادر متجهًا إلى عمله، حتى اختفى في الأفق، فأوصدت الباب خلفه برفق، ثم توجهت إلى غرفة الثياب مجددًا، حيث بدأت تضع لمسات الماكياج على وجهها، وتجرّب الفساتين المختلفة التي قد اختارتها، استعدادًا لزفاف قمر الدين الذي بات يقترب على نحو مُتسارع. تساؤلات لم تجد لها إجابة بعد. في منزل أم الديب، بعدما سلّم "جلال" العقد للمحامي وعاد إلى منزله، وكان قد اقترب من الدرج وهو يدندن بأغاني المهرجانات، وفجأة، قطع الصوت الذي يصدره رنين هاتفه الجوال، ليظهر على الشاشة اسم "هايدي"، فما كان منه إلا أن استجاب للمكالمة بنبرة تحمل شيئًا من الفضول، قائلًا:
_ألو.

هايدي بتردد:ألو، أنا اتكلمت مع زياد في الموضوع وهو رفض.
جلال بامتعاض:ياكش يولع يا بت! مصلحتنا احنا أهم حاجة، بلا زياد بلا بتنجان أزرق، أنا اللي قولته هيتنفذ بالحرف وإلا وربنا هخلي عاليها واطيها!
هايدي بانفعال:علفكرة احنا مش مجبرين نعمل اللي إنت بتقوله ده! احنا مش تحت طوعك، إنت أساسًا مالكش حكم علينا!
جلال بشناعة:لا ليا، أخوكي هيفضل أخوكي لحد آخر يوم في عمرك يا بت! إنما جوزك ممكن تطلقي منه وتتجوزي غيره!
هايدي بتضايق:بعد الشر، إنت ليه بتفّول علينا؟
جلال بخديعة:هو أنا يا بت هتمنالك الشر؟ إنتي في الأول والآخر أختي! أنا مش عايز منكم غير اللي قولتهولك، لا زيادة ولا أقل، يعني يبقى في إيديكم تساعدونا ومش عاوزين؟

ظل جلال واقفًا أمام باب شقته، يملأ الأرجاء بصوته الجهوري، كان صوته يجلجل في أرجاء المنزل، مندمجًا بشدة في المكالمة الهاتفية، حيث كانت هايدي على الطرف الآخر تخبره برفض زياد لما عُرض عليه. لكن جلال لم يقبل بأن يُقفِل الحوار بسهولة، بل ظل مصرًا على أن يتدخل بكل قوته لتنفيذ خطته، إذ كان يرى أن مصلحته هي الأولى والأهم، وبقية الأمور لا تعني له شيئًا، فلا يكترث إن كانت هذه الخطة ستجلب المشكلات للآخرين أو لا، فكل ما يهمه هو تحقيق هدفه الخاص. في تلك اللحظة، كان "زياد" جالسًا على السرير في غرفة نومه، يستمتع بمشاهدته للتلفاز، وعندما وصل إلى أذنه صياح هايدي عبر المكالمة، خرج بسرعة من الغرفة، وأخذ الهاتف من يد هايدي، قائلًا بنبرة هادئة لكنها حازمة:
_ألو يا جلال، عاوز إيه؟

جلال بحدة:كويس ياض إنك جيت عشان نتكلم راجل لراجل، بقول لمراتك تبقوا في إيديكم تساعدونا وتتأخروا عننا؟ أنا عاوز أبيع أم الشقة وبعد كده خلصنا!
زياد بقلق:ويفرض حصل مشاكل من ورا الموضوع ده؟
جلال بفظاظة:لا مش هيحصل، ولو حصل أنا اللي شايل الليلة كلها فوق دماغي، عاوزين إيه أكتر من كده؟
زياد بوعيد:طيب تمام، خلينا وراك للآخر بس لو حصل عكس اللي بتقوله أنا هيكون ليا تصرف تاني!
جلال بغلاظة:جلال مبيتهددش ياض! واللي أقوله يتنفذ وبس!
زياد بحسم:أنا مبهددش حد، أنا بعرفك إن لو حصل أي حاجة إنت المسئول!
جلال:طيب ماحنا قولنا، ولا هنعيد ونزيد؟ ثقوا فيا شوية!
زياد بإذعان:ماشي يا جلال.

وافق زياد على تنفيذ الخطة، لا عن قناعة تامة، بل من أجل أن يتخلص من إلحاح جلال المستمر، وحتى لا تتعرض هايدي لإهانة جديدة منه الذي قد ينتقم منها بطرقه القاسية إن تمادت. فقد كان زياد لا يخشى على نفسه فقط، بل كان يتحسس على هايدي أدق التفاصيل، لا يطيق أن يصيبها ضرر حتى لو كان ضئيلًا، فهو مستعد أن يتحمل كل ما قد يواجهه من صعاب، بينما تظل هي في مأمنٍ تحت جناحيه، بعيدًا عن أي أذى.
دخل جلال الشقة بعد أن أنهى المكالمة الهاتفية، في حين كانت "ليالي" قد دخلت الغرفة ووضع إصبعها على الكوميدينو لتكتشف أن طبقة من الغبار العميق قد تراكمت عليه، مما جعلها تدرك أن الأتربة قد غمرت الشقة بالكامل طوال فترة سفرها، حتى طال السجاد والأرض. اندهشت، فقالت بصدمة:
_يا لهوي كل ده تراب؟ بقى أسيب الشقة كام يوم أرجع ألاقيها كده؟ أمال لو كنت سيبت الشباك مفتوح كان إيه اللي جرا؟

دخلت "تقى" مع حمود الغرفة بخطوات سريعة، مُبدية رغبتها الملحة في أن تحممها والدتها، وهي تقول بعجلة وكأنها لا تحتمل الانتظار:
_ماما، تعالي حميني!

ليالي بشاغل:استني بس يا تقى! ده أنا ورايا هم ما يتلم، طب ده أنا كنت منضفة الأوضة قبل ما نسافر علشان نرجع نرتاح عالطول.
حمود:هاتيلي تين ياما!
ليالي بهَمّ:عندك في المطبخ، خد في طبق وإياك تاكل بإيدك من غيره!
حمود:ماشي.
ليالي بإرشاد:أبقى اشطفه الأول يا واد!
حمود:طيب.

دخل حمود المطبخ بسرعة، واتجه مباشرة إلى الثلاجة التي كانت مليئة بالفواكه الطازجة، فاستخرج منها التين البرشومي، وشطفه بسرعة تحت الماء، غير مبالٍ بتنظيف الفاكهة كما تفعل والدته التي تهتم بكل تفاصيل النظافة، بل كان همه الأساسي تلبية شهيته دون عناء. وبعد أن انتهى من شطفها، خرج وهو يحمل ثلاث حبات نحو الغرفة، فأخذ يأكل اثنين منها بينما ترك واحدة لتقى، التي كانت تنتظره بفارغ الصبر. في ذات الوقت، دخلت ليالي الغرفة حاملةً المكنسة اليدوية، فبدأت في رفع السجاد بعناية، ثم قامت ببرمه بحركة دائرية، وأثناء ذلك شرعت في تنظيف المكان تحت السرير، مما أدى إلى انتشار الغبار في أرجاء الغرفة، فتسلل التراب في كل زاوية. وما إن دخل "جلال" إلى الغرفة حتى شعر بوجود الغبار، فابتلع الهواء وتقطعت أنفاسه وهو يسعل بشدة، فوقف مستعجبًا قائلًا:

_التراب دخل في مناخيري يا بت! إيه التراب ده كله؟هو إنتي سيبتي الشباك مفتوح؟

ليالي بأزمة:ولا سيبته ولا اتنيلت، طب ده أنا منضفة الأوضة قبل ما نسافر عشان لما نيجي نرتاح عالطول، أما قولي عملت إيه؟

جلال:المحامي قالي لازم أمي هي اللي تيجي وتمضي ببطاقتها، وأنا أمي مش هترضى ومش بعيد تقتلنا قتيل لو عرفت حوار بيع الشقة، روحت مكلم هايدي واتفقنا على حوار كده.

ليالي باستغراب:هايدي؟ وحوار؟ وإيه اللي جاب هايدي لبيع الشقة؟

جلال برصانة:هنقول لأمي إن المأذون اللي كتب كتاب هايدي لسه موثقش عقد الجواز في المحكمة وإن المحكمة طالبة أبوها وأمها يمضوا على العقد.

ليالي بازدراء:يا سلام؟ وهي هتصدق الحوار العبيط ده؟ ما كلنا اتجوزنا ومحدش حصل معاه اللي بتقوله ده، أمك مش هتصدقك، ده عندها تصدق كل الناس إلا احنا، تيجي عندنا احنا وتكدبنا.

جلال:ماهو مفيش حجة تانية إلا كده، نجرب ويا تصيب يا تخيب.

غير جلال ثيابه بسرعة، ثم تناول فطوره واحتسى كوبًا من الشاي قبل أن ينزل إلى منزل أم الديب ليعرض عليها خطته التي كان يظن أنها ستلقى قبولًا. دخل الصالة ليجدها جالسة على الأريكة، مشغولة بلعب أظافرها التي كانت مغمورة بالطين، وكأنها لا تكترث بما يدور حولها. بدأ جلال بسرد خطته التي اعتقد أنها ستدهشها، لكن سرعان ما تحولت إلى حديث أبله لم تجد فيه أم الديب أي جدوى، مما أثار ضحكها بشكل غير متوقع، فانتشر ضحكها في أرجاء الصالة كأنما هو هزيم من ضحكات غير محسوبة. توقف "جلال" عن الحديث فجأة، وقد بدت على ملامحه علامات الاستغراب، فالتفت إليها وقال بحيرة:

_بتضحكي على إيه ياما؟ هو ده وقت ضحك؟ هو أنا تاعب نفسي ونازلك عشان تضحكي؟

أم الديب باستهزاء:وانت تاعب نفسك كدهو ليه؟ كنت كلمتني في التلافون أحسن بدل التعب دهو.

جلال بعَزيمة:ياما لازم عقد الجواز يتوثق! أنا قولتلهم وقتها بلاش المأذون ده شكله على قده، محدش صدقني، اشربوا بقى!
أم الديب بخبث:ايهي وانت من امتى قلبك على حد من أخواتك؟ اشمعنا المرة دهي يعني؟
جلال بدهاء:كلنا اتجوزنا وهايدي كانت آخر العنقود، آخر فرحتنا يعني واحنا ميرضناش حد يوقفهم في كمين ويشك فيهم إكمن العقد مش متوثق، فاحنا لازم نوثقه ياما عشان محدش يشك فيهم ويقول إن ده جواز عُرفي.
أم الديب بصياح:بقولك إيه يا جلال، حِل عن نفوخي! وتطلع تنده مراتك وأختك وآني مش هرجع في كلامي لو اتنططوا على إيديكم ورجليكم! فاهم ولا لا؟
جلال بسخط:عيب الكلام ده ياما، احنا ناس تمام التمام، ماهو إنتي كده تصدقي الغُرب وتيجي عند عيالك تكدبيهم، هو إنتي لاقياني على باب جامع؟
أم الديب بسخرية:لا لاقياك قصاد زريبة مواشي، عشان كدهو طالع حمار كبير.

لم تقتنع أم الديب بحديثه، وأظهرت تجاهلًا واضحًا لما كان يقدمه من تبريرات، بل قابلته بمكر ممزوج بلا مبالاة، ثم قامت بهدوء ودخلت الغرفة، وأغلقت الباب وراءها بطريقة تحمل في طياتها امتهانًا. تركت "جلال" واقفًا في الصالة، وهو يشهد ذلك التصرف الذي لم يكن يتوقعه، فنهض متعصبًا، وقد تجمعت في عينيه شرارة الحنق، ثم تقدم نحو الباب وبدأ يطرق عليه بعنف، وكان صوته يزداد حدة مع كل ضربة، وعروق عنقه تبرز بشكل واضح من شدة انفعاله، ثم صرخ بصوت مرتفع:
_عيب عليكي ياما الكلام ده! الكلام ده هيجيبلك المشاكل! ولو عاوزة تتشاكلي عرفيني عشان أتشاكل معاكي، ماحنا خلاص مابقاش ورانا حاجة غير أم المشاكل... افتحي ياما وبطلي تدبي الكلام وتخشي الأوضة وتقفلي على نفسك! لا ماهو مش جلال اللي يحصل فيه كده، افتحي ياما! افتحي بقولك، افتحي! في إيه؟
فجأة، فتحت "أم الديب" باب الغرفة بقوة، وعينها تلمعان بالتحدي، ثم قالت له بنبرة مليئة بالاستفزاز:
_ايهي زعلان يا ولا إني بقول عليك حمار كبير؟ مانت حمار كبير بحق وحقيقي، طب مسألتش نفسك ليه؟

جلال بصياح:مش عاوز أعرف!
أم الديب بعجيج:آني بقى هقولك، بعد كده يا روح أمك وانت بتتفق مع أختك في التلافون عليا أبقى وطي صوتك أصل اسم الله عليك صوتك كان بيرج الدار رج كدهو! وإن كان على عقد الدار فمتخافش، آني شايلاه في مكان ميجيش على بال حد!
جلال بقهقهة:حلوة دي ياما! لا بتتكلم وهي واثقة أوي من نفسها، طب اسمعي بقى! عقد البيت معايا وأعلى ما في خيلك اركبيه!
أم الديب:هو آني مقولتلكش ياخويا؟ دهو عقد بيع الدار القديم، إنما الجديد مكتوب بإسم خالك ضايع، معاه يعني! تعيش وتاخد غيرها يا جلال، بس والنبي ياخويا نصيحة مني تنزل الترعة تبردلك كومة النار اللي جواك! أجيبلك كاوتش العربية زي زمان؟ ولا تاخد عوامة عيالك؟ ولا تعوم خفيف خفيف كدهو؟ آني من رأيي تعوم خفافي.

أوصدت أم الديب الباب في وجه جلال بقوة، وهي تنهي كل محاولاته لإقناعها، ثم استلقت على سريرها غير مكترثة لما جرى، بعدما أفسدت له خطته التي كان يظن أنها ستسير بسلاسة. كان الخطأ في الأساس من جلال نفسه، فقد تحدث على الدرج بنبرة مرتفعة وصوت مسموع كشف كل خططه تجاهها، دون أن يضع في اعتباره أن الكلمات قد تحمل آثارًا غير متوقعة. صعد إلى شقته وهو يشعر بنار الغضب تشتعل بداخله، محاطًا بالغبار الذي ملأ الشقة، بينما كانت ليالي تنظف الشقة بعناء بدلًا من أن تأخذ قسطًا من الراحة بعد عودتها من السفر الطويل.

مرت الأيام، واستغل قمر الدين كل لحظة فيها، حيث خصص يومًا لشراء شقة دوبلكس فاخرة تطل على النيل، شقة بنظام ڤيلا رحيبة جدًا، تجمع بين التراث الحديث والفخامة المطلقة، مساحتها تبلغ سبعمائة متر مربع وسعرها يصل إلى مائة وثلاثين مليون جنيه مصري. بدأ في تغيير ألوانها بعناية، وأكمل تجهيزها قبل يوم الزفاف، حيث تم اختيار الأثاث بعناية فائقة ليُناسب طابع المكان الفاخر. حتى الفستان والبدلة تم شراؤهما من أكبر المتاجر التي يتعامل معها المشاهير والفنانين من كافة أنحاء العالم.

وفي يوم الزفاف، اتجهت عائلة قمر الدين إلى فندق "فور سيزونز نايل بلازا"، الذي يُعد من أفخم الفنادق في القاهرة، حيث حجز كل فرد جناحًا خاصًا به استعدادًا لهذه الليلة التي ستكون خالدة في ذاكرة الجميع. كانت ليلة الزفاف حدثًا عصريًا فريدًا، وأخيرًا، وبعد سنوات من التأخير، وقع قمر الدين في حب فتاة خطفت قلبه بكل قوة، ليجد أخيرًا الاختيار الأمثل الذي ظل يبحث عنه طويلًا. تلقت هايدي وزياد دعوتين لحفل الزفاف من جميلة وأم قمر الدين، وفي نفس اليوم، كانت المدرسة قد وعدت بإرسال رسالة على البريد الإلكتروني لمعرفة ما إذا تمت الموافقة على طلبها أم لا. كانت هايدي جالسة بجانب زياد على السرير، عيونها لا تكف عن النظر إلى الهاتف في ترقب، كل ساعة تمر تزيد من قلقها بسبب تأخر الرسالة لعدة أيام، فتمسك بهاتفها بين يديها وهي مشدوهة. نظر "زياد" إليها بقلق، وسألها:
_إيه بعتولك على الإيميل ولا لا؟

هايدي بارتباك:المفروض يبعتوا دلوقتي، مش عارفة هيتأخروا ولا هيبعتوها زي ما قالوا.
زياد بتبسم:متخافيش إن شاء الله هتتقبلي.
هايدي بأمل:يارب.

كان زياد واثقًا كل الثقة في قدرات "هايدي"، مؤمنًا أنها ستحقق كل ما تطمح إليه، أما هي فكانت في حالة من التردد، كمن ينتظر بفارغ الصبر ظهور نتيجة الثانوية العامة، مفعمةً بالترقب على مصيرها المهني. ومع مرور الوقت وتأخر الرسالة، وضعت هاتفها على السرير وكأنها لا تستطيع تحمل المزيد من التوتر، ثم استلقت على ظهرها لتتأمل السقف، محاولة تهدئة نفسها. لكن فجأة، استمعت إلى إشعار الهاتف، فانتفضت بسرعة وأمسكت به، وقلبها بدأ ينبض بسرعة أكبر مع كل ثانية تمر. فتحت الرسالة بسرعة،

وعندما قرأتها، غمرتها السعادة بشكل مفاجئ، فقد علمت أنه تم قبولها في الوظيفة التي طالما حلمت بها. في لحظة، تبدل شعورها بالخوف إلى فرحة عارمة، ونهضت من السرير بسرعة، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة واسعة، لتقول بفمٍ متقطع من شدة الفرح:
_أنا اتقبلت! اتقبلت يا زياد!

عانقها "زياد" في الحال، محاطًا بمشاعر الفرح العارمة التي كانت تغمره، ثم قبل رأسها بحب، وهو يشعر أن قلبه يرفرف في الهواء من شدة السعادة. وأخذ يتحدث إليها بثقة تامة، وكل شيء في الكون قد استقر في مكانه، قائلًا لها بحماس:
=ألف مليون مبروك يا حبيبتي، مش قولتلك إنك هتتقبلي؟

هايدي بغبطة:الله يبارك فيك، الحمدلله بجد، أنا مش مصدقة إن أنا اتقبلت في المدرسة دي!

زياد بحبور:الحمدلله، بصراحة المدرسة تستاهل الفرحة دي كلها، عقبالي أنا كمان!
هايدي بسعادة:طيب مش هتقدم إنت كمان؟
زياد بفرح:أيوه بس مش دلوقتي، المهم عايزك تقومي تجهزي لأننا كده هنتأخر على الفرح!
هايدي:أه صح، طب وهلحق؟
زياد:طبعًا هتلحقي، احنا لسه العصر!
هايدي بابتسامة:طيب أنا هقوم أجهز، بدلتك مكوية في الدولاب.
زياد ببشاشة:ماشي.

دخلت هايدي المرحاض، وحملت ماسك L'Oréal Paris Pure الغني بالكاولين والجلسرين، وبدأت بتوزيعه على وجهها برفق، تحرص على أن يغطيه بالتساوي. كانت تأمل أن يُعطيها بشرة مشرقة ونضرة قبل أن تبدأ في وضع الماكياج، فهي دائمًا تهتم بتفاصيل وجهها قبل أن تبدأ يومها. بينما في شقة جميلة، كانت هي الأخرى في المرحاض، مشغولة بتحميم فتياتها واحدة تلو الأخرى، حيث بدأت أولًا بسيليا، ثم انتقلت إلى أسيل، تغسل شعرهن بلُطف باستخدام الشامبو، وتضمن أن تحصل كل واحدة منهن على العناية الكاملة. وبعد أن انتهت من الاستحمام، أخذت فتياتها إلى غرفة الثياب، حيث بدأ فصل آخر من العناية، فاستعملت السشوار لتجفيف وتصفيف شعرهن، بعناية، بينما كانت تلبسهن ثيابهّن بأناقة، لتحصل كل واحدة على مظهر مميز. بينما كانت "سيليا" تحمل جهاز الآيباد الخاص بها، أظهرت صورة تعجبها لتسريحة شعر مبتكرة، وأمل عيونها يلمع وهي تقول بحماس:
_مامي ممكن تعمليلي الاستايل ده؟

جميلة باعتياص:هو Difficult شوية بس هنحاول.
سيليا:أوكي.

بعد ذلك، حاولت جميلة أن تساعد سيليا لتحقيق ما كانت ترغب فيه، فتصفف شعرها على قدر إمكانياتها المُتاحة، مستخدمة كل مهارتها في التعامل مع خصلات شعر سيليا التي كانت تلمع تحت أشعة الضوء، وعندما انتهت من تصفيف شعرها، استعدت جميلة لتثبيته كما هو معتاد منها، فوضعت لمساتها النهائية بحذر شديد. ثم نظرت "سيليا" إلى تسريحتها في المرآة، وابتسمت بإعجاب، وقد انعكس على وجهها شعور من الامتنان لما فعلته جميلة لها. قالت بصدق، وعينها لا تفارق صورتها في المرآة:
_ميرسي يا مامي.

جميلة بحنو:العفو يا روحي، أوعي تبوظي شعرك! عايزاه يفضل حلو كده لآخر اليوم!
سيليا:حاضر يا مامي.
جميلة بدلال:برافو يا سيليا، ندخل على الحلوة القمراية دي!
سيليا باكتراث:وانتي يا مامي هتجهزي امتى؟
جميلة:بعد ما أخلص أسيل هبدأ في التجهيزات.
سيليا:أوكي.

حملت جميلة أسيل بين ذراعيها، وبدأت في تسريح شعراتها الخفيفة بلُطف، فقد كانت سهلة التعامل معها مقارنة بشعر سيليا الكثيف. وضعت التوك في رأس أسيل بحرص، ثم ارتدت لها أجمل الفساتين التي تبرز جمالها البريء. وبعد أن انتهت من ذلك، توجهت لمساعدة سيليا في ارتداء فستانها الأبيض الصغير الذي كان يناسبها تمامًا. جلست سيليا على الأريكة، تحمل جهاز الآيباد بيديها، تغرق في مشاهدة مقاطع الفيديو الخاصة بالأطفال على يوتيوب. أما جميلة، فقد أكملت مهمتها كأم أنيقة ثم بدأت في إتمام مهمتها كزوجة. وضعت الماكياج بطريقة احترافية، حيث أضافت لمسات من الأيلاينر الذي منح عينيها جاذبيةً. ثم رفعت المكواة برفق، لتنعيم شعرها الذي أصبح كالحرير في لحظات، وأعطت شعرها تسريحة مختلفة ومميزة تضفي عليها لمسة من الأناقة. اختتمت ذلك بارتداء فستان أنيق، ورشّت العطر الفاخر الذي كانت رائحته تعبق في الأرجاء حتى أنها كانت تصل إلى الحي المجاور من عذوبته.

في جناح أم قمر الدين وباسم في الفندق، كانت أم قمر الدين تستحم في المرحاض، بينما كان باسم جالسًا على السرير، لا يزال يرتدي بيجامته، مشغولًا بضبط ساعة اليد على معصمه بعناية. في تلك الأثناء، دخلت "سامية" حاملة طفلتها لارا، وبدا جمالهما واضحًا بشكل لافت لا يمكن تجاهله. اقتربت سامية من والدها الذي كان غارقًا في تركيزه على الساعة، وقالت له بتعجب:
_إيه يا بابي، مش هتلبس؟

باسم بتمعن:أه طبعًا يا حبيبتي، أنا بس بظبط الساعة، من إمبارح وهي مش مظبوطة.
سامية:ياحبيبي إنت عندك ساعات Too Much، مش لازم دي يعني!
باسم باستثناء:لا لا الساعة دي بالذات بعتز بيها جدًا عن أي ساعة تانية!

سامية بضحك:ليه بقى إن شاء الله؟
باسم بإعزاز:لأن والدتك هادتني بيها ليلة جوازنا ومن يومها وهي مبتتقلعش من إيدي أبدًا إلا في أوقات بسيطة.
سامية بتبسم:أيوه يا سيدي على الحب والغراميات، طب ده أنا كده هحسدكم، معقول بعد العمر ده كله ولسه اللي في قلبك ليها متغيرش؟
باسم بتعشق:ولا عمره هيتغير، إنتي متعرفيش أنا بحبها قد إيه!

خرجت "أم قمر الدين" من المرحاض، مرتدية رداء الاستحمام الأبيض الذي يضفي عليها هالة من الأناقة البسيطة، بينما كانت المنشفة ملفوفة على رأسها بشكل محكم. كانت أذناها ما زالتا تستمعان للجملة الأخيرة التي قالها باسم، فاستدارت نحوه بسرعة، وقد ارتسمت على وجهها الدهشة. نظرت إليه بعينين متسائلتين، ثم قالت بتعجب:
_هي مين دي يا باسم اللي سامية متعرفش إنت بتحبها قد إيه؟

باسم بهوى:انتي طبعًا يا قمر! هو أنا أقدر أحب حد غيرك؟ طب عارفة؟ إنتي كل ما بتكبري كل ما بتزيدي حلاوة، وجمال، ودلال!
أم قمر الدين بدلال:ميرسي يا روح قلبي، إنت اللي متعرفش أنا بحبك قد إيه، ولو يخيروني ما بين أعيش عمر قصير بس معاك ولا أعيش عمر طويل من غيرك، هختار أعيش العمر اللي فاضلي معاك انت!

باسم بغرام:ربنا يخليكي ليا يا حبيبتي ويزيد حبنا كمان وكمان.

مهما مرت السنوات، وشاب شعرهما، وسقطت أسنانهما، فإن الهوى بينهما يظل يتفاقم ويتجدد، لا ينقص ولا يتبدل، رغم وجود الحفدة حولهما. فهما لن يريا سوى بعضهما البعض، ولن يجد أحدهما في الدنيا من يعوض الآخر. شعرت "سامية"، وهي تحمل ابنتها لارا بين يديها، أن وجودها بين هذا الحب العميق يشبه العزول، وكأنها جزءٌ صغير في عالم كبير من الارتباط الأبدي بينهما. فابتسمت في سخرية خفيفة، وضحكت ضحكة قوية، ثم قالت بمزاح:
_يا سلام؟ طب وبالنسبة للي واقفة معاكم دي، نظامها إيه؟

أم قمر الدين بمرح:لا لا بقولك إيه يا سامية يا حبيبتي، مش وقته غيرة خالص! أنا النهارده The groom's mother، يعني مش عايزة أي نكد! وبعدين ده مفيش وقت خالص يا دوب أعمل شعري وأحط ميك أب وألبس الفستان، وانتي كده بتعطليني!
سامية بمزاح:شوف شوف.

ثم أردفت لوالدها بضحك خفيف، وهي تنظر إليه بعينين مليئتين بالمرح:

_طب خليك شاهد بقى على اللي بيحصل ده!

باسم بضحك:ولا أقدر أتكلم!
سامية بِافترار:ماشي يا سيدي أنا بس لولا إنه النهارده فرح أخويا كنت خدت موقف جامد!
أم قمر الدين بتعجب:هتعملي إيه يعني؟
سامية بضحك:هخاصمك ولو شوفتك مش هبصلك!
أم قمر الدين بقهقهة:يا سلام؟ وأنا كده خوفت؟

اقتربت سامية من والدتها وهي تقهقه، وعانقتها بحُب، ثم وضعت قبلة بسيطة على وجنتها، مما جعل "أم قمر الدين" تضحك بدورها، وقد امتلأ وجهها بالبهجة. فقالت لها بمزاح، وهي تراقب ابنتها بابتسامة دافئة:
_حبيبتي يا سامية.

ثم أردفت لباسم بعجلة، وقد كانت تمتلئ عيناها بالترقب، وكأن الوقت يداهمهما:
_يلا يا باسم! بليز مش عايزين نتأخر!

باسم:حاضر.

دخلت أم قمر الدين غرفة الثياب، وصكت الباب خلفها بهدوء، حيث بدأت في تجفيف شعرها باستخدام جهاز السشوار، بينما كانت تضيف الكريمات بعناية لتعيد الحيوية والتألق لشعرها. ثم بدأت في وضع الماكياج بشكل بسيط، فقد كانت تعرف جيدًا كيف تُبرز جمالها بأقل الإمكانيات، فلا تحتاج للكثير لتظهر في أبهى صورة. كانت تعلم أن الجمال يكمن في التفاصيل الصغيرة. في هذه الأثناء، نجح باسم أخيرًا في إصلاح ساعته، وعاد ليلتقط بدلته السوداء من على علاقة الملابس، استعدادًا للظهور في اليوم المنتظر. خرجت سامية وهي تحمل طفلتها لارا، ثم نادت على مربية الأطفال لتستلمها مكانها، بعد أن قررت أن تتابع استعدادات الجميع. توجهت سامية إلى غرفة أخواتها الفتيات، وكان من الواضح أن قامتها الطويلة كانت تخلو من الكعب العالي، لكنها كانت تمشي بثقة، وكأن كل خطوة منها كانت تعزف سيمفونية هادئة في المكان. كانت تسير كما لو أن الفندق ملك لوالدها، لكن الحقيقة كانت أن مالك الفندق كان صديقًا لباسم. أما في منزل أم الديب، فقد كان "جلال" قد قرر زيارة الشقة، حاملًا كيسًا من الخضار وآخر من الفاكهة، كعادته في تقديم الرفاهية لأسرته. وعندما صعد السلالم، فوجئ برؤية أم الديب واقفة على باب شقتها، وكأنها تنتظره. وفي تلك اللحظة، ألقى عليها التحية، قائلًا بصوت واضح:
_سلامو عليكو ياما.

أم الديب:وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
ثم نادته بدهاء، وهي تبتسم ابتسامة طالحة، وعيونها تتألق بحيلة ماكرة:

_استنى عندك!

توقف "جلال" عن الصعود، ونزل بضع خطوات نحوها، عينيه تركزان عليها بفضول، وكأنها فتحت أمامه بابًا جديدًا من التساؤلات. ثم سألها، وهو يحاول فهم ما تعنيه بكلماتها:
=عاوزة إيه؟

أم الديب بتطفل:إيه اللي جوا الأكياس دهي؟
جلال بكراهية:وانتي يخصك في إيه؟
أم الديب بدسيسة:بيني وبينك، المفروض الأكياس دهي يبقى جواها سكينة عشان تغسل عارك!
جلال بصياح:عار إيه ياما؟ عبط إيه ده اللي بتقوليه؟
أم الديب بانتحاب:ده يا عيني عليك يا جلال، ده آني قلبي بيتقطع عليك وعلى اللي بيجرا من ورا ضهرك، بقى آني ابني يجراله كل دهو من تحت وش ليالي بت دباح الحمير؟ يا عيني عليك ياخويا ممرمطاك إيشي خضار وايشي فاكهة وإيشي طلبات البيت.

جلال بصخب:جرا إيه ياما العبط ده؟ إنتي كبرتي وخرفتي ولا إيه؟
أم الديب ببكاء:آني؟ أبدًا، ده ليالي بتستناك كل يوم تنزل الشغل عشان تجيب بتاع الأنابيب عندها الشقة يغيرلها الأنبوبة، يا عيني عليها مبترضاش تقولك عشان متزهقش من المصاريف، هو هيبقى مصاريف أكل وشرب وكمان مدارس العيال؟ لأ وفلوس الأنابيب كمان؟

ألقى جلال أكياس الفاكهة والخضروات على الأرض بامتعاض، ثم انطلق سريعًا نحو الأعلى، بخطوات سريعة. تدحرجت الفواكه والخضروات على الدرج، محدثة ضوضاء تنم عن حنق مكبوت. عندها صرخت "أم الديب" بحدة، قائلةً:
_يخيبك! دهو جايب عنب وجوافة، كدهو يا جلال وقعتهم؟ يلا مالكش نصيب فيهم!

انحنت أم الديب بسرعة لتجمع الفاكهة والخضروات التي تفرقت على الأرض، وكان جلبابها يتسع مع كل حركة لتلتقط الأشياء وتضعها بداخله. أما جلال، فقد صعد بسرعة إلى الأعلى، وعيناه مليئتان بالغيرة بعد أن لمح مشهدًا في المطبخ. هناك كان "بائع الأنابيب" يقف بظهره، إلى جانب ليالي، يتحدث معها دون أن يلحظ وجوده. فور أن رآه، لم يتمالك نفسه، فانقض عليه بعنف، يطأه بكل قوته، ونيران الغيرة تغلي في عروقه، وهو لا يستطيع تحمل رؤية هذا أكثر من ذلك. **يتبع....**

الفصل السادس عشر

اندفع جلال نحو بائع الأنابيب بكل ما أوتي من قوة، فطرح الرجل المسكين أرضًا، غير مكتفٍ بذلك، بل انقض عليه بقفزات عنيفة، وأهوى بكفه على رأسه بضربات لا تعرف الرحمة. راح يستعين بيديه وقدميه في اعتداء وحشي، فيما علت صرخات ليالي تطالب بالكف عن هذا الجنون. وسط فورة غضبه وصراخها المستغيث، صاح "جلال" بصوت عالٍ، وهادر:

_بتعمل إيه هنا يابن الكلـ*؟ ده أنا هـ.....

ما إن نهض جلال مصدومًا بعدما تكشّفت أمامه حقيقة أن المتواجد لم يكن بائع الأنابيب كما ظنّ، بل هو صابر، أخو ليالي الذي عاد من سفر طويل محمّلًا بالشوق، ليجد نفسه واقفًا أمام منزل أخته وقد اختار أن يقدّم لها مفاجأة تسرّها وتبهج قلبها بعد أن التفت إلى متاعه المثقل بالأغراض المتناثرة في حظيرة الطابق الأول، حيث ألقاها على عجل بعدما وجد الباب مواربًا، متخليًا عن فكرة حملها إلى الأعلى نظرًا لثقلها البالغ، ليصعد بدلًا من ذلك بأنبوب غاز بدافع أخوي صادق حين علم أن أختَه تعاني نقصًا فيه، فكانت هذه اللحظة بالنسبة إلى ليالي بمثابة نفحة من السعادة الغامرة. اندفعت ليالي نحوه بفزع، لترفعه عن الأرض، بينما عينا جلال ترقبان المشهد بدهشة. قالت "ليالي" بصياح:

_حرام عليك يا جلال، إيه اللي إنت عملته ده؟ حسبنا الله ونعم الوكيل فيك يا أخي!

أحنى "جلال" رأسه نحو الأرض لوهلة قصيرة، كأنما يبحث بين تفاصيل التراب عن كلمات تُلملم شتات الموقف الذي صنعته يداه، ثم رفع عينيه ببطء إلى صابر، وقد ارتسمت على ملامحه دهشة تخالطها حيرة، وقال بصوت يحمل أثر المفاجأة:

_هو انت.... هو إنت يا صابر؟

صابر بصخب:جرا إيه يا عم اللي عملته ده؟ بقى بتضربني يا جلال؟

جلال بدهشة:هو إنت رجعت من السفر امتى؟

صابر بصياح:وانت مالك؟ بقى بتضربني يا جلال؟

التفت "صابر" نحو ليالي بعينين تقدحان شرر الغضب، وصاح بصوت جهوري متفجر، وقد علا وجهه حُمرة الانفعال:

_هو أنا جاي أتهان في بيتك يا ليالي ياختي؟

ليالي بإحراج:والنعمة أبدًا.

عانقت "ليالي" ذراعي أخيها بحركةٍ حانية، كأنما تحمل في تلك العناق اعتذارًا صامتًا لا يحتاج للكلمات، ثم التفتت إلى جلال، وقد ارتسمت على وجهها ملامح الألم، وصرخت في وجهه قائلة:

_إيه اللي إنت هببته ده يا جلال؟

شعر "جلال" بإحراجٍ عميق وكأنما تمنى لو تفتت الأرض لتبتلعه، فقد أدرك أنه اندفع في تصرفه دون أن يُعير أدنى اهتمام لما قد يترتب عليه، على اعتقادٍ منه أنه بائع الأنابيب كما قالت له أم الديب. فاستجمع نفسه للحظة، ثم قال بندمٍ يعكس خجله ووعيه بما ارتكب:
_طب أقعد ياض، حقك على راسي! أصل أنا راجل دمي حامي ولا مؤاخذة فكرتك بتاع الأنابيب!

ليالي بعجيج:وبتاع الأنابيب هيجي هنا يهبب إيه؟
صابر بجلجلة:لمي هدومك ومعايا على بيت أبويا يا ليالي! أخوكي اتهان من جوزك!
ليالي بنواح:طب والنعمة مانا قاعدالك فيها يا جلال! كله إلا صابر أخويا! أخويا خط أحمر! آه يا مراري منك.

دخلت ليالي بسرعة إلى غرفتها، تلمّ ثيابها بعجلة، وتضعها في حقيبة قماشية لتغادر مع أخيها، في حركة تنم عن قرار حاسم، بينما كان جلال يقف في مكانه، مصدومًا تمامًا، وكأنما صُدم بكلماتٍ تعجز نفسه عن ترجمتها إلى ألفاظ، فشعر وكأن قلبه قد توقف عن الخفقان في لحظة من الضياع. وأثناء ما كانت ليالي تجمع ثيابها بتلك الهمسات المُتسارعة، صاح "صابر" بصوت مرتفع:
_ماشي يا جلال وأنا اللي فاكرك هتاخدني بالحضن؟ ده أنا بقالي شهور مسافر ويوم ما أرجع يحصل فيا كده؟
بعد لحظات قليلة، كانت ليالي قد لَمّت ثيابها، وجمعت أغراضها في الحقيبة القماشية، ثم خرجت من الغرفة بخطواتٍ سريعة. عندئذ، وقبل أن تخرج من الباب، قال لها "صابر" بنبرة حازمة تحمل في طياتها استعدادًا لمواجهة ما قد يأتي:
_يلا يا ليالي ياختي!

ليالي ببسالة:يلا بينا ياخويا!

أخذت ليالي الحقيبة وبدأت في النزول، خطواتها تتسارع. بينما كانت "أم الديب" تقف أمام باب شقتها، تتابع ما يحدث في الأعلى، وقد امتلأت عيناها بتساؤلات فضولية، حتى إذا ما رأت ليالي تنزل مع أخيها، وكأن السخط يعبّر عن نفسه على ملامحهما، ارتسمت على وجهها ابتسامة مشوبة بالشماتة، وقالت بصوت يملؤه التسلية:
_ليه كدهو بس؟ ده آني كان قصدي خير، يلا ربنا يجعلها أول الأحزان، يوه قصدي آخر الأحزان، ده آني بحبكم أوي، ربنا العالم.
بصقت أم الديب في الأرض، حيث مروا، ثم دخلت شقتها وأوصدت الباب خلفها بقوة، وكأنها تطوي صفحة أخرى من صفحات الفرح على حساب الآخرين. بينما نزلت ليالي إلى الطابق الأرضي مع أخيها، تاركةً جلال وأطفالها، يتكفل زوجها بمسؤولية رعايتهم وحده. دخل صابر الحظيرة الصغيرة، حمل حقائبه الثقيلة، وخرج مع ليالي من المنزل، يسيرون معًا في دربٍ مجهول، يبتعدون عن المنزل الذي شهد على صراعٍ

غير متوقع. ظلوا يمشون في صمتٍ مطبق حتى وصلوا إلى أول الطريق، وبينما كان ضوء النهار ينير وجوههم، قالت "ليالي" لأخيها باشتياق:
_وحشتني أوي ياخويا!

صابر بشوق:وانتي كمان يا ليالي ياختي وحشتيني أوي إنتي وهبة وأبويا وأمي! بس أنا زعلان من اللي حصل.

ليالي بتبسم:بيني وبينك أنا استغليتها فرصة عشان أهرب من شغل البيت، ده احنا من ساعة ما رجعنا من المصيف مرتاحتش ولا دوقت طعم الراحة، تقولش ياخويا مستعبديني؟
صابر بابتسامة:خلاص أقعدي معانا شهر وتبقي خدتيلك أجازة من شغل البيت.
ليالي بقلق:يا خوفي بس لا أمي تستغلني هي التانية، بس لا أنا جاية أرتاح عندكم يومين! يبقى محدش يطلب مني حاجة!
صابر ببشاشة:ده إنتي هتنوري الدنيا كلها.
ليالي بحنان:ده بنورك إنت يا حبيبي يا غالي.

استغلت ليالي الفرصة لتبتعد عن دوامة الأعمال المنزلية، وتعيش في راحة مؤقتة تحت ستار الحزن بسبب ما حدث لأخيها مع جلال، فقررت أن تستمتع ببعض الأيام الخالية من المسؤوليات. أما جلال، فقد شعر بالحرج العارم، فلم يكن يجرؤ على النطق بكلمة واحدة بعد تصرفه الذي أثر في قلب صابر. وقد قرر أخيرًا أن يذهب إلى أم الديب ثم يذهب للعمل، لكن قبل أن يخطو خطوة خارج الشقة، استيقظت "تقى" من نومها. وعندما نظرت حولها، لم تجد ليالي في الصالة كما هي العادة، فبدلًا من رؤيتها وهي منهمكة في تنظيف الصالة أو تقطيع الخضروات، كان المكان خاليًا من نشاطها المعتاد. فاستفاقت من دهشتها وسألته بتعجب:
_ماما فين؟

جلال بفظاظة:وأنا إيه دراني؟ خُشي جوا يا بت يلا خشي!

دخلت تقى إلى غرفتها بخوفٍ جسيم، يعتصر قلبها القلق من رد فعل والدها القاسي. بينما جلال، الذي كان يعتصره السخط، نزل إلى الأسفل متوجهًا إلى شقة والدته، حيث كان يصفع الباب بقوة وبحنق ظاهر. فجأة، فتحت أم الديب له الباب، بينما كانت تمضغ القرصة فلاحي بملامح غير مكترثة بما يحدث من حولها. نظر إليها "جلال" بحدّة، وقال بصياحٍ يحمل بين طياته سخرية مريرة:
_ماهو ده اللي إنتي فالحة فيه ياما، الحش والنوم قوليلي إنتي إيه فايدتك في الدنيا؟ بتفيدينا بإيه؟ بقى ياما تقوليلي بتاع الأنابيب فوق وأطلع ألاقيه صابر؟

أم الديب بهدوء:بقولك إيه يا جلال، أبقى ابعت بتاع الدش يصلحلنا التلافزيون، أصله مش شغال كويس.

جلال بصياح:شوفي أنا بتكلم في إيه وانتي بتتكلمي في إيه! ياما متجننينيش، ده أنا مخي ضارب مني! عاوزة مني إيه ياما؟ وبتولعي الدنيا حريق ليه بيني أنا ومراتي؟
أم الديب باستفزاز:يا بختكم اتفسحتوا وغيرتوا جو، لكن آني مشوفتش البحر، ده آني دلوقتي هعمل مزاج عنب! وسع يا ولا من قدامي!

لكن جلال وقف في طريقها، حاجزًا بين "أم الديب" وبين بقية الشقة، وهو يسير بثبات داخل المنزل، يمنعها عن الحركة، فكان يريد أن يفرض هيمنته على الموقف الذي لم يعد يحتمل تأجيلًا. فجأة، تطاولت يداها على صدره، فوطأته عليه بعنف، وألقت بالكلمات في وجهه كأنها تهز أركان الأرض، ثم صرخت قائلة:
_ما توسع ياخويا! إنت عاجبك طولك ولا إيه؟
ثم دخلت المطبخ وأحضرت زجاجة عصير الجرجير المفضل لها من المبرد، باحثة عن لمحة من الراحة في مشروب يحمل بعض الذكريات. ثم أسرعت إلى غرفتها، وأخرجت كاوتش سيارة كان مستقرًا أسفل سريرها الخشبي، وهو بمثابة تذكير لها ببعض اللحظات الماضية. نزلت بسرعة نحو الأسفل، متوجهة نحو الترعة لتستمتع بالصيف، وهي تشعر بمرارة من أن أبناؤها قد ذهبوا للمصيف بدونها، مما زاد في قلبها نار الحقد عليهم. كانت ترغب في تجديد الأجواء النفسية والابتعاد عن هموم المنزل. لكن "جلال"، الذي كان يتبعها بدهشة، نزل وراءها مستغربًا من تصرفاتها، وقد ارتسم على وجهه الاستفهام، ثم صاح بصخب عالٍ:
_انتي رايحة فين ياما؟

أم الديب بخَبَال:ايهي، رايحة أصيف يا ولا، اشمعنا انتوا تصيفوا وآني لا؟
جلال باستغراب:هو إيه اللي تصيفي ياما؟ ياما متنرفزنيش وتخرجيني عن شعوري! جرا إيه العبط ده؟

أزاحت أم الديب جلال عن طريقها بقوة، وهي تواصل خطواتها دون أن تلتفت إليه، فظل هو واقفًا في مكانه، مصدومًا مما يحدث أمام عينيه. عبرت أمامه، تاركة إياه في حالة من الذهول، حتى نزلت إلى أسفل وهرولت صوب الترعة، حيث غمرت نفسها في مياهها وكأنها تبحث عن هروب من كل ما يثقل نفسها. بينما ظل جلال واقفًا، كأنما هو في صراع داخلي مع نفسه، عاجزًا عن فهم ما يحدث. ضرب "جلال" كفًا بكف وهو يشعر أن أم الديب قد أصابها الجنون، وأن تصرفاتها أصبحت خارج نطاق المنطق. ثم انفجر قائلًا بامتعاض:
_الناس تكبر تعقل إلا إنتي تكبري ومخك يضرب أكتر من الأول!
ثم ذهب جلال إلى التوك توك ليبدأ أداء عمله اليومي، سائرًا بين شوارع القرية، مستمتعًا بالألحان الصاخبة للمهرجانات التي تتردد أصداؤها في الأزقة، وهو يقف عند الزبائن ثم يأخذهم إلى وجهاتهم المختلفة. في منزل عم سلامة، كانت "تباهي" مشغولة في المطبخ، حيث وضعت البصل والطماطم في المياه المغلية استعدادًا لسلق البطة. بينما هي منهمكة في عملها، فوجئت بخبطات على الباب. أسرعت لفتح الباب، لتجد ابنها صابر، يحمل حقيبة ملابسه، ووراءه ليالي، التي كانت تحمل حقيبة ملابسها أيضًا. وعندما رأتهم،

ارتسمت على وجهها الدهشة، فصرخت في فزع، ثم ركضت نحو ابنها لتحتضنه بشوقٍ لا يوصف، قلبها يفيض بالحنين، قائلة بانتحاب:
_يا ضنايا يابني، وحشت أمك أوي! يا غالي يا حبيبي، عامل إيه؟ طمني عليك!

صابر بحنين:وانتي كمان ياما وحشتيني أوي، طمنيني عليكي وعلى صحتك!
تباهي باشتياق:كويسة يابني طول مانت كويس، يا غالي يا قلب أمك، الغربة بهدلتك يابني بس خلاص إنت الحمدلله رجعتلنا بألف سلامة.
صابر بابتسامة:أيوه ياما الحمدلله.
تباهي بسرور:نورت الدنيا كلها يابني.
صابر بفرح:ده بنورك إنتي ياما.

كانت الفرحة تغمر روح تباهي، إذ عاد ابنها أخيرًا إلى أحضانها بعد غياب طويل دام لشهور، قضاها في بلاد الخارج بحثًا عن الرزق. لم تستطع أن تخفي مشاعرها المختلطة من السعادة والطمأنينة، فعودته قد أعادت الحياة إلى قلبها. وبينما كانت تحتضن ابنها، التفتت نحو ليالي التي كانت تقف على مسافة، تراقب المشهد بحزنٍ طفيف يصف شعورًا من البعد عن تلك اللحظة الحميمية. فاقتربت منها "تباهي"، وعانقتها برفق، قائلة بحنان:
_ازيك يا بتي؟ عاملة إيه؟

ليالي ببسمة:الحمدلله ياما بألف خير.
تباهي بارتياب:إيه يا بتي؟ في حاجة ولا إيه؟
ليالي بعَبُوس:اتخانقت مع جلال، قولت أستغلها فرصة وآجي أقعد معاكم كام يوم وأهو أرتاح من شغل البيت.
تباهي بصدمة:يا ساتر يارب، اتخانقتوا ليه بس؟
صابر بانزعاج:هقولك أنا ياما، البيه فاكرني بتاع الأنابيب وقال إيه رجولته نقحت عليه قام ماسكني ومد إيده عليا!
ليالي باستياء:بس والمصحف ما سكتله! هو فاكر اللي حصل هيعدي بالساهل ولا إيه؟
تباهي بانفعال:جلال ده عياره فلت وأنا هتصل بيه أهزقه على اللي عمله!
ليالي بسكينة:خلاص ياما! أنا اللي مبرد ناري إنه لما دخل يضربه مكنش على أساس إنه صابر أخويا، لا زي ما صابر قالك كان فاكره بتاع الأنابيب، بس أنا هربيه وهعلمه الأدب كام يوم.

تباهي بامتعاض:ومين اللي اتضرب في الآخر؟ مش أخوكي برضه؟
ليالي ببسمة:أيوه بس متخافيش أنا هربيهولكم!
صابر بندم:أنا الصراحة مكنتش عاوزك تغضبي عشان عيالك.

ليالي بابتسامة:متخافش! لما أبوهم ميقدرش على خدمتهم هيقوم جايبهم وجاي وهيبوس إيدي ورجلي عشان أرجع، بس أنا هتقل وهعرفه إن اللي هببه ده مش هيعدي بالساهل أبدًا!
تباهي:طيب يا ليالي ربنا يهدي سركم ياختي، تعالوا خشوا!

لم يحب صابر أن تهجر ليالي منزلها وتترك زوجها وأطفالها، لكنه شعر ببعض الراحة حين علم أن هجرها كان من أجل الحصول على قسط من الارتياح لبضعة أيام بعيدًا عن مشاق المنزل. أما "تباهي"، والدتهم، فقد حزنت لما حدث لصابر بسبب جلال، ولكنها لم تدع هذه المشاعر تظهر على ملامحها. فاحتضنته بحب، وقبلت وجنتيه كما لو كان لا يزال ذلك الطفل الصغير الذي اعتادت أن تحتضنه، رغم اللحية التي بدأت تملأ وجهه وطوله الذي طال. دخلت معه إلى الشقة، وتبعتها ليالي بصمت، بينما قالت الوالدة بحب يغمر كلماتها:
_تعالى يا صابر يا قلب أمك! طب ده أنا عاملالك بط وفراخ ووليمة تستاهل بوقك!
رفع صابر يدي "والدته" برفق، وقبلهما بحنان، ثم طبع قبلة على رأسها في حركة تعبيرية عن شكره وحبه. ازداد الهوى في قلبها، وأخذت ملامحها تنبض بالسعادة، وكأن الزمن يعود بها إلى تلك اللحظات الأولى التي كانت تضم فيها صغيرها بين ذراعيها. ثم قالت له بسرور، وهي تقبل جبينه بكل حنان:
_ربنا يخليك ليا يابني وما يحرمني منك ولا من أخواتك البنات.

ثم التفتت "تباهي" إلى ليالي، التي كانت تقف جانبًا، تراقبهما بصمت، وقالت لها بحنان:
_تعالي يا ليالي خُشي!
وأردفت لصابر، وهي تبتسم بسرور غائر، وقد امتلأت عيناها بالفرح:
_ده أبوك هيفرح بيك أوي!

صابر بتحذير:أوعي تعرفيه حاجة! أنا عايزه يجي يلاقيها مفاجأة!
تباهي بحبور:دي هتبقى أحلى مفاجأة يا حبيب أمك، نورت الدنيا!

جلس الثلاثة على الركنة العربية المنخفضة التي تكاد تلامس الأرض، بينما كان صوت غليان الماء يعلو من بعيد. نظر "صابر" إلى والدته بتردد، وعيناه تتألقان بشعور مختلط من الحذر والتفاؤل، كما لو كان يحمل في قلبه خبرًا سيغير مجرى حياتهم ويغمرهم بالفرح. ثم قال، وهو يبتسم ابتسامة لم تفارق وجهه:
_أنا جايلك بخبر هيفرحك أوي يا أمي إنتي وليالي!

تباهي بفضول:خبر إيه ده يابني؟
صابر بسعادة:أنا هخطب يا أمي!
ليالي بفرح:يا ألف ألف مبروك يا حبيبي، ومين اللي أمها داعيالها دي؟
صابر بابتسامة:واحدة بنت حلال من عزبة المقتول.
تباهي بصدمة:يا ساتر يارب، إيه يا صابر الإسم ده؟ عزبة المقتول؟

صابر بضحك:أيوه ياما هي بلدهم اسمها كده، عزبة المقتول، من عيلة البرادعي.
ليالي بِإفترار:يخيبك طب مش كنت تسأل على الإسم قبل ما تفكر تخطبها؟
صابر ببشاشة:متخافوش من أيها حاجة! البلد دي أهلها ناس جدعان ويعرفوا في الأصول ده حتى عيلتها من كُبارات البلد.
تباهي بابتسامة:أهم حاجة يابني إن أهلها يكونوا ناس محترمين ده كل اللي يهمنا.
صابر بحبور:محترمين أوي أوي ياما وكل الناس بتشكر فيهم، ده أبوها راجل طيب ومحترم، ولا البت!

وأردف وهو يضحك، عيناه تلمعان بسعادة، ثم التفت إلى ليالي ليصف لها مظهر العروس التي يتذكرها، العروس التي تتميز بجمالها الريفي البسيط الذي لا يحتاج إلى كثير من التزويق. كانت صورتها في ذهنه واضحة كلوحة فنية تنبض بالعشق، فحكى عن تلك العروس بتفاصيل مشوقة، قائلًا بسرور:
_حتة قشطة كده يا ليالي، قطة مغمضة تحسيها جاية من بلاد برا.

ليالي بلَهفة:شوقتنا نشوفها يا صابر ياخويا، طب وانت معاك فلوس تخطبها؟
صابر:أمال أنا كنت بشتغل ليه كل السنين اللي فاتت دي؟ماهو عشانها وعشان أخطبها، المهم أنا هفتح الحوار مع أبويا ويارب يوافق.
تباهي بثقة:هيوافق يابا هيوافق، وميوافقش ليه؟ ده سلامة من يومين كنا قاعدين في ساعة صفا لقيته فجأة كده قالي أنا نفسي أفرح بصابر وأجوزه، قولتله وماله يا حاج؟ لما يرجع نبقى ندورله على عروسة بت حلال تصونه.
صابر بضحك:وأديني وفرت عليكم رحلة البحث والعروسة موجودة أهو، أبويا بس يرجع وأقوله!
ليالي بسرور:ألف مبروك ياخويا، عقبال ما عروستك تيجي وتنورنا هنا.
صابر بسعادة:الله يبارك فيكي يا ليالي ياختي.

سعدت العائلة بهذا الخبر السار، حيث قرر صابر أخيرًا أن يخرج من قفص الوحدة ويخطو نحو حياة جديدة، يملؤها الإحساس بالعائلة المستقرة في عش الزوجية. نهضت تباهي بخطواتٍ خفيفة، تنقش الأرض بهجة، وقلبها يغمره الفرح بأن ابنها قد قرر أن يخطو هذه الخطوة المهمة في حياته. توجهت إلى المطبخ بابتسامة عريضة، لتضع البطة في الماء المغلي، وهي تجهز وليمة رائعة تحتوي على أشهى الأطعمة: البط المشوي، الدجاج المحمر، الرقاق المحشو باللحم المفروم، المعكرونة بالبشاميل، والكثير من الأطباق الشهية الأخرى، تاركةً ليالي وصابر يتبادلان الأحاديث، ضاحكين ومبتهجين. في ذات الوقت، كانت أم الديب قد ارتدت الكاوتش كبديل عن العوامة، مستمتعة بمياه الترعة، ترفع قلبها على خرير المياه، وهي تغرق في لحظات من الاسترخاء. بينما كانت "جارتها" قد جاءت حاملة وعاء بلاستيكي مملوء بالبيض الأبيض الطازج علو رأسها، ثم قالت لها، وهي تضحك بحماسة:
_انتي بتعومي في الترعة يا أم الديب؟

أم الديب بحدة:بتضحكي على إيه يا ولية؟ إيه اللي يضحك؟
الجارة بضحك:أصل دهي ترعة مش بحر، لو نفسك تروحي البحر آني ابني راح تلات أيام في چمصة بـ ٤٠٠ چنيه بالأكل والشرب وكله.
أم الديب بضِنَّة:ايهي دي غالية أوي ياختي، مفيش حاجة أرخص من كدهو؟
الجارة:هو فِي حاچة أرخص من كِدِه؟ دهي بسعر التراب.

أم الديب برضى:ومالها الترعة؟ ماهي زي الفل وجميلة، ده حتى الماية فيها جارية.
الجارة بتطفل:ومروحتيش ليه مع عيالك في راس البر؟
أم الديب بصراخ:وانتي مالك؟ بتتحشري ليه في اللي مالكيش فيه؟ هو كان حد بيسألك عن حالك ومالك؟ عشان تيجي هناهو وتتحشري في دنيتي؟

طاحت أم الديب في جارتها بغلاظة، وقد أظهرت ملامحها سخطًا شديدًا، غير محبذة أبدًا أن يتدخل أحد في شؤونها الخاصة، لكنها هي كانت تدخل كما يحلو لها، دون اكتراث بمشاعر الآخرين. ومع ذلك، كانت الجارة صامتة، لا تجرؤ على الرد أو حتى التعليق، خوفًا من قسوة أم الديب، التي تملك لسانًا حادًا لا يرحم في لحظات غضبها. بينما كان حمود ومحمد يترنحان بجوار الترعة، يتناولان جيلاتي المانجو اللذيذ، سمعا حديثًا من أم الديب التي كانت تعوم في المياه، وهي تسبح بين البلهارسيا، التي تعيش في تلك المياه الملوثة. فجأة، لمح "حمود" أم الديب في المياه، فتنبه إلى الموقف، وابتسم بخفة، وقال محمد بضحك:
_الحق يالا ستك أهي!
محمد بذهول:دي ستي؟

ثم تقدما ناحية أم الديب، التي كانت تسبح في المياه الملوثة، غير مُكترثة لما يحيط بها. اقترب منها "حمود"، وكان الضحك يملأ قلبه، فبدا أن السخرية تخرج من بين شفتيه رغم محاولات جادة لإخفاء استمتاعه بالمشهد. نظر إليها بتهكم، ثم انفجر ضاحكًا، قائلًا بقهقهة عالية:
_إيه يا ستي، إنتي فاكراه بحر؟
غادرت "الجارة" المكان، وما إن ابتعدت قليلًا حتى توقفت، ثم التفتت إلى أم الديب التي كانت ما تزال تسبح في المياه، وقالت لها بنبرة غير ودية:
_طيب آني ماشية بقى، فوتك بالعافية.

أم الديب:مع السلامة.

اختفت الجارة من أمامهم، ووسط صمتٍ طال قليلًا، التفتت "أم الديب" إلى حمود، ونظرت إليه للحظات قبل أن تفتح فمها، قائلة بدهشة:

_ايهي إنت مروحتش عند جدك سلامة؟

حمود بتعجب:وأنا هروح هناك ليه؟

نظر "حمود" إلى محمد بضحك خفيف، وكأن الموقف بأسره أصبح مصدر سخرية بالنسبة له، ثم أشار إلى أم الديب بازدراء، وهو يهز رأسه في تململ، قائلًا:
_بُص يالا!

أم الديب بغلاظة:يلا يا ولا إنت وهو من هناهو، متعكروش مزاجي!
حمود:طيب يا ستي، مش عاوزة حاجة؟
أم الديب:استنى، أبقى عدي على ستك سعاد هات من عندها بلاص الجبنة القديمة، ومتنساش الطماطم والرقاق الطري!
حمود:هتأكلينا معاكي يا ستي؟
محمد:احنا مكلناش من بدري!
أم الديب بابتسامة:وماله؟ بس روح ومتتأخرش، تعالالي على الدار هتلاقيني هناك!

قال "حمود" لمحمد بحماس، راغبًا في الذهاب معًا إلى منزل الجدة سعاد لإحضار الجبن القديم والرقاق الطري الذي طالما كانا يحبان تناوله:
_يلا يالا نروح عند أخت ستي!
لكن "محمد" بدا مترددًا، وأجاب بصوت منخفض، وقد بدا عليه القلق:
=أمي هتزعق لو روحنا بعيد.

حمود ببسالة:متخافش، لازم تتعود على المشي معايا! فتح دماغك دي!
محمد:ماشي.

ثم قرر حمود ومحمد أن يتوجها معًا نحو منزل الجدة سعاد، رغم تردد محمد، فاستجمعا شجاعتهما وبدآ السير في الطريق. كانا لا يزالان يأكلان مثلجات المانجو التي أخذوها معهما، حيث كانت تلك اللحظات الصغيرة مليئة بالراحة، خاصة مع حرارة النهار. في مكان آخر تسلّل المعلم حنفي بخطوات حذرة نحو جلال، حتى وصل إلى الشقة. طرق الباب، فتحت له تقى وهي ترتجف، فبادر بسؤالها عن والدها، فأجابته بأن والديها غير موجودين، وأنها تشعر بالخوف العارم. تعاطف المعلم حنفي مع الصغيرة، فحملها معه وتوجّه بها إلى شقة نعمة. بمجرد أن فتحت نعمة الباب، ظهرت الفرحة على وجهها لرؤية والدها بعد غياب. احتضنته بحرارة، معبرة عن افتقادها له طوال الفترة الماضية، فأجابها مازحًا عن محاولاته لتجنب والدتها، مستدركًا بحذر لم تخلُ منه مشاعر المودة. دعت نعمة والدها للدخول، فجلسوا معًا على الأريكة، حيث بدأ

المعلم حنفي في التعبير عن قلقه، إذ تركت الطفلة وحدها في الشقة، ما قد يعرّضها للخطر في حال عبثت بشيء غير آمن، فشعرت نعمة بالارتباك من هذا الوضع. أثناء ذلك، تساءل المعلم حنفي عن مكان حامد، فأجابته نعمة بأن زوجها كان قد نزل إلى عمله منذ الصباح الباكر، ثم أخرجت هاتفها واتصلت بليالي، باحثة عن إجابة لغيابها، فردت "ليالي" :

_ألو يا نعمة.

نعمة بتعجب:انتي روحتي فين يا ليالي؟ سايبين البت لواحدها في الشقة؟ يفرض لعبت في البوتاجاز ولا مسكت السكينة؟ بقى عيلة صغيرة زي دي تتساب لواحدها؟

ليالي بفزع:وهو أبوها راح فين؟ مانا سايباله العيال أمانة في رقبته، ولا هو خلى مسؤوليته من العيال بالعند فيا؟

نعمة برصانة:هو انتوا متخانقين؟

ليالي بغيظ:أه، بقى يمد إيده على صابر أخويا؟ بدل ما كان يستقبله أحسن إستقبال؟ خصوصًا إنه لسه راجع من السفر!

نعمة بصدمة:يا نهار أسود يمد إيده عليه؟ لا طبعًا غلطان! وهو ليه يعمل كده؟

ليالي بتضايق:الأستاذ حد لاعب في دماغه ومفهمه إن كان عندي بتاع الأنابيب! وطالع يتخانق، قام ماسكه يا نعمة وقلبه على الأرض ونزل ضرب فيه وكل ده واحنا مش فاهمين في إيه! تخيلي ياختي يقولي إيه؟ أصل أنا دمي حامي وفكرته بتاع الأنابيب... ياختي تتحرق الأنابيب على اليوم اللي شوفناها فيه، بقى أنا أخويا يتعمل فيه كل ده؟

نعمة باكتراث:يعني إنتي غضبانة في بيت أهلك؟

ليالي بعناد:أه ومش راجعة تاني، خليه يتربى! ماهو كله من عمايله.

نعمة:اعملي حسابك أنا وجلال وأبويا جاينلكم النهارده بالليل يا ليالي!

ليالي بإصرار:وأنا مش راجعة يا نعمة! لازم أخوكي يتعلم الأدب ويتربى، كله إلا صابر أخويا! إنتي متعرفيش ده غالي عليا قد إيه!

نعمة بكذب:لا احنا جايين نسلم عليه أصل بقالنا كتير مشوفناهوش.

ليالي بإحراج:أه طيب، تنوروا.

نعمة:مع السلامة يا ليالي.

ليالي:مع السلامة.

انزعجت نعمة بشدة من ترك تقى بمفردها في المنزل، دون رفقة والدتها أو والدها، في وقتٍ كانت فيه الأوضاع العائلية غير مستقرة. فقد علمت أن الوضع بين أخيها جلال وزوجته ليالي ليس على ما يرام، وأن النفوس مشغولة بالهموم، مما زاد من قلقها على الأسرة. لم يكن هذا الوضع في نظرها قابلًا للاستمرار،

فقررت أن تذهب مع جلال والمعلم حنفي في وقت متأخر من الليل، بهدف تهدئة الأمور وإعادة ليالي إلى منزلها، لإصلاح ما يمكن إصلاحه بينهما، وليس كما فُهم في البداية بأنها ستذهب لملاقاة صابر كما قالت، وبعدما أنهت المكالمة التي كانت تُنسق خلالها خططهم، نظر "المعلم حنفي" إلى نعمة باهتمام، وهو يحمل تقى على ساقيه الصغيرة بحنان، وسألها بنبرة دافئة:
_في إيه يا نعمة؟

نعمة باستياء:جلال وليالي اتخانقوا، وهي دلوقتي غضبانة في بيت أهلها.

في منزل زياد، بعد ثلاث ساعات من التجهيزات المتواصلة، أخيرًا انتهت هايدي من وضع المكياج بعناية، وارتدت الفستان الذي اختارته بعناية ليكون مناسبًا للمحجبات، وهو يتناسب مع ذوقها ويبرز جمالها بأناقة. كانت قد أتمت كامل استعداداتها في هدوء، وباتت تبدو في أبهى حلة، حيث تزينت بألوان هادئة متناسقة، وتكملت طلتها بحجاب يتناغم مع تفاصيل فستانها. أما زياد، فقد كان يرتدي بدلة بسيطة بألوان هادئة، مع كرافته التي أكملت مظهره الكلاسيكي، يبدو مرتاحًا وواثقًا في طلته. في الشقة المُجاورة، كان أحمد قد أكمل تجهيز نفسه وزوجته جميلة، حيث ارتدت جميلة فستانًا أنيقًا يعكس البساطة، بينما كانت طفلتيه، أسيل وسيليا، ترتديان فساتين زفاف صغيرة تتناسب مع أعمارهن الطفولية، وتزيد من براءتهن جمالًا. كانت ساعة اليد الذكية تزين معصم أحمد، تعكس ذوقه الرفيع، بينما كانت رائحة عطره الفاخرة تغمر المكان، تنبعث من كل خطوة يخطوها. حينما خرج كل منهم من شقته، كان أحمد يحمل ابنته أسيل بين ذراعيه، وجميلة تمسك بيد سيليا، والكل يبتسمون، تشع منهم البهجة. بينما كان زياد يوصد باب شقته في الوقت نفسه، خرجت "هايدي" من الباب، وعندما رأت جميلة، عانقتها بسرور، وقد تجلى في عينيها إعجاب عميق بطلتها المشرقة، حيث وصفّت مدى جمالها، قائلة:
_تحفة إيه القمر ده؟ تجنني يا جميلة!

جميلة بدلال:ميرسي يا عمري إنتي اللي تجنني، إيه القمر ده؟
هايدي بلُطف:ما شاءالله بجد.

ثم قبلت وجنة سيليا بلُطف، عيونها تلمع إعجابًا بها، وقالت بصوت دافئ ممتزج بالإعجاب:
_إيه يا سيليا الحلاوة دي كلها؟

سيليا بغبطة:ميرسي يا عمتو، إنتي حلوة أوي.
هايدي بفرح:انتي اللي قمر والله.

وقبلت وجنتي أسيل، ذات الوجه البريء الذي يتلألأ بالبراءة والجمال، وقالت بحبور:
=والصغنن القمر ده، لا بجد كلكم النهارده قمرات!

جميلة برقة:يا حياتي.
أحمد بضحك:طبعًا لازم كلنا النهارده نكون عشرة على عشرة، ده النهارده يوم تاريخي، قمر الدين بيتجوز!

بعدما أوصد "زياد" الباب جيدًا، وقف معهم مبتسمًا، وألقى نظرة على الجميع قبل أن يلتفت إلى جميلة، في قلبه سعادة كبيرة بمناسبة الزفاف التي تجمعهم، وقال بسعادة:
_ألف مبروك يا جميلة!

جميلة بابتسامة:ميرسي، الله يبارك فيك.
أحمد باستعداد:طيب إيه؟ يلا بينا؟

أجاب "الجميع" باستعداد، وكانت الابتسامات تضيء وجوههم، وقالوا بصوت واحد، معبِّرين عن فرحتهم الكبيرة:
_يلا.

ركبوا جميعًا المصعد، الذي بدأ بالتحرك بعد أن ضغط أحمد على زر الصفر، ليهبط بهم نحو الطابق السفلي. كانت الأجواء مفعمة بالحيوية، ومع كل خطوة كانت الضحكات تتناثر بينهم. عند وصولهم إلى الطابق الأرضي، خرجوا جميعًا وركبوا السيارة، حيث جلس أحمد وجميلة في المقعد الأمامي، حملت جميلة أسيل بين ذراعيها بحنو، فيما جلس زياد وهايدي وسيليا في المقاعد الخلفية. مع انطلاق السيارة في طريقها نحو الفندق، ملأت أجواء السيارة أغاني مبهجة ترددها السماعات بصوت عذب، بينما كانت رائحة العطور المختلطة تفوح من كل زاوية في السيارة.

في منزل أم الديب بعدما أنهت أم الديب سباحتها في الترعة، خرجت من المياه بكل نشاط، وشعرها المبلل يلتصق على وجهها، وجسمها مغطى بالقطرات اللامعة من ماء الترعة. سارت بخطوات هادئة نحو منزلها، وتوجهت مباشرة إلى المرحاض حيث دخلت للاستحمام. كانت المياه تنهمر من الدش فوق رأسها وجسمها المرهق، وهي تغسل تعب اليوم وتستمتع بحمامها المريح. في تلك اللحظة، كان حمود، الذي أنهكه ثقل الفخار المملوء بالجبن القديم، يصعد السلالم في شدة، وعضلاته مشدودة تحت عبء الحمل الثقيل. كان محمد يسير خلفه، يحمل الرقاق الطري بين يديه، ولكنه كان يبدو أقل تعبًا مقارنة بحمود. بينما "حمود" يخطو بصعوبة، كانت أنفاسه تتسارع، وصوته يكاد يختنق من شدة الجهد، حتى وصل إلى الباب وهو يعاني، قائلًا:
_أوف ده تقيل أوي!

محمد:مانا قولتلك أشيل معاك!
حمود بإرهاق:مش هتعرف! أنا أجمد منك يالا!

وضع حمود الفخار المملوء بالجبن القديم والطماطم الطازجة في الصالة، ثم أكمل مهمته بوضع محمد الخبز فوقهم بحرص. كانت رائحة الجبن تفوح في الصالة. بينما كان "حمود" يلتقط أنفاسه أمام باب المرحاض، كان يستمع إلى صوت المياه المنهمرة من المنضحة، التي تخلق جوًا من الصخب داخل المنزل. وفي تلك اللحظة، رفع صوته بصياح، قائلًا لأم الديب من خلف الباب:
_جرا إيه يا ستي؟ إنتي هتاخدي دش في سنة؟

أم الديب بصياح:أسكت يا ولا! آني مبحبش السربعة!
حمود باشتهاء:أنا جيبتلك بلاص المش والعيش والطماطم، عايزين ناكل احنا جعانين!
أم الديب بانفعال:أصطبر شوية، ايهي هو انتوا هتخلوني أجري أتكفي على وشي عشان خاطركم؟
حمود بتأفُّف:يوه بقى، دي حاجة زفت.

جلس الطفلان على الأريكة الصغيرة في الصالة، يعبثان ببعض الألعاب في هدوء. بينما خرجت أم الديب بعد قليل من المرحاض، وقد ارتدت نفس الجلباب المتسخ الذي كانت ترتديه قبل السباحة في الترعة. كانت خطواتها بطيئة، محملة بتعب اليوم، ولكنها كانت تسير بثقة. أول ما خرجت، دخلت إلى غرفة النوم. بينما كان "حمود" يقف في الصالة، ينظر إليها بتعب، وقد بدا عليه السخط من تصرفاتها، فقال:
_هو إنتي مش خلصتي، رايحة فين تاني؟

أم الديب بحنق:هسرح شعري، ده إنت عيل زنان شبه اللي جابوك.
حمود بسخرية:خدلك ساعة كمان.
محمد بسَغَب:أنا جعان.
حمود بضَرم:وأنا كمان.

خرجت "أم الديب" بعد أن لفت شعرها بعناية ووضعت الإيشارب على رأسها، مما منحها مظهرًا تقليديًا. نظرت إلى الفخار المملوء بالجبن الذي وضعه حمود، ثم سحبت نفسًا عميقًا، ثم نظرت إلى حمود بعيون لا تخلو من قسوة، وقللت من شأن المجهود الذي بذله، قائلة بلهجة تحمل شيئًا من السخرية:
_ايهي هو دهو البلاص؟ هو ماله صغير كدهو ليه؟

حمود بدهشة:هو إيه؟ ده طرقعلي ضهري، ده تقيل رسَخة!
أم الديب بازدراء:عشان لسه عيل وعضمك طري، مآني لو قولت لأبوك هو اللي يجيبه ولا كان سأل فيا، يلا زي بعضه.

أخذت أم الديب الفخار من على الحصير، ودون أن تغسل الطماطم أو تعتني بها، دخلت المطبخ بحركة سريعة وكأنها معتادة على هذه السرعة في التحضير. بدأت في تحضير الجبنة بالطماطم، ووضعتها في طبق صغير بحركة روتينية، ثم خرجت حاملة الطبق الذي يحتوي على الجبن بالطماطم، والبصل الأخضر الطازج، والرقاق، ووضعتهم أمام الجميع على الطاولة. جلسوا حول الطعام، والجو كان مشبعًا برائحة الجبن والبصل، لكن "أم الديب" قالت بقسوة، وعينيها ترمقان الجالسين:
_اطفحوا بألف هنا.

حمود:بس ده طبق صغير ميكفيش!
أم الديب:كُل وانت ساكت! ليه هو إنت فاكرني هحطلك بلاص المش كله؟ ده الحتة منه تتعمل على عشرة كيلو طماطم، أمال إنت فكرك إيه؟
حمود بغضب:اللي أمي بتعمله أحسن.

سحبت "أم الديب" الطبق من أمامه بعنف، معبرة عن سخطها بطريقة قاسية، وعينيها تشتعل بالاستياء. ثم صاحت بصراخ مدوٍ، محملة الكلمات بكل ما في قلبها من جبروت:
_مادام أمك أكلها أحسن من أكلي روح كُل عندها، محدش هياكل من الطبق دهو غير الواد محمد!
ثم وضعت الطبق أمام محمد، وعينيها تتألقان بالغيظ، وهي لا تطيق أن تكون في هذا الموقف بسبب حمود. نطقت بكلمات قاسية، تخرج من بين شفتيها بلهجة متوترة، قائلة بغيظ:
_كُل يا ولا!

حمود بشجن:بس أنا جعان يا ستي!
أم الديب بفظاظة:أسكت يا ولا مسمعش صوتك! قال أمك أكلها أحسن من أكلي قال، ما هي اللي ربيتكم رباية طين! واحدة غيرها كانت ربت عيالها أحسن تربية، ده كل الخلق بيشتكوا منها.
حمود بسخرية:هي برضة؟
أم الديب بصياح:أمال آني؟
حمود بتبسم:طب أكليني طب! أنا كنت بهزر معاكي، إنتي أكلك حلو أوي!
أم الديب باستذلال:حِب على إيدي الأول!

قبل حمود يديها اليمنى بحركات محترمة، لكن في عينيه كان هناك شيء من الضعف. أما "الجدة"، فقد نظرت إليه بعيون غاضبة، وقالت له بقسوة، وهي تشد من نبرتها:
_والإيد التانية!
ثم قبل "حمود" يدها اليسرى بتردد، وكأن قبلة واحدة لم تكن كافية ليظهر اعتذاره، لكنه كان يشعر بقهر يغلي في قلبه. رفع رأسه ونظر إليها بتوتر، ثم سألها بصوت مكسور:

=أهو، حلو كده؟

أم الديب بكراهية:كُل ياخويا كُل!

وضعت "أم الديب" الطعام قباله، وعينيها لا تفارق وجهه، تنظر إليه بنظرة مليئة بالغل، مراقبة كل حركة من حركاته. بينما هو يأكل كانت جاهزة لتوجيه كلامها القاسي. نطقت بجبروت، وملامحها مشبعة بالعنف، قائلة:

_ايهي هقول إيه؟ أهو في الأول والآخر حفيدي.

يتبع....

الفصل السابع عشر

ما أقسى أن تكون الجدة مشحونة بالقسوة والخُبث، تُبدِّدُ أمان حفدتها الذي يجب أن يتجلى في دفء عينيها وصوتها الرقيق. وكيف لهذا التناقض أن يُلغي الصورة المثالية للجدات الحنونات، اللواتي يُمثِّلن الأم الثانية حين يَغيبُ دفء الأم الحقيقية؟ في الفندق، حيث اكتملت استعدادات العائلة، كانت الأجواء تضج بالحياة، والجميع محاطون بوهج المظهر. ازدانت القاعة بالعائلات والأصدقاء، يرتدون أفخر الملابس التي تشي بعظمة المناسبات الكبيرة. وسط هذا المشهد الفاخر، تألقت أم قمر الدين بفستانها الأنيق، كأنها ملكة في عرس ابنها، واصطف حولها بناتها كالكواكب حول الشمس، يتوهجن بجمال لا يُخفى. بعيدًا عن الضجيج، كانت المربية تحتضن "حمزة" ابن "نرمين" ، الذي بدا كأمير صغير في بدلته السوداء المصممة بعناية لتناسب حجمه الطفولي وبراءته، وعلى مقربة منها، كانت نرمين تتحدث مع أم قمر الدين، التي لم تُخفِ ابتسامتها العريضة، وفي لحظة رضا، قالت "أم قمر الدين" بعد حوار طويل:

_طبعًا يا نرمين، بس مقولكيش النهارده يوم عالمي بالنسبالي لا يمكن يتكرر أبدًا.

نرمين بقهقهة:يا سلام؟ يعني علاء الدين لما يتجوز مش هيكون يوم عالمي؟ طب ده أنا بالنسبالي اليوم الوحيد اللي هيكون عالمي فعلًا يوم ما علاء الدين يقرر يتجوز.

أم قمر الدين بضحك:لا لا علاء الدين قدامه كتير أوي، ده يا روحي لسه صغير، ده يا دوب لسه متخرج بس!

نرمين بعقلانية:يا مامي في ناس كتير بتكون بتدرس ومتجوزة، السن مالوش علاقة خالص! الموضوع مرتبط بالمسئولية.

أم قمر الدين:ماهو لو جينا للمسئولية فانتي عارفة اللي فيها كويس، علشان كده بقولك لسه بدري.

تألق علاء الدين ببدلته الرصاصية، التي بدت كأنها مفصّلة لتحتضن حضوره الأنيق وشخصيته الآسرة. من بعيد، كان يشير بيديه لأصدقائه، وضحكته تنطلق كنغمة موسيقية تنشر البهجة حوله. يمشي بخطى واثقة كمن يعرف أنه محور الأنظار، ثم يتوقف بين الحين والآخر ليتحدث مع من يصادفه في طريقه، كلمات قليلة لكنها تُترك كأثر لا يُمحى، وما إن اقترب منهم، حتى اشتدت ملامح الحماسة على وجه "أم قمر الدين" ، تلمع عيناها بشيء من الدهشة الممزوجة بالافتخار. لفتت انتباه نرمين وهي تشير برهبة خافتة، قائلة:

_طب بس بس! علاء الدين جه!

وقف "وائل" بجانب نرمين بثبات، وحضوره يضفي هيبة. وما إن اقترب علاء الدين بخطواته الواثقة حتى احتضن الجميع بحميمية تفسر عفويته وسعة قلبه. أما وائل، بابتسامة تنم عن الإحترام، مدّ ذراعيه ليُحيّي علاء الدين، وكان بينهما صمت يفيض بالود، والكلمات قد استُعيض عنها بنظرات صادقة، فقال:

_أهلًا بيك يا علاء الدين.

علاء الدين بابتسامة:هاي يا وائل.

ثم التفت إلى نرمين، أخته الكبرى، وارتسمت على وجهه ابتسامة عفوية تُشعّ ألفة، كأنها جسر بين ذكريات الطفولة ووقار اللحظة. بنبرة ملؤها المودة، سألها كمن يبحث عن حديث يجمع بين القلوب ويُعيد الزمن الجميل:

_ازيك يا نرمين إيه الأخبار؟

نرمين ببشاشة:كله تمام، إنت عامل إيه؟ وإيه أخبار الجونة معاك؟ سمعت إنك بقالك شهر كامل متكامل قاعد في الجونة مع صحابك!

علاء الدين بتبسم:أها ده حصل، أصل مخنوق من الڤيلا ومابقتش مرتاح فيها، بقيت برتاح هناك أكتر.

كان "علاء الدين" دائم الغياب عن أسرته، غارقًا في عالمه الخاص، حيث تُنسج لياليه بين رفاهية النساء والخمر وصخب الأصدقاء على شواطئ الساحل والجونة وما جاورهما. لكنه اليوم، بدا وكأنه يعيد نسج خيوط قربه من جذوره. ألقى نظرة دافئة نحو والدته، تتخللها ابتسامة خجولة كأنها تعتذر عن غيابه. أشار إليها برفق، يطلب لحظة انفراد بينهما، وقال:

_تعالي يا مامي عايزك!

أم قمر الدين بتعجب:إيه يا حبيبي؟ في إيه؟

علاء الدين بإلحاح:هقولك، تعالي بس!

أمسك علاء الدين بيد والدته برفق وسحبها معه بعيدًا عن دائرة الأسرة، حيث اتخذ كلاهما مكانًا هادئًا على أطراف التجمع. أشار بيديه نحو مجموعة تقف على مسافة قريبة، كانت تضم ثلاث فتيات وولدين، إلا أن نظره استقر على إحداهن. فتاة عشرينية تخطف الأنظار، بشعر أشقر ينساب كالحرير، وبشرة بيضاء تشع بريقًا تحت أنوار القاعة، وعينين زرقاوين كسماء صباحية صافية. جمالها الأوروبي الطابع يتناقض مع مصريتها التي أكدتها نسبًا. بدت متألقة في حضورها، تضحك بانسيابية، وتنغمس في حديثها مع من حولها. نظرت "أم قمر الدين" نحوها بدهشة بدت جلية على ملامحها، وعادت بعينيها إلى علاء الدين لتسأله:

_أيوه برضة، مش فاهمة!

علاء الدين بترقب:My New Love، إيه رأيك؟

أم قمر الدين بذهول:مش معقول يا علاء الدين، دي غير البنت اللي كانت معاك الشهر اللي فات؟

علاء الدين بسفاهة:?what's the problem، مش فاهم يعني! اللي فاتت كانت خنيقة ومش لطيفة معايا، سيبتها وارتبطت بدي، مش بذمتك Amazing؟

أم قمر الدين بمَوعظة:لا يا حبيبي اللي بتعمله ده مينفعش خالص! إنت بتغير في البنات أكتر ما بتغير في لبسك! أنا متأكدة إنك هتسيبها زي ما سيبت غيرها، يا حبيبي بنات الناس مش لعبة! ولو والدك عرف حاجة عن الموضوع ده هتحصل مشكلة كبيرة!

علاء الدين بخوف:لا لا أوعي تعرفيه حاجة! أنا مش ناقص خالص! هعرفك عليها، صدقيني هتعجبك!

تحرك علاء الدين نحو الفتاة، وأخذ يتحدث معها بلُطف وهو يشير نحو والدته. بعد لحظات، رافقها إليه، حيث عادت معه بابتسامة خجولة تزين وجهها، كأنها تترجم ألف كلمة دون أن تنطق بها. ما إن اقتربت من أم قمر الدين حتى بادرت "الفتاة" بالكلام، بصوت ناعم يفيض رقة، قائلة:
_هاي يا طنط؟

أم قمر الدين بلُطف:هاي.

كان باسم واقفًا مع نخبة من رجال الأعمال، يتوسطهم كالنجم في كوكبة، يبرز عنهم بعمره الذي أثقلته الخبرة وثروته التي زادت من بريق حضوره. كانوا جميعًا يرتدون بدلات فاخرة، تفسر ذوقهم ومكانتهم الرفيعة. في خضم الحديث، ارتسمت ابتسامة ودودة على وجه "أحدهم"، فالتفت نحو باسم ليهنئه بلباقة قائلًا:
_مليون مبروك يا باسم بيه، وعقبال باقية أولادك.

باسم بسرور:الله يبارك فيك.
صافي باكتراث:هنشوف العريس امتى؟
باسم بسعادة:حالًا هتشوفوه!

على الجانب الآخر من القاعة، كانت سامية وزوجها معتز يقفان مع مجموعة من زملاء قمر الدين، ينخرطون في أحاديث جانبية يملؤها المزاح. لكن وسط الحوارات، بدا الفضول واضحًا على وجوه الجميع، فقد كان غياب جميلة منذ زواجها أمرًا لافتًا ومثار تساؤل. قطعت "إحداهن" الصمت بنبرة ملؤها التساؤل، قائلة:
_جميلة أخبارها إيه؟ بطلنا نشوفها من ساعة ما اتجوزت!

سامية:الحمدلله بخير، متقلقيش هتشوفيها النهارده.

أثناء الحديث، انصرفت الأنظار إلى معتز، فابتسم "أحد الرجال" بسؤال ملؤه الاهتمام، وهو يلتفت نحوه بنظرة حانية، قائلًا:
_وانت يا معتز أخبار شغلك إيه؟

معتز بابتسامة:كله تمام الحمدلله.

تلفظت امرأة أخرى، تدعى "نوران"، باندهاش شديد بينما عيناها تتنقلان بين تفاصيل القاعة الفاخرة، التي كانت تزخر بجمالها ورونقها. وقالت بصوت ملؤه الذهول:
_ماشاءالله الأوتيل يجنن.

سامية ببشاشة:ميرسي يا نوران.

على الناحية الأخرى، كانت منى ونالا واقفتين مع زملائهما، حتى وصل أحمد وجميلة وهايدي وزياد، مُتسلّحين بهيبتهم وأناقتهم التي لا تخطئها العين. كان زياد وهايدي يتأملان روعة القاعة بكل تفصيلاتها، ويعبران عن إعجاب شديد لم يروا مثله من قبل، وكأنما القاعة تنطق بأبهى معاني الفخامة، وبمجرد أن رأت أم قمر الدين ونرمين وصولهم، اندفعتا نحوهم مع وائل، لتستقبلهم بالترحاب. ما إن اقتربت "أم قمر الدين" من جميلة حتى احتضنتها بعاطفة غامرة، وامتلأت ملامحها بغبطة لم تُخفَ، وقالت بحماس يفوق الوصف:
_وأنا بقول فجأة الأوتيل نور كده ليه؟ أتاري القمر جه!

جميلة بحبور:حبيبتي يا مامي.

بعد أن تبادل الجميع التحايا، بدأ كل منهم يتعرف على الآخر ويُعرّف عن نفسه. كانت نرمين متألقة، ترد على جميلة بود، بينما كان أحمد يحيي وائل وشرح له عن زياد، الذي جاء مع هايدي. وكان الحديث يتنقل بين الأشخاص بطريقة طبيعية، حيث أضاف أحمد توضيحًا عن علاقاتهم ببعضهم البعض، وعندما تم التعارف، بدأ الجميع في الاستمتاع بجو الحفل. بينما كان الجميع يتبادلون الحديث، كانت هايدي منشغلة بالنظر إلى القاعة. لم تستطع إلا أن تدهش من جمال المكان وفخامته. كانت القاعة أشبه بمكان ساحر، تلمع جدرانها بالترف، وتنبض أجواؤها بالفخامة. في غرفة العروس، التي كانت مزدانة بالبالونات الهيليوم المنفوخة، والتي كتب عليها "Bride". الزهور تزين الجدران، والديكورات الراقية تضفي لمسة من السحر على كل زاوية. كانت نساء العائلة يجتمعن حولها، يبدون في غاية البهجة، يحتفلن بلحظة لا تُنسى.

ثم دخل والدها، ليأخذ بيدها برفق، وهي ترتدي فستان زفاف فاخر، تغمره تفاصيل دقيقة، بلغت قيمته أربعة ملايين جنيه، ليبدو كأنه قطعة من حلم بعيد. كان الفستان يلمع تحت الأضواء، يعكس جمالها الفاتن. وبعد أن امسك بيدها، خرجا معًا، لتتبعهما عيون الجميع بحفاوة، بينما كان جميع الحضور يرمون الورود المجففة في الهواء، تعبيرًا عن المباركة. ابتسمت "والدتها" بفخر، بينما كانت تراقب ابنتها في لحظة لا تتكرر، وقالت بحُب:
_قمر يا سارة.

سارة بغبطة:ميرسي يا مامي.

عندما نزلت العروس، كانت الأجواء ملآنة بالحبور. كان قمر الدين ينتظرها على الدرج، متشبث بباقة الورد، محاطًا بالزوار والمهنئين الذين تجمعوا استعدادًا لاستقبال اللحظة المميزة. ما إن ظهرت العروس، حتى اندفعت أم قمر الدين ونرمين نحوها، لاحتضانها وتقبيلها تعبيرًا عن محبتهم. ثم وصلتا إلى والدتها، وبابتسامة مليئة بالفخر، قدمت أم قمر الدين التهاني لها. أخواتها أيضًا لم يَغِبن عن المشهد، حيث تبادلوا التهاني الحارة مع العائلة. بعد أن صافح رشدي، قمر الدين، صحبها العريس بهدوء ليتم تسجيل اللحظة في جلسة التصوير. في هذه الأثناء، كان المعازيم قد دخلوا إلى القاعة المفتوحة، حيث بدأ الحفل يأخذ مجراه.
أحمد وجميلة جلسا مع هايدي وزياد، بينما كانت سامية وزوجها يتنقلان بين الأحاديث مع الضيوف.
"سامية"، التي كانت مشغولة بهاتفها، قررت أن تُشارك لحظات الحفل مع جمهورها عبر البث المباشر، مبتسمة بإشراقة أمام الكاميرا، قائلة:
_من قلب الحدث، النهارده يوم تاريخي يا فندم، النهارده فرح أخويا حبيبي وروحي وقلبي من جوا!قمر الدين على أحلى بنوتة في الدنيا كلها سارة مدبولي، أحب أقولهم في يوم زي ده Congratulations لأحلى عريس وعروسة، وبتمنالكم حياة سعيدة، وأشوفكم دايمًا في أفضل حال، أنا مستنية اليوم ده من سنين وبفارغ الصبر وأخيرًا جه اليوم اللي شوفت فيه قمر الدين أحلى عريس في الدنيا كلها، بجد I Love You So Much إنت وسارة! ومش هتصدقوا قاعدة مع مين دلوقتي حالًا، بصوا وانتوا هتعرفوا!

وجهت سامية كاميرا هاتفها المحمول نحو أحمد وجميلة، واقتربت منهم حتى ظهروا بوضوح في الشاشة. ابتسموا جميعًا وهم يلوّحون لها بيدهم، في إشارة مبهجة للمتابعين. ثم بادلتهما "جميلة" بابتسامة دافئة، وأرسلت لها قبلة عبر الهواء، بينما قالت بنغمة مرحة:
_هاي، وحشتوني، عاملين إيه؟

سامية بانشراح:جميلة وأحمد، ومعتز.

سار معتز خلف سامية بينما كانت ترفع هاتفها لتوثق اللحظة، وعيناها تلمعان بمزيج من المرح والفخر.
اقترب منها، وابتسم ابتسامة عريضة تعكس سعادته باللحظة، ثم قالت "سامية" بحبور:
_بليز يا معتز قول باي!
ضحك "معتز" وهو يرفع يديه في إشارة مرحة للمتابعين، ثم قال بنبرة مكتظة بالحماس:
=باي، ولا باي إيه؟ احنا لسه عملنا حاجة؟

سامية بطلاقة:هتعيشوا اليوم معانا النهارده لحظة بلحظة وهتشوفوا أجمل اللحظات في فرح قمر الدين، خليكوا معايا محدش يروح في مكان تاني!

حضر بث سامية المباشر على فيسبوك أكثر من ثلاثين ألف متابع، حيث كانوا جميعهم يطالبون بظهور جميلة مجددًا، ما زاد من إثارة البث وحماسته. كانت سامية تتنقل في الحفل كملكة متوجة، تسير بين الضيوف وتجري حوارات قصيرة مع كل فرد من الحضور، تقضي معهم خمس دقائق ثم تتابع سيرها في الحفل. الجميع كان يتحرك هنا وهناك، منتظرين انتهاء جلسة التصوير للعروسين لتبدأ مراسم الزفاف. في الأجواء، كانت الموسيقى الهادئة تعزف كهدوء ما قبل العاصفة، تهيئ القاعة للحدث الكبير. بينما في منزل عم سلامة، كانت ليالي جالسة في الصالة بعد الغداء، تنظر في هاتفها، أما تباهي كانت تحضر الشاي في المطبخ، حيث جلس صابر بجوارها يتصفح هاتفه ويجول بين التطبيقات. فجأة، ظهر البث المباشر على شاشة هاتف "ليالي"، التي لم ترد أن تفوّت هذا المشهد بدافع الفضول. ما إن رأت سامية تضحك في البث، حتى شعرّت بشيء من الاستفزاز، فاندفعت مشاعر السخرية بداخلها. لم يعجبها ما كانت تراه، فبدأت تسخر من سامية وأخواتها، وهي تهمس لنفسها، قائلة:

_مفيهمش أي حاجة زيادة، كلهم نفخ على الفاضي.

صابر بدهشة:هما مين يا ليالي؟

ليالي بحفيظة:أصل فرح أخو البتاعة اللي اسمها جميلة النهارده، وهي وأخواتها طالعين يتمايصوا في الفيديوهات، كأن محدش معاه تليفونات غيرهم! أما محدش قالنا ولا إدانا خبر، سبحان الله ماهو في حزنكوا مدعية وفي فرحكوا منسية، وحماتي اللي نازلة نفخ فيهم ليل نهار لما هما عاملينلها خاطر وبيحبوها أوي كده زي ما هي بتحبهم، محدش عبرها ليه؟ ماهو الإجابة واضحة، هتعرهم! ده هي لواحدها تعر بلد بحالها بجلابيتها المقطعة اللي شابط فيها....

لكنها توقفت عند الجملة التي ستقولها، وشعرت بغضب عارم. كانت عيناها تبرقان بالغيظ، وعقربا الزمن في ذهنها بدأ يتحرك ببطء. ثم قالت بمرارة:

_ولا بلاش أكمل، ربنا أمر بالستر.

دخل عم سلامة إلى المنزل حاملًا كيسًا بيده، وبمجرد أن وقع بصره على ابنه صابر، هرع إليه، واحتضنه بشوق. لم تخفَ السعادة على وجه صابر، إذ شعر بالراحة بعد غيابه الطويل، وراح يطمئن على أحواله بكل حُب. اقترب صابر من كرسيّ قريب ودعا والده للجلوس حتى يرتاح، ثم أمر عم سلامة ليالي لتحمل عنه بعض الأغراض وتوجهها لتضعها في غرفة النوم. استجابت ليالي بهدوء، وأخذت الكيس ودخلت لتضعه في مكانه، بينما بقي عم سلامة يعبّر عن اشتياقه لابنه، موضحًا كيف لم يتوقف عن التفكير به طوال اليوم، متسائلًا عن وصوله ومترددًا في الاتصال به، إذ كان قد نفد رصيده في الهاتف. شعر صابر بشيء من الحرج لأنه لم يطمئن والده فور وصوله، ولكنه أشار إلى أنه أراد أن يجعلها مفاجأة رغم علم والده بعودته. استقبل عم سلامة ابنه بحرارة، ودعاه إلى البقاء في المنزل، بعيدًا عن هموم الغربة ووحدتها، مذكرًا إياه بمدى الشوق الذي ملأ قلب والدته طيلة فترة غيابه، إذ كانت تبكي عليه شوقًا في كل يوم. شعر صابر بألم هذه الكلمات على قلبه، فزاد شوقه لأسرته، وأكد لوالده أن الجميع كانوا حاضرين في وجدانه طوال الوقت.

بعد ذلك، لم يخفَ على عم سلامة تواجد ليالي في المنزل، فحمل تساؤلًا في نفسه عما إذا كان هناك شيء قد حدث يستدعي وجودها؟

بعد أن وضعت "ليالي" الكيس في الغرفة، دخلت المطبخ بهاتفها، وعينها لا تفارق الشاشة بينما تتابع البث المباشر. اقتربت من والدتها، وهي تحمل هاتفها بحركة سريعة، وأضاءت الشاشة أمامها لتظهر لها سامية وأخواتها في الحفل. قالت بمرارة وقهر يملأ قلبها:
_اتفرجي والنبي ياما وشوفي الوكسة اللي احنا فيها.

قلبت تباهي الشاي بالملعقة في حركة شبه آلية، وهي تجهز ثلاثة أكواب وتضع فيها أوراق النعناع الطازجة، بينما عينها لا تفارق شاشة هاتف ليالي. كانت تتابع البث المباشر بكل انتباه، تراقب كل التفاصيل الصغيرة في الحفل. فجأة، ظهر زياد وهايدي في البث، يضحكان معًا، وفي تلك اللحظة، امتلأ قلب "ليالي" بالغضب، فقالت بمرارة:
_إيه ده؟ دي هايدي؟ دي هايدي والولا زياد جوزها، ماهو خلاص عملوا رباطية هما الأربعة، هو حد بقى يقدر يتدخل ما بينهم دلوقتي؟ دول ياكلوه بإيديهم وسنانهم!

تباهي برصانة:ربنا يهني سعيد بسعيدة، هما عاملين رباطية مع بعض، وانتي وجلال ونعمة وجوزها عاملين رباطية مع بعض! كل واحد بيرتاح مع اللي شبهه يا بتي.
ليالي ببغضاء:ماهو أصل جميلة دي أصلها واطي عشان كده مرتاحة مع هايدي، ده في حكمة بتقول الطيور على أشكالها تقع.
تباهي بهشاشة:ربنا يهديهم يا بتي.

بينما كانت تباهي تحمل صينية الشاي في يديها، وتتنقل بخفة إلى الصالة، عادت لتضع العشاء لعم سلامة، تاركةً ابنتها ليالي وحيدة في بحر من الأحزان. ليالي كانت تتأمل في صمت، قلبها مليء بالغيظ، وهي ترى الحياة تسير بمرح من حولها، بينما هي غارقة في القهر. بينما في حفل الزفاف، بعد أن خلد العروسان لحظاتهم في العرض التصويري، بدأ الجميع يتحرك نحو القاعة، حيث كان التفاعل والحماس يغمر الفندق. أمام جدار متحرك يعرض فيديو لزوجين في فيلم أجنبي على لحن موسيقى غربية، كان الحضور يلتقطون اللحظات بهواتفهم الراقية. العد التنازلي بدأ، وعندما وصل للصفر، انفتحت الأبواب ليظهر العروسان، اللذان بديا كأميرات وأمراء القصص الخيالية. قمر الدين كان متشبثًا بيد سارة، عروسته، بشكل جذاب وكأنهما يطيران بين الأضواء الساطعة التي أحاطت بهما، ليجلسا على المقاعد المُزينة بالورود، وسط أنظار الحضور التي كانت مسلطة عليهما.

بعد عشر دقائق من الجلوس، نهض العروسان للرقص، حيث أظهرا براعة غير متوقعة في أداء الرقصة السلو، التي تدربا عليها طويلًا. الأجواء كانت مكتظة بالحيوية، والفخر كان يملأ قلب أم قمر الدين، التي

شعرت كأنها تستطيع القفز بأجنحتها من شدة غبطتها. بينما كانت الأضواء تتغير إلى ألوان خافتة، موجهة فقط نحو العروسين، استمر الرقص لفترة طويلة، ثم تغيرت الموسيقى فجأة، ليجتمع الأهل والأحباب حول العروسين ويحتفلوا بأغنية "هوليلا". كان المصورون يعملون بسلاسة بين الحضور، يوثقون اللحظات المجنونة، يظهرون الحركات الرائجة في الفيديو، بينما كان الجميع يرقصون بحماس جنوني. في منزل أم الديب، وبعد أن تقاسمت الطعام مع أحفادها، أحضرت ثمرة الكانتالوب وأخذت مكانها أمام التلفاز. كان التلفاز يعرض شروخًا في الصورة بسبب الحادث الذي وقع سابقًا، ولكن أم الديب لم تكن تهتم بذلك، إذ كانت أفكارها مشغولة بشيء آخر. اقترب "حمود" منها، وكان يتطلع إليها بشهية، متأملًا في الثمرة:

_أكلينا معاكي يا ستي!

قطعت أم الديب قطعة صغيرة من الكانتالوب، وأعطتها لحمود بابتسامة هادئة، بينما أخذت هي باقي الثمرة وأكملتها. كان طعم الكانتالوب لذيذًا، لكن "حمود" نظر إليها بابتسامة رضا، وقال بنبرة هادئة:

_صغيرة صغيرة، يلا كده رضا.

حضر "جلال" بعد يوم طويل من العمل، فدخل المنزل ليجد أم الديب والأطفال يجلسون حول المائدة، يتناولون الكنتالوب بمُتعة. جلس على الأريكة وهو يبدو منهكًا، ومرهقًا من عناء يومه الطويل. تنهد قليلًا قبل أن يقول بابتسامة خفيفة:

_ازيك ياما؟

حمود بسرور:ستي أكلتنا جبنة بطماطم، وأكلتنا فاكهة.

أم الديب بسخاء:كُل يا حبيب ستك كُل!

جلال بتعجب:ومن امتى الحنية دي؟

أم الديب:من دلوقتي، أصل يا جلال آني حسيت بالذنب ناحية العيال، أه أمال إيه؟ طب تعرف من بعد ما عرفت إن خالك ضايع كتب دارنا بإسم مراته وآني قلبي مقهور وعمالة آكل عمال على بطال عشان أنسى همومي!

جلال بصدمة:كتب إيه ياما؟

نهض جلال بسرعة، وألقى بالطبق الذي كان يحتوي على الكنتالوب، واقترب من أم الديب لكنه فجأة تغيرت تعبيراته، فشعرت أم الديب بقلق غريب. تحولت ابتسامتها إلى شيء مشوش، وبدون سابق إنذار سحب المطواة من جيبه. شعرت "أم الديب" بجسمها يرتجف، وقلقها يتصاعد في قلبها. وعينيها تملؤهما الذعر، ثم صرخت بصوت مرتجف، متهيئة لأسوأ الاحتمالات:

_يا لهوي.

جلال بصياح:خالي إيه اللي كتب بيتنا لمراته؟ مش كفاية سكعتينا على قفانا وكتبتهولـه بإسمه؟ كمان رايح يكتبه لمراته ويسلمنا ليها؟ بقولك إيه ياما أنا معنديش أيها مشكلة أخلص عليكي دلوقتي! تتصلي بخالي ضايع وتخليه يجي ونحل أم المشكلة دي وإلا ما هيهمني لا إنتي ولا أبويا ولا هعمل إعتبار لحد! آمين ياما؟

أم الديب بإعوال:يا لهوي الواد ماسكلي المطوى، عاوز يموتني!

جلال بصخب:ياما اللي بتعمليه ده غلط وستين غلط! بقى بيتنا اللي شقينا فيه يروح للعالم الغريبة على الجاهز؟

أم الديب بخرع:طب أقعد يا ولا! أقعد وهعملك اللي إنت عاوزه! أقعد يا جلال! كدهو خوفت العيال؟

عندما لاحظ "جلال" خوف ابنه وابن أخته، وهما يراقبان الشجار بتوتر عارم، تراجع فجأة، وجلس على الأريكة ببطء، محاولًا تهدئة نفسه. ثم نظر إليهما بنظرة أكثر هدوءًا، ثم قال بصوت أخف، محاولًا تقليل رهبتهما:

_خد محمد واطلعوا عند عمتك ياض!

حمود بخوف:ماشي.

فر حمود ومحمد هاربين، يتسابقان نحو شقة نعمة، خوفًا من رد فعل جلال المفاجئ. أما أم الديب، فقد نهضت بسرعة، تنفض يديها من بقايا الكنتالوب المتناثرة على تراب الحصير. راحت تلملم الفوضى بعناية، تعدل الطاولة وتعيد الأشياء إلى مكانها كما كانت، ثم جلست بجانب "جلال" الذي كان ينفجر في وجهها قائلًا بصراخ:

_بصي بقى ياما! أنا شايف إنك بتكرهيني وأنا الصراحة مشوفتش أم بتهبب كده مع ابنها! لأ ومع مين؟ ابنك الكبير أول فرحتك؟ لما إنتي بتكرهيني أنا وكل اللي من طرفي مكنتيش رمتيني في الترعة ليه وريحتيني؟

أم الديب بكراهية:ومين قالك إن آني محاولتش؟ ده آني أول ما ولدتك يا ولا لقيتك شكلك عِفش جيت أرقد فوقيك زي ما الفرخة بترقد فوق البيضة جه أبوك ولحقك، يلا منه لله.

جلال بعجيج:عرفتي ياما إنك بتكرهيني؟ رايحة تكتبي البيت لخالي ياما؟ وسايباني هنا باكل في نفسي؟ ما تدي كل واحد حقه وتريحينا بقى من المشاكل!

أم الديب:لما أبوك يموت نبقى نقسم الورث.

جلال بسخرية:لا قصدك لما خالي ومراته يتكلوا على الله.

أم الديب:الأعمار بيد الله.

جلال بصياح:تمام ياما! وديني مانا متحرك إلا لما تتصلي بخالي! جلال ميسيبش حقه! جلال لازم ياخد حقه على داير مليم!

أم الديب بحذر:ناولني التلافون!

نهض جلال بسرعة، وهو يشعر بالاحتدام، وذهب ليحضر لها الهاتف من الغرفة، في محاولة لتفادي المزيد من الصراع. وفي تلك اللحظة، نزلت نعمة من شقتها بصحبة المعلم حنفي، وكانا يرافقهما تقى وحمود ومحمد. كانوا جميعًا مستعدين للذهاب إلى منزل عم سلامة لمصالحة ليالي بعد ما حدث، وكانت "نعمة" تبدو هادئة ومصممة على إصلاح الأمور، وعندما اقتربوا، نظرت إلى جلال بحزم وقالت:
_يلا يا جلال!

جلال بعناد:جلال لازق هنا لحد ما حقه يرجعله!
المعلم حنفي بدهشة:إيه يا جلال؟ في حاجة حصلت ولا إيه؟
جلال بانفعال:تعالى احضرنا يابا! بقى أمي تكتب بيتنا لخالي ضايع ويقوم خالي ضايع كاتبه لمراته؟
المعلم حنفي:تعالى ياض أما أقولك!

جذب "المعلم حنفي" جلال بعيدًا عن الجميع، فابتعدا عن الأنظار لتجنب سماع الآخرين لهما. بوجهه الجاد ونبرته الحازمة، نظر إلى جلال وقال بصوت منخفض، لكن بارز:
_ياض البيت مش مكتوب بإسم أمك!

جلال بدهشة:ازاي يابا؟ هو إنت بتكلم عيال صغيرة؟ ده إنت اللي قايلي بعضمة لسانك إنك كاتبه لأمي!
المعلم حنفي بهدوء:ياض آني عملت كل ده عشان أسكت أمك! لكن العقد الأصلي معايا وبإسمي آني، إنما اللي معاها مزور وآني كان لازم أسكتها! مانت عارف إنها زنانة ولما بتمسك في حاجة مش بتسيبها!
جلال بانفعال:بقى يابا سايبني آكل في نفسي كل ده وهو مكتوب بإسمك انت؟
المعلم حنفي بتضايق:أسكت ياض، إنت عايزها تسمع ولا إيه؟ تعالى نكمل كلامنا في الطريق، الكلام هنا مش هينفع!

ثم عادوا إلى مكانهم، وعادت الأجواء لتعود إلى هدوئها النسبي، لكن التطفل كان يملأ عيون "نعمة". نظرت إلى والدها بتساؤل، ثم قالت بفضول:
_في حاجة ولا إيه يابا؟

المعلم حنفي بخديعة:لا ولا حاجة ده أنا بقول لجلال بلاش مشاكل مع أمك بدل ما ترفعلها الضغط ولا حاجة.
أم الديب بتهكم:وآني من امتى فارقة معاك؟
المعلم حنفي ببُغض:من ساعة ما عرفت إن البغل اتجوز وخلف.
أم الديب باستغراب:ايهي، انتوا رايحين فين يا بت يا نعمة؟

نعمة بتلعثم:رايحين... رايحين...أه هقولك...
أم الديب بجلبة:ما تقولي، إنتي بالعة لسانك؟
نعمة بابتسامة:رايحين للداكتور مع أبويا أصله رجليه تاعباه.

وضع "المعلم حنفي" يديه على سيقانه مُتظاهرًا بالألم، وهو يتأوه بصوت مسموع، وكأن الجروح قد أُعيدت إلى جسده للتو، في محاولة لإثبات صحة ما قالته نعمة. نظر إلى أم الديب بابتسامة خفيفة، قائلًا بنبرة تمثيلية:
_أه يا رجلي أه.

أم الديب بغلاظة:جاك أوا.
المعلم حنفي بقلق:شكرًا يا ولية.

استعدت نعمة للخروج مع والدها، وجلال، والأطفال، ودعتهم للمُسارعة قبل مغادرة الطبيب، في حين أصر جلال على بقاء الأطفال برفقة جدتهم أم الديب. لم تقتنع نعمة برأيه، ورغبت في اصطحاب الأطفال معها، لكن أم الديب تذمرت من هذه الفكرة، معتبرة أن حضورهم لا فائدة منه، وأن بقاءهم معها قد يؤدي إلى نقل المرض إليها، خصوصًا أنهم يعانون من أعراض البرد التي بدت واضحة عليهم. قطعت نعمة حديث والدتها، معتبرة أن كلامها متكرر، ثم سألتها بفتور إذا كانت بحاجة إلى شيء قبل خروجهم. حيث أغلقت "أم الديب" الباب خلفهم بعد أن غادروا، ثم عادت وجلست، وشعرت بوخز في حلقها ليظهر عليها أثر المرض، وهي تعاني من عطسة مفاجئة، فقالت بصراخ:
_ياختي، هما العيال عدوني ولا إيه؟ فين الليمون؟ قبل ما أعيا وأرقد في السرير.

ثم فرت هاربة نحو المطبخ، مُسرعةً، كي تشرب عصير الليمون، عسى أن يقيها من شر العلة التي شعرت بأنها قد تهاجمها. كانت تلك عادة قديمة، تسعى فيها للحفاظ على صحتها قبل أن تتفاقم الأعراض بعد أن نزل المعلم حنفي، وجلال، ونعمة، والأطفال إلى الشارع، استكملوا حديثهم. سأل جلال والده عن سبب صمته طوال هذه المدة، بالرغم من أن المنزل مسجل باسمه، مُتعجبًا من تركه للوضع يشتعل بينهم بلا تدخل. عبّر المعلم حنفي عن رغبته في عدم بيع الشقة، مشيرًا إلى أنها السبب الوحيد الذي يجمعهم ويخفف عنه ثقل الحياة ومشكلاتها. وأوضح أنه سيشعر بالوحدة التي قد تجتاحه إن ابتعدوا عنه، إذ كان يرى وجودهم كالسند، خاصة في لحظات الصعاب التي يتدخلون فيها لحلها. أظهرت نعمة انزعاجها من حديث والدها، طالبةً منه التوقف عن التشاؤم، معبرة عن رغبتها أيضًا في بقاء جلال وليالي بالقرب منها، إذ ترى أن وجودهم هو العون الوحيد لها وسط أعباء الحياة.

ردّ جلال على نعمة، محاولًا إقناعها بفكرة الانتقال إلى شقتين متجاورتين، أو حتى فوق بعضهما، لكنها لم تقتنع بذلك، فتساءلت عن المكان الذي يمكنهم التوجه إليه، غير راغبة في ترك الحي الذي اعتادوا عليه.

أمام إصرار جلال على ضرورة إتمام إجراءات البيع والتخلص من المتاعب المالية، أبدى المعلم حنفي موافقته، ووعده بمساعدته متى ما احتاج، متفهمًا حاجته للبحث عن الاستقرار. بعد أن توصلوا إلى اتفاق، ركبوا التوكتوك، ماضين في طريقهم بنفوس مثقلة بالتفكير إلى منزل عم سلامة. في حفل الزفاف، قدّم كل ثنائي فقرة رقص على أنغام موسيقى رومانسية، فتجمع الجميع على المسرح بين الأضواء، يتمايلون في تناغم، والهيام رفيقهم. أما زياد وهايدي، فقد اختارا الجلوس على الطاولة، يراقبان المشهد في صمت. كان واضحًا أن هايدي تشعر بالإحراج، فنظر "زياد" إليها بعينين مليئتين بالإصرار، ثم قال بإلحاح:
_يلا يا هايدي!

هايدي بخجل:لا لا لا خلينا هنا أحسن!
زياد بدهشة:وإيه المشكلة يعني؟ ما كلهم بيرقصوا أهو!
هايدي بحياء:لا لا أنا مرتاحة كده أكتر!
زياد باستياء:خلاص زي ما تحبي!

تضايق زياد من رفض هايدي للرقص سويًا، كما فعل باقي الأزواج، فظل صامتا، عاقدًا حاجبيه في سكون، بينما كانت هايدي تغرق في قمة الإحراج. أما في الجهة الأخرى، كان أحمد وجميلة في غاية السعادة، يحتفلان بزفاف قمر الدين وعروسته. كانا يرقصان معًا بين الجميع، حيث عانق أحمد خصر جميلة بينما هي معانقته من كتفيه، يدوران معًا بهدوء على أنغام الموسيقى. نظرت "جميلة" إلى سارة بإعجاب، وأعربت عن رأيها قائلة:
_العروسة بجد زي القمر.

أحمد بعشق:زيك كده يعني؟ مانتي القمر نفسه!
جميلة بدلال:عارف؟ أنا بجد بتمنى يوم ما سيليا تكبر وتكون عروسة، إنها تلاقي Husband حلو وقمر زيك! بس معتقدش إنها هتلاقي! لأن اللي زيك خلصوا متبقاش منهم غير واحد بس وهو انت!
أحمد بسعادة:وأنا بتمنى إن سيليا وأسيل لما يكبروا يكونوا نسخة منك في كل حاجة! شكلك وأناقتك وشخصيتك وتفكيرك بكل حاجة فيكي! عارفة يا جميلة؟ أنا من أول مرة شوفتك فيها قولت بس تاهت ولقيتها! هي دي اللي هتنفع تكون في يوم من الأيام أم لأولادك! واللي يفرح أكتر إن كل اللي حلمت بيه اتحقق على أرض الواقع، أنا لو أشكر ربنا طول حياتي مش هيكفي على إنه بعتلي هدية كبيرة زيك!
جميلة بغرام:مكنتش أتخيل خالص إن مامي وبابي وأخواتي يوافقوا ونكون هنا النهارده! أنا كمان بجد كنت شايفة إنك إنت الوحيد اللي ينفع أكمل حياتي معاه! ويكون نصي التاني! وكل حاجة في حياتي، بجد I Love You So Much!
أحمد بحُب:وأنا كمان يا حبيبتي ويمكن أكتر!

نظر أحمد في عيني جميلة الخلابة، اللتين أسرتا روحه وفؤاده، ثم رفع يديها برفق وقبلهما بحب عميق. غمرت جميلة حضنه، وغفوت في أحضانه بينما كانت ترقص معه على الموسيقى بهدوء. بالقرب منهما، كان باسم يرقص مع زوجته بسملة، يدوران معًا بحب بين فريق الأحباب. فجأة، ضحك "باسم" وهو ينظر إلى بسملة بعينين مليئتين بالغرام، ثم قال بسرور:
_بقيتي مامة العريس أخيرًا!

أم قمر الدين بفرح:طبعًا، ومش أي عريس! ده أحلى عريس في الدنيا كلها، حبيبي يا قمر الدين! عقبال أخوك علاء وأشوفكم دايمًا بخير.
باسم بهوى:عايزين نخلص من باقية الأولاد علشان نكون لواحدنا وعلى راحتنا بقى!
أم قمر الدين بضحك:معقول يا باسم بتفكر كده واحنا في السن ده؟
باسم بافِتراز:لا يا بسملة، إنتي ليه محسساني إننا عندنا تسعين سنة وماشيين بالعكاز؟ يا حبيبتي احنا لسه صغيرين! حتى لو أحفادنا كبروا واتخرجوا من الجامعة كمان.
أم قمر الدين ببسمة:فاكر يا حبيبي لما كنا لواحدنا زمان قبل ما نخلف سامية وباقية أخواتها؟ كنا متفقين نخلف اتنين بس! معرفش ازاي بقوا سبع أولاد وكلهم شباب زي الورد، دي معجزة إن جسمي متبهدلش وبدون أي عمليات تجميل!

باسم بضحك:ناس كتير بتستغرب وبتقول ازاي وانتوا المفروض مستواكم المادي والفكري عالي ومع ذلك عندكم سبع أولاد؟ هما أكيد عندهم حق ولكن ده نصيب إن كل واحد فيهم يجي للدنيا.
أم قمر الدين بابتسامة:صحيح ولكن أولادنا مش هيعيدوا نفس الغلطة تاني! كل واحد فيهم اتفق مع شريك حياته يخلفوا طفل واحد بس! ما عدا جميلة بقى، جابت أسيل غلطة.
باسم ببشاشة:أسيل دي حلويات العيلة، ربنا يخليهالنا.
أم قمر الدين بغُناج:هي بس؟
باسم بمُغازلة:لا إنتي الأساس يا قمر!

مهما مر الزمان، فإن حبهم لن يتغير. فقد جمعتهما سنوات من الذكريات منذ أن كانا في سن الشباب، حين كانت حياتهما مليئة بالحيوية والتفتح مثل زهور في أول الربيع. ومع مرور السنين وكبر أم قمر الدين، ظلت في عينيه تلك الفتاة الصغيرة التي أحبها منذ البداية، فتلك العلاقة التي بدأت في سنوات العمر المبكرة لم تفقد بريقها. باسم لم يملك خمس فتيات كما يظن البعض، بل كان له ستة، وكانت بسملة هي الأولى، التي كانت تملأ حياته بأروع معاني الوفاء.

يتبع....

الفصل الثامن عشر

ابتسمت "أم قمر الدين" بابتسامة تشع دلالاً كأشعة الشمس المائلة، وقالت بصوت ينساب كالنغمات الحالمة:
_حبيبي يا باسم.

وسط أنوار القاعة التي تنثر ألقها على الوجوه المشرقة، ومع صوت الموسيقى الذي بدأ يعلو كنبض الفرح المتسارع، كانت الأقدام ترقص بلا توقف، وكأن الأرض نفسها تشارك في الاحتفال. الشاشات الضخمة تعرض وجوهًا ضاحكة وذكريات قيد التشكل، بينما الأجواء مفعمة بالحياة، وفي تلك اللحظة، تقدمت امرأة أربعينية تُدعى "دلال"، من أقارب أم قمر الدين، بخطوات واثقة وابتسامة وادعة. كانت ترتدي فستانًا جمليًّا يخطف الأنظار ببساطته الأنيقة، وزينت حضورها بحُليّ تنساب على بشرتها كضوء القمر. عانقت أم قمر الدين عناقًا حارًا مليئًا بالود، وهمست بصوت مفعم بالتقدير:
_ألف مليون مبروك لقمر الدين يا بسملة، دي أحلى خطوة قمر الدين خدها بجد.

أم قمر الدين بفرح:الله يبارك فيكي، ميرسي.
دلال بابتسامة:ألف مليون مبروك يا أستاذ باسم.
باسم بتهلل:الله يبارك في حضرتك، وعقبال أولادك.
دلال بتبسم:ربنا يخليك، عن إذنكم!
باسم بِاحتفاء:اتفضلي.

غادرت دلال بخطوات خفيفة كأنها تتمايل على نغمات الموسيقى التي تملأ القاعة، لتنضم إلى جموع المدعوين الذين غمرهم حماسٌ أشبه بالدوار. كانت القاعة تغلي بفيضٍ من المرح، والفرح قد استحوذ على أرواحهم، باستثناء الأباء والأمهات الذين جلسوا بهدوء على الطاولات المزينة بعبق الورود البيضاء والمناديل الأنيقة، يراقبون السعادة بابتسامات هادئة، وكأنهم شهود على مهرجان سعادةٍ عارم. في وسط القاعة، كان "علاء الدين" يرقص بشغف كالنار المشتعلة مع يوستينا، متقاربين كأنهما ينسجان إيقاعًا خاصًا بهما. وبتجرؤ فاضح، همس لها بصوت يغلبه الفسق، وهو يشجعها على التمايل بحرية أكثر:
_أرقصي كويس يا مزة!

يوستينا بدناءة:أوكي، الـWedding Party حلوة أوي!
علاء الدين بِانحطاط:طبعًا، احنا منعملش حاجة كده وخلاص، لا كل حاجة محسوبة كويس أوي!

كل ما مضى كان مجرد تمهيد لما هو آتٍ؛ إذ إن اللحظة الأكثر مهابة قد حلّت مع دخول الوزير وزوجته وأبنائه، في هيئة تفيض وقارًا، وكأنهم صورة من لوحاتٍ رسمتها أيدٍ خفية بعناية. كانت أبهى الحلل تكسوهم، وما إن وقعت أعين باسم وأم قمر الدين عليهما، حتى نهضا كأنهما قد شهدا حدثًا عظيمًا. صافح

باسم الوزير مصافحة حازمة تُعبّر عن الاحترام، ليبادر "الوزير" بابتسامة واثقة وكلمات مملوءة بالتهنئة، قائلًا:
_مليون مبروك لعريسنا المحترم الشهم!

باسم بغبطة:الله يبارك فيك يا سعادة الوزير، وعقبال أولادك.

تقدمت "ولاء"، زوجة الوزير، بخطوات واثقة يملؤها الرقي، تحمل في قسماتها ابتسامة تفيض مودة. وعندما وصلت إلى أم قمر الدين، عانقتها بحرارة كأنما تود أن تنقل إليها أسمى مشاعر الفرح. قالت بصوت تغلفه الحفاوة:
_مليون مبروك لقمر الدين، بجد فرحاناله جدًا.

أم قمر الدين بسرور:الله يبارك فيكي يا حبيبتي، وعقبال القمامير.

ثم التفتت إلى الوزير بنظرة تفيض ترحابًا، وقالت بلهجة تنبض بالدفء:
_بجد نورتونا واتشرفنا بوجودكم!

الوزير بتبسم:متشكر ليكي.
باسم ببسمة:اتفضلوا!

تقدم باسم وأم قمر الدين مع الوزير وأسرته نحو طاولة مستطيلة تتوسط القاعة، وقد تميزت بزخارفها الأنيقة التي تشي بمكانتها الخاصة بين الطاولات. جلس الجميع حولها في نظام بديع، إلا "باسم" الذي ظل واقفًا كمن يحمل في جعبته أمرًا بالغ الأهمية. ابتسم ابتسامة واثقة، وكأنما يشعل الأنظار نحو نيته:
_اديني ثواني بس يا سعادة الوزير هجيب قمر الدين يسلم على حضرتك!

الوزير بتهلل:اتفضل.

عاد باسم يتقدمه "قمر الدين" وعروسته، كلوحة من نور تُضفي على القاعة مزيدًا من البهاء. وعندما اقترب قمر الدين من الوزير، احتضنه بعناق ملآن بالود، وهو يحتفي بوجوده في هذا اليوم المميز. فقال له بترحاب يغمره التقدير:
_حضرتك نورت الدنيا كلها، أنا فرحتي مش سايعاني، متتصورش فرحان بوجودكم قد إيه!

الوزير بزهزقة:ألف مبروك ياقمر الدين، خلاص إنت النهارده ودعت العزوبية!

قمر الدين بضحك:طبعًا، خلاص مفيش خروج تاني إلا بالإذن!
الوزير بابتسامة:ألف مبروك يا عروسة.
سارة ببشاشة:الله يبارك في حضرتك.

ولاء بإعجاب:ما شاءالله قمراية، أحلى من الصور بمراحل، ولايقين على بعض جدًا.
أم قمر الدين بتأكيد:كل الناس بتقول كده، سارة بنت محترمة وهايلة.
سارة بحبور:ميرسي ليكوا، بجد نورتوني!
ولاء بابتسامة:ميرسي يا روحي.
قمر الدين ببشاشة:عن إذنكم.
باسم بتبسم:اتفضل!

عاد قمر الدين وزوجته إلى منصة العروسين، حيث أضاءت الأجواء بفرحة الحضور. اقترب والد العروس من معالي الوزير ليقدمه للحضور، معبرًا عن فخره بلقاء شخصية بارزة. استقبل الوزير بابتسامة تشرح مكانته، بينما عبرت والدتها عن حماسها ووجهت التحية للوزيرة، مشيدة بجمال العروس. تعانقت كلمات المديح بين الجميع. بينما في منزل عم سلامة، حين توقف التوكتوك، ونزل منه جلال ووالده وأخته برفقة الأطفال، انفتح باب المنزل على يد "ليالي"، التي أطلت بوقارٍ ممزوج بجمودٍ لافت. وقفت للحظات، وعيناها تلتقيان بعيني جلال بنظرة حادة كالسيف، تخترق صمته دون أن تنبس ببنت شفة، وكأن وجوده لا يعني شيئًا. تجاهلت حضوره تمامًا، ثم انحنت بخفة لتعانق ابنتها تقى، التي انطلقت نحوها كطائر وجد أمه.
غمرتها بحنانٍ ملحوظ، وسألتها باهتمام:
_عاملة إيه يا تقى؟ أبوكي أكلكم إيه؟

تقى بترح:بابا مأكلناش حاجة.
نعمة:متخافيش، تقى كلت عندي مع جدها!
ليالي بقلق:وانت يا حمود كلت إيه؟ أوعى تكون مكلتش!
حمود بجَزع:ستي أكلتنا جبنة بطماطم وكان طعمها وحش ياما مش زي اللي إنتي بتعمليها، وأنا لسه جعان!
محمد بمسغبة:وأنا كمان!
ليالي بحنو:طيب تعالوا! هأكلكم بط وفراخ، خير ربنا كتير.

ثم التفتت نحو المعلم حنفي، الذي وقف بصمتٍ حيالها، ينتظر إشارة منها للولوج إلى المنزل. حيث قالت له بصوتها الهادئ، لكنه يحمل في طياته حزمًا:
_خُش يا حمايا!

ثم استدارت نحو نعمة، دون أن تلقي نظرة على جلال الذي كان يقف في زاوية المدخل، وقالت:
_تعالي يا نعمة!

جلال بسخرية:خُش يا حمايا؟ تعالي يا نعمة؟ وجلال إيه؟ ينام على الباب؟ ولا أقولك خشي أندهي أبوكي يجيب كرسيين ويجي نتكلم على الباب أحسن!
ليالي بتضايق:خُش مش قصدي!

دخل الجميع إلى الشقة، وكان صابر جالسًا في مكانه على الجلسة، لم ينهض ولم يبدِ أي حركة، وظل صامتًا كما لو كان جزءًا من الصالة، مما كشف عن استمراره في حمل ضغينة تجاه جلال. تنحنح "المعلم حنفي"، وارتفعت نبرته حين قال:
_يا عم سلامة!

خرج "عم سلامة" من الغرفة بخطوات ثابتة، متجهًا نحو الحاضرين، وابتسامته تعكس ترحيبًا حارًا. عندما اقترب من المعلم حنفي، عانقه بحرارة، وكأنما يطبع على صدره أسمى معاني الاحترام، وقال له بتبجيل يليق بمقامه:
_يا أهلًا وسهلًا، يا ألف مرحب بالمعلم حنفي!
ثم اكتفى بترحاب نعمة من بعيد، دون أن يمد يده لمصافحتها، وكأن هناك حاجزًا غير مرئي بينهما. نظر إليها بنظرة جادة، وقال بجديةٍ واضحة في صوته:
_ازيك يا نعمة؟

نعمة بإعزاز:الحمدلله.
عم سلامة بلطافة:ازيك يا حمود؟ ازيكوا يا عيال؟
حمود بابتسامة:كويسين يا جدي.

لم يصافح عم سلامة جلال، بل اكتفى بالنظر إليه في صمت، وكل كلمة قد اختفت بين ملامح وجهه. كان يعلم بما حدث من خلال زوجته، التي كانت تتباهى بكل التفاصيل، لكن صابر كان يعتقد أن والده لا يعلم شيئًا عن تلك الأحداث. بعد أن استقر الجميع في أماكنهم، نظر "المعلم حنفي" إلى صابر بابتسامة خفيفة تذرف منها ذكريات الشهور التي مضت في الغربة، وعيناه تشعان بالفرح لرؤيته من جديد، وقال:
_حمدالله على السلامة يا زينة الشباب، كل دي غيبة؟

صابر بسخط:الحوجه مُرة يا حاج، نورتونا!

ثم نظر صابر هو الآخر إلى جلال بنظرة مليئة بالسخط، وصمت، كأنما يريد أن يبعث برسالة من غير كلمات. وبينما ساد الصمت بين الجميع، انبعث صوت "عم سلامة" عاليًا، يقطع السكون، فقال:
_يا أم ليالي، يا أم ليالي!
لكن من الواضح أن تباهي كانت مشغولة في الداخل، لم تلبِّ النداء فورًا. فالتفت "عم سلامة" إلى ليالي، التي كانت تجلس جانبًا، وقال لها بصوت يحمل في طياته بعض الحزم:
_خُشي يا ليالي اندهي أمك!

ليالي:طيب.

نظرت ليالي إلى جلال برفع حاجبيها، تحمل في عينيها غيظًا واضحًا، ثم نهضت في صمت ودخلت إلى الداخل دون أن تلتفت إلى أحد. شعر "جلال" كما لو كان محاصرًا بنظرات الاستهجان والازدراء، فقد كان واضحًا أن الجميع يتجنب الحديث معه أو حتى تحيته، بل على العكس، كانت نظراتهم تحمل شيئًا من الرفض. شعر بامتعاض يتصاعد داخله، وكأن كل كلمة أو نظرة كانت تثقل قلبه، ويبدو أن الصمت الذي يحيط به يصرخ في وجهه أكثر من أي كلام، فقال:
_ما جرا إيه؟ مالها دي؟

عم سلامة ببسمة:نورتونا.
المعلم حنفي ببشاشة:ده بنورك إنت وصابر والحاجة.

خرجت "تباهي" من الغرفة، تليها ليالي، فوقفوا جميعًا قبال المعلم حنفي. تباهي، التي كانت تحمل ابتسامة خفيفة على وجهها، قالت له بترحابٍ ظاهر، ولكن بلا روح، والكلمات كانت مجرد روتين يتعين قوله:
_يا أهلًا بالحاج حنفي، يا مرحب.

المعلم حنفي بإعزاز:أهلًا يا أم ليالي.
تباهي بابتسامة:ازيك يا نعمة؟
نعمة ببسمة:الحمدلله.
تباهي:نجيب العشا بقى.
جلال برفض:لا يا حماتي احنا جايين في كلمتين وماشيين!
عم سلامة بإصرار:ازاي طيب؟ ده انتوا في بيتنا، لازم تاخدوا واجبكم!
جلال باعتراض:يا عم سلامة احنا جايين في كلمتين بقولك! الحوار مش مستاهل!
نعمة بكبرياء:لا والله احنا شبعانين الحمدلله، كتر ألف خيرك.

رفض الجميع فكرة تناول العشاء، إلا المعلم حنفي الذي كان يحدوه الأمل أن يجد في طعام تباهي ما يروي شغفه. كان يعلم أن طعامها يتمتع بنكهة خاصة، قد تكون فريدة من نوعها، حتى أنه كان يحب طعامها كما يحب طعام ليالي. بالنسبة له، كانت هذه فرصة لن تتكرر، فهو يعرف أن طهي أم الديب لا يعدو كونه شيئًا لا يطيق حتى التفكير فيه، فهو يشبه في نكهته ما يجد في القمامة أو الكائنات المتعفنة في الترعة. أما "نعمة"، فقد كانت ترى أن الموضوع الذي حضروا من أجله يعلو فوق كل شيء، حيث قالت لوالدها بنبرة جادة:

_ما تقول حاجة يابا بدل مانت ساكت كده!

المعلم حنفي بضَرم:ها؟

نعمة بابتسامة:اتكلم قول أي حاجة!

المعلم حنفي بجُرأة:سيبيهم يجيبوا عشا، هما اللقمتين اللي إنتي حطتيهم دول يشبعوا ولا يملوا البطن؟ وبعدين ليالي بتقول عاملين بط وفراخ يبقى خلينا ناكل! يا عالم هناكل تاني امتى!

عم سلامة بسخاء:خشي يا أم ليالي سخني العشا!

دخلت تباهي المطبخ بأمر من عم سلامة، فباشرت في تسخين الأرز والخضار بالصلصة واللحوم وغيرها من الأطباق، بعضها في الفرن والآخر على الموقد، تعبًا في العمل لكن بيدها التي تتقن صنع كل شيء بحب. كان منزل عم سلامة يمثل السخاء بعينه، إذ لا يدخل أحد إلا ويأخذ نصيبه من الضيافة على أكمل وجه. جلست "ليالي" بجوار ابنتها، في صمت، بينما لاحظت عيون جلال تتجه نحوها، تتبعها باشتياقٍ لا يخفيه، وكأنها نقطة الضوء الوحيدة في تلك الحياة المعتمة. شعر قلبها يضطرب، وقالت لنفسها بانزعاج:

_ماله ده، عاوز إيه؟

نعمة بابتسامة:بص بقى يا عم سلامة إنت عارف احنا ملناش في اللف والدوران، جلال غلطان من ساسه لراسه واحنا عارفين كده كويس!

جلال بصياح:ما جرا إيه يا بت؟ هو إنتي شايفاني نُغة قدامك؟ أنا اللي هتكلم!

نعمة بخوف:خلاص اتكلم انت!

رفض "جلال" تدخل نعمة، حيث قرر أن يتحدث بنفسه دون الحاجة إلى مساعدة من أي شخص. كانت كلمات ندمه تتردد في صدره قبل أن تخرج، وكأنها تدور في دائرة مغلقة. قال وهو يبتلع مرارة الحديث:

_بص يا عم سلامة أنا الصراحة الدم غلى في عروقي وفكرت بتاع الأنابيب فوق وليالي لواحدها وانت عارفني مقبلش راجل غريب يدخل شقتي وأنا مش موجود انشالله لو كان أبويا!

المعلم حنفي باكتراث:العَشا قدامه كتير؟

نعمة بخجل:يوه يابا، يادي الفضايح، أسكت!

جلال بندم:فالصراحة محستش بنفسي غير وأنا بضرب صابر، بس لما فوقت من الغيبوبة غلطت نفسي وقولت ميصحش اللي عملته ده ولازم أصلح غلطتي، أمال إيه؟ أصل أنا بفهم في الأصول أوي!
المعلم حنفي بمسغبة:العشا اتأخر.
نعمة بجلبة:يا لهوي عليك يابا، برضة مصمم تفضحنا؟
عم سلامة بدوًى:خلصي بسرعة يا أم ليالي!

المعلم حنفي كان مصممًا على أن يفضح أبناؤه أمام عائلة عم سلامة، فدخل في الحديث باشتياق، كما لو أن الموضوع أصبح ضرورة ملحة له، مطالبًا أن يتم تناول العشاء في أقرب وقت. كان صوته يحمل نوعًا من الإلحاح، فالطعام هو الحل لكل شيء. في تلك اللحظة، كان عم سلامة يندفع بنداءات حثيثة لتباهي، يدعوها للتعجيل في تجهيز العشاء. أما "جلال"، فقد كان في حالة من الندم على اندفاعيته وتصرفاته السابقة. نظر إلى صابر، الذي كان يجلس في صمتٍ غريب، وقال له بصوت منخفض، يحمل بين طياته أسفًا:
_فأنا جاي أقولك حقك عليا ده إنت مهما كان برضة خال العيال.

ليالي بامتعاض:أنا أخويا ميتعملش معاه كده وانت سوءت فيها أوي!
جلال بصياح:لسانك ميخاطبش لساني يا بت، ملناش كلام مع بعض!
ليالي بعجيج:ده إنت بجح أوي، جاي بيتنا لحد عندنا وكمان عايزني أتكتم وأحط بلغة قديمة في بوقي؟ لا ده كان زمان يا حبيبي!

صاح "عم سلامة" في ليالي، وأدرك أن تلك الكلمات التي نطقت بها قد قللت من قدره، كوالد ينبغي أن يُعامل بكل التقدير. في تلك اللحظة، تملكه شعور بأنها تحتاج إلى التحلي بالصبر، وأن عليها أن تمنح والدها الفرصة ليتحدث مع زوجها بعيدًا عن تدخلاتها، والحديث بين الرجلين يجب أن يكون صريحًا، بعيدًا عن أي التباس، فقال:
_أسكتي يا ليالي، مسمعش صوتك!

ليالي بخور:طيب يابا.
عم سلامة بحدة:مع إن صابر مقاليش حاجة.

انزعج "عم سلامة" بشدة حينما اكتشف أن صابر قد أخفى عنه ما دار بينه وبين جلال، وكأن خفاء الحقيقة قد جرح مشاعر الصدق التي كان يعتقد أنها تجمعهما. نظر إليه. ثم قال، صوته يشتعل بالحنق واللوم:
_ازاي جلال يمد إيده عليك ومتحكيليش؟

صابر بخجل:كنت هحكيلك بس مش دلوقتي، أنا قولت مش من أولها مشاكل، أرتاح الأول وبعدين أحكيلك.
عم سلامة بفظاظة:يعني إنت مديت إيدك عليه عشان فاكره بتاع الأنابيب؟

جلال بصدق:أه وربنا.
عم سلامة بحسم:قوم حِب على راسه!
جلال بحنق:ماهو برضة اللي غلطان، ما كان قال إنه جاي! ما هو عارف إن أنا مبحبش المفاجآت! وبعدين حط نفسك مكاني يا عم سلامة، ترضاها على مراتك؟
عم سلامة بصياح:قوم حِب على راسه يلا!
جلال بغضب:علفكرة يا عم سلامة اللي إنت بتعمله ده مش صح! إنت كده بتقل مني، هو مرة راس أشرف جوز بتك ومرة راس صابر؟

ثم تغيرت نبرة صوت "جلال"، فتصاعدت فيها نغمات من العاطفة، كلحظة غرام تضيء في صمت الليل. نظر إلى ليالي بنظرة ملآنة بالمشاعر، عميقة كبحر من الحب الخفي، ليكشف عن قلبه الذي بات لا يحمل سواه. حيث قال:
_مفيش مرة حِب على إيد مراتك؟ مرة على رجل مراتك؟

عم سلامة بصياح:اتحشم! هي أه مراتك بس برضة! وانت وصابر ليكم حساب عسير، انتوا الإتنين غلطانين!
صابر بتردد:بس يابا أنا معملتش حاجة!
عم سلامة بصخب:لا عملت! كنت عرفني اللي جرا عشان آخدلك حقك!
جلال بعجيج:ياخد حقه من مين يا عم سلامة؟ لا خد بالك الكلام ده مايجيش معايا سكة، ده أنا جلال الشبح ولولا إنك حمايا....

تحول "جلال" فجأة، وقد تجلى في وجهه غضب جسيم. نظر إلى صابر بعينين مليئتين بالوعيد، وصمت لبرهة كأنما يزن كلماته بدقة، ثم بدا على ملامحه تصاعد الأخت الاحتدام، وأردف:
_وانت خال عيالي كنت فرتكتكم!

نعمة:يا جماعة استهدوا بالله احنا جايين نصلح مش نتخانق! ده شيطان ودخل ما بينكم، كل ده عشان مسميتوش وانتوا داخلين!

تحول مسار الحديث فجأة نحو الحدة، وتبادل الجميع الآراء وكل واحد منهم يسعى لتأكيد وجهة نظره، بينما ظل المعلم حنفي صامتًا، غارقًا في تأملاته. تارة كان يوجه نظره نحو الجدار، وتارة أخرى نحو السقف، وفي بعض اللحظات كان يتلاعب بأظافره أو يوجه بصره نحو الممر، كأنما ينتظر اللحظة التي تخرج فيها تباهي بصينية العشاء. عندئذ، مالَت "نعمة" نحوه، وأخفضت صوتها قائلة له همسًا:
_ما تقول حاجة يابا بدل ما هما بيقطعوا في بعض كده!

المعلم حنفي بصياح:أنا عاوز أقول حاجة مهمة! يا عم سلامة، يا جلال!

أخيرًا، قرر "المعلم حنفي" أن يكسر الصمت ويشارك برأيه، فقد كان الجميع يحترمونه وينتظرون كلماته التي طالما كانت تحمل وزنًا خاصًا. ساد الصمت في المنزل، وترقب الجميع ما سيقوله، والأنفاس قد توقفت في انتظار صوته. ثم نطق المعلم حنفي بكلمات خرجت بصعوبة، كأنها تخترق حلقه بصوت ضعيف، وكأنما المسغبة تنزف من بين شفتيه مثل كلب ينهش معدته:
_العشا مخلصش ليه؟ هي أم ليالي نسيت؟

نعمة بصراخ:يا لهوي عليا وعلى سنيني، هلاقيها منك ولا من أمي؟

كان المعلم حنفي مصممًا على أن يخزي أبناؤه، فهو الرجل الذي لا يخرج من فمه سوى كلمات الجوع، مما جعل العائلة تشعر بحجم قساوة حاله. بعد دقائق قليلة، دخلت تباهي، حاملة صينية ضخمة مملوءة بكل أصناف العشاء، تحمل بين ذراعها الأيمن زجاجة من المياه المثلجة وأكوابًا، لتجد الجميع حول المائدة ينتظرون، يتناولون الطعام بشغف، بينما ظلت نعمة صامتة ترفض الانضمام إليهم رغم إلحاح عم سلامة وأسرته.

في أثناء ذلك، مر الوقت سريعًا في حفل الزفاف، حيث انقسم الحضور بين الراقصين والجلوس حول الطاولات في حديث مستمر. كانت فقرة الكيك هي الأكثر لفتًا للأنظار، حيث أُحضرت كعكة ضخمة مؤلفة من سبع طبقات، مزينة بحشو من المكسرات وأجود أنواع الكريمات والصوصات. وقفا العروسان لقطع الكعكة باستخدام منشار، في لحظة رومانسية، يتبادلان التذوق. أما النادلون فقد وزعوا الأطباق الفاخرة على المدعوين، فكانت تضم لحم الغزلان والنعام، الأرز بالمكسرات، البيكاتا، والكباب المشوي على الفحم، وغير ذلك من الأطباق الشهية التي أضفت الفخامة على الحفل. في هذا الوقت، كان أحمد وجميلة يرقصان بعيدًا عن الجميع، بينما جلس زياد وهايدي على الطاولة، منشغلين بمحادثة غير متوقعة. وفي لحظة مفاجئة، وبدون أي تحذير، اقترب "علاء الدين" فجأة وجذب هايدي إلى حضنه دون أي اكتراث للعواقب، قائلًا بابتسامة:
Hey_ أخبارك إيه بعد الجواز؟

دون أي مقدمات أو تفكير، نهض زياد فجأة، وقد تجسد في حركته سخط مفاجئ لا يمكن كبحه. تشبث بعنق علاء الدين بكل قوته، ووطأه بعنف كمن يطأ على كرامته، غير مبالٍ بكل شيء حوله. كانت الغيرة قد أضرمت في قلبه نارًا لا يمكن إطفاؤها، فذلك شعور يعكس شيم الرجال وحميتهم، وإن كان الدماء لا تجري في عروقهم بحرارة، فلا بد أن يكون هناك خلل في نخوتهم. التفَّت الأنظار نحوهما، الجميع يحبس أنفاسه، بينما كان "زياد" في حالة من الاحتدام العنيف، كل عضو في جسده يشهد على ثورته، قائلًا:

_تخصك دي؟ تخصك؟ إنت قليل الأدب ومتربتش! ازاي تجرؤ إنك تسلم عليها بالشكل الحقير ده؟ إنت في إيه؟ في إيه بجد؟

من شدة الضوضاء، جاء أحمد بسرعة محاولًا الفصل بينهما، فتمكن من تبعيدهما عن بعضهما بأعجوبة، وكأنما كانت القوة التي دفعتهما بها كفيلة بأن تعيد الأمور إلى وضعها الطبيعي. وفي هذه اللحظة، انتبهت "سامية" إلى الشجار، فلفتت نظر نرمين بدهشة في عينيها، كأنها لم تصدق ما جرى أمامها، وقالت:

_هو في إيه؟

نرمين بفزع:بيتخانقوا!

نظر "أحمد" في وجه زياد بصدمة، ملامح وجهه مشوبة بالحيرة، عاجز عن تصديق ما حدث للتو. برزت علامات الفزع في عينيه، وسأله بصوت يرتجف من وقع المفاجأة:

_في إيه يا زياد؟

زياد بصياح:البيه جاي يسلم عليها ويحضنها، وأنا قاعد معاها! لا عمل إحترام ليا ولا لأهله ولا لحد!

اجتمع أخوات جميلة حول زياد، وعلاء الدين، بما في ذلك أزواج سامية ونرمين. كان صوت زياد مرتفعًا بقوة، مملوءًا بالاحتدام، بينما كانت الأنظار تتجه نحوه بدهشة من تصرفه المفاجئ. في تلك اللحظة، دخلت "أم قمر الدين" بسرعة، يرافقها باسم، وعلامات الفزع تملأ وجهها، فسألت بصوت مرتجف:

_في إيه يا ولاد؟

باسم بصدمة:إيه اللي بيحصل ده؟

اقترب "زياد" من الطاولة بخطوات سريعة، وأمسك بهاتفه وميدالية المفاتيح بقوة، ثم جذب هايدي الباكية إلى جانبه، ليقف بها أمام الجميع، صارخًا في وجه الحضور، والدموع في عينيها تتساقط دون توقف، فقال:

_ولا أي حاجة، ألف مبروك للعريس.

خرج زياد جاذبًا يد هايدي، مسرعًا نحو الخروج، تاركًا خلفه موجة من الدهشة على وجوه الجميع. كانت خطواته متسارعة، كأنما يفر من شيء لا يستطيع مواجهته. في تلك اللحظة، أمسك "أحمد" بهاتفه بسرعة، وهرول وراءهما، قلبه ينبض بالرعب مما يحدث، وهو يناديهما بصوت مرتجف، لا يخلو من الرهبة:

_زياد استنى! زياد! يا هايدي!

زياد بعجيج:ولا نص كلمة! مش عايز أسمع حاجة!
أحمد برهبة:طيب استنوا هوصلكم!

ركب أحمد السيارة، مصممًا على إيصال زياد وهايدي إلى المنزل بدلًا من أن يستقلا سيارة الأجرة. جلس زياد بجانب أحمد، بينما في المقعد الخلفي كانت هايدي تنتحب بشدة، عيناها مليئتان بالدموع، لكنها لم تتلفظ بكلمة واحدة. بدأ أحمد بتشغيل المحرك، وتحرك بالسيارة متجهًا إلى المنزل، بينما كان زياد غارقًا في مشاعر الغيرة والرجولة التي كانت تأكل قلبه. كانت نيران النخوة تشتعل في روحه، شعور ثقيل يعصر صدره، وكل جزء منه يريد أن يثور على ما حدث في الحفل، خاصة بعد تصرف علاء الدين الذي استهان بكرامته. في تلك الأثناء، عاد الهدوء إلى الحفل وكأن شيئًا لم يكن، لكن "سارة"، وهي تراقب قمر الدين، كانت تنظر إليه بقلق. كانت تخشى أن تنقلب فرحة الزفاف إلى خيبة، وأن ينتهي الحفل بطريقة مأساوية يظل أثرها ثقيلًا على الجميع، فقالت:
_بليز يا بيبي متخليش حاجة تأثر علينا النهارده!

قمر الدين بضيق:عندك حق.

عاد العروسان للرقص على الموسيقى الهادئة، في محاولة لإعادة أجواء الفرح، ولكن في قلب قمر الدين كان الغضب يتأجج، رغم محاولاته المستميتة لإخفائه، حتى لا يؤثر على سعادة عروسه. كان يشعر بتلك النيران التي تلتهمه داخليًا، لكنه كان يدرك أن إظهار الحنق في تلك اللحظة لن يفيد سوى في تحطيم الغبطة. في تلك الأثناء، غادرت يوستينا الحفل وهي تغلي من الغضب، فقد شعرت بخيانة علاء الدين لها بعد تصرفه مع هايدي، وكأنها لم تعد قادرة على تحمل تلك اللامبالاة. أما باسم، فكان أكثر حكمة، يدرك أن العتاب ليس في محله الآن، خاصة في وسط هذا الحفل الذي كان ينبغي أن يبقى مفعمًا بالفرح. فبتصرف حاسم، جذب علاء الدين من يده ودفعه نحو مكان بعيد عن الأنظار، حيث تبعته أخواته، إلا أن قمر الدين لم يكن معهم. في ذلك المكان البعيد، اعترض "باسم" على تصرف علاء الدين المتهور، وجعل صوته يرتفع وهو يأدبه، يلومه على عدم احترامه للمشاعر من حوله:
_إيه اللي إنت هببته ده يا قليل الأدب؟ هو مش الموضوع ده اتقفل وخلصنا منه؟ ازاي تروح تسلم عليها وكمان تحضنها وهي متجوزة وعلى ذمة راجل تاني؟

علاء الدين باستهتار:?what's the problem، كنت عملت معاها علاقة غير شرعية يعني ولا إيه؟ ده مجرد حضن!

لم يعتقد علاء الدين أنه قد ارتكب فعلًا غير أخلاقي، بل كان يرى أن ما حدث مجرد أمر طبيعي، وأن عائلته كانت تبالغ في تعقيد الأمور، مما جعله يشعر بأنهم يفرطون في القلق. لكن "باسم" لم يكن ليقبل مثل هذا التفكير في تلك اللحظة، فبقوة مفاجئة، صفعه على وجهه بقسوة، تمسك ببدلته، وعيناه تشتعلان بالغضب، وهو يصيح فيه بحنق، قائلًا:

_انت ولد مش متربي وناقص تربية! دي غلطتي أنا إني معرفتش أربيك! كنت في الشغل علشان أقدر أأكلكم وتعيشوا أحسن من كل الناس ومتأخرتش عليك في أي حاجة!

أم قمر الدين بنحيب:باسم أرجوك!
باسم بقسوة:أي حاجة كنت بتطلبها كانت بتجيلك لحد عندك! دخلتك الجامعة الأمريكية وجيبتلك العربية اللي طلبتها! اشتريتلك شالية، فتحتلك بدل المشروع مليون وبرضة بتفشل ويتقفل! عملتلنا مشاكل بعدد شعر راسنا وكنا بنستحمل ونقول ده ابننا وبكرا يكبر ويتعلم من غلطه! لكن ليه مصمم تحطمنا وتخلي شكلنا زي الزفت بسببك؟

جذبت أم قمر الدين وسامية باسم بعيدًا عن علاء الدين، الذي كان في حالة صدمة تامة من تصرف والده. كان الصمت يلفه، وكلمات اللوم كانت تتردد في أذنه دون أن يستطيع الرد عليها. وفي تلك اللحظة، دخلت "جميلة" بسرعة، وقد تجلى الانفعال في وجهها، لتواجه أخاها المتهور. كان صوتها مرتفعًا، مملوءًا بالغضب، وهي تصيح فيه بلهجة قاسية، محذرة إياه من مغبة تصرفاته المتهورة التي تسببت في تضايق الجميع، قائلة:
_بتحضنها يا علاء الدين؟ بتحضنها؟ إنت طالع كده لمين؟ إنت حقيقي مش طبيعي وأكيد عقلك ده فيه مشكلة كبيرة! إنت شوهت منظري قصاد أحمد وهايدي! منظري إيه دلوقتي وأنا....

باسم بصخب:ارجعي عند قمر الدين، يلا!
جميلة بصياح:لا يا بابي أنا مش هسكت المرة دي!

كانت "جميلة" مصممة على استعادة السيطرة على الوضع، خاصة بعد أن تسببت تصرفات أخيها في مشكلات سابقة بينها وبين زوجها. كان أمر علاء الدين وهايدي قد انتهى منذ فترة طويلة، فلماذا يفتح الآن في حضور زياد؟ كانت تساءل نفسها عن هذا التصرف غير المبرر في تلك اللحظة، وقد أزالت كل مظاهر الهدوء من وجهها. صرخت في أخيها بحزم، قائلة:
_انت شيطان يا علاء الدين؟ اتسببتلي في مشاكل كتيرة مع جوزي وكنت بموت كل يوم بسببك انت! وقولنا خلاص اتغير! طلعت فعلًا متغير بس للأسوأ، أنا بجد مصدومة فيك، بص أنا خلاص مش عايزة أعرفك تاني، بجد مش عايزة أعرفك تاني خلاص!

ثم تركتهم جميلة وغادرت نحو الحفل مجددًا، بينما عاد باسم يصرخ في وجه علاء الدين حتى تمكن من دفعه لمغادرة الحفل تمامًا، تاركًا الجميع في حالة من الاضطراب. اختفى علاء الدين في مكان مجهول، بينما عادت الأسرة كلها إلى الحفل، محاولين تمالك أعصابهم بعد التصرفات غير اللائقة التي أقدم الابن عليها. بينما في السيارة، كان أحمد يقود بينما زياد يجلس بجانبه، وهايدي في المقعد الخلفي. اقتربوا من

المنزل، وكانت الأجواء مشحونة بالصمت. نظر "أحمد" إلى زياد، الذي كان يعبّر عن سخطه، وقرر أن يطمئنه بكلمات تحمل بعض الهدوء، وهو يقول:
_متخافش أنا لسه دوري معاه جاي، بعد دور عمي طبعًا، ماهو أكيد مسكتلوش! هي أول مرة يعني؟

زياد بصدمة:يعني إيه أول مرة؟ يعني إيه؟ هو اللي حصل ده حصل قبل كده؟
أحمد بتردد:مفيش حاجة يا زياد!
زياد بصراخ:رد عليا يا أحمد! اللي حصل ده حصل قبل كده؟
هايدي بنشيج:والله مفيش حاجة من دي حصلت، أكيد في سوء تفاهم.
زياد بانفعال:تمام يا هايدي.

بعدما وصلوا إلى المنزل، صعد زياد وهايدي في صمت تام، والكلمات قد فقدت معناها في تلك اللحظة. بمجرد دخولهما الشقة، توجه زياد مباشرة إلى غرفة النوم، جلب ثيابه بسرعة، ثم دخل غرفة الأطفال ليغلق الباب وراءه، محاولًا أن يعيش وحده في أحزانه وأفكاره المظلمة بعيدًا عن هايدي. كان يريد لحظات من العزلة ليتمكن من مواجهة مشاعره المتناقضة بعيدًا عن أعين الآخرين. أما أحمد، فقرر العودة إلى الحفل لاستئنافه، ثم يجلب زوجته وفتياته للعودة إلى المنزل لاحقًا. في منزل عم سلامة، كان المعلم حنفي غارقًا في تناول لحم البط، يقضم الرقاق باللحم المفروم، بينما كان جلال يستمتع بحساء الدجاج ويتناول لحمه بنهم شديد. كان الجميع كأنهم في حالة من الجوع العميق بعد سنوات من الحرمان. وفي تلك اللحظة، نظرت إليهم "تباهي" بابتسامة خفيفة، وقالت:
_بالهنا والشفا.

المعلم حنفي بلذَّة:أم ليالي أجدع واحدة تعمل أكل.
تباهي بجُود:مطرح ما يسري يمري.
عم سلامة بإعطاء:كلوا يا عيال كويس!
نعمة بعزَّة:متاكلش يا محمد مانت متغذي عند ستك!
محمد بذهول:هي إيه دي؟ لحمة؟
تباهي بضحك:لا يابا دي فراخ!
محمد باستغراب:أنا معرفش شكل الفراخ عامل ازاي!

جزت "نعمة" على أنيابها وهي تحدق في محمد بنظرات حادة، ثم توجهت بنظرها إلى تباهي، تضحك بصوت خافت لكن ملامحها كانت مشوبة بالاستنكار. كيف لطفلها أن لا يعرف شكل الدجاج، على الرغم من أنهم لا يأكلونه إلا مرة واحدة في الشهر؟ كان هذا الموقف بمثابة إحراج لها أمام عائلة عم سلامة، شعرت أنها قد تعرضت للخجل في لحظة غير متوقعة. دفعتها تلك المشاعر إلى الرد بمرح مصطنع، قائلة:
_الواد بيهزر، بيحب الهزار... ده احنا كل يوم ناكل فراخ ولحمة بس هو اللي مالوش فيهم.

محمد:لا ياما إنتي بتأكلينا فول!
نعمة بقهقهة:بيهزر، شوفتي؟

ثم قالت له بعبوس، وكلماتها تحمل بين طياتها مزيجًا من الاستياء والعقاب:
_ماشي يا محمد لما نرجع بس!

ليالي بضحك:خليهم ياكلوا.

شرب جلال الحساء دفعة واحدة، ثم بلع المعكرونة بالبشاميل دون أن يمضغها جيدًا، مما جعل "ليالي" تنظر إليه بدهشة، ملامح وجهها تعكس اندهاشًا من سرعته في الأكل. ثم قالت له، وكلماتها تحمل نصيحة موجهة له ولكنها تأخذ شكل حديث جماعي، قائلة بما يوحي بالتحذير:
_براحة الأكل هيقف في زوركم!

عم سلامة بإلحاح:ما تقومي تاكلي معاهم يا نعمة!
نعمة بإباء:لا الحمدلله شبعانة.
تباهي:يلا مالكيش في الطيب نصيب.

نهض "جلال" بعدما التهم الطعام بسرعة، ليتوجه إلى المغسلة ليغسل يديه. بينما كانت نظرات الجميع تراقب حركته قال بصوت خافت:
_الحمام لا مؤاخذة، أغسل إيدي!

تباهي:خُش، هو إنت غريب؟
عم سلامة:خُش بس أبقى زيح الشرشوبة من طريقك!
جلال:اشطا.

دخل "جلال" مغسلًا يديه، ثم عاد ليجلس مع الجميع. نظر إلى ليالي بعينين مفعمتين بالحنين، فقال لها بصوت يحمل بين طياته مشاعر الفقد، كما لو كانت رسالته إليها وحدها:
_ارجعي بيتك يا ليالي! احنا فهمناكم اللي فيها.

ليالى بعناد:أنا قاعدة في بيت أبويا.
جلال بدهشة:وهو بيت أبوكي عسل وبيت جوزك كخة؟

ليالي بفظاظة:أنا داخلة أنام يابا، تصبح على خير.
عم سلامة:وانتي من أهله.

دخلت ليالي الغرفة بلا مبالاة، وكأنها لا تكترث بالعودة مع جلال، جاعلة مسافة بينهما تزداد كل لحظة.
بينما نهض "جلال"، ملامح وجهه متجهمة تعكس عصبيته المتصاعدة، ثم قال بصياح، صوته يرن في المنزل ويظهر احتدام مشاعره:
_بقى كده يا ليالي؟ طب وربنا لأوريكي اللي عمرك ما شوفتيه! وأبقي خلي بيت أبوكي ينفعك!

عم سلامة بصياح:جرا إيه يا جلال؟ إنت هتهددها وهي في بيت أبوها؟
صابر بصخب:لما تبقى تحترم ليالي أختي تبقى تيجي وتتكلم، إنما إنت لا عامل إحترام لا ليها ولا لينا!
جلال بعجيج:يا عم خليك محضر خير بدل مانت عمال تولع الدنيا حريق كده!

نعمة بقلق:خلاص يا جلال نيجي يوم تاني تكون ليالي كويسة!
جلال بصياح:وأنا مش جاي تاني!

نهض الجميع من أماكنهم، ثم وجه "جلال" حديثه لأبنائه بصياح، كان صوته مرتفعًا، يفسر الغضب الذي كان يسيطر عليه، والكلمات تخرج منه دفعة واحدة، حاملة في طياتها الاحتدام:
_يلا يا عيال!

تقى برهبة:هبات مع ماما!

ثم سأل حمود باهتمام، ونبرته تحمل رغبة في الفهم:
_وانت ياض؟

حمود:هبات مع أمي.
جلال بغيظ:أحسن برضة ريحتوني منكم ده انتوا حتى عاملينلي وَش ليل نهار.

وأردف لوالده وأخته، وصوته مليء بالتساؤل:
_يلا يابا، يلا يا نعمة!
عانقت "نعمة" تباهي بحرارة قبل المغادرة، أما المعلم حنفي، فخرج حاملًا طبق الأرز ودبوس البطة، فقالت نعمة لوالدة ليالي، بصوت خافت مليء بالأمل، وكأنها تعبر عن رغبة صادقة أن تكون الأمور أفضل في المستقبل:

_ادعيلهم ربنا يهديهم.

تباهي بأمل:يارب، مع السلامة.
عم سلامة بصراخ:الطبق يا معلم حنفي، الطبق!

عاد المعلم حنفي بالطبق وأعطاه لعم سلامة وهو يضحك، وكأنما نسى تمامًا ما جرى في السابق، ثم خرج مجددًا وهو يمسح أصابعه في جلبابه، محاولًا. أوصد عم سلامة الباب خلفهم بهدوء، ودخل مجددًا ليجلس مع حفدته. كانت "ليالي" تستمتع لالحوار الذي دار في الخارج، لكنها رغم ضيقها من جلال، كانت تجد في قلبها مكانًا للحب الذي لا يزال موجودًا، رغم كل شيء. فقالت في نفسها، عاكسة مشاعرها المرهفة:
_ربنا يسترها عليك، أنا أه قلبي شايل منك ومعبي، بس مهما كان إنت أبو عيالي، ربنا يهديك يا جلال وتعقل بقى.
في اليوم التالي، قبل أن يذهب أحمد وجميلة لتوديع العروسين قبل سفرهما إلى الخارج لقضاء شهر العسل، قررا زيارة هايدي وزياد. فمنذ الليلة الماضية، كان زياد ينام في غرفة الأطفال بعيدًا عن هايدي، لا يطيق النظر إليها بعدما غمرته الغيرة بسبب تصرفات علاء الدين. في تلك الزيارة، جلس الأربعة برفقة الطفلتين يتحدثون عن أحداث ليلة الزفاف، وكان "أحمد" يحاول إقناع زياد أن علاء الدين قد تلقى عقابه من والده، متمنيًا أن يخفف ذلك من حدة مشاعره ويعيد الأمور إلى نصابها:
_يابني والله العظيم خد عقابه، إنت ليه مش مصدق؟

جميلة:بعيدًا عن إنه أخويا بس والله بابي مرحمهوش إمبارح، وسحب منه مفاتيح العربية والشالية، حتى الـCredit card خدها منه، علاء الدين متهور جدًا ومبيفكرش في العواقب اللي ممكن تحصل بعد كده!وهو دايمًا بيقع في نفس الغلطة بسبب تسرعه!
أحمد:ممكن يا زياد تهدى شوية! إنت من إمبارح وأنا شايف النار طالعة من عينيك، أوعى يكون كل واحد فيكم نام لواحده! أصل أنا عارفك!

جميلة بابتسامة:بجد زياد بيغير عليكي أوي يا هايدي وبيحبك موت، ودي حاجة حلوة ولطيفة جدًا بين أي اتنين!
هايدي باستياء:خلاص يا جميلة، هو حر، أنا كده كده معملتش حاجة، واللي حصل ده كان بسبب أخوكي مش بسببي!
جميلة بثقة:أوعدكم إن اللي حصل ده مش هيتكرر تاني!
أحمد بدهشة:زياد، ها؟ هتفضل كده كتير ولا إيه؟ وبعدين أنا عايز أفهم هايدي ذنبها إيه؟

لم يكن هناك أي ذنب لهايدي في ما حدث، فقد تفاجأت برد فعل علاء الدين تمامًا كما تفاجأ زياد. بالنسبة لها، كانت تلك الصفحة قد أغلقتها من حياتها إلى الأبد، فلا مجال للعودة إلى الوراء أو للانغماس في تفاصيل

الماضي. أما زياد، فقد علم ببعض جوانب موضوع علاء الدين، لكن معرفته كانت عامة، دون أن يغوص في التفاصيل الدقيقة التي قد تثير مشاعره أكثر. كان عليه أن يتخطى هذا الماضي، ليتمكن من التعايش مع زوجته بسلاسة.

يتبع....

الفصل التاسع عشر

أظهر "زياد" للآخرين أن الأمر قد طُوي صفحُه وانقضى، لكنه في أعماقه ظل عالقًا في دوامة من المشاعر المتباينة، تتنازع بين الضجر والانزعاج مما جرى في ليلة الزفاف. تراكمت في ذهنه الذكريات المؤلمة منذ نشأته حتى هذه اللحظة، فتجمعت كالسيل في رأسه لتغمره بأفكار متشابكة أوقعته في مأزق نفسي عميق، وقال:

_خلاص يا أحمد، الموضوع اتقفل بالنسبالي!

أحمد بتمني:أنا عايزه يتقفل وانت مبسوط ومرتاح.
زياد باستغراب:وأنا هجيب الانبساط والراحة منين إن شاء الله؟
أحمد بمزاح:خد بالك احنا معزومين عندك النهارده! وسواء ذوق ولا عافية احنا جايين، ها قولت إيه؟
زياد باستياء:تنوروا، أنا بيتي مفتوحلكم أربعة وعشرين ساعة.

نهضت "جميلة" بهدوء، وقبّلت جبهة هايدي قبل أن تودعها هي وزوجها وطفلتاها، مُتوجهين إلى شقتهم. ليبدأوا في ارتداء ملابسهم استعدادًا للذهاب إلى منزل العروسين في الصباحية، لوداعهما قبل أن ينطلقوا إلى وجهتهم لقضاء شهر العسل. وقالت لها بابتسامة رقيقة:

_احنا هنروح نقعد مع قمر الدين شوية قبل ما يسافر للهاني مون وهنرجع تاني!

أحمد بمرح:ومتقلقوش الأكل هنجيبه معانا يعني مش هنكلفكم أي حاجة!
زياد:ولو هتكلفوني فاحنا مفيش بينا الكلام ده، احنا واحد!
أحمد بضحك:ماشي يا عم فك الوش ده بقى!

ثم نظر "أحمد" إلى هايدي، وأضاء وجهه بابتسامة مليئة بالود، وقال لها ضاحكًا:

_وانتي كمان يا هايدي!

هايدي بابتسامة:ماشي.
أحمد ببشاشة:يلا سلام.
جميلة بِافترار:قولي باي باي لعمتو!
سيليا برقة:باي يا عمتو!

خرج أحمد وجميلة وطفلتهما من الشقة، ليعودوا إلى شقتهم الخاصة، وأوصدوا الباب خلفهم. دخلت جميلة غرفة الثياب لتباشر التحضيرات، بينما توجه أحمد إلى غرفة النوم. بعد أن تبقى في الشقة زياد وهايدي، نهضت هايدي من الأريكة لتغادر الصالة، لكن زياد أمسك بيدها، وجذبها نحوه، فالتقت نظراتهما في لحظة من الاستياء، ثم غادرت سريعًا واتجهت إلى غرفة النوم. أما في منزل أم الديب، وبعد انقطاع أخبار هايدي

عنها منذ زواجها، كان قلبها يلح عليها بأن تطمئن على ابنتها. قررت زيارة هايدي برفقة نعمة، رغم أنها لم تعد قادرة على صعود الدرج بسبب ثقل جسدها. على الرغم من صعوبة الحركة، صعدت الدرج بصعوبة وطرقت باب شقة نعمة، التي فتحت لها الباب، لتجد شقتها مغمورة بالظلام. كانت "نعمة" تحمل طفلها "عمر" فوق كتفها، ورحبت بوالدتها بابتسامة مليئة بالحب، وقالت لها بصوت دافئ:

_يا أهلًا ياما، خشي!

دخلت أم الديب، وجلسَت في هدوء على الأريكة، فيما أضاءت "نعمة" الأنوار، مبددة ظلام الشقة. ثم وقفت، وعرضت على والدتها أن تحضر لها بعض المشروبات، قائلة بلُطف:

_أجيبلك حاجة تشربيها؟

أم الديب بتطفل:أختك عاملة إيه يا بت؟

نعمة بسرور:كويسة.

أم الديب بلهفة:مفيش حاجة جاية في السكة؟

نعمة بدهشة:والنبي ياما تحلي عني، هو إنتي مفيش فايدة فيكي؟

أم الديب باستغراب:وإيه المشكلة؟ عاوزة أفرح بدل ما الناس هناهو ياكلوا وشي! أصل بيني وبينك مش مرتاحة، حاسة الولا زياد دهو أي كلام!

نعمة بانزعاج:يعني إنتي اتسببتي في موت أبوه وكمان لسه مش عاجبك؟ هو إنتي عاوزة إيه بالظبط؟

أم الديب بسخرية:هعوز إيه؟ مااللي جرا جرا واللي كان كان، أهي جوازة واتدبسنا فيها.

كانت "أم الديب" لا تزال تشعر برفض شديد تجاه زواج هايدي من زياد، ولم تكن مقتنعة به بعد، إذ كانت ترى فيه نصف رجل، لا يقارن ببقية الرجال. رغم أن هذه النظرة كانت بعيدة عن الحقيقة، فزياد يعد من أفضل الشخصيات التي قد يلتقي بها الإنسان في هذا العالم، إلا أن قلب أم الديب كان يختزن تلك الهواجس. نظرت في الجدار أمامها، وكأنها تواجه هايدي الغائبة، وقالت بحسرة:

_مكنتيش تسمعي كلام أمك يا هايدي وتتجوزي جوازة عليها القيمة؟

نعمة بترح:أهو قدر ومكتوب، المهم إنتي بتلفي وتدوري ليه؟

أم الديب بتعجب:وآني كنت عملت حاجة يا بت؟

نعمة بشجن:أصل مش عارفة، حاساكي عاوزة حاجة.

أم الديب ببسمة:الصراحة أه وياريت متتأخريش عني ده آني أمك والجنة تحت أقدام الأمهات!

نعمة بقلق:اشجيني ياما!

أم الديب بتَوْق:تيجي معايا ونروح نزور أختك ونطمن عليها، ده آني قلبي واكلني عليها أوي أوي.

نعمة بضحك:حلوة دي، وانتي مين قالك إنها هترضى تفتحلك الباب؟ ده لو هي رضيت هو مش هيرضى!

أم الديب بصراخ:دهو دار بتي وأروحه زي مآني عاوزة وفي الوقت اللي يعجبني! وهو يرضى ميرضاش دي حاجة متخصنيش، آني اللي يهمني أختك وبس، فاهمة ولا لا؟

نعمة بفزع:الله طب وانتي بتزعقيلي أنا ليه ياما؟ أنا كان مالي بس بكل ده؟ وبعدين اللي عاوز يروح لحد يعرفه من قبلها، إنما ميطبش عليه زي القضا المستعجل.
أم الديب بغلاظة:هتلبسي وهتيجي معايا ورجليكي فوق رقبتك وعلى الله حد يعرف إننا رايحين!
نعمة بخوف:طيب ماشي، خلاص.

ألحّت أم الديب على نعمة بأن ترافقها إلى منزل هايدي لتطمئنا عليها سويًا. وعلى الرغم من أن نعمة لم تكن موافقة على هذه الفكرة، فقد كانت تعلم جيدًا أن زياد لم يفتح لها باب منزله، ولم يرحب بها هو وزوجته، إلا أن ضغوطات أم الديب كانت قوية. هددتها بفعل أمور كارثية إذا امتنعت، مما جعل نعمة تذعن للأمر في النهاية. ارتدت ثيابها، وتألقت في عباءتها التي أضفت عليها هالة من البساطة، وحملت حقيبتها وطفلها "عمر" على كتفها. خرجت مع أم الديب متجهتين إلى موقف السيارات في قرية أبو حلاوة. ركبوا معًا سيارة الميكروباص التي أقلتهم إلى القاهرة، ومن ثم استقلوا سيارة أجرة وتوجهوا إلى منزل هايدي. في تلك الأثناء، كانت "هايدي" جالسة في غرفتها، غارقة في الحزن لما حدث بينها وبين زياد. أفكارها كانت مشوشة، وقلبها مثقل بالألم. لكنها فجأة سمعت طرقات على الباب. نهضت بسرعة، وجاءت إلى العين السحرية، لتجد أم الديب ونعمة واقفتين في الخارج. تجمدت في مكانها للحظة، وعقلها مليء بالتساؤلات، وقالت:
_يا نهار أسود، ماما ونعمة؟
صدمت هايدي بشدة عندما اكتشفت أن أم الديب واقفة حيال باب منزلها مع نعمة. ارتبكت تمامًا، ولم تعرف كيف تتصرف في تلك اللحظة. انسحبت سريعًا إلى غرفتها، وحاولت أن تخفي توترها، فتمدَّدت على السرير وأغلقت عينيها كأنها نائمة. في الخارج، كانت "أم الديب" تنظر إلى الباب بدهشة، موجهة حديثها إلى نعمة، وهي تتساءل عن سبب تأخر هايدي الغريب. قالت بصوت مرتفع قليلًا، ملؤه الاستفهام:
_هو محدش بيفتح ليه؟

نعمة:استني ياما نرن تاني يمكن جوا ومش سامعين!

رنت نعمة الجرس مجددًا، وعندما جاء زياد ليفتح الباب، فوجئ برؤية أم الديب. شعر بتردد، ورفض فتح الباب، فدخل إلى الغرفة الأخرى ليتمدد على السرير، متظاهرًا بالنوم كما فعلت هايدي. أما "أم الديب"، فقد كانت مصممة على دخول الشقة، ولم تفهم سبب إغلاق الأبواب في وجهها. فقررت أن تذهب مباشرة إلى شقة أحمد، على أمل أن يفتح لها باب منزله. وصلَت إلى الباب وطرقت عليه بقوة، وبدأ صوت الطرق يتردد في أرجاء العمارة السكنية، وكأنها تجلجل في أروقتها. وقالت بصوت عالٍ:
_انت يا ولا! بت يا سوليا! انتوا ياللي جوا! ايهي هو محدش بيرد ليه؟ مالهم ساكتين كدهو ليه؟

نعمة بإحباط:مانا قولتلك ياما نتصل بيهم قبل ما نيجي، يفرض هما في مشوار، نعمل إيه احنا دلوقتي؟
أم الديب بإلحاح:رني على أخواتك تاني على التلافون!

نعمة بضيق:طيب ياما.

استخرجت نعمة هاتفها من حقيبتها بصعوبة، حيث كانت تحمل طفلها "عمر" على ذراعيها، مما جعل الحركة شاقة. ومع ذلك، استطاعت أن تتصل بهايدي، ولكن هايدي كانت حريصة وذكية بما يكفي لتفعيل وضع الصمت على هاتفها، حتى لا يسمعوا رنينه في الداخل، وعندما انتهت نغمة الرنين دون إجابة، تنهدت "نعمة" بأسف، وقالت في صوت منخفض، ممتلئ بالحزن:
_مابتردش ياما!

أم الديب بإصرار:رني تاني وتالت لحد ما ترد!
نعمة بتضايق:طيب.

اتصلت نعمة للمرة الثانية، لكن هايدي لم تجب على الهاتف، وظلت صامتة، مطمئنة إلى أنه لن يُسمع أي رنين، حتى تتأكد من مغادرة والدتها وأختها. بعد فترة، شعرت نعمة بالإحباط، فقررت الاتصال بأحمد لتسأله إن كان هناك أحد في المنزل أم لا. في هذه الأثناء، كان أحمد وجميلة قد خرجا من متجر الحلوى حامِلين علبة أنيقة تحتوي على الحلوى، مُعبأة بطريقة تشبه الهدايا، استعدادًا لتقديمها للعروسين. بينما كان "أحمد" يقود السيارة، استجاب للمكالمة وقال بصوته الهادئ:
_ألو يا نعمة، عاملة إيه؟

نعمة باشتياق:ازيك يا أحمد ياخويا؟ ده احنا طلع عينا عشان حد فيكم يرد علينا، بقالنا شوية واقفين قصاد شقة هايدي وبندق الباب محدش بيرد علينا، هو انتوا فين؟
أحمد بارتياب:انتي ومين؟
نعمة باستغراب:وهتفرق معاك في إيه؟

أحمد بتردد:هتفرق طبعًا، لو إنتي وجوزك يبقى يا أهلًا، إنما لو اللي في دماغي فإنسي!
نعمة بابتسامة:أنا وأمك يا أحمد مستنينكم قدام باب الشقة، انتوا روحتوا فين؟
أحمد بصياح:يا نهار أسود إنتي اتجننتي ولا إيه يا نعمة؟ يعني إيه جايباها وجايين؟ هو إنتي مش عارفة إننا قاطعين كلام معاها؟ طب هي غلط، إنتي بقى ماشية وراها مش بتراجعيها؟
نعمة ببشاشة:الصُلح خير، وأمك لو وحشة مكنتش جات تزوركم وتطمن عليكم، لكن هي ضميرها مأنبها!

أحمد باعتراض:لا لا بقولك إيه! قوليلها إننا مسافرين ولو سألتك قوليلها إنك متعرفيش وإن أنا مقولتش حاجة! لكن مش هتحصل يا نعمة ولا عمري هفتحلها بيتي بعد المصيبة اللي عملتها في عمي! وياريت تاخديها وتمشوا علشان زياد لو شافها هتحصل مشكلة!
نعمة بحيرة:طيب يا أحمد، وهترجعوا امتى؟

أحمد بصخب:خدي ماما وامشوا! أرجع ملاقيكمش، لو عايزة تيجي إنتي وجلال وأي حد أنا معنديش أي مشكلة، لكن ماما لاا!
نعمة باستياء:طيب ماشي ترجعوا بألف سلامة.
أحمد بضجر:مع السلامة.
نعمة بإحباط:سلام.

حتى أحمد رفض أن يستضيف أحدًا في منزله، فلم يقتصر الرفض على زياد فقط، بل كان الجميع يعترضون على هذا الاستقبال. أخبر نعمة أنه مسافر مع زوجته وبناته، وعندما انتهت المكالمة، نظرت "أم الديب" إلى نعمة بنظرة فضولية، مشيرة إلى تساؤلها الواضح، ثم قالت:
_إيه يا بت قالك إيه؟

نعمة بوضوح:مسافرين ياما.
أم الديب بفضول:ايهي، مسافرين فين؟
نعمة بشجن:مرضاش يقول، أهو مسافرين وخلاص، يلا ملناش نصيب، يلا ياما!
أم الديب بنواح:يا بختك المايل يا أم الديب، ضربتي مشوار طويل عريض على الفاضي... يا نهارك المدهول.
نعمة بتأفُّف:مانا قولتلك نتصل بيهم قبل ما نيجي وانتي اللي مش عاوزة، يبقى استحملي!
أم الديب بقسوة:اخرسي يا بت مسمعش صوتك! قدامي ياختي! قال تتصل بيهم قبل ما نيجي قال.

غادرت نعمة وأم الديب وعمر المنزل، بينما كان أحمد في حالة من القلق، فقد اتصل بهايدي ليحذرها من وجود والدته ونعمة في الخارج. كانت هايدي في وضع مُريب، حيث أجابت بصوت منخفض، مشيرة إلى أنها تتظاهر بالنوم لتفادي المواجهة. شعرت بالرهبة من إمكانية اكتشاف زياد لوجود والدتها، متسائلة إن كان قد نهض لفتح الباب. لكن أحمد تهدئتها، مؤكدًا أنهم نظموا هذه الخطة من أجل زياد، وأكد لها أن مشاعر السخط تجاه والدتها لن تهدأ إلا إذا واجهت العقوبة التي تستحقها. لكن هايدي كانت مترددة، مشيرة إلى أن المشكلة ليست منها بل من خالهم ضايع. أدرك أحمد حجم المعاناة التي يمر بها زياد، وعبر لها عن تعاطفه، مؤكدًا أنه لو كان مكانه لكان تصرف بطريقة مشابهة. بعد ذلك، قرر "أحمد" الاتصال بزياد ليخبره عن الموقف، فقال:
_بقولك يا زياد، عرفت إن ماما برا؟

زياد بغَمّ:عارف! ولو مستني مني أفتحلها فأنا بعتذرلك وبقولك مش هقدر أعمل كده! بس لو هايدي عايزة فانا معنديش أي مشكلة وهفضل في الأوضة لحد ما يمشوا!
أحمد بتفاهُم:وأنا بقولك متفتحش! لأن عارف كويس إن اللي حصل ده مش سهل عليك تنساه، وتتعامل بعد منه عادي كأن مفيش حاجة حصلت! لا إنت حر في اختيارك، ومحدش هيغلطك!

بقيَّ أحمد في الخارج يتحدث في الهاتف مع زياد بشأن زيارة أم الديب، بينما دخلت جميلة مع طفلتيها، وصافحت جميع الحضور قبل أن تجلس. لاحظت "أم قمر الدين" غياب أحمد، فتعجبت من تأخره، وعبَّرت عن استغرابها قائلة:
_أمال جوزك فين يا حبيبتي؟

جميلة برقة:برا يا مامي بيتكلم في الفون.
أم قمر الدين بهشاشة:أه أوكي.

حضرت سارة العروس، مرتدية الروب الأبيض الذي يعبّر عن تميزها وجمالها كعروس في تلك الليلة التي تعتبر بعد أجمل الليالي، حيث تم توثيقها بأروع الطرق وأفضل الأساليب. كانت تسير خلفها الخادمة الخاصة بها، حاملة صينية رائعة تحتوي على أفضل المشروبات. اقتربت "سارة" من أم قمر الدين، وعانقتها بحرارة، ثم قالت لها بفرح:
_نورتوا الدنيا كلها يا طنط إنتي وأونكل!

بينما كانت أخوات قمر الدين يصافحن العروس ويضحكن، نظر "باسم" إليها بدهشة، وعيناه تغمرهما مشاعر الإعجاب. كان يراها وكأنها ملكة تتوج في تلك اللحظة، فأسرع إلى قول كلمات تنم عن إعجابه الكبير بها، قائلًا بتقدير:
_أهلًا بعروستنا الحلوة، هو الجواز بيحلي كده؟

سارة بسرور:أهلًا بحضرتك يا أونكل كله من ذوق حضرتك!

عانقت "سامية" عروس أخيها بحب ودفء، ثم قالت لها:
_Congratulations.

سارة بسعادة:الله يبارك فيكي يا سومي.

ثم التفتت وعانقت نرمين عناقًا حارًا، حيث كانت تعبيرات وجههما تفسر الود والمحبة، وقالت لها:
_هاي يا نرمين!

نرمين بفرح:مبروك يا حياتي عقبال البيبي.
سارة بسرور:ميرسي يا عمري.

اقتربت "جميلة" من سارة وعانقتها، ثم قدمت لها تهانيها بحب، قائلة:
_مبروك يا سارة يا روحي.

سارة بغبطة:الله يبارك فيكي يا جميلة.

بعدما صافحت العروس كل فرد من أفراد الأسرة وتلقت منهم الهدايا، وضعتها الخادمة جانبًا على الطاولة بشكل مميز، ثم جلست سارة معهم، في انتظار ظهور قمر الدين. ومع مرور الوقت، استيقظ قمر الدين، مرتديًا بيجامته الحريرية البيضاء، يدعك عينيه وآثار النوم لم تختفِ عنه بعد، بعد ليلة شاقة من الرقص والأغاني. وعندما رآه "باسم"، نهض بسرعة وعانقه، عناقًا مغمورًا بالفرح، وهو سعيد لرؤية ابنه وقد أصبح أخيرًا عريسًا، وقال له بابتسامة تفيض حبًا:
_صباحية مباركة يا عريس!

قمر الدين بحبور:حبيبي يا بابا.

عانق "معتز" قمر الدين بحفاوة، وقال له بإعزاز:
_عريسنا، ألف ألف مبروك.

قمر الدين بابتسامة:الله يخليك يا معتز.

التفت "قمر الدين" نحو وائل، زوج نرمين، وعانقه بإخاء، فهو يعتبر كل أزواج أخواته الفتيات بمثابة إخوته الذكور، ويحبهم ويقدم لهم أسمى المشاعر. وقال له بابتسامة أخوية:
_ازيك يا وائل؟

وائل بتبسم:الحمدلله بخير.

عانق "قمر الدين" أخواته الفتيات دفعة واحدة، وهو يملؤه الفرح، ثم قال بابتسامة غائرة:
_سامية، نرمين، جميلة وحشتوني!

سامية بفرح:حبيب قلبي يا قمر الدين، أخيرًا شوفتك عريس؟
قمر الدين بتمني:عقبال لارا وهي في الزفة مع عريسها.

سامية بضحك:ده لسه بدري أوي أوي!
باسم بافترار:ولا بدري ولا حاجة ده الأيام بتعدي هوا، فين أيام لما كنت إنت وأخواتك لسه صغيرين؟ وفجأة كبرتوا وبقيتوا شباب زي القمر.

قمر الدين بامتنان:اللي أنا فيه ده من خيرك يا حبيبي، ربنا يباركلنا فيك.
باسم بتمني:ويباركلي فيكم يارب.
قمر الدين باستغراب:مش شايف يعني نالا ومنى وعلاء الدين؟
أم قمر الدين بابتسامة:متقلقش هيجوا بعد ما ترجع من الهاني مون، محبناش نتقل عليك، الحقيقة العدد هيكون كبير جدًا.
قمر الدين بضحك:ولا كبير ولا حاجة، الحمدلله الڤيلا تكفي.

جلس "قمر الدين" على الأريكة بين عائلته، وأمامهم نوافذ زجاجية ضخمة تطل على مشهد النيل، الذي كان يروي النفوس العطشة بجماله الساحر. كانت الطلة رائعة، تحيط بها الأجواء الملهمة. ومع ذلك، نظر حوله، مفتقدًا وجود أحمد بينهم، إذ كان قد اعتاد دائمًا على حضوره في مثل هذه اللحظات. فبقلق، التفت إلى جميلة وسألها:
_المهم صحيح، أحمد فين يا جميلة؟

جميلة بسعادة:بيتكلم في الفون، متقلقوش أكيد جاي دلوقتي، المهم طمني عليك مبسوط؟
قمر الدين بفرح:إلا مبسوط، ده أنا طاير من الفرحة، أصل سارة عندي بمليون واحدة تانية، شقاوة وطعامة وحلاوة وكل حاجة حلوة اتجمعت فيها!
سارة بحبور:ميرسي يا روحي إنت اللي فيك كل حاجة حلوة حقيقي!
جميلة ببسمة:ربنا يخليكم لبعض يا حبيبي.
قمر الدين بأمل:يارب.

نظر "قمر الدين" إلى سيليا، وضحك بابتسامة دافئة، وهو يعبر عن اشتياقه الجسيم لها. ثم مدَّ يده نحوها بحنان، طالبًا منها أن تأتي لتجلس بالقرب منه على سيقانه، كما لو أنه يتوق إلى قربها أكثر في تلك اللحظة. وقال لها بنبرة ودودة:
_ازيك يا سيليا؟ وحشتيني! تعالي!
جرت "سيليا" نحوه في الحال، وعانقته بشوق كبير، ثم جلست على سيقانه، لا تستطيع إخفاء مشاعرها الجياشة. نظرت إليه بعينين مليئتين بالحب، وقالت له بحماس:
=انت كمان يا خالو!

قمر الدين بحنان:حبيبة قلب خالو، طب إيه مش ناوية تيجي معايا الهاني مون؟

سيليا بخِفة:لا يا خالو مينفعش! المفروض إنت وطنط تكونوا لواحدكم، مش معاكم حد!
قمر الدين بدُعابة:لا بالعكس المفروض إنتي تكوني معانا علشان تسلينا، ولا إنتي إيه رأيك؟

جميلة باكتراث:وانتوا ناويين تسافروا فين؟
قمر الدين:احنا حجزنا Week في جزر المالديف وWeek في جزيرة سيشل وTwo Weeks في اليونان، يعني مشوارنا طويل أوي أوي.
جميلة بأناة:تروحوا وترجعوا بألف سلامة.
قمر الدين بتبسم:الله يسلمك.

واجه قمر الدين والدته التي كانت تعبر عن شجبها بسبب غيابه الطويل في الأسابيع القادمة، مما أثار في قلبها مشاعر الحزن والفراق. بينما كانت تحاول التكيف مع فكرة سفره، ظهر أحمد وصافح قمر الدين وعروسته معبرًا عن تهانيه. طمأن قمر الدين والدته بأن مكالمة الفيديو لن تعوض اللقاءات الحقيقية، وأكد لها أنه سيسافر فقط إذا كانت مرتاحة. لكن أم قمر الدين، رغم حزنها، شجعته على استغلال الفرصة، مُحفزًا إياه للاستمتاع برحلة شهر العسل. في وسط الحديث، أضافت سامية روح الدعابة، مذكّرةً والدتها بأن قمر الدين ليس الابن الأول الذي تزوج، بينما أكدت نرمين أن قمر الدين يحتل مكانة خاصة في قلب والدتهم. عبرت سارة عن رغبتها في أن تكون حماتها مرتاحة. ثم مالت "جميلة" نحو أحمد وسألته بفضول، وسط هذا الجو العاطفي:
_هو إيه اللي حصل؟

أحمد:نعمة جابت وماما وكانوا عايزين يدخلوا لهايدي بس هي مرضتش، هقولك باقية التفاصيل بعدين!
جميلة بصدمة:أوكي.

أجابت "أم قمر الدين" على حديث سامية بحزن، وقد بدت عيناها مليئتين بالدموع. كان قلبها يختلط بين الفرح لزواج ابنها وبين الشوق العميق لفراقه. رغم سعادتها بزواجه، كانت مشاعرها متضاربة، فهي لا تستطيع أن تخفي حزنها من غيابه المنتظر:
_يا حبيبتي دي دموع الفرح صدقيني! لأن أنا فعلًا فرحانة بيكم جدًا.

معتز بحُب:ربنا يخليكي لينا يا طنط ويديمك وسطنا دايمًا.
أم قمر الدين بتلطُّف:يارب يا معتز!
باسم بحنو:خلاص بقى يا بسملة! الولاد بدأوا يتأثروا بيكي!
أم قمر الدين بنشيج:أوكي يا باسم.

ظلت العائلة مُجتمعة حول قمر الدين، يتحدثون ويستمتعون بآخر لحظات لقائهم قبل سفر العروسين. وبعد فترة، دخل العروسين لتغيير ملابسهما استعدادًا للرحيل، ثم خرجوا محملين بحقائبهم، وقد امتلأت الأجواء بالمشاعر المختلطة من الحزن والغبطة. أما في مطار القاهرة الدولي، كان الحشد كبيرًا، حيث تواجد الأصدقاء والعائلة والأحباب لتوديع العروسين. أما أم قمر الدين، فقد كانت تبكي بحرقة، قلبها ملئ بالشجن لفقدان ابنها الذي سيتنقل بين جزر المالديف واليونان في رحلة طويلة. بعد إتمام الإجراءات، دخل قمر الدين وسارة إلى الجسر الهوائي، وبدأت الأسرة تتسلل واحدًا تلو الآخر. ومع ذلك، قررت سامية البقاء مع أم قمر الدين، محاولة أن تخفف عنها حنينها وتدعمها في هذه اللحظة العاطفية. بينما كان أحمد وجميلة مع طفلتيهما عائدين إلى المنزل، كانت أم الديب ونعمة تسيران سويًا، قاصدين الخروج من المدينة السكنية. في الطريق، توقفت "أم الديب" فجأة، تشعر بألم في مفاصلها بعد المسافة الطويلة التي قطعتها، وقالت بإنهاك شديد، بينما كانت متعبة للغاية، مشيرة إلى الحاجة للاستراحة:

_يا بت مابقتش قادرة أمشي أكتر من كدهو! كل دهو تُقل على رجلي!

نعمة بإرهاق:خلاص ياما احنا خرجنا من المنطقة كلها، امشي شوية كمان وهنشاور لأي ميكروباص معدي.

أم الديب بملل:بقولك إيه! آني واقفة هناهو، اطلعي إنتي هاتيلنا توكتوك وارجعيلي!

نعمة بتعجب:وإيه اللي هيجيب التوكتوك هنا بس؟ والنبي ياما الله يسترك مدي رجليكي شوية، احنا بالشكل ده هنوصل لآخر الشارع على السنة الجاية!

أم الديب بسخرية:انتي اللي خطوتك كبيرة يا بت إكمنك فرعة! والنبي مآني فاهمة البت دهي طالعة عمود نور كدهو لمين؟ طب ده آني قصيرة وأبوها قصير.

نعمة باستبانة:أبويا مش قصير ياما، أبويا متوسط! قصير ده لما يبقى طولك.

أم الديب بسخط:انتي بتتريقي على أمك يا نعمة؟ بتتمئلسي على خلقة ربنا؟

نعمة بخَوَر:يوه ياما مش قصدي! بس دي الحقيقة!

أم الديب بامتعاض:بلا حقيقة بلا طين فوق دماغك إنتي واللي جابوكي! بقولك إيه يا بت!

نعمة بقلق:خير ياما؟ أؤمريني!

أم الديب بصياح:آني ريقي نشف من المشي والجو حر ولعة، هاتيلنا حاجة ساقعة تطري علينا في الحر دهو!

نعمة:معاكي فلوس طيب؟

أم الديب بعجيج:وانتي كمان هتدفعيني؟ مانتي جوزك شغال على عربية كبدة وبيكسب فلوس قد كدهو، وبعد كل دهو مستخسرة فيا كوباية حاجة ساقعة؟ دهو من ساعة ما عرفناه ومفيش مرة يدخل علينا برغيفين كبدة من اللي بيبيعهم!

نعمة بحصافة:طب خلاص ياما! تاهت ولاقيناها، مدي رجليكي معايا بس! وهنروح لحمو في الشغل نجيبلنا كام رغيف كبدة على كام رغيف سجق ونحبس بحاجة ساقعة، ها إيه رأيك؟
أم الديب بسرور:طول عمري أقول مخلفتش غير البت نعمة، ده إنتي اللي ليا مش الكلاب أخواتك اللي محدش فيهم بيعبرني، يخليكي ليا يارب!

تبدلت ملامح أم الديب بسرعة عندما سمعت عن إمكانية تناول ساندوتشات الكبدة والسجق التي يشتهر بها حامد، وكأن الإرهاق الذي كان يثقل كاهلها تبخر في لحظة. ارتسمت الغبطة على وجهها، وتخلت عن الإحباط الذي رافقها في الطريق. عندما اقتربت حافلة صغيرة، أشارت نعمة بسرعة، وسارعتا لركوبها. كانت الرحلة قصيرة، لكنها كانت كافية لتأخذهما بعيدًا عن أجواء المدينة السكنية الفاخرة، عائدتين إلى مناطق البسطاء حيث الطرق المحطمة تُظهر واقع حياتهما المختلف. كان مشهد الطريق المهترئ يوحي بعودة كاملة إلى نمط الحياة الذي اعتادتا عليه. بينما في المنزل، لم تكن هايدي تتحدث مع زياد منذ أن قسا عليها بسبب مشكلة لم تكن لها يد فيها. شعرت بالتعاسة، بينما كان "زياد" يفكر في طريقة لإصلاح النزاع، لكن لم يجد وسيلة مناسبة حتى خطرت له فكرة مفاجئة. جلس على الأريكة بسرعة، متصنعًا الألم في خصره، آملًا أن يلفت انتباه هايدي ويفتح بابًا للمصالحة دون مواجهة مباشرة، فقال:
_أه مش قادر، تعبان...أه...أه.

اقتربت هايدي منه بخوف جلي، تحاول معرفة ما أصابه. لكن عندما أمسك بيدها بقوة، شعرت بالصدمة واكتشفت أنه كان يتظاهر لجذب انتباهها. ردت عليه بضربة حانية على صدره ثم ابتعدت بسرعة ودخلت الغرفة بارتباك، تحاول استجماع مشاعرها. لم يتركها "زياد" على حالها، بل لحق بها بخطوات واثقة، وجذبها نحو صدره، وقد بدا عليه الاندهاش من رد فعلها المفعم بالبراءة، وقال:
_أنا عايز أفهم إنتي مش بتكلميني ليه؟

هايدي بتلعثم:أنا؟ وانت عملت إيه أصلًا يخليني متكلمش معاك؟
زياد بحدة:مقدرة مشاعري ولا لا؟
هايدي بتردد:وأنا إيه عرفني؟
زياد بدهشة:دي حاجة تخصك انتي! يبقى ازاي مش عارفة؟ المفروض تفرحي علفكرة!
هايدي باستغراب:أفرح ليه؟
زياد بتعشُّق:إن أنا بغير عليكي مثلًا؟

هايدي بكبرياء:خالص ولا يشغلني!
زياد بغرام:بعشقك وانتي عارفة كويس إن أنا مبقدرش أخاصمك يوم كامل! آخري بالكتير ساعة ساعتين.
هايدي باستهزاء:يا سلام على أساس المشكلة دي حصلت من ساعتين؟ ولا من إمبارح بالليل وانت نايم في أوضة وأنا في أوضة؟

زياد بتعجب:وهيفرق معاكي في إيه؟ مش ده كان طلبك من أول يوم جوازنا؟
هايدي بلا اكتراث:عادي.

تركت هايدي يديه وجلست على السرير بتظاهر بعدم الاهتمام، تلعب بأظافرها وكأن كلامه لا يعنيها. جلس "زياد" أمامها بهدوء، يحاول كسر هذا الحاجز الذي شعرت به بينهما. أخذ يفكر في موضوع قد يجذب اهتمامها ويعيد دفء الحوار بينهما، ثم بدأ الحديث بلُطف، وهو يتلفظ:
_انتي عارفة إن مرات عمي جات النهارده صح؟

هايدي بتنهيدة:أه عارفة، وانت كنت عارف من الأول؟
زياد بحسم:بصراحة أه، بس أنا قولت لأحمد إنك لو عايزة تستقبليها أنا معنديش أي مشكلة بس هقعد في أوضتي.
هايدي بتقدير:وأنا مش هستقبلها تاني وعلشانك وعلشان اللي حصل!

زياد بابتسامة:على كده أنا فارق معاكي! ومادام أنا فارق معاكي يبقى بتحبيني، صح؟
هايدي بخجل:وهو كان حد قالك إن أنا بكرهك؟ أكيد بحبك!
زياد بتخمين:شايف نظرة غرور أو كبرياء!
هايدي بتجهُّم:عادي هما الإتنين واحد.
زياد بهيام:هايدي!
هايدي بانتباه:نعم؟
زياد بأُوام:بحبك!

ضحكت هايدي للحظة، ثم غلف الخجل ملامحها وصمتت. لكنها سرعان ما أعادت العبوس إلى وجهها، مُتذكرة الأحداث الماضية. كانت تعرف جيدًا مدى حب زياد لها، وكيف أن روحه تتعلق بها تعلقًا لا مثيل له. ورغم كل ما حدث، كانت تدرك أنه لا يستطيع الابتعاد عنها ولو ليلة واحدة، وأن هذا البعد إن حدث فهو أقسى ما يمكن أن يمر به. أما "زياد" ، فقد وصل إلى الحد الذي لا يستطيع فيه تحمل الفجوة بينهما أكثر من ذلك. اقترب منها مجددًا، وأمسك بيديها بحنان. كانت عيناه مليئتين بالعشق الذي يعجز عن إخفائه، وكأن كل لحظة قرب منها تزيد هيامه بها، وقال:
_برضه مصممة تكابري؟ على العموم أنا مش زعلان منك ولا عايز أعرف أي حاجة حصلت زمان! وعارف إن المشكلة كلها جاية من أخو جميلة، أنا أه مضايق جدًا ومهما أوصف اللي جوايا مش هيكفي ولكن أنا حاولت كتير أزعل منك أو آخد موقف بس صدقيني مبعرفش! تلقائيًا بلاقيني جايلك لحد عندك! بحاول أكلمك، أفتح أي موضوع، لكن مبقدرش أبعد أكتر من كده! إنتي كل حاجة ليا بعد أبويا الله يرحمه، مبقاش ليا غيرك انتي! أنا من زمان وأنا شايفك نصي التاني، كلامنا وتفكيرنا وكل حاجة زي بعض جدًا، ودي حاجة أنا بحمد ربنا عليها.

تأثرت "هايدي" بحديثه الذي لامس أعماق قلبها، فاقتربت منه وشبكت يديها في يديه بحركة ملؤها الحنان. نظرت في عينيه نظرة عميقة، وهي ترى فيهما كل معاني الحياة التي تملأ قلبها بالسعادة. كانت مشاعرها تتجاوز الكلمات، فما تكنه له من حب لا يمكن وصفه أو التعبير عنه بسهولة. رغم سعادتها الكبيرة برد فعله الذي أكد لها حبه وإخلاصه، قررت أن تُظهر قليلًا من الحزن في ملامحها، وكأنها تعاتبه بخفة. لم يكن ذلك سوى حيلة صغيرة منها لتحافظ على التوازن في علاقتهما، ولتُبقي على مساحة من الجدية تمنعه من التمادي في استغلال حبها الواضح له، وقالت:

_عمري ما أقدر أزعل منك! زياد إنت ابني مش جوزي وبس! بجد أنا آسفة لو اتسببتلك في أي ضيق سواء بقصد أو من غير قصد، ومتقلقش إنت في عينيا وقلبي، إنت اللي عوضتني عن أمي وأبويا وأخواتي، أكيد ربنا خلاني استحملت كل ده عشان يوم ما يبعتك ليا أقدر قيمتك كويس... ماهو الواحد لو مشافش الوحش يبقى عمره ما هيحس بقيمة الحلو.

زياد بحنان:انتي أمانة في رقبتي، ربنا هيسألني عنها! لازم أصونك وأحافظ عليكي وعلى قلبك من أي حزن أو جرح، أنا مقدرش أعيش من غيرك!
هايدي بعشق:ولا أنا كمان أقدر أعيش من غيرك!
زياد بارتياح:شايف يا بابا؟

ثم تحول نظر "زياد" فجأة إلى صورة والده المعلقة على الحائط، وهي تذكره بجزء عزيز من ماضيه. فاستعاد ملامح وجهه ذكرى والده الذي كان دائمًا مصدر إلهام له. ابتسم بسعادة خفية، وقال:

_ربنا عوضني بأحلى واحدة في الدنيا، أنا عارف إنك فرحان دلوقتي لأنك أكيد حاسس بينا! وأوعدك إنك لسه هتفرح كتير أوي الفترة الجاية!

كان زياد يتأمل الصورة بعينين تغشاهما الحنين، متمنيًا لو أن والده لا يزال حيًا ليشهد مراحل تطور حياته، ويرى العلاقة التي جمعته بهايدي. تخيل كم كان والده سيسعد برؤية الحب بينهما، وكيف كان سيحتفل معهما بالأفراح القادمة، خاصة بقدوم حفدته. لكن تلك اللحظة لم تأتِ أبدًا، فقد اختارت الحياة أن تأخذه إلى مثواه الأخير، ليبقى جسده بين التراب.

يتبع...

الفصل العشرون

لم يكن جلال يدري كيف يطرق باب الرجاء ليعيد ليالي إلى المنزل، بعد أن دنّس نبل العلاقة بحركته الخسيسة مع صابر. كان الليل رفيقًا ثقيل الظل، يزاحم رأسه بالأفكار التي لا تهدأ، وكلما حاول النوم، وجد قلقه يقظًا يُعانده. كانت ليالي بالنسبة له شمسًا تشرق في عالمه الباهت، صوتها العالي وصياحها على الأبناء، حتى تلك التفاصيل الصغيرة التي قد يراها البعض مصدر إزعاج، كانت له نعمةً لا تقدر بثمن. وفي ظل هذا الخواء، لاح ضوءٌ صغير في ذهنه عندما لمح حمود، الذي اعتاد اللعب مع أطفال الحي. قرر أن يجعل من حمود جسرًا لعبور خطته، وحينما أتى حمود من بلدة جده إلى قرية أبو حلاوة، رأى جلال في ذلك فرصة سانحة. اقترب منه بحذر، والتقطه من بين الأطفال، ثم أشار إليه أن يقف بجواره. وقف حمود ببراءة بجانبه، متعجبًا من جدية "جلال". عندها، مال جلال على أذنيهما وهمس بصوت خفيض:

_بص ياض لو عملت اللي هقولهولك ده هجيبلك العربوية اللعبة اللي كان نفسك فيها!

حمود بجَشَع:ماشي عاوز إيه؟

جلال بوعيد:قبل أي كلام، لو حد عرف إن ده حوار هنفخك!

حمود بابتسامة:لا محدش هيعرف.

جلال بتأكيد:ياض!

حمود بتبسم:والله ما حد هيعرف!

جلال بِحِيلة:هتروح لأمك وتقولها أبويا عاوز يتجوز واحدة تانية، وستي جايبة العروسة وأهلها وعاملالهم عزومة من العيار التقيل وإياك تضحك وتكشفنا لا أعجنك ضرب!

حمود بتردد:بس أمي كده هتيجي وهتصوت!

جلال بتمني:ماهو ده المطلوب، يلا اجري ومتتأخرش!

حمود:طيب سلام.

كانت الخطة واضحة في ذهن جلال، فليالي التي يعصف قلبها بنيران الحب له لن تحتمل فكرة أن يشاركها فيه امرأة أخرى. أراد أن يوقد غيرتها ليجعلها تعود إليه، وحينها سيضمن بقائها بجواره مهما حدث. لم يضيع "حمود" وقتًا، قفز على عجلته الهوائية وانطلق نحو قرية جده سلامة، حيث تقيم ليالي. كان الطريق يبدو طويلًا، لكن عزمه كان أقوى من أي تعب. وصل أخيرًا وطرق الباب بحماس، ولم تمضِ سوى لحظات حتى فتح الباب، وظهر وجه ليالي أمامه. وقف الطفل متجمدًا للحظة، وكأن وجودها أمامه قد بث في نفسه رهبة مفاجئة. لكنه سرعان ما تذكر المهمة التي جاء من أجلها، فاندفع نحوها بالكلمات التي أمره بها جلال، قائلًا:

_الحقي ياما!أبويا عاوز يتجوز واحدة تانية غيرك!

ليالي بإعوال:انت عبيط يالا؟ كلام إيه اللي بتقوله ده؟

حمود بتجهُّم:ستي عازمة العروسة وأهلها وعاملالهم عزومة كبيرة.
ليالي بصراخ:وانت إيه عرفك الكلام ده ؟
حمود بعُبوس:شوفتهم عندها!

ليالي بغيْظ:ماشي يا جلال وحياة أمي لأوريك!

دخلت "ليالي" إلى الشقة كإعصار ساخط، تتلفت حولها بعينين مشتعلتين تبحث عن حجابها الأسود. راحت تقلب في الأغراض بعصبية، تزيح كل ما يعترض طريقها وكأنها تُفرغ شيئًا من الغليان الذي يشتعل في داخلها. وفي خضمّ حركتها السريعة، قالت:
_فين الطرحة؟ راحت فين؟
فتحت ليالي الخزانة بيدين مرتجفتين ورفعت حجابها الأسود بعصبية، دون أن تهتم بتنسيقه. لفّته على رأسها كيفما اتفق واندفعت خارجة كالسهم، متجاوزة كل شيء حولها. على الطريق، لوّحت لأول توكتوك يمر أمامها، وصعدت إليه على عجل. أمرت السائق بصوت متقطع الذهاب إلى قرية أبو حلاوة. تحرك التوكتوك يشق الطرقات الضيقة بين الأراضي الزراعية والترع، بينما عقل ليالي يغلي بالأفكار. حينما اقتربوا من القرية، مر التوكتوك بجانب عربة طعام حامد، حيث كان حامد غارقًا مع مساعده علي في تقطيع الخضروات وصنع الكبدة والسجق البلدي. حول الطاولات، اجتمع الفلاحون يتناولون الطعام بشغف، ومن بينهم أم الديب ونعمة، اللتان كانتا ذاهبتين لإلتهام الطعام مع المخلل. عند رؤية هذا المشهد، ضربت ومضة خاطفة عقل "ليالي"، وكأن الستار قد أُزيح عن كذبة جلال. تساءلت في داخلها، كيف تكون أم الديب منهمكة في صنع وليمة العروس الجديدة وهي هنا، منشغلة بالذهاب لإلتقاط الطعام كما تفعل الكلاب الجائعة؟
أدركت أن شيئًا ما لا يتسق مع حديث جلال. دون تفكيرٍ، صاحت بالسائق بحدة:
_أقف هنا، أقف!

السائق بقلق:في حاجة ولا إيه يا مدام؟
ليالي:أصبر بس!

توقف التوكتوك بحدة على جانب الطريق، ونزلت "ليالي" بخطوات مُسرعة. أخرجت المال من حقيبتها بارتباك، ومدت يدها للسائق بالمبلغ المطلوب، ثم قالت بصوت متوتر لكنه حازم:
_خد فلوسك، اتكل على الله!
غادر التوكتوك مبتعدًا، وركضت ليالي بضع خطوات حتى وجدت لنفسها زاوية آمنة خلف أحد الجدران المهترئة. رفعت طرف حجابها الأسود ولفّته حول فمها وأنفها، لتخفي ملامحها عن أعين المارة. كانت ضربات قلبها تتسارع، لكنها لم تكن مستعدة للمواجهة بعد. اختبأت خلف الجدار، حيث أمكنها أن ترى المشهد بوضوح دون أن يلاحظها أحد. كانت أم الديب ونعمة تقتربان من عربة حامد، وابتسامة واسعة ترتسم على وجه "نعمة"، وهي تقول:

_خلاص حمو هناك أهو، ده هيفرح بينا أوي.

أم الديب:اللي هناك دهو؟
نعمة ببشاشة:أيوه ياما هو!

اقتربت أم الديب ونعمة من عربة حامد، ووقفتا بمحاذاتها، تحدقان في الطعام المتصاعد منه البخار. كان "حامد" حينها مشغولًا بتقليب الكبدة داخل القدر الكبير، ويداه تتحركان بسرعة معتادة. فجأة، ارتفعت عيناه عن القدر للحظة، لتلتقي بنظرة أم الديب مباشرة. شحب وجهه في الحال، وكأن طيفًا مرعبًا خرج من العدم أمامه. تجمدت يده فوق القدر، وأحس برجفة تسري في جسده، كما لو أن أحدًا سكب الماء البارد على قلبه. لم يستطع أن يمنع الكلمات من الخروج على لسانه بصوت متردد، حيث تلفظ:
_إيه ده؟ نعمة وحماتي؟

أم الديب بتعجب:مالك ياخويا اتلبشت ليه لما شوفتنا؟
حامد بتردد:ولا اتلبشت ولا حاجة.

ثم انتفض وكأن صاعقة أيقظته من رجفته، واستدار نحو علي المساعد بلهفة لا تخلو من الهلع، وصرخ بأعلى صوته، محاولًا أن يخفي ارتباكه:
_حطلهم كرسيين يا علي!

رفع "علي" كرسيين بلاستيكيين بيدين مترددة، ثم وضعهما بعناية أمام الطاولة الفارغة، كما لو كان يُعدُّ لهما منصبًا مهمًا. ثم نظر إلى أم الديب ونعمة نظرة مليئة بالتبجيل، وقال بصوت مرتفع:
_يا أهلًا وسهلًا بالحاجة.
جلست أم الديب ونعمة حول الطاولة، تتبادلان النظرات بارتياح، وكأن اللحظة قد أصبحت ملكًا لهما. كانت ابتسامة نعمة لا تفارق وجهها، بينما أم الديب كانت تكتفي بمراقبة الأطباق التي على الطاولة وكأنها في صراع داخلي من الانتظار. ثم عاد "علي" إلى حامد، وفي عينيه بريق من الحذر. رفع صوته فجأة، قائلًا:
_عندك ستة حواوشي واتنين كبدة.

أم الديب باستغراب:ايهي دهو لينا؟
نعمة بضحك:لا ياما ده للزباين اللي واقفة، متخافيش هيجيبلنا احنا كمان، أما قوليلي إيه رأيك مش بذمتك الريحة حلوة؟
أم الديب باشتهاء:أوي يا بت، ريحة التوم والبصل عاملين عمايل جامدة.

بينما كان حامد مُنهمكًا في وضع الكبدة الساخنة داخل خبز الفينو الطري، تتناثر رائحة الثوم في الأجواء، توقفت يده للحظة عندما سمع "أم الديب" تناديه بصوت يشوبه الاشتهاء، قائلة:
_انت يا ولا!

حامد بابتسامة:أيوه يا حماتي ياللي منورانا ومكترانا.
أم الديب بنَزعة:اعملي ستة كبدة، وستة حواوشي.
حامد ببسمة:من عينيا والحاجة الساقعة عليا.

سلم حامد الأطباق الممتلئة بسندوتشات الكبدة والسجق والمخ المقلي إلى علي، الذي بدأ يتنقل بين الطاولات بخفة وسرعة، يوزع الأطباق على الفلاحين، بينما هو يوزع الابتسامات بشكل لا يخلو من الارتباك. لكن عين "نعمة" لم تستطع أن تفلت من ملاحظة شيء غريب في الموقف، فالتفتت إلى أم الديب بنظرة مليئة بالدهشة، وقالت بصوت منخفض:
_ده ليكي إنتي ياما؟

أم الديب بتعجب:أمال لينا احنا الاتنين؟ ده آني بقول يارب يشبعني.

تلفظت "نعمة" بالكلمات بصوت خافت، كما لو كانت تخشى أن تصل إلى أذن والدتها أو أي شخص آخر في المكان:
_ده ناقص تاكلي دراعي.

أم الديب بغلاظة:بتقولي إيه؟
نعمة بابتسامة:ولا حاجة ياما.

حينما تيقنت ليالي أن حديث حمود كان مجرد كذبة، تنكرت بسرعة، مغادرة المكان دون أن يلحظها أحد. كانت خطواتها تتسارع على الطريق، وذهنها يفيض بالأفكار، كل تفصيل يتكشف أمامها كالقطع المبعثرة في لغز معقد. عندما دخلت المنزل وصعدت السلالم، لمحت أن شقة أم الديب موصدة الأبواب، مما أكد لها أنها ليست هناك. أدركت حينها أن ما حدث لم يكن سوى جزء من مؤامرة خطط لها جلال، لعله يحاول أن يثير غيرتها. ولكن "ليالي" لم تكن لتسمح بهذا. نظرت إلى الدرج، ثم همست بصوت مملوء بالوعيد، قائلة:
_بقى بتحور عليا يا جلال؟ طيب ماشي!

صعدت ليالي على الدرج بخطى بطيئة، وكل خطوة تثقل قلبها وتزيد من يقينها بأن ما يجري حولها ليس إلا لعبة أُريد لها أن تفقد صوابها. بينما في الشقة، كان جلال جالسًا على الأريكة، يتنفس دخان النارجيلة الذي

يملأ الشقة برائحة كريهة، لا يعبأ بما يحيط به من فوضى، والأوساخ المنتشرة هنا وهناك، وبقايا الطعام التي تملأ الصالة نتيجة غيابها عنه ليوم واحد. حينما فتحت ليالي باب الشقة ودخلت في صمت، لم ينبس "جلال" ببنت شفة، لكنه نهض خلفها في لحظة، ووقف أمامها قائلًا:

_جرا إيه يا بت؟ مفيش إحم ولا داستور؟

فتحت ليالي باب الخزانة دون أن تلتفت إلى جلال أو تجيب على تساؤله، بل بدأت في سحب ثيابها بهدوء، تضعها على السرير كما لو أنها تجهز نفسها لمغادرة حياته. كانت حركاتها مدروسة، أما "جلال"، فقد لاحظ تغيّر تصرفاتها، فعبس وجهه باستهجان، وقال بصوت مرتفع قليلًا:

_ما تردي يا بت، هو مش أنا بكلمك؟

ليالي باستياء:وهو في إيه يتقال يا أبو عيالي؟ ما خلاص هنفضها سيرة، أنا جاية ألم باقية الهدوم!
جلال بدِراية:ليه يا بت في حاجة حصلت ولا إيه؟
ليالي بتردد:أصل مسعود ابن عم أمي طالب إيدي من أبويا!

كسر جلال درفة الدولاب بعنف، مفرغًا شحنة من الغضب المكبوت، ثم اقترب منها بخطوات متسارعة، وكل حركة منه تنم عن موجة من الغل، حتى بدا وكأن السخط قد بدأ يتحول إلى تهديد صارم. كانت ضربات قلب ليالي تتسارع، ينبض في صدرها خوفًا لم تجرؤ على إخفائه، وكل نبضة تأخذها إلى حافة الشك في مصيرها. رفع "جلال" صوته فجأة، وعروقه تنبض بشدة من كثرة الحنق والغيرة، فقال:

_يعني إيه طالبك من أبوكي وانتي على ذمتي؟ ده أنا أطربق الدنيا عاليها واطيها، هو إنتي عيلة صغيرة يا روح أمك؟ ده إنتي متجوزة ومعاكي عيلين!

ليالي بصراخ:ابعد عني يا جلال وملكش دعوة بأمي! مش إنت ياخويا عاوز تتجوز يبقى خلاص سيبني في حالي!
جلال بعجيج:هقتلّك * مسعود على *** اللي جابوه!**

نظرت "ليالي" إلى جلال بعينيها المملوءتين بالفزع، وكانت نبضاتها تتسارع بشكل غير طبيعي، وكأن قلبها سيقفز من صدرها. تجنبًا للغضب الذي كان يتفجر منه، حاولت أن تُظهر هدوءًا ظاهرًا، رغم أن قلبها كان يئن من شدة التوتر، وبصوت مرتعش، قالت:

_ابعد يا جلال، ابعد عني!

جلال بصياح:ليالي دي بتاعتي أنا وبس، محدش له فيها غيري! وأبوكي أنا هروحله انشالله نمسك في بعض! لكن محدش هياخدك مني يا ليالي! مش جلال اللي عيل طري يعمل فيه كده! فاهمة ولا مش فاهمة؟
ليالي بفزع:ابعد يا جلال بقولك! مالك كده في إيه؟

ابتعد جلال عنها، وبدت خطواته ثقيلة، لكنه لم يلحظ أن ليالي، التي كانت قد تجمدت للحظة، بدأت تتحرك خلفه بخطوات هادئة. بينما كان يقترب من الباب، رفعت "ليالي" رأسها بثقة جديدة، وعيونها تتوقد بفكرة ملهمة، ثم قالت بصوت هادئ، لكن مليء بالقوة:

_أنا عارفة إن الحوار اللي قولته للواد ده محصلش، أمك ونعمة راحوا عند حامد في شغله، مش عاملين عزومة للعروسة وأهلها زي مانت بتقول! وكمان مفيش عروسة ده حوار إنت مألفه للواد عشان تجيبني على ملا وشي وأفضل أصوتلك وأقولك مش هتتجوز عليا يا جلال! ومفيش واحدة هتاخدك مني يا جلال، شوف أهو سبحان الله ربنا كشف كدبك!

جلال بتبجُّح:أه حوار، ليكي شوق في حاجة؟
ليالي برهبة:طيب براحة عليا بس! إنت هتخشن صوتك عليا ولا إيه؟ حوار قريبي ده مش حقيقي وأهو واحدة قصاد واحدة!
جلال بجلبة:بتحوري عليا يا بت؟
ليالي بدهشة:مانت كمان حورت عليا، ولا هو حلال ليك وحرام ليا؟
جلال بحدَّة:اتصلي بأخوكي يجيب شنطة هدومك والعيال ويجي!
ليالي بكبرياء:ومين قالك إن أنا عاوزة أقعد معاك؟

جلال بغلاظة:وأنا قولت كلمة ومش هعيدها! اتصلي بأخوكي يجيب الحاجة والعيال ويجي!
ليالي بسخرية:مانت عيدتها أهو! عشان تعرف إنك بتقول أي كلام!
جلال بوعيد:جلال مبيقولش أي كلام! واتعدلي يا بت لأديكي كف أحولك!
ليالي بدلال:وههون عليك ياخويا؟
جلال بتضايق:معرفش.

بدأت "ليالي" تتحول في لحظات، وتغيرت نبرتها من الحدة إلى الهدوء، كأنها تحاول أن تهدئ النار التي اشتعلت بينهما. اقتربت منه بخطوات ناعمة، وتشبثت بيدها في عنقه كما لو كانت تحاول أن تمحو آثار السخط الذي خلفه حديثها. ثم همست برقة، وكل كلمة تخرج منها كانت مدروسة بعناية، تحمل مزيجًا من الحب والتسوية:

_لا إنت عارف بس مش عاوز تقول! أصلك مستخسر فيا الكلمة الحلوة، فاكر إنك لما تقول لمراتك حبيبتك كلام حلو يبقى كده بتقلل من رجولتك! بتحبني يا جلال زي ما بحبك ولا لا؟

جلال بهيام:أمال؟ ده أنا بحبك حُب ومش شايف غيرك يا بت يا ليالي! الصراحة أنا محظوظ بيكي.

هدأ "جلال" بدوره من حديثها اللين، وحروفها قد سكنت ثائرته، فأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يقترب منها أكثر من قبل. نظر في عينيها بعمق، وكأنهما مرآة تعكس كل ما يخبئه قلبه. تجلى في عينيه الحنان، وابتسم ابتسامة مغازلة مليئة بالدفء. ثم قال بنبرة خفيفة، تحمل في طياتها الغزل:
_انتي جايبة الحلاوة دي منين؟

ليالي بتتيِّم:من حلاوتك إنت ياخويا، كده يا جلال تزعلني منك؟
جلال بسُخط:ماهو برضة اللي أخوكي عمله ميصحش!
ليالي برقة:مش مهم، المهم احنا... احنا وبس!

بمجرد أن عانق "جلال" زوجته بحُب، دخل المعلم حنفي فجأة، مما جعل الهواء في الصالة يتغير. ابتعدا الاثنان بسرعة، وكان خجل ليالي واضحًا على وجهها، فقد شعرت بحرج جلي لتواجد المعلم حنفي دون أن يُعلن عن قدومه. خطا جلال للأمام بخطوات سريعة، وتغيرت ملامحه بشكل مفاجئ، وقال له بفزع:
_إيه ده يابا؟ إنت هنا؟

المعلم حنفي بإحراج:شكلي جيت في وقت مش مناسب.
ليالي بخجل:لا لا يا حمايا تعالى! خُش! يا أهلًا نورت.

دخل "المعلم حنفي" بهدوء، وتوجه نحو الأريكة ليجلس بجانب جلال. كانت ابتسامته واسعة، تعكس سعادته التي لا تخفى على أحد لعودة ليالي. نظر إليها نظرة مليئة بالترحاب، ثم قال بنبرة دافئة، وهو يسترجع الراحة التي شعر بها لرؤيتها مجددًا:
_جدعة يا ليالي إنك رجعتي بيتك، شوفتي لما غيبتي يوم عن البيت إيه اللي جرا؟

ليالي بضحك:أه هو إنت هتقول يا حمايا؟ ده بقى مزبلة.
جلال بابتسامة:خشي يا بت اعمليلنا كوبايتين شاي!
ليالي ببسمة:طيب.

دخلت ليالي المطبخ، وقررت أن تصنع كوبين من الشاي. بينما جلال، الذي ظل جالسًا على الأريكة، نظر إلى المعلم حنفي باهتمام بالغ، وكان ذهنه مليئًا بالأسئلة التي أراد طرحها. ثم، وبنبرة تحمل خليطًا من الفضول والحذر، سأل "جلال":
_خير يابا في إيه؟

المعلم حنفي:آني جيبتلك عقد البيت!

استخرج المعلم حنفي العقد الأصلي من جيب جلبابه الفضفاض، وأمسكه جلال بيدين مرتجفتين لكنه سرعان ما استعاد توازنه. نظر فيه بتمعن، وكأن كل تفصيل داخل العقد يعكس مفتاحًا لغزًا كان يحاول فك شفراته. ثم انفجر ضاحكًا ضحكة انتصار، وكأن عبور تلك اللحظة كان بداية لتحقيق ما كان يطمح إليه. شعر أن الأمور بدأت تسير في طريقه، وأن ما يريده قد أصبح في متناول يديه. وفي تلك الأثناء، كانت أم الديب ونعمة تجلسان معًا، تتناولان ساندوتشات حلويات المذبح المليئة بالنكهات، بينما كانت "أم الديب" تشعر بنشوة الطعام، وتتمتم برغبة جديدة. فجأة، نادت حامد قائلة:

_الطرشي يا حمو!

حامد:من عينيا يا حماتي.

ثم أحضر "حامد" لها طبق المخلل، وهو يبتسم ابتسامة بسيطة، وضع الطبق أمامها بلطف وقال، بينما كان وجهه يعكس بعض الطيبة البسيطة:

_بألف هنا وشفا

ثم وقف على العربة يواصل عمله، بينما أم الديب التهمت ساندوتش الكلاوي بالمخلل بنهم، متذوقة كل قضمة وكأنها تعيش في عالم من اللذة المطلقة. كانت عيونها تغلق مع كل لقمة، كأنها تذوب في الطعم، أما "نعمة" فقد قطمت ساندوتش الكبدة، وأخذت قضمة كبيرة، ثم نظرت إلى والدتها بابتسامة على وجهها، وعينيها مليئتين بالتساؤل، وسألتها بلُطف:

=حلو أوي ياما، إيه رأيك في عمايل إيد حمو؟

أم الديب:دهو إيده تتلف في حرير يا بت، مش كان يشتغل طباخ كان أحسنله.
نعمة:لا ماهو أصل حمو متمكن أوي في عمايل حلويات المدبح، إنما باقي الأكل مبيعرفش يعمله، ومعروفة إن الطباخ لازم يكون بيعرف يعمل كل حاجة.
أم الديب بتلذذ:بس سيبك انتي! الأكل طِعم!
نعمة:بألف هنا وشفا على قلبك.

بعدما تصالح زياد وهايدي ونسوا ما مر بهما من خلافات، كانا جالسين في الريسيبشن أمام التلفاز، يندمجان في مشاهدة فيلم رعب يثير القلق في قلوبهما، وأضواء النهار تتسلل من خلال الستار، تضفي جوًا هادئًا رغم إثارة الأحداث على الشاشة. فجأة، قطع رنين الجرس سكون الشقة، فنهض زياد سريعًا وذهب لفتح الباب. وعندما فتحه، فوجئ بأحمد الذي كان يحمل أكياسًا كبيرة، إلى جانبه جميلة وهي تحمل أسيل، ووراءهم سيليا. ضحك "زياد" بسخرية، ثم قال لأحمد بخجل وهو يحاول إخفاء إحراجه من تصرفه:

_يا أهلًا، طيب تاعبين نفسكم ليه؟

أحمد بإخاء:يا سيدي بقى، مرضناش نكلفكم.
هايدي بمودة:تعالي يا جميلة ارتاحي، تعالي يا سيليا!
زياد بأُلفة:ولا كلفة ولا حاجة، مانا قولتلك مفيش بينا الكلام ده!

سلم "أحمد" الأكياس لزياد في يديه، ثم ابتسم له ابتسامة واسعة، كأنما أراد أن يخفف عنه إحراجه، وقال بنبرة مرحة:
_على العموم دي حاجة بسيطة، إدونا بس ربع ساعة بالكتير نغير ونرجعلكم، أوعوا تاكلوا من غيرنا!

زياد بقهقهة:لا متقلقش، ده حتى الأكل ميبقاش له طعم من غيركم.
أحمد ببشاشة:طيب احنا مش هنتأخر!
جميلة بلُطف:عن إذنكم.
هايدي بتبجيل:اتفضلوا!

فتح أحمد باب شقته ودخل مع أسرته، ثم أوصد الباب خلفه، ليبدأوا في تغيير ثيابهم أولًا، استعدادًا للعودة لتناول الطعام مع زياد وهايدي، بينما صك زياد الباب هو الآخر، يغلقه بهدوء. في هذه الأثناء، نهضت هايدي ودخلت خلفه إلى المطبخ، حيث وضع زياد الأكياس فوق الرخامة بحركات هادئة، وهو يشعر بسعادة غامرة بتصرف أحمد، فقد بات يشعر بتطور العلاقة بينهما كل يوم، ليكتشف في نفسه كيف أن أحمد أصبح أكثر قربًا منه، وكيف أن الارتباط بينهما أصبح أقوى وأكثر دفئًا من اليوم الأول الذي التقيا فيه. في قرارة نفسه، شعر "زياد" أن أحمد يختلف عن أم الديب في الكثير من النواحي؛ فبينما كانت أم الديب تتسم بشخصية أكثر صرامة، وحبًا للتسلط، وفقدان للقدرة على التفاهم، كان أحمد سخيًا بطبعه، طيب القلب بصدق، ذكيًا في تعاملاته، وطموحًا يسعى دومًا لتحقيق ما يراه أفضل له ولمن حوله، مما جعله يراه في ضوء مغاير تمامًا عن والدته التي لم تملك نفس الصفات التي كانت تميز أحمد، لذلك قال:
_أخوكي ده ابن حلال وخسارة في مرات عمي.

هايدي بدهشة:هو بس اللي خسارة فيها؟
زياد:انتوا الإتنين بصراحة، طب بقولك! نطلع الأكل ونجهزه في الأطباق ولا نسيبه زي ماهو؟
هايدي:لا خليه زي ماهو علشان ميبردش!
زياد:خلاص ماشي.
جلس زياد وهايدي على الأريكة، واستقرت هايدي إلى جانبه، ثم أمسكَت بالحاكوم لتغيير القناة، حتى توقفت على مسلسل "فرح ليلى" في حلقته التاسعة عشر. بينما كانا يمران بلحظات من الهدوء، وتوغلوا في أحداث المسلسل، لكن في منتصف المشاهدة، بدا "زياد" متأثرًا بما يحدث، فأبدى رأيه بصراحة قائلًا:
_حلو المسلسل ده وقريب من الواقع.

هايدي:ده حقيقي.

بعدما وضعت ليالي الشاي لجلال والمعلم حنفي، دخلت الغرفة بهدوء وأخذت هاتفها لتتصل بصابر أخيها، طالبة منه أن يجلب لها حقيبتها وأطفالها ويأتي بهم بعدما تصالحت مع جلال وعادت الأمور إلى موضعها. لم يتأخر صابر عن مطلب أخته، فحمل حقيبتها، وأخذ حمود وتقى، ثم ركبا التوكتوك مُتجهين نحو القرية. بعد عشر دقائق من الرحلة، وصلوا المنزل، وصعدوا إلى الداخل. عند دخولهم، عانقت "ليالي" أخيها بحرارة، وكأن تلك اللحظة تعني لها الكثير بعد ما مرّت به. ثم قالت له، وقد امتلأت عيونها بالامتنان:
_تعالى يا صابر خُش!
وضع صابر الحقيبة على الأرض، ثم توجهت "ليالي" نحو أطفالها على الفور. عانقتهما بحب عارم، مُلتقطة لحظات السكينة بعد فترة من التوتر، وبابتسامة ملؤها الحنان، قالت لهما:
_خشوا غيروا يا عيال!

صابر بندم:أنا فكرت بيني وبين نفسي لقيت إن المشاكل ما بينا يا جلال مش حلوة، خصوصًا يعني إن العيال هيتعبوا لما يلاقوا أبوهم وخالهم ماسكين في بعض.
جلال بمُهادنة:عين العقل، إنت كده تعجبني!
ليالي بتحنُّن:ربنا يهديكم يا صابر وما يشمت فينا حد أبدًا، أقعد ارتاح، أعملك شاي معاهم ولا يانسون؟
صابر:اعمليلي شاي.
ليالي ببسمة:حاضر.

جلس صابر على الأريكة متعبًا بعد رحلة العودة، بينما حملت "ليالي" الحقيبة وأخذت نفسًا عميقًا، ثم توجهت نحو أطفالها اللذان لا يزالان واقفين، نظرت إليهما بحنان وأطافت عينيها بينهما، ثم قالت لهما:
_يلا يا عيال خشوا! انتوا لسه واقفين؟

حمود:طيب.

دخل الأطفال غرفة نومهم لتغيير ثيابهم، بينما وضعت ليالي الحقيبة في غرفة نومها بهدوء، ثم خرجت متوجهة إلى المطبخ لتحضر الشاي لأخيها. في تلك اللحظة، حل الصمت بينهما، لكن سرعان ما تنحنح "صابر" بصوته، وكأنما كان يجهز نفسه لفتح حديث كان في ذهنه، ثم قال بنبرة تأملية:
_أنا هخطب قريب إن شاء الله.

جلال بفرح:مبروك يا عم، هتخطب مين طيب؟
صابر بسعادة:واحدة من عزبة المقتول.

جلال بحماس:ده نصهم حبايبي يا جدع، دول ناس جدعان أوي ومحترمة وبيعملولي الف حساب... منين من عزبة المقتول؟
صابر بسرور:عيلة البرداعي، أبوها راجل غني ومحترم وكل الناس بتحلف بيه وبعياله وتربيتهم.
جلال:وانت روحت قريت فاتحة؟

صابر:لا لسه، بس هبقى آخد أبويا وأمي قريب ونروحلهم.
المعلم حنفي بسعادة:مبروك يا صابر، إنت ابن حلال وتستاهل كل خير.
صابر بابتسامة:الله يخليك يا حاج.
جلال:بص يابا بقى، احنا من بكرا الصبح نروح نخلص حوار البيت قبل ما أمي تشم خبر وتبوظ الدنيا!

المعلم حنفي:وهو إنت لقيت حد تبيعله؟
جلال:الصراحة لا بس نشوف، ما السماسرة ماليين الدنيا.
صابر باستغراب:انتوا عايزين تبيعوا الشقة؟
جلال:أه، هي ليالي مقالتلكش ولا إيه؟
صابر:قالت مرة زمان وبعدين الموضوع اتقفل ومحدش جاب سيرة تاني، بس لو عايزين تبيعوا فالمشتري موجود!

سأل "جلال" و"المعلم حنفي" في آن واحد، وكأن السؤال قد تلاقي في أذهانهما في اللحظة نفسها:
_مين؟

صابر:أم الفار!
جلال باستغراب:أم الفار مين؟
صابر:دي خالة العروسة! ولعلمك دي ست فتوة ومشهورة في بلدهم إنها مش سهلة، وهي دي اللي تنفع مع أمك!
جلال بإفترار:طب والله بتفهم، وأهو تطلع عليها القديم والجديد كله! بقولك إيه إنت تيجي معانا بكرا وتوصلنا ليها، تمام؟
صابر:تمام.

يا للهول! تلك المرأة التي تدعي "جمالات"، والتي كانت قد تشاجرت مع أم الديب في السجن، هي نفسها خالة عروس صابر؟! كانت المفاجأة كبيرة، وقد شعرا جلال ووالده بسعادة غامرة بهذه الفكرة، فهما يعرفان جيدًا ما سيحدث عندما تلتقي هاتان السيدتان، اللتان تحاول كل واحدة منهما فرض سيطرتها على الأخرى، فتكون النتيجة نزاعًا من نوع خاص، قد يفضي إلى معجزات شنيعة ونتائج غير متوقعة. بعد دقائق خرجت

"ليالي" بكوب الشاي بيدها، وقد كان فمها يختزن كلمات لم تخرج بعد. تقدمت نحو أخيها، مدّت يدها بالكوب، وقالت له بابتسامة:
_نورت بيت أختك.

صابر بسرور:منور بأهله.

ارتشف "صابر" الشاي ببطء، ثم نظر إلى جلال بعينيه التي تملؤها الجدية، وقال له باستعداد:
_يبقي على بركة الله يا جلال!

جلال بتحمُّس:على بركة الله.

جلس صابر مع المعلم حنفي وجلال لمدة نصف ساعة، بعدها خرجوا جميعًا ليعود كل واحد إلى روتينه اليومي، بينما في شقة زياد كان الرباعي برفقة سيليا جالسين حول الطاولة التي تم ترتيبها بعناية، مليئة بالمأكولات الشهية التي اختارها أحمد خصيصًا لهم، حيث اشتراها بعناية فائقة لتناسب جميع الأذواق، فتوسطها الدجاج الطازج والكباب المشوي الذي فاح منه عبير التوابل، والأرز الأصفر الذي كان يلمع بلونه الذهبي، والمقبلات اللذيذة التي تكمل الوجبة، فضلًا عن الخبز الطازج وطواجن الفاصوليا الخضراء باللحم التي كانت تذوب في الفم من شدة طعمها الرائع، وكان كل واحد منهم يأكل ما يرغب فيه على مهل، دون استعجال، بينما كانت أسيل تلهو على الأريكة بالمكعبات الصغيرة، تتنقل بينها بكل براءة. في تلك اللحظة، نظر "أحمد" إلى الجميع بعينيه المليئتين بالحُب، وهو يشعر بالسلام الداخلي، إذ كانت تلك اللحظات بالنسبة له أكثر من مجرد وجبة، بل كانت تمثل جزءًا من سعادته البسيطة في الحياة، وقال، متمنيًا أن يظل هذا التجمع الطيب قائمًا إلى الأبد:
_ربنا يديم لمتنا سوا.

هايدي بفَضل:يارب، تسلم إيديكم الأكل حلو أوي.
أحمد بتفضُّل:بالهنا والشفا.

بينما كان "أحمد" يأكل الكباب المشوي ويستمتع بنكهته الرائعة، نظر لزياد بتفكير، ثم سأل بابتسامة عريضة تظهر على وجهه:
_مش ناوي تقدم في البنك؟

زياد:هعمل كده، أنا مش حابب أقعد من غير شغل، هو أه بابا مأمن مستقبلي بس أنا لو قعدت، كده الفلوس هتخلص.

هايدي:هو مش إنت قولت هتقدم في المدرسة معايا؟
زياد:مانا حاسس إن المرتب مش هيكون مناسب لينا، ده بأربع آلاف في الشهر بس! أنا برا كنت باخد ٤٠٠ دولار في الشهر! ده ياريت لو توافقي تسافري معايا برا وهنعيش أحلى عيشة!
هايدي باعتراض:لا طبعًا أنا مقدرش أبعد عن أخويا! أنا هفضل جنبه.
أحمد باتفاق:بس زياد صح! هو بيفكر ازاي يأمن مستقبلكم والمفروض منين ما يروح تروحي وراه!

هايدي برُعونة:ماهو لو هنتكلم بالمنطق ده يبقى المفروض كانت جميلة تروح معاك مكان ما تروح لكن اللي حصل العكس! إنت اللي روحت مكان ما هي عايشة، هي مبتتقاسش كده!
جميلة برصانة:لا طبعًا يا هايدي! هو جه هنا لأن هنا أحسن بكتير من هناك وفي فرص أكبر! الموضوع كله هتلاقيه بيدور حوالين إيه بيجيب فلوس أكتر!
زياد بشجن:أنا مش بجبرها على حاجة علفكرة! أنا بس بقول مجرد إقتراح.

هايدي بتعجب:وماله الشغل هنا؟ ما كل الناس بتشتغل في بلدها وعايشين عادي، ليه نتبهدل ونسافر برا؟ وعلشان إيه؟
أحمد:خلاص يا زياد لو سمحت! ياريت متضغطش عليها!
زياد:أنا مش بضغط عليها والله، بس أنا عايز مصلحتنا.
هايدي برفض:وأنا مش هعمل كده!
زياد بتضايق:زي ما تحبي يا هايدي، إنتي حرة!
جميلة بانزعاج:خلاص بقى!

رفضت هايدي السفر مع زياد لتظل بجانب أخيها، فهي كانت ترى أن وجودها معه في تلك اللحظة أهم من أي شيء آخر، ولن تستطيع الابتعاد عنه مهما كانت الظروف. وعلى الرغم من إصرار زياد على السفر، فإنها تمسكت بموقفها، مصممة على أن تبقى مع أحمد، مهما كانت العواقب، وكان قرارها قاطعًا لا يتزعزع. أما جميلة، فقد شعرت بضيق من الثرثرة المستمرة حول هذا الموضوع، فهي لم تكن تفضل الخوض في أحاديث مطولة عن أمور لا تجدها ذات أهمية بالنسبة لها. لذلك، استأنف الجميع طعامه، محاولةً تجاهل الحديث الذي كان يستهلك وقتهم بلا جدوى. بينما كانت "أم الديب" جالسة تأكل، أتمت تناول خمسة عشر ساندوتشًا، ومع ذلك لم تشعر بالشبع بعد، فأخذت تنظر إلى نعمة، وأدارت حديثها بصوت مبحوح، مليء بالمسغبة الشديدة:
_هاتيلي كمان رغيفين، هو الأكل مبقاش فيه بركة كدهو ليه؟

نعمة بصدمة:ده إنتي كلتي أكل يكفي أربع أفراد ياما! ما تعملي تكميم معدة وتريحينا!
أم الديب بغلاظة:مش مهببة حاجة!

ثم نادت على حامد بأعلى صوتها، والجوع قد استولى عليها تمامًا، فقالت بصوت عالٍ:
_انت يا ولا هات رغيفين كمان! جاتكم الهم أكلكم مبيشبعش.
امتدت يد "أم الديب" نحو الساندوتشات التي قدمها لها حامد، لكنها حينما نظرت، كان أخاها ضايع. فنهضت فجأة، وركضت نحوه بعجلة، وعانقته بشدة، وكأنها تعبر عن كل ما في قلبها من شوق، قائلة بصوت مليء بالحب:
_يا حبيب أختك، ياخويا يا غالي، ياخويا يابن أمي وأبويا، كنت فين يا ضايع؟

ضايع:كنت مسافر ياختي وقولت أعدي عليكي نقعد شوية.

ثم نظر إلى نعمة وهي حاملة طفلها بين ذراعيها، تبتسم لطفلها في حنان، فابتسم بدوره وقال لها بود:
_ازيك يا بت أختي؟

نعمة برهبة:أهلًا يا خالي.
أم الديب باستغراب:وانت عرفت مكاني منين؟
ضايع:اللي يراقب ميتوهش.

ثم نادى "ضايع" حامد بصراخ، وقد بدت على ملامحه ملامح الاستعجال، قائلًا:
_كرسي ياض!
حينما جاء مساعد حامد، نظر ضايع في وجهه، وفي لحظة حانقة، أمسك ضايع بسخط من عنقه، رافعًا إياه بيد واحدة، وعيناه مشتعلة بالغضب، حتى بدا كأنه يلتهمه بنظراته. صرخ "علي" بعنف، قائلًا بنواح:
_والله ما عملت حاجة، والله أنا غلبان... غلبان!

ضايع بعداوة:حاسس إن أنا شوفت السحنة دي قبل كده! مش إنت ياض اللي هربت مني أول امبارح؟
علي بصراخ:والمصحف مانا!

لم ينتبه "حامد" إلى وجود ضايع حتى تلك اللحظة، فاقترب بخطوات ثابتة، يظهر على وجهه التسلح بالهيبة، ووقف أمامهم يتأمل الوضع المشتعل، ثم سأل بجدية، مُحاولًا السيطرة على الموقف:
_في إيه؟
استدار ضايع نحوه، وتأكد "حامد" في تلك اللحظة أن المعتدي هو ضايع نفسه، ذلك الرجل الذي طالما ارتعب من سيرته وما يقال عنه. الآن، وهو أمامه بشحمه ولحمه، أصبح الفزع يملأ قلبه، وكأن أشجار الشارع قد ضاقت عليه. سرعان ما تلاشت مظاهر البسالة التي كان يظهرها، ليحل مكانها الفزع الشديد، وقال بصوت متردد، يحاول أن يخفي رعبه:
_إيه ده؟ هو انت...

ارتجف "حامد" كالراقصة المصعوقة بالكهرباء، وأصابعه ترتجف بقوة، يحاول بكل جهده أن يخفي ارتباكه، فابتسم ابتسامة مذعورة، كمن يحاول التظاهر بالقوة رغم ضعفه الظاهر، وقال بصوت متردد:
_يا أهلًا وسهلًا، يا ألف أهلًا وسهلًا، يا مرحب.

ضايع بصخب:انت ياض ولا لا؟
علي بإعوال:والله مانا!
نعمة بفزع:والنبي ياما تخليه يسيبه!
أم الديب بابتسامة:سيبه يا ضايع ياخويا! يخلق من الشبه أربعين.

ترك ضايع علي ليفر الآخر هاربًا بسرعة، فكان يبكي من الخوف، بينما جلس ضايع هادئًا، واضعًا ساقًا فوق الأخرى كمن يراقب الوضع بتسلط. كانت "أم الديب" تلتهم الساندوتشات في صمت، لكن ابتسامتها كانت مليئة بالسرور لما جرى، فرفعت نظرها إلى ضايع وقالت بابتسامة:
_نورت الدنيا ياخويا، ده سعاد وأبو محمد كل يوم يرنوا عليا ويسألوا عليك... قلبهم واكلهم عليك أوي ياخويا.

ضايع بامتعاض:ليه عيل صغير؟
أم الديب بخور:لا ده إنت راجل وسيد الرجالة! هما بس خايفين عليك بحكم إننا أخوات، أما قولي مراتك وعيالك أخبارهم إيه؟
ضايع بوضاعة:عنب.
أم الديب بجهالة:ايهي، عنب إيه؟

ضايع بدناءة:يعني كويسين يا بسمة ياختي!
أم الديب:طب كويس ياخويا.
ضايع بخسَّة:جلال عامل إيه؟ ومراته ليالي؟ أصل الصراحة جلال متجوز حتة فرسة، ده ياريتها كانت مراتي أنا!
أم الديب بقهقهة:ليالي بت دباح الحمير بقيت فرسة؟ دهي كارتة، ده كفاية دم أمها الواقف، ياخويا هي دهي منظر؟
نعمة بذعر:طب أنا...أنا هروح أصل الواد شوية وهيعيط!

تحشرج الهواء في حلق نعمة، فسعلت بقوة وعيناها مفتوحتان بصدمة، والكلمات التي سمعَتها للتو قد صدمتها بشدة. نهضت على الفور، وحاولت أن تختلق أي حجة للفرار من الموقف المحرج، إذ كانت لا تعرف كيف تواجه ما سمعته من حديث خالها غير المتزن، فقال "ضايع" :
_لما يعيط تبقي تقومي...أقعدي، أقعدي!

نعمة بخرع:طيب يا خالي.

جلست نعمة بطفلها بين ذراعيها، وهي ترتجف من الصدمة مما سمعته للتو، وعقلها يواجه مزيجًا من الدهشة والخرع. أما "ضايع"، فقد التفت نحو أم الديب التي كانت تلتهم الساندوتشات، دون أن تبدو عليها أي دلالة من دلالات التوتر. نظر إليها ببرود، ثم قال بصوت هادئ، ولكن مع تعبير جاف:
_أنا جايلك في حوار ولازم تقفي في ضهري إنتي ونعمة!

أم الديب باهتمام:قول ياخويا ومن العين دهي قبل العين دهي!
ضايع بانحطاط:أنا عاوز أتجوز ليالي مرات ابنك!
يتبع....

الفصل الحادي والعشرون

ضحكت أم الديب بضحكةٍ يغشاها الاستغراب وعدم التصديق، إذ بدا لها حديث ضايع كأنه نسجٌ من خيالٍ جامح لا يستقيم مع العقل أو المنطق. كيف له أن يرغب حقًا في الزواج من ليالي، زوجة جلال، الذي هو ابن أخته؟ إن هذا الأمر لا يقرّه شرعٌ ولا يقبله خلقٌ كريم، فضلًا عن رفضه اجتماعيًا بجميع الأعراف. لكن ضايع، ذاك الذي لا تلجمه القيود ولا يردعه وازعٌ أخلاقي، ماضٍ بلا تروٍ خلف أهوائه، لا يلقي بالًا لانتهاك حقوق الآخرين، ولا يضع الأديان في حسبانه. إنه يمضي كالريح العاتية، لا تكبحه إلا غاياته الدفينة.
وحينئذ، قالت "أم الديب" بدهشةٍ لا تخفى:
_هو دهو وقت هزار ياخويا؟ ليالي إيه اللي هتتجوزها؟ إنت نسيت إنها على ذمة جلال؟

ضايع بفُحش:نطلقها منه!
نعمة بصدمة:يا نهار أسود ومنيل.
ضايع بغِلظة:بتقولي إيه يا بت أختي؟
نعمة برهبة:بقولك تاكل لقمة يا خالي؟ أصلك شكلك مش متغذي كويس اليومين دول.
ضايع:عندك حق.

انعقدت الدهشة على وجه نعمة، وارتجف كيانها تحت وطأة الصدمة، إذ كيف لخالها أن تسول له نفسه الزواج بزوجة أخيها؟ ارتعد جسدها وكأنها تلقّت صفعةً من واقعٍ مرير، وهي لا تزال عاجزة عن استيعاب الكلمات التي نطق بها ضايع. وفي غمرة هذه اللحظة العاصفة، التفت "ضايع" بلا اكتراث نحو العاملين على العربة، وصرخ بأعلى صوته وكأن شيئًا لم يكن، يطلب الساندويتشات بشغفٍ جلي، قائلًا:
_انت يالا يابن الكلـ*، هاتلي ١١ كبدة واتنين سجق، متتأخرش!

أم الديب بخَوَر:ارجع لعقلك يا ضايع وبلاش منه الكلام ده!
ضايع بفسق:وأنا الصراحة من زمان وأنا عيني على ليالي وعاوز أتجوزها، ده ياريتها كانت معايا أنا وأنا كنت....

وأكمل حديثه بتهكمٍ ممزوج بازدراء، محرّكًا شفتيه بطريقة وضيعة تنم عن خلوٍ من الأخلاق وسقوط في مهاوي الاستهتار. عندها لم تستطع "نعمة" أن تكتم استياءها، وقالت بصوتٍ يحمل نبرة العتاب الممزوجة بالرجاء، وهي تسعى جاهدةً أن تعيده إلى صوابه وتصوّب المسار الذي انحرف عنه:
_ميصحش يا خالي، إنت بتتكلم على مرات أخويا مش واحدة غريبة!

ضايع بتحدي:طب إيه رأيكم إن أنا مش عاوز أتجوز ليالي وبس؟ أنا عاوز أتجوز جميلة بت الأكابر وأجمع بين الإتنين، وأطلق مراتي...دي هتبقى عيشة هنا ومية فل.

أم الديب بصراخ:يا لهوتي...هو احنا وافقنا على واحدة لما تتجوز التانية؟ بقولك إيه يا ضايع إنت كدهو هتودينا في داهية! أرجع عن اللي في دماغك دهو ومتلبسناش معاك في الحيط!
ضايع بعناد:وأنا خلاص حطيت ليالي وجميلة في دماغي، ومش ههدى ولا أرتاح إلا لما يتطلقوا من عيالك وأتجوزهم! وانتي أول واحدة هتيجي تباركيلنا يا بسمة ياختي!

نهض "ضايع" فجأة، جسده مشدود بعصبيةٍ شديدة، وعيناه متقدتان بعزمٍ لا يعرف التردد، فهو عازمٌ على الزواج من ليالي وجميلة، بعد أن يُنهي علاقتهما مع أزواجهما، ليحل هو مكانهم بكل قسوةٍ. كان في سنواته الماضية يضع عينيه على ليالي وجميلة، ويتخيلهما في خيالاته كأنهما زوجتاه، يحركهما كما يشاء في عوالمه المظلمة. وعندما انفجر بصراخٍ عالي، كانت أم الديب ونعمة على شفير الجنون، تكادان تلطمان وجهيهما في نواحٍ عارم، فقال:
_بقولك إيه ده آخر كلام عندي! وبكرا الصبح جلال هيطلق ليالي، وأحمد هيطلق جميلة! وأنا اللي هتجوزهم، آمين؟
تمسكت أم الديب ونعمة بأماكنهما، وكأنهما قد تجمدتا في مكانهما، غير قادرتين على النطق بكلمة واحدة، فقد أصابتهما الصدمة واغتالتهما المفاجأة. لكن "ضايع" ، الذي لا يعرف المراعاة، رأى في صمتهما جوابًا خفيًا، فاعتبره بمثابة علامةٍ واضحةٍ للموافقة، فابتسم ابتسامةً ساخرة، ثم قال بلهجةٍ جازمة:
_يبقى آمين.
ثم ألقى ضايع نظره إلى علي، وأمره بصوتٍ عابس:
_صُك على الطلبات ياض منك له! ضايع مزاجه اتعكر.
موجهًا نظره نحو أم الديب، قال لها بنبرةٍ تحمل تحديًا صارخًا، كأنما يريد أن يقلب موازين الأمور:
_ماشي يا بسمة ياختي.

ثم تركهم، مغادرًا المكان في حنقٍ يملأ قلبه، خاصة بعد أن أصرّت أم الديب على رفض مطلبه. كان لا يستطيع تقبل فكرة أن يرفضه أحدٌ، فهي بالنسبة له خرقٌ لمقياسه المرفوض. وعندما غادر، صفعت "نعمة" وجهها بقوة، مُحاولة أن توقظ نفسها من صدمةٍ مريرة، وهي تعول بصوتٍ متحشرج:
_يا لهوي يا لهوي، ليالي وجميلة إيه اللي يتجوزهم؟هو خالي ده عبيط ولا مخه كده؟ يعني إيه يطلقهم من إجوازتهم ويتجوزهم؟ يارب توب عليه من القرف اللي بيشربه ده، ده لو جلال وأحمد شموا خبر هتحصل مجزرة ويا قاتل يا مقتول!

عادت نعمة مع أم الديب إلى المنزل، وكل خطوة تخطوها كانت تئن تحت التفكير والصدمة، لا تكادان تصدقان ما سمعته آذانهما من ضايع، ذلك الذي تجرأ على طلب يد ليالي وجميلة. تجمّدت الأفكار في عقل نعمة، وكأنما الزمن توقف عند تلك اللحظة، وهي لا تزال غير قادرة على استيعاب تلك الصدمة. أما نومها، فقد كان أشبه بمغادرة غير متوقعة؛ إذ كاد عقلها أن ينفجر من شدة التفكير، حتى غمرها النوم في لحظةٍ غير قابلة للتفسير. بعد يومين، اتصل صابر ببدرية معشوقته ليطلب منها أن تتوسط له، ساعيًا للحصول

على فرصة للوصول إلى خالتها جمالات، خاصةً أنه يعلم برغبتها في شراء شقة بعد خروجها من السجن، وحيدةً بلا مأوى. ورغم أن "محروس" زوج زينات كان يحسن إليها ويحملها فوق رأسه، فإن جمالات كانت تشعر بأنها أصبحت عبئًا عليهم، فقررت أن تكتفي بذاتها وتبتعد. بعد أن تم التفاهم على الاتفاقية، ذهب جلال، وليالي، والمعلم حنفي، وصابر إلى المحامي لتغيير ملكية الشقة. وفي تلك اللحظة، كانوا مُجتمعين حول طاولة في أرضٍ خالية، جميعهم جالسون على الكراسي، والأوراق أمامهم، حين ابتسمت "أم الفار" وقالت بابتسامةٍ غامضة:

_ربنا يجعلها معرفة الخير.

المعلم حنفي بابتسامة:يارب.

وقع جلال مكان أبيه، وأكمل الإجراءات التي تركها له، وبعدما انتهى من التوقيع على الأوراق، نهضت "أم الفار" لتكمل مهمتها وتضع توقيعها على المستندات. وعندما انتهت من إمضاء أوراقها، صافحتها "ليالي" بحفاوة. ثم، وبابتسامةٍ مشرقة، قدمت لها التبريكات قائلة:

_ألف مبروك يا حاجة.

جمالات ببسمة:الله يبارك فيكي.

ثم التفتت إلى الصبي الذي كان برفقتها، وأشارت له أن يقترب، قائلة له بنبرة حانية:

_إديهم الفلوس يابني!

استخرج الصبي المال من الحقيبة، ووضعه على الطاولة أمام الجميع. رفعت "جمالات" يديها فوق المبالغ، وكأنها تحتفظ بثمار جهدها الطويل، الذي قاسته سنوات من العمل. ثم قالت بتأكيدٍ لا يحتمل الشك:

_دول ٥٤٠ ألف جنيه بالتمام والكمال.

جلال:تمام، بسم الله.

ليالي:يارب سهل.

بينما كان المعلم حنفي يراقب "أم الفار" بنظراتٍ تملؤها الدهشة والإعجاب، وكأن قلبه أخيرًا قد وجد ضالته بعد سنواتٍ طويلة من الانتظار، كان يشعر وكأن تلك اللحظة التي طالما حلم بها قد تحققت أمامه. أما صابر، فقد كان يقف بجانب أم الديب، يتحمل رجولتها بحذرٍ وهو في أمس الحاجة إلى وجود أنثى تضفي البهجة على حياته، وقد بدأ قلبه يتحرك نحوها في خجلٍ، كما لو كانت هي الجواب الوحيد لفراغٍ طويل. أما "جلال"، فقد أخذ المبلغ ووضعه على جهاز العداد بحرصٍ شديد، يتأكد مرارًا وتكرارًا أن الرقم صحيح، حتى لا تقع أي هفوة. ثم، بعد لحظاتٍ من التأكد، رفع رأسه بابتسامةٍ هادئة وقال:

_تمام كده يا حاجة، مبروك عليكي الشقة.

جمالات:الله يبارك فيك يابا، هستلم شقتي امتى؟
جلال:إدينا أسبوع نكون لمينا حاجتنا.
جمالات:مفيش أي إشكال.

صابر ببشاشة:تتهني بيها يا أم الفار وتكون وش السعد عليكي.
جمالات بابتسامة:آمين يارب.
المعلم حنفي بتبسم:مبروك يا جلال.
جلال بسرور:الله يبارك فيك يابا.

بعدما استلم جلال حقيبة المال الصغيرة، صافح الموجودين مع ليالي بكل هدوءٍ، ثم غادرا معًا في طريقهما إلى الشقة التي طالما حلمت ليالي بشرائها، تلك الشقة التي كانت تراها رمزًا للحرية والإنجاز، في وقتٍ مضى عندما كانت شهرتهم على اليوتيوب في أوجها. لكن تلك الفترة انتهت بطريقة مأساوية، حينما قررت هايدي إغلاق القناة، لتتخلص من عبء المسؤولية الذي كان يثقلها. وصل جلال إلى المالك، فتقابلوا معًا، وكانوا جميعًا يتجولون في الشقة التي لم تتغير منذ أول مرة شاهدوها فيها. أحيَت تلك الذكريات الأمل في قلب ليالي من جديد، حيث شعرت أن حلمها قد أصبح أقرب من أي وقت مضى. وبينما كانوا يسيرون داخل الشقة، لم تتمالك "ليالي" نفسها، فانطلقت كلماتها مفعمةً بالدهشة:
_الله أكبر، أنا مش مصدقة إنها لسه متباعتش لحد دلوقتي! هي هي مفيش حاجة اتغيرت!

المالك بابتسامة:طبعًا يا أستاذة، ده لحسن حظكم إن كل الشقق اتباعت إلا دي، سبحان الله يمكن عشان هي من حظكم ونصيبكم.
جلال بحدة:خلي كلامك معايا أنا يا معلم! الشقة تعملها كام دلوقتي؟
المالك:إن شاء الله نص مليون.
جلال بحِرص:يا عم نزلنا فيها شوية! نص مليون كتير أوي أوي.

المالك باعتراض:والله أنا منزلكم من تمنها ١٥ ألف ومفيش حد بيعمل كده أبدًا، وبعدين ده سعر مناسب خصوصًا في ظل الغلاء اللي احنا فيه دلوقتي.
جلال بإصرار:يا عم بحبحها شوية، ده احنا عندنا إلتزامات ملهاش آخر! إيشي مصاريف عيال وإيشي بيت وإيشي حريم، بدل ما تخسر زبون!
المالك برفض:صدقني مش هقدر!
ليالي:تعالى يا جلال أقولك!

كان جلال في قرارة نفسه يشعر بأنه مُستَخسر دفع هذا المبلغ الكبير في الشقة، إذ كان يطمح لشرائها بأقل سعر ممكن، ليتمكن من توفير جزء من المبلغ ويودعه في البنك ليحصل على ربحٍ شهريٍ مستمر. لكن "ليالي"، التي كانت على دراية بتردداته، اقتربت منه، وجذبته نحوها بنعومة، ثم همست بنبرةٍ خافتةٍ مليئة بالعزم:

_انت مش كل مرة هتفطس في تمنها، ده أنا شايفة شقق على الإنترنت بأسعار أعلى من كده بكتير، دي لُقطة!

جلال بدهشة:لُقطة إيه يا بت؟ دي بنص مليون مرة واحدة، واحنا كده هيتبقالنا إيه؟

ليالي بتعجب:أنا اللي مستغرباه ازاي شقتنا اللي وسط العزب أغلى من شقة زي دي؟ ده المفروض العكس، إنت مش شايف الشقة واسعة ازاي؟

جلال بهيمنة:بقولك إيه يا ليالي اطلعي منها إنتي وسيبيني براحتي مع الراجل! الشقة دي غالية علينا ومتنفعناش، أنا مش فاهم إنتي ماسكة فيها ومتبتة ليه بإيدك وسنانك؟ ده الشقق مغرقة الدنيا في كل حتة وبأسعار أقل من كده!

ليالي بإقناع:الشقق مغرقة الدنيا أه، بس مش حلوين زي دي. ياخويا خلينا نتنيل نعيش وسط ناس نضيفة بقى ونعلم عيالنا في مدارس حلوة، ولا إنت عاجبك بلدنا؟

جلال بعناد:أه عاجباني! وأنا هشتري شقة الحاج عمرو، هي دي اللي تنفع معانا وحلوة برضة. بصي أنا مش هتكلم وهتشوفي بنفسك!

ليالي بسخرية:ويطلع مين الحاج عمرو ده كمان؟

جلال:ده راجل في بلدنا عنده عمارة كبيرة وأسعاره حنينة، هنروحله وناخدلنا شقة هناك وأهي قريبة من مدارس العيال!

ليالي بانزعاج:شوف أنا بقولك إيه وانت بتقول إيه؟ تصدق بالله يا جلال إنت مفيش فايدة فيك! هتعيش وتموت زي مانت، سبحان الله ده إنت الفقر ليك دوا.

جلال بانفعال:اتعدلي يا بت متخلنيش الناس تتفرج علينا! طب وربنا مانا واخد الشقة دي، وكلمتي أنا اللي هتمشي يا ليالي!

المالك باكتراث:إيه يا أساتذة؟ رسيتوا على إيه؟

جلال بصياح:الشقة دي متلزمناش، دي غالية على الفاضي! تشكر يا عم تعبناك معانا.

كانت الشقة التي يقفان فيها تتميز بتفاصيل كثيرة تجعلها أكثر من مجرد مكان للعيش. كانت أوسع من شقتهم الحالية، مما سيمكن ليالي من شراء النيش والطاولة بالمقاعد التي طالما حلمت بها، بالإضافة إلى الصالون الفخم الذي تود إضافته لتجميل المكان. كما كان الضوء الطبيعي يتسلل عبر كل النوافذ، فيضفي على المكان إشراقة، ويجدد الهواء في كل زاوية. وكان سعرها مناسبًا جدًا مقارنة بالشقق الأخرى، ما جعلها خيارًا

مغريًا. لكن جلال، الذي لم يكن يرى الصورة كاملة، أصر على شراء شقة في إحدى العمارات الجديدة في قرية أبو حلاوة، وبطريقةٍ غريبةٍ ومحرجةٍ نوعًا ما، خالية من الذوق، قال "جلال" وهو يخرج من الشقة:
_يلا يا ليالي!

ليالي بصدمة:يخيبك هو حد يقولها لحد كده؟

خرج جلال من الشقة، و"ليالي" تبعته بخطوات ثقيلة، قلبها يثقلها الإحراج. كانت هذه المرة الثانية التي يعاينان فيها الشقة دون أن يقدما إجابة للمالك، مما جعلها تشعر بأن الوضع أصبح محرجًا أكثر من المرة الأولى. توقفت قليلًا، ثم قالت بخجل، وهي تهمس بصوت منخفض:
_معلش يا أستاذ هنشوف ونرد عليك، ده الشقة ما شاءالله حلوة أوي.

المالك:زي ما تحبوا.

غادر جلال وليالي العمارة السكنية، وتوجهوا مباشرة إلى السيارة التمناية، مُتجهين إلى القرية من أجل التفاهم مع الحاج عمرو، الرجل الذي بنى عمارة حديثة في القرية تطل على حيٍ يزدحم بالخدمات ويشبه إلى حدٍ ما طابع المدينة. بينما كانت نعمة في شقتها، وهي تفرك يديها في توترٍ عارم، تتحرك بسرعةٍ غير مألوفة، وتنظر في الأرض مصدومة، وكأنها فقدت القدرة على التركيز فيما حولها. كانت أفكارها مشغولة تمامًا بموقف خالها ضايع، الذي أخذ حيزًا كبيرًا من تفكيرها، مما جعلها غير قادرة على ممارسة حياتها بشكل طبيعي. قبل أن يذهب "حامد" للعمل، نظر إلى نعمة باستغراب، ملاحِظًا تغيرها، وقال لها بلهجةٍ مشوبة بالريبة:
_مالك يا نعومي بتفركي كتير كده ليه؟

نعمة باستياء:مش مرتاحة يا حمو... قلبي مش مرتاح، ده من ساعة ما رجعت إمبارح وأنا مش على بعضي! رايحة جاية، جاية رايحة، مش قادرة!
حامد بتعجب:وهو إيه اللي حصل مخليكي بتاكلي في نفسك كده؟

جلست "نعمة" بجانب حامد على الأريكة، وضعت يديها على ركبتيها، ثم نظرت في الأرض لبعض الوقت، كأنها تبحث عن الكلمات التي تعبر عن هذا الواقع الذي أصبح يؤرقها. بعد لحظاتٍ من الصمت، رفعت نظرها نحوه، وعيناها مليئتان بالقلق، فقالت باستياءٍ جليٍ في صوتها:
_خالي ضايع عاوز يتجوز ليالي وجميلة حريم أخواتي!

حامد بضحك:لا ضحكتيني! وده اللي هو ازاي إن شاء الله؟

نعمة بقلق:ماهو ده اللي مجنني، عاوز يطلقهم من أخواتي ويتجوزهم! أنا مخي هيجراله حاجة يا حامد، خلاص مخي ده هيضرب! مش قادرة أستوعب ياخويا!
حامد بدهشة:ده باين عليه عقله ضارب منه، هو خالك ده مسلم زينا؟

نعمة باضطراب:والنبي مانا عارفة، هو ده باينله ديانة؟ ده متفهمش ملحد؟ ولا مسلم، وموحد بالله زينا؟ ده ياخويا مسابش حاجة حرام إلا لما عملها! أستغفر الله العظيم يعني كأنه بيعاند مع ربنا... أستغفر الله العظيم يارب.
حامد:أنا كنت شاكك من زمان، على العموم خالك ده مبيجيش من وراه إلا المصايب وبس! أوعي يا بت تتكلمي قصاد جلال في حاجة زي دي ألا تحصل خناقة!
نعمة برهبة:خناقة إيه؟ قول مجزرة، أنا مش مستغنية عن أخويا! يارب ارحمنا بقى دي مابقتش عيشة، هو أنا هلاقيها من أمي ولا خالي؟

كانت مشكلة نعمة الكبرى تكمن في أن جلال لا يجب أن يعلم عن هذا الموضوع أبدًا، لأن العواقب ستكون كارثية. كان هذا الأمر أكثر من مجرد شجار عادي، بل كان يشبه المعركة التي لا تحمل أي خيار ثالث، إما أن يُقضى عليه أو يُقتل. مهما كانت قسوة جلال وشدته على أهل القرية، فلن يصل إلى قوة ضايع الذي ترك آثار شره في كل بقعة من بقاع مصر. كان هذا الواقع يضغط على قلب نعمة، ويزيد من شعورها بالعجز.
أما أم الديب، فقد كانت غارقة في عالمها الخاص، حيث كانت تستمتع بمشاهدة الأفلام والمسلسلات التلفزيونية يوميًا، وتتناول طعامها بهدوء، غير قادرة على تناول الطعام دون أن تشغل نفسها بشيء يسليها. لكن اليوم كان مختلفًا، إذ كان التلفاز لا يعمل بشكل جيد، وكانت الإشارة تظهر بشكل متقطع، والشاشة مليئة بالكسور والشروخ التي حجبت الرؤية تمامًا. ومع تزايد إزعاجها من هذا العطل، جاء الفني لإصلاح التلفاز. كانت "أم الديب" بجانبه تراقب عن كثب، وهي تقف خجلةً، ثم قالت له بنبرة هادئة:
_معلش بقى ياخويا معندناش شاي ولا ليمون، أفتفتلك شوية عيش عليهمماية؟

الفني بتهكم:إيه يا حاجة اللي بتقوليه ده؟ إنتي شايفاني دكر بط؟
أم الديب بشُحّ:خلاص أبقى اشرب في دارك... أما قولي اتصلح ولا لسه؟
الفني بتعجب:بعمله أهو، أما قوليلي يا حاجة، هو إيه اللي عمل فيه كده؟
أم الديب بكذب:جلال ابني الكبير كان بيضرب الناموسة راح شايطه، راح واقع مكسور... يلا منك لله يا جلال، تصرفهم على مرضك.
الفني ببسمة:فداه يا حاجة، ده مهما كان ابنك برضة.
أم الديب بقهر:دهو ممرر عيشتي هو ومراته العقربة اللي طالعة من جحر العقارب دي، قال إيه ضايع أخويا عاوز يتجوزها.
الفني باستغراب:ازاي يا حاجة؟

أم الديب:والنبي مآني عارفة، هو اللي قايل كدهو بعضمة لسانه، طب لو دهي بطولها هنقول ماشي إنما دهي متنيلة على عينها متجوزة ابني ومخلفة منه عيلين.
الفني بإحراج:أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم، هي الدنيا بقى فيها إيه؟ ازاي بس يتجوز واحدة وهي متجوزة؟
أم الديب بصخب:انت مالك يا راجل انت؟ خليك في شغلك!
الفني بفزع:هو أنا اتكلمت؟ مانتي اللي حكتيلي من الأول يا حاجة!
أم الديب بصياح:أسكت مسمعش صوتك، خلص يلا!

كانت أم الديب هي من تمنح التصريح لمن يتدخل في شؤونهم الخاصة، وكانت دائمًا معتادة على سرسة الحديث مع أي شخص تقابله، تتبادل معه الكلمات بلا تحفظ. لكن إذا تعدى هذا الشخص حدود اللياقة أو اقتحم خصوصياتها بشكل غير مقبول، كانت تعبر عن غضبها بصوتٍ غليظ، الأمر الذي كان يجعل الجميع يخشى رد فعلها. أما الآن، فقد انشغل الفني في تصليح التلفاز، وهو يقوم بتغيير الزجاج المكسور ويعالج العطل، عارفًا جيدًا أن هذا التلفاز، رغم كونه قديمًا ومتهالكًا، كان يمثل لها الحياة بكل تفاصيلها. كان بمثابة رفيق أيامها. في الوقت ذاته، توسط أحمد لزياد في تقديم طلبه للعمل بإحدى البنوك الأهلية تحت رعاية باسم، الذي كان سخاءه لا يُعد ولا يُحصى بعد الله. خرج زياد مرتديًا زيًا رسميًا، حاملًا معه شهادة التخرج وبعض المتطلبات الأخرى اللازمة، وبعدما وصلا إلى مكان التقديم، بدأ زياد يمضي على الأوراق بحذر، بينما كان أحمد بجواره يرشده إلى الطريقة الصحيحة للتوقيع. وقبل أن يوقع زياد باسمه، نظر أحمد إلى الورقة وأشار إلى الجزء الذي يجب أن يوقع فيه، فسأله "زياد":
_أمضي هنا؟

أحمد:أيوه هنا!
زياد:ماشي.

مضى "زياد" على الورق بتمعن، وتأكد من أن كل شيء في مكانه وأن التوقيع كان في الموضع الصحيح، ثم بعدما أنهى مهمته، رفع رأسه وسأل الموظف باكتراث:
_هستلم الشغل امتى؟

الموظف:إن شاء الله هنرد عليك بكرا وبداية الشغل هتكون على الأسبوع الجاي.
زياد بابتسامة:تمام، شكرًا.
الموظف:العفو.

غادر زياد مع أحمد، وفي قلبه تطلع نحو التقدم إلى الأمام. فمنذ عودته إلى مصر وهو يعيش على راتبه البسيط من البنك، لكنه قرر أن يغير هذا الوضع، عازمًا على العمل الجاد ليزيد أمواله بدلًا من أن تنقص،

حتى يتمكن من تغطية مصاريفه ومصاريف هايدي. بينما كانا يسيران نحو السيارة، نظر "أحمد" إلى زياد بسرور، وقال بإعزاز حقيقي:
_عقبال ما نقولك مبروك على إستلام الوظيفة الجديدة.

زياد بتمني:يارب، أنا بس اللي مش فاهمه ليه هايدي تضيع علينا فرصة حلوة زي دي؟ فيها إيه يعني لو سافرنا سوا؟ على الأقل المرتب هناك هيكون أضعاف هنا بمراحل!
أحمد بتفاهم:كل الفكرة إن هايدي مش عايزة تبعد عني لأنك عارف كويس إن من صغرنا واحنا قريبين من بعض أوي، حتى يا سيدي لما كبرنا وكل واحد فينا اتجوز وبقى له بيت برضة مش حابة تبعد وبرضة تكون جنبي!
زياد بإتفاق:أنا عارف والله إنكم بتحبوا بعض جدًا ودي حاجة تفرحني، أنا مكنتش هاخدها ونعيش هناك طول حياتنا! دي كانت فترة مؤقتة نكون ظبطنا أحوالنا.

ركب أحمد وزياد السيارة، وعندما هم أحمد بالتحرك، نظر إلى المرآة ليتأكد من الاتجاه قبل أن يبدأ بالقيادة. ثم انحرف بالسيارة عن الطريق المعتاد، واتخذ مسارًا مختلفًا عن ذلك الذي يؤدي إلى المنزل. وقد لاحظ زياد التغيير في الطريق، فأجاب "أحمد" :
_سيبها على راحة راحتها، يمكن تيجي منها وتلاقيها هي بنفسها جاية تقولك أنا موافقة، مش عايزك تسبق الأحداث!

زياد بموافقة:ماشي، طيب احنا راجعين البيت صح؟
أحمد بضحك:لا راجعين البيت إيه ؟ احنا لازم نروح أي كافية نشرب حاجة، ولا إنت مش شايف الجو عامل ازاي؟
زياد بمرح:بس خد بالك المرة دي على حسابي! ها؟
أحمد بهشاشة:ماشي يا سيدي مفيش مشكلة، جميلة وهايدي هيرتاحوا مننا شوية.
زياد بضحك:أيوه.

اتجه أحمد برفقة زياد نحو إحدى المقاهي الراقية التي تقع في قلب المدينة، حيث الجو الهادئ والأجواء المُريحة. كان أحمد يرغب في أن يغير مزاجهما قليلًا قبل العودة إلى المنزل، فاختار هذا المكان الذي يعكس الرفاهية. جلسا معًا في ركن هادئ، يتبادلان الأحاديث بارتياح. بينما كان صابر يقف قبال المرآة يعدل قفطانه بعناية، حتى انتهى وخرج إلى الصالة حيث كان عم سلامة ينتظره. استعد الجميع، وبينما كان صابر ينادي والدته، خرجت تباهي من الداخل جاهزة، وقرروا الانطلاق إلى منزل العروس. وصلوا إلى المنزل حيث استقبلهم والد العروس، محروس، برحابة صدر وكرم، مُرَحّبًا بهم بحرارة. جلس الجميع في جو مليء بالألفة، حيث بدأ محروس يسألهم عن أصولهم، ليكشف عم سلامة أنهم من قرية مصيلحي القريبة. استمر الحديث بوداد، وأشار عم سلامة إلى أن "محروس" يبدو فيه عرق صعيدي، ليؤكد محروس ذلك، موضحًا

أنه ينتمي إلى خليط من الصعايدة والفلاحين، وهو ما أكسبه صفات الشهامة. كما أثنى عم سلامة على ملامحه الصعيدية التي تعكس أصالة وجدية أبناء الجنوب. تطرق محروس إلى قصة استقراره مع عائلته في قرية المقتول، وتحدث بفخر عن دور "زينات" في دعمه، إذ وقفت بجانبه بكل صلابة خلال الأيام اللصبة، مُؤكدًا أنها كانت خير شريك، حتى تجاوزوا معًا صعوبات الحياة. ضحك "عم سلامة" وقال:
_الحريم عنديكم بمية راجل!

محروس بحدة:صُح، نتشرف!
عم سلامة:أم ليالي أم العريس، ودي هبة بتي وده جوزها أشرف!
محروس:ماشاءالله.

كان أشرف من الشخصيات الاجتماعية جدًا، حيث كان له أصدقاء في كل بقعة أرض، كأنما لكل مكان له مائة صديق، ومعروف بكونه شخصًا عمليًا يحب العمل ويعطيه الأولوية في حياته. بينما كان محروس، والد العروس، ينظر إليه بتأمل، كانت ملامح أشرف تذكره بشيء ما، وكأن لديه إحساسًا غامضًا بأنه قد قابله في مكان ما من قبل. فابتسم "محروس" بابتسامة متسائلة وقال:
_بس شكلي أعرفك يا أشرف!

أشرف بابتسامة:والله أنا كمان حاسس إن أنا أعرف حضرتك، تقريبًا اتقابلنا قبل كده.
محروس بضحك:إيوه إيوه اتقابلنا يوم ولعة الغيط! يا بوي دِه كان يوم واعر جَوي جَوي!
أشرف بِافترار:أيوه بس الحمدلله إنك بألف خير.
محروس بابتسامة:ألف حمد وشكر ليك يارب.

في جلسة التعارف، كان "محروس" حريصًا على التعرف على كل فرد من أفراد عائلة صابر، فوجه نظره نحو عم سلامة، الذي كان يجلس في زاوية الغرفة، ثم سأله باكتراث، بينما كانت ملامح وجهه تفسر اهتمامًا حقيقيًا:
_وحداكم صبيان غير صابر؟

عم سلامة:لا هو صابر وبس! وعندي ليالي بتي الكبيرة متجوزة وعندها عيلين إصغار.
محروس بدهشة:ما شاءالله ربنا يبارك.
عم سلامة بتمني:يارب.
محروس بفضول:وعنديكم إيه؟
صابر بخجل:عندي شقة في بيت أبويا، وشغال برا في الخليج وباجي كل كام شهر، بس ناوي يعني أفتح مشروع وأقعد في مصر.
محروس باكتراث:وتعليمك إيه؟ واقف عند الثانوية؟

صابر بابتسامة:لا معايا معهد متوسط، فني صحي.
محروس ببسمة:إن شاء الله تكون معرفة الخير والهنا.
عم سلامة بفضول:يارب، قُولك إيه على الواد؟
محروس:مستعجل على إيه؟ أدينا بنتعرف أهه.
عم سلامة:احنا مش مستعجلين، على أقل من مهلك يا عم الحاج.

محروس، رغم كونه غير مستعجل على زواج ابنته بدرية التي تمثل ثالث فرحاته في الحياة، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يكون حريصًا على ترتيب الأمور بعناية. كانت بدرية، مثل سابقيها من أبنائه، مصدر سعادة له، لكن في قلبه كان يقدر أن الأمور ستتطلب بعض الوقت. وكان لديه اثنان من الأبناء متزوجين، رجل وسيدة. المنزل كان واسعًا ويكتظ بأخوات العروس اللواتي يتجولن هنا وهناك، يتبادلن الحديث.

محروس، الذي يعد من أكبر تجار الأسماك في قرية "المقتول" القريبة من الجبل والتي تقع على بعد ثلاثين كيلو مترًا عن قرية "أبو حلاوة"، كان يشعر بالرضا التام تجاه حياته التجارية. كانت هبة جالسة إلى جانب تباهي، تتطلع بحماس لتعرف العروس التي طالما تحدث عنها صابر. كانت تهدف إلى التعرف على العروس المستقبلية لشاب العائلة. بينما كانت النساء في المنزل يقمن بجلب المشروبات وتوزيعها على الحضور، كانت تباهي تصافحهم بسعادة، وكل واحدة منهن تحمل ابتسامة واسعة على وجهها. أما في منزل أم الديب، فقد انتهى "فني التصليح" من إصلاح التلفاز القديم، ثم بدأ في جمع أدواته داخل حقيبته بتركيز. كانت أم الديب تراقب كل حركة له بحذر، وهي تراقب ما إذا كان قد أتم المهمة بنجاح. عندما انتهى، أخذ حقيبته وخرج من الشقة، قائلًا وهو يخرج:
_السلام عليكم يا حاجة.

أم الديب:وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ياخويا.

نزل "الفني" من الشقة، وعندما وصل إلى أسفل المبنى، قابله جلال وزوجته ليالي في الطريق. أوقف الفني خطواته، وألقى عليهم السلام بابتسامة خفيفة، وقال وهو يحني رأسه بتواضع:
_السلام عليكم.
رد جلال وليالي في آن واحد، حيث تبادلوا النظرات قبل أن يقول "جلال" بابتسامة:
=وعليكم السلام.

الفني بتطفل:هو إنت جلال ابن الحاجة أم الديب؟
جلال باستغراب:أيوه أنا، عرفت منين؟
الفني:فيك شبه منها.

جلال بامتعاض:يا عم بتقفلني ليه؟ ولما أروح أولع في نفسي دلوقتي؟
الفني بتردد:كنت بقولك!
جلال:قول.
الفني بتلجلج:خالك حاطط عينه على مراتك وعاوز يتجوزها هي ومرات أخوك!

أزاح جلال فني التصليح نحو الحائط، حتى أصبح الفاصل بينهما ضئيلًا للغاية، كأنهما قطان من الذكور يتشاجران في لحظة انفعال. كان جلال يضغط على عنقه، بينما أخرج المطواة من جيبه بسرعة وحركة حادة. كان الفني في حالة ذعر، يدرك تمامًا خطورة الموقف، ويشعر بندم على الكلمات التي أطلقها سابقًا. بينما كانت "ليالي"، التي شعرت بتفاقم الشجار، ترفع يدها فوق صدرها بحركة شبه لا شعورية، وقلبها ينبض بالفزع، قائلة:
_يا لهوي!

جلال بعجيج:جرا إيه ياض العبط اللي بتقوله ده؟ إنت عبيط ياض؟ وبعدين إنت مين؟
الفني بتلعثم:أنا اللي كنت بصلح التليفزيون للحاجة!
جلال بصياح:مين اللي زاقك عليا ياض؟ انطق!
الفني بفزع:والله العظيم ما حد زاقني! ده الحاجة هي اللي قالتلي وأنا شغال في التليفزيون، وبصراحة حبيت أنبهك بدل ما تفضل على عماك!

أزاح جلال فني التصليح خارج المنزل بعنف، فسقط الرجل على تراب الشارع، وحقيبته تتناثر حوله. نهض سريعًا، ينفض غبار الأرض عن ثيابه، ووجهه كان مشوهًا بذعر سنوات من الخور. وفي لحظة من الارتباك، فر بعيدًا بأقصى ما يستطيع، محاولًا الهروب من المصير الذي شعر بأنه يلاحقه. لكن "جلال" لم يسمح له بالهرب، بل خرج خلفه، وصوت صياحه العالي يتردد في الأرجاء، متلفظًا:
_اتكل على الله ياض بدل ما أقطعك! ياكش تولع، ده طلعلنا من أنهي بلاعة ده؟

ليالي بخوف:خلاص يا جلال، ده شكله مش مظبوط وبيقول أي كلام!

شعر جلال أن حديثه يحمل بين طياته الحقيقة دون تزييف. وفي لحظة من التوتر، قرر أن يتوجه مباشرة مع ليالي إلى شقة أم الديب. وعندما دخلا، وجدوا والدته جالسة على الحصير، تستمتع بمشاهدة التلفاز في رونقه الجديد بعد التصليح، بينما كانت تفكر في كيفية حماية الجهاز من الأتربة، فتخيلت أن تطلب من سعاد صنع ستار له. توجه "جلال" نحو والدته، وبنبرة تتسم بالحزم سألها:
_إيه ياما الكلام اللي قولتيه للراجل ده؟

أم الديب بقلق:كلام إيه؟

جلال بصدمة:خالي إيه اللي عاوز يتجوز ليالي؟

صمتت أم الديب، وكان صمتها ثقيلًا، يحمل بين طياته إشارة واضحة على أنها لم تستطع إنكار ما قاله الفني. كان ذلك الصمت بمثابة الاعتراف الضمني بكل ما حدث. نظر "جلال" إليها برصانة، ثم قال بصوت هادئ، لكنه مشبع بالحزم:
_آه يبقى الكلام اللي الراجل قاله ده كان بجد ومكنش بيحور عليا ولا حاجة، ما تردي ياما!

أم الديب برعشة:ايهي دهو راجل عبيط وأهبل، بيخرف بيقول أي كلام!
جلال بسُخط:ولما هو عبيط وأهبل وبيقول أي كلام، وشك جاب ألوان ليه لما قولتلك؟

نهضت أم الديب دون أن تنطق بكلمة، مما زاد من حدة الارتياب في الجو. كان صمتها يثقل قلب "جلال"، فرفع صوته بانفعال، قائلًا:
_ما تردي ياما!

ليالي برهبة:ما خلاص يا جلال! ماحنا قولنا إنه عبيط!
جلال بجلبة:أسكتي إنتي مسمعش صوتك!

واصل "جلال" حديثه لأم الديب بصراخ، وصوته يرتجف من شدة السخط، وكأن نيران حارقة تغلي في عروقه:
_الكلام ده حصل ياما ولا لا؟

أم الديب باستنكار:محصلش.
جلال بعجيج:لا حصل ياما!
أم الديب بابتسامة:بُص يا جلال، إنت عارف يا ولا إن خالك بيشرب اللي ما يتسمى وساعات بيعبط بكلام هو مش فاهمه!
جلال بصياح:يعني حصل أهو!
أم الديب بتردد:خالك حاطط عينه على مراتك من بدري وطلب مني إنه يطلقها منك ويطلق جميلة من أخوك ويتجوز الإتنين!

حينما شعرت أم الديب أنه لا مفر من الكذب، قررت أن تقول الحقيقة، لكنها كانت الحقيقة التي أشعلت جلال في ذروة سخطه، كأنه يطوف في حلم قاسي لا يخرج منه. في تلك اللحظة، صفعت ليالي وجهها وهي

تصرخ، متأثرة بما سمعته. لكن "جلال" بدأ يثور بشكل متوقع، فتغير وجهه للحمرة، وعيناه تتقدان بغضب جسيم وهو يقول بصخب ناري:

_خالي عاوز يتجوز مراتي ومرات أخويا؟ ده اللي هو ازاي ياما؟ خالي عاوز يتجوزهم؟ يتجوز حريم متجوزة وعلى ذمة رجالة تانية؟ خالي اللي دخلته بيتي وأكلته وشربته فيه، حاطط عينه على اللي تخصني؟ وربنا لأقتله ياما... وربنا لأقتله وأخلص عليه... ليالي دي مراتي وأم عيالي! يتجوزها وهي على ذمتي؟ طب ده لو أنا طلقتها وربنا أقتله لو عملها، تقوليلي وهي على ذمتي؟

ضرب الدماء رأس "جلال"، ولم يشعر بنفسه إلا وهو يتوعد لخاله الخسيس بالقتل، قائلًا بلهيب من الاحتدام يعصف بكلماته:

_هقتلك يا خالي هقتلك! وديني مانا سايبك!

دخل جلال إلى المطبخ بسرعة، أحضر السكين وخرج يجري في الشارع، وكأن السخط يعميه، ويخيله على شفير الجنون. وليالي وأم الديب كانتا تصرخان خلفه، يجريان بأقصى ما فيهما من قوة لوقفه قبل أن يرتكب فعلًا لا يمكن إصلاحه. بينما كانت "ليالي" تسقط على الأرض مرة تلو الأخرى، متعسرة الخطوات، تنهض بصعوبة، وجهها مليء بالألم، وكأنها تعول ما يحدث في قلبها، قائلة:

_استنى يا جلال متجريش على الشر! مش هتفلت من تحت إيده...يا لهوي يا لهوي، يا جلال أبوس إيدك استنى! عيالك هيتيتموا!

أم الديب بإعوال:يا لهوتي...يا خرابي... الواد هيروح مني يا عالم! يا جلال متعملش فينا كدهو!
جلال بصياح:ارجعي البيت إنتي وليالي ياما! جلال لازم يرجع حقه! خالي ده لازم يتقتل ونخلص منه!
ليالي بصراخ:يا لهوي.

كان جلال مُستعدًا أن يفدي زوجته بروحه، وهو يدافع عن كرامتها التي تعداها خاله ضايع. كان يعتبره قدوته ومثله الأعلى، الرجل الذي ألهمه كل ما تعلمه عن القوة والبلطجة، وعلمه أصول التكنيكات الخاصة التي لا يمكن لأحد غيره أن يعلمها. ضايع كان له الفضل الكبير في تشكيل شخصيته، وكان في عينيه نموذجًا لا يتكرر. لكن حينما قرر الزواج من ليالي، حكم على نفسه بالموت.

يتبع....

الفصل الثاني والعشرون

بينما كانت نعمة جالسة في طمأنينة كأنها في كنف السماء، إذ باغتتها اللحظة التي طالما فرّت من مواجهتها. تناهى إلى مسامعها صراخ مُفزع، وكأن صرخة القدر تنبئ بشرٍ مستطير. اضطرب قلبها بشعورٍ غريب، وكأنّ نذير المصائب قد قرع بابها. هرعت مُسرعةً إلى الشرفة، ترمق الخارج بعينٍ مشدوهة، لتجد جلال يركض بعيدًا، وفي قبضته سكينٌ تقطر حِدتها بالعنف. أم الديب وليالي تتبعه بنواح. لم تتردد نعمة، لفت طرحتها على رأسها كجندي يتأهب لمعركة، واندفعت تنحدر السلالم بخطى تلهبها العجلة. في الأثناء، كان رضيعها يملأ الشقة ببكائه، وحين خرج "حامد" من المرحاض، فزع لرؤية باب الشقة مفتوحًا، فاشتعل غضبًا، لا خوفًا على أهل بيته، بل خشية أن تغزو الفئران عرينهم. فأوصد الباب بقوة وقال بحدةٍ:

_يا نعمة! يا نعمة، إنتي روحتي فين؟ كده الفيران هتدخل وترجعوا تشتكوا! يا جدعان اقفلوا الباب وريحونا.

ثم خطا بخطوات مثقلة بالحنق نحو الغرفة حيث كان عمر يعلو صراخه كأنما يناشد حنانًا غائبًا. حمله بين ذراعيه بعنفٍ يشوبه شيء من اضطرار العاطفة، وراح ينظر إليه بعينٍ يملؤها ضيق قائلًا بسخطٍ:

_مالك إنت كمان؟ بتعيط ليه؟ طب وربنا نعمة بتستعبط.

انطلق حامد نحو المطبخ، يحمل بين طيات تفكيره شظايا القلق حول المكان الذي اختفت إليه نعمة. وبينما كان يجهّز الحليب المعلب لعمر، تسللت إلى ذهنه فكرة مهدئة، تُرجّح أن نعمة قد تكون عند ليالي كعادتها. سكن قلبه قليلًا، واستمر في تحضير الحليب لرضيعه وكأن شيئًا لم يكن. في الجهة الأخرى، كانت نعمة تفرّ بخطى مُتسارعة، تلهث أنفاسها كمن يهرب من قدر محتوم، حتى أدركت ليالي وأم الديب وهما تلاحقان جلال، الذي ما زال يقبض على السكين وكأنه يتشبث بها كملاذ أخير. كان جلال قد خطط لمواجهة قدره بكل عناد، فاتصل بخاله واستدعاه إلى نقطة محددة، مبلّغًا إياه بحقيقة الكارثة التي انكشفت له، ومتوعدًا بمواجهة لا رجعة فيها، مهما كان الثمن. لم يتأخر خاله "ضايع"، في الاستجابة. انطلق من مكانه بشجاعة تكسوها خشونة، يرافقه أعوانه من البلطجية، متسلحين بسكاكينهم كجيش صغير يعد نفسه لمعركة فاصلة. وفي تلك اللحظة، استدارت "ليالي" نحو نعمة، وجهها يفيض بالدموع وصوتها يرتجف، قائلة:

_الحقيني يا نعمة، جلال عاوز يقتل خاله!

نعمة بفزع:يا لهوي.

اندفعت نعمة مع والدتها وليالي في سباقٍ محموم، حتى أدركن جلال في قلب المشهد المحتدم. كان واقفًا هناك، تائه النظرات، يحيط به طيف من الاحتدام، وسكينه كأنه امتداد لليد التي لا تعرف الرحمة. اقتربت "نعمة"، وعلى وجهها الرجاء، ومدّت يديها المرتجفتين لتتشبث بذراعيه بقوة، مُحاولة انتزاعه من هوة لا قاع لها. اهتزت الكلمات على شفتيها، وقالت:

_لا يا جلال لا، خالك محدش بيقدر عليه! هتضيع نفسك إنت واللي معاك، يا جلال أصبر!

رغم توسلات نعمة وليالي التي تقطّعت فيها نبرات الرجاء، ظل جلال كالصخر الصلد، لا يصغي، بل كان عازمًا على مواجهة ضايع في معركة بدت كقدر محتوم. تجمع الجيران على عتبات منازلهم، تملؤهم الدهشة، كأنما يشهدون فصلًا من رواية لم تُكمل حبكتها بعد. كانت نظرات الجميع تتأرجح بين الحذر والتشويق، مدركين أن جلال مهما بلغ من عنفوان لن يضاهي بطش خاله ضايع، الرجل الذي اجتاز حدود القوة البشرية ليصبح أسطورة تُروى عن جبروته. حتى لو اجتمعت القرية بأكملها خلف جلال، ما كان ذلك ليُرجح كفته في مواجهة هذا الطوفان البشري. على النقيض تمامًا، وفي زاوية بعيدة عن ضوضاء الحياة اليومية، كانت المقهى الفاخرة تغمرها سكينة استثنائية. موسيقى هادئة تنساب في الأجواء كنسيم عليل، والزبائن جالسون حول الطاولات بأعداد محدودة، ولكل منهم عالمًا صغيرًا خاصًا به. منهم من انغمس في شاشة الحاسوب، ومنهم من أبحر في صفحات الكتاب. جلس زياد وأحمد في ركن هادئ، يحتسي كل منهما مشروبه المفضل. أحمد، بعشقه الذي لا ينضب للكابتشينو، يتحدى حرارة الصيف، وفنجانه هو ملاذه الوحيد. أما زياد، فكان يفضل القهوة الباردة. أمامهما طبقان من الفادج كيك، غارق في سيلٍ من الشوكولاتة الداكنة، يثير شهية العين قبل اللسان. نظر "زياد" نحو أحمد، وعيناه مليئتان بالدهشة، وكأنما أراد أن يفك شفرة هذا الولع بالكابتشينو في عز الحر، متمعنًا في هذه التناقضات التي تجمعهما على طاولة واحدة، قائلًا:

_ياه يا أحمد، كابتشينو في عز الحر؟

أحمد بلَذَّة:تصدقني لو قولتلك إن ده الوحيد اللي بيعدل مزاجي؟ لو مشربتوش بصدع ويومي بيتقفل!

زياد:ماهو عشان إنت اتعودت عليه وبقى خلاص زي الإدمان، أنا بقى مبطيقش حاجة اسمها كابتشينو ولا نسكافية، قهوة وبس!

أحمد:ماهي أمزجة يا زياد، وأهو كل واحد واللي يريحه.

زياد ببَهِيتة:فعلًا... هو أنا ممكن أسألك سؤال؟ بس ياريت متفهمنيش غلط، هو مجرد سؤال مش أكتر!

أحمد بموافقة:أه طبعًا، اسأل!

زياد بتردد:هو إنت بتحب جميلة فعلًا؟

أحمد بتعشُّق:وده سؤال برضة؟ أنا بعشقها مش بحبها بس! جميلة غيرت حاجات كتير في حياتي، أنا من غيرها مكنتش اتغيرت!

زياد بإحراج:بس أنا يعني ساعات بحس إنـ....

أحمد باهتمام:إن إيه؟

زياد بتردد:إنك متجوزها جواز مصلحة! ولا أقولك خلاص أنا عارف هتفهمني غلط! مانا مكنتش عايز أتكلم عشان كده!

أحمد بابتسامة:طب خليني معاك للآخر، إيه اللي مخليك تفكر إن أنا متجوزها جواز مصلحة؟

زياد بندم:خلاص اعتبرني مقولتش حاجة! بصراحة ده سؤال ميتسألش، أنا مش عارف ازاي سألتك سؤال زي ده!

أحمد بإصرار:وأنا عايز أعرف منك إيه الأسباب اللي خلتك تقول كده! ممكن تتكلم يا زياد؟
زياد بشك:انت لسه قايل إنك من غيرها مكنتش حياتك اتغيرت! وانت الحاجة الوحيدة اللي اتغيرت فيها هي حالتك المادية، والمظاهر من لبس أو فلوس! أنا مش قصدي أقلل منك! إنت أخويا وانت عارف كده كويس، هي ازاي قبلت بالوضع من البداية؟

أحمد باستبانة:لا أنا لما قولت حياتي اتغيرت مكنش قصدي على الماديات، أنا كان قصدي على المشاعر والأحاسيس والمعتقدات، إنك تكون عايش سنين في وضع معين مأكدلك كل التأكيد إنك مش عايش وفجأة يجي اللي ينور ضلمتك هو ده التغيير اللي بجد! يكفي إن جميلة سابت كل حاجة علشاني! وضحت بالمهر والشبكة اللي بالشيء الفلاني علشاني، معقول شخص يبيع الدنيا كلها علشانك وتيجي إنت في الآخر اللي تبيعه علشان شوية مظاهر؟ إنت عارف يا زياد إن أخوها قمر الدين جايب لعروسته شبكه بكذا مليون، وشاري شقة دوبلكس بأربعين مليون؟ عايزك تقولي المية ألف دول يجوا جنبهم إيه؟
زياد:بصراحة ولا أي حاجة، ده على كده بالنسبالهم ملاليم!

أحمد ببسمة:بالظبط! وصدقني أنا لو كان معايا ملايين عمري ما كنت هستخسر في جميلة حاجة لأن بجد هي تستاهل! عارف؟ كل ما بفتكر هي اتنازلت علشاني كام مرة مبيهونش عليا أزعلها، وساعات بقول هي اللي خسارة فيا! عشان كده أنا بحاول بقدر الإمكان أعوضها عن اللي اتحرمت منه علشاني!
زياد ببشاشة:ربنا يخليكم لبعض، وآسف لو سؤالي كان فيه شوية مفاهيم غلط، بس إنت خلاص وضحتها. الغريبة إنك مش زي مرات عمي!

أحمد:لا أنا ولا هايدي زيها! عارف مين اللي زيها فعلًا؟ جلال! ويمكن علشان كده عايشين دايمًا في مشاكل لأن كل واحد فيهم عايز يكون المسيطر.
زياد بتنافر:أنا عمري ما ارتاحت لجلال بصراحة ولا حسيت إن في بينا كيميا.
أحمد باستياء:جلال طول عمره بتاع مشاكل ومفيش أي فايدة فيه! ربنا يهديه ويعقل بقى.
زياد:يارب، ويهدينا احنا كمان.

كان أحمد يغرق يومًا بعد يوم في بحر حبه لجميلة، تلك المرأة التي اجتمعت فيها صفات قلّما تتكرر. بجمالها الباهر، وذكائها اللامع، وثروتها التي تضيف بريقًا لحضورها، إلى جانب مؤهلها العالي في الإعلام ونجاحها كمذيعة مبتدئة، بدت جميلة وكأنها النسخة المثالية لكل ما يتمناه الرجل. على النقيض، كانت سامية، التي صنعت لنفسها مكانة وشهرة على مر السنين، تبدو متألقة أمام إشراقة جميلة. وما زاد إعجاب أحمد بها أنها أم لطفلتين فائقتي الجمال، ومع ذلك لم تفقد شيئًا من فتنتها. كان حبه لها نقيًا، لا تطغى عليه المصلحة، بل نابعًا من شعوره بأنها تُكمل كل ما يحتاجه قلبه. أما زياد، فكان يضمر في قلبه مشاعر نفور تجاه جلال، الذي رآه كالنقطة السوداء في حياة هايدي، معتبرًا أن جلال وأم الديب يشتركان في صفات سلبية كثيرة، وإن تفاوتت في شدتها. في مكان آخر، كانت أسرة عم سلامة تغمرها جو من الترقب، حيث تجمعت لانتظار

العروس بدرية. كانت بدرية فتاة طويلة، حنطية البشرة مائلة للبياض، ذات ملامح هادئة تلفت الأنظار برقتها. كانت ترتدي عباءة بسيطة تناسب أجواء الريف، ومكياجًا خفيفًا يزيدها إشراقًا دون أن يطغى على بساطتها. رغم أنها محجبة كنساء عائلتها، كانت تخطط للاختمار الكامل بعد الزواج، إظهارًا لالتزامها.
خرجت بدرية من الممر تحمل صينية مزيّنة بأكواب الشربات بنكهة أزهار الورد، وخلفها نساء العائلة، يتقدمن بخطى واثقة تعكس فخرهن بها. اقتربت من "تباهي"، وعانقتها بحرارة، فأبدت والدة العريس إعجابها العارم بجمالها البسيط، قائلة:
_يا أهلًا وسهلًا، اسم الله عليها زي القمر.

بدرية بفرح:ازيك يا حاجة؟
تباهي بسعادة:الحمدلله بألف خير.

ثم خطت "بدرية" بخطوات خجولة نحو هبة، تتردد في كل حركة، حاملة فوق عاتقها عطر الحياء المجبول بالود. عانقتها برفقٍ، ومالت برأسها قليلًا، تُهمس بكلمة تنضح تواضعًا:
_ازيك؟

هبة بابتسامة:الحمدلله، ما شاءالله تبارك الله.

بعدما انتهت العروس من السلام على الحضور، جلست بجوار والدتها، ورأسها منحنٍ نحو الأرض، تغلفها هالة من الحياء الذي زادها وقارًا. كانت ملامحها تنبض بخجلٍ عذب، فيما عيناها تهربان من مواجهة النظرات التي كانت تلاحقها بإعجاب من صابر. على الجانب الآخر، كان صابر يجلس في هدوء، يراقبها بسعادة لا تخفى، وكأن حلمه الذي طالما راوده بات قاب قوسين أو أدنى من التحقق. التفتت "زينات" نحو تباهي، وابتسامة ودودة تعلو وجهها، وتلفظت:
_أنا الحاجة زينات أم العروسة.

تباهي بضحك:اتشرفت بيكي يا حاجة، بس هو انتوا عادي عندكم بتقولوا اسم الحريم كده على الملأ؟
زينات بِافتِرار:محدش غريب، ده احنا هنبقى أهل.
عم سلامة بحبور:نفهم من كده إنكم موافقين؟
محروس بدهشة:أصبر يا راجل! هو احنا هنروح من بعض فين؟ نروح نشوف الشقة ونوصلكم الرد.
عم سلامة بتعجب:على كده الرد واقف على الشقة؟
محروس:قول آه.

عم سلامة بضحك:يبقى خلاص نعتبر إنكم موافقين، الشقة هتعجبكم أوي! واحنا تحت أمركم من ٤٠٠ ألف لحد مليون، ده بتكم غالية وهنتاقلها بالدهب.

محروس بابتسامة:ربنا يخليك يا حاج، خلاص النهارده بالليل هنعدي نشوف الشقة وبإذن الله نقول مبروك.
عم سلامة بفرح:على بركة الله، طب نقرا الفاتحة طيب؟
محروس بتبسم:نقرا الفاتحة.

ارتفعت الأيدي جميعها في انسجام مهيب، وصدحت القلوب بآيات سورة الفاتحة، كأنما تتلو عقدًا روحيًا بين السماء والأرض، يبارك هذا اللقاء المبارك. وبعد دقيقة من السكون المفعم بالخشوع، اخترقت الزغاريد أجواء المجلس كعصافير مبتهجة، تنشر الفرح في كل زاوية. ضحك صابر بفرحة لم يستطع إخفاءها، وعانقه والده بحرارة. نهضت "تباهي" بدورها، وخطاها تفيض سرورًا، وعانقته بحب الأم التي ترى ابنها يخطو أولى خطواته نحو حياة جديدة. ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة، وتفوهت:
_مبروك مقدمًا.

صابر بسعادة:الله يبارك فيكي ياما.
هبة بفرح:مبروك يا حبيبي.
أشرف بسرور:ألف مبروك.
صابر بابتسامة:الله يبارك في الجميع.
تباهي بحبور:زي القمر.
بدرية ببشاشة:ربنا يخليكي، إنتي اللي قمر.
زينات بإكرام:نحضر العشا بقى.

كان من الواضح أن الأجواء بين العائلتين تكتسب تناغمًا قل نظيره، فقد ساد بينهم التآلف من أول لقاء. الجميع شعروا بالراحة، وكأنما كانت هذه العائلات قد عاشت معًا منذ زمن بعيد. شعر "محروس" أن صابر شاب ذو قلب طاهر، بعيد عن مسالك الشباب الطائش الذي لا يشغله سوى المغامرات السطحية والمظاهر الباهتة مثل ارتداء البنطال الممزق والسلاسل. كان صابر يبدو وكأنه من عائلة بدرية ذات القيم والمبادئ الراسخة. هذا التآلف جعل الجميع في قمة السعادة. نهضت زينات، وبتلك الخطوات الرشيقة التي تعكس خبرتها في تنظيم الأمور، دخلت المطبخ مع بناتها لتحضير العشاء. كانت عائلة بدرية تعتبر مزيجًا فريدًا بين الريفيين والصعايدة، وحرصت الوالدة على تقديم أفضل الأطعمة الصعيدية التي تشتهر بها المنطقة. بينما كانت تتبادل تباهي وهبة الحديث مع بدرية، تعارفوا وتعاطفوا، يتبادلون القصص والكلمات بابتسامة ودية، وتكشف كل واحدة عن شخصيتها. أما في شقة جميلة، كان الرجال غائبين، بينما كانت هي وهايدي مع أسيل بين ذراعيها، وسيليا بجانبهم. شعرت هايدي وكأنها تحتضن ملاكًا صغيرًا، إذ كانت أسيل تذكرها بجميلة في ملامحها الناعمة. بينما كانتا تتناولان الإنجليش كيك مع الأيس موكا، نظرت "جميلة" إلى هايدي بإعجاب، وتخيلتها يومًا ما وهي تحمل طفلها، مبتسمة ابتسامة تفيض دفئًا، ثم قالت:
_اتعودي بقى من دلوقتي علشان لما تجيبي بيبي متتعبيش وتقدري تتعاملي معاه بكل سهولة.

هايدي بضحك:ياه احنا فين واللي بتقوليه ده فين؟ ده لسه بدري أوي أوي.
جميلة بتعجب:وبدري أوي أوي ليه؟
هايدي بتردد:مانتي عارفة يا جميلة إننا متفقين إتفاقات معينة ومينفعش نرجع فيها.
جميلة باستغراب:هو إنتي ازاي بجد مش نفسك تجيبي بيبي وتكوني مامي زي أي حد؟ إنتي مش حاسة إن تفكيرك غريب شوية؟
هايدي بشجن:طبيعي يكون غريب، مش متربية على إيد فتوة المنطقة؟ عايزانى أطلع عاملة ازاي يعني؟

جميلة بنُصح:دي كانت فترة في حياتك وانتهت! ولازم تنسي كل اللي عيشتيه معاها، وتجددي أفكارك من أول وجديد! هايدي حبيبتي إنتي مصممة تخربي علاقتك بزياد ليه؟ أنا بصراحة شايفة إنه بيحبك جدًا، ولو صبر على طريقة تفكيرك دي سنة أو اتنين مش هيصبر العمر كله!
هايدي باقتناع:بصراحة عندك حق، تفتكري أنا محتاجة دكتور نفسي؟
جميلة بإرشاد:لا إنتي مش محتاجة غير حاجة واحدة! تقعدي مع نفسك وتقوليلها إنك غلط في حاجات كتير ومحتاجة تصلحيها وتاخدي خطوة بكده فعلًا لحد ما تتغيري!
هايدي بإحباط:أنا فعلًا محتاجة كده، محتاجة أتعافى من تربية ماما ليا يجي عشرين سنة كمان.
جميلة بتضايق:بليز يا هايدي متصعبيش العلاج على نفسك! إنتي بالشكل ده مش هتتعالجي من أفكارك!
هايدي بيأس:حاسة إن أنا مش هقدر!
جميلة بثقة:لا You Will Appreciate، صدقيني!

السنوات الطويلة التي مرت على هايدي في كنف أم الديب، حملت خلالها أثقالًا نفسية جعلتها في حاجة ماسة إلى علاج نفسي مكثف، إذ أصبحت ترى العالم من حولها بعيون مشوّهة، مليئة بالقلق. كان كل شيء في حياتها يبدو خارجًا عن التوازن، وخاصةً بعد أن اتخذت قرارًا قاسيًا بمنع الإنجاب، وفقًا لاتفاقها مع زياد. هذا القرار جعلها تبتعد عن زوجها بحذرٍ، خاشية أن تعود الأمور إلى وضعها الطبيعي. ولكن، مع مرور الوقت، بدأت جميلة تقدم لها نصائح متتالية، تدعوها فيها إلى النظر للحياة بعين التفاؤل. لم يكن الأمر سهلًا على هايدي، لكن شيئًا في قلبها بدأ يتغير، وأخذت تحاول رؤية الحياة بمنظور إيجابي. نظرت للتلفاز، ومشروبها في يدها، وعينيها مركّزتان على الشاشة التي تضيء وجهها الخالي من الابتسامة. ثم ابتسمت بصمت.

في تلك الأثناء، كان ضايع يمشي بخطى ثابتة، حاملًا ساطورًا ضخمًا، مهيبًا في شراسته، يرافقه مساعدوه الذين يلوّحون بسكاكين حادة، وكأنهم طيور مفترسة تتهيأ للانقضاض على فريستها. كانوا يتجهون نحو جلال ونساءه، اللاتي ارتعدت أجسادهن من الخرع، يجرّون جلال بقوة مُحاولين الفرار قبل أن يلقى حتفه على يد خاله ضايع، الذي لا يعرف للرحمة طريقًا. كانت ليالي تكاد تنهار من شدة القلق، ولكنها كانت تستجمع قوتها لتسحب جلال مع نعمة، متوسلة بحرفية لتنجو به من هذه المأساة. في تلك اللحظة، ارتفعت صرخة من "ليالي"، وهي تقول:

_يا جلال بقولك يلا نمشي، يلا!

نعمة بصراخ:يا لهوي يا جلال أبوس إيدك. أحب على راسك ورجليك!

سقطت نعمة على الأرض، تلامس سيقان أخيها بشدة، وهي تنتحب بقوة، وكأن قلبها قد انشق من الألم. كانت تدعو بكل جوارحها أن يتركوا هذا الطريق المظلم وأن يغادروا قبل أن تُزهق الأرواح. لكن جلال، الذي فقد كل معالم الصبر، دفع بأخته وزوجته بعيدًا عنه، ثم وقف شامخًا على مسافة بعيدة عنهم. اقتلع الفانلة من جسده، ليقف عاريًا من الجزء العلوي، عاري الصدر، لا يرتدي سوى بنطاله، وكأن هذا الفعل هو تَهيؤه للدخول في معركة شرسة لا مكان فيها للضعف. كان يحمل السكين في يده، مُستعدًا لخوض المعركة بكل ما أوتي من قوة. اقترب ضايع مع رجاله، خطواتهم ثابتة، وكأنهم يقتربون من معركة معركة حتمية، لكن "جلال" لم يتراجع. تقدم نحوه أكثر، وعيناه تشتعلان بالسخط، فصرخ بأعلى صوته، قائلًا:
_عاوز تتجوز مراتي يا خالي؟ مراتي؟ ده أنا هطلع عينك! طول عمري بقول إنك جدع وواقف في ضهرك في أي عركة! لكن تيجي عند مراتي وتتكتم ومسمعش صوتك، مرات جلال خط أحمر!

ضايع بمغازلة:مستغرب ليه؟ ده إنت مراتك حتة ملبن، مهلبية، قشطة!

ثم حرك ضايع شفتيه ولسانه بطريقة حقيرة، كأنما أراد أن يستهزئ بما تبقى من كرامة جلال. ولكن هذا التصرف كان كالعاصفة التي زادت من غضب جلال، الذي لم يشعر بنفسه إلا وهو يندفع بسرعة هائلة، يقفز فوق رأس ضايع، يوطئه بيديه وسيقانه كما لو كان يريد سحقه تحت سخطه المتفجر. كانت غيرته على زوجته، التي كانت بمثابة الوقود الذي أشعل نيران قلبه، تدفعه في مواجهة هذا الشر، كأنها اليد الخفية التي تمسكه وتوجهه نحو المعركة. ازداد إعوال النساء من حولهم، وكأنهن رأين مشهد موته قبل أن يحدث. كانت أصواتهن ترتفع في الأفق، تنبئ عن المأساة التي تقترب، ولكن جلال كان في عالم آخر، لا يرى سوى ضايع الذي أمامه. وهو يوطأ ضايع بكل قوة، صاح "جلال" بصوتٍ مرتجف:
_يا كلب! الوساخة دي تعملها على حد غيري! جلال راجل وهيفضل طول عمره راجل! وعشان اللي إنت قولته ده أنا هقتلك!

لم يمهل "ضايع" جلال وقتًا طويلًا ليفلت من قبضته، بل رد له الوطأة مرتين، وهو يهدده بمزيد من الألم. ثم قفز ضايع فوقه بعنف، وصفعه صفعات شريرة على رأسه، وكل صفعة تُضاف إلى معركة قاسية بين الحق والباطل، فكان صوته يتعالى بقسوة، حيث قال له بنبرة مليئة بالشر:
=خد يابن أختي!
اندفع ضايع نحو جلال، فهاجم جسده بكل قسوة، ليصفعه ضربة هائلة، فكان يود إلحاق الهزيمة به إلى الأبد. في تلك اللحظة، وصل المعلم حنفي بسرعة، وقد امتلأ قلبه بالذعر على ابنه، يصيح في فزع وهو يشق طريقه نحوهم، إلا أن جلال لم يعر اهتمامًا لأي شيء سوى هزيمة خصمه. قلبّ جلال ضايع على الأرض،

وأصبح فوقه يوطئه بعنفٍ، ضربات جلال كانت كالعاصفة، في تلك اللحظة، امتلأت الشوارع بصوت النساء اللواتي صرخن رعبًا، ولكن رجال ضايع اندفعوا نحو جلال بشراسة، وأخذوا يطعنونه بالسكاكين الحادة التي غرزوها في جسده، فتكاثفت الدماء حوله، وكل طعنة كانت تصحبه إلى آلام أشد. كان يصرخ من شدة الألم، وفي تلك اللحظة، جاء ضايع بالساطور، ورفع السكين الكبير الذي لم يكن يرحم، ثم ضرب جلال في قلبه ضربة قاسية، جعلت الدماء تنفجر منه، ويصمت بعدها صوته للأبد. رفعت "ليالي" و"نعمة" أيديهما في السماء، وصرختا بأعلى صوتهما، قائلتين:
_يا لهوي.

بعد أن ضرب ضايع جلال بالساطور، وقع الأخير على الأرض غارقًا في دمائه، مشهده كان أشبه بكابوس مُرعب، حيث كانت الدماء تتساقط بغزارة حوله. كانت ليالي تجري بجنون، صوتها يغمر الحي، وصراخها يتناثر في الهواء كصرخة روح تمزق الأفق، في حين أُرتمت نعمة على الأرض، تقبض على التراب بكل قوتها، بينما كانت تنزله على رأسها كأنما تود أن تدمج الألم بجسدها. أما أم الديب، فقد كانت تصرخ بصوت عالٍ، لا تقدر على الوقوف على قدميها من هول المشهد، ومع مرور اللحظات، بدأ ضايع ورجاله يبتعدون، يغادرون المكان في صمت قاتل، ليختفوا تمامًا عن الأنظار، وكأنهم تلاشوا مع الرياح. سقط المعلم حنفي على الأرض، لا يمكن لعقله أن يستوعب، فقد كان يرى ابنه، جثةً أمام عينيه، غارقة في دمائها.
وفي مشهد مؤلم، طارت "ليالي" نحو زوجها، وعندما اقتربت منه تلطخ جسدها بدمائه، وهي تحمل الألم في كل جزء من كيانها. كانت تعول بصوتها المرتجف، وهي تصرخ بألم، قائلة:
=لا! جلال! جلال! جلال!

نعمة بإعوال:يا لهوي، يا لهوي، أخويا، ياما!
أم الديب بنواح:جلال!
المعلم حنفي بصخب:جلال! جلال!

شعر المعلم حنفي وكأن صدره قد انخلع من مكانه، فسقط على الأرض فاقدًا الوعي، مصاب بذبحة صدرية فغشي عليه من هول ما شاهده. تجمّع الجيران حوله بسرعة، فهرعوا به إلى المستشفى، حيث كان جلال، الذي لم يظهر من جلده سوى بقايا لون شاحب بسبب الدماء التي غطت جسده بالكامل. كانت ليالي ونعمة وأم الديب في حالة من التفجع، يهزون المبنى عويلًا. كانوا يقفون أمام قسم العمليات في حالة من التوتر، كأنهم يقفون على أحر من الجمر، ينتظرون من يخرج ليخبرهم عن حالة جلال. دقائق مرّت كأنها سنوات، حتى خرج الطبيب من حجرة العمليات، كان يشيح بوجهه نحو الأرض، وملامحه كانت تفضح كثيرًا عن حالة جلال. تردد "الطبيب" في البداية، وكأن الكلمات لا تستطيع أن تخرج من فمه، ثم نظر في وجوههم المترقبة، وقال بصوت خافت، لكنه ثقيل:
_البقاء لله، شدوا حيلكم!

ليالي بنواح:آه يا جلال..آه يا حرقة قلبي عليك! روحت وسيبتني أنا وعيالك؟ آه يا بختك المايل يا ليالي، يارب خدني وراه! هعيش بعدك ازاي يا جلال؟
نعمة بصراخ:أخويا أخويا أخويا! يا ليالي أخويا! ياما أخويا أخويا!
أم الديب بانتحاب:يا عيني عليك يابني روحت في عز شبابك! والعيلين الغلابة دول هتسيبهم لمين؟ آني أه كنت عايشة معاه في مشاكل، بس إنت ابني! يارب، ابن بطني، يا ضنايا يا جلال!

تم نقل جلال إلى حجرة الحظيرة في الطابق الأرضي من المنزل، حيث كانت الأجواء يكتنفها الشجن. كان الشهيد، الذي قدم حياته دفاعًا عن عرضه ضد وقاحة خاله، لا يُغسل ولا يُكفن بالطريقة المعتادة. حضر المغسّل وأخذ يلف جسده بدمائه التي أضحت جزءًا من كرامته، ليصبح شهيدًا للعرض الذي دافع عنه بكل قوة. وكان هذا الخبر بمثابة صاعقة للجميع، فقد أصابهم بصدمة، وشعروا وكأنهم غارقون في حلم مؤلم. أما أحمد وهايدي، فقد بدا عليهما الارتباك العارم، وكأنهما في عالم آخر، لم يستطع عقلهما استيعاب فداحة ما حدث. بينما كانت ليالي، التي لم تكف عن الصراخ، تندب بحسرة، إلى جانب نعمة، وكافة النساء من حولهن، يحاولن تهدئتهن بلا جدوى، وعندما فشلت كل محاولات "تباهي" في تهدئتهن، رفعت يديها إلى السماء، وجمعت في قلبها كل مرارة الأسى. وكان صوتها يعلو بالنحيب، وهي تناشد السماء، قائلة باستغاثة:
_يارب ارحمها، البت مش مستحملة! جلال مات؟ ازاي طيب؟ ازاي يا عالم؟ ده كان فيه صحة تهد جبال، يارب الصبر من عندك.

ليالي بإعوال:راح وسابني ياما! راح، آه يا قلبي، آه يا قلبي آه وستين آه، لا يارب! يارب والنبي، يارب أكون بحلم!
هبة ببكاء:اهدي يا ليالي عشان عيالك، إنتي مش شايفة العيال عاملين ازاي؟
حمود بصراخ:أبويا أبويا.

كان الأطفال ينوحون في ألم شديد على فقدان والدهم، بينما كانت "ليالي" تتجه نحو جلال، عازمة على رؤيته قبل أن يُخرجوه لصلاة الجنازة في المسجد. كأن كل جزء في جسدها يرفض السير، قلبها مثقل بالقهر، وبينما كانت تسير بتلك الحالة، صادفت أخاها صابر، الذي كان بصحبة أحمد وأشرف وحامد وعم سلامة. عندما رأت والدها، اندفعت نحو حضنه كأنها لا تجد ملاذًا سوى في دفء يديه. كانت دموعها تملأ عينيها، وصوتها المرتعش يعبر عن كل الألم الذي يعصف بها، وقالت بنواح مرير:
_عاوزة أشوفه، أبوس إيديكم، إبوس إيديك يابا!
ثم نظرت "ليالي" إلى صابر، واندلعت صرختها الهستيرية في وجهه، وقالت بصوتٍ عالٍ، يملؤه الإلحاح:
_عشان خاطري يا صابر! والنبي أشوفه، دي آخر مرة هشوفه فيها ومش هشوفه تاني!

صابر بحزن:اهدي يا ليالي ياختي، كلنا لها، محدش هيعمر فيها!
ليالي بقهر:يا حبيبي يا جوزي يا حبيبي، يا حبيبي آه.

لم تتمالك ليالي أعصابها، فانفجرت مشاعرها جميعها في صرخة مدوية، ثم سقطت مغشيًا عليها، فاقدة كل شيء في تلك اللحظة. لكن سرعان ما استفاقت من كابوسها المفزع، لتجد نفسها جالسة على السرير في الظلام، غارقة في عرقها ودموعها، وحرارة جسدها مرتفعة بشكل غير طبيعي. كان قلبها يعصرها بالألم، وقد تساقطت دموعها بحرقة. أما "جلال"، الذي كان بجانبها، نظر إليها بدهشة، وكأن عقله لم يستطع استيعاب ما مرّت به. في تلك اللحظة، اقترب منها برفق، عانقها بحنان وضم رأسها إلى صدره، وقال لها بصوت هادئ:
_مالك يا بت؟ إيه اللي جرالك؟

ليالي بانتحاب:أنا بحبك أوي يا جلال وعمري ما هزعلك ياخويا! ده إنت جزمتك دي فوق راسي! اضربني بالشبشب ومش هفتح بوقي بنص كلمة بس متسيبنيش!

ضحك "جلال" بقوة على حالتها، وكان الضحك مليئًا بالدهشة. حيث نظر إليها بتعجب، ثم قال:
_مالك طيب في إيه؟ ماتفهميني!

ليالي ببكاء:حلم وحش أوي أوي يا جلال! صاحية قلبي مقبوض وهموت من كتر الخنقة، أبوس إيديك ورجلك ما تسيبني ده أنا ماليش غيرك!
جلال بضحك:يا بت وأنا هسيبك ليه بس؟ هو حد يقدر يسيب نفسه؟
ليالي بنشيج:يعني مش هتسيبني يا جلال؟
جلال بدهشة:لا إله إلا الله إيه اللي جرا بس؟ وبعدين يا بت أنا بقالي نص ساعة بصحي فيكي! ابوكي اتصل عليكي فوق العشر مرات عشان يقولك شبكة أخوكي الخميس الجاي!
ليالي بتعاسة:مش عارفة مالي يا جلال! والنبي ما عارفة، طب هو إنت قولت لحمود يجي يقولي إنك هتتجوز ولا ده كان جوا الحلم برضة؟
جلال بسخرية:لا ده كان بحق وحقيقي، احنا من ساعة ما رجعنا من حوار الشقة وانتي نايمة، هو إنتي واكلة إيه يا بت قبل ما تنامي؟
ليالي بشجن:والنعمة ما كلت حاجة.
جلال بحنان:طيب أنا هنزل أجيب الغدا، متعمليش حاجة النهارده!
ليالي بفزع:لا والنبي يا جلال ما تنزل أبوس إيدك!

جلال بقهقهة:جرا إيه يا بت؟ مالك صاحية أعصابك فافي كده ليه؟
ليالي بارتياح:طب خلاص، الحمدلله إنك عايش.
جلال بحُب:انتي خايفة عليا ولا إيه يا ليالي؟

ليالي بهوى:طبعًا ياخويا لازم أخاف عليك، أنا لو مخافش عليك هخاف على مين؟ مع إني مش فاهمة إيه الحلم وإيه الحقيقة بس يلا المهم إنك بألف خير.
جلال ببسمة:سيبك من جو الأحلام ده! أنا نازل أجيب الغدا!
ليالي بقلق:طيب يا جلال خد بالك من نفسك!
جلال ببشاشة:اشطا.

بدأت ليالي تهدأ قليلِا، وقد بدأت الطمأنينة تظهر على وجهها بعد أن تأكدت أن ما مرّت به كان مجرد كابوس، وأن جلال بخير، وأن موضوع ضايع ليس سوى وهم في ذهنها. مسحت دموعها في كم جلبابها، وعادت لتتنفس بشكل أهدأ. أما جلال، فنهض بهدوء ليذهب لشراء الغداء من أحد المطاعم. خرج من الغرفة، بينما كانت ليالي تتبعه بخطوات متعثرة. عندما وصل "جلال" إلى صالة الجلوس، وجد حمود جالسًا يشاهد التلفاز، مستندًا على الأريكة بجانب تقى. نظر إليه، ثم قال:
_هتيجي معايا ياض؟

حمود:أه يابا.
جلال:إلبس شبشبك وتعالى!

ارتدى حمود نعله وخرج مع جلال من الشقة، بينما دخلت "ليالي" إلى المرحاض لتغسل وجهها بالماء والصابون، محاولة أن تمحو عن وجهها آثار الدموع. جففت وجهها بالمنشفة، ثم خرجت إلى المطبخ لتبل ريقها الذي جف من شدة الأحداث الكارثية التي مرّت بها في الحلم. كانت في حالة من التشتت، لكنها تحاول استعادة قوتها. خرجت من المطبخ وقالت لتقى، بصوت متحشرج:
_تعالي معايا يا تقى!

تقى:ماشي يا ماما، ثواني!

أغلقت تقى التلفاز، ثم ارتدت نعلها بسرعة، في حين دخلت ليالي الغرفة لتلف الحجاب فوق رأسها، مُحاولَةً تهدئة أعصابها، ثم خرجتا من الشقة معًا بالمفاتيح. صعدتا إلى شقة نعمة، وطَرقَت ليالي الباب، ففتحته "نعمة"، وقد ظهر على وجهها التعجب من التغيير الواضح في حالة ليالي. نظرت إليها باستفهام، ثم سألت:
_مالك يا ليالي وشك مخطوف ليه؟

ليالي بإرهاق:حلم وحش أوي يا نعمة، صاحية من النوم مش قادرة.
نعمة بقلق:اللهم اجعله خير، إيه اللي حصل بس؟
ليالي بخجل:حلمت إن حماتي بتقولنا إن خالك ضايع لا مؤاخذة يعني عينه مني وعاوز يتجوزني.

نعمة بصدمة:لا ده مجرد حلم متحطيش في دماغك! هي أصلها الكوابيس كده! تلاقيكي نمتي من غير وضوء بس.

كان مطلب ضايع للزواج من ليالي وجميلة ليس حلمًا بل واقعًا مريرًا، لكنه كان في تلك اللحظة تحت تأثير جرعة حشيش جعلته يخرف بكلام غير معقول. أما المعركة التي توفي فيها جلال، فكانت مجرد حلم، لكنه كان حلمًا مشبعًا بالرسائل التي توصلت إليها ليالي عبر اتصالها الروحي العميق مع الله، مما جعل الواقع يتجسد لها في هيئة رؤى مؤلمة. خشيت نعمة من الحديث عن هذا الموضوع، فأنكرته في نفسها، ثم دخلت ليالي مع طفلتها وجلستا على الأريكة. بينما كانت "نعمة" توصد الباب، وتُشغل تفكيرها بما جرى، قالت في نفسها بقلق:

_يا نهار أسود ومنيل، هي عرفت منين؟ لا تكون أمي قالتلها حاجة، دي تبقى مصيبة!

ليالي بتعب:أيوه هو كابوس، ولما جلال لقاني تعبانة ومش قادرة أعمل حاجة، راح واخد حمود وراحوا يجيبوا الغدا.
نعمة بابتسامة:طب ليه؟ ما كنا كلنا سوا! ده خير ربنا كتير الحمدلله، ده أنا لسه عاملة رز بشعيرية وطبيخ وفراخ... بقولك إيه أبقي رني على جلال يطلع ونتغدا مع بعض!
ليالي بإنهاك:ماشي يا نعمة.
نعمة باهتمام:أجيبلكماية؟
ليالي:لا أنا شربت تحت الحمدلله.
نعمة بضحك:سلامتك ياختي من الكوابيس.

مرت المشكلة دون أن يفتح ضايع الحديث فيها، وكأنها اختفت في أعماق الذاكرة، اندثرت بين الرمال وكأنها لم تكن. بعد أسبوع من تلك الأحداث، جاء اليوم الذي ينتظره زياد، أول أيام عمله في البنك. ارتدى البدلة السوداء التي تعكس الرسميات، وحمل حقيبته السوداء، ليبدو في أبهى صورة منضبطة على الرغم من طبيعته المرحة التي لا تفارقه. كان واقفًا أمام المرآة، يضع اللمسات الأخيرة على مظهره. بينما كانت "هايدي" في المطبخ، مشغولة بصنع صندوق الطعام في "اللانش بوكس"، وكأنها تُعد لطفل صغير يخوض أولى خطواته في الحضانة، ثم دخلت مسرعة إلى الغرفة لتعدل له الكرافتة، وضحكت في مرح، وقالت بحُب:

_كده حلو، مش بذمتك بعرف أعمل الكرافتة كويس؟

زياد بتتيُّم:أوي، تسلم إيديكي يا حبيبتي.

وقبل يداها، فنظرت "هايدي" إليه بابتسامة دافئة، ثم دخلت بسرعة إلى المطبخ لتجلب له صندوق الساندويشات. وعندما عادت، قدمت له الصندوق بكل عناية، وقالت له برقة:

_دي ساندويشات عشان لو جوعت وانت في الشغل!حاجة كده لحد ما ترجع وتلاقي الأكل جاهز.

زياد باستغراب:ياه يا هايدي، هو أنا رايح الحضانة يا بنتي؟ طب بذمتك الناس تقول عليا إيه؟ فاكر نفسه طفل في الحضانة؟
هايدي بإصرار:زياد! هتاخدها يعني هتاخدها! قولت إيه؟
زياد بضحك:حاضر، هو أنا أقدر أرفضلك طلب؟ يلا سلام.
هايدي بابتسامة:خلي بالك من نفسك، ها!
زياد بتبسم:حاضر وانتي كمان!

أرسل زياد لها قبلة في الهواء قبل أن يخرج من الشقة، بينما وقفت هايدي في البلاكونة تتابع خطواته بحرص حتى تأكدت من أنه ركب سيارة أوبر وانطلق. بعد أن دخلت الشقة وأوصدت باب البلاكونة، سمعت فجأة خبطات على الباب. فتحت لتجد جميلة واقفة أمامها، مرتدية ثياب العمل الرسمية، ومعها سيليا وأسيل.
ابتسمت "جميلة" بابتسامة دافئة وقالت:
_صباح الخير.

هايدي بابتسامة:صباح النور.
سيليا بلُطف:هاي يا عمتو.
هايدي بترحيب:أهلًا بيكي يا سيليا.

توقعت "هايدي" من هيئة جميلة أنها متجهة لعملها، فابتسمت وقالت بتخمين:
_شكلك رايحة الشغل يا جميلة.

جميلة باستعجال:أه فعلًا، قولت أسيب البنات عندك لحد ما أرجع.
هايدي باحتفاء:دول ينوروني بجد.
جميلة بامتنان:ميرسي يا حبيبتي.

أعطت "جميلة" لهايدي حقيبة أسيل التي تحوي جميع مستلزمات الطفل، ثم بدأت تشرح وهي تستخرج المحتويات واحدة تلو الأخرى:
_دول الـDiapers ولبس أسيل والببرونة والتتينة، لو احتاجتي أي حاجة هتلاقيها هنا! ومتخافيش مش هتأخر!

هايدي بابتسامة:لا أنا عايزاكي تتأخري عشان أقعد مع القمرات دول.

سلمت "جميلة" الحقيبة لهايدي، وهي تبدو مستعجلة، ثم قالت بضحك:
_ماشي يا هايدي خليكي عند كلامك بقى!

هايدي ببشاشة:تروحي وترجعي بألف سلامة.
جميلة بإعزاز:الله يسلمك يا روحي، يلا باي.
سيليا برقة:باي يا مامي.
هايدي ببسمة:باي يا جميلة، خدي بالك من نفسك!

طلبت جميلة المصعد الكهربائي، ثم ركبته ونزلت من العمارة، مُتجهة إلى سيارتها لتقودها نحو موقع القناة، حيث ستبدأ حلقتها الشيقة مع ضيوفها بعد غياب طويل دام لشهور. بينما أوصدت "هايدي" الباب بعناية، وضعت أسيل على الأريكة ثم جلست بجوار سيليا. نظرت إليها بحنان وسألتها:
_كلتوا بقى يا سيليا ولا لا؟

سيليا:مامي أكلت أسيل، لكن أنا مكلتش.
هايدي بترقب:طب أنا عاملالك مفاجأة!
سيليا بفضول:إيه هي؟
هايدي بسرور:جيبتلك الكورن فليكس اللي إنتي بتحبيه!
سيليا ببهجة:بجد يا عمتو؟ بجد؟
هايدي بتأكيد:طبعًا، قومي معايا علشان ناكل سوا!
سيليا بدهشة:انتي هتاكلي كورن فليكس معايا؟
هايدي بابتسامة:أه أصل بصراحة عجبني وطعمه حلو أوي.
سيليا بضحك:دي مفاجأة جميلة!
هايدي بحُب:مش هتكون أجمل منك! يلا بينا!

لم تنسَ هايدي مطلب سيليا في المرة الماضية، عندما طلبت منها الكورن فليكس. وفي زيارتها التالية للسوق، حرصت على أن تشتريه لها. عندما أخبرتها، سرّت سيليا بالمفاجأة، ونهضت سريعًا لتتبعها إلى المطبخ. هناك، استخرجت هايدي الحليب من المبرد وصبّته في الطبق، ثم أفرغت حبات الذرة فوقه بعناية، وسلّمته لسيليا بكل حُب. أما هي، ففضلت أن تأكله بالحليب الساخن. كانت هايدي أكثر من مجرد عمة، فهي الأم الاحتياطية التي تملأ الفراغ في غياب الأم الحقيقية.

يتبع....

الفصل الثالث والعشرون

كانت الأبواب مشرعة، حتى النوافذ منها كأنها تدعو الطبيعة لحلول بلا موعد، فكان نسيم الحقول ينساب إلى شقتها بلا استئذان، حاملًا معه عبق الأرض وحنين الزرع. وعلى الموقد، كانت المياه تغلي في القدر، تتراقص فيها حبات الجزر كأنها تعد وليمة لليوم المميز. في الصالة، وقفت أم الديب، مُنهمكة في تنظيف دارها التي غرقت في الأوساخ، التي هي أول من ساهم في تراكمها. هذا اليوم لم يكتسب فرادته من تحول أم الديب إلى صفوف الطاهرين، بل لأنه يوم خطبة صابر وبدرية. الأيام الماضية بعدما اشتروا الذهب ودفعوا لها المهر بسخاء، توجه محروس، والد العروس، إلى منزل عم سلامة، يعاين الشقة مع أخويها للتأكد من صلاحيتها. أعجبتهم الشقة بشدة، فكانت الموافقة سريعة، وبدأت التحضيرات تتوالى يومًا بعد يوم، استعدادًا للحفل المنتظر. رغم ذلك، لم يُوجه أحد من عائلة العريس دعوة لأم الديب، فهم يخشون شرورها ويريدون مرور الليلة بسلام، دون مفاجآت تعكر صفوها. بعد أن أتمت "أم الديب" مسح الأرضية بالماء، نهضت ببطء، ويداها تستندان إلى ظهرها المثقل بالألم. جلست على الأريكة، تستجمع أنفاسها، ووجهها يغمره العرق المتصبب كالشلال. بحشرجة التعب قالت:

_آه يا ضهري، بقى ست كبيرة في سني تنضف وتتمرمط والنسوان اللي في أول التلاتينات قاعدين حاطيين رجل على رجل؟ ماشي يا نعمة إنتي وليالي لما أشوفكم بس.

هبط حمود، يتبعه "جلال" الذي حمل على ملامحه صرامة اعتادتها الأيام، لكن لسانه اختار أن يتزين بالإحسان في تلك اللحظة. تقدم نحو أم الديب التي كانت مستندة على الأريكة، يطارد التعب ملامحها، وقال لها بنبرة حملت في طياتها رفقًا غير مألوف منه:

_صباحو ياما.

أم الديب بسخط:يا أهلًا ياخويا، بقى عاجبك اللي آني فيه دهو؟

جلال بتعجب:إيه اللي إنتي فيه؟

أم الديب بحنق:الحريم اللي في عز شبابها قاعدين مفخدين وآني اللي ست كبيرة محدش عاوز يشيل الحِمل من عليا؟

جلال بسخرية:انتي ماسكالنا ست كبيرة ست كبيرة، محسساني إنك داخلة على التمانين وماشية بالعكاز! ياما إنتي لسه في بداية الخمسينات، كبري نفوخك بقى!

حمود بإعانة:أنا هساعدك يا ستي!

أم الديب بصياح:اركح مش عاوزة حاجة من وشك!

عجبًا للأمر! ليالي، التي اعتادت جدران الحي على صدى صياحها، توبخ أطفالها المشاغبين بحدة لا تهدأ، غاب صوتها عن الآذان منذ ليلتين. شعرت "أم الديب" بفضول يتسرب إلى خاطرها كالماء المتسلل إلى الشقوق، فسألت بلهفة تغلفها الريبة:

_أمال مراتك فين يا جلال؟ بقالي كام يوم لا سامعالها حِس ولا خبر.

جلال:ليالي بايتة عند أبوها من إمبارح ماهو أصل النهارده شبكة أخوها صابر.
أم الديب بمكر:قول كده بقى، استنى هديك ورقه تكتبلي فيها شوية طلبات تجيبهملي!
جلال باعتراض:ياما أنا رايح الشغل وهعدي على عم سلامة، إيه اللي هيوديني شرق في غرب؟

أم الديب بحدة:اسمع اللي بقولك عليه!
جلال باستعجال:طيب ياما بس على السريع!

شعرت "أم الديب" بغصة تتسع في صدرها، حين علمت أن ليالي تنعم براحة البال في دار أهلها، تاركة حماتها تكابد تنظيف الدار وحيدة، دون كلمة عون. زاد الطين بلة عندما تفاجأت بخبر شبكة صابر، التي لم يكلّف أحد نفسه أن يشاركها تفاصيلها أو يدعوها لحضورها. اجتاحها إحساس بالمهانة، كأنها ظلٌ في حياة الآخرين، لا قيمة لها. في خضم هذا الشعور الجارح، نبتت في قلبها نوايا خبيثة، كالسم ينضح في وعاء مغلق. قررت أن تصنع سحرًا يُحوّل فرحة صابر إلى مأساة دامية. بخطى متوترة، اتجهت إلى غرفتها، فتحت صندوقها الصغير وأخرجت المال، والورقة، والقلم، ثم عادت إلى جلال، وقد علت ملامحها سحنة شريرة. سلمته ما في يدها وقالت بنبرة تحمل مكرًا دفينًا:
_هتعدي على الجزار تجيبلي منه عضمة اللوح بس يسيبهالي سليمة، وقماشة قطن وتقول للجزار يجيبلي شوية دم.

جلال بحصافة:هي مش عضمة الزفت دي اللي بيعملوا بيها الأعمال ياما؟
أم الديب بتلعثم:لا لا يا ولا... ده...ده آني...
جلال بجلبة:هو إنتي ياما مفيش فايدة فيكي؟ طب وربنا مانا قاعدلك، سلام ياما، قال عضمة اللوح قال.

التقط جلال الخطة الخبيثة التي نسجتها أم الديب كمن يصطاد سهمًا طائشًا في الهواء، وكانت نظراته تفيض قسوة. لم يمنحها فرصة للتمادي أو تنفيذ مآربها، بل قاطعها بصرامة، ثم استدار وخرج هو وحمود، تاركين الشقة خلفهما كأنها سجن يهربان منه. أما "أم الديب"، التي اشتعلت غيظًا من اعتراضه الصارم، وقفت عند عتبة الشقة، تصرخ بوعيد غاضب، قائلة:
_ماشي يا جلال، مانت عارف كل حاجة أهو، بس ماشي ياخويا ده آني هوريكم اللي عمركم ما شوفتوه، بقى مراتك رايحة تتسنكح عند أهلها وآني هناهو قاعدة أنضف؟ ده آني هخليكوا تلفوا حوالين نفسكم بس أصبروا!

تربع أحمد في مكتبه الفخم، يحيط به هدوء القناة التي تعكس سلطته كمديرًا لها، حتى قطع هذا السكون صوت طرقات على الباب. بعد توقيعه على الأوراق التي قدمها له الموظف بابتسامة دافئة، عاد إلى عمله منتظرًا ضيفه المرتقب، رئيس قناة "الحر"، وبعد لحظات، دخلت جميلة، يظهر على وجهها التفاني الممزوجة بتوتر طفيف، إذ لم تتمكن بعد من قراءة نص الحلقة التي لم يتبقَ على موعدها سوى بضع دقائق.

اقترحت أنها ستأخذ نص الحلقة إلى الاستوديو لتقرأه هناك، قبل أن تترك مكتب أحمد بابتسامة خفيفة. في الاستوديو، جلست "جميلة" مُسرعة تتصفح النص، مستغلة كل ثانية متاحة قبل انطلاق البث. ومع اقتراب الموعد، تبادل المخرج التحية معها بملامح تنبض بالثقة في استعدادها. كان الفريق حولها منشغلًا بآخر التجهيزات، وكل واحد منهم يحمل عبء الوقت الضيق على كتفيه. وحينما بدأ التصوير، وخرجت للبث المباشر أعدلت جلستها وقالت بلباقة:

_صباح الخير، عاملين إيه؟ أتمنى تكونوا بخير، طلعنالكم النهارده من برنامج "زحمة طريق" والنهارده بالأخص هنتكلم عن زحمة الحياة اللي كلنا بنتوه ونسرح فيها وسط مشاكلنا وأشغالنا وحياتنا. على العموم بس خلونا قبل ما نبدأ، ندخل على الفقرة الجوية وكمان هنستضيف "عالمة الأبراج والفلك" دينا متولي.

كانت جميلة، كعادتها، تتلألأ في حديثها مع جمهورها، تجمعهم حولها كالفراش حول الضوء. لم يكن المشاهدون يلتفون حول شاشاتهم من أجل الأخبار أو الفقرات المعروضة، بل لجمالها الآسر الذي لا يخطئه بصر، وجاذبيتها التي تتملك القلوب بلا استئذان. أما في منزل عم سلامة، فقد عمّت أجواء التحضير. كل زاوية في المنزل تشهد حركة وتهيئة لاستقبال يوم خطبة صابر، حيث تضج الحياة في كل ركن. في غرفة النوم، كانت ابنة هبة غارقة في نومها وسط الظلام، بينما تقى تلهو بدراجتها البلاستيكية في المدخل الواسع، وداخل المطبخ، كانت النساء أشبه بخلية نحل. جلست تباهي على الأرض، محاطة بابنتيها هبة وليالي، يحضرن غداءً بسيطًا للضيوف القادمين. كانت ليالي تقطع البطاطا والبصل بخفة، وهبة تجهز الطماطم لتضربها في الخلاط، بينما انشغلت تباهي بسكب حساء الدجاج الساخن فوق طبقات الرقاق في وعاء كبير، تمهيدًا لصنع صينية رقاق باللحم المفروم. المطبخ يعج بالزحام، أصوات الأواني تختلط مع ضحكات متقطعة ونقر السكاكين على اللوح. رفعت "تباهي" بصرها إلى بناتها، تأملتهن بعينين تشعان حبًا، وقالت بنبرة راضية مشوبة بالحنان:

_متكتروش يا بنات! ده هو اتنين من عمامكم وخالاتكم وإجوازهم وعيالهم اللي هيجوا عندنا، عشان بس باقي الأكل ميترميش!

هبة بتعجب:وكان لازمته إيه نعمل احنا أكل؟ ما كده كده الأكل على أهل العروسة.
تباهي بتَوجيه:وهما لما يجوا بدري ويفضلوا قاعدين لحد آخر اليوم هنأكلهم إيه؟ طوب؟ أهي تصبيرة لحد ما نوصل للعروسة.
ليالي باقتناع:أمي عندها حق وبعدين احنا الحمدلله بيت أبويا بيت كرم طول عمره، سواء في خطوبة ولا فرح، أهو دايمًا عمران بالخير.
تباهي:الحمدلله ربنا يديمها فضل ونعمة من عنده.

هبة بفضول:أه صحيح، نعمة جاية امتى؟
ليالي:نعمة هتيجي على المغربية كده.

هبة باهتمام:طيب، وهتنقلوا حاجتكم امتى؟
ليالي:بإذن الله بكرا، بيني وبينك أنا كنت هموت وآخد الشقة التانية بس يلا الحمدلله، الشقة اللي جيبناها مش وحشة برضة.

هبة بابتسامة:لا دي واسعة وحلوة وقريبة من مدرسة العيال، لكن التانية بعيدة أوي يا ليالي، ده انتوا كده كنتوا هتنقلوا مدارسهم وهتلاقي المدارس هناك أغلى من هنا.
ليالي برضى:بيني وبينك أنا فكرت لقيت إن المدارس غالية، وجلال مش هيقدر على تمنها... هو أصلًا ياختي من النوع السلبي، هو مش فارقله أساسًا، المهم ياكل وينام وطلباته تجيله لحد عنده.
هبة بصدمة:يا نهار، لما المدارس الحكومية غالية، أمال الخاصة بقى تعملها كام؟
ليالي بشَظَف:ياه متعديش! هو احنا بتوع مدارس خاصة؟ وبعدين لا أنا ولا جلال هنعرف نذاكرلهم، احنا دبلومات ياختي.
هبة بتمني:فيها إيه لو كنتي كملتي علامك زيي؟ مش كان زمانك موظفة ومعاكي فلوس؟
ليالي:وحياتك حتى لو كنت كملته ما كان جلال سابني أشتغل، مانتي متعرفيهوش!

كانت هبة، المتألقة بعلمها، قد حصلت على شهادة البكالوريوس، ومنذ عامين تعمل كمعلمة في مدرسة القرية، التي تجمع بين جدرانها حمود وتقى ومحمد. تنشغل هبة بين وظيفتها والدروس الخصوصية، مما يمنحها دخلًا جيدًا يعينها على حياتها. أما ليالي، فاكتفت بشهادة التعليم الفني، وعلى الرغم من طموحها، فإنها تعلم يقينًا أن جلال لن يسمح لها بالعمل خارج المنزل مهما بلغت شهاداتها. واصلت الأختان إعداد الطعام بنشاط، وهنّ يترقبن قدوم الأقارب، بينما في الخارج كانت نعمة تشق طريقها نحو منزل عم سلامة، مُصحوبة بأطفالها، عازمة على مساعدة النساء في التحضيرات. لكن أثناء مرورها بجوار شقة أم الديب، شعرت بحاجة للمرور عليها، ففتحت الباب لتُفاجأ بمشهد أم الديب ملقاة على الأرض، تغفو في إنهاك واضح بعد أن أنهت تنظيف الشقة برمتها دون أن تمتد إليها يدٌ بالعون. هرعت "نعمة" نحوها، وقد ارتسم القلق على وجهها، وانحنت إليها، تهزها بخفة وهي تسأل بصوت يحمل جزعًا صادقًا:
_مالك ياما مرمية على الأرض كده ليه؟

أم الديب بإرهاق:اتكسحت ياختي وجيبت أخري وانتي وقاعدة فوق ولا على بالك.
نعمة بخجل:معلش ياما غصب عني، ده عمر مبهدلني، هو بيبطل عياط ولا بيفصل أبدًا؟

رفعت "نعمة" والدتها بعناية، وذراعاها يلتفان حولها كأنها تحميها من قسوة الأرض. أجلستها على الأريكة برفق، وجلست بجانبها، تتأمل وجهها الذي أنهكه العمل الشاق.، ثم قالت لها بأسف يمتزج بعاطفة صادقة:
_طب والله ياما، أنا ما عارفة أشوف نفسي، أصحى من النوم ألاقيلك حامد واقف فوق دماغي!

أم الديب بصياح:ايهي واقف فوق دماغك ليه يا بت الكلـ*؟ سايب أرض الله الواسعة وملقاش غير دماغك انتي؟
نعمة بتبرُّم:مش القصد ياما، أنا أقصد إنه عايز طلباته تتنفذ، عايز أكله يتعمل، ولازم يفطر قبل ما ينزل، وبدل المرة مليون أقوله مانت كده كده عندك عربية كبدة، ما تفطر عليها وتريحني! يقولي الكبدة والسجق يتعبوني على الصبح لو كلتهم على معدة فاضية، آجي قايمة ياما وعاملاله فطاره... يا دوب أخلص من هنا مبلحقش آكل اللقمة ألاقي الواد في الحمام بيعيط " ياما تعالي شطفيني" أجري عليه جوا وأطلع وأنا جايلي كَرشة نفس وهاين عليا أقطع إيدي أرميها في قلب الزبالة، وأتنيل أقعد آكل ألاقي الواد جوا بيعيط، آجي رايحة أسكته، أسكتي ياما أنا هحكيلك إيه ولا إيه؟ ده موال ما يعلم بيه إلا ربنا.

أم الديب بشفقة:الله يكون في عونك يا بت، طب كل ده عشان عيالك لسه صغيرين، لكن المخفيه مرات أخوكي عيالها أكبر شوية ويعرفوا يخدموا نفسهم.
نعمة بتعاسة:لا، دول صغيرين ولا بيعرفوا يحركوا معلقة! إنتي بتتكلمي في إيه بس؟ المهم أنا قولت أعدي أطمن عليكي قبل ما أنزل.
أم الديب بتطفل:رايحة فين يا نعمة؟
نعمة:رايحة عند ليالي، هي الصراحة قالتلي خليكي للمغرب قولتلها لا أنا هاجي وهحضر معاكم اليوم من أوله، ده ياما ليالي وقفت جنبنا، نقوم احنا نسيبها في يوم زي ده؟
أم الديب بصخب:إيه يا بت الكلـ*؟ ليه كانت هي اللي هتتجوز ولا أخوها؟ قال إيه ليالي ياما وقفت جنبنا، وقفت جنبنا فين يا بت؟ ولا تقصدي لما كانت بتقف عشان تتصنت علينا؟
نعمة بدهشة:برضة ياما؟ ربنا يهديكي، هقول إيه طيب ماهو في الأول والآخر إنتي أمي! يلا ياما فوتك بعافية.

كانت أم الديب تغلي كالمرجل، حقدها على ليالي وأسرتها يتصاعد كنار لا تخبو، يعمي بصيرتها ويأسر لسانها حتى عن ذكر أسمائهم. جلست في مكانها، تلتهمها نيران الغيظ، تلوك أفكارها السوداء دون أن تجد راحة. نهضت نعمة، تحتضن طفلها عمر بين ذراعيها، وقد قررت مغادرة هذا الجو المشحون الذي يثقل الروح مع محمد. ألقت نظرة أخيرة على والدتها، لكن الكلمات علقت في حلقها، ثم غادرت، تاركة أم الديب تواجه ظلام قلبها بمفردها. بعد أن نزلت وخرجت من المنزل، كانت تسير في الطريق ذاهبة إلى منزل عم سلامة، عندما ظهر "المعلم حنفي" فجأة في طريقها. كان يحمل في عينيه اهتمامًا حقيقيًا، وسألها بنبرة ودودة:
_رايحة فين يا نعمة؟

نعمة:رايحة عند عيلة الحاج سلامة يابا، أبقى تعالى بالليل احنا مستنينك.
المعلم حنفي بخوف:ماشي، خدي بالك من نفسك إنتي والعيال!
نعمة بابتسامة:حاضر.

محمد ببسمة:سلام يا جدي.
المعلم حنفي بحنان:مع السلامة.

غادرت نعمة مع أطفالها، وبينما كانوا في الطريق، لفتت أنظارهم توك توك يمر بجانبهم، فأشاروا إليه فركبوا فيه مُتجهين إلى قرية مصيلحي، حيث يقيم عم سلامة، وهي لا تبعد سوى خمس دقائق عن قرية أبو حلاوة. في تلك الأثناء، صعد المعلم حنفي إلى منزل أم الديب، ودخل الشقة. بمجرد أن رأته أم الديب، تغيرت ملامح وجهها، فبدت عبوسة كأنما رأت جنيًا يطاردها، فاجتمعت على شفتيها كلمات كالمسمار، فقال لها "المعلم حنفي" بحنق:
_جاتك الهم في منظرك.

أم الديب بغلاظة:جاي هناهو تهبب إيه؟
المعلم حنفي بعجيج:جرا إيه يا ولية؟ هو إنتي خلاص خدتي على مبياتي في الزريبة تحت؟ آني جاي في بيتي!
أم الديب بشكاسة:دار مين يا أبو دار؟ الدار دهو داري، إنت هناهو مالكش حاجة!
المعلم حنفي باستهزاء:ومين قالك يا ولية إنه بيتك؟ البيت ده بتاعي! أصل آني ضربتك على قفاكي كف، أستاهل عليه مية بوسة، الورقة اللي معاكي دي تبليها وتشربي مايتها، عارفة ليه؟ لأنها مزورة!

عادت صحة "أم الديب" إليها تدريجيًا بعدما كانت في حالة لا تستطيع فيها الحركة أو التنفس، فانتفضت فجأة، وقفزت على المعلم حنفي بكل ثقلها، حتى أصبحت سيقانها تضغط على فخذيه وهو يعول في محاولات للابتعاد. كانت يداها تلتفان حول عنقه، وكأنها تخنقه بعزم جارف، كأنها تلبسه قيدًا لا مهرب منه. كانت حالتها أشبه بمخلوق تلبسه جانٌ، ويجعله في حالة لا تُحتمل. ثم، وهي تفرغ كل ما في قلبها من حقد، قالت له بنواح مُر:
_بتضحك عليا يا حنفي وتشتغلني؟ ده إنت سنة أبوك سودة!

المعلم حنفي بصخب:وطي صوتك ولمي نفسك! واتعودي على كده من دلوقتي عشان لما الجيران الجداد يوصلوا بألف سلامة، تعرفي تعامليهم المعاملة الصح!
أم الديب بغِلظة:جيران جداد مين؟ انطق يابن الكلـ* يا خاين!
المعلم حنفي بفرح:أم الفار، مانتي متعرفيهاش بس لو تعرفيها هتعرفي إنها ولية فتوة زيك، وانتوا الإتنين اللي هتنفعوا مع بعض، هي دي اللي هترجع حقنا تالت ومتلت!
أم الديب بإعوال:يا خرابي بيعت دارنا يا حنفي؟ يا لهوي يا لهوي، ده آني هوريك اللي عمرك ما شوفته يابن الكلـ* يا واطي!

تشبثت أم الديب بـ"المعلم حنفي" بكل قوتها، وهي لا تريد له أن يهرب من بين يديها، ثم وطأته بسيقانها في مناطق شديدة الحساسية، حيث الألم يتجاوز الحد الطبيعي. لم يستطع المعلم حنفي تحمل تلك المعاملة القاسية، فسقط على الأرض يئن كنساء في ساعة ضعفهن، وقواه قد سُلبت منه. نظر إليها بعينيه المملوءتين بالدموع التي كادت تنهمر، وقال بنواح:

_كله إلا ده يا بت الكلـ*، آه!

انخفضت أم الديب نحو "المعلم حنفي"، وفي لحظة جنون، انهالت عليه ضربًا بالأقلام. لكنه نهض، وبدون تردد، قذفها على الأرض بعنف، فاستمر في ضربها بقسوة، لا يرحمها حتى سقطت مغشيًا عليها. حينما انتهى من ضربها، وقف فوقها، وأنفاسه ثقيلة، ثم بصق عليها بكراهية تُذيب الحجر، وقال بشراسة:

_اتفوه عليكي ولية مزنخة، داهية لما تاخدك.

بينما كانت الذكريات تنهش قلبه، تذكر خواطر التي غادرت الحياة فجأة، تاركة وراءها أم الديب كظل ثقيل، كقدر أسود يلاحقه بلا رحمة، لا يفر منه إلا إذا أخذ روحه معها. ارتسمت على وجهه الحسرة، وكأن الزمن قد سرق منه جزءًا من نفسه، فقال بصوت مبحوح:

_ربنا يحرقك في تربتك يا حماتي مطرح مانتي نايمة، إنتي اللي بليتيني بيها، اتفوه عليكم عيلة سَو!

خرج المعلم حنفي من الشقة، وصك الباب خلفه بالمفتاح، تاركًا أم الديب في غيبوبتها، غارقة في سكون مرير. ثم اتجه نحو منزل عم سلامة، حيث أراد أن يشاركهم يومهم السعيد، عسى أن يمحو ذكريات الماضي ويغسل قلبه من أوجاعه. فقد كان المنزل خاليًا تمامًا من البشر، ولا همسة صوت تغمره كما هو الحال عادة. أما في تلك اللحظة، كانت حلقة جميلة على شاشة التلفاز قد انتهت، وقد أبهرت الجميع بأدائها الرائع، وأعجب أحمد بشدة بما قدمته، وأصبح أكثر يقينًا بأنها تستحق مكانة مذيعة متميزة. بعد أن أنهت حلقتها، توجهت إلى مكتبه، وجلست بهدوء، واضعة ساقًا فوق الأخرى في استرخاء أنيق. نهض "أحمد" وجلس أمامها على الكرسي، ثم تشبث بيدها بفخر، وقال بسعادة لا تُخفى:

_برافو عليكي يا جميلة، حلقة النهارده كانت حلوة جدًا وكل يوم في تحسن عن اللي قبله.

جميلة برقة:ميرسي يا حياتي، حتى جمهوري بيقولي نفس الكلام، أنا بجد محتارة في حلقة بكرا، مش عارفة هعمل فيها إيه خصوصًا لما عرفت إن أنا لازم أستضيف دجال! أنا بجد مش بقتنع بالكلام ده خالص ولا بقدر أصدقه.

أحمد بصدمة:دجال؟ دجال إيه؟ يعني إيه الإعداد يخلونا نعمل لقاء تليفزيوني مع دجال؟ دول أكيد اتجننوا! حلقة بكرا لازم تتغير وأنا مش هسمح بحاجة زي دي تحصل عندنا في القناة!

رفع "أحمد" سماعة الهاتف، وبدت ملامح الحنق تتسلل إلى وجهه بينما كان يتصل بالإعداد، عازمًا على أن يواجههم بما يعتمل في صدره من استياء. بعد أن كانت حلقات البرنامج تشرق بأدائها المتميز، صارت اليوم تغرق في مستنقع الدجل والشعوذة، وتتحول إلى مسرح للسحرة والمشعوذين. لم يستطع كبح غضبه، فاندفع بكلمات حادة، وصوته يعلو في صياح ساخط وهو يقول للمدير:

_ألو، ألو يا وجدي، دجال إيه اللي عايزين تستضيفوه بكرا في البرنامج؟ انتوا مجانين صح؟.... أيوه اللي هو ازاي؟ واحنا من امتى بنجيب الأشكال دي في البرنامج؟...ما يتحرق التريند! هو عشان شوية ريتش نودي نفسنا في ستين مصيبة؟ إنت عارف ممكن إيه اللي يجرالنا بعد الحلقة دي؟.....أنا مش عايز نص كلمة! أنا هنا مدير القناة وأنا اللي أقرر، مش معنى إن الضيوف بيجوا على مزاجكم يبقى متكلمش! فاهم أنا قولت إيه؟....طيب خلاص...مع السلامة.

ظل الحوار يتصاعد، بينما كان مدير الإعداد يرد بتردد، يعجز عن إيجاد الكلمات المناسبة لمواجهة غضب أحمد. ومع مرور الوقت، استمع المدير لحديثه بعناية، ثم قرر تنفيذ ما قاله أحمد، متوجهًا بفريق الإعداد لإجراء التغيير اللازم، وابتكار فكرة حلقة جديدة تكون منطقية وجاذبة للجمهور، بعيدًا عن السخافات التي انزلقت إليها الفكرة السابقة. وضع "أحمد" سماعة الهاتف بعنف، وقال باحتجاج:
_أنا متهيئلي فريق الإعداد ده لازم يتغير، دي رابع مرة يجيبوا حاجات غريبة بالشكل ده.

جميلة بهدوء:أوكي يا بيبى خلاص، مفيش حاجة حصلت، يمكن سوء تفاهم وخلاص هيتحل!
أحمد بتضايق:دي مش أول مرة يا جميلة! على العموم هما هيغيروا حلقة بكرا مع إن مش عارف هتلحقي تجهزيلها ولا لا.
جميلة بابتسامة:هتكون هايلة زي حلقة النهارده.
أحمد بثقة:ده أكيد مع إنك مكنتيش مجهزة للحلقة، بس أنا واثق إنك تقدري تعملي أي حاجة، المهم بقى، ليه مجهزتيش الحلقة إمبارح؟
جميلة باستياء:قعدنا إمبارح نتكلم أنا وسارة، كانت بتشتكيلي من قمر الدين لأ وكمان بتعيط!
أحمد بفزع:ياه، دول لسه متجوزين من يومين! لحقوا يحصل مواقف بالسرعة دي؟ أكيد المشكلة كبيرة جدًا.

جميلة بتأثر:طبعًا كبيرة! تخيل قمر الدين وداها أوتيل بـ ٥٠٠ دولار في الليلة بدل ألف زي ما كانوا متفقين؟ سارة بجد اتصدمت جدًا وحاسة إن قمر الدين كدب عليها، وأنا طول الليل أقنعها إن أكيد في سوء تفاهم، وقولتلها إن قمر الدين بيحبها ولا يمكن يكون قصده يجرحها!

مشاكل الأغنياء، كما يراها أحمد، كانت تبدو عجيبة، تعبيرات تتقلب بين الترف والضياع، وهو كان عاجزًا عن تحملها. فظل صامتًا، كأن لسانه قد اقتلع من مكانه، لا يجيب ولا يتحرك، غارقًا في أفكاره. كانت "جميلة" تراقب حالة الصمت التي غلفت المكتب، فحركت يديها أمام عينيه، محاولة استعادة انتباهه وإعادته إلى الواقع، وقالت بدهشة، وهي تحاول أن تُثير فيه وعيه من جديد:
_روحت فين؟ إنت متخيل حجم المشكلة؟

أحمد بتهكم:هي مشكلة كبيرة فعلًا، ربنا يعينهم عليها.

جميلة بتمني:يارب.

ثم نظرت إلى الجدار، وكأنها تخاطب قمر الدين الذي غاب عنها، والتزمت صمتًا طويلًا، قبل أن تنفجر باستياء، وتقول:

_يا حبيبي يا قمر الدين.

بعد أن أنهت تباهي وابنتاها تحضير الطعام، تم تقديم الأطباق إلى الأقارب في المنزل، وجلس الجميع لتناول الوجبة في جو من الألفة. تناولوا الطعام بتأنٍ، ثم بدأوا في تنظيف الأطباق المُتسخة، وأعادوا ترتيب كل شيء كما كان في البداية. احتفظت تباهي ببقية الطعام في الثلاجة لتخزينه للاستفادة منه لاحقًا. وبينما كانت الأجواء تعج بالتحضيرات، بدأ كل فرد من أفراد الأسرة يرتدي ثيابه استعدادًا للذهاب إلى منزل العروس. بعد حوالي ساعة، وصلت سيارة ميكروباص كبيرة، حملت العديد من الأقارب، وركبت فيها تباهي وابنتاها وحفدتها مع عم سلامة وأخواته. تبعتها سيارتان أخريان، مملوءتان ببقية الأقارب، وكانت الأجواء مغمورة بأغاني المهرجانات والزغاريد التي تعكس البهجة. أما صابر، فقد اختار أن يرتدي بنطالًا أسود وقميصًا أزرق، وصعد مع أصدقائه الشباب إلى سيارة أخرى، وهم يتوجهون جميعًا نحو منزل العروس. كان الطريق طويل، لكن في النهاية وصلوا إلى قرية المقتول. في ساحة المنزل، كان أقارب العروس يتجولون ويصافحون أهل العريس وسط الزغاريد العالية التي غمرت الحي. دخلت النساء إلى مكان مخصص لهن، بينما تفرق الرجال إلى مكان آخر، وبدأوا في المعانقة والمصافحة معًا. وسط هذا الحشد من المحبين، عانقت ليالي زينات، فقالت "تباهي" بسعادة:

_دي ليالي بتي الكبيرة، وده جلال جوزها!

زينات بسرور:يا مرحب... بتك شبهك بالظبط سبحان الخالق وبتك التانية كمان شبهك، واخدين منك أوي.
تباهي بضحك:أيوه احنا التلاتة فينا شبه من بعض.
زينات بقهقهة:انتوا التلاتة سكر زيادة.
ليالي بابتسامة:ربنا يخليكي يا أم العروسة.

بعدما تبادل الرجال التحايا، وسلموا على بعضهم البعض، جلس جلال بجوار عم سلامة وأشرف، فكانت أجواء الجلسة مليئة بالحديث عن الاحتفالات. كان عم سلامة يتأمل الحضور بعيون مليئة بالفخر، وأخذ يتفاخر بنبرة ملؤها التباهي، مستعرضًا حال العائلة وما وصلوا إليه من مكانة وثراء. قال "عم سلامة" وهو يصف ثراء أهل العروس:

_شايف البيت يا جلال؟ ناس أكابر في العالي.

جلال بضحك:ضحكتني يا عم سلامة ماهو أصلك مشوفتش نسايب أخويا عاملين ازاي! ده إنت لو شوفت التانيين هتقول إن دول خدامين جنبهم.
عم سلامة:ياخويا كل حلة وليها غطاها، وكل واحد ياخد اللي يشبهله.

أشرف بارتياح:لا بس ناس محترمة وولاد حلال.
عم سلامة بغبطة:أوي الله يباركلهم.

حضر أبو محمد برفقة المعلم حنفي، وقدما معًا نحو عم سلامة، واحتضنوه بحرارة، مشاركونه فرحة هذا اليوم المميز. حيث تبادلت الأيدي المصافحة والعناق في جو من الود. ثم قال "المعلم حنفي" بسرور، وهو يربت بيده على ظهر عم سلامة:
_مبروك يا عم سلامة، عقبال الليلة الكبيرة.

عم سلامة بتبسم:الله يبارك فيك يا حاج.

عانق "أبو محمد" عم سلامة بحرارة، وعيناه تلمعان بالفخر، ثم قال له بمباركة:
_مبروك لولدنا الغالي، ربنا يهنيه ويسعده.

عم سلامة ببسمة:اللهم آمين، أقعدوا ارتاحوا!

جلس المعلم حنفي وأبو محمد بجوار "عم سلامة"، وأخذوا يشاركونه اللحظات المليئة بالحيوية. لكن عم سلامة، الذي كان يحمل همًا في قلبه، بدا مترددًا للحظة قبل أن يتحدث. ثم نظر إليهم بخجل وقال بصوت منخفض، متفاديًا النظر في عيونهم:
_كان على عينا نعزم الحاجة بس انتوا عارفين اللي هيجرا!

المعلم حنفي بغضب:الولية متلقحة على الأرض في الصالة!
جلال بقلق:ازاي يابا؟
المعلم حنفي ببغضاء:إديتها علقة موت، دي ولية لسانها زفر وقليلة الأدب! يارب أسمع خبرك قريب يا بسمة.
جلال بخرع:إيه اللي حصل بس يابا؟
المعلم حنفي بصياح:أول ما عرفت إن العقد بإسمي راحت ناطة وماسكة في زمارة رقبتي وهاتك يا ضرب، أسيب حقي؟ لا مسيبوش، روحت ضاربها لحد ما اترميت على الأرض وقفلت عليها بالمفتاح! ياكش أرجع ألاقيها ميتة وأرتاح منها.

أبو محمد باعتراض:لا حول ولا قوة إلا بالله، هي الدنيا مستاهلة كل اللي بيحصل بينكم ده؟ ده انتوا ناس كُبارة، ورزينة، وعندكم أحفاد ما شاءالله عليهم.
المعلم حنفي بغيظ:هي اللي بدأت يبقى هي اللي تستحمل!

تجمع أقارب عم سلامة حوله ليقدموا له التهاني، وتبادلوا بينهم كلمات المزاح، حيث عمّت البهجة أجواء اللقاء، واختلطت ضحكات الأقارب بأصوات الزغاريد المليئة بالحماس. بينما في مكان آخر، أنهت هايدي تجهيز الغداء، حيث عادت جميلة وأحمد مُرهقين بعد يوم طويل من العمل. بدى التعب واضح على جميلة التي تتوق إلى بعض الراحة، بينما أحمد كان يشغله حال ابنته الصغيرة سيليا التي كانت تغط في نومها الغائر. حاول أحمد الاطمئنان عليها، لكن هايدي أقنعته بألا يزعجها وأن يتركها تستريح دون إزعاج. سألت هايدي إن كان أحمد وجميلة قد تناولا الطعام، وحين علمت أنهما لم يأكلا بعد بسبب انشغالهما في العمل، دعتهم للجلوس والاستمتاع بوجبة طعام أعدّتها خصيصًا لهم، فتبعوها إلى الداخل، حيث تطلعت "جميلة" إلى الأطباق باعتراض، وقالت:
_إيه يا بنتي ده؟ مانتي عارفة إن أنا ماليش في الأكل ده خالص.

هايدي بإصرار:جربي مش هتخسري حاجة! وبعدين ده الأكل اللي احنا اتربينا عليه مش أكل التيك اواي بتاع دلوقتي!
جميلة برفض:لا لا ميرسي يا روحي، انا متعودتش على الأكل ده ولا هقدر أكله، أنا هطلب دليفري.

لم تنل الأكلات التقليدية التي يعتاد عليها أغلب المصريين إعجاب "جميلة"، مثل صينية البطاطس بالدجاج، فتململ مزاجها وتبددت شهية الطعام. فقررت أن تتناول الدجاج المقرمش مع سلطة الكول سلو من إحدى المطاعم العالمية الشهيرة. قبل أن تجري اتصالًا لتطلب الطعام، نظرت إلى أحمد وسألته برفق، محاولة أن تشاركه في اختياراتها، قائلة:
_أحمد أطلبلك فرايد تشيكن معايا؟

أحمد بابتسامة:مش نعرف الأول إيه اللي مزعلك من أكل هايدي؟

ذهب "أحمد" نحو الصينية ليكتشف ما يخبئه محتواها. كانت رائحة البطاطا بالصلصة تعبق في الهواء، شهية ومُغرية، فذكّرته تلك الرائحة بأيام الطفولة البعيدة حينما كانت الخالة تصنع لهم هذا الطاجن وتُرسله إليهم بكل حُب. لكن، على الرغم من تلك الذكريات الجميلة التي أثارتها الرائحة، فإن أم الديب كانت قد صنعت له ذكريات أليمة لا تمحى، وملأ قلبه بمشاعر متناقضة. قال بانبهار، وهو يسترجع تلك اللحظات:
_يا سلام هو ده الأكل اللي أنا اتربيت عليه!
ثم أردف لهايدي بابتسامة رقيقة، محاولًا أن يخفف من أثر الكلمات، وهو يجبر خاطرها بلُطف قائلًا:
_بقولك إيه يا هايدي، اعملي حسابي معاكي على ما أغسل إيدي، ولا أقولك نستنى زياد لما يرجع وناكل مع بعض!

هايدي ببسمة:خلاص ماشي، هو كده كده لسه مكلمني وقالي إنه جاي في الطريق، المفروض إنه مخلص شغل من بدري، مش عارفة راح فين بعد الشغل!
أحمد بمزاح:مش يمكن رايح يقابل واحدة؟
هايدي بمرح:ميقدرش أنا مالية عينيه الحمدلله.
أحمد بضحك:ولو فكر بس، أنا هفرمهولك!
هايدي بِافترار:لا يا سيدي متخافش!
أحمد بابتسامة:طب أنا هروح أبص على البنات.

دخل أحمد الغرفة بهدوء، وكانت سيليا وأسيل نائمتين بجانب بعض على نفس السرير. اقترب من أسيل أولًا، وقبَّلها برفق، ثم توجه نحو سيليا وقبَّلها أيضًا. استفاقت "سيليا" من نومها، وفتحت عينيها لتجد والدها أمامها، فنهضت فورًا وألصقت نفسها بعنقه، تشبثت به بكل قوتها بأيدها الرقيقتين. قالت له بدلال الابنة، بينما كان هو يتحسس جبينها بحنو:
_بابي إنت جيت؟

أحمد بحنو:طبعًا يا حبيبتي، إنتي نايمة من بدري؟
سيليا بخفة:أه عمتو نيمتني أنا وأسيل وحكيتلنا حدوتة.
أحمد بتحنُّن:حكيتلكم إيه بقى؟

نهضت "سيليا" من على السرير بخفة، بينما جلس أحمد على حافة السرير، مستمتعًا بالهدوء. استمع بكل اهتمام لحكايات ابنته الشيقة، التي كانت تتحدث عن عالمها الخاص ببراءة. قالت سيليا وهي تحكي له قصة "روبنزل" بصوت خافت، لم يزعج نوم أسيل التي كانت غارقة في سباتها، ولم تلتفت إلى ما تقوله أختها. كانت سيليا تروي القصة بكل تفاصيلها، قائلة:
_هحكيلك، كان في أميرة شعرها طويل أوي اسمها روبانزل، كان شعرها لونه جولد وكل الناس معجبة بيه أوي.....
ضحك أحمد وهو يستمتع بحكايات ابنته، تلك اللحظات التي تجعل الزمن يتوقف في نظره، فكل كلمة تخرج من فمها كانت تغمر قلبه بالسرور. تأخر "زياد" في الوصول، لكن تأخيره لم يكن عبثًا، بل كان وراءه سبب يشرح القلوب ويملؤها بالأمل. فقبل أن يبدأ أي شيء، اتصل بهايدي وهو في قمة سعادته، وقال:
_ألو يا حبيبتي، أنا واقفلك تحت، انزليلي!

هايدي بإحراج:بس يا زياد مش هينفع، أصل أحمد وجميلة عندنا ومش هينفع أسيبهم وأنزل!
زياد بإلحاح:قوليلهم إنك مش هتتأخري، ممكن؟
هايدي:حاضر، باي.

أغلقت هايدي المكالمة بهدوء، ثم توجهت نحو جميلة التي كانت جالسة على الأريكة، ممسكة بهاتفها، غارقة في البحث بين قائمة الطعام، كأنها تختار بعناية ما سيُطلب. اقتربت منها "هايدي" بخجل، وبشعور من التردد، قالت لها:

_أنا هنزل لزياد أصله جايب حاجة، مش هتأخر!

جميلة:طيب هنرجع الشقة احنا!

هايدي ببسمة:لا لا لا خليكم عشان نسهر سوا! مش هتأخر هما خمس دقايق بس، البيت بيتكم!

جميلة بابتسامة:أوكي يا هايدي اتفضلي.

نزلت "هايدي" إلى الشارع، مُرتدية بيجامتها، وعيناها تبحثان في كل الاتجاهات أمام باب العمارة عن زياد، لكنها لم تجده. وقفت لحظة، شعرت بشيء من الإحباط، ثم رفعت هاتفها وأجرت اتصالًا به، وقالت بتضايق، محاولة إخفاء قلقها:

_أديني نزلت أهو وفي الآخر تطلع مش موجود، بجد نزلتني على الفاضي!

زياد بسعادة:طيب بصي قدامك بس!

هايدي باستغراب:قدامي فين؟ هو مش إنت واقف قصاد البيت؟

زياد بضحك:مانا قدام البيت فعلًا بس مش واقف على رجلي، أنا راكب في العربية!

حينما تمعنت هايدي النظر، لمحت زياد وهو يخرج من سيارة بيضاء متوسطة الحجم، ليست رخيصة ولا ثمينة، بدت عادية ولكنها أثارت فضولها. اقترب منها بسرعة، وجذبها من يدها نحو السيارة بحركة حاسمة. قالت "هايدي" باستغراب، وهي تحاول استيعاب الموقف:

_إيه ده؟ مش فاهمة! عربية مين دي؟

استخرج "زياد" مفتاح السيارة من جيبه، وأعطاه لهايدي بابتسامة هادئة على وجهه، قائلًا بتبسم:

=دي عربيتك إنتي يا هايدي! مبروك عليكي يا حبيبتي.

يتبع....

الفصل الرابع والعشرون

لم تستطع "هايدي" أن تستوعب بُعد نبل زياد، إذ أهدى إليها سيارةً لتجنب مشقة جسدها وسط زحام المواصلات كل صباح، رغم قرب المدرسة التي تعمل بها من منزلها. غير أن قلبها غمره فيضٌ من الفرح الطاغي، ولم تستطع أن تتخيل كمّ النِّعم التي تحياها بين أحضان زوجٍ يسهر على إسعادها، يزرع الفرح في دروبها، ويبدع في نسج تفاصيل حُبّها بحنان لا تدركه الكلمات. تَطَلَّعت إلى عينيه بدهشة غافية بين السعادة والامتنان، ثم همست إليه بابتسامةٍ تفيض شوقًا:

_عربيتي أنا؟ عربيتي أنا بجد؟

زياد بحُب:أه والله عربيتك انتي، مبروك عليكي يا هايدي!

احتضنته هايدي بقلبٍ مضطرب بين الفرح والدموع التي انسكبت كشلالٍ من دهشة لم تصدقها روحها. لم تستطع أن تستوعب نعمة اللحظة إلا حين انطلقت راكضةً نحو السيارة، لتجلس خلف مقودها وهي ترتجف من حماسٍ جارف، بينما انضم إليها "زياد" بجانبها، يتأمل ملامحها المشرقة كفجرٍ بعد ليل طويل. ثم أدار وجهه نحوها، ونظر في عينيها نظرة يكتنفها الحب، وهمس بصوتٍ يغلفه الترقب:

_إيه رأيك؟

هايدي بشك:دي حلوة أوي، بجد تحفة...انت بتهزر صح؟ دي مش عربيتي وانت عامل فيا مقلب؟

زياد بضحك:والله ما بعمل مقلب ولا أي حاجة من الكلام ده، دي فعلًا عربيتك!

عاشت "هايدي" علاقتها بزياد كأنها لوحة من السرور لا تنتهي ألوانها، فما زالت حتى هذه اللحظة تشعر وكأنها تحيا في حلمٍ جميل، تخشى أن يوقظها منه الزمن. كانت كل لحظة معه أشبه بقطرة سعادة تتسلل إلى أعماق روحها، تمنحها دفئًا لا يُوصف. التفتت إليه وعيناها تلتمعان ببريق البهجة، ثم قالت:

_شكرًا يا زياد، أنا بجد مش عارفة أشكرك ازاي! عربية مرة واحدة؟ عربية؟

زياد بابتسامة:أه عربية يا ستي، بس استني بدل ما نلبس في عربية تانية، لازم تتعلمي وبعدين تسوقي! أنا محبتش إنك تروحي الشغل كل يوم مواصلات، حبيت أريحك من بهدلة الطريق.

هايدي بفرح:بس المدرسة قريبة جدًا من هنا!

زياد بتعشُّق:عارف، بس أنا حبيت أعبرلك عن حبي ليكي بهدية بسيطة زي دي!

هايدي بهوى:بحبك أوي، بجد بحبك أوي أوي أوي.

اتسعت أجنحة هايدي فرحًا، وكأنها تُحلِّق في سماء الأحلام، وهي تتحسس كل جزءٍ من السيارة، غير مُصدقة أن هذا الحلم بات واقعًا بين يديها. أخذت تستعيد تفاصيل الساعات الماضية، فأدركت أن تأخُّر زياد عن العودة إلى المنزل لم يكن إلا لأنه كان منشغلًا بتهيئة هذه المفاجأة لها. تذكرت كيف خرج في الصباح

يحمل حقيبة ثقيلة، ربما مليئة بالأموال، دون أن يخبرها، أو ربما توجه إلى البنك ليُدبّر المبلغ اللازم، ليختم يومه في معرض السيارات منتقيًا السيارة التي تلائم مستواهم المادي. وفي منزل "أم الديب"، استيقظت من غيبوبتها لتجد نفسها ممددة على الأرض، والباب موارب كأنه شاهد على صراعات الليل. نهضت متثاقلة، تتخبط بين أركان الشقة، تبحث بجنون عن المفتاح في كل زاوية، وهي تزمجر بغضبٍ عارم، قائلة:

_المفتاح راح فين؟

بعد بحثٍ محموم، وقعت يد أم الديب أخيرًا على النسخة الاحتياطية من المفتاح التي كانت تخبئها أسفل خزانة الثياب. أمسكت بها بشدة وكأنها وجدت كنزًا، فتحت الباب وخرجت من المنزل، تسابقها أفكارها نحو الدجال الذي اعتادت زيارته في القرية. كانت نظراتها جاحظة ووجهها مشحونًا بالسخط، وكأنها لا تحتمل دقيقة أخرى دون أن تعلم مصير جلال والمعلم حنفي وبقية أفراد الأسرة. حين وصلت إلى الدجال، جلس قبالتها يخبرها بصوتٍ غامض أن الجميع الآن في خطبة صابر، مقامة في قرية المقتول. شرح لها التفاصيل، وعيناها تتسعان بدهشة وغليان داخلي. دون تردد، هرعت نحو موقف السيارات في بلدة أبو حلاوة، تستقل سيارة مُتجهة إلى تلك القرية، وكل دقيقة على الطريق كانت تزيد من غليان قلبها.

بعد نصف ساعة، وصلت إلى قرية المقتول. كانت القرية تغمرها أجواء صاخبة، وأصوات الأغاني والزغاريد تتردد في الأرجاء. سألت بعض المارة عن مكان الحفل، وأشاروا لها نحو مكان بعيد تتراقص فيه الأضواء الملونة، تعكس أجواء احتفالية على كل ما حولها. تقدمت بخطواتٍ ثقيلة نحو الساحة، حيث تجمع الناس حول ديكورات بسيطة تزين المكان، بينما صابر يجلس بجانب عروسه بدرية على مقاعد العروسين، تعلو وجهيهما ابتسامات خجولة وسط تصفيق الحاضرين. على الجانب الآخر، كان جلال جالسًا بجوار المعلم حنفي، يتشاركان الضحك ومشروب البيبسي، وكأن لا شيء يعكر صفو هذه اللحظة. فجأة، شق طيف أم الديب المشهد، يظهر من بعيد وسط الحشد. تقدمت بخطواتٍ ثابتة، وجهها المظلم كغيمة تحمل عاصفة على وشك الانفجار. "المعلم حنفي"، الذي كان يرفع كوب البيبسي إلى شفتيه، تجمد في مكانه. عينيه انطلقتا بسرعة نحوها، وكأنهما لا تصدقان هذا الظهور المباغت. خفق قلبه بقوة، وأسقط كوبه عن غير وعي، بينما تتسارع أنفاسه سأل:

_خرجت ازاي دي؟

جلال بصدمة:إيه ده يابا؟ إنت مش قولت إنك حابسها؟

المعلم حنفي بقلق:تعالى معايا ياض!

ما إن ظهر طيف أم الديب واقترب أكثر حتى انتبه جلال والمعلم حنفي للخطر المحدق بالاحتفال. تبادلا نظرة سريعة تنضح بالقلق، ثم نهضا على عجلٍ وشدّا أم الديب بقوة، يبعدانها عن الحفل قبل أن تتحول الفرحة إلى جنازة. كانت خطواتهم ثقيلة ومتعثرة، بينما تحاول أم الديب الإفلات من قبضتهم، وبصوتٍ جهوري متفجر، صاحت "أم الديب" :

_بتشدوني ليه يا راجل منك له؟

جلال بصياح:اتكلي على الله ياما وارجعي البيت، متخربيش الفرح!
أم الديب بصراخ:وآني مش ماشية، ده آني هفرج الدنيا كلها عليكم يا شوية عرر... يا لهوتي الحقوني يا خلق! جوزي ضربني وحبسني في الد....

قبل أن تكمل أم الديب جملتها المشتعلة غضبًا، انقضّ جلال عليها بسرعة كأنه يحاول إخماد حريقٍ مشتعل. وضع يده بقوة على فمها ليمنع كلماتها من الانفجار أمام الجميع، بينما أمسك بمعصميها وكبّلهما خلف ظهرها، مانعًا إياها من الحركة. كانت تتلوى تحت قبضته، تنظر إليه بعيونٍ ثائرة، وفي هذه الأثناء، ظهر "عم سلامة" من بعيد، تتسارع خطواته نحوهم وقد ارتسمت على وجهه الدهشة الممزوجة بالقلق. كان خائفًا على مظهر العائلة أمام أهل العروس، فأسرع إليهم متسائلًا بصوت منخفض لكنه مضطرب:
_في إيه؟ إيه اللي بيحصل ده؟

المعلم حنفي بتوتر:لا متاخدش في بالك ولا كأن حاجة حصلت! مشوار على السريع وراجع.
عم سلامة باهتمام:طيب قولي بس يمكن أساعدك!
المعلم حنفي باضطراب:أقعد بس يا عم سلامة ومتخربش شبكة ابنك! هنروح أنا وجلال في مشوار وراجعين.
عم سلامة بقلق:خلاص اللي تشوفه.

عاد عم سلامة إلى مقعده محاولًا استعادة رباطة جأشه، واضعًا ابتسامة مُصطنعة ليخفي توتره عن المعازيم. جلس بين الحضور، يتبادل الأحاديث معهم، وما هي إلا لحظات حتى أقبل عليه ثلاثة رجال يرتدون الجلابيب الريفية، يحملون بين ملامحهم البساطة. اقتربوا منه بابتسامات عريضة تعبر عن خالص تهانيهم، واحتضنه "أحدهم" بحرارة، قائلًا بسعادة غامرة:
_ألف مبروك يا أبو العريس وعقبال الليلة الكبيرة.

عم سلامة ببشاشة:الله يبارك فيك يا حاج، عقبال ابنك.

غادر المعلم حنفي خلف جلال، وهو يقيد أم الديب بكل قوة، لا يسمح لها بأي فرصة للفرار. كانت خطواتهم متسارعة نحو التوك توك الذي كان ينتظرهم في الزاوية، وفي لحظة، دفعها جلال داخل المقعد الخلفي وأمر المعلم حنفي بشد الحبل حول جسدها وربطها بإحكام في الكرسي. جلسا بجانبها، فيما كان المعلم يضع يده على فمها بكل قسوة ليمنع أي محاولة منها للتحدث. طيلة الطريق، كان التوك توك يهتز بينما أم الديب تقاوم بكل قوتها، تشتعل فيها رغبة الهروب، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئًا أمام القبضة الحديدية التي كانت تكبلها. بعد نصف ساعة من الطريق المتعرج، وصلوا إلى قرية أبو حلاوة، حيث دخلوا الشقة في صمتٍ،

وحين أُغلِق الباب خلفهم، انفجرت "أم الديب" في بكاء حارق، وعيناها تشتعلان قال بالحنق، ثم قالت بصوتٍ مبحوح من العويل:
_يا لهوي هشق هدومي يا عالم، هقع من طولي يا ناس، جوزي وابني بيتفقوا عليا! هيموتوني يا خلق! هيموتوني يا هو!

جلال بصخب:بقولك إيه ياما، اتكتمي! اتكتمي ألا وربنا أدشدشلك الشقة كلها المرة دي ومش هيكفيني! ده أنا هدغدغ البيت على اللي فيه فوق دماغك!
المعلم حنفي بدهشة:انتي إيه اللي جابك شبكة صابر يا ولية يا بت الكلـ*؟
أم الديب بصياح:جاية آخد حقي منك يا عرة الرجالة، هو إنت فكرك هتضربني وأسكتلك كدهو؟ لا ياخويا ده في أحلامك، آني هجيب السكينة وأقتلك وأرتاح منك!

فجأة، شعرت أم الديب بدماء الغضب تتدفق في عروقها. هجم شعور الانتقام على قلبها فاندفعت مُسرعة نحو المطبخ، تبحث بعنف عن السكين الذي يمكن أن يخلصها من هذا الكابوس الذي فرض نفسه عليها، ولكن، قبل أن تصل إلى هدفها، اندفع "جلال" وراءها بسرعة البرق، أمسك بها بشدة مرة أخرى، وكتفها بعنف، بينما كانت تحاول أن تقاوم وتستمر في جريها. بكل قوته، سحبها نحو الصالة، وألقى بها على الأريكة، فشعر برغبة عارمة في الصراخ من شدة التوتر. نبرته أصبحت أكثر حدة، والعاصفة في قلبه تزداد صخبًا، فقال لها بصوتٍ متهدج:
_اتهدي بقى ياما، إنتي جنس ملتك إيه؟ المرة اللي فاتت كان أبويا بس المرة دي هبقى أنا وأبويا عليكي! أنا ماسك نفسي وربنا عشان إنتي أمي ومش عاوزها تطلع مني ياما! بلاش تقلي من نفسك وانتي في السن ده!

أم الديب بنواح:أخرس يا كلب يابن الكلـ*، ده آني هوريك اللي عمرك ما شوفته!
جلال بانفعال:ما تشوفي غيرها بقى ياما، ده إنتي مش حافظالنا غير الكلمتين دول! ده إنتي بوق على الفاضي!

ألقت "أم الديب" نفسها على الأرض، تتلوى في قسوة، وجعلت صوتها يرتفع كصوت مجنونة تصرخ في وجعٍ لا يُحتمل. لم يكن هناك سوى صدى صوتها في الأرجاء، في حين كان جلال يقف عاجزًا أمامها. ثم اقترب المعلم حنفي من جلال، وسحبه بعيدًا عن أم الديب، إلى جانب الصالة، حيث همس له بصوت خافت، يحمل في طياته قلقًا:
_بقولك إيه يا جلال! أمك دي مخها ضارب وهتعملنا مناحة، احنا نسكتها بكلمتين ويا دار ما دخلك شر!

جلال بتعجب:وهي دي بتسكت يابا؟ دي غلبت العيال الصغيرة الزنانة، طب ده أنا نفوخي اتقور منها.
المعلم حنفي بنُصح:اسمع الكلام عشان نرتاح منها ومن زنها!

جلال:طيب يابا أما نشوف.

كان المعلم حنفي يدرك تمامًا أن الحل الأمثل في تلك اللحظة هو الكذب، فهو يعرف أن بإمكانها أن تحرف مسار الأمور لصالحها إن حصلت على المعاملة التي تلائم مزاجها المتقلب. كان قلبها مليئًا بالانتقام، لكن عقلها يراهن على أن من يعاملها معاملة الأطفال سيستطيع أن يكسبها. بينما كان جلال يفكر في طريقة لتهدئة الوضع، تذكر الاتفاق الذي جرى بينه وبين والده، ابتسم "جلال" ابتسامة مصطنعة، وهي ابتسامة لا يراها إلا الآخرون، بينما كان داخله مشبعًا بالاحتقان، وقال بصوتٍ هادئ:
_خلاص ياما كبري دماغك، ده أنا مجهزلك مفاجأة إنما إيه هتعجبك أوي.

أم الديب بصراخ:مش عاوزة منكم حاجة، سيبوني في حالي!

المعلم حنفي بابتسامة:خلاص يا ولية، ده آني هبعتلك جلال يجيبلك نص كيلو كنافة واتنين كيلو مانجا.
أم الديب باهتمام:ايهي هتجيبهم امتى يا ولا؟
جلال:دلوقتي ياما، بس بطلي صريخ أنا ودني وجعتني!
أم الديب بصياح:تجري تتكفي على وشك، تجيبهملي! على الله تتأخر وإلا هخلي ليلتك سودة!
جلال بفزع:طيب ياما، خلاص بقى كبري الجمجمة!
أم الديب بتوجيه:يلا يا ولا متتأخرش عقبال ما أجهز كوباية الشاي.

نسيت "أم الديب" ما حدث، وقررت أن تحضر لنفسها كوب الشاي. كانت تنتظر عودة جلال ليحضر الكنافة والمانجو العويسي كما وعدها. نية منها أن تتلذذ بتناول الطعام والشاي أمام التلفاز وتنسى أوجاعها. لكن، حينما نهضت من الحصير ووقفت على قدميها، نظرت إلى زوجها ببغضاء، وقالت له بصراخ:
_وانت يا راجل انت! امشي من قدامي مش عاوزة أشوف خلقتك قدامي!

جلال بسخط:خلاص ياما مالكيش دعوة بيه.

ثم أضاف لوالده بصوتٍ يحمل بقايا الوداع:
_يلا يابا!
خرج جلال والمعلم حنفي من الشقة، تاركين أم الديب في المطبخ، حيث كانت تضع المياه داخل البراد، وتسكبها على الموقد حتى تبلغ الغليان، تنتظر عودة جلال، محملًا بصندوق المانجو وعلبة الكنافة بالقشدة. وحينما اجتازا عتبة المنزل، وقفا في سكون الليل، حيث خيم صرير صرصور الحقل على الأجواء. ضحك "المعلم حنفي" ضحكة مليئة باليقين، مدركًا أن أفكاره قد أثمرت نتائج قوية، وقال بفخرٍ لا يخلو من العظمة:
_مش قولتلك ياض إن مخها لاسع ويتضحك عليها بكلمتين؟

جلال:أهو نرتاح من صويتها شوية.

ركب جلال والمعلم حنفي التوكتوك، وانطلقا في طريقهما إلى متجر الحلويات. هناك، اشترى المعلم حنفي نصف كيلو من الكنافة بالقشدة، ثم عادا ليكملوا طريقهما. تحرك جلال بالتوكتوك نحو الفكهاني، حيث نزل هو هذه المرة لشراء المانجو. اختار أرخص الأنواع وأردأها، وعاد به إلى والده، ليعودا معًا إلى المنزل. صعد جلال ليسلم أم الديب الأمانة التي وعدها بها، لكنها استلمتها ببرود ثم طردته، ليتركها تلتهم الحلوى والمانجو بينما تحتسي الشاي أمام شاشة التلفاز، ناسيةً كل ما جرى في الماضي. أما جلال والمعلم حنفي، فقد عادا إلى حفل الخطبة ليواصلا الاحتفال وسط العائلة. في مكان آخر كانت هدية زياد لهايدي مُبهرة، فصعدا معًا، سعيدين، وهايدي احتضنته طوال الطريق حتى دخلا الشقة. نظر أحمد إليهما بدهشة، ثم تقدم "زياد" منه، وقال بابتسامة عريضة:

_مش تبارك لهايدي؟

أحمد بتعجب:مبروك، بس على إيه؟

زياد بسعادة:اشتريتلها عربية جديدة.
جميلة بفرح:بجد؟ جيبتلها عربية فعلًا؟
زياد ببسمة:أيوه العربية اللي كان نفسها فيها من زمان.

سعدت "جميلة" بالخبر السار، فنهضت على الفور، واحتضنت هايدي بحرارة، مباركة لها السيارة الجديدة التي طالما تمنتها. وبروحٍ نقية وكلماتٍ مغمورة بالفرح، قالت:

_مبروك يا حياتي، بجد ألف مبروك، ده خبر حلو أوي.

أحمد بحبور:مبروك يا هايدي، عقبال الـ BM.
هايدي بسعادة:الله يبارك فيكم، بجد أنا مش مصدقة، فوقوني يمكن بحلم!
زياد بضحك:ولا بتحلمي ولا أي حاجة، إنتي تستحقي أكتر من كده بكتير يا هايدي! وده اللي أنا عايزه أشوف ابتسامتك على وشك وبس!
هايدي بحُب:ربنا يخليك ليا يا حبيبي، شكرًا بجد على كل حاجة حلوة بتعملها علشاني، أنا بجد فرحانة أوي!
أحمد بهزل:طب إيه؟ مش هتفرجونا علي العربية؟ ولا بتشوقونا وخلاص؟
زياد بعُذُوبة:طبعًا، تعالى معايا علشان تشوفها!
هايدي بابتسامة:طيب انزلوا انتوا على ما أجهز الأكل على السفرة.
زياد بفرح:ماشي.

ثم التفت إلى أحمد، وأضفى على وجهه ابتسامة مشرقة، قائلًا بسرور:
_يلا بينا.

أحمد بسعادة:ألف مبروك.
زياد بسرور:الله يبارك فيك.

خرج أحمد واضعًا ذراعيه حول كتفي زياد في حركة تنطق بروح الأخوة الصادقة، ونزلا معًا عبر المصعد، ليخطوا نحو الشارع حيث تنتظرهما السيارة الجديدة. وفي تلك الأثناء، نهضت "جميلة" واتجهت إلى المطبخ، حيث تتواجد هايدي، فقالت لها بنبرة ملآنة بالدفء:
_أنا هروح أغير هدومي وهرجع يكونوا طلعوا.

هايدي ببسمة:ماشي يا جميلة.

بعدما طلبت جميلة طعامها من المطعم العالمي، غادرت شقة هايدي، مُتجهة إلى شقتها، حيث كان السكون يلف المكان في هدوء مهيب. أضاءت الأنوار، ودخلت غرفة الثياب لتبدّل ملابسها، تقتلع الإكسسوارات واحدة تلو الأخرى، وتنزع المكياج عن وجهها، وهي تزيح عن كاهلها تعب اليوم. أما هايدي، فكانت في شقتها تفرغ الطعام من الأقدار، وتضعه بعناية داخل الأطباق، مُرتبة الملاعق بعناية على الطاولة، استعدادًا لعشاء يليق بهم، وفي الأسفل، وقف أحمد وزياد بجوار السيارة الجديدة. كان "أحمد" يدور حولها، يتفحصها من جميع الزوايا، يربت على عجلاتها بوجه يشع بالبهجة، ويمرر يده على سطحها المصقول. ثم رفع عينيه نحو زياد مبتسمًا بسعادة خالصة، وقال:
_ما شاء الله حلوة والله، طب وعلى كده بتعرف تسوق؟

زياد:طبعًا مانا أيام ما كنت مسافر مع بابا الله يرحمه كنت بسوق وبروح أماكن كتير، أنا اتعلمت السواقة وأنا عندي ١٨ سنة، بابا هو اللي علمني وقالي عشان لو حصل أي ظروف تقدر تتصرف ومتلفش حوالين نفسك، وفعلًا فادتني كتير وناوي إن شاء الله إني أعلم هايدي هي كمان، بدل ما تلبس بينا في عربية تانية!
أحمد بمرح:متخافش، هايدي جبانة وقلبها ضعيف من ناحية السواقة، هتمشي زي السلحفة! مش عايز أقولك جلال عامل ازاي في السواقة! هو الصراحة سواق محترف بس بيجري جري ابن لذينة، يوم ما أخدت العربية تقسيط من عمي، هو أول واحد لجأتله... اتعلمت منه شويه والباقي مفهمتش حاجة، روحت مقدم في مدرسة قيادة.

زياد بفخر:بس دلوقتي بقى مستواك حلو أوي، أنا ملاحظ!

أحمد بثقة:ماهي دي حاجة أساسية، لأن فعلًا زي ما عمي حسين قال، علشان لو حصل أي ظروف متلفش حوالين نفسك!
زياد بضحك:بس إيه رأيك؟
أحمد بإعزاز:مبروك عليك يا حبيبي إنت وهايدي، ربنا يكفيكم شرها.
زياد بسعادة:الله يبارك فيك، افتح الباب وجرب!

فتح زياد السيارة من الحاكوم، فتردد صوت الآلي بوضوح في سكون الشارع. تقدم أحمد بخطوات واثقة، فتح باب السائق، وركب على الفور. أما زياد، فدلف إلى المقعد المجاور بحماس، يتفقد كل تفاصيل السيارة بعينٍ فاحصة. كانت السيارة أوتوماتيك، بمواصفات عصرية رغم بساطتها، لا تقارن بسيارات الأثرياء المليونية، لكنها تحمل في تفاصيلها بريق البدايات، كونها أول سيارة تدخل حياة زياد وهايدي. أدار أحمد محرك السيارة، ليبدأ هديرها في الانسجام مع أجواء الليل. تحرك بها بانسيابية في شوارع المدينة، يعبر الأزقة والطرق الرئيسية، زياد بجواره يفيض بالاستمتاع، والشوارع تتبدل أمام عينيه، وكأنها تبارك انطلاقته الجديدة. عشر دقائق مرت سريعًا بين حديثٍ ضاحك واستكشافٍ مرح، حتى توقف أحمد في أحد جوانب الطريق، وركن السيارة بحرفية. عاد الاثنان إلى الشقة، حيث كان الطعام قد استقر على الطاولة، أطباق مصفوفة وملاعق مرتبة بدقة، في انتظارهما. بعد لحظات، عادت جميلة إلى الشقة، ترتدي بيجامة ناعمة تبرز بساطتها، ووجهها بلا مساحيق، لكنه يفيض بجمال طبيعيٍ أخاذ. دقائق قليلة فقط، ووصل طعامها من المطعم العالمي، فجلست معهم، وكل واحدٍ منهم يختار طبقًا يناسب ذائقته، وفي شبكة صابر، كان المشهد مختلفًا تمامًا. الأعداد غفيرة، والابتسامات تغمر الوجوه. العروس تتألق في فستان خطبتها البني اللامع، زينت بوجهها المشرق والمكياج المتناسق، تحيطها النساء بالزغاريد المتواصلة. أما الرجال، فكانوا يجلسون في حلقات، يتناولون قطع الجاتوه ويحتسون العصائر الباردة، بينما الشباب يتمايلون على أنغام الموسيقى الصاخبة، يرقصون بفرحة غامرة.

في ذروة الاحتفال، تبادل العروسان خواتم الخطبة في لحظة مهيبة، وثّقتها عدسات الكاميرات من كل زاوية، لتحفظ ذكراها بين الألبومات. ومع حلول الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، تناول الجميع وجبة عشاء جماعية، ثم انفض الجمع، وعاد كلٌ إلى منزله. بينما في صباح اليوم التالي، استيقظت أم الديب من نومٍ متقطع، تحتضن طبق الكنافة الذي أنهته منتصف الليل، على وقع أصواتٍ مرتفعة تتخللها ضجيج دربكة متواصلة. فتحت عينيها ببطء، لتستوعب العالم المحيط. نهضت متثاقلة، ثم خرجت من شقتها لتقف عند الباب، فوجدت الرجال يملؤون الممر. كان "جلال" يقف عند نهاية الدرج، يرتدي قميصًا رماديًا مطوي الأكمام، يوجه العمال بحزم، يطلب منهم حمل الأريكة الثقيلة بحذر ووضعها في الموضع الصحيح داخل الشاحنة. وجهه متجهم، لكن صوته يحمل نبرة قائد يفرض حضوره، وهو ينادي:
_على مهلكم! انزل يا حاج وإحود يمين شوية.
تحرك الحمالون يمينًا، كما أمرهم "جلال"، بتأنٍ وحذر ينسجم مع صرامة توجيهاته. وقف يتابعهم بنظرة ثاقبة، ثم قال بصوته الجهوري:
_أيوه شوية كمان شمال!

وتحركوا يسارًا وفق توجيهاته، فاعتدل "جلال" في وقفته، ورفع يده مشيرًا نحو زاوية أخرى، ثم أردف بنبرة قائدٍ لا يقبل التهاون:
_حلو أوي، انزلوا بقى!
نزل الحمالون بالأريكة إلى الطابق الأرضي، يجرّون خطواتهم بحذر تحت أنظار جلال التي لا تفارقهم.
وفي تلك اللحظة، ظهرت "أم الديب" على الدرج، تتقدم نحوه بخطوات مُسرعة، وقد علقت شعيرات الكنافة بوجهها بطريقة منفرة، تُبرز عبثيتها. توقفت أمامه بصدمة لا تخطئها العين، وصاحت بصوت مشوب بالسُخط:
_ايهي هو إيه اللي بيجرا دهو؟

جلال بابتسامة:عجبتك الكنافة ياما؟
أم الديب بصياح:كنافة إيه يابن الكلـ*؟ إيه اللي بيشيلوه دهو؟
جلال بخديعة:متخافيش ياما أصلنا هنعمل صيانة للعفش، وبالمرة هنرش مبيدات للشقة إكمنها مليانة حشرات.
أم الديب بارتياب:انت كداب!
جلال بتبسم:الله يسامحك، طب بكرا تشوفي وتعرفي إن أنا صادق في كل حرف، جلال مبيكدبش!

لم تستوعب أم الديب كلمات جلال، رغم محاولته إقناعها، فقد كانت تدرك في أعماقها أنه يخفي عنها الحقيقة. لكنها وقفت عاجزة، تراقب خطواته وهو ينزل للطابق الأرضي، متجاهلًا نظراتها الغاضبة، ليلحق بالرجال الذين انتهوا من وضع الأريكة داخل السيارة النصف نقل. فجأة، لفت انتباهها ليالي تنزل الدرج حاملة كرتونة كبيرة بين ذراعيها، تليها هبة وهي تمسك بحافظة الغطاء بإحكام، ثم نعمة في المؤخرة، تحمل علبة الكاسات بكل عناية. توقفت "أم الديب"، وقد اتسعت عيناها بالدهشة، ثم صرخت فيهن بغلظة تعكس اضطرابها، قائلة:
_إيه دهو؟ انتوا بتعزلوا من الدار؟

ليالي بمكر:أبدًا يا حماتي، ده احنا بنعمل صيانة للشقة إكمنها مليانة حشرات، يا عيني على العيال مبيعرفوش يناموا.

ثم استمرت في تمثيليتها على أم الديب، متقمصة دور الضحية المتأففة، وهي ترفع حاجبيها باستياء مصطنع، موجّهة حديثها إلى هبة بصوتٍ يشوبه الحزن:
_ده كل يوم يا هبة، الحشرات تسرح عليهم وهما نايمين وتقرصهم.

هبة بسخرية:يا حول الله يارب.

نعمة بابتسامة:بقولك ياما، ما تجيبيلي مانجايتين من عندك أصل سمعت إن جلال جايبلك اتنين كيلو مانجا.
أم الديب بجلبة:إيه يا بت دهو؟ والنعمة ما حد فيكم متحرك من مكانه، ده عندها يا بت!
ليالي بهدوء:والله احنا مش عيال صغيرة! احنا كبار ولينا رأي وكلمة، ونعمل اللي احنا عايزينه في الوقت اللي يعجبنا!
أم الديب بصخب:اسكتي يا بت الـ*!**
ليالي بصدمة:طب والله إنتي ولية ناقصة وقليلة الرباية! أبويا ضوفره برقبة مية واحدة زيك!
أم الديب بصراخ:انتي بتقوليلي الكلام دهو يا بت الـ*** يا ******؟**

بعدما تفوهت أم الديب بألفاظٍ دنيئة في وجه ليالي، انقضت عليها بامتعاضٍ عارم، دفعتها بقوة فسقطت ليالي من أعلى الدرج، وتبعثرت محتويات العلبة حولها. لم تكتفِ أم الديب بذلك، بل تقدمت ووطأت رأسها وجسدها بقدمها في مشهدٍ يفيض بالكراهية، بينما تعالت صرخات ليالي من الألم، تصدح في أنحاء المنزل. لم تلبث هبة أن وضعت العلبة جانبًا، وهرعت نحو أختها في محاولة لإنقاذها، ونعمة بدورها اندفعت بكل طاقتها محاولة الفصل بينهما. وسط هذا الشجار المروع، انطلق صراخ ليالي يزداد حدة، وسباب أم الديب يعلو بلا توقف. صعد "جلال" مُسرعًا على وقع الصراخ الذي تصاعد من الأعلى، وجهه محتقن بالحنق، وقلبه يكاد ينفجر. وحين رأى النزاع أمامه، وقف للحظة يشتعل، ثم صاح بصوتٍ زلزل المكان:
_في إيه؟

نعمة بصراخ:يا لهوي يا خرابي!
أم الديب بإعوال:يا ولاد الـ* يا بت الـ***** منك ليها!**
ليالي بنحيب:ده أنا كان عندي مليون حق لما خدنا شقة بعيد عن وشك، ربنا ياخدك ويريحنا منك يا بومة يا قليلة الأصل ياللي مفيش حاجة بتطمر فيكي.
جلال بصياح:في إيه؟ هو أنا مش مالي عينكم ولا إيه؟ أوعي يا بت إنتي وهي، أوعي ياما!

بمجرد أن استل "جلال" المطوى من جيبه، خيّم الصمت عليهن كأنه غطاء ثقيل، وأصبحت الأنفاس محبوسة في صدور الجميع. لم يجرؤ أحد على النطق أو حتى التحرك. عيونهم متسمّرة عليه، ووجوههم متجمدة من الخوف. رفع جلال المطوى بيده، وصرخ بصوتٍ هادر كالرعد:
_عليا الطلاق بالتلاتة لو سمعت حِس واحدة فيكم لأشلفط منظرها، آمين؟

ليالي ببكاء:انت مش شايف أمك بتعمل إيه؟ ده ظُلم يا ناس!
جلال بفظاظة:أنا قولت إيه؟ مش عاوز أسمع صوت حد، خلصنا يلا!

حمل جلال الكراتين الثقيلة ونزل بها، خطواته سريعة. أما هبة، فقد انحنت نحو ليالي، وعانقتها بقوة، وقبّلت رأسها بحنانٍ بالغ، تُربت على كتفيها بحبٍ صادق، محاولة نزع الألم الذي تركته حماتها القاسية. نزلتا معًا،

ليالي تمسح دموعها المنهمرة بلا توقف، وهبة بجانبها تحاول تهدئتها بصوتٍ دافئ. في تلك اللحظات، كانت نعمة تسحب أم الديب إلى داخل الشقة، تحاول جاهدة تهدئة ثورتها المشتعلة، تخاطبها وبرفقٍ. أمام باب المنزل، جلست ليالي على عتبة صغيرة، تبكي بحرقةٍ، بينما "هبة" جثت بجانبها، تربت على كتفها بحنو، وقالت بصوتٍ مشفق يغلفه الحزن:
_تستاهل اللي هيجرالها من الست دي، أنا مستنية أشوفهم بيقطعوا في بعض عشان أرتاح!

ليالي بنواح:منك لله يا حماتي، إنتي فاكرة نفسك هتروحي من ربنا فين؟
هبة بتأثر:اهدي يا ليالي وأصبري واتفرجي بكرا هيحصل فيها إيه!

أمر جلال ليالي وهبة بلهجة صارمة ألا تصعدا مجددًا للشقة، موضحًا أن أي مواجهة أخرى مع أم الديب قد تشعل فتيل مشكلة جديدة. امتثلت ليالي وهبة لأوامره دون نقاش، حيث صعد هو مجددًا، يحمل الكراتين والحقائب والأثاث قطعة تلو الأخرى، بمساعدة الحماليين الذين يتلقون منه التوجيهات بحذر. كان يتحرك بسرعة، متجاهلًا الألم النفسي الذي يعصف به. في شقة أم الديب، جلست "نعمة" بجوار والدتها على الأريكة، وقد بدا عليها الانزعاج مما حدث. التفتت إليها وقالت بتضايق ونبرة مليئة بالعتاب:
_وانتي مالك بس ياما؟ ما يعزلوا ولا يعملوا اللي يعملوه، شاغلة بالك بيهم ليه؟

أم الديب بقهر:بقى أخوكي وأبوكي يضحكوا عليا ويدوني الصابونة؟ ومين دهو اللي اتنيلوا أجروله الشقة اللي ياكش تولع فوق دماغه؟
نعمة بمواساة:سيبك بس من كل ده ياما وهدي أعصابك عشان خاطري! بصي ولا تزعلي نفسك، إيجار الشقة إنتي اللي هتاخديه أول بأول! وأهو بيني وبينك ياما كان جلال قاعدلنا في الشقة مبناخدش منه مليم! إنما الست اللي جاية هتنفعك وأهو تجيبي اللي نفسك فيه ولا حتى تفتحيلك مشروع جديد بدل اللي اتقفل قبل كده!
أم الديب بصياح:يغور في داهية تاخده هو والعقربة مراته، ياكش يولعوا في ستين داهية تاخدهم.
نعمة بقلق:خلاص بقى ياما، مش كده!

خرجت نعمة مع ليالي وهبة إلى الشقة الجديدة، حيث بدأوا في ترتيب الأثاث البسيط في أماكنه. كانت الشقة واسعة بشكل لافت مقارنةً بالقليل من الأثاث الذي كان معهم، لكن الجهد الشاق والتعاون بين النساء كان لهما الأثر الأكبر في جعل كل شيء ينسجم في مكانه، رغم أن المطبخ ظل شاغرًا بالأطباق والمواعين. مع حلول الليل، كانت الشقة قد تم تجهيزها بشكل جيد، وقد تم فرشها بما تيسر، إلا أن هناك بعض الأشياء الصغيرة التي كانت بحاجة إلى ترتيب. غادرت نعمة بعد أن أكملوا العمل، متجهةً إلى منزلها للاعتناء بأطفالها، تاركةً ليالي وهبة في الشقة الجديدة. تركت ليالي نفسها على السرير، مرهقة من تعب اليوم، فتمددت على السرير بكسل. ابتسمت "هبة" بلُطف، وجلست إلى جانبها، ثم قالت بحنان:

_الشقة بعد ما اتفرشت بقيت حاجة تانية خالص، دي أحلى من شقتك القديمة بمليون مرة، ولسه لما تخلصوها بقى هيبقى شكلها يجنن.

ليالي بإنهاك:بس ياختي الشقة حاساها فاضية، عاوزة أنزل أجيب سفرة، بس منين يا حسرة؟ هو جلال معاه فلوس؟
هبة برصانة:حماتي عندها سفرة قديمة مرمية في الأرض اللي ورا، ناخدها للنجار يعيدلك تشكيلها من أول وجديد وهياخد بس المصنعية!
ليالي باقتناع:تصدقي فكرة، طب يفرض حماتك مرضتش؟
هبة بثقة:لا هي بتوافق على أي حد من طرفي، والكراسي نبقى نتصرفلك فيها.
ليالي بامتنان:تسلميلي يا هبة ياختي، والله إنتي اللي ليا! بس الحمدلله أنا قلبي ارتاح أوي أوي بعد ما غورت من وش حماتي الحرباية، كده أعيش في راحة بال.
هبة بنُصح:عيشي حياتك بقى وانسي اللي فات!
ليالي بشر:ده اللي أنا ناوية أعمله.

حضرت أم الفار في صباح اليوم التالي محملة بأثاث منزلها، وصلت بسيارتين نصف نقل محشوتين بالأغراض، ومعها الحمالون ينقلون الأثاث إلى مدخل البناية. وقفت أم الفار بهيبتها المعتادة، بثوبٍ أنيق ورائحة عطر فاخرة تعبق الحي، تتابع الرجال بنظراتٍ واثقة، تُوجههم حينًا وتصمت حينًا آخر، كأنها ملكة تشرف على مراسم نقل مملكتها. على الجانب الآخر، كان "المعلم حنفي" ينتظرها بفارغ الصبر منذ ساعتين، يتلفت بين الحين والآخر نحو الطريق، وبمجرد أن لمحها أخيرًا، أشرق وجهه بسعادة طفولية لا تخطئها العين. أسرع نحوها، وقال بلهفة ممزوجة بالفرح:
_حمدالله على السلامة يا حاجة.

أم الفار بحدة:الله يسلمك يا حاج.

ثم استدارت بفظاظة تحمل في طياتها شيئًا من الجبروت، ورفعت يدها تشير نحو الباب، قائلة:
_خشوا يا رجالة، تاني شقة!

الحمال:تمام يا معلمة.

حمل الرجال الثلاجة بصعوبة، وصعدوا بها إلى الطابق الثاني العلوي، بينما وقفت أم الفار جانبًا تراقبهم بتمعن، عيناها تلاحقان كل حركة، خشية أن تُخدش قطعة من أثاثها. بدت وكأنها تمسك أنفاسها مع كل خطوة يخطونها على الدرج. على مقربة منها، تنحنح "المعلم حنفي" بصوته، محاولًا جذب انتباهها. وبابتسامة واسعة تشي برغبة في كسر جمود الموقف، قال بخفة:

_ده أنا فرحان إنك جيتي، الصراحة محدش غيرك اللي هيرجع حقي وحق الغلابة اللي الولية جات عليهم.

جمالات بتمني:انت شوقتني أشوفها يا حاج، بس متخافش دي مش هتاخد في إيدي غلوتين لو بس فكرت تقرب مني! ما أصلك متعرفنيش، ده أنا أم الفار واسأل في أي حتة!
المعلم حنفي بسعادة:الله يسترك ويخليكي لينا.

كان المعلم حنفي يقف بجوار أم الفار، والسعادة تملأ ملامحه. شعر في قرارة نفسه أن جمالات، بهيبتها وقوة شخصيتها، ستكون الدرع الذي يحميه من ظلم أم الديب التي طغت عليه بلا شفقة. كانت أحلامه ترفرف حوله، يتخيل لحظة انتصاره عبر وجود جمالات في حياته. لكن فجأة، اصطدم أحد الحمالين بالكرسي في الجدار، فأحدثت الصدمة صوتًا أجفل الجميع. لم تتمالك "جمالات" نفسها، فتقدمت نحوه بخطوات سريعة، وجهها يشتعل غضبًا، وصرخت بصوتٍ حاد كالسوط:
_انت يا عم انت، مش واخد بالك ليه؟ ما قولنا الترابيزة هتتخدش! إنت مفيش فايدة فيك؟

الحمال بأسف:لا مؤاخذة يا ستنا، مكنش قصدي.
جمالات بصياح:ولا قصدك بقى، ده إيه اليوم اللي باين من أوله ده؟

صعد الحمال إلى الطابق الثاني، يحمل الكرسي وكأن ثقله يضاعف مع كل خطوة. خلفه تبعته "جمالات"، تصيح بصوت جهوري لا يقل حدة عن صوت الرجال في الأسواق. ثم توقفت فجأة، والتفتت نحو المعلم حنفي الذي كان يتابعها بنظرات مرتبكة، وقالت بحدة:
_سكة السلامة دلوقتي يا حاج.

المعلم حنفي بابتسامة:مع ألف سلامة.

صعدت جمالات إلى الطابق الثاني، بينما في الداخل كانت أم الديب تختنق بالفضول، لا تستطيع مقاومة رغبتها في رؤية الجارة الجديدة. تسللت أم الديب خلفها بخفة، ودخلت من باب الشقة بحذر. وما إن وقعت عيناها على جمالات حتى اتسعت عيناها بدهشة، وكأنها ترى شبحًا من الماضي. كذلك تجمدت جمالات في مكانها، ملامحها مليئة بالذهول. لحظات من الصمت المشحون مرت كأنها دهر، قبل أن تنفجر "أم الديب" بغضب كاسر. انطلقت كالسهم نحو جمالات، وبدون تردد أمسكت بعنقها بقوة، قائلة:
_هو إنتي يا بت الكلـ* يا واطية يا رمة؟ هو انتي؟ إنتي إيه اللي جابك هناهو؟ انطقي!

أم الفار بسخط:اخرسي يا ولية إنتي بدل ما أقلع الجزمة وأنزل بيها على دماغك! إنتي مش لاقية اللي يلمك ولا إيه؟

أم الديب بصدمة:ايهي إنتي بتكلميني آني كدهو؟ ده إنتي يومك أسود.

اقتلعت أم الديب الإيشارب عن رأسها بحركة عنيفة، فكشف عن شعرها المتشابك كخيوط معدنية مهترئة، ثم انقضت على جمالات كوحشٍ جريح، تمسك بعنقها بكلتا يديها بقوة جنونية. تراجع كلاهما للخلف، حتى فقدتا توازنهما، وسقطتا على الأرض مع دويٍّ مدوٍ، اصطدمت فيه رأس جمالات بحافة الكرسي الخشبي. شعرت "جمالات" بالدوار، وعيناها تتلألآن بالدموع من الألم، لكنها لم تستسلم. بصوت مختنق، غلبه الضعف، صرخت قائلة:

_يا حاج حنفي، مراتك هتموتني!

حاول الناس الموجودون التدخل لفضّ الاشتباك، لكن أم الديب كانت متشبثة بجمالات كعدو لدود، ترفض أن تتركها مهما حدث، تصرخ وتتوعد، حيث فقدت كل السيطرة على نفسها. وسط هذه الفوضى، اقتربت أم الفار بخطوات واثقة، ووجهها يشتعل غضبًا، ثم رفعت ساقيها بقوة وضربت أم الديب دفعة واحدة، مما جعلها تتراجع وتسقط على الأرض. في تلك الأثناء، كانت "نعمة" تسمع الصراخ يتعالى كأنه نداء حرب. هرعت نحو الدرج ونزلت بسرعة، لتجد المعركة مشتعلة في الأسفل بين والدتها وأم الفار. أصابها الذهول للحظة، لكنها سرعان ما انقضت تحاول الفصل بينهما. أمسكَت بوالدتها بقوة، تدفعها بعيدًا عن أم الفار، وقالت بصراخ حاد:

_ابعدي ياما! ابعدي! يا لهوي يا لهوي.

بعدما استطاعت نعمة بصعوبة أن تبعد والدتها عن جمالات، أمسكت بها بكلتا يديها بحزم، تمنعها من الاقتراب مرة أخرى. كانت أنفاس "أم الديب" متلاحقة، ووجهها متوهجًا بالحنق، وكأنها بركان على وشك الانفجار. نظرت لعدوتها بنظراتٍ مليئة بالغل، ثم قالت بغلظة كمن ابتلعت رجلًا:

_انتي تاخدي حاجتك وتغوري بدل ما أقتلك! ده آني أم الديب يا بلد، أم الديب يا منطقة!

أم الفار بحسم:طب اسمعي يا روح أمك، أنا أم الفار عشرين سنة سجن! سرقت وقتلت وعملت اللي ما يتعمل ومعنديش أيها مشكلة أقتلك إنتي كمان يا عينيا!

أم الديب بصراخ:بقولك إيه يا ولية! اعملي الشويتين بتوعك دهم على أي واحدة تانية! فاكرة يا بت لما جيت رنيتك علقة في قلب السجن؟ ده آني علمت عليكي وسط الحريم، هو إنتي كنتي قادرة تنطقي من كتر الدم اللي بيشر من وشك؟

أم الفار بعداء:يبقى ليكي عندي علقة، وتبقى واحدة بواحدة!

اندفعت جمالات نحو "أم الديب" كالعاصفة، وأمسكتها من شعرها بكل قوتها، تجذبها بعنفٍ كأنها تنتزع جذور حقد قديم. أطاحت بها على الأرض بيدٍ من حديد، وبدأت تسحب شعرها بلا رحمة، بينما صرخات أم الديب تعلو، تعبر عن ألم فروة رأسها التي كادت تتمزق، قائلة:

_يا لهوي، فروة راسي يا خلق!

نعمة بنواح:يا لهوي!

سمع "المعلم حنفي" الصراخ العنيف القادم من الأعلى، فركض بسرعة نحو مصدر الصوت، قلبه ينبض بعنف، وعقله مشوش من الخوف على ما قد يحدث. وصل إلى الشقة فزعًا، فوجد المعركة محتدمة بين أم الفار وأم الديب، وكل منهما مصممة على سحق الأخرى. توجه نحو أحد الحمالين الذي كان يقف جانبًا، وسأله:
_في إيه؟

الحمال بتلجلج:النسوان بتتخانق وبنسكت فيهم من بدري، مش عارفين.
نعمة بصراخ:الحقهم يابا!

نزل المعلم حنفي بسرعة إلى الأسفل، قلبه يغلي من السخط، لإحضار عصاه الثقيلة، التي كان يحملها منذ سنوات، عاد سريعًا إلى مكان المعركة، وانقض على "أم الديب" ، مستعينًا بعصاه ليوجه ضرباته بكل قوة. أمسك بها من شعرها، ووجه ضربات قوية على رأسها، غير عابئ بصراخها المملوء بالاستغاثة. كانت أم الديب تصرخ بصوت عالي، قائلة:
_يا لهوي!

كان الشجار خارجًا عن أي سيطرة. جمالات، مغمورة بالغضب، علمت بأسنانها على ذراع أم الديب بعنف، وأمسكت بنعلها، مستخدمتها كأداة للانتقام، وطوحت بها على رأس أم الديب ووجهها بكل قوة، وهي تعبر عن كل ما تراكم داخلها من إهانة. أما المعلم حنفي، فلم يتردد لحظة في استخدام الشومة، حيث ضرب رأس أم الديب بكل ما أوتي من قوة. كانت نعمة واقفة عاجزة، تعول بحرقة على مشهد والدتها وهي تتلقى الضربات. أما الرجال، فقد تضافروا ليفصلوا بين المتصارعين، يظهرون قوتهم في محاولة لإيقاف العنف، لكن كان كل شيء قد خرج عن يدهم، وفي النهاية، تدحرجت أم الديب على الأرض، ورأسها مغطى بالدماء، وفقدت وعيها.

يتبع....

الفصل الخامس والعشرون

في خصام صاخب، تنبعث منه سياط الغضب منهالة على رأس أم الديب، تتهاوى أرضًا مغشيًا عليها، والدماء تسيل من كل ناحية كأنها نهر جارف. ورغم انكسارها، لم يرتدع "المعلم حنفي" ، بل استمر في وطئها بسخط عارم، وكأن كل ضربة تطلق قيود آلام دفينة تكبلت في أعماقه، ليجد في كل ركلة سكينة صدر مثقل بالأوجاع. هتف بصوت ممتعض يفيض غيظًا لا يرحم:
_حق الخمسة وتلاتين سنة قهر اللي عيشتهم معاكي.

أم الفار بقسوة:أضرب كمان، فش غلك فيها!
المعلم حنفي بانتقام:موتي يا بت الكلـ*!
نعمة بصراخ:أمي!

بعد انتهاء الشجار، كان وجه أم الديب أشبه بلوحة ألوان متداخلة من الكدمات والجروح. حملتها نعمة وحامد معًا، يجرّان خطواتهما بثقل الحزن حتى وصلا بها إلى المستشفى. بعد العلاج، عادا بها إلى المنزل، ووضعاها على سريرها مُنهكة القوى، رأسها ملفوف بشاش أبيض، والأدوية متناثرة بجانبها. جلست صامتة لبعض الوقت، وحولها نعمة وحامد يحدقان فيها بوجع، ثم انفجرت "نعمة" بالبكاء، وقالت:
_يا عيني عليكي ياما، مش قولتلك الشر آخرته طريق مسدود؟ كان فيها إيه بس لو كنتي قعدتي في حالك؟ عاجبك اللي جرالك ده؟

أم الديب بنواح:آه يا نفوخي آه، صداع هيموتني يا نعمة، لا برشام نافع ولا حقن نافعة ياختي.
حامد بشفقة:لا حول ولا قوة إلا بالله، عاجبك اللي إنتي فيه ده يا حماتي؟
أم الديب بصراخ:شوفولي داكتور تاني يكتبلي على أدوية غير دي.

وضعت "أم الديب" يدها على رأسها المثقل بالجراح، تتلمس مواضع الألم كأنها تحاول أن تُسكن نزيف الوجع بلمستها الواهنة. قالت بصوت متقطع يثقله صداع لا يُطاق:
_مش قادرة يا نعمة، آه.

نعمة بنُصح:حرام عليكي نفسك بقى! ما قولنا بلاش مشاكل! ياما خلاص وجود الست دي اتفرض علينا، الشقة دي ملكها ومحدش يقدر يطلعها منها!
أم الديب بنواح:أبوكي وأخوكي سلموني لعدويني يا نعمة! بس مش أم الديب اللي تقع! لا لا أول ما أقف على رجلي هطلع القديم والجديد كله فوق دماغها!
حامد بعِظة:ربنا يهديكي يا حماتي، وكفاياكي جري على المشاكل بقى.
أم الديب بتوعد:ماشي يا أم الفار لما أقوملك، هفرمك تحت إيدي ولا حد هيلحقك مني!
نعمة بانزعاج:بس بقى ياما، كفاية! إنتي إيه مبتزهقيش؟

رغم الحالة الحرجة التي بلغت أم الديب، وقد صار كل عضو في جسدها ينطق بالألم، إلا أن إصرارها كان صلبًا كالجبل. كانت مصممة على استرجاع حقها من أم الفار والمعلم حنفي، اللذين اشتركا في إذلالها بوحشية، عازمة ألا تتنازل عن حقها مهما كلفها الأمر. كانت نعمة بجوارها، تقدم لها الأدوية والماء، وتعد لها الطعام، مُحاولة مواساتها بلُطف، رغم مرارة ما حدث. أما في الجانب الآخر، ومع انبلاج الليل، جلس المعلم حنفي بجوار أم الفار بعد أن فرغا من رص الأثاث. استلقت أم الفار على الأريكة، ويدها ترفع النارجيلة بثقة ظاهرة، ساقها فوق الآخر، مُتحدية العالم بنظرة واحدة. التفت إليها "المعلم حنفي" بعينين تحملان إعجابًا، وقال بنبرة تتداخل فيها الحُب مع الإعجاب:

_عفارم عليكي، ده إنتي إيديكي دول يتاقلوا دهب، هي دي كان حد قادر عليها؟ طب وحياتك يا حاجة، كانت مطلعة عين ليالي مرات ابني ومن يوم ما دخلت بيتنا مشافتش يوم هنا! وكل يوم في مشاكل وحرق دم.

أم الفار بحنان:حقك عليا يا ست ليالي، هجيبلك حقك إنتي وحماكي الغلبان ده.
المعلم حنفي بابتسامة:الله يخليكي.
أم الفار:ماهو أصل الدنيا كده، يوم ليك ويوم عليك، وهي أيامها كانت كتيرة متتعدش، جه دورنا احنا بقى.
المعلم حنفي بسعادة:يا مانت كريم يارب، أخيرًا نجدتني منها وبعتلنا اللي يرجع حقنا تالت ومتلت؟

أم الفار بابتسامة:ومش بس كده! ده أنا هطفشهالك من البيت كمان وهخليها تروح تسيأ حمامات وسلالم!
المعلم حنفي بضحك:تصدقي بالله؟ إنتي ست جدعة بمية راجل، إنتي اللي زيك تتشال في قفص.
أم الفار بصياح:تقصد إيه؟
المعلم حنفي بفزع:أقصد إنك حالة نادرة، ياريت كل الناس زيك مكنش هيبقى في ظُلم!
أم الفار بتبسم:بحسب، متخافش يا حبيبي لسه اللي جاي تقيل!

من الواضح أن العلاقة بين المعلم حنفي وأم الفار "جمالات" بدأت تأخذ منحى مختلفًا. كلاهما كان يبحث عن ملاذ في الآخر؛ المعلم حنفي بحاجة إلى صدر حنون يحتضنه وسط قسوة الأيام ويخفف عنه ثقل الحياة، بينما جمالات تطمح لرجل يكون سندًا لها يعينها على مشاق الحياة القاسية. جلسا معًا، يتبادلان الحديث بينما يتقاسمان شرب النارجيلة. في مكان آخر، وصل الخبر إلى ليالي عن طريق مكالمة من نعمة، تخبرها أن أم الديب تلقت وطأة شريرة على يد المعلم حنفي وجمالات. كان وقع الخبر عليها كمن أزاح حملًا ثقيلًا عن كاهلها، شعرت أخيرًا أن حقها الذي ظنت أنه ضاع قد عاد. بدأت تزغرد بقوة، والفرح يتدفق من أعماقها، ثم هرعت إلى المطبخ لتحضر الشربات احتفالًا بما اعتبرته انتصارًا. عندما عاد "جلال" من عمله ودخل الشقة، استقبلته ليالي بزغاريدها العالية، وأسرعت إليه لتضع في يده كوب الشربات، وهي تهتف بسعادة غامرة. نظر إليها بدهشة، وسألها باستغراب:

_إيه يا بت في إيه؟

ليالي بفرح:افرح معايا يا جلال! أمك اتلبت علقة سخنة من الولية اللي اشترت شقتنا!
جلال بتعجب:ليه؟ إيه اللي حصل؟
ليالي بسعادة:أصلها كانت فاكرة إنها لما تعمل معاها زي ما كانت بتعمل معانا هتسكتلها، لا لا! دي جات عند الشديد القوي، شوف سبحان الله دعواتي عليها مراحتش هدر، الحمدلله إن ربنا استجابلي.

حين همّت ليالي بالخروج من الشقة حاملةً صينية الشربات بفرحة عارمة، أوقفها "جلال" فجأة. جذبها من ثيابها بحدةٍ، حتى أصبحت قريبة منه، وعيناه تشتعلان بنار الغيرة. هتف بصوتٍ يفيض غضبًا وهي لا تزال تزغرد، غير مكترثة لغضبه، فقال:
_انتي عبيطة يا بت؟ رايحة فين؟

ليالي بسرور:رايحة أوزع شربات!
جلال بحدة:حريمي ميتكشفوش على حد غريب! أنا اللي هوزع! إنتي عاوزة الناس تاكل وشي ولا إيه؟
ليالي بضحك:انت توزع أنا أوزع، مفرقتش كتير، المهم إن ربنا هيرجعلي حقي من أمك.
جلال بشك:وربنا شكلك اتعبطي، هاتي ياختي!

استمرت ليالي في الزغاريد، ووجهها يفيض بالسعادة، بينما ارتفعت ضحكاتها إلى حد هستيري، منفسة عن سنوات من القهر. جلال، الذي لم يستطع إلا أن يستسلم لتلك الفرحة الجامحة، أمسك صينية الشربات بيده وخرج من الشقة باتجاه الشارع. كان يوزع المشروبات على الجميع، فأراد أن يشاركهم هذا الفرح الذي لم يفهم كنهه تمامًا، لكنه بدا معديًا. في تلك اللحظة، اتجهت "تقى" نحو والدتها، وسألتها بفضول:
_هو إنتي بتعملي كده ليه يا ماما؟

ليالي بفرح:اللهم لا شماتة بس أنا شمتانة، أصل ستك وقعت في إيد اللي مبيرحمش.

ثم رفعت كوب الشربات بيدها، مشربة منه بلهفة، متذوقة طعم الانتصار لأول مرة. وبعد أن ابتلعت آخر قطرة، انفجرت في زغاريد مدوية، تعبيرًا عن فرحتها العارمة، وهي تهتف ببهجة، قائلة:
_يارب كتر من الأخبار الحلوة، أنا بقالي كتير مفرحتش كده.
بعدما نزل "جلال" إلى الشارع، وقف وسط المارة المتجولين، يوزع الشربات بيدين مملوءتين بالفرح، وكأنما يزرع بذور السعادة في قلوب الجميع. توجه إلى أحد الرجال المارة، قائلًا بابتسامة عريضة على وجهه:
_خد يا باشا حلاوة شبكة أختي، عقبال عندكم.

الرجل ببسمة:ألف مبروك.
جلال بسعادة:الله يبارك فيك.

ثم مدّ "جلال" يده وأعطى الشربات لرجل كان يمر بجواره، قائلًا بنبرة حانية ومفعمة بالسعادة:
_خد يا حاج!
وأعطى الشربات لسيدة تمر بجواره، وقال بابتسامة دافئة تتناغم مع نبرات صوته:
_خدي يا حاجة حلاوة شبكة أختي.

السيدة بابتسامة:مبروك، ربنا يتمم بخير.

مرّت الشهور، وتعافت أم الديب لتعود قوية. على الجانب الآخر، حصل أحمد على مكافأة مالية كبيرة بعد نجاح البرنامج نجاحًا باهرًا، وبمناسبة هذا الإنجاز، جاء زياد وهايدي لزيارته وتهنئته، حاملين معهم هدية تعبيرًا عن فرحتهم بنجاحه. جلس الجميع معًا، حيث شارك أحمد شعوره بعدم تصوره أن البرنامج سيصل إلى هذا المستوى من الشهرة، مُثنيًا على دور جميلة التي بذلت جهدًا كبيرًا في الموسم الأول وكان لها دور كبير في هذا النجاح. أما هايدي، فقد عبّرت عن متابعتها اليومية للبرنامج وإعجابها بالمواضيع التي تناقشها جميلة. شعرت جميلة بسعادة غامرة، مُعتبرةً أن تحقيق هذا النجاح أشبه بحلم تحول إلى حقيقة. خلال الحديث، سأل زياد أحمد عن المكافأة، فلم يتردد أحمد في الإجابة، كاشفًا عن حصوله على مبلغ ضخم يقدر بعشرين مليونًا، ما أثار دهشة زياد وهايدي. لكن أحمد أكمل حديثه ليؤكد أن هذا فقط نصف المكافأة، وأنه لا يزال هناك عشرون مليونًا أخرى. ووسط دهشتهم، هنأته هايدي مجددًا، متمنيةً له المزيد من النجاح والثروة. أحمد بدوره لم يبخل في إبداء استعداده لدعمهم وقت الحاجة، مؤكدًا أن ما وصل إليه جاء بعد تعب، ومشجعًا الجميع على السعي لتحقيق أحلامهم بالاجتهاد. اختتمت الجلسة بامتنان متبادل بين الجميع، حيث عبّر زياد وهايدي عن سعادتهم، فيما انسحبت جميلة للحظات، تاركة الأجواء مليئة بالتفاؤل ثم عادت حاملة كعكة كبيرة، مزينة بصورتها مع أحمد، حيث يظهر كلاهما في لحظة حب عميقة، وهو يحتضنها برفق. حين رآها، نهض "أحمد" من مكانه مسرعًا، وعانقها بحبٍ، وكأن اللحظة كانت تمثل لهم كل شيء.
وقال بدهشةٍ:
_لا لا، إنتي بتهزري!

جميلة بسرور:ألف مبروك لينا يا روحي وعقبال باقية الـAchievements.
أحمد بامتنان:الله يبارك فيكي يا حبيبتي ودايمًا في تقدم، الفضل يرجع لربنا أولًا ثم ليكي.
جميلة برقة:أنا معملتش أي حاجة، دي ولا حاجة في اللي المفروض أقدمهولك! إنت بجد تستاهل أكتر من كده بكتير.
أحمد بحُب:ربنا يخليكي ليا يا حبيبتي وتفضلي جنبي طول العمر.
جميلة بعشق:.I Love You So Much

وضعت جميلة الكعكة فوق الطاولة برفق، ثم استقامت وعانقته، وقبلته من وجنته بحنانٍ غمر قلبه. وفي تلك اللحظة، نهض زياد وهايدي مُسرعين، ليلتحقوا بالاحتضان، حيث وقفوا جميعًا حول أحمد وجميلة في لحظة مليئة بالمحبة. قال "زياد" ببهجةٍ ووجهه يضيء فرحًا:
_مبروك يا أحمد، إنت فعلًا تستاهل كل خير.

أحمد بجذل:الله يبارك فيك يا زياد.
هايدي بحبور:مبروك يا حبيبي، مبروك يا جميلة.
جميلة بسرور:الله يبارك فيكي يا هايدي، طب إيه؟ يلا بينا بقى؟
هايدي باستعداد:يلا بينا.

اجتمع الرباعي حول الطاولة، حيث بدأت جميلة بوضع الشمع داخل الكعكة، وأعطت الشقة لمسة من البهجة بتشغيل الأغاني استعدادًا لهذا الحدث الذي طالما انتظرته حياتهم. كان اليوم مميزًا، فقد تحقق الحلم أخيرًا؛ أحمد أصبح مليونيرًا بعدما عانى من الفقر سنوات طويلة، لكن بجدّه ومثابرته، أصبح المستحيل سهل التحقيق. بينما كانوا يضحكون معًا في تلك اللحظة السعيدة، تغيّرت معالم وجه "هايدي" بشكل مفاجئ، فقد استنشقَت رائحة طريفة، فابتعدت بسرعة، وضعت يدها على فمها محاولة إبعاد الشعور الغريب الذي غزاها، وقالت:
_التورتة دي ريحتها زفرة!

جميلة بصدمة:أوه ماي جاد، إنتي بتقولي إيه؟
هايدي:اللي بقولهولك!

قبل أن تتمكن هايدي من السيطرة على نفسها، فرت نحو المرحاض مُسرعة، وأوصدت الباب خلفها بقوة، محاولةً إخفاء ما يعصف بها من ألم. كانت "جميلة" تراقبها بصمت، لكن فكرة غريبة بدأت تتسلل إلى ذهنها، فكأنما هناك حياة صغيرة قد بدأت تنمو في أحشائها، لتكون هي وزياد ثلاث أفراد بدلًا من اثنين. ابتسمت بخفّة، ثم قالت في نفسها بصوتٍ خافت، محاولَة أن تتجنب أن يسمعها أحد:
_معتقدش.

أحمد بتردد:عادي بتحصل، أنا هشوفلها مسكن.
زياد باستغراب:هي هايدي مالها؟

وقف "زياد" على باب المرحاض، وطرق الباب بلُطف وهو ينادي بصوت هادئ، حاول أن يخفف عن هايدي ما تشعر به:
_هايدي، لو تعبانة ناخدك ونروح للدكتور، هايدي!

خرجت "هايدي" من المرحاض متماسكة، رغم الألم الذي كان يعتصر قلبها، وقالت بصوت خافت، يختلط فيه الهمس بالألم:
=لا لا أنا تمام.
لكن هايدي لم تكن بخير كما قالت، فقد كان كل شيء واضحًا في تصرفاتها، وكان الألم يسيطر عليها بوضوح. هرعت نحو المرحاض مرة أخرى، وأوصدت الباب في وجه زياد بسرعة، بينما بدأ صوتها المأساوي يتسلل من خلف الباب وهي تتقيأ بألمٍ بالغ. في تلك اللحظة، حضر "أحمد"، حاملًا برشام المسكن وكوبًا من الماء، لكن كانت نظراته مليئة بالشكوك. شعر بشيء غريب في الموقف، وكأن ما تعاني منه أخته ليس مجرد أزمة صحية عابرة، بل ربما تكون أعراض حمل، تمامًا كما حدث مع جميلة في السابق، فقال:
_اللي بيحصل لهايدي ده حصل لجميلة قبل كده! بس أنا مش عايز أسبق الأحداث.

زياد:مش فاهم!
جميلة:لا لا احنا نوديها للدكتور ووقتها هنعرف مالها.
زياد:خلاص ناخدها نوديها للدكتور.

عاد زياد وهايدي إلى شقتهما، حيث أسرعت هايدي لتغيير ملابسها، بينما قامت جميلة بإعادة الكعكة إلى العلبة بعناية، ثم دخلت هي وأحمد لارتداء ثيابهما أيضًا. خرجوا جميعًا في طريقهم إلى الطبيب الذي كانت جميلة تتابع معه حملها. كان الطبيب معروفًا بسمعته الرفيعة وكفاءته العالية في طب النساء، وهو الخيار الأمثل للمساعدة في هذه اللحظة الهامة. في منزل أم الديب، كانت تراقب أم الفار من النافذة، وعندما رأتها تخرج وتسير في الشارع، قررت أن تتحرك. نزلت بسرعة وقطعت أسلاك الكهرباء عن منزلها، ثم صعدت إلى شقتها حيث وضعت غراءً قويًا على مقبض الباب، بحيث إذا حاولت أم الفار لمس الأوكرا ستلتصق يديها. نظرت "أم الديب" إلى العمل الذي قامت به وابتسمت ابتسامة خبيثة، بينما كانت تدبر في نفسها مكيدة جديدة، قائلة:
_تستاهلي يا بت الكلـ*، أديني قاعدة أهو مستنياكي ومورابيش حاجة! عيالي كلهم جوزتهم، وجوزي غار في ستين داهية بعيد، مقداميش غيرك انتي! يلا احنا ورانا إيه؟

بينما في منزل عم سلامة، كان الانشغال على أشده، حيث يستعد لتجهيز شقة ابنه التي سيستقر فيها بعد زواجه. دخل إلى المطبخ حيث كانت تباهي تحضر طلبات الرجال المتكررة، فطلب منها إعداد الشاي والغداء، مشددًا على كرم المنزل وتقديم الضيافة بلا حدود، رغم قلة الموارد المتبقية. بعد ذلك، صعد عم سلامة إلى شقة ابنه، حيث كان صابر يشرف على بعض التعديلات في ديكور الشقة. بناءً على طلب العروس، كان اللون التركواز الخيار المفضل لإحدى الحوائط، فيما اتفق صابر مع العامل على أن تكون بقية الحوائط بألوان فاتحة توازن المظهر، دون الإفراط في اللون، وأثناء تفقد عم سلامة للعمل، أشار إلى صابر بأن حمود يعاني من الحمى، وقد ارتفعت حرارته بشكل ملحوظ مما اضطر عائلته إلى اللجوء للمستشفى، بينما تظل ليالي بجانبه طوال اليوم، تحاول تهدئة حرارته.

قرر صابر، بعد الانتهاء من عمله في الشقة، الذهاب للاطمئنان على صحة الطفل، بينما غادر عم سلامة متجهًا إلى عمله، وترك لصابر متابعة ما تبقى من التجهيزات. اعتاد حمود على اللهو ليلًا ونهارًا في الشارع، لا يكترث بما حوله حتى أصابته عدوى فيروسية من أبناء الجيران. عاد إلى والدته وهو يئن من شدة الحرارة المرتفعة، وجسده يرتعش من البرد القارس، يرافقه صداع حاد ورشح قوي وسعال متواصل. كان يشعر وكأن أحدهم يطعن عظامه بالإبر. مكث على سريره يعاني من الحمى، و"ليالي" بجانبه، تسقيه الماء وتضع له الكمادات الباردة على جبينه. بينما كانت تجلس بجانبه، نظرت إلى تقى بقلق، وقالت بصوت منخفض يحمل بين طياته تحذيرًا:

_روحي بعيد يا تقى لا تتعدي من أخوكي!

تقى بخور:أنا خايفة عليه يا ماما!

ليالي بأمل:إن شاء الله هيخف بإذن الله.

دخل جلال غرفة النوم، فرفعت "ليالي" عيونها إليه بقلق، وسألته:

_إيه يا جلال في مكان في الحميات؟

جلال بأسف:لا مفيش، بس الداكتور هيجي هنا يديله حقنة هتنزله الحرار وبلا رجعة.

ليالي بتمني:يارب يا جلال، ده من اول إمبارح وهو حرارته عالية، وكل ما يدوق الأكل يقوم مرجعه تاني، والحرارة ماسكة فيه ماسكة سودة، لا أدوية نافعة ولا كمادات نافعة.

جلال بحدة:مانا قايلكم بدل المرة مليون بلاش الكراتية والچيلاتي! تلاقي كان فيهم مصيبة وهما السبب في عيا الواد.

حمود بألم:أنا مكلتش حاجة!

ليالي بتحنُّن:لا يا قلب أمك أنا عارفة إنك مكلتش حاجة، ماهو أصلنا دخلنا في الشتا والدور ده منتشر أوي، معلش يا حبيبي ربنا يشفيك ويعافيك.

حمود بنَهَج:تعبان ياما!

ليالي باستياء:ألف سلامة عليك يا قلب أمك، انشالله اللي يكرهك.

جلس جلال على السرير مقابلًا لتقى، بينما كانت هي تنظر إلى أخيها بحزن واستياء من حالته، فقد كان المرض يزداد ثقلًا عليه. في تلك اللحظة، رفعت ليالي الكمادات من جبهة حمود، وألقتها في المياه الباردة، ثم عصرتها بعناية قبل أن تعيدها إلى جبينه مجددًا، محاولة تهدئة حرارته. كان قلق "ليالي" واضحًا في كل حركة تقوم بها، وعندما نظرت إلى جلال، قالت بلهجة تحمل في طياتها توترًا:

_قولي يا جلال الداكتور جاي امتى؟

جلال:زمانه جاي.

استمعت الأسرة لطرق الباب، فنهض "جلال" على الفور، وكان القلق يملأ عينيه. توجه نحو الباب بخطوات سريعة، وقال بصوت منخفض لكنه حاسم:
_تلاقيه هو، خليكي هنا!
فتح "جلال" الباب للطبيب الذي كان يرتدي زي المستشفى، ويحمل حقيبته المملوءة بالأدوية. كان الطبيب يبدو جادًا ومهتمًا بحالة حمود، فخطا خطوة إلى الداخل. نظر جلال إليه بقلق، وسأله بسرعة:
_ها يا داكتور جيبت الحقنة؟

الطبيب:أه معايا، المريض فين؟
جلال بتردد:جوا، بس الله يسترك بلاش تتكلم قصاده ولا توريهاله لا يخاف ويصرخ!
الطبيب بثقة:لا متقلقش، هو أساسًا مش هيحس بحاجة!

بينما دخل الطبيب إلى الغرفة، اتسعت عيون حمود البريئة متسائلة عن هذا الزائر الغريب الذي يقترب منه بابتسامة مطمئنة. وقفت ليالي بجانبه، عينها لا تفارق ابنها، يكسو وجهها القلق، مُتحسسة كل دقة من نبضات قلبه الصغير. بعد أن عاين الطبيب الطفل بحرص، أخرج الحقنة ليعطيه الدواء. ومع وخزة الإبرة، تعالت صرخات حمود مفعمة بالألم، ليجد نفسه بين أحضان والدته التي سارعت بتهدئته بكل عطف. وحين انتهى الطبيب من عمله، خرج ليجتمع مع جلال خارج الغرفة، ووقف يتحدث إليه بحذر. قدم الطبيب لجلال الروشتة، مشيرًا إلى ضرورة تناول الدواء قبل الطعام لمدة أربعة أيام. شكر جلال الطبيب على جهوده، لكن غصة في قلبه عبّرت عن انزعاجه من تكلفة العلاج، إلا أنه لم يكن ليبخل بأي شيء على فلذة كبده، فلطالما كان صغيره هو أغلى ما يملكه. خرج الطبيب مودعًا العائلة، وأغلق جلال الباب خلفه بقوة، غارقًا في أفكاره المتضاربة. حاول أن يظهر الصلابة أمام ولده، مؤكدًا له أن الحياة تحتاج قوة وأنه يتمنى أن يراه يومًا بمثل صلابة الصخر. ورغم محاولاته، بقيت ليالي مصرة على أن الطفل، رغم صغره، يحتاج شيئًا من الرأفة، فما زال قلبه ضعيفًا وروحه بريئة.

عادت أم الفار من السوق محمّلة بأكياس الخضروات والفواكه الطازجة، كانت قد أرهقتها الرحلة الطويلة، لكنها تابعت صعودها إلى شقتها بصبر. عند وصولها، وضعت الأكياس جانبًا ومدّت يديها نحو الأوكرا لفتح الباب، لكنها فوجئت بأن يديها التصقت بالغراء المتين الذي وضعته أم الديب. وكلما حاولت سحب يديها، زادت مقاومتها، حتى فشلت في تحريكهما. فصاحت بسخط شديد. ظهرت "أم الديب" من سلالم السطح حاملةً فأرًا حيًا في يدها. اقتربت منها، نظرت إليها بشماتة وهي تكافح مع الغراء، وسألتها بسخرية:
_ازيك يا ولية؟ إيه دهو مالك؟ إيه اللي جرالك بس؟ إيديكي لزقت في الباب؟ يلا زي بعضه تعيشي وتاخدي غيرها!

أم الفار بصراخ:يا لهوي، إيه اللي في إيدك ده؟
أم الديب بهدوء:فار، هو مش إنتي إسمك أم الفار برضك؟ ده إنتي قلبك حجر يا ولية، بقى تشوفي ابنك قدام عينيكي وميهونش عليكي تاخديه بالحضن؟ ولا صحيح هتاخديه بالحضن ازاي وانتي إيديكي شابطة في الباب زي ما ليالي العقربة كانت شابطة في جلال ابني؟ الله يمسيكي بالخير يا ليالي، بس عشان آني طيبة وشايفاكي ملهوفة على ابنك ضناكي بس ما باليد حيلة، آني هحطهولك في عِبك عشان يبقى الفار بيلعب في عِبك بحق وحقيقي.
أم الفار بإعوال:يا لهوي، ابعدي عني! يا ناس الحقوني من الست المجنونة دي!

اقتربت "أم الديب" من جمالات، ورفعت الفأر الحي ووضعته في ثيابها، مما جعل جمالات تصرخ بشكل هستيري، تترنح من شدة الرعب، حتى أغشي عليها من هول المفاجأة. في تلك اللحظة، كانت أم الديب تتجول حولها، تبحث عن المفتاح في ثيابها بسرعة، وعيناها لا تكفان عن التحديق في كل زاوية. أخيرًا، استطاعت فتح الباب ودخلت الشقة، وهي تواصل البحث عن عقد الشقة. بدأت تبحث بعنف في كل ركن، وقالت بصياح، وقد بدأ القلق يعصف بها:
_انت روحت فين إنت كمان؟ آني مش هسكت إلا لما ألاقيه وأرجع حقي من الولية أم الفار، حاطاه فين ياللي يشيلوا ويحطوا عليكي؟

بعد معاناة طويلة، عثرت "أم الديب" على عقد الشقة في درج الخزانة. انتابها شعور بالانتصار، فابتسمت ابتسامة خبيثة وراحت تزغرد فرحًا، بينما كانت تحتضن العقد بحنان وكأنها قد حققت هدفًا عظيمًا، وقالت بسعادة، وهي تضمه إلى صدرها:
_يا حبيبي يا غالي، طب ده إنت عندي أغلى من جلال ابني، أمال إيه؟
خرجت أم الديب من الشقة بحذر، ووجهت ضربة قوية بأقدامها إلى أم الفار، وهي تبتعد بعيون مليئة بالشر. نزلت بسرعة إلى الشارع، حيث بدأت في التخطيط بكل ذكاء لما ستفعله مع هؤلاء الذين تظن أنهم عائق أمامها. استعانت بأحد المحامين لتغيير ملكية الشقة من أم الفار إليها، وبذلك يصبح العقد في عهدتها. ثم تقرر الذهاب لتوثيق العقد في الشهر العقاري، ولكنها كانت تدرك أن الوقت لم يحن بعد لتنفيذ تلك الخطوات. في إحدى عيادات أطباء النساء والتوليد، كان المكان يعج بالنساء الحوامل من الطبقات العليا اللاتي ينتظرن دورهن مع أزواجهن. في الخارج، كان أحمد يلهو مع طفلتيه، يطير معهما في عالم من البهجة، بينما دخلت جميلة مع زياد وهايدي إلى الطبيب. جلس الثلاثة أمام مكتبه بعد أن أجروا التحاليل وأعادوها إليه. تقدمت "جميلة" لتتحدث، شارحة حالة هايدي، وهي تشرح بجدية ما تعانيه:
_هايدي متجوزة بقالها فترة طويلة يعني حوالي ست شهور أو سبعة.

هايدي بتفكير:سبع شهور!
جميلة:وجالها أعراض زي اللي جاتلي أيام ما كنت حامل في سيليا، فهل ده ممكن يكون حمل؟
هايدي برهبة:لا لا حمل إيه؟ ماحنا اتفقنا مفيش خلفة دلوقتي!

زياد بضحك:عادي يا هايدي، إيه المشكلة؟ إنتي يعني مستخسرة فيا طفل؟
جميلة بدهشة:طب يا دكتور، مش هتسألها عن الأعراض؟
الطبيب بارتياب:أنا مش محتاج أسألها عن الأعراض، كل حاجة قدامي أهو في التحليل!

كانت هايدي دائمًا تأخذ موانع الحمل سرًا دون علم زياد، لأنها كانت تخشى أن تُورط نفسها في مسؤولية الأمومة في وقت لا تشعر بأنها قادرة على تحملها. وعلى الرغم من ذلك، كانت تخبره بأنها تترك الأمور تسير كما هي، لكنها لا تفضل الإنجاب في الوقت الحالي. لكن السؤال الذي طرحه "الطبيب" عليها وقع عليها كالصاعقة، فشعرت بقشعريرة تجتاح جسدها للحظة، وعينيها تمتلئان بالحيرة. حينما سألها:
_هو إنتي كنتي بتاخدي أي موانع؟

هايدي بخِداع:لا طبعًا أنا سايبة كل حاجة زي ما تيجي.
الطبيب:بصي يا أستاذة هايدي.

ثم التفت نحو زياد، وسأله باهتمام، محاولًا فهم الموقف بشكل أفضل:
_حضرتك جوزها صح؟

زياد بهاجس:أيوه أنا جوزها، بس هو في حاجة ولا إيه؟

أخبرهم الطبيب أنهم بحاجة إلى إجراء السونار للتأكد من حالتها. نهضت هايدي برفقة الطبيب، وجلست على السرير، حيث وضع الجل على بطنها، وبدأ يحرك الجهاز برفق، حيث كانت الشاشة تعرض صورة الرحم بوضوح. وعندما تأمل في الصورة، أيقن أن هايدي تعاني من عيب خلقي في الرحم، وهو ما يمنعها من الحمل بشكل طبيعي. بعد لحظات من التمحيص، عاد "الطبيب" إلى مكتبه، حيث جلس الجميع مرة أخرى. نظر إلى هايدي بأسف، وقال بصوت هادئ ولكنه جاد:
_انتي للأسف عندك عيب خلقي في الرحم هيمنعك من الحمل، بس ممكن لو عملنا العملية يخف، بس الصراحة نسبة الشفاء لا تتعدى العشرة في المية، وحالة واحدة من كل مية حالة هي اللي بتنجح، بس أملنا في ربنا كبير.

جميلة بصدمة:ياربي، طب... طب يا دكتور ده عقم؟
الطبيب بتأكيد:بكل أسف أه، بس متقلقوش ساعات الحاجات دي بتعدي التوقعات وبيحصل حمل من عند ربنا، بس الحقيقة هو ممكن ميكملش ويتسبب في تشوهات للجنين.
زياد بتلجلج:عادي...عادي يا دكتور، احنا مش عايزين نخلف دلوقتي!
الطبيب بوضوح:الحقيقة هو لا هينفع دلوقتي ولا بعدين، بس أنا هكتبلها على علاج لعل وعسى تحصل معجزة من عند ربنا.

كان الخبر صاعقًا على قلب هايدي، فلم تجد كلمة تقال. ظلّت صامتة، وعينيها فارغة، بينما بدأ ذهنها يذهب إلى كل لحظة تناولت فيها حبوب منع الحمل، معتقدةً أنها تحمي نفسها من الإنجاب، دون أن تعلم أن الإنجاب كان مستحيلًا في الأساس. كانت تشعر وكأن الحياة تحولت إلى شاشة سوداء، وجسدها يبرد، وعينيها تتوقف عن الحركة. أما زياد، فتقبل الخبر بهدوء، لم يعبر عن أي تذمر أو اعتراض، بل بدا عليه الرضا، والأمر قد انتهى في ذهنه. بينما كان الطبيب يكتب لها علاجًا مؤقتًا حتى يتسنى له تحديد موعد للعملية، لم تنطق هايدي بكلمة. كانت في حالة من الصدمة، لا ترد ولا تعبر عما تشعر به. وعندما انتهى الطبيب، نهضت هايدي ببطء وخرجت من الغرفة، وفي صمتٍ عميق تركت العيادة تمامًا وهي تدمع. في الخارج، وقف "أحمد" ممسكًا بأسيل، ومتشبثًا بذراع سيليا، حين لاحظ أن الجميع كان في حالة من الشحوب. شعر بشيء غريب في الأجواء، فأخذ يراقب الجميع، ثم قال بترقب:
_إيه؟ هايدي مالها؟

نظر زياد إليه بحزن، ثم خرج في صمت وراء هايدي دون أن يُجيب، تاركًا "أحمد" في حالة من التساؤل.
نظر أحمد إلى جميلة بتردد، وكان يبدو عليه القلق، ثم سألها بصوت منخفض:
_في إيه يا جميلة؟ هايدي مالها؟

جميلة بشجن:هايدي عندها عقم.
أحمد بصدمة:إيه؟

لم يستوعب أحمد تمامًا ما قالته جميلة، فخرج الجميع من العيادة وركبوا السيارة. طوال الطريق، كان زياد يحاول الحديث مع هايدي، لكنه كان يجدها صامتة، لا تجيب ولا حتى تنظر إليه. كانت هايدي تشعر بوطأة الواقع عليها، وتفكر في أن زياد قد تحمل منها كثيرًا، والآن جاء خبر عقمها ليزيد من عبء الحياة. كانت تعلم جيدًا أن زياد له الحق في الإنجاب، وأنه يستحق أن يكون سعيدًا، وأن يكون له أسرة خاصة، خاصةً بعد فقدانه والديه، وعليه أن يجد السعادة. بينما هي، دموعها كانت تهبط في صمت، ولا تملك القوة للكلام.
بمجرد أن وصلوا إلى المنزل، خرجت هايدي من السيارة مُسرعة، وزياد يلاحقها، يحاول التحدث إليها بكل الطرق، لكنه لم يلقَ أي استجابة. حتى وصلوا إلى المصعد، ودخلوا الشقة، حيث دخلت هايدي غرفتها بسرعة وصكت الباب وراءها. تركت زياد يقف أمام الباب، يطرقه باستماتة، وكلمات القهر تملأ قلبه. في نفس الوقت، صعد أحمد وجميلة مع فتياته إلى شقة زياد، ودخلوا جميعًا. تقدم أحمد إلى الباب وطرقه برفق، بينما كان "زياد" يصرخ بحزن من وراء الباب قائلًا بقهر:
_هايدي! افتحى يا هايدي! أنا مش عايز حاجة! أنا عايزك تفتحي وتردي عليا!

أحمد بصخب:هايدى افتحي! افتحي ونتكلم يمكن نلاقي حل!

كانت جميلة واقفة بعيدًا، حاملةً أسيل بين ذراعها، وحاضنةً سيليا بالذراع الآخر، وكانت ملامح وجهها تشير إلى حزنٍ غائر، تراقب ما يحدث من بعيد. بينما كان "زياد" يطرق الباب بقوة، قلبه مليء بالخوف على هايدي، كان يخشى أن تتهور وتؤذي نفسها في لحظة من الضعف. وأثناء ذلك، رفع صوته وقال:
_هايدي علشان خاطري! هنتكلم طيب وأكيد ليها مليون حل، هايدي ردي عليا! صدقيني أنا مش عايز حاجة غيرك انتي! أنا بحبك وراضي بيكي كده! ومش عايز أخلف ويكون عندي أطفال ولو حصل فيكون منك مش من حد تاني! يا هايدي علشان خاطري، سكوتك بيقتلني!

أحمد بإلحاح:هايدي افتحي علشان خاطر أخوكي! أنا مستعد أسفرك تعملي عملية برا بس ردي! يا حبيبتي كل حاجة في الدنيا وليها مليون حل، وإنك تقفلي على نفسك وتقلقينا ده مش حل!

بعد محاولات طويلة من أحمد وزياد بلا جدوى، وبكاء جميلة بعيدًا حزنا على حال هايدي، خرجت هايدي من غرفتها، حاملة حقيبة كبيرة ممتلئة بثيابها. كانت في طريقها للخروج من الشقة، هاربة من الألم الذي يثقل قلبها. لكن "زياد" وقف في طريقها، وأمسك بيدها بلُطف، ثم قال باعتراض، بينما كان الألم يغمر قلبه:
_استني! إنتي رايحة فين؟

هايدي ببكاء:أنا هرجع على أهلي، وصدقني يا زياد أنا متنازلالك عن كل حاجة هنا، الشقة بكل حاجة فيها هسيبهالك تتجوز فيها وتلاقي اللي تناسبك وتكون سليمة وبتخلف! لكن أنا... أنا عندي عـ....

انهمرت دموع "زياد" من عينيه وهو يضع يده على فمها، محاولًا تهدئتها وكأنه يريد أن يمسح كل ألمها، قال بصوت مبحوح، مغمور بالدموع:
_مش هتكمليها! عارفة ليه؟ لأن ربنا رحمته وسعت كل شيء وقادر يغير كل ده في يوم وليلة! أنا بحبك يا هايدي ومش عايز حاجة غيرك انتي! واللى بتقوليه ده مش هيحصل! محدش هيعيش هنا غيرك انتي! مفيش واحدة غيرك هتقاسمك فيا! أنا ليكي إنتي وبس، ممكن ترجعي عن قرارك ده؟

جميلة بابتسامة:هايدي إنتي اللي بتعمليه ده غلط! نروح لدكتور واتنين وتلاتة، مش يمكن الدكتور ده كلامه غلط؟
أحمد بتوافُق:أيوه فعلًا بتحصل والله! وبعدين مامة زياد كانت زيك وأكتر وأهي خلفت راجل قادر يصونك ويحافظ عليكي!
زياد بأمل:أيوه ماما كانت زيك وأكتر يا هايدي! أكتر بكتير مما تتخيلي و....
هايدي بأسى:انت سليم ومفيكش أي عيب! العيب فيا أنا! من حقك تتجوز وتشوف حياتك، ده مش ذنبك إنت إن أنا طلعت كده!
زياد بإصرار:وأنا مش عايز حد غيرك! علشان خاطري، ليها حل صدقيني! إنتي ليه مش عايزة تقتنعي إن ليها حل؟

هايدي بعُبوس:طلقني يا زياد!
زياد بصدمة:إيه؟

كان قرار هايدي الوحيد هو الطلاق، رغم ما كان يعتصر قلبها من ألم وهي تتخذ هذا القرار اللصب. كانت ترى أن هذا هو السبيل الوحيد لمنح زياد الفرصة للزواج من امرأة أخرى، امرأة تستطيع أن تمنحه ما عجزت عن منحه له: أسرة، أطفال، حياة مليئة بالفرح. أما هي، فكانت تعلم جيدًا أن مشكلتها ليست بسيطة، بل كانت معقدة لدرجة تجعل الإنجاب أمرًا مستحيلًا بالنسبة لها. لكن حديثها كان بمثابة الصاعقة لزياد، الذي شعر أن الأرض قد اهتزت تحت قدميه. تجمد في مكانه، ولم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة. كان كمن تلقى ضربة مفاجئة أفقدته القدرة على الحركة.

يتبع...

الفصل السادس والعشرون

عادت هايدي إلى منزل عائلتها في قرية أبو حلاوة، رغم بكاء زياد الذي فاض لأول مرة من أجلها، ورغم أن قلبه كان يصرخ على غير عادته، مُتوسلًا بأن لا تتركه وحيدًا في صحراء الحياة. كان قرار الانفصال كالسيف القاطع، لا يسهل تحمله. حُب زياد لهايدي كان ينبض في أعماقه كالنار، تعلق بها تعلقًا يفوق الوصف، فكيف له أن يتصور حياته بدونها؟! هي، مع ذلك، كانت قد أصرت على الطلاق لتمنحه فرصة الحياة مرة أخرى، للزواج من امرأة أخرى، وإنجاب أطفال؛ فبعد اكتشاف عقمها، تحولت الحياة معها إلى جحيم. أما أحمد وجميلة، فقد كان لهما دورٌ بالغ الأهمية في تلك اللحظات العصيبة، يحاولان بكل ما أوتيا من قوة إقناعها بالبقاء، نصائحهم لم تجد سوى صدى صمتها. كان عقلها قد تحجر، وأصبح انفصالها عن زياد مطلبًا حتميًا، وكل كلمة تحاول قولها أصبحت تهتف بهجره. ومع يأسها المُتصاعد، بدأت تصرخ مصرة على المغادرة. ولتهدئة ذلك البركان، أخذها أحمد في سيارته، مُتوجهًا بها إلى القرية، حيث تبتعد عن تلك المشاعر التي كانت تلاحقها كالأشباح.

بدأت أم الديب في تنفيذ خطتها الماكرة التي عقدت العزم على تحقيقها، فغيرت ملكية الشقة لها من جديد، ولم تكتفِ بذلك بل ذهبت مع نعمة لتوثيقها في الشهر العقاري، لتصبح لها الأحقية أمام الحكومة. كانت طموحاتها تتعدى حدود المنطق، فقد أرادت أن تضع ليالي وجلال تحت أقدامها، تذلهم وتستعبدهم كما كانت تفعل سابقًا. كل مساء، كانت تذهب قبال العمارة، تصرخ وتسب مالكها وسكانها، فينزل جلال إليها، يواجهها بالشجار، ويتجمع الناس حولهما، يحاولون تهدئة الأوضاع، فتغادر لتعود في اليوم التالي، وتعيد نفس المسرحية. أما ليالي، فقد أصبحت عاجزة عن مُواجهة جيرانها بعدما أخبرتهم أم الديب بأنها تسبهم أثناء حديثها مع والدتها في الهاتف، فصدقوا كذبها. مع مرور الوقت، بدأت المشكلات تتفاقم، فقرر جلال مُغادرة العمارة والانتقال إلى عمارة أخرى بعدما طردهم مالك العمارة، لكن هذه المرة دون أن يخبر والدته بموقعه الجديد. ومع ذلك، كانت أم الديب على علم بتحركاتهم من خلال الدجال، فتذهب إلى مُلاك العمارات، وتدنس سمعة جلال وزوجته، مما جعلهما منبوذين من كل مكان. أخبرتهما أن ملكية المنزل أصبحت في يدها، وإن لم يعودا، فلن يرث جلال نصيبه في المنزل مع أخواته. فثارت ثورة جلال، وصرخ فيها بأعلى صوته، وكانت النتيجة أن عادوا إلى شقتهم بأثاث منزلهم بعد أن طردت أم الديب جمالات، فاستعاد كل شيء كما كان. كانت "ليالي"، جالسة على الأريكة بجوار جلال، تندب حظها في قهرٍ، قائلة:
_آه يا بختك الأسود يا ليالي! وأنا اللي قولت هنخلع منها وهنرتاح من همها؟

جلال بيأس:خلاص يا بت، اللي حصل حصل، مبقاش ينفع نغيره.
ليالي بحسرة:ما كان من الأول ياخويا! بعد ما طلع عينينا وشيلنا العفش ونقلناه، نقوم راجعين هنا تاني برجلينا؟
جلال بسلبية:هنعمل إيه طب؟ آدي الله وآدي حكمته!
ليالي بصياح:بقولك إيه يا جلال! أنا مش نازلة أخدم حد! خلي أمك تشوفلها خدامة وتسيبنا في حالنا!

فجأة، سمعت ليالي صوت أم الديب يناديها، وكان صوتها غليظًا حادًا، يتسلل إلى الأعماق وكأنه يضغط على قلبها بشدة. نادت "أم الديب"، بنبرة احتقار:
_يا ليالي!

ليالي بغيظ:يا مراري منك.

نهضت ليالي وهي تثرثر بالمسبة التي تتطاير من بين شفتيها، وحنقها يكاد ينفجر. خرجت من شقتها بعصبية، تتنفس السخط في كل خطوة. نزلت إلى حيث كانت "أم الديب" تنتظرها، وعينها مليئة بالتحدي. وعندما اقتربت منها، قالت لها حماتها بحسم:
_هتغسليلي المواعين عقبال ما أرجع من السوق وتسيقيلي المطبخ!

ليالي بتضايق:طيب.

حتى خرجت أم الديب من المنزل متُجهة إلى السوق، فدخلت ليالي إلى المطبخ مُجبرة على غسل الصحون، وهي تحمل في قلبها أثقالًا من القهر، تجرّ مع كل حركة أملها الضائع في أن يرث زوجها المنزل مع أخواته. كانت تردّد بصوت مكتوم في نفسها، فيما كانت يدها تعبث بالمواعين بامتعاض، وفي تلك اللحظة، خرجت هايدي من المرحاض، وقد غطت ملامح وجهها سحابة من البؤس، وعندما دخلت المطبخ لتستخرج زجاجة الماء من المبرد، نظرت إليها "ليالي"، فهزّتها مشاعر الحزن، وقالت بتأثر:
_مش هترجعي بيتك بقى يا هايدي؟ وهو جوزك ذنبه إيه بس؟ وبعدين هو كان اتكلم ولا فتح بوقه بكلمة؟

هايدي بإصرار:أنا عند كلامي ومش هرجع فيه، وقولتلكم إن من حقه يتجوز ويخلف!
ليالي بأمل:ياختي مالك شايلة طاجن ستك كده ليه بس؟ اعملي العملية وسيبي الباقي على ربنا، ده اللي زيك كتير وأهو دلوقتي معاهم بالعيلين والتلاتة.
هايدي بإحباط:ربنا يسهل يا ليالي.

شربت هايدي المياه، ثم جلست على الأريكة، غارقة في عزلةٍ عميقة، وضعت سماعات الهاتف في أذنيها، واستسلمت للألحان الحزينة التي تتسلل إلى أعماق روحها. كلما ترددت كلمات الأغنية في أذنيها: "وبقوله وحشتني جدًا، وفرقت معايا، وفعلًا... مش قادر عالشوق ولا حتى أخبيه"، كانت دموعها تنهمر بغزارة، وكأنها تسكب في كل قطرة منها حزنًا لم تقدر على احتوائه. كانت تلك الأغنية كمرآة لروحها، التي لم تُقتلع من جسدها بعد. أما "ليالي"، فقد كانت تغسل الصحون في المطبخ، وعيناها تراقبان هايدي من بعيد. لم تملك سوى أن تتأثر لرؤيتها وهي تبكي، فحركت شفتيها بصوت منخفض، محملًا بالأسى:
_يا حول الله يارب، ربنا يديها ويرزقها.

أما "زياد"، فقد كان يستمع لنفس الأغنية، ووسط الألحان الحزينة، وصلت الكلمات إلى قلبه كطعنة "ياه عالدنيا لما تفكر تعاندنا ليه على غفلة عن أغلى الناس تبعدنا؟ ليه وفي ثانية تاخد مننا حبايبنا؟" فانهمرت دموعه، وتوغل الحزن في ملامحه أكثر. على الرغم من أن لحيته كانت دائمًا قصيرة وخافتة، إلا أنها ازدادت طولًا، كأن الأيام مرّت به وكأنها سنوات من الألم. كان جالسًا فوق السرير في الشقة الفارغة، التي كانت مليئة بالحياة عندما كانت هايدي بجانبه، أما الآن، فهي مجرد جدران صامتة لا تحمل سوى الذكريات. بينما في يديه كان هاتفه، يتصفح الصور التي جمعتهما، وكل صورة تزرع في قلبه جرحًا أعمق. في هذا الأسبوع الذي مر، لم يستطع النوم، ولا حتى تناول طعامه. فقد خسر الكثير من وزنه، وأصبحت الهالات السوداء تحيط بعينيه نتيجة السهر الطويل، وكان الفراق يطغى على كل تفاصيل وجهه. رفع هاتفه في لحظة ضعف، واتصل بهايدي، ولكنها رفضت المكالمة. نظر إليها عبر الشاشة، فتهدلت كلماته على شفتيه، وقال بيأس، وعيناه مرغرغتان بالدموع:

_برضة يا هايدي مصممة؟

وضع زياد هاتفه جانبًا، ثم نهض ببطء كمن يحمل جبلًا على كتفيه، ودخل المرحاض ليغسل وجهه الذي لطالما اغترفته الدموع، بينما كان قلبه يعتصر شوقًا لهايدي. غسّل وجهه محاولًا أن يخفف من تلك الدموع المتجددة، لكن الألم في أعماقه لم ينتهِ، ولا حتى لحظة صمت. أما أحمد، فقد تغير كثيرًا منذ أن أصبح مليونيرًا. بدأت تبدو عليه آثار التغيرات التي جلبتها الأموال، فأصبح أكثر جفاءً مع جميلة، وكأن الحياة المادية قد بدأت تسلبه جزءًا من إنسانيته. كانت "جميلة"، في تلك اللحظات، تستعد للسهرة التي وعدها بها، فدخلت غرفة النوم، مستعرضة أمامه الفساتين، تحاول أن تختار الأنسب لما تود ارتداءه في تلك الليلة. بينما كان أحمد جالسًا على السرير، متشبثًا بهاتفه، غارقًا في عالمه الخاص، دون أن يولي أي انتباه لما حوله.

فقط عندما دخلت إليه، سألته بحُب:

_بليز يا حبيبي، إيه الأحسن؟ الفستان ده ولا ده؟

أحمد بلا مُبالاة:ده!

جميلة بدهشة:وهو إنت بصيت أصلًا؟

نظر "أحمد" نظرة سريعة إلى الفساتين المتناثرة أمامه، ولم يبالِ كثيرًا بالتفاصيل. أشار سريعًا إلى أحد الفساتين العشوائية، وهو لا يزال غارقًا في هاتفه، وكأن كل شيء حوله قد فقد أهميته. بينما كانت جميلة تراقب حركته، قال:

_أه ده حلو.

جميلة باستياء:بس علفكرة الفستان ده مفتوح جدًا من فوق، إيه مخدتش بالك من حاجة زي دي؟

أحمد بسخرية:ولما إنتي عارفة يا جميلة إنه مش مناسب، بتسأليني ليه؟ ولا هو عاملالي إختبار كأننا في مدرسة؟

نهض أحمد من السرير بقسوة، كانت خطواته ثقيلة، وكل حركة تحمل ثقلًا من التغيرات التي بدأت تطغى على شخصيته. رغم أن ظاهره كان يبدو عاديًا، إلا أن كلماته كانت قاسية، تحمل في طياتها مسافة باردة تبتعد عنهما. كانت "جميلة" تراقبه بعينين حذرتين، لم تستطع تجاهل ذلك التغيير الذي بدأ يطرأ عليه.
فقالت، وقد اعترتها الصدمة:
_أوه ماي جاد!

أحمد بامتعاض:ياريت يا جميلة تنسي عيشة أهلك وتعيشي عيشة جوزك! يعني يا حبيبتي بلاش كل جملة ندخل فيها كلمة إنجليزي، أنا مش عايز البنات يبقوا كده لما يكبروا!
جميلة بصدمة:مش عايز البنات يبقوا كده؟

استرجعت "جميلة" ذاكرتها، وعادت بها الأيام إلى تلك اللحظات السعيدة التي كانا فيها يرقصان معًا في زفاف قمر الدين، حيث كانت الرومانسية تملأ الأجواء، ووجوههم تفيض بالفرح. تذكرت كيف كانت تلتصق به، تشبثت في عنقه بلُطف، ساعية إلى أن تدمج قلبها مع قلبه في لحظة واحدة لا تنسى. وفي تلك اللحظة، قالت له بدلال، بينما كانت عيونها تتألق بالحُب:
_عارف؟ أنا بجد بتمنى يوم ما سيليا تكبر وتكون عروسة، إنها تلاقي Husband حلو وقمر زيك! بس معتقدش إنها هتلاقي، لأن اللي زيك خلصوا متبقاش منهم غير واحد بس وهو انت!

أحمد بحُب:وأنا بتمنى إن سيليا وأسيل لما يكبروا يكونوا نسخة منك في كل حاجة، شكلك وأناقتك وشخصيتك وتفكيرك بكل حاجة فيكي! عارفة يا جميلة؟ أنا من أول مرة شوفتك فيها وقولت بس تاهت ولقيتها، هي دي اللي هتنفع تكون في يوم من الأيام أم لأولادك! واللي يفرح أكتر إن كل اللي حلمت بيه اتحقق على أرض الواقع، أنا لو أشكر ربنا طول حياتي مش هيكفي على إنه بعتلي هدية كبيرة زيك!

عادت "جميلة" إلى تلك اللحظات المريرة التي تخفيها في أعماقها، وأغمضت عينيها للحظة كأنها تحاول تجنبها، ثم نظرت إليه بدهشة لا تخلو من الألم. حيث قالت بصوت خافت:
_كان فين كلامك ده يوم فرح قمر الدين؟

أحمد ببسمة:لا يا حبيبتي مش قصدي، أنا اللي أقصده متتكلميش إنجلش عمال على بطال، أنا متربتش على الطريقة دي عشان البنات هما كمان يطلعوا كده!

ثم أشار إلى الفستان الأحمر، وقال بحُب مصطنع، والكلمات تخرج منه ببرود لا يتماشى مع مشاعره الحقيقية:
_على العموم الفستان ده حلو!

تركها أحمد دون كلمة إضافية، فخرج إلى الصالة وجلس على الأريكة، ممسكًا بهاتفه بلا اكتراث، والعالم من حوله لا يعنيه. أما جميلة، فقد كانت غارقة في التساؤلات، مُستغربة من التغير المفاجئ في تصرفاته. حاولت أن تجد تفسيرًا لذلك التحول الذي طرأ عليه منذ أن تذوق طعم الثراء، وأخذت تفكر في نفسها: ماذا لو تحول إلى ملياردير كوالدها؟ ماذا سيفعل حينها؟ هذه الفكرة زعزعت راحتها، وأثارها القلق. فوضعت الفساتين على السرير بسخط، وجلست منهكة تفكر، وهي لا تجد جوابًا يُرضيها. في سوق قرية أبو حلاوة، كان الفلاحون يتجولون بين الأكشاك، يتبادلون السلع. هنا كان أحدهم يشتري البطاطا والطماطم، وآخر يملأ سلته بالباذنجان، وآخر يحمل صناديق من أفراخ الدجاج، ومنهم من يرفع صندوق السمك فوق رأسه. كان السوق يعج بالحركة، ولكن وسط كل هذا الزحام، كانت "أم الديب" تسير مُتقدمة نحو البائع الذي كان يملأ دلوه بالخضار. نظرت إليه ببخلٍ، وسألته بصوت جاف:

_البطاطس المدودة تعملها كام؟

البائع باستغراب:انتي بتقولي إيه يا حاجة؟ هو في حد بيشتري بطاطس مدودة؟

أم الديب بصخب:ياخويا إنت مالك ومال اللي جابوك؟ البطاطس آني هنقيها وهطلع الدود منها، هو الدود هيضرنا في إيه؟ طب دهو كله فوايد.

البائع بصدمة:لا حول ولا قوة إلا بالله، طب خدي من البطاطس دي يا حاجة، الكيلو باتنين ونص.

أم الديب بمزاح:وتعالى بص.

تغيرت نبرة صوت "أم الديب" للحدة فجأة، وكأنها قد استدركت شيئًا ما جعلها تفقد هدوءها. نظرت إلى البائع، ثم واصلت بصوت حاد، يتخلله الغضب:

_هاتلي اتنين كيلو!

جمع البائع أردأ أنواع البطاطا التي كانت متناثرة على الأرض، تلك التي تملأها الثقوب ويشوبها الدود. كانت البطاطا ملقاة تحت الأقدام، يدوس عليها المارة بأحذيتهم، وتحيط بها الحشرات من كل جانب. مع ذلك، حاول "البائع" أن يختار ما يمكن اعتباره سليمًا ظاهريًا من بينها، فيواري العيوب بشيء من الحذر، ويضعه في الكيس المتهالك. وبينما كان يفعل ذلك، نادى بصوت عالٍ:

_بخمسة يا بطاطس.

أم الديب:هاتلي كيلو طماطم من قعر القفص.

البائع بشَدَه:بس دي بايظة يا حاجة!

أم الديب بانزعاج:كله هيتدارى في بعضه، اوزنلي بس وخلص!

البائع:أمرنا إلى الله.

اختار البائع الطماطم المهروسة، التي لا تكاد تُرى من كثرة الدود الذي يغزوها، وجمعها داخل الكيس بخفة كبضاعة لا يهمه حالها. ثم مد يده بالأكياس إلى "أم الديب" ، التي كانت تنظر إليه بعينين جاحظتين، ثم مدت يدها بالنقود له دون اكتراث، فقالت له بنبرة جافة:
_خد!

البائع بصدح:التحمير بستة، والطبيخ بخمسة.

بعد أن أخذت "أم الديب" الخضار، توجهت إلى مكان بيع الفاكهة. كان هناك رجل في الثلاثين من عمره، يجتمع حوله عدد من الزبائن، يختارون ما لذ وطاب من الفاكهة، ولكن أم الديب كانت لا تزال متأثرة بنفس الحذر والبخل الذي يغلف طباعها. اقتربت منه وقالت له بشح، دون أي ابتسامة:
_هاتلي كيلو عنب مفعص.

البائع بتحيُّر:هو إنتي يا حاجة أم الديب كل ما تيجيلي، تاخدي حاجات بايظة؟ هو إنتي مش نفسك تاكلي حاجة سليمة إنتي والعيال مرة؟
أم الديب بجلبة:هو مين فينا اللي هيطفح، آني ولا انت؟ ما ترد!
البائع بخوف:انتي.
أم الديب بصياح:يبقى اوزنلي كيلو وانت حاطط بُلغة قديمة في حنكك!
البائع بذهول:لا إله إلا الله.
أم الديب ببغض:محمد رسول الله ياخويا.

اختار البائع العنب المهروس، الذي بدأت بعض حباته تتفكك من سوء التخزين، ووضعه داخل الكيس. ثم وضعه على الميزان، حيث أظهرت المؤشرات وزنًا أقل من المتوقع. قال "البائع" بنبرة متصنعة:
_كده كيلو.

ألقت أم الديب اثنين جنيه في وجه البائع دون أي احترام، كأنما كانت تستهين به وبما يقدمه، ثم استلمت كيس العنب بسرعة وغادرت المكان. واصلت السير بين البائعين الآخرين، تختار أسوأ الأنواع من كل شيء، مبتعدة عن كل ما قد يتطلب دفع المزيد من المال. كانت تزداد قسوة مع كل خطوة، والمال بالنسبة لها كان الهدف الوحيد. أما جمالات، فقد توجهت إلى محل المعلم حنفي، حيث كان يجلس على كرسيه مقابل كرسيها. كانت عيونها مليئة بالدموع التي نزلت على وجهها، بعدما طردتها أم الديب من شقتها. الآن، لم تكن تجرؤ على المطالبة بحقها القانوني في الشقة، فالمستندات كلها سلبتها أم الديب، وأصبح العقد أمام الحكومة ملكًا لها، ولا يوجد أي دليل لإثبات ملكية "جمالات". كانت تمسح دموعها بالمنشفة، قائلة بصوت منخفض، يختلط فيه الحسرة والخذلان:
_كده يا حاج حنفي مراتك تعملها فيا؟ طب أروح فين ولا آجي منين؟ يرضيك اللي حصل ده؟

المعلم حنفي بحنان:لا يا أم الفار أوعي تعيطي! ده إنتي دموعك غالية عندي أوي أوي!
أم الفار ببكاء:طب أعمل إيه بس يا حاج؟ أنا مش لاقية مكان يساع عفشي، ده أنا بقالي أسبوع مرمية عند أختي وجوزها لحد ما قربت أخلل!
المعلم حنفي بحدب:خلاص حلك عندي! آني شقة أخويا حسين الله يرحمه فاضية من ساعة ما مات، إنتي تجيبي حاجتك وتقعدي فيها معززة مكرمة.
أم الفار بخجل:ازاي بس؟ مينفعش!

المعلم حنفي بابتسامة:ومين قالك إنه مينفعش بس؟ إنتي جربي ومش هتخسري حاجة، ده الله يكون في عونك، بقى ست بالحلاوة دي لحد دلوقتي بطولها؟
أم الفار بانتحاب:ماهي الدنيا مبتجيش إلا على الحلوين بس يا حاج.
المعلم حنفي بغرام:حلوة أوي كلمة حاج، طالعة من بوقك زي العسل.
أم الفار بخجل:الله يخليك، تُشكر.
المعلم حنفي بابتسامة:خلاص احنا اتفقنا، قومي يا أم الفار! إنتي مستنية إيه؟

قرر المعلم حنفي أن يمد يد العون لجمالات التي انهارت حياتها بعد طردها من شقتها، فقرر أن يمنحها فرصة للعيش في شقة حسين المتوفي، رحمه الله، بعدما رأى معاناتها وهي تتنقل بين منازل أقاربها والشارع. نهض فجأة، وأمسك بيدها بلطف، قائلًا بحسم إنه لن يتركها في هذا الوضع. أغلق محله، واصطحبها إلى الخارج، حيث استقلا توكتوك واتجها نحو الشقة. وأثناء رحلتهما في التوكتوك، رأى المعلم حنفي أم الديب تسير في الشارع، تحمل أكياس الخضار بيدها، مُتجهة نحو منزلها. سرعان ما أدار وجهه إلى الجهة الأخرى، وكأنه يريد تجنب رؤيتها أو الدخول في أي شجار معها. لاحظت "جمالات" تصرفه الغريب، فنظرت إليه بدهشة، وسألته:
_إيه مالك يا حاج؟

المعلم حنفي بفزع:ديري وشك بسرعة! البومة بت الكلـ* معدية!
أم الفار بصياح:لا بقولك إيه يا حاج حنفي! أنا مبخافش غير من اللي خلقني، لا تقولي مراتك ولا عفريت أزرق يقدر يحرك عصب واحد من أعصابي!

ظل المعلم حنفي متوجسًا، يُبقي وجهه بعيدًا عن أم الديب حتى مرت اللحظة وابتعدت عن أنظارهم، وكأن حملًا ثقيلًا قد أزيح عن صدره حينما اختفت من أمامهم. أما في منزل أم الديب، كانت ليالي قد أنهت عملها في المطبخ بعد مجهود شاق، حيث نظفت جميع الصحون والملاعق بعناية، ثم مسحت الحوض بالصابون حتى لمع. كانت أكمام جلبابها مرفوعة حتى منتصف ذراعيها من أثر العمل. خرجت إلى الأريكة بعد أن

أنهت مهمتها، وجلست لتستريح، وهي تُنزل أكمام الجلباب لتغطي ذراعيها. في تلك اللحظة، دخلت "أم الديب" إلى المنزل. وبمجرد أن وقعت عيناها على ليالي، ارتفع صوتها بالصياح، قائلة بجفاء:
_ايهي إنتي قاعدة ترتاحي يا بت وسايبالي المطبخ يضرب يقلب؟

ليالي بصخب:انتي عمالة تتكلمي تتكلمي، مش تشوفي المطبخ عامل ازاي الأول؟ ده أنا ضهري اتقطم في تنضيفه!
أم الديب بجلجلة:خدي يا بت اغسلي الفاكهة والخضار وعِينيهم في التلاجة!

نهضت "ليالي" بتثاقل، وهي تزفر في وجهها بتعب، ثم أخذت الأكياس من أم الديب دون اعتراض، ودخلت إلى المطبخ على مضض. عندما فتحت الأكياس لتغسل ما بداخلها، صُدمت بما رأته؛ كل الخضار فاسدًا، والدود يزحف على سطح الماء الذي بدأ يتحول إلى لون عكر. تراجعت إلى الوراء قليلًا، ونظرت إلى هذا بصدمة، قائلة في ذهول:
_يا نهار أسود، ده الخضار مدود!
ثم خرجت من المطبخ، والغضب يتصاعد في ملامحها، لتواجه أم الديب، قائلة بنصح مغلف بالحدة:
_إيه يا حماتي ده؟ إنتي جايبة خضار مدود؟ مش تبصي الأول وتشوفي الحاجة سليمة ولا بايظة قبل ما تشتريها؟

أم الديب بتهكم:وهي حتة بت مفعوصة زيك هي اللي هتعلمني ولا إيه؟
ليالي بصياح:لمي لسانك يا حماتي! إيه بت مفعوصة دي؟ ده أنا عندي تلاتين سنة وأم لعيلين، ما جرا إيه؟ ما تلمي نفسك!
أم الديب بعجيج:وطي صوتك يا بت سلامة دباح الحمير! صوتك ميعلاش هناهو، فاهمة ولا لا؟
ليالي بعناد:طب وربنا مانا غسلالك حاجة، وأبقي كُلي الخضار والفاكهة بدودهم.

قررت ليالي أن تتجاهل كلام أم الديب تمامًا، وتركتها واقفة في مكانها دون أن تبدي أي ردة فعل. صعدت إلى شقتها بعناد، خطواتها تُعبر عن رفضٍ صامت لكل ما قيل. لكن "أم الديب" لم تترك الأمر يمر بهدوء؛ ارتفع صوتها بالصراخ من خلفها، وهي تقول بازدراء:
_انشالله عن اللي جابوكي ما غسلتي حاجة، عاملالي فيها بتفهمي وانتي أبوكي كان بيسرق الحمير ويدبحهم ويبيعهم للناس على إنهم لحمة بقري، يا بت ده إنتي أمك بياعة جرجير وياريت حد بينفعها، هو حد بيبص في وشها غير نعمة بتي؟

حينما سمعت "هايدي" صياحها المرتفع، خرجت من غرفة النوم بسرعة، والدهشة ترتسم على وجهها. وقفت للحظات تراقبها، ثم سألت بقلق:
_في إيه يا ماما؟ بتتخانقوا ليه؟

أم الديب بصراخ:البت دهي عاوزة تتربى، أخوكي اللي عامل فيها دكر مش عارف يشكمها!
هايدي بسكينة:طب خلاص ربنا يهديكم.
أم الديب بغلاظة:خُشي يا بت اغسلي الخضار والفاكهة بدل مانتي قاعدة زي قلتك لا شغلة ولا مشغلة!
هايدي بتضايق:بلاش الكلام ده يا ماما!
أم الديب بفظاظة:ايهي هي مش دهي الحقيقة يا روح أمك؟ سنة كاملة قاعدة تتنحنحي فيها إنتي واللي ما يتسمى، وهدايا وزفت فوق دماغكم، ووقفتي في وشي عشانه، وأهو في الآخر طلع معيوب.
هايدي بصراخ:متجيبيش سيرته على لسانك! زياد معندوش أي مشكلة، المشكلة فيا أنا! وأنا اللي مبخلفش مش هو!

أم الديب باستهزاء:أمال؟ ماهو لازم تداري على خيبته القوية عشان تبقي إنتي اللي في وش المدفع، وهو محدش يجيب سيرته بحاجة! يا بت سيبك منه واتطلقي وريحونا! وآني هجوزك راجل بحق وحقيقي وفي مقام سنة هيكون معاكي عيلين وتلاتة وأربعة، مش المكسح دهو!
هايدي بإعوال:قولتلك المشكلة جاية مني مش منه! حرام عليكي بقى، إنتي بتطلعي سكاكين من بوقك؟ مبتعرفيش تجملي من نفسك أبدًا؟
أم الديب بجلبة:آني كدهو وهفضل كدهو واللي مش عاجبه يغور في ستين داهية تاخده، الباب يفوت جمل!

خرجت هايدي من الشقة وهي تنتحب بحرقة، غير قادرة على استيعاب قسوة حديث والدتها الذي كان كالسكاكين يمزق مشاعرها. كانت كلمات أم الديب خالية من أي رحمة، بعيدة كل البعد عن الحنو الذي من المفترض أن تضمره الأم تجاه أبنائها. شعرت هايدي وكأنها غريبة عن هذا المنزل، فتاهت خطواتها حتى وجدت نفسها تصعد إلى شقة نعمة. طرقت الباب، وحين فتحت لها نعمة، ألقت نفسها في أحضان أختها، تبكي بمرارة. أدركت "نعمة" أن هايدي تحتاج إلى كتف تتكئ عليه، فأخذتها لتجلس معها على الأريكة. احتضنتها برفق، وهي تزرع في قلبها بذور الطمأنينة، وهمست لها بكلمات حانية تبعث على الأمل:
_اهدي بس يا هايدي! مالك يا قلب أختك؟ فيكي إيه؟

هايدي بصراخ:بتعايرني أنا وزياد يا نعمة، ومش مصدقة إن العيب مني، ونازلة فيا بكلام جارح من ساعة ما جيت هنا، مش عايزة ترحمني!

نعمة باستياء:مانتي يا هايدي اللي سايبة بيتك وحالك ومالك وجاية هنا بمزاجك، يعني جوزك متكلمش وموافق عليكي زي مانتي، وعندك بيتك حلو وواسع وزي الفل، وسايبة ده كله وجاية للمشاكل برجلك؟
هايدي بتعاسة:أعمل إيه طيب؟ أنا لو مسيبتش البيت يبقى زياد مش هيطلقني وهنفضل زي ماحنا!

نعمة بصدمة:انتي عبيطة؟ هو إيه ده اللي يطلقك؟ مفيش الكلام ده يا بت! اعملي العملية وجربي مش هتخسري حاجة.
هايدي بنشيج:انتي شايفة كده يعني؟
نعمة بثقة:أنا مش شايفة إلا كده.

أصرت نعمة، بكل عزمٍ، على أن تُجري هايدي العملية الجراحية لتُحل بذلك مشكلة الإنجاب، فيعود الأمل إلى حياتها وتستعيد مكانتها إلى جانب زوجها، لأن العيش هنا أصبح جحيمًا لا يُطاق. استقر حديثها في ذهن هايدي كشرارةٍ أشعلت في قلبها وهجًا من الأمل، فشعرت بأن هذه الكلمات كانت بمثابة الزاد الذي يطفئ جوع الأزمة ويُضيء طريق الحل. فقررتا سويًا، بروحٍ ملؤها العزم، الذهاب إلى طبيب القرية للتأكد من السبب وراء ما تعانيه هايدي. أما المعلم حنفي، فقد رافق أم الفار إلى منزل حسين، فتجولا معًا في أزقة القرية كما يسير السائر في متاهة الزمن. وبعد جولةٍ قصيرة دامت خمس دقائق فقط، قالت "جمالات"، وقد ارتسم على وجهها الرضا:
_حلوة مش بطالة، أهي تسترني في الليل.

المعلم حنفي بمغازلة:بس آني لا مؤاخذة أخاف عليكي من قعدتك لواحدك.
أم الفار بحدة:أنا ميتخافش عليا، أنا يتخاف مني! شكلك لسه متعرفنيش كويس.
المعلم حنفي بتشبيب:ياريت أعرفك كويس، هو آني أطول؟
أم الفار بدلال:تُشكر يا حاج.
المعلم حنفي بخجل:كان عندي طلب وياريت توافقي!
أم الفار بابتسامة:أؤمرني، أنا رقبتي سدادة!

المعلم حنفي بتردد:آني الصراحة معجب بيكي أوي، ست جدعة بمية راجل، أه! بس لسه محافظة على أنوثتك مش زي البومة اللي هناك! أهو إنتي اللي يتقال عليكي ست بحق وحقيقي، وتعجبني فيكي شخصيتك القوية، فانا طالب إيدك للجواز!
أم الفار بضحك:إديني فرصة!
المعلم حنفي ببسمة:على أقل من مهلك، آني مستني الرد!
أم الفار بابتسامة:قشطة.

سيطير المعلم حنفي فرحًا، إن وافقت عليه جمالات، فبريق الحماس في عينيه لا يخبو، وهو غارق في أملٍ مشرق يُضيء له درب المستقبل. لكن اتخاذ القرار، رغم تلك العاطفة المتقدة، لن يكون بمثابة ومضة في لحظة، بل يحتاج إلى ليالٍ طويلة من التأمل، حتى يكتمل في ذهنه الحل. خرج المعلم حنفي من الشقة والبهجة تغمر وجهه، وشفتيه تبوحان بابتسامة تحمل بين طياتها ذكرى قوتها ودلالها، تلك التناقضات التي تجذب روحه رغم ما فيها من غموض. أما نعمة، فقد ارتدت عباءتها على عجل، وتركَت أطفالها في رعاية

زوجها بعدما عاد من عمله، وخرجت مع أختها لترافقها إلى طبيب القرية. وبعد أن أتمت هايدي السونار، ومرت بالإجراءات اللازمة، جاء التأكيد من "الطبيب" متماشيًا مع قول طبيب المدينة، فعبَّر ببساطة قائلًا:
_اللي عندك ده يصنف رحم ذو قرنين، يعني بعنقين فنحتاج نعمل عملية تصحيح، بس قبل العملية أنا عايز أشعة سينية للرحم وتصوير بالرنين المغناطيسي عشان نتأكد.

نعمة بحيرة:طب نعملها فين يا داكتور؟
الطبيب:في أي مركز أشعة قريب من هنا.
نعمة باهتمام:يعني نعمله ونجيبه دلوقتي؟
الطبيب:أيوه نص ساعة أو ساعة وتجيبوه وتيجوا.
نعمة ببسمة:طيب يا داكتور.

ثم أردفت لهايدي:
_يلا يا هايدي.
نهضت نعمة، وتبعها هايدي المذعورة التي تكاد لا تجد الكلمات للتعبير عن هول الصدمة، فخرجتا من عيادة الطبيب، ووقفا في الشارع، حيث كان الهدوء يشوب الحي رغم ما كان يجول في قلبيهما. مرَّت "نعمة" يدها على كتف هايدي برفقٍ، محاولة أن تزرع فيها طمأنينة في لحظة الاضطراب، ثم قالت، وقد ملأتها آمالٌ جديدة:
_متخافيش يا هايدي، كله مكتوب وإن شاء الله خير.

هايدي بقلق:إن شاء الله.

ركبت نعمة وهايدي التوكتوك، وهما في رحلة جديدة مليئة بالقلق والأمل في آنٍ واحد، واتجهتا إلى معمل الأشعة، ذلك المبنى الذي يتكون من ثلاث طوابق، مغمورٍ بالعيادات والأصوات المتناثرة هنا وهناك. كان الفلاحون يتنقلون بين الأروقة، حاملين الأشعة والأوراق. دخلت هايدي مع نعمة إلى المعمل، وتقدمتا نحو الموظف الذي كان جالسًا أمام جهاز الحاسوب، ثم ترددت "هايدي" لحظة قبل أن تخرج الكلمات من فمها، وقالت له بصوتٍ منخفض، يعكس التردد في قلبها:
_عايزة أعمل أشعة.

الموظف باكتراث:أشعة إيه؟
هايدي:أشعة سينية وأشعة رنين مغناطيسي للرحم.
نعمة بفضول:هيعمل كام؟
الموظف:٦٥٠ للأشعة السينية والرنين المغناطيسي بـ٩٠٠ يعني ١٥٥٠.

فتحت هايدي حقيبتها بخفة، مُستخرجة المبلغ المطلوب، لكن نظرها سرعان ما تجمد عندما اكتشفت أن مائة جنيه تنقصها. فاختلطت ملامحها بالبؤس، وكأنما حملت همومًا فوق طاقتها، مما جعل قلبها ينقبض. نظرت إليها "نعمة" بقلقٍ، وكأنها شعرت بما يختلج في صدرها، ثم سألتها:
_إيه يا هايدي؟ في حاجة معجزة معاكي؟

هايدي:مش معايا غير ١٤٥٠ جنيه، دول كل اللي كانوا معايا.
نعمة:يعني ناقصك كام؟
هايدي:مية جنيه.

لإنقاذ الموقف بسرعة، فتحت "نعمة" حقيبتها، واستخرجت منها المائة جنيه التي كانت تنقص، ثم قدمتها لهايدي، وقالت بابتسامة مشرقة:
_خدي يا هايدي، كملي على اللي معاكي!

هايدي بابتسامة:شكرًا يا نعمة.
نعمة بإحسان:العفو ياختي، احنا واحد.

ابتسمت هايدي لنعمة، وعينيها تعكسان امتنانًا صادقًا، ثم تقدمت لتسلم المبلغ للـ"موظف". فأخذه منها بيدٍ هادئة، وسألها عن التفاصيل، وهو يدون ما ستقوله على جهازه، فقال:
_اسم حضرتك؟

هايدي بتلجلج:هايدي حنفي الديب.
الموظف:السن؟
هايدي:خمسة وعشرين سنة.
الموظف:حضرتك من هنا ولا فين؟
هايدي:أه من هنا.
الموظف:تمام، إنتي رقم ستة، قدامك اتنين!
هايدي:ماشي شكرًا.

استلمت هايدي ورقة بها رقمها، وجلسَت بجانب نعمة على الكراسي الخالية، بينما كان المعمل مكتظًا بالمرضى، كل منهم جالسًا في انتظار دوره، محملًا بهمومه الخاصة. فجأة، اهتزت يد "نعمة" بهاتفها، وتلقّت مكالمة من زوجها. أجابت بسرعة، وقد بدا على وجهها شيء من القلق، فقالت:
_ألو يا حمو، العيال كويسين؟

حامد بانزعاج:واحد عمال يعيط والتاني بيشخبط على الحيط يا نعومي!
نعمة بصدمة:يا نهار أبوه أسود!
حامد بفزع:وأنا مالي طيب؟
نعمة بتضايق:سكت الولا وزعق لمحمد عقبال ما أرجع!
حامد بفضول:هترجعي امتى؟
نعمة:لسه شوية، يلا عشان مش فاضية، سلام.
حامد:مع ألف سلامة.

انتهت المكالمة بين نعمة وزوجها، وزاد القلق في قلبها مع كل ثانية تمضي. فحامد، الذي كان يعاني من قلة التمكن في التعامل مع الأطفال، تركهم في فوضى عارمة. الصغير يبكي، يطلب الحليب بشدة، بينما الآخر يواصل رسم وجه جدته على قاعدة المرحاض، ولكن لم يكتف بذلك، بل أطلق العنان لبراءته على الحائط، مخربًا كل شيء حوله.

يتبع....

الفصل السابع والعشرون

بينما انشغل كلٌّ في شأنه وغرق في دوامة حياته، جلست "أم الديب" على الأرض، حاملة أعباء العالم بين يديها، تقطع البطاطا بعناية، وتستخرج منها الدود دون أدنى انزعاج، كأنها تمارس طقسًا معتادًا. وحين انتهت، غسلت الطماطم، ثم ضربتها في الخلاط بالدود العالق فيها، وهمست لنفسها بصوت نقي كصفاء الماء:

_وهتفرق إيه مدودة من سليمة؟ ماهو كله هيتضرب في الخلاط في الآخر! طب والنبي، البطاطس بقيت زي القشطة ومبقاش فيها دودة واحدة، آني أقوم أعملي صينية بطاطس ورز معمر وأقعد قصاد التلافزيون أشوف المسلسل... طب والنبي ده إنتي مزاج يا أم الديب.

بعد أن جمعت ما أعدّت من طعام، نهضت أم الديب بهدوء، وحملت الصينية القديمة التي شهدت معها سنوات عمرها، وصبّت فوق البطاطا خليط الطماطم المتبل بالملح والفلفل والبصل، كأنها تصوغ وصفة من ذاكرة أيام مضت. غسلت الأرز بعناية كمن يطهره من كل ما علق به، ثم أضافت إليه قليلًا من الحليب، وتركته يستوي على مهل. خرجت من المطبخ تاركة وراءها عبق البهارات الذي غمر المطبخ، واتجهت بخطى مُطمئنة نحو الصالة. أما جميلة، فحينما انطلق أحمد إلى عمله، خرجت من المرحاض لتكتشف فراغ المنزل. شعرت بغصة صامتة، لكنها قاومتها وجلست على الأريكة محاولة الاتصال به، إلا أن هاتفه ظل صامتًا كأنه يعاند قلقها. عندئذ، لجأت إلى سامية، أختها. كانت سامية تنتظر موعد حلقتها التلفزيونية، تتكئ بذراعيها على الطاولة بإطلالة تجمع بين الإرهاق والأناقة. بجانبها كوب النسكافية، الذي كان يتصاعد بخاره. لم تخفِ "جميلة" ابتسامتها حينما سمعت صوت أختها، وقالت بدفء يحمل بقايا أمل:

_عاملة إيه يا سامية؟

سامية بوداد:الحمدلله يا روحي، إنتي عاملة إيه والبنات؟
جميلة باستياء:بخير.
سامية باستغراب:مالك صوتك متغير ليه؟ في حاجة؟
جميلة بتردد:كنت عايزة أحكيلك عن حاجة بس مش عارفة.
سامية بقلق:إيه يا حبيبتي؟ اتكلمي!
جميلة بتراجع:لا لا خلاص مفيش حاجة، أنا كنت بطمن عليكي.
سامية بريبة:إيه اللي حصل طيب؟ جميلة متقلقينيش عليكي!

جميلة ببسمة:صدقيني مفيش حاجة، أنا بس كنت زهقانة شوية، إنتي عارفة بقالي يومين مبروحش القناة وابتديت أحس بملل.
سامية بتعجب:وانتي إيه بقى اللي مانعك عن البرنامج؟
جميلة بترح:البنات بجد محتاجين إهتمام ورعاية أكتر، حاسة الشغل بياخدني منهم وبكون مقصرة في حقهم.

سامية بدهشة:معقول يكون كده؟ ولا في أسباب تانية؟
جميلة بشجن:أيوه طبعًا ده السبب، ومش عارفة أوازن ما بين البيت والشغل، حتى يعني بفكر أقعد من الشغل وأركز مع البنات.
سامية بصدمة:انتي عارفة قعدتي قد إيه تتمني توصلي للشغل ده؟ ويوم ما يجيلك ويحقق نجاح كبير تقومي تقعدي؟
جميلة بحيرة:قوليلي طيب، أتصرف ازاي؟
سامية بنُصح:هاتي بيبي سيتر! ولا أقولك هاتي اتنين يا ستي، المهم متخسريش شغلك مهما حصل!
جميلة بخوف:ماهو أنا خايفة بجد، أكيد مش هيهتموا بالبنات زيي!
سامية:ده أكيد طبعًا، بس في الكام ساعة اللي إنتي فيهم برا، إنتي أكيد مش هتغيبي عنهم طول اليوم!
جميلة بابتسامة:خلاص أوكي هجرب، المهم لارا عاملة إيه؟

الحديث مع الأخت يشبه حضنًا معنويًا يختبئ فيه القلب من هموم العالم، فهي ملاذ الروح حين ترغب في البوح دون قيود أو تكلُّف، ودون خوفٍ من خيانة الأسرار. كانت جميلة تجد في سامية ذاك الأمان الذي تبحث عنه دائمًا، ورغم قربها أيضًا من نرمين، إلا أن سامية احتلت مكانةً سامقة في قلبها، كأنها وطن صغير يحمل كل ذكريات الطفولة وأسرار الحياة. كل تفصيل من حياتهما المشترك كان وشمًا خالدًا في ذاكرتها. حين طرحت سامية فكرة إحضار مربية للفتيات، بدت الفكرة كحلٍّ عملي من وجهة نظرها، لكن جميلة ترددت، يخالجها خوف دفين من أن تكون تلك المربية قاسية على الصغيرات، فتسلبهن حنان الأمومة الذي تحاول جاهدة أن تغدقه عليهن. أما أحمد، فقد كان يجلس في مكتبه بالقناة، وقد أغلق الباب كأنما يرسم حوله حاجزًا من العزلة. الأوراق المبعثرة فوق المكتب تحكي قصة يومه المزدحم، بينما أضاء الحاسوب زاوية الحجرة بضوء بارد يبدد ظلال الغرفة. في يديه هاتفه، يتنقل بين مواقع التواصل، باحث عن هروب مؤقت من الواقع. وفجأة، دق أحدهم الباب مرتين. رفع "أحمد" صوته بثقة، دون أن يلتفت:
_أدخل!

دخلت مديرة التصوير الجديدة "ميادة" ، تلك التي التحقت بالقناة منذ شهر فقط، لكنها تركت بصمة في فريق العمل. كانت هي من تتولى مهام التصوير في برنامج جميلة، حيث أثبتت كفاءتها رغم حداثة عهدها بالمكان، فتقدمت بخطواتها الهادئة. كانت في أواخر العشرينات من عمرها، ببشرة بيضاء تعكس نورًا ناعمًا، وشعر أسود ينسدل بخفة حول وجهها. عيناها الغائرتان تضيفان لملامحها عمقًا خاصًا، في حين أن بروزًا بسيطًا في فكها يبرز ملامح الابتسامة حين ترتسم على شفتيها، فتظهر أسنانها بوضوح. رغم أناقتها، كان رداؤها بسيطًا: بنطال داكن، تيشيرت يضفي عليها طابعًا عمليًا، ونعل أبيض يُكمل مظهرها المتزن. وقفت قبالة أحمد بثبات، ومدّت يدها نحوه لتصافحه، مبتسمة ابتسامة مهذبة، وقالت بنبرة رقيقة:
_هاي مستر أحمد؟

أحمد بتبسُّم:يا أهلًا وسهلًا يا أستاذة ميادة، اتفضلي!

ميادة برقة:ميرسي.

جلست ميادة برزانة، واضعة ساقًا فوق الأخرى، راسمة في جلستها لوحةً من الثقة. بدت عيناها تراقبان "أحمد" بصمت. حينها، وضع هاتفه جانبًا كمن ينفض عن نفسه انشغال اللحظة، ورفع بصره نحوها مبتسمًا ابتسامة لطيفة تظهر الاحترام. بصوتٍ هادئ يحمل ودًا، سألها:

_إيه أخبارك في البرنامج، كان شهر حلو؟

ميادة بابتسامة:طبعًا، من ساعة ما جيت وأنا مرتاحة هنا جدًا، أتمنى الشهر ده يكون سنين ونكون عشرة عمر.

أحمد ببشاشة:إن شاء الله هيحصل، بس أنا شايف إنك مكنتيش مرتاحة في البرنامج التاني وهنا أريحلك بكتير!

ميادة بضحك:بصراحة أه، حاسس بيا انت...بس الحمدلله، أمال صحيح أستاذة جميلة فين؟ مابقتش بشوفها يعني!

أحمد ببسمة:جميلة قاعدة في البيت كام يوم نكون لقينا بيبي سيتر للبنات.

ميادة باستغراب:معقول؟ ده مش باين عليكم خالص.

أحمد بفضول:هو إيه اللي مش باين علينا؟

ميادة بابتسامة:إنكم عندكم أولاد يعني، بجد اللي يشوفكم يقول إنكم لسه مخطوبين، مش متجوزين خالص ومعاكم أولاد.

أحمد بفرح:طب دي حاجة كويسة.

ميادة بقلق:ممكن متعرفش مستر وجدي أي أخبار عني في البرنامج الجديد! أصله معرفش ليه بيلف يسأل عني في كل مكان!

أحمد باستغراب:وهو عايز منك إيه؟

ميادة بتحيُّر:مش عارفة ماهو ده اللي أنا نفسي أفهمه، يمكن عايز يسمع أي خبر وحش يريحله قلبه؟

أحمد بتأكيد:لا متقلقيش مش هعرفه عنك أي حاجة.

ميادة بارتياح:ميرسي يا أستاذ أحمد، بجد كلك ذوق.

أحمد بإحراج:ربنا يخليكي، تشربي إيه؟ آسف نسيت أسالك، الكلام خدنا.

ميادة بابتسامة:ولا أي حاجة خالص.

أحمد بإلحاح:لا والله لازم تشربي حاجة!

ميادة بِافترار:أيس موكا.

بدا من أسلوبها أنها تحمل شخصية ملتوية، تتقن فن التلون وفقًا لما يناسب مزاجها أو ما يخدم غاياتها. لكن ذلك لم يمنع أحمد من أن يجد في طريقتها شيئًا آسرًا يجذبه رغم بساطة حديثها. كان كلام ميادة أشبه بلحن غامض، يحمل بين نبراته مقصدًا خفيًا، لكنها تخفيه خلف ابتسامة ماكرة تبدو بريئة لمن لا يجيد قراءة الوجوه. بينما "أحمد"، وقد اجتذبته تلك الهالة الغريبة، رفع سماعة الهاتف واتصل بمطبخ القناة، وطلب تحضير مشروب لميادة. بصوت ينم عن استعجال واهتمام غير مألوف، قال:
_واحد آيس موكا في المكتب وبسرعة، سلام.

ابتسم أحمد لميادة ابتسامة تنمّ عن ودّ لطيف، واستغرقا في حديث مشترك عن تفاصيل العمل داخل القناة التلفزيونية. بدا الحوار سلسًا، ينساب بينهما كأنه ينسج خيوط تواصل جديد، بينما كان المشروب الذي تفضله ميادة، والذي لا تستطيع العيش بدونه، قيد الإعداد في مطبخ القناة. في تلك الأثناء، كان دور هايدي قد حان لإجراء أشعة الرنين المغناطيسي. وقفت قبالة الجهاز بتردد، كأنما تتأهب للدخول إلى قبر مُظلم لمدة لا تقل عن نصف ساعة. تسللت برودة الخوف إلى أوصالها، لكن نعمة، التي كانت بجانبها، حاولت بث شجاعتها. همست لها بأنه مجرد جهاز، لا أكثر. حتى صوته المخيف ما هو إلا وسيلة للعثور على العطب الكامن. ستمضي هذه الدقائق سريعًا، فلا داعي للخوف. استجمعت هايدي قواها، وخلعت كل ما عليها من معادن قبل أن تدخل الجهاز بخطوات مترددة، فيما بقيت نعمة خارج الغرفة، تلهج بالدعاء لها أن تمر التجربة بخير. مرّت أربعون دقيقة كأنها دهر، حتى خرجتا أخيرًا، منهكتين ولكن مرتاحتين لمرور الاختبار. بعد ساعتين من الانتظار، تسلّمتا النتائج واتجهتا إلى "الطبيب". تفحص الطبيب الأوراق بإمعان، وبدت ملامحه تشير إلى أن شيئًا ما كان يؤكد حدسه السابق. رفع عينيه نحو هايدي ونعمة، وقال:
_فعلًا زي ما قولنا رحم ذو قرنين، اتفضلي نكشف بالسونار يا أستاذة هايدي.

هايدي بتبرُم:تمام يا دكتور.

أمسك الطبيب بجهاز السونار، وأجرى الفحص على هايدي للمرة الثانية، متفحصًا كل زاوية بعناية. بدت هايدي تراقبه بنظرات يملؤها الترقب، بينما كانت نعمة تمسك بيدها لتمنحها طمأنينة صامتة. أنهى "الطبيب" فحصه وعاد إلى مكتبه، جلس خلفه متكئًا على كرسيه، وأخذ ينظر إلى الأوراق أمامه بتأنٍ. رفع رأسه أخيرًا ونظر إلى هايدي ونِعمة، وقال بصوت يحمل يقينًا حازمًا:
_لازم عملية بالمنظار ضروري.

هايدي بتعاسة:طيب هعملها امتى؟ وتكلفتها كام؟
الطبيب بِاستبانة:تتكلفلها حوالي ست آلاف جنيه، أنا هحجزلك في المستشفى اللي أنا شغال فيها، بإذن الله العملية يوم الأربع الجاي ده، ومتقلقيش من أي حاجة يا أستاذة هايدي، العملية بسيطة ومش صعبة ومعقدة زي مانتي متخيلة.

نعمة بهَمّ:أيوه يا داكتور طمنها الله يسترك، دي يا عيني مرعوبة إكمنها عمرها ما دخلت أوضة عمليات قبل كده.
هايدي:لا أنا مش خايفة من حاجة، زي ما تيجي تيجي.

قرر الطبيب أن تكون عملية المنظار هي الخيار الأمثل لهايدي، وأن تُجرى في إحدى مستشفيات القاهرة حيث يعمل بشكل منتظم. فقد كان طبيبًا حريصًا على توزيع وقته بين عيادتين: إحداهما في الريف، يمنح فيها أهل القرى فرصة للعلاج، والأخرى في المدينة حيث تتوفر الإمكانيات المتقدمة. أمام هذا القرار، أسلمت هايدي أمرها للرحمن، وقررت المضي قدمًا في إجراء العملية، عالمةً أن نجاحها قد يفتح لها باب الأمل الأخير في تحقيق حلم الأمومة. لكنها في الوقت نفسه، كانت تفكر بجدية في مستقبل علاقتها مع زياد، وتساءلت: هل تستمر حياتهما معًا أم ينفصلا؟ كان يوم العملية يومًا ثقيلًا على قلوب أفراد الأسرة، إلا من اعتادوا اللامبالاة، كأم الديب وجلال وحامد. أما أحمد وأسرته، وليالي ونعمة وزياد، فقد استبد بهم القلق والحزن، حاملون عبء هايدي على أكتافهم. قضت نعمة ليلتها تسعى لطمأنة قلبها، تُشاهد مقاطع فيديو لأطباء يشرحون تفاصيل العملية، وتدعو لهايدي بصدقٍ، بينما تتلو آيات القرآن لتبعث في روحها السكينة. لم تكن هايدي ترغب في أن يحضر زياد أو حتى يعلم بموعد العملية، لكن نعمة، رغم رفضها، أخبرته رغبة منها في أن يكون بجانبها في هذه اللحظات العصيبة. حضر زياد برفقة أحمد، الذي لم ينتظر جميلة لترافقه، بل انطلق مُسرعًا نحو المستشفى. في أروقة المستشفى، وقف جلال مع ليالي ونعمة قبال غرفة العمليات. لم يكترث جلال الموقف ولا للمبادئ، وأشعل سيجارة ببرود كأنه في مقهى لا مستشفى. مرّ بجانبه أحد الأطباء، فاستفزه هذا التصرف الهمجي الذي لا يليق بالمكان ولا الظرف. اقترب "الطبيب" غاضبًا وقال بحدة:
_ممنوع شرب السجاير جوا المستشفي!

جلال بامتعاض:مع جلال مفيش ممنوع، جلال ميتقالوش لا.
الطبيب بصخب:نزل السيجارة اللي في إيدك بقولك!
جلال بصياح:ما تهدى على نفسك يا عم لا تطرشق! هو مفيش دكاترة غيرك ولا إيه؟
نعمة بخجل:معلش يا داكتور حقك على راسنا، احنا آسفين!
جلال بدهشة:انتي بتتأسفيله يا عبيطة يا هبلة؟ إنتي هتيجي مع الغريب على أخوكي؟
ليالي بتوجيه:أسكت بقى يا جلال، كفاياك فضايح!
جلال بعجيج:بقولك إيه يا بت! اتعدلي إنتي ونعمة لأفرج عليكم أمة لا إله إلا الله!
نعمة بأسف:معلش يا داكتور حقك عليا.

نظر الطبيب إلى جلال باشمئزاز، ثم غادر دون أن ينبس بكلمة إضافية، فقد كان يرى فيه تجسيدًا للنوعيات التي لا تليق بمكانٍ يفترض أن يكون مصدرًا للراحة. كان جلال، بكل ما يحمله من تصرفات فجة ومظهر يعكس نوعًا من الشعبية المبالغ فيها، يثير الدهشة أينما حلّ. بدا الطبيب متعجبًا من تواجد هذا النوع من

الأشخاص داخل المستشفى، تلك الأماكن التي يجب أن تشع بالاحترام. أما في غرفة هايدي، فكانت نعمة قد دخلت لتجد أختها مُستلقية على سريرها، ترتدي رداء العمليات، وقلبها ينبض بشدة، مُشبعًا بالرهبة. كانت هذه المرة الأولى التي تدخل فيها هايدي غرفة العمليات، وقلقها كان يزداد كلما اقتربت لحظة الجراحة، وهي لا تدري ما الذي سيحدث لها بعدها. اقتربت منها "نعمة" بهدوء، وقبلت رأسها برفق مانحة إياها قوة خفية، ثم شبكت أصابعها بأصابعها، وقالت لها بنبرة طمأنينة:

_متخافيش ياختي! والله ما تخافي ولا تشيلي هم أي حاجة، طب تعرفي؟ ده أنا طول الليل أشوفلك فيديوهات لحد ما خلصت الباقة عليكي، وكل الناس تقولك دي بسيطة ومفيهاش أي حاجة، بس هتفرق معاكي كتير يا هايدي!

هايدي بكآبة:أنا مش خايفة من العملية على قد مانا مكنتش عايزة زياد يعرف ويجي، يفرض منجحتش؟ هيبقى شكلي إيه قدامه؟
نعمة بيقين:هتنجح، إنتي بس متفَوليش على نفسك! هو حد عارف مكتوبله إيه؟
هايدي باستياء:لا محدش يعرف.
نعمة بابتسامة:يبقى خلاص سيبيها على ربنا ومتنعيش هم حاجة!
هايدي:ونعم بالله.

دخل الجميع غرفة هايدي، وفي مقدمتهم زياد وأحمد. تقدم زياد نحو هايدي بخطوات سريعة، وكان في عينيه شوق عارم، فقد مرّ عليهما خمسة عشر يومًا منذ آخر مرة رآها فيها. طيلة هذه الأيام، حاول الاتصال بها مرارًا، لكن هايدي كانت تتجاهله عمدًا، لم ترد على مكالماته، ولم تفتح رسائله على الواتساب، كأنها تحجب نفسها عن عالمه، وحضوره، بل وتجاهلت وجوده كليًا. كان في صمتها قسوة عميقة، وقد شعر زياد مع مرور الأيام أن كل هذه التجاهلات تقودهما إلى الحافة، ليبدأ يكرهها شيئًا فشيئًا، فتتسع المسافة بينهما. كانت تنأى عن نفسه حتى يبتعد عن حياتها، ولا يشعر بالذنب، ويوافق على فكرة الانفصال، فيمنح حرية اتخاذ قرار زواجه من أخرى، عله ينجب. كان قرارًا قاسيًا، ومؤلمًا لهايدي، لكنه كان القرار الذي أجبرها عليه الواقع، على جراح قلبها التي لا تلتئم. جلس "زياد" بجوارها أخيرًا، وكان الألم في عينيه لا يخفى على أحد. دموعه تساقطت على خديه في صمت، كخيوط شجن تتناثر بلا نهاية. اقترب منها، وقبل رأسها برفق، ثم همس بصوت مخنوق من شدة المشاعر:

_كده يا هايدي؟ كده مكنتيش عايزة تعرفيني حاجة؟هو أنا يا ستي اشتكيتلك ولا اتكلمت بحرف؟ ينفع اللي بتعمليه ده؟

هايدي بإحباط:العملية دي آخر أمل لعلاقتنا ولو منجحتش فمن حقك تتجوز واحدة تانية.
زياد بإصرار:وأنا قولتلك بدل المرة مليون إن أنا مش عايز حد غيرك! إنتي ليه مصممة على اللي في دماغك ومش عايزة تغيريه؟
أحمد بابتسامة:كل الكلام ده مش مهم، المهم إن هايدي تقوملنا بألف سلامة والعملية تنجح.

نعمة بسكينة:أنا قلبي حاسس إنها هتنجح، أصل هايدي دي طيبة وبت حلال وتستاهل كل خير.
زياد بدعم:متخافيش يا هايدي، أنا معاكي وجنبك، ومش هسيبك مهما حصل!

قبل زياد رأسها ويديها برفق، ثم ضمها إلى صدره بعشق، محاولًا أن ينقل إليها كل ما يختلج في قلبه من مشاعر حُب، ولعل تلك اللحظات تكون تعبيرًا عن اعترافه بكل ما فاته. كانت دموعه تتساقط على وجهه، وكأنها تُمطرها بحنينه المتراكم طوال تلك الأيام القاسية التي مرت بينهما. والجميع في الغرفة كانوا يراقبونهما، وعلى وجوههم كانت تلوح ابتسامات غير مكتملة. في تلك اللحظة، دخل "الطبيب" إلى الغرفة، فوقف قبالة سرير هايدي، وابتسم ابتسامة لطيفة، ورفع نظره نحو هايدي، وسألها ببشاشة:
_عاملة إيه دلوقتي يا هايدي؟

هايدي بقلق:الحمدلله.
أحمد بفضول:هتبدأ العملية امتى يا دكتور؟
الطبيب:حالًا.

نظر "الطبيب" إلى هايدي بابتسامة هادئة، تحمل في طياتها الطمأنينة، وهو يود أن يخفف عن قلبها من رهبة العملية. ثم سألها بلُطف، وهو يتأكد من استعدادها النفسي:
_ها مُستعدة؟

هايدي بقلق:أيوه.
الطبيب بمُساندة:مش عايزك تخافي من أي حاجة، هتعدي على خير!
هايدي بتمني:يارب.

قبل زياد رأس هايدي ويديها للمرة الثانية، محاولًا أن يزرع السكينة في قلبها ويخفف من روعها. كانت أصابعها ترتجف بشدة من القلق، ودموعها تتساقط بغزارة، كأنها غيمات ثقيلة في سماء قلبها المثقل بالهموم. كان زياد ينظر في عينيها بحبٍ، يحاول أن يبعث في روحها الراحة. دخلت ممرضتان إلى الغرفة مع كرسي متحرك، وضعاه بالقرب من سرير هايدي. ببطء، فساعدها زياد على النزول حتى جلست عليه، بينما كانت يداها متشابكة بين يديه، يمدها بالدعم العاطفي الذي كانت في أمس الحاجة إليه. كان نظره موجهًا إليها بحبٍ كبير، يتمنى لو يستطيع أن يمسح كل أحزانها. خرجت الممرضتان وبدأتا في دفع الكرسي نحو غرفة العمليات، بينما تبعتهما العائلة، يواسي كل منهم هايدي بكلمات مطمئنة. في تلك اللحظات الصامتة، قالت "ليالي" بلهجة ملؤها الرهبة:
_متخافيش يا هايدي، هتعدي بأمر الله!

أحمد بموٰازَرة:احنا كلنا جنبك، متخافيش!

نعمة بخَوَر:ربنا يشفيكي ويقومك لينا بألف سلامة.

دخلت الممرضات بهايدي إلى غرفة العمليات، ذلك المكان الذي يحمله الجميع في قلوبهم ككابوس. كانت أجواء الغرفة مفعمة بالخرع، وقد شعرت هايدي بهزة داخلية من حجم الذعر. ظل زياد متشبثًا بيديها حتى اللحظة الأخيرة، حتى اختفت عن ناظريه، تاركًا قلبه مليئًا بالقلق. وقف أمام باب غرفة العمليات، وأحمد بجواره يربت على ظهره، ساعيًا أن يبعث فيه بعض الاطمئنان. داخل غرفة العمليات، كانت هايدي مُستلقية على سرير العمليات محاطة بعدد من الأطباء، كل واحد منهم كان في مكانه يؤدي مهمته بدقة. أحدهم كان مختصًا بالجراحة، وآخر بالتخدير، بينما كان الباقون يساعدون في التحضير. وفي الخارج، جلست ليالي ونعمة وجلال على المقاعد المجاورة لقسم العمليات، وقلوبهم تتأرجح بين الأمل والرهبة. تفاجأت "ليالي" من غياب أم الديب في هذا الوقت العصيب، فقالت بدهشة جلية في صوتها:
_هي أمك مجاتش ليه؟ يعني تبقى بتها داخلة العمليات وهي ولا هاممها؟

جلال:وهي هتيجي تزودنا إيه؟ أسكتي خليها في البيت أرحم.
نعمة بتوجُّس:يارب اشفيها يارب، دي غلبانة، يارب كمان تسع شهور نكون واقفين نفس الواقفة دي بس وهي خارجة بالعيل، يارب.

فتحت نعمة هاتفها على الآيات القرآنية وبدأت تتلوها بصوت خافت، محاولةً أن تنشر السكينة، وتبعث الطمأنينة في قلبها وفي قلوب من حولها. في الجانب الآخر، كان "أحمد" يقف بجانب زياد، يربت على ظهره برفق، محاولًا تهدئته. نظر إليه بحنان وقال:
_متقلقش يا زياد، أنا سمعت إن الدكتور ده شاطر!

زياد بذُعر:ازاي مقلقش بس؟ إنت أصلك متعرفش أنا بحب هايدي قد إيه! أنا بجد خايف عليها أوي.

عانق أحمد زياد بحنان، رغم الخوف الذي كان يلف قلبه، ورغم القلق الذي كان يعصف به، إلا أنه حاول أن يظهر ابتسامة تهدف إلى تهدئته. كانت دقائق طويلة تمر وكأنها ساعات، بينما كان الجميع في انتظار ما ستسفر عنه العملية. بعد لحظات من البحث المستمر، وصلت "جميلة" إلى المستشفى بصحبة سيليا، بعدما تركت أسيل في رعاية والدتها في القصر. دخلت المستشفى بسرعة، عيناها تبحثان عن أفراد العائلة وسط الزحام. توجهت نحو نعمة وليالي، وقلقها يظهر بوضوح على وجهها، ثم قالت بقلق:
_إيه؟ هايدي كويسة؟

نعمة بِارتعاب:ادعيلها يا جميلة ياختي، لسه داخلة العمليات دلوقتي.
جميلة بثقة:إن شاء الله هتخف وتكون كويسة.

ثم نظرت إلى أحمد، وملامح العتاب تظهر في عينيها. اقتربت منه، وقالت بلهجة لا تخلو من اللوم:
_ولما إنت جاي المستشفى مستنتش ليه آجي معاكم؟

أحمد بحُجة:مانا كنت مستعجل يا جميلة وغصب عني إنتي بتاخدي وقت على ما تجهزي.
جميلة باستياء:أوكي.

لم تقتنع جميلة بما قاله أحمد، فقررت الجلوس بجوار ليالي ونعمة، بينما كانت سيليا بجانبهم، جميعهم يترقبون خروج هايدي من غرفة العمليات، وقلوبهم مشدودة بين الأمل والقلق. كانت الساعات تمر ببطء، لكن اليقين في أن تكون العملية قد مرّت بسلام. أما أم الفار، فقد نقلت أغراضها إلى منزل حسين، تاركةً البقية في مخزن إحدى أخواتها. مع مرور الأيام، تأقلمت مع المكان حتى شعرت وكأنه منزلها الحقيقي. اعتادت على العيش فيه بمفردها دون خوف، كأنها قد خلقت لنفسها عالمًا خاصًا، لكنه كان عالمًا مشوبًا بالحذر. لكن المعلم حنفي كان له رأي آخر، فقد اعترض على تواجدها بمفردها، خوفًا عليها من المختلسين. قرر الذهاب إليها قبل أن يزور هايدي في المستشفى، فطرق الباب برفق. خرجت جمالات، وكانت ترتدي عباءة شعبية، وعلى وجهها مكياج ثقيل وكأنها خرجت لتوها من حفل زفاف. كان ذراعاها مغموران بغوايش الذهب التي تصدر صوتًا مميزًا مع كل حركة، وهو ما جعل "المعلم حنفي" ينظر إليها بإعجاب، دون أن يستطيع تمالك أعصابه، ثم ابتسم وقال:
_أوبا أوبا على الحلاوة، هو في كده؟

أم الفار بضحك:تسلم يا حبيبي.
المعلم حنفي بدهشة:طب إيه؟ هنتكلم على الباب كده؟
أم الفار بحياء:كان نفسي أدخلك، بس إنت عارف إن أنا قاعدة لواحدي.
المعلم حنفي بابتسامة:ماهو أنا جايلك بقى عشان متبقيش لواحدك تاني، فكرتي؟
أم الفار بدلال:فكرت.

المعلم حنفي بفضول:طب إيه الكلام؟
أم الفار بضحك:موافقة بس بشرط!
المعلم حنفي ببشاشة:ده إنتي تؤمري.
أم الفار بغُناج:تعملي فرح كبير وتعزم الناس كلها.
المعلم حنفي بموافقة:من عينيا الإتنين، يعني نقول مبروك؟
أم الفار بدلال:نقول، منقولش ليه؟

وافقت جمالات على الزواج من المعلم حنفي، فبدأ يعيش قصة حب جديدة بعيدة تمامًا عن أم الديب، التي زرعت الكراهية والسخط في قلبه تجاه كل النساء. لكن أم الفار، بذكائها الفطري، استطاعت أن تمحو تلك

المشاعر الحانقة وتبدلها بأمل جديد في الحب والحياة. أصبح قلب المعلم حنفي مليئًا بالتفاؤل، وكان يشعر بسعادة كبيرة أنه سيبني حياة جديدة مليئة بالسلام الداخلي. وأبناءه، سيبدون سعادتهم بهذا الخبر، عدا نعمة، التي كانت دومًا تتبع أم الديب، وتظل تحت تأثير قسوتها. في تلك الأثناء، كانت أم الديب جالسة وسط حفدتها جميعًا: حمود، وتقَى، ومحمد، وعمر. كان عمر يبكي، وحمود وتقى يتشاجران بضراوة، بينما كان محمد مشغولًا بلعب الكرة في الزاوية. وفجأة، صرخت "أم الديب" فيهم جميعًا، قائلة بانزعاج:
_نفوخي، نفوخي يا خلق، كل دهو زن ووجع دماغ؟

حاولت أن تهدئ الوضع، لكنها بدت محبطة تمامًا من تصرفاتهم. على الرغم من محاولات كل واحد منهم لفت انتباهها، كانت هي غارقة في الشعور بالضيق والعجز عن التحكم في الأطفال. وبينما كان الجميع يهدأ أخيرًا، جلست "أم الديب" على الأريكة، تحمل الطفل الرضيع الذي كانت قد أصابها الإرهاق من صراخه المستمر. وتوجهت إلى نعمة عبر الهاتف، محملة إياها بعض اللوم على تركها الطفل معها، قائلة:
_ألو يا نعمة، الواد الصغير مش مبطل عياط ياختي ومش عارفة أسكته، تعالي وشوفيه ماله!

نعمة بتضايق:يا لهوي عليا ياما، هتجيبيني المشوار ده كله عشان مش عارفة تسكتي الواد؟
أم الديب بصياح:خلاص خليه مهري من العياط لحد ما بسلامتك ترجعيله.
نعمة بحدة:ياما احنا في إيه ولا إيه؟ هايدي دخلت العمليات!
أم الديب بفظاظة:دخلوها ازاي يا بت الكلـ*؟ والمخفي على عينه هو اللي معيوب؟ هما اتلغبطوا فيهم ولا إيه؟
نعمة بصخب:بقولك إيه ياما! الكلام ده ميصحش، وبطلي الدبش اللي بتطلعيه من بوقك! زياد سليم، بتك هي اللي عيانة وبدل مانتي بتتكلمي كلام زي السم، ادعيلهم ربنا يديهم اللي فيه الخير!

أم الديب بسخرية:يعني راميالي عيالك وعيال أخوكي ومقعدني جنبهم زي كلب الحراسة وكمان بتتكلمي؟
نعمة بانزعاج:محدش بيختار نفسه ياما، وبلاش تجرحي غيرك بكلام مالوش ستين لازمة، ربنا اللي بيرزق مش احنا!
أم الديب بصياح:عاملالي فيها الفلسسوفة ياختي وعمالة تدافعي وتتحمقي أوي عشانهم؟ ده لو أمك اللي عيانة مش هتعملي معاها كده!
نعمة بامتعاض:طيب ياما أنا هبعتلك حامد ياخد العيال، مع السلامة.

في المستشفى، كان الجميع يجلس في غرفة الانتظار، يملأهم الترقب. كانوا ينتظرون بفارغ الصبر خروج هايدي من غرفة العمليات. كان الوقت يمضي ببطء، وكل شخص منهم غارق في أفكاره الخاصة. بينما كانوا ينتظرون، دخلت "نعمة" إلى الغرفة، وقد أنهت للتو محادثتها مع أم الديب. على الرغم من أنها كانت تشعر بالقلق، إلا أنها حاولت أن تظهر بمظهر الهادئة، لكنها كانت تحمل في قلبها الكثير من الأفكار المتداخلة حول ما سيحدث لاحقًا. جلست بهدوء مع ليالي، قائلة:

_ أمي مش طايقة العيال ساعتين زمن وعمالة تزعق.

ليالي بتهكم:ليه هما قاعدين على قلبها؟

التفتت "ليالي" نحو جلال، وقد امتلأت ملامحها بالسخط، ثم قالت بنبرة حادة:
_مانا قولتلك يا جلال نوديهم عند أمي، صعبتها عليا وقولتلي احنا لسه هنروح ونعمل؟ استحمل بقى!

جلال:هما ساعتين تلاتة نطمن على البت وهنمشي.
ليالي بشفقة:ده أمك نفسها مش فارق معاها، ده إنتي يا هايدي مالكيش إلا ربنا.

كان الجميع منشغلًا في غرفتهم، جميلة تمسك بهاتفها تتصفحه في صمت، بينما كانت سيليا مشغولة باللعب في شعرها، وأحمد وزياد يتبادلان الحديث، تكتنفهما الهواجس. وفجأة، انفتح الباب، ودخلت ميادة، مما أثار دهشة الجميع. حضورها المفاجئ كان غريبًا، خاصة أنها لم تكن من العائلة، ما جعل الجميع يتساءل عن السبب وراء وجودها هنا. وقفت "ميادة" أمامهم، وقد بدت على وجهها ملامح خجولة، ثم قالت بصوت خافت:
_أنا بجد لما عرفت مقدرتش مجيش وقولت أعمل بواجبي أطمن على أستاذة هايدي.
نظرت "جميلة" إلى أحمد بنظرة مليئة بالشك، وكأنها تساءلت عن سبب حضور ميادة المفاجئ. ثم وجهت نظرها إلى ميادة، وقالت:
=انتي عرفتي منين إن هايدي هتعمل عملية؟

ميادة برقة:أستاذ أحمد عرفني طبعًا، بجد ألف سلامة عليها، ربنا يقومها بالسلامة ويشفيها.

اقتربت "ليالي" من نعمة، وتحدثت بصوت منخفض، محاولة ألا يسمعها الآخرون، وقالت بلهجة تحمل الكثير من الاستفهام:
_ومين دي ياختي دي كمان؟

نعمة باستغراب:معرفش، بس شكلها معاهم في الشغل.
أحمد بابتسامة:شكرًا لذوقك يا أستاذة ميادة، اتفضلي.

جلست ميادة معهم، وقد وضعت ساقًا على الأخرى. بينما كانت "جميلة" تشعر بنيران الغضب تتصاعد في صدرها، فهي كانت تشعر بوجود شيء سري بين أحمد وهذه الفتاة، شيء لم يكن واضحًا بعد لكنه كان يثير

شكوكها. نهضت فجأة، محاولة إخفاء ما يعصف بها من مشاعر، ثم توجهت إلى أحمد بابتسامة مشوهة بالغضب وقالت له:
_عايزاك!

أحمد ببسمة:طيب يا جماعة عن إذنكم!

خرج أحمد خلف جميلة وهو مبتسم، لكن داخله كان يشعر بالقلق لأنه يعلم أنه ذاهب لمواجهة تحقيقات حول حضور ميادة، وهو أمر لم يكن يود الخوض فيه. وقف بجانب جميلة، التي كانت قد شبكت ذراعيها على صدرها بتجهم، معبرة عن امتعاضها، بينما كانت ملامحها تُظهر الشكوك.أما "جلال"، فقد نظر إلى زياد بنظرة تحمل الكثير من الأسئلة دون أن ينطق بكلمة. كانت عيناه تتساءلان عن ما يخفونه، وعما يحدث خلف الأبواب المغلقة:
_تطلع مين البت دي؟

زياد بهواجس:مش عارف.
ليالي بسخرية:وانتي مين؟ متعرفناش يعني.
ميادة ببسمة:أنا ميادة زميلة أستاذ أحمد وأستاذة جميلة في الشغل.

لم ترحب ليالي بميادة، بل وجهت نظرها نحو نعمة، وهمست لها بصوت خافت، تخبرها بما يعتمل في صدرها أن هناك شيء مخفي بين ميادة وأحمد، وأنها متأكدة من ذلك. فحنكتها وذكاؤها الحاد جعلاها تفسر الأمور بوضوح، دون أن يحتاج أحد لإخبارها. أما في الخارج، فقد تفاقم الاحتدام في نفس "جميلة"، التي كانت تملأها مشاعر من السخط. التفت إلى أحمد وقالت بعصبية، وهي تحاول السيطرة على أعصابها:
_وانت ازاي تقولها حاجة زي دي؟ هي كانت من باقية عيلتنا؟ دي مجرد واحدة في الشغل، واشمعنا هي بالذات يعني؟

أحمد بتلجلج:عادي يا جميلة، أكيد مش قاصد أقولها هي بالذات دونًا عن كل زمايلنا في الشغل، كل الموضوع إنها جات قعدت مع أستاذ عبدالله وكنا بنتكلم مع بعض في موضوع يخص القناة والكلام جاب بعضه، فعرفت بالصدفة.

نظرت جميلة إلى أحمد بعدم اقتناع، ثم تركته ودخلت الغرفة وهي تبدو متضايقة. بينما جلس أحمد مع البقية، حاول أن يطمئن نفسه بأنه لا يوجد شيء يستدعي كل هذا القلق. ولكن جميلة، رغم محاولاتها إخفاء ما تشعر به، كانت تشعر بنار الشك تنمو داخلها. بعد قليل، خرجت جميلة من الغرفة بحجة أنها ذاهبة إلى المرحاض. لحظتها، نظر إليها "أحمد" باهتمام، وسألها بهدوء:
_رايحة فين؟

جميلة:هدخل التويلت.
سيليا:هاجي معاكي يا مامي!
جميلة:أوكي يا سيليا.

أخذت جميلة سيليا ودخلتا المرحاض، حيث جلست سيليا على المقعد بينما كانت جميلة تخرج هاتفها المحمول. اتصلت بالمخرج الذي أخبرها أحمد أنه كان جالسًا معه من قبل. أقدمت "جميلة" على الاتصال بكل هدوء، مُحاولة إخفاء ما تشعر به من توتر، وسألت المخرج برصانة، دون أن تُظهر أي شيء مما يدور في ذهنها، قائلة:
_إزي حضرتك يا أستاذ عبدالله؟

عبدالله بترحيب:يا أهلًا وسهلًا بحضرتك يا أستاذة جميلة، أخبارك إيه؟
جميلة بتردد:الحمدلله، كنت عايزة أسألك عن حاجة.
عبدالله بتبجيل:اتفضلي تحت أمرك.
جميلة بتحيُّر:آخر مرة راجعت الأرباح مع أستاذ أحمد كانت امتى؟
عبدالله بوضوح:والله كان من حوالي أسبوع كده وبقالي كام يوم عايز أقعد معاه نراجعها مع بعض بس الشغل كتير عليا، لو هو قالك أي حاجة قوليله إن أنا بإذن الله ليا قاعدة معاه بكرا وفهميه الظروف.

جميلة باكتراث:لا هو مقالش حاجة، يعني مقعدتوش مع بعض من أسبوع؟
عبدالله بابتسامة:أه للأسف، بس هو في حاجة يا أستاذة جميلة؟
جميلة بلُطف:خالص، ده أنا بس بطمن إن كل حاجة ماشية تمام، لأن بقالي يومين مبجيش البرنامج بسبب البنات، حتى مبلحقش أسأله لأنه بقي يرجع من الشغل متأخر.
عبدالله بتمني:ربنا معاكي، وياريت تيجي في أقرب وقت، جمهورك مفتقدك!
جميلة بود:أنا كمان مفتقداهم، بس راجعة قريب إن شاء الله.
عبدالله:إن شاء الله.
جميلة:باي.

تأكدت جميلة في تلك اللحظة أن أحمد كان يكذب عليها، وأنه أخبر ميادة عن عملية هايدي دون أن يكون جالسًا مع المخرج كما قال. كان يقينها بوجود خيانة من أحمد تجاهها قويًا، لكنها لم تتمكن بعد من الإمساك بكل أطراف الحقيقة. من بعد تلك المكالمة، أصبحت غير قادرة على النظر في عينيه، إذ كانت مشاعر السخط تتراكم بداخلها. وعندما انتهت سيليا من التبول ونظفت نفسها، نظرت إليها "جميلة" بقلق شديد وسألت:
_خلصتي؟

سيليا:أه يا مامي.

بعدما انتهت سيليا من تنظيف نفسها، وقامت جميلة بأخذها للخروج من المرحاض. كانت الشكوك قد بدأت تملأ عقلها من تصرفات أحمد التي كانت غير منطقية بالنسبة لها. وعندما عادت إلى الغرفة، لم تكن قادرة على تحمّل وجود ميادة، إذ أصبح بوضوح أنها لم تعد تحتمل تلك الفتاة نهائيًا. وفي تلك اللحظة، تحدثت "ميادة" مع أحمد بابتسامة هادئة، وكأنها غير مدركة لما يعتمل في صدور الآخرين:
_أنا شوفت هايدي في فرح قمر الدين بجد ما شاء الله عليها زي القمر.

نظرت جميلة إلى ميادة بصدمة، فقد استغربت بشدة من سلوكها. تساءلت في داخلها: "لماذا تحاول ميادة التقرب منهم بهذه الطريقة؟" خاصة وأن علاقتهم بها كانت سطحية جدًا، مجرد علاقة عمل لا أكثر. كان الأمر يبدو غريبًا بالنسبة لها، وكأن هناك شيء مخفي. ضحك "أحمد" ضحكة بسيطة، ثم قال:
=شكرًا، ده من ذوقك يا أستاذة ميادة.

كان الجميع في الغرفة يلاحظون ما يحدث، والجو أصبح مشحونًا بالشكوك. حتى "ليالي" لم تستطع كبح فضولها، فهزت شفتيها، ونظرت إلى نعمة بنظرة خفية، ثم همست لها بصوت واطئ مليء بدهاء الريفيات، قائلة:
_البت دي شكلها مش مظبوطة ياختي! هي إيه اللي عرفها بهايدي، والحاج قمر الدين أخو ست جميلة؟

نعمة بخرع:أسكتي يا ليالي بدل ما جميلة تسمعك وتزعل!
ليالي بفرح:يا حول الله يارب.

وضعت جميلة ساقًا فوق الأخرى بغرور، ونظرت إلى ميادة باشمئزاز، ثم تجاهلت وجودها تمامًا. كانت تتبادل الأحاديث مع نعمة وليالي دون أن تكلف نفسها توجيه كلمة إلى ميادة. بعد ساعة ونصف من إجراء العملية، خرجت هايدي من غرفة العمليات. كانت في حالة شديدة من الضعف، لا تشعر بنفسها ولا بمن حولها. دخل الممرضون بالسرير المتحرك إلى الغرفة، وحين رآها "زياد"، ركض نحوها حتى وصل إلى السرير الذي نقلوها عليه. وقف بجانبها، وعيناه مليئتان بالقلق، فسأل الممرضة بخوف:
_هايدي عاملة إيه دلوقتي؟

الممرضة:الدكتور هيجي ويبلغكم بالنتيجة.
أحمد بقلق:طيب الدكتور هيجي امتى؟
الممرضة:جاي حالًا، متقلقوش!

وضعت الممرضة إبرة المسكن لهايدي وغادرت مع زميلتها، بينما كان الجميع في الغرفة يتطلعون إلى معرفة نتيجة العملية، والتي ستحدد مصير زواج هايدي من زياد. كان زياد في حالة من الذعر الشديد، يفكر في احتمال فشل العملية، لأنه إذا حدث ذلك، فإن هايدي ستصر على الانفصال دون رجعة. كانت الدقائق تمر وكأنها سنوات من التوتر. دخل الطبيب إلى الغرفة، ليجد الجميع حوله يسألون عن حالة هايدي. نظر إليه "أحمد" بقلق، وسأله بصوت مضطرب:

_طمني يا دكتور، العملية أخبارها إيه؟

نعمة برهبة:يارب خير.

الطبيب بابتسامة:متقلقوش يا جماعة، العملية الحمدلله نجحت، هي بس محتاجة راحة لا تقل عن أسبوع!

يتبع....

الفصل الثامن والعشرون

عمّت الفرحة أرجاء الغرفة بعدما طمأنهم الطبيب بأن العملية قد نجحت بفضل الله، ولم يعد هناك ما يعيق هايدي عن تحقيق حلمها بالإنجاب. انحلّت العقدة الصعبة التي خيّمت على حياتها، وتلاشت كأنها لم تكن، لكن هايدي كانت في أشد الحاجة إلى الراحة بعد هذه التجربة المُرهقة. كانت غارقة في نوم عميق، لا تشعر بشيء مما يدور حولها، بينما أفراد عائلتها تجمعوا حول سريرها، يتبادلون التهاني بابتسامات دافئة ودموع الفرح. كان "زياد" أكثرهم فرحًا، وقد انفجرت مشاعره سعادة وشكرًا لله. خرّ ساجدًا على الأرض، وقلبه يفيض امتنانًا، وقال بحماس:

_اللهم لك الحمد والشكر... الحمدلله، شكرًا يارب شكرًا.

أحمد بمُباركة:ألف مبروك علي نجاح العملية، أنا كنت حاسس إنها هتنجح.

الطبيب بابتسامة:مبروك يا أستاذ زياد وعقبال ما تيجوا السنة الجاية بس وانتوا تلاتة مش اتنين!

نهض "زياد" من سجوده وعيناه تلمعان بدموع الامتنان، ثم اندفع نحو أحمد، فعانقه بحرارة وكأن الكلمات تعجز عن وصف مشاعره. بعد ذلك التفت إلى الطبيب، ومدّ يده نحوه ليصافحه، لكنه لم يكتفِ بالمصافحة بل احتضنه بسعادة غامرة، وكأنه يعانق الأمل الذي أضاء له ولهايدي مستقبلًا جديدًا. وبصوت ممتلئ بالامتنان والفرح قال له:

_يارب يارب، ألف شكر ليك يا دكتور، الناس كلها بصراحة كانت بتشكر فيك وأنا اللي كان مطمني كلامهم عنك... بجد لو أشكرك لبكرا مش هيكفي.

الطبيب ببشاشة:احنا مهنة إنسانية وبنسعى دايمًا لمساعدة الناس وتغيير مسار حياهم للإتجاه السليم وده بفضل ربنا أولًا ثم احنا.

أحمد ببسمة:ألف مليون شُكر لحضرتك، بجد مش عارف أقولك إيه!

صافح أحمد الطبيب بحرارة، وعيناه تعكسان ارتياحًا عميقًا، بينما دوّى صوت الزغاريد في الغرفة من ليالي ونعمة، اللتين انطلقتا نحو هايدي لتعانقاها بشوق، رغم أنها ما زالت غائبة عن الوعي تحت تأثير التخدير. كانت الغرفة يغمرها دفء العائلة، والفرح قد عاد ليخيم على قلوبهم جميعًا. نظر "الطبيب" إلى العائلة بابتسامة مليئة بالرضا، وقال لهم بنبرة مطمئنة:

_مبروك، حد فيكم يجي معايا عشان يجيب العلاج.

أحمد:أنا جاي مع حضرتك.

خرج الطبيب من الغرفة وخلفه أحمد مُتجهًا نحو مكتبه لاستلام روشتة العلاج والتوجيهات الطبية. بينما ساد جو من الفرح في الغرفة، بعدما انقلب القلق الذي كان يخيم قبل العملية إلى سعادة وطمأنينة عارمة. "زياد"،

الذي لم يفلت يد هايدي، جلس بجانبها ينظر إلى وجهها الشاحب برقة، وكأن عينيه تسابقان الزمن في انتظار استيقاظها. تنفس بعمق، وقال بانشراحٍ يُشبه النجاة بعد عاصفة:
_كده مالكيش أي حجة، وياريت ترجعي بيتك، أنا مابقتش قادر أعيش من غيرك يا هايدي!

ميادة بتهنئة:مبروك بجد، عقبال ما تجيب بيبي حلو زيها كده.
زياد بابتسامة:الله يبارك فيكي.

نهضت "ميادة" من مكانها بعد أن شعرت بأن دورها في قد انتهى، وسرقت لحظتها الأخيرة بابتسامة خافتة، قبل أن تغادر. توجهت بخطوات متأنية نحو الباب، تاركة خلفها نظرات متباينة من الجميع، بين من يتساءل عن مغزاها ومن لا يكترث لوجودها من الأساس، فقالت:
_أنا كده اتطمنت علي هايدي، همشي بقى عن إذنكم.

زياد بتبجيل:اتفضلي.

بعدما غادرت ميادة نهضت "جميلة" بعصبية مكبوتة، محاولة أن تخفي ضيقها من تصرفات ميادة، ثم اقتربت من هايدي وهي مستلقية على سريرها، تبدو غارقة في سبات التخدير. مررت يديها برفق فوق ذراعيها الهزيلتين، وقالت بصوت يغلبه الوداد:
_حمدالله على سلامتك يا هايدي.

نعمة بحماس:فوقي يا هايدي، العملية نجحت يا بت! نجحت والله وبقيتي سليمة وزي الفل!
زياد بضحك:هايدي مش حاسة بحاجة، خديلك نص ساعة لحد ما تفوق!
نعمة بسعادة:مش مهم، المهم إننا اتطمنا عليها، أنا الصراحة كنت خايفة أوي لا العملية تفشل، بس الحمدلله ربنا حَب يفرحنا.
ليالي بفرح:هي دي الأخبار اللي تفرح.

بعد أن استلم أحمد الروشتة من الطبيب، توجَّه بها إلى الأجزخانة، حيث اشترى كل الأدوية المدونة بعنايةٍ. وبعد ساعتين، اجتمع الجميع متعاونين في رفع هايدي من سريرها، وكانت ليالي ونعمة وجميلة منشغلاتٍ بإلباسها ثيابها برفق. وبيدٍ حانية وسواعد متآزرة، دعموها حتى غادرت المستشفى برفقة الرجال. جلست هايدي بمساعدة زياد وأحمد في المقعد الخلفي للسيارة، بينما كان أحمد يقود السيارة بثبات وزياد يجلس إلى جواره متأهبًا لأي طارئ. أما نعمة، فقد ركبت سيارة جميلة، وقد عقدت العزم على البقاء مع أختها هايدي لتخدمها وتُعينها فيما تحتاجه، تاركة أطفالها في رعاية ليالي بعدما اتفقت معها على أن يكون ذلك ليومين فقط. في تلك الأثناء، غادر جلال وليالي إلى منزلهما. ورغم إصرار زياد على أن يتولى خدمة هايدي بمفرده، أصرَّت نعمة على البقاء لتخفف العبء وتشارك في الرعاية. كان الظلام ينساب كستارٍ ثقيلٍ فوق

المدينة، والصمت يلف شوارعها التي بدت وكأنها تحتضر تحت وطأة الليل. في غرفة هايدي، كانت الآلام تعتصرها إثر العملية، بينما زياد يجلس إلى جوارها، عيناه تراقبانها بقلقٍ لا يغيب، ونَفَسه يختلط بأنفاسها كأنه يحاول أن يُشاركها بعضًا من معاناتها. أما نعمة، فكانت لا تهدأ، تتنقل بين المطبخ والغرفة، تُعِدُّ الطعام تارةً، وتتفقد الأدوية تارةً أخرى. وحينما دخلت نعمة إلى الغرفة، كانت الأجواء مُشبعة بالهدوء. التفت إليها "زياد"، وبصوتٍ متعب لكنه ثابت، قال:

_تعبتي نفسك ليه بس يا نعمة؟ إنتي أكيد ولادك محتاجينك، هتسيبيهم عشان تخدمي هايدي؟

نعمة بسرور:انت متتصورش يا زياد ياخويا أنا بكون مبسوطة ازاي وأنا بخدم أختي، هي حد غريب؟ دي أختي بت أبويا وأمي.

نظرت "نعمة" إلى هايدي بعيونٍ مكتظة بالحزن، وواصلت لها باستياءٍ في صوتها:

_ربنا يشفيكي يا هايدي ويقومك لينا بألف سلامة، ويعوضك قريب بحتة عيل يملى عليكم البيت.

زياد بتمني:يارب، ادعيلها كتير يا نعمة!

نعمة بحنو:بدعيلها من غير حاجة والله.

ثم عادت إلى المطبخ، وعينيها تلمعان بعزمٍ، بينما يديها تتقن صُنع حساء لسان العصفور، وكأنها تُحضر الشفاء ليس فقط للطعام، بل لروح أختها المُرهقة. أما جلال وليالي، فعندما وصلا إلى المنزل، كان أول ما فعلاه هو أخذ أطفال نعمة من أم الديب، التي بادرتهم بكلمات جارحة وتسببت في شجارٍ صغير. صعدت ليالي بحذر، حاملةً عمر الرضيع بين ذراعيها، بينما كان جلال يتبعها مع باقي الأطفال خلفه. دخلوا الشقة، حيث جلست ليالي على الأريكة، وبدأت ترضع عمر بالحليب، لكن في قلبها كان هناك ألف سؤال، وآلاف الظنون التي تتنازع عقلها. كانت تفكر في ميادة، التي حضرت عملية هايدي دون سابق معرفة، وكأن بين ميادة وأحمد علاقة خفية، تُخفي وراءها أسرارًا قد لا تُكشف أبدًا. فقالت "ليالي" بنبرةٍ حادة:

_الصراحة يا جلال أنا حاسة إن البت اللي جات المستشفي دي مش مظبوطة ولا وراها حاجة!

جلال بلا اكتراث:وراها مورهاش ميشغلناش! احنا هنسيب حالنا ومالنا ونقعد نفكر في البت إذا كانت مظبوطة ولا لا؟

ليالي بدهشة:هو إنت إيه ياخويا؟ مبتنصفنيش أبدًا ولا بتاخد وتدي معايا زي الرجالة التانية؟ دايمًا مهبطني كده؟

جلال بانزعاج:بقولك إيه يا بت! أنا مش فاضي لحوارات النسوان دي! حِلي عن دماغي!

خرج جلال إلى البلكونة، يُدخن سيجارته بعيدًا عن رئتي الرضيع الضعيف، محاولًا أن لا يزعج سكون المنزل. لكن "ليالي"، التي كانت جلستها على الأريكة تحمل في قلبها هواجس كثيرة، قالت له بغيظٍ في صوتها، وهي تنظر إليه بنظرة مشوبة بالاستفهام:

_بقي كده يا جلال؟ ده إنت مش طايقلي كلمة، حوسة لا تكون أمك رشتلنا اللي ما يتسمي علي عتبة باب شقتنا! مانا عارفاها نفسها تشوفنا بنقطع في بعض.

في اليوم الثاني، وعند تمام الساعة الحادية بعد الظهيرة، كان أحمد جالسًا في أحد المقاهي، مشغولًا بحاسوبه الخاص، يرتشف كوبًا من الكابتشينو الساخن، بينما يلتذ بمذاق المولتن كيك، غارقًا في أفكاره. وفجأة، دخلت "ميادة"، متألقة في زي مثير لا يشبه مظهرها المعتاد، وكأنها كانت تلبس عباءة الغموض والإغراء في آنٍ واحد. كان وجهها مزينًا بمكياج أنيق، وجسدها ملفوفًا في فستان يكشف عن أنوثتها، بينما كانت ترتدي حذاءً ذا كعبٍ عالٍ كأنما هي مُتجهة لموعد غرامي. لكن، ما إن التقت عيناها بعين أحمد، حتى تقدمت نحوه بابتسامة عريضة تملأ وجهها، وكأنما كانت مفاجأة له أكثر مما هي له. قالت بسرورٍ مبالغٍ فيه:

_معقول تكون صدفة إننا نتقابل؟

أحمد بتلطف:هي بصراحة صدفة فعلًا، بس صدفة حلوة!

ميادة بدلال:ممكن أقعد؟ لو مفيهاش مشكلة يعني.

أحمد بموافقة:أه طبعًا اتفضلي، يا خبر!

جلست ميادة برشاقة، واضعة ساقًا فوق الأخرى بحركةٍ واثقة، وهي تُعلن حضورها بلا كلمات. لمح "أحمد" هذه الإيماءة التي تحمل مزيجًا من الجرأة والدلال، فضحك بهدوء، ناظرًا إليها بعينين تضمران تساؤلاتٍ لا تُقال. ثم قال لها بنبرةٍ يملؤها المزاح:

_أيس موكا برضة ولا نغير؟

ميادة بضحك:لا نغير وخلينا سموزي ليمون المرة دي.

أحمد بإفترار:مفيش أي مشكلة.

ثم لوَّح بيده في الهواء، مشيرًا للنادل الذي كان منشغلًا بخدمة طاولاتٍ أخرى، وقال بنبرةٍ هادئة لكنها تحمل إلحاحًا:

_لو سمحت!

تقدّم النادل بخطواتٍ ثابتة، حاملًا دفتره الصغير وقلمه، مُستعدًا لتدوين الطلب. رفع أحمد عينيه إليه بابتسامةٍ ودودة، ثم قال:

_عايز واحد سموزي ليمون!

النادل:تمام.

غادر النادل بهدوء بعد أن دوّن الطلب، بينما أخذت "ميادة" تلعب بخصلات شعرها بأطراف أصابعها، وعيناها تتأملان السماء بتفكير. كان في ملامحها شيء من الخجل، وهي تحاول ترتيب أفكارها وسط لحظةٍ مليئة بالاحتمالات، فقالت:
_ممكن أسألك سؤال؟

أحمد بتأكيد:أه طبعًا، اتفضلي!
ميادة بارتياب:هو أنا ليه حسيت إن جميلة اتضايقت لما أنا جيت؟
أحمد باستغراب:ليه بتقولي كده؟
ميادة باستياء:حسيت إنها يعني مش حابة وجودي، حتي مسلمتش عليا ووشها اتغير لما شافتني، يمكن أكون زعلتها في حاجة وأنا مش قصدي!
أحمد باستنكار:لا طبعًا، وهي هتزعل منك ليه ومفيش حاجة حصلت؟ خصوصًا إن علاقتكم ببعض سطحية، المعاملة بينكم مش متعمقة يعني لدرجة إنها تجيب زعل ما بينكم.
ميادة برقة:أصل أنا مبحبش حد يزعل مني! طول عمري قلبي أبيض وحساسة جدًا، بخاف أكون تقيلة على اللي قدامي أو حتي أجرحه وأنا مش قصدي.

أحمد بابتسامة:لا لا مفيش الكلام ده! هي بس كانت متأثرة بعملية هايدي وكانت خايفة يحصل أي مضاعفات، أصل هي وهايدي صحاب أوي.
ميادة بدهشة:طب والله كويس، حاجة لطيفة جدًا إنهم يكونوا صحاب، أنا اللي عيشت طول عمري أدور علي صاحبة كويسة ملقتش، كل صحابي غدروا بيا وإدوني بالسكينة في ضهري، حتي أهلي علاقتنا ببعض مش ألطف حاجة!
أحمد بتعجب:ليه طيب؟ في أسباب معينة؟

ميادة بشجن:أكيد في، بس الوحدة وحشة أوي، بيبقي جنبنا ناس وقريبين مننا في المسافة بس فهمنا وإحساسنا ببعض بينه وبين بعضه بلاد.
أحمد بتأييد:فعلًا مش أي حد قريب منك يبقي قريب من قلبك، ومش أي حد بعيد عنك يبقي بعيد عن قلبك، في ناس بنفتكرها حتي وهما بعيد! وفي ناس وهما جنبنا مبيجوش علي بالنا لحظة.
ميادة بتعاسة:وده اللي أنا عايشاه! عارف يا أستاذ أحمد؟ أنا من ساعة ما شوفتك وحسيت إنك مختلف عن كل اللي شوفتهم، حاجة مميزة جدًا... لطيف شكلًا وموضوعًا، يا بخت مراتك بيك!
أحمد بابتسامة:ربنا يخليكي، بجد كلك ذوق وأخلاق، إنتي أول حد يقولي الكلام ده!
ميادة ببسمة:يمكن عشان أنا الوحيدة اللي شوفت ده.

تململ أحمد في مكانه للحظات، إذ شعر بتوترٍ خفيف يعصف بظاهره، لكنه في أعماقه وجد نوعًا من الراحة الغريبة بصحبة ميادة. أما هي، فبدت وكأنها أخيرًا بعد سنواتٍ من البحث المضني عن الرجل المناسب، قد وجدت من يلامس روحها بعمق. رأت فيه شيئًا مميزًا يختلف عن الجميع؛ فرغم أصوله الريفية، إلا أن أحمد لم يحمل تلك السمات البسيطة التي تميّز أهل الريف، ولم تكن طريقة حديثه أو أسلوبه مثلهم كزياد. تميز أحمد بحصافةٍ جذبتها، وجاذبيةٍ خاصة لم تجدها حتى في أبناء العائلات الثرية. بل على العكس، كان أحمد الآن قد تجاوز الخطوط الفاصلة، وأصبح واحدًا من طبقة الأثرياء، يُنافسهم بأناقته وثقافته. بعد دقائق قليلة، عاد النادل يحمل الطلب بعناية، ووضعه أمامها. رفعت "ميادة" عينيها إليه بابتسامة مشرقة، وقالت:

_ميرسي.

ونظرت إلى أحمد بابتسامةٍ دافئة تحمل في طياتها الكثير من المعاني. بينما في مكانٍ آخر، استيقظت هايدي من نومها على ضوء الشمس المتسلل برفق عبر النافذة، ليُداعب وجنتيها بتوهجٍ ناعم. عندما فتحت عينيها ببطء، وجدت زياد جالسًا بجانبها، ونعمة قبالتها، وكلاهما منخرطٌ في حديثٍ بدا وكأنه محاولة لكسر صمت الغرفة. التفت "زياد" نحو نعمة بعد برهة، وقال بنبرةٍ شبه هامسة:

_طب لو كان كده كنتي جيبي الولاد معاكي!

نعمة باعتراض:لا لا عيال إيه يا زياد ياخويا؟ دول مبيبطلوش زن وعياط، وهايدي عاوزة تقعد في جو هادي.

زياد بابتسامة:عادي يا ستي كنا اتصرفنا معاهم، لعلمك أنا بعرف أتعامل مع الأطفال كويس!

نعمة برفض:ده كلام، إنما لما تبقى عايش معاك عيل زنان أربعة وعشرين ساعة، والنبي ما هيبقي ده كلامك... ده أنا سايباهم لليالي وأنا على عيني والله، الله يكون في عونها، هتشيل أربعة ازاي لواحدها؟

زياد بإلحاح:طب مانا بقولك ارجعي إنتي البيت، وأنا هقدر أخدم هايدي لحد ما تقوم علي رجليها!

نعمة ببسمة:أختها أولى بيها، احنا ولايا ونحس ببعض... إنت أه هتخدمها بس عمرك ما هتحس باللي فيها مهما عملت.

زياد:والله بحاول يا نعمة علي قد ما أقدر.

نعمة بتبسُّم:ربنا يشفيها، أنا هروح أشوف الفرخة استوت ولا لسه.

هايدي بألم:ياه يا نعمة، أنا مبحبش الفراخ المسلوقة!

نعمة:معلش كام يوم لحد ما تخفي.

خرجت نعمة من الغرفة بخطواتٍ هادئة، مُتجهة نحو المطبخ لتتفقد إن كانت الدجاجة قد استوت أم لا، فقد كانت حريصة على تجهيز الحساء لإطعام هايدي حتى تستعيد قوتها. وبينما كانت تقترب من الموقد، تفاجأت بصوت طرقٍ على الباب. أسرعت نعمة نحو الباب، وفتحته دون تردد، لتجد المعلم حنفي واقفًا هناك، مرتديًا بنطالًا وقميصًا مرتبًا، وفي يديه كيسان ممتلئان بالفاكهة، أحدهما يضم الموز، والآخر التفاح. أشرق وجه "نعمة" بالسرور، وابتسمت وهي تقول بلُطفٍ:

_إيه ده؟ أبويا؟ ازيك يابا؟

ابتسمت "نعمة" بفرحةٍ صادقة، ثم تقدمت لتعانق المعلم حنفي بحفاوةٍ، وهي تردف بسرورٍ يملأ صوتها:
_تعالي يابا خُش!

المعلم حنفي باهتمام:أختك أخبارها إيه؟

دخل المعلم حنفي الشقة، بينما أوصدت "نعمة" الباب بهدوء وتبعته إلى الداخل. توجه مباشرة إلى المطبخ، حيث وضع أكياس الفاكهة بعناية فوق الرخامة، ثم تابع طريقه إلى غرفة النوم بخطواتٍ متأنية. أما نعمة، فأجابت بطمأنينة، وبصوتٍ يحمل مزيجًا من الثقة والراحة، محاولةً تبديد أي قلق:
_الحمدلله بألف خير، أهي عملت العملية وبقيت زي الفل.

المعلم حنفي باهتمام:يعني المشكلة اتحلت؟
نعمة بسكينة:أه الحمدلله.
المعلم حنفي بارتياح:ألف حمد وشكر ليك يارب.

ما إن دخل المعلم حنفي الغرفة حتى وقع بصر زياد عليه، فتوهجت عيناه بمزيجٍ من المفاجأة والفرح. نهض زياد مُسرعًا من مكانه، وانقض في أحضان المعلم كمن وجد قطعة من ذكرياته الضائعة. كان عناقًا يفيض بمشاعر الحنين، ورائحة المعلم حنفي أعادت إلى زياد طيف والده الغائب. خبط "المعلم حنفي" بإعزازٍ على ظهر زياد، وهو يقول بحنانٍ غامر:
_ازيك ياض، عامل إيه؟

زياد بترحيب:الحمدلله يا عمي، اتفضل!

قبل "المعلم حنفي" رأس هايدي برفقٍ، وكأنما أراد أن يبعث في نفسها الطمأنينة، ثم جلس على السرير مقابلًا لها. نظر إليها بعينين مليئتين بالاهتمام، وسألها بصوتٍ هادئ، يعبق بالحنو:
_ازيك يا هايدي؟ عاملة إيه دلوقتي؟

هايدي بتأوه:الحمدلله.
المعلم حنفي بتحنُّن:حمدالله على السلامة.
هايدي بألم:الله يسلمك يا بابا.
المعلم حنفي بفضول:عملتوا إيه؟
زياد:روحنا إمبارح الصبح بدري والدكتور عمل لهايدي شوية فحوصات ودخلت عملت العملية الحمدلله.

المعلم حنفي بفرح:الحمدلله، كده هايدي بقيت عال العال.
زياد بسعادة:أيوه الحمدلله، أنا كنت خايف عليها أوي بصراحة.
المعلم حنفي بتردد:لا متخافش، مادام العملية عدت على خير يبقى خلاص! آني عاوز أكلمكم في موضوع!

بعدما خرجت "نعمة" من الغرفة لتتأكد من طهي الدجاجة في المطبخ، عادت إلى الغرفة وجلست معهم بالقرب من هايدي. تنفست بارتياح، وألقت نظرة على المعلم حنفي وزياد، ثم قالت بابتسامة مطمئنة:
_الفرخة فاضلها شوية كمان وتكمل سوى.

زياد بمُبالاة:موضوع إيه ده يا عمي؟
المعلم حنفي بتلعثم:آني...آني....
نعمة باستغراب:انت إيه يابا؟
المعلم حنفي بوضوح:آني هتجوز.

رد "الجميع" في آن واحد بصدمة، وقد ظهرت الدهشة على وجوههم جميعًا:
_نعم؟

كانت صدمة مدوية أطبقت على الجميع. قرار المعلم حنفي بالزواج باغتهم كالصاعقة، فقد طالما تردد في اتخاذه مرارًا، رهبةً من سطوة أم الديب. لكنه أخيرًا، ارتدى عباءة الشجاعة، واختار أن يُقدِّم مصلحته، متطلعًا إلى أيام تفيض بالهناء، تعويضًا لسنين أضناها العناء. لم تخلُ الأجواء من الذهول، غير أن زياد كان أول المباركين، يشدُّ على يد عمه دعمًا وتشجيعًا. أما هايدي، وقد أنهكتها العلّة، ظلت عاجزة عن إبداء رأيها. نعمة وحدها رفعت راية الاعتراض، تُحذِّر والدها من الانجراف خلف أم الفار "جمالات"، التي لم تحظَ يومًا بثقة أحد. وفي اليوم نفسه، ألحّ زياد على عودة نعمة إلى أبنائها، لترافق والدها إلى القرية. الأيام انقضت وهايدي تتعافى شيئًا فشيئًا، بفضل رعاية زياد واهتمامه الدؤوب بعلاجها وراحتها، ومعاونة جميلة التي أضفت على الأوقات دفئًا، وبعد عشرة أيام، بدأ الجرح يلتئم، واستعادت هايدي عافيتها، كزهرة تعود إليها ألوانها. انتشر نبأ زواج المعلم حنفي بجمالات بين أفراد العائلة، عدا أم الديب وضايع، اللذين لم يبلغهما شيء. أصدر المعلم حنفي أمره لأبنائه بالحضور، وكأنه شاب يتنفس عبير المراهقة من جديد. ارتدى بدلته، وجلست جمالات بفستانها الأبيض بجواره في منصة الزفاف، وسط تهاني الحضور وأهازيج الفرح. بينما ليالي ارتدت فستانًا أنيقًا، برفقة هايدي وجميلة، يشاركن الزفاف ببسمات خجولة. أما نعمة، فقد آثرت الغياب، رفضًا لما يحدث. وحدها أم الديب، غارقة في جهلها لما يدور حولها، غابت عن المشهد، وهي لا تدري أن الزمان قد خانه وفارق عهدها. قال "جلال" بسرور:
_مبروك يابا، أبويا عريس يا جدعان!

المعلم حنفي بسرور:الله يبارك فيك يا جلال.

بعيدًا عن صخب الحفل، كان أحمد واقفًا، كأنما الزمن توقف عنده، تغمره دهشة مُغلفة بعدم الاقتناع. كيف لوالده الذي أثقلته السنوات، أن يخطو نحو الزواج من جديد، وهو الجد الذي التفّت حوله الأحفاد؟ في وسط تلك الأجواء، تقدمت "ليالي" بخطى سعيدة نحو أم الفار، وقد ظهرت على ملامحها بهجة غامرة. أطلقت زغاريد الفرح، كأنها تُعلن انتصارًا، ثم احتضنتها بحرارة، وقالت بصوت مفعم بالسرور:
_مبروك يا حماتي يا عسل.

جمالات بحُب:الله يبارك فيكي يا ليالي يا حتة سكرة.

تقدم "أبو محمد" نحو أحمد، وقد ارتسمت الحيرة على وجهه، ويده لا تكف عن ضرب الكف بالكف، كمن يعجز عن استيعاب ما يجري. نظر إلى أحمد مليًا وقال بنبرةٍ تختلط فيها الدهشة بالاحتجاج:
_لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، بيتجوز على أختي اللي خدمته برموش عينيها؟

أحمد بسخط:أسكت والنبي يا خالي الله يكرمك! خدمته إيه بس؟ دي كانت مشغلاه خدام عندها وعند خالي ضايع!
أبو محمد بانفعال:أستغفر الله العظيم وأتوب إليه... لا إله إلا الله.

مضى أبو محمد، يضرب كفًا بكف، كأنما يودع المنطق على أبواب هذا الزفاف العجيب. لم يطل وقوفه، حتى جاء تباهي وهبة وأشرف، يسبقهم عم سلامة بخطاه الهادئة، يتقدمون للسلام على العروسين. اقترب "عم سلامة" من المعلم حنفي، وعانقه بحرارة، ثم قال بصوت تغمره البهجة:
_ألف مبروك يا معلم حنفي، أنا لما سمعت الخبر ده دمعت من الفرحة.

المعلم حنفي بفرح:الله يبارك فيك يا عم سلامة، كان نفسي أقولك عقبالك، بس إنت الله أكبر عليك متجوز ست محترمة وجدعة.

عم سلامة بوفاء:أم ليالي متتكررش أبدًا!
المعلم حنفي بإعزاز:ربنا يباركلك فيها وعقبال ابنك صابر!

أطلقت "تباهي" زغاريدها، كأنما تُشعل الأجواء فرحًا، ثم اندفعت تعانق العروس، غير مصدقة ما تراه من هذا الدلال الذي يحيط بها. ابتسمت بعينين تلمعان بالدهشة، وقالت بفرح غامر:
_اسم الله، اسم الله، هي دي أم الفار؟ دي زي العسل يا ناس... تتحسد من جمالها!

جمالات بود:ده إنتي اللي زي العسل ياختي.

اجتمع المعازيم حول الطاولات لتوديع الليلة بحكايات وضحكات متفرقة. وعندما أسدل الليل ستاره، عادوا إلى منزل أم الديب، حيث كانت نعمة جالسة على الأرض بجوار والدتها، تحتضن صغيرها عمر، بينما كانت أم الديب مُنشغلة بتقشير التفاح ببطء، وهي تسرح في أفكارها. بينما في الطابق السفلي، انشغل أحمد وجلال في حديث سريع، كأنهما يحاولان تنسيق أقوالهما بحذر. في المقابل، كانت ليالي تتبادل الأحاديث مع هايدي، تُثني على جمال العروس، بينما ردت هايدي برأي أكثر تحفظًا، مشددة على أهمية أن تُعامل العروس والدهم باحترام، عكس ما فعلت والدتهم في الماضي. لكن ما إن وصل الجميع إلى الشقة، حتى فوجئت "أم الديب" بما كانوا يرتدونه، وهو ما أثار فضولها وفتح باب التساؤلات، دون أن تدرك بعد حقيقة ما جرى في تلك الليلة، فقالت:

_ايهي انتوا رايحين فرح ولا إيه؟

نعمة برهبة:يا نهار أسود!

جلال بكذب:أه ياما كان فرح واحد صاحبنا، ده كان عامل ليلة كبيرة وجايب فيها غزلان ونعام مشوي ياما!

أم الديب بفضول:ويطلع طعمه عامل ازاي ياخويا؟

جلال:حاجة ولا في الخيال ياما.

قالت "جميلة"، وابتسامة رقيقة ترتسم على وجهها، بينما تحتضن أم الديب بحنان:

_هاي يا طنط.

أم الديب بحفاوة:يا ألف مرحب، ده انتوا نورتوا الدنيا كلها إنتي وأحمد وهايدي.

وضعت "ليالي" يدها على خصرها، مائلة بجسدها قليلًا، وقد ارتسمت على ملامحها ابتسامة ساخرة، وقالت بنبرة تحمل من التهكم أكثر مما تخفي:

_وليالي، وجلال، وزياد مضلمين الدنيا يعني ولا إيه؟

أم الديب ببغضاء:الكلام واضح!

أشارت هايدي لهما بالدخول إلى غرفة النوم، فدخلت برفقة ليالي وجميلة، وجلسن معًا على السرير، وكأنهن يخفين شيئًا بينهن. أما في الخارج، كانت أم الديب غير مرتاحة لوجود زياد وجلال، فقد جلس الرجال على الأريكة، أما هي، فلم تفارق قشور التفاح التي كانت تقشرها بنوع من الحنق، بينما كانت نعمة تستمتع باللحم

الأبيض، تعطي صغيرها بعضًا منه ليجرب نكهته لأول مرة. وفي الخلفية، كان التلفاز يعرض أفلامًا بصوت مرتفع، لا يكاد يقطع صمت الصالة. في الداخل، كانت "هايدي" تشعر بالخوف، تكاد تُحس بقلقٍ لا يُحتمل من أن تكتشف أم الديب حقيقة زواج المعلم حنفي. وهمست بصوت منخفض، يكاد لا يُسمع:
_أنا خايفة ماما تعرف حاجة!

ليالي بحبور:وفيها إيه ياختي لما تعرف؟ هو يعني بيعمل حاجة عيب ولا حرام؟ ده شرع ربنا وأهو كله على سنة الله ورسوله.
جميلة بقلق:بس طنط ممكن يجرالها حاجة لو عرفت حاجة زي دي!
ليالي بدسيسة:ولا هيجرالها أي حاجة ياختي، دي ولية عقربة وحرباية، طب ده أنا من كام أسبوع سمعتها بتحرض جوزك عليكي بس مرضتش أقولك إكمننا مبنتكلمش ومش هتصدقيني.
جميلة بتعجب:يعني إيه؟

ليالي باحتيال:يعني بتلعب في دماغه وبتقوله إنك لا مؤاخذة يعني مش بتفيديه بأيها حاجة، وإنك طول الوقت يا في الجيم يإما في البرنامج بتاعك، وإنك لا بتغسليله هدومه ولا بتعمليله أكله، من الآخر كده رامية طوبته!
جميلة بجهالة:يعني إيه رامية طوبتة؟
ليالي بانزعاج:يادي النيلة، يعني مش حاطاه في إهتماماتك بمعني أصح.
هايدي بحدة:انتي بتقولي إيه يا ليالي؟ هو أحمد جه هنا أساسًا؟ ده آخر مرة كانت من كام شهر.
ليالي بغيظ:لا ياختي جه قريب، مش كل حاجة هيقولهالك يعني.

لم تستطع جميلة فهم مصطلحات ليالي التي تربَّت في الريف، واستخدمت أمثالًا شعبية كانت غريبة بالنسبة لها، إذ لم تتعرض من قبل لكلمات كهذه. أما أم الديب، فقد كانت دائمًا تُظهر الود تجاه جميلة، ولم تُبدِ أي رأي سلبي عنها، بل على العكس، كانت تسعى لإظهار أفضل صورة لها أمام ليالي، ربما لتكيدها في الخفاء. لكن ليالي كانت من تلك الشخصيات التي تجيد الاصطفاف في المياه المتعكرة، وتستغل اللحظات لصالحها. واستغلت حضور ميادة في يوم عملية هايدي، لتدس شكاكها في كون هناك شيئًا مخفيًا بينها وبين أحمد. كما عملت على تأكيد نظريتها بأن أم الديب هي التي غيَّرت أفكار أحمد وجعلته ينفر من جميلة. فقالت "ليالي" بدهاء، وقد بدت ملامحها متكلفة:
_المهم خدي حذرك يا جميلة ياختي، أصل حماتي دي معاهم معاهم عليهم عليهم.

جميلة بارتياب:معقول يكون متغير معايا بسببها؟
هايدي بصدمة:نعم؟ هو متغير معاكي؟
جميلة بشجن:أيوه للأسف متغير معايا بقاله شهر أو أكتر، وأنا مكنتش عارفة السبب اللي مغيره ناحيتي.

ثم نظرت إلى ليالي، وعينها تلمعان بالامتنان، كأنها تلقت المفتاح الذي طالما بحثت عنه. بدا لها أن ليالي قد كشفت لها الحقيقة التي كانت تدور في ذهنها وتبحث عنها طويلًا، فقالت بصوت هادئ:
_بجد Thank You يا ليالي إنك حذرتيني!

ليالي بمكر:العفو، علي إيه؟ ده النسوان لبعضها برضه.

التعامل مع ليالي كان دومًا معركة فكرية، فهي كالثعلب الماكر، تنفذ خططها ببراعة، لا يكتشف أحد حقيقتها إلا متأخرًا. كانت جميلة وهايدي على علم بأن أي كلمة تأتي من أم الديب قد تحمل شيئًا سلبيًا، مما منح ليالي فرصة ذهبية لتنفيذ مخططها بسلاسة. أما أم الديب، فقد كانت في حالة من الشجن، تستشعر ضيقًا كبيرًا من زوجات أبنائها. كانت غاضبة من ليالي، التي لا تكف عن إظهار سلوكياتها التي تشعرها بعدم الارتياح، وتستاء من جميلة بشكل خاص، التي لا تكلف نفسها عناء الاتصال بها أو السؤال عنها، وكأنها تتعمد تجاهلها، مما جعلها تتردد في استضافتها في منزلها. وفي تلك اللحظة، وهي تلتهم قشر التفاح ببطء، سردت أم الديب لجلال وأحمد ما يثقل قلبها، لكن حديثها جاء بطريقة ملتوية، متسللة عبر الكلمات، وكأنها تريد أن تزرع بذور الشك في نفسيهما. فسأل "جلال" بتعجب:
_وهو إيه اللي حصل بس ياما؟

أحمد باستفهام:هو في حاجة حصلت جديد؟
أم الديب بخجل:لا ياخويا مجراش حاجة، بس مراتك يعني مابقتش تسأل فيا ولا تعبرني ولا كأني حماتها وليا حق عليها.
أحمد بابتسامة:معلش يا ماما، إنتي عارفة الظروف، جميلة بتصحي تجهز للبرنامج وبتنزل، وبترجع متأخر تشوف طلبات البيت... هي برضة معذورة ومعندهاش وقت.
أم الديب ببُغض:لا ياخويا ليها عذرها، إنما الدور والباقي علي اللي الباب فوق الباب ومش هاين عليها تنزلي طبق من الطفح اللي بتعمله.

جلال بصياح:يا نهار أسود ياما، أمال مين اللي لسه منزلك طبق رز بشوربة وحتة لحمة إمبارح؟
أم الديب بعجيج:رز بشوربة؟ ليه فاكرّني عيانة يا ولاد الكلـ*؟ فين المكرونة والفراخ المحمرة وصينية البطاطس والرقاق اللي بتطفحوه؟ بقي بتهزق أمك يا جلال وبترميلها رز بشوربة بدل ما تبعتلي صينية مكرونة باللحمة المفرومة؟
جلال بحنق:وهو إنتي حاجة نافعة معاكي؟ ده إنتي زي القطط تاكلي وتنكري، نبقي لسه باعتينلك أكل وبعدها بنص ساعة تقلبيلنا البيت خناق وحريق... إنتي عاوزة إيه ياما؟

أم الديب بصخب:اتكلم عدل يا ولا بدل ما أقلع الشبشب وأنزل على نفوخك، أقل منك قصاد أخوك وجوز أختك!

جلال بجلبة:ما عيب الكلام ده بقى ياما! وربنا ما عاوز أتهور، عشان الناس متقولش العاق أهو! مع إن كلام الناس تحت جزمتي، بس أنا بعرفك يعني!
أحمد بتضايق:خلاص بقى! احنا مش جايين نتخانق، استهدى بالله يا جلال... استهدي بالله يا ماما!

كلما اجتمع جلال وأم الديب في مكان واحد، اشتعلت بينهما نيران الجدال، حتى يكاد الصياح يملأ الأرجاء. كان نزاعهما دائمًا محتدمًا، مما أثقل كاهل أحمد، الذي بات يتمنى لو تهدأ الأمور ويعم السلام بينهما ولو للحظة. في الغرفة، كانت جميلة تمسك بهاتفها، تلتقط الصور بشكل لا إرادي، وكأنها تسعى إلى توثيق جمالها في كل لحظة. هايدي، التي لاحظت ولع جميلة بالتصوير، اقترحت عليها تصوير مقاطع تيك توك. سرعان ما تحولت الأجواء إلى حالة من المرح، حيث بدأت جميلة التصوير مع ليالي وهايدي، يرقصن على الأغاني ويتفاعلن مع المقاطع الكوميدية. فجأة، دخل "حمود" إلى الشقة، يحمل في يدٍ قطعة جاتوه شوكولاتة، وفي اليد الأخرى مشروبًا غازيًا. كان يأكل ويشرب دون اكتراث، وكأنما جاء ليتابع يومه المعتاد. اتجه نحو والده بخطوات واثقة، ثم قال له بفرح:
_أبويا، ستي إديتني حتة جاتوه وعلبة بيبسي.

جلال بارتياع:ماشي ياض.
أم الديب بصياح:وانت إيه اللي وداك عند الأنبوبة أم ليالي يا ولا؟ ازاي تسيبوا حتة عيل صغير زي دهو يمشي لواحده من بلد لبلد في إنصاص الليالي؟
حمود بضحك:ستي الجديدة يا ستي!
أم الديب بتعجب:ايهي، يعني إيه ستك الجديدة يا ولا؟

شعر "جلال" بتوترٍ عارم، إذ خشي أن يكون حمود، بتصرفاته الطائشة، هو السبب في كشف أمر زواج المعلم حنفي. كانت تصرفاته غير محسوبة، وكلماته قد تثير الشكوك بلا وعي. غمز له جلال بقلق، محاولًا إسكاته، ثم اقترب منه بسرعة، وأمسكه من ذراعه ليزيحه نحو الباب بانفعال، محاول إخراجه من الشقة قبل أن يتفاقم الوضع، وقال بنبرة حادة:
_يلا ياض امشي وروح كل جاتوه فرح صاحبي بعيد!

حمود بمرح:جدي حنفي إداني دي وقالي أديهالك يا ستي!
أم الديب بفضول:ايهي، دهي إيه؟

اقترب "حمود" من أم الديب، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة تحمل في طياتها تهكمًا واضحًا. وبينما كانت تراقبه بعيون متسائلة، التهم قطعة من الجاتوه بشهية، ثم أخرج من جيبه صابونة، ورفعها أمامها قائلًا بسخرية لا تخلو من الجرأة:
_قالي إديها الصابونة!

تبادل أحمد وجلال نظرات مفعمة بالقلق، وقد أدرك كلاهما أن تصرفات حمود الطائشة قد تجرّ عليهم كارثة. لم يمهل "جلال" الأمور مزيدًا من الوقت، فأمسك بحمود بقوة، وأزاحه نحو الباب بقسوة، وكأنما يحاول دفن المشكلة قبل أن تنفجر. رفع صوته بحزم، محاولاً إخفاء توتره خلف غلظة كلماته، وهو يدفع حمود للخروج:
_يلا ياض امشي من هنا، ولا أدخل لأمك جوا!

أم الديب بصراخ:مش هيروح في حتة إلا لما أفهم!

ثم نهضت "أم الديب" بغتة، كأنما انتفضت غريزة الحماية بداخلها، وتشبثت بحمود بقوة، مانعة جلال من إخراجه. علت نبرتها بصياح غاضب، قائلة:
_إيه اللي جاب ستك الجديدة لجدك حنفي؟

حمود بارتجاف:العروسة الجديدة بتاعة جدي.
أم الديب بشَدَه:ايهي، يعني إيه؟
حمود بصراحة:جدي اتجوز عليكي!
جلال بصياح:الله يخربيت أمك، وديتنا في ستين داهية!

فرَّ حمود هاربًا كمن أفلت من فخ، يركض بخفة قبل أن ينال منه والده بسبب انزلاقه في كشف سر الجد. أما أم الديب، فقد كانت كمن تلقت صاعقة. صدمة كبيرة عصفت بها، كيف يمكن للمعلم حنفي أن يجرؤ على الزواج من امرأة أخرى دون علمها؟ ارتفعت الدماء في رأسها، وشعرت بحرارة رهيبة تكتسح جسدها، وكأن حنقها يشعل النيران في عروقها. لم تتمالك نفسها، فانطلقت مُسرعة نحو منزل حسين، عازمة على مُواجهة زوجها الخائن وأخذ ثأرها منه بأي طريقة. لكن خلفها خرج جلال وأحمد وزياد في محاولة يائسة للحاق بها، خوفًا من أن تُقدم على تصرف كارثي قد يقلب الليلة رأسًا على عقب. في تلك الأثناء، كان المعلم حنفي يعيش أجواء أول ليلة سعيدة مع "جمالات". وقف خلفها برفق، يفك لها فستانها، وابتسامة الرضا تملأ وجهه. وعندما انتهى، التفتت إليه جمالات، تتألق بدلالها الأنثوي، وتهمس له بسعادة:
_تسلملي يا راجلي يا غالي يا سيد الرجالة.

المعلم حنفي بتعشُّق:أهو ده أكبر مثل لصبرت ونولت! تلاتين سنة شوفت فيهم اللي محدش شافه، بس النهارده آني ربنا عوضني بهدية كبيرة أوي!
جمالات بغرام:أنا اللي ربنا عوضني بيك يا حنفي، ده أنا طايرة من الفرحة ومش مصدقة نفسي! بقى بعد كل السنين دي ألاقيك وأتجوزك؟
المعلم حنفي بسرور:ياه أخيرًا لقيتك يا أم الفار؟ ده آني روحي ردت لما شوفتك!

أثناء ما كان المعلم حنفي وجمالات يتبادلان الحديث، دوى صوت مفاجئ لكسر الباب، كأنها عاصفة اقتحمت الشقة. اندفعت "أم الديب" بجنون، وكأنها إعصار لا يمكن إيقافه، نحو الغرفة. لم تترك مجالًا للدهشة، بل قفزت على المعلم حنفي والعروس الجديدة باندفاع غاضب، ثم أمسكت جمالات من شعرها بقوة، تهزها بعنف، وصاحت بصوت يملأه السخط العارم:

_ده آني هطلعلك روحك اللي ردت فيك دهي بإيديا الإتنين دول!

جمالات بنواح:يا لهوي، إنتي بتطلعيلنا منين؟

أم الديب بفظاظة:من هناهو يا بت الكلـ* يا واطية!

نهض المعلم حنفي بصعوبة، وهو يئن من وطأة حنق أم الديب التي اجتاحت الشقة كالإعصار. اتجه بخطوات متثاقلة نحو المطبخ، يفتش عن أي شيء يرد به اعتباره. سرعان ما عاد حاملًا عصا غليظة، وعيناه تقدحان شررًا. بلا تردد، انقض عليها وبدأ ينهال عليها بالضرب. في تلك اللحظة، اندفع جلال وأحمد وزياد نحو الغرفة، يحاولون التدخل قبل أن تتفاقم الأمور. لكن "المعلم حنفي"، وقد بلغ به الغيظ مبلغه، واصل ضربها بلا هوادة، وهو يصرخ بغل:

_غوري في ستين داهية تاخدك! حتي يوم فرحي مسيبتنيش في حالي؟

سقطت أم الديب أرضًا، يعلوها الدماء، وتصرخ بأسى. كانت العصا تنهال على رأسها وكتفيها بلا رحمة، كأنما كل ضربة تحمل معها سنوات من السخط. زلزلت صرخاتها الغليظة الحي بأسره، فارتعشت النوافذ، وهرع الجيران لاستكشاف مصدر هذا الصوت المهيب الذي اخترق سكون الليل.

يتبع....

الفصل التاسع والعشرون

جذب جلال زوجة أبيه من على الأرض، وقد تجلى في عينيه همٌّ غائر، مكترثًا لما لحق بها من عذاب جراء تصرفات أم الديب القاسية. بعد أن رفعها بيديه القويتين، أضجعها على السرير، بينما كانت قواها قد انهارت تمامًا جراء الوطآت الحارقة التي تعرضت لها على يد أم الديب. في تلك اللحظة، حمل أحمد والدته بحذر، بينما وقف زياد في مسافة بعيدة، يراقب المشهد بهدوءٍ غير مفعلٍ شيئًا سوى تهدئة عمه، وكأنّه كان ينتظر ما سيحدث في صمتٍ، فقال "جلال" :

_مالك يا مرات أبويا؟

أم الفار بتأوه:آه يا جسمي أه، مش قادرة، كأن حيطة وقعت فوق مني!

أحمد بفزع:إيه اللي حصل؟

المعلم حنفي بصياح:خدوها في ستين داهية انشالله ترموها في أي مقلب زبالة، يلا خلصوا!

حمل جلال وأحمد أم الديب وخرجا بها من المنزل، بينما تابعهم زياد في صمت، لا يشارك في النزاع، إذ كان قلبه مُشتعلًا بنيران الذكريات، كأن فصول الألم قد طوّقته بفعل وفاة والده، والتي كانت أم الديب السبب الرئيسي فيه. وعندما عادوا إلى المنزل، وضع جلال وأحمد والدتهم على السرير، وقد غمرها الإنهاك من شدة ما تعرضت له. انقضت "نعمة" نحوها، وقد أذهلها المشهد، وهي تهرع لتساعدها وتبكي قائلة:

_أمي!

النتيجة التي وصلت إليها أم الديب كانت صادمة وغير مُتوقعة، حيث هُزمت قبال المعلم حنفي وعادت إلى المنزل، مغمورة في دمائها التي كانت شاهدًا على جروحها. نظفت نعمة جبينها بعناية، مسحت الدماء برفق باستخدام الماء والمناديل المجففة، ثم وضعت المرهم فوق الجرح لتخفف من ألمه، وألصقت لاصق الجروح بحذر. بقيت بجوارها، لا تفارقها حتى عاد حامد من عمله، ليجبرها على الصعود إلى شقتها، حيث كانت محطمة نفسيًا تمامًا.

أما جلال وليالي، فصعدا إلى شقتهما، لكن بمجرد أن لمح جلال ابنه حمود، الذي كشف السر، تشبث به بغضب عارم ووطأه بقوة، كما لو أن كل سخط العالم انفجر في تلك اللحظة، فصرخ عقابًا له على فعلته التي وصفها بالدنيئة. وفي الجهة الأخرى، عاد الرباعي إلى منزلهم، حيث كانت هايدي لا تزال تتلقى العلاج بعد العملية، وهي في حالة صحية متدهورة تحتاج إلى رعاية مستمرة. مرت ساعات الليل الثقيلة، وأخذ الظلام في التراجع ليكشف عن أشعة الشمس في اليوم التالي، مُعلنة بداية صباح جديد. في غرفة العروسين، كان المعلم حنفي غارقًا في نومه العميق، مستغرقًا في سكونٍ تام. بجانبه، كانت جمالات، مرتدية الروب الأحمر المزين بالريش الذي جعلها تبدو كأنها دجاجة، مع المكياج الذي زين وجهها بشكل مبالغ فيه. على السرير بجانبها، كانت هناك صينية مملوءة بكل ما لذّ وطاب من الأطعمة: الفطير، والعسل الأسود، والقشدة، والجبن بالطماطم، والمِش، والفول والفلافل، والبيض المقلي، وكأنها دلالة على صباحية العروسين

وأجواء الاحتفال. مرّت "جمالات" الريشة برفق فوق جبهة المعلم حنفي، بحركة حانية، لتستعيده إلى عالم اليقظة، بينما كانت الأجواء مليئة بأصوات الهدوء، فقالت بدلال:
_اصحى يا حنفي! كل ده نوم؟ ده العصر أذن وانت لسه نايم، بقي ينفع يكون غدانا هو فطارنا؟ لا أنا متعودتش على كده! أنا بصحى من صباحية ربنا.
استفاق "المعلم حنفي" من نومه، وابتسامة خفيفة تلاعبت على شفتيه، كأنها علامة على سكينة قلب. جلس بهدوء، ثم رفع يده ليقبّل رأس جمالات، مشيرًا إلى تقديره لها، وابتسامته لم تفارق وجهه. قال بسرور، والفرح قد استقر في قلبه بعد ليلة طويلة من الراحة:
=صباح العسل والسكر والقشطة والمربي، صباح الحلويات يا ست الستات.

جمالات بتحنان:صباح الفل عليك يا حنفي، يلا فوق كده يا حبيبي عشان تفطر! ده أنا عاملالك فطار ملوكي مكنتش تحلم بيه.

عندما نظر "المعلم حنفي" إلى الصينية التي أمامه، اكتشف أنها قد أعدت له أصنافًا عديدة ومتنوعة، كل واحدة منها تحمل طعمًا خاصًا، فهي تعبير عن اهتمامها به. تملكه الإعجاب لما رأى، فمد يده وأخذ يديها بكل حنان، وقبلها بحركة ملآنة بالامتنان. ثم نظر إليها بعينين مليئتين بالعرفان وقال بصدق:
_تسلم إيديكي وعينيكي يا ست، آني عمري ما كلت الأكل ده كله، طول عمري عايش على العيش المبلول.

جمالات بضحك:ليه ديك؟ ولا دكر بط؟ ده إنت اللي زيك ياكل أحسن أكل ويتشال على الراس وminزلش أبدًا.

اقترب المعلم حنفي منها ببطء، وكاد أن يطبع قبلة على خدها، ولكن فجأة سمعا صوت طرق على الباب. نهضت "جمالات" في الحال، وارتسمت على وجهها ملامح من الترقب، وكأنها تتهيأ لاستقبال ما قد يطرأ من مفاجآت، وقالت:
_تلاقيهم عيالك، خليك انت! أنا هروح أفتح.

فتحت جمالات الباب لتجد جلال وليالي وحامد يقفون أمامها، وبأيديهم صينية كبيرة مملوءة بالأطعمة. وضعت "ليالي" الصينية على الطاولة بحذر، ثم تقدمت نحو جمالات لتعانقها بحرارة، وهي تريد أن تُخفف عنها ما قد يكون في قلبها من هموم. ثم قالت بوداد:
_صباحية مباركة يا حماتي الجديدة يا غالية.

جمالات بود:الله يباركلك، خشوا!

لم يرَ "حامد" عروس المعلم حنفي الجديدة من قبل، لكنه حينما وقع بصره عليها، تفاجأ تمامًا بالفارق الشاسع بين جمالها وبين أم الديب. كان التباين واضحًا في كل شيء، من ملامح الوجه إلى هالة الأنوثة التي كانت تميزها. فاندفع بالكلمات مندهشًا، وقال بانبهار:
_لا الصراحة يا زين ما حمايا اختار، هي دي الستات علي حق، ده الفرق ما بينهم كبير!

جلال بحدة:بقولك إيه يا مرات أبويا!

جمالات باهتمام:قول يا غالي.
جلال بمساندة:أمي لو جات اتصلي عليا، هتلاقيني في ظرف تلات دقايق عندك!
جمالات برضى:جدع الواد جلال ده ودخل قلبي من ساعة ما شوفته هو ومراته.

ثم نظرت إلى غرفة المعلم حنفي بابتسامة رقيقة، وملامح وجهها تنبض بالسعادة، وأطلق قلبها ضحكة هادئة تنم عن الراحة. ثم قالت مازحة:
_عرفت تربي يا حنفي.

ليالي بابتسامة:بُصي بقي يا ستنا، أنا عاوزاكي تيجي عندي وبقلب جامد متخافيش! إنتي خلاص بقيتي أمر واقع ولازم كلنا نصدقه، وأنا الصراحة عاوزة علاقتنا ببعض تكون زي السمنة على العسل.
جمالات بشجاعة:لا يا عينيا متخافيش! أنا هاجي وأسهر معاكي كل يوم واللي مش عاجبه يشرب من البحر.
ليالي بإعزاز:أيوه هو ده الكلام.

أطلقت ليالي الزغاريد، مفعمة بالفرح بزوجة حماها الجديدة، مُحتفلة بقدوم فصل جديد من حياتهم. كانت قد اتفقت مع جمالات على التنقل بحرية بين المنازل دون خوف، فهي تستحق تلك المكانة تمامًا مثل أم الديب، بل ربما أكثر. بينما المعلم حنفي، فقد خرج من الغرفة مرتديًا بيجامة حريرية بيضاء، قد لا تتناسب مع سنه، لكن ذلك لم يبدُ عائقًا له، فقد كان يعيش سن الشباب المتأخر وكأن الزمن قد توقف له. اقترب "جلال" منه، وعانقه بحرارة، وبارك له بحسن نية قائلًا:
_ألف مبروك يابا، عقبال الجوازة التالتة والرابعة.

جمالات بسخط:لا يا حبيبي كده أزعل منك، أنا بالأربعة!
جلال بسعادة:الصراحة إنت اختيارك المرة دي زي الفل يابا، أما قولي...

ثم همس في أذن المعلم حنفي بصوت خافت:

_سبع ولا ضبع؟
نزلت دمعة من عين "المعلم حنفي"، وهو يلفظ الكلمات بحسرة، كأن قلبه قد انفتح على جرح قديم، فقال بصوت خافت مفعم بالألم:
=بطة بلدي.

جلال بصدمة:يخربيتك يابا.
حامد بابتسامة:مبروك يا حمايا.
المعلم حنفي بحسرة:الله يبارك فيك ياخويا.

جلس الجميع مع المعلم حنفي في جو من الانسجام، حيث أصرت جمالات على أن يتناولوا الفطور معًا، فبذلت جهدها لإخراج الصينية من الغرفة ووضعتها بجانب الصينية التي جلبتها ليالي. وتجمعوا حول المائدة يتناولون الطعام في سرور. أما في منزل أم الديب، كانت تجلس على الأريكة، تربط رأسها بإيشارب على موضع الجرح الذي يؤلمها، تلوح دموعها في عينيها، وابتسامة فقدتها منذ زمن. كانت تولول بصوت عالٍ، تعبر عن حزنها لما فعلته بها الأيام، مُتألمة لأن المعلم حنفي قد خانها وتزوج عليها أخرى. شعرت بأن قيمتها قد تدنّت في عينيه، كما لو أنها لم تكن أكثر من ظل عابر في حياته. كانت نعمة، ابنتها، جالسة بجانبها، تواسيها ولكن في قلبها الاستياء، فقد كانت هي الأخرى ساخطة من تصرفاتها، وهي ترى ما يحدث أمامها. قالت "أم الديب" بصراخ، مملوء بالحزن:
_يا خراب بيتك يا أم الديب، حرمته من إيه يا نعمة؟ بهدلة وبهدلته! مرمطة ومرمطه، شتيمة وشتمته، ضرب وضربته وعدمته العافية، زعيق وشخط وكنت بشخط فيه، قلة قيمة ومقصرتش، أعمل إيه تاني يا بت؟

نعمة بحسرة:قصدك معملتيش إيه تاني ياما!
أم الديب بنواح:يا لهوتي.

فتحت أم الديب النافذة بكل قوة، وطلت برأسها منها، بينما استمرت في الصراخ بصوت عالٍ، باحثة عن مخرج لتنفيس ما في قلبها من ألم. وفي الجهة المقابلة، كانت جارتها قد فتحت نافذتها أيضًا في السابق، جالسة على الأرض مشغولة بصُنع المحشي مع سلفتها، محاطة بروائح الأطعمة التي تملأ دارهم. حيث رفعت "أم الديب" رأسها تجاههما وقالت باستنجاد، طالبة العون في تلك اللحظة الحرجة:
_يا لهوتي، الحقيني يا أم عمر، الحقيني يا أم خالد! جوزي الخاين اتجوز عليا الولية اللي اسمها أم الفار! بعد أكتر من تلاتين سنة جواز، اتجوز عليا يا خلق! صوباع محشي يا عالم... جعانة ونفسيتي تعبانة! الحقوني يا عالم! زعلانة ومقهورة على حالي! جوزي خاين وبتاع نسوان.
نظرت أم عمر إلى أم خالد بضحكة خفيفة، مستمتعة بتصرفات أم الديب التي بدا عليها البلادة، مما زاد من غضب أم الديب التي لم تحتمل سخريتها. فاقتلعَت نعلها في الحال، وأخذت تصوبه بقوة تجاه نافذة جارتها،

فسقط في قدر المحشي الذي استهلكتا ساعتين من العمل الشاق عليه. تبادلت السلفتان نظرات الهلع، لم تصدقا ما جرى. ثم نهضت "أم عمر" فجأة، ووقفت أمام نافذتها، ونظرت إلى أم الديب بامتعاض متصاعد، لتصيح بأعلى صوتها، قائلة:
_انتي عبيطة يا ست؟ روحي اللهي لا يربحك ولا يكسبك.

أم خالد باحتقان:اقفلي اقفلي دي جيرة هم.

أوصدت أم عمر النافذة بقوة، مما أشعل غضب أم الديب أكثر، فقررت أن تأخذ ثأرها منهما، عازمة على أن ترد الصاع صاعين. وعندما كانت تستعد للخروج من الشقة، فوجئت بـ "نعمة" تركض خلفها، وقد غلفتها ملامح القلق، وهي تشعر بأن ما ستقدم عليه والدتها لن يكون في صالحها، فقالت بصوت مرتجف:
_رايحة فين ياما؟

أم الديب بغيظ:رايحة لأم عمر اللي جنبنا، آني هخلي ليلتها طين هي وسلفتها اللي ما تتسمى!

نعمة بنُصح:استني بس ياما، متجريش على المشاكل!

هرولت نعمة وراء والدتها بقلق، عازمة على إيقافها قبل أن تندفع إلى تصرفات قد توطئها في الأرض وتجرّ عليها كارثة لروحها. كانت تعلم أن سخطها يمكن أن يدمر ما تبقى من هدوء بين الجيران. أما أحمد، فقد تغير بشكل ملحوظ في الآونة الأخيرة، وأصبح يهتم بذاته بطريقة غير طبيعية. طوال الوقت كان يقف أمام المرآة، يصفف شعره بدقة، أو يزيل اللحية الزائدة، أو حتى يجرب الثياب ليختبر مدى مناسبتها له. كان هذا اليوم، يقف أمام المرآة يعدّل من مظهره، يضع العطر بحرص، ويولي نفسه اهتمامًا لم يكن يعتاده من قبل. دخلت "جميلة" غرفة الثياب، ووجدته يخرج فجأة دون أن يخبرها، ففوجئت وسألته باندهاش:
_انت نازل؟

أحمد بابتسامة:أه يا حبيبتي نازل، كده حلو؟
جميلة بعبوس:أه حلو، مقولتش يعني رايح فين؟
أحمد بتضايُق:هو كل حاجة لازم تعرفيها؟ ممكن تديني مساحة شوية؟
جميلة باستياء:والله؟ طيب أوكي، شوفت موضوع البيبي سيتر ولا لسه؟
أحمد بإحراج:ياه ده أنا نسيته خالص، معلش آسف، هشوفه بعدين!

جميلة بحدة:علفكرة دي مش أول مرة أكلمك في نفس الموضوع وتأجله! وانت عارف كويس إن أنا مش هقدر أسيب سيليا وأسيل عند مامي، ولا هقدر أسيبهم عند هايدي لأنها أكيد بتضايق ومش هتبين، ولا حتى هقدر أسيبهم لواحدهم، دي تبقي كارثة!
أحمد ببسمة:يا حبيبتي مانا قايلك مليون مرة إن هايدي بتحبهم ولا يمكن تزهق منهم أبدًا، ممكن بقى تسيبيني أنزل؟
جميلة بامتعاض:أنا لسه مخلصتش كلامي!
أحمد بانزعاج:والموضوع ده مفيهوش كلام زيادة يتقال! عايزة بيبي سيتر؟ حاضر هشوفلك بيبي سيتر، بس علفكرة يا جميلة، يعني أنا بقالي كام يوم مش عايز أتكلم معاكي في موضوع معين عشان عارف إنك أكيد هترفضي!

جميلة بفضول:موضوع إيه ده؟
أحمد بتسلُّط:إنك يعني يا حبيبتي تقعدي في البيت وتهتمي بالبنات زيادة عن كده، وتاخدي بالك من بيتك! أنا ملاحظ إن البيت مبقاش نضيف وفيه تراب! حتي هدومي مش مكوية وبضطر كل يوم إن أنا اللي أعملها وبكون مستعجل جدًا، ومعنديش أي وقت.
جميلة بغضب:آه، يبقي تأجيل موضوع البيبي سيتر عشان عايز تقعدني في البيت مش موضوع إنك مشغول خالص!
أحمد بهدوء:طيب، هقولك إيه يعني يا جميلة؟ علي العموم نتكلم لما أرجع، يلا عايزة حاجة؟

خرج أحمد من الشقة وغادر، بينما بدأت جميلة تفكر في صمت، تراقب التغيير الذي طرأ عليه. كانت قد اعتادت على دعمه وتشجيعه لها، كان دائمًا يساندها في تحقيق أهدافها، ويحفزها على النجاح. لكن الآن، بدا وكأنه يحاول عرقلتها، بل والأكثر من ذلك، كان يريد أن يبقيها في المنزل مع طفلتيها دون عمل، محطمًا كل النجاحات التي حققتها في الماضي، ومصرًا على رأيه. كان يبتعد عنها في عالم غامض، وهي لم تعد تعرفه كما كانت من قبل. كان يخبرها بكل شيء، تفاصيل يومه وأين يذهب، لكن الآن أصبح يراوغها ويختفي في أماكن لا تعرفها. جلست جميلة على الأريكة، تعيد النظر في كل شيء، وقلبها يغزوه الشك حول خيانته لها، وكأن هناك فجوة بدأت تتسع بينهما. في حي القرية، كانت أم الديب وجارتيها ونعمة يتشاجرون في الشارع بسبب نعلها، وتبادلوا الكلمات الحادة والمليئة بالتهديدات. ثم صاحت "أم عمر" في أم الديب بسخط:
_ليه ياختي حد قالك تحدفيه علينا، احنا الحاجة اللي تدخل دارنا متطلعش منه!

نعمة بصياح:يا حول الله يارب، أقسم بالله ياما إنتي هتشليني بعمايلك دي!
أم الديب بصخب:يعني مش هترجعيه يا ولية؟
أم عمر بعناد:لا مش مرجعاه.

قفزت أم الديب فوق الجارة أم عمر، مدفوعة بامتعاض جارح، وضربتها في وجهها بيديها الجلفتين، واقتلعت حجابها من رأسها، ما جعل الجيران يهرعون من حولهما، يتجمعون في شجار مندهش، غير قادرين على التصرف أو التدخل. في تلك اللحظة، رفعت "نعمة" يديها إلى السماء، تعبر عن احتجاجها على تصرفات والدتها القاسية، وقد خيمت على قلبها الخيبة، وقالت:

_يا لهوي، مشاكل تاني لا!

ثم جرت نحوهما بسرعة، محاولةً الفصل بين والدتها وأم عمر، فباعدت بينهما بكل قوتها. في تلك اللحظة، رفعت أم خالد، سلفتها "أم عمر" نحو ذراعيها، تحاول تهدئتها بينما كانت الأخرى تصرخ بغضب، مفعمة بالدهشة من التصعيد المفاجئ للصراع:

_حسبنا الله ونعم الوكيل فيكي، ده كان يوم أسود يوم ما جيتوا جنبنا، وعلي رأي المثل اختار الجار قبل الدار.

أم الديب بصراخ:يلا يا ولية بدل ما أقتلك وأطلع بروحك في إيدي! ده آني جيرتي تشرف الدنيا بحالها، هو انتوا تطولوا أجاوركم يا روح أمك منك ليها؟

نعمة بعجيج:بس بقي ياما! بس، فضحتينا!

جذبت نعمة والدتها بعنف، وصعدتا إلى الشقة، بينما كان سخط الله ظاهرًا على وجه أم الديب. جلستا على الأريكة، تحاول نعمة تهدئة والدتها بالكلمات، لكنها كانت تشعر أن الأمور قد تجاوزت حدود السيطرة، وأن ما حدث كان مجرد بداية لمزيد من الفوضى. أما بالنسبة لأم عمر، التي تعرضت للإهانة أمام الجيران، فقد قررت الانتقام بطريقتها الخاصة، بمساعدة سلفتها أم خالد. كانت نواياها مبيتة، وعزمت على رد الصاع صاعين. نظرت "نعمة" إلى والدتها بحزن واستياء، وقالت بمرارة:

_وكان لازمته إيه كل ده ياما؟ ما كنتي قولتيلي اللي إنتي عاوزاه وكنت روحت أنا بدالك، وأهو بكلمتين حلوين كنا خدنا اللي احنا عاوزينه!

أم الديب بجلبة:اتكتمي يا بت! الناس دهي مينفعش معاها إلا ضرب الشباشب.

لم تمر ربع ساعة حتى عادت أم عمر وأم خالد إلى الحي، وكان معهما ثلاث نساء فتوات، استأجروهن للشر، فهما لم يكونا لتواجهان أم الديب بمفردهما، لذلك استعانوا بهؤلاء النساء القويات، القادرات على إحداث المعركة. وقفت النساء أمام منزل أم الديب، وكانت "أم عمر" في مقدمتهم، تنوي على الشر بكل قوة. نادت بصوت قاسي، ملؤه التهديد، وهي تجهز نفسها للانتقام، قائلة:

_اطلعي يا أم الديب من جُحر الفيران! ولا هما يعملوها ويستخبوا؟ لو ست جدعة صحيح انزليلنا!

دخلت أم الديب إلى الشرفة، تلتها نعمة، وعندما رأتا النساء تحت المنزل، تجمدت أم الديب للحظة، ثم دخلت إلى الداخل بسرعة مُتجهة نحو المطبخ. كانت خطواتها سريعة، ساعية للتورط في مواجهة جديدة. نظرت "نعمة" إلى والدتها بدهشة، ثم شعرت بقلق يتسلل إلى قلبها. اقتربت منها وسألت بصوت مرتجف:

_هتعملي إيه؟

دخلت أم الديب المطبخ بلا وعي، وأخذت أنبوب الغاز، وهي تفكر في الانتقام فقط. حملتها على كتفها، وعيناها مليئة بالحنق، ثم خرجت بها إلى الشرفة، عازمة على رميها على النساء في الأسفل. لكن بمجرد أن رأت نعمة ما كانت تفعله والدتها، لطمت وجهها وصاحت بكل قوتها، لأن هذا التصرف المتهور قد يجرّ الخراب على الجميع. حاولت "نعمة" بكل ما أوتيت من قوة سحب الأنبوب منها رغم ثقله، وهي تنوح وتستغيث، قائلة بصوت يملأه الذعر:

_هتعملي إيه ياما؟ لا ياما، الأنبوبة هتتفجر! يا لهوتي!

جذبت أم الديب أنبوب الغاز بعنف من يد نعمة، ثم ألقته بكل قسوة على النساء في الأسفل، معتقدةً أن ذلك سيقضي عليهن ويخلصها منهن إلى الأبد. لكنها لم تكن تدرك حجم خطورة هذا الفعل. وبمجرد أن اصطدم الأنبوب بالأرض، أحدث انفجارًا مدويًا هزّ أرجاء الحي، ليمتد تأثيره إلى الأحياء المجاورة. ومع الانفجار، انهارت شرفة المنزل، وسقطت أم الديب ونعمة على أرض الشارع، بينما غمر الدخان والأتربة المكان، مما جعل الرؤية ضبابية تمامًا. أصابت الحروق أجساد النساء اللاتي كن في الأسفل، فيما فقدت أم الديب ونعمة وعيهما تمامًا تحت تأثير الانفجار. من شدة الهلع الذي أصاب الجميع، انفزعت ليالي وأطفالها في شقتهم، معتقدين أن ما حدث هو قنبلة ذرية. ففزعوا وسقطوا على أرضية الصالة، فيما احتضنت "ليالي" أطفالها في رعب، وقالت لهم بسرعة، محاولة تهدئتهم:

_يا لهوي، انزلوا يا عيال بسرعة!

بعدما نزلت ليالي بأطفالها إلى الشارع، فوجئت برؤية أم الديب ونعمة وأخرى من النساء مرميات على الأرض وسط الدخان والغبار، وجميعهن مغطيات بالتراب والهباب الأسود. الشرفة كانت قد سقطت على الأرض، وتكسر الزجاج والحديد في كل مكان. كانت الفوضى تغمر الشارع، والمشهد مرعب. ركضت ليالي نحو نعمة بسرعة، محاولة إيقاظها، وركض قلبها خوفًا عليها. كانت ترج جسدها بفزع، عيناها مشوشة، لا تستطيع أن ترى الرؤية بشكل صحيح. وطأت "ليالي" وجهها بيديها، وحاولت أن تدعوها للعودة إلى الوعي، وهي تشعر بألم غائر في قلبها، قائلة:

_يا نعمة... يا نعمة! يا لهوي يانا، فوقي يا نعمة! والنبي ما تموتي! يا نعمة!

صفعت ليالي وجه نعمة بالأقلام على وجنتيها، عسى أن تعود إلى وعيها، ولكن عندما لم تجد أي فائدة من ذلك، قررت أن تلجأ لحيلة أخرى. جرت بسرعة نحو الترعة، ملأت يديها بالماء البارد، وعادت لترش به وجه نعمة، تكرر المحاولة مرارًا لتستعيد نعمة وعيها. نظرت إليها "ليالي" بقلق، وسألتها بحذر:

_فوقي يا نعمة... فيها نفس ولا إيه؟

وضعت ليالي يديها على قلب نعمة لتتأكد من أنها على قيد الحياة، قلبها يزداد قلقًا مع كل لحظة تمر. كان جسد "نعمة" مرتجفًا، ولكنها بدأت تستعيد وعيها شيئًا فشيئًا. وعندما فاقت أخيرًا، كانت مصابة في ذراعيها ورقبتها بحروق وجروح عميقة، ووجهها شاحب من الألم. سعلت نعمة بقوة، وجاءت كلماتها متفرقة، قائلة:
_آه... تعبانة يا ليالي.

ليالي بصدمة:إيه اللي جرا يا نعمة؟
نعمة بتأوه:شيلوني!
ليالي بصراخ:يا نهار أسود عليا وعلى سنيني!

صعدت "ليالي" شقتها بسرعة، يملأ قلبها الخوف، ثم اتصلت على جلال، صوتها مليء بالبكاء، وقالت له بصوت مختنق، غير قادرة على السيطرة على مشاعرها:
_الحقني يا جلال، في كارثة حصلت ياخويا! في انفجار حصل في شارعنا، ده أنا يادوب كنت لسه راجعة وملحقتش أرتاح لقيتلك انفجار، نزلت ياخويا لقيت أمك ونعمة وشوية نسوان متلقحين على الأرض.

جلال بفزع:يا نهار أسود، والانفجار ده حصل ازاي؟
ليالي ببكاء:وأنا إيه عرفني؟ تعالي بسرعة، نعمة تعبانة أوي!
جلال بقلق:أنا جاي أهو، سلام.

بدلاً من أن تجد ليالي راحة بعد عودتها من منزل أم الفار، واجهت هذه الكارثة المروعة التي كانت تهدد الجميع. أصابعها كانت ترتجف من شدة الصدمة، وهي تحاول أن تسيطر على نفسها. بينما كان جلال لا يزال جالسًا مع حامد والمعلم حنفي يشربون الشاي، غير مدرك تمامًا لما يجري. لكن عندما نهض جلال بسرعة،َوفتح الباب على الفور وركض للخارج، سأل "المعلم حنفي" بقلق:
_إيه ياض رايح فين؟
لم يجيب "جلال" على سؤال المعلم حنفي بل استدار بسرعة، وهو يركض نحو بوابة المنزل، ونادى حامد قائلًا:
_يلا ياض ورايا!
خرج "حامد" وراء جلال بسرعة، وكان القلق واضحًا على وجهه، فاقترب منه وسأله بلهفة:
=في إيه طيب؟

جلال باضطراب:حصل انفجار في شارعنا!

حامد بصراخ:يا ساتر يارب.

خرج جلال وحامد من المنزل بسرعة، مُسرعين نحو التوكتوك الذي كان يقف قبالة المنزل، عيونهم مليئة بالقلق. ومع هرولتهم، كانت الهمسات تتسارع في أعماقهم، متسائلين عن حجم الكارثة التي تنتظرهم. أما المعلم حنفي، الذي كان يستعد للخروج هو الآخر، فقد جذبته "جمالات" من ثيابه نحوها بكل حزم، وقالت له بسلطة:

_لا يا حبيبي ده كان زمان! احنا في صباحيتنا يا حنفي!

المعلم حنفي:أطمـ...

جمالات بصخب:أقعد، عايزاك معايا يا حبيبي!

جلس المعلم حنفي بالإكراه على المقعد، بينما قدمت له جمالات كوب الشاي مجددًا. كان ينظر إليها بحيرة، لكن لم يستطع رفض طلبها، فقد كانت تطل عليه بنظرة حادة، تُظهر أنه لا مجال للرفض، وفي الوقت ذاته، عاد جلال وحامد إلى المنزل، ليجدوا الكارثة التي كانت تنتظرهم. الشرفة التي سقطت في الشارع، ومعها أم الديب ونعمة، كانت قد أحدثت فوضى غير مُتوقعة. هرعوا بسرعة إليهما، وجلال حمل نعمة بعناية وهو يسرع بها نحو شقة نعمة. بينما كانت تصرخ بألم، كل صرخة تنبئ بمدى ما تعانيه من جروح وحروق. وضعوها على السرير برفق، وكان الجميع حولها، بما فيهم ليالي التي كانت تراقبها بقلق بالغ، حيث نطقت "نعمة" بألم:

_آه، منك لله ياما، إنتي السبب في اللي حصلنا ده، دي معجزة إن أنا عايشة!

ليالي بفزع:إيه اللي حصل يا نعمة؟

جلال بصراخ:مين ابن الكلـ* اللي عمل العاملة السودة دي يا بت؟

نعمة بتأوه:أمي والله! مسكت الأنبوبة وحدفتها على النسوان في الشارع وأول ما وقعت، عينك ما تشوف إلا النور، الانفجار ملى شارعنا من أوله لآخره!

جلال بصياح:هي أمي دي عبيطة ولا مخها كده؟ أنبوبة إيه اللي تحدفها علي النسوان؟... الله يخربيتك ياما، هتعيشي وتموتي وانتي مخك زنخ، ده الحمير بتفهم عنها!

ليالي بنواح:يا لهوي، الحمدلله إنها محدفتهاش وأنا لسه داخلة البيت، كان زماني مُت.

حامد بدهشة:انتي تعبانة ولا إيه يا نعومي؟

جلال بسخرية:سلامة الشوف ياض، لا بتدلع! دي كانت هتروح فيها!

طلب جلال الطبيب لنعمة عبر الهاتف، مستعجلًا وصوله لرؤية ما بها من إصابات، بينما في الخارج كان الحي يعج بالفوضى. الناس احتشدت في الشارع حول الكارثة، والجميع يتحدث عن الحادثة المروعة التي وقعت. لم يمر وقت طويل حتى وصلت سيارات الإسعاف، وبدأ المسعفون في مساعدة النساء المصابات، ينقلونهن إلى الداخل بجهود حثيثة، بينما أصوات المارة تملأ المكان بالذهول والتعليقات المتباينة. سرعان ما انتشر الخبر، ووصل إلى وسائل الإعلام، ليصبح الحي الصغير محور حديث الجميع. في أحد البرامج

التلفزيونية، وقفت المذيعة "سامية" أمام الكاميرا، مرتدية ملابس رسمية، تتحدث بطلاقة واحترافية. كانت تشرح للجمهور تفاصيل الحادثة، واصفة الوضع في الحي والمشهد الذي خلفه الانفجار، بينما خلفها تظهر صور الأنقاض والإسعافات على الشاشة، فقالت:

_لسه من دقايق حصلت كارثة كبيرة، ميتخيلهاش العقل! معقول الست أم الديب لسه مكملة في سلسلة الكوارث؟ وليه هي بالأخص اللي مشاكلها كتير؟ من نص ساعة بالظبط انفجرت أنبوبة، ولما نقول أنبوبة تبقي كارثة بكل المقاييس لأنها كفيلة تهد بيوت زي القنبلة الموقوتة. هل كان في أسباب دافعة للي حصل ده؟ طب ولو في؟ إيه هي؟ ده اللي هنعرفه من مراسل برنامج "لقاءنا اليوم".

عرض الفيديو على الشاشة يظهر المراسل في موقع الحادث، يمسك بالميكروفون، محاطًا بالفوضى التي اجتاحت الشارع. كان يتحدث وسط حشد من الناس، يحاول الحصول على تفاصيل إضافية. عندما ظهر المقطع، التفتت "سامية" نحو الشاشة، ووجهت سؤالها للمراسل باهتمام، متسائلة عن تطورات الموقف:

_إيه اللي حصل بالتحديد؟

المراسل:احنا دلوقتي بالتحديد في قرية أبو حلاوة أمام منزل السيدة أم الديب. وهي السيدة اللي كسرت الأرقام القياسية في افتعال الكوارث، احنا زينا زيكم لسه معرفناش أي تفاصيل ولكن هنعرف من أهل البلد.

تقدم "المراسل" بخطوات واثقة نحو أحد الجيران، رجل بسيط يرتدي جلبابًا يبدو عليه الاندهاش مما حدث. رفع الميكروفون نحوه وسأله بلُطف:

_إيه الواقعة اللي حدثت بالفعل؟

الجار بامتعاض:الحاجة أم الديب معروفة من سنين بالبلطجة والمشاكل، وكلنا الصراحة بنخاف منها، مسابتش بيت في البلد إلا لما دخلته وعملت فيه خناقة، احنا يا دوبك من نص ساعة سمعنا هبدة جامدة وجه وراها انفجار.

المراسل بفضول:يعني أم الديب هي السبب في اللي حصل ده؟

تقدم "جار آخر"، كان يرتدي قميصًا متسخًا من أثر الفوضى في الشارع، ووقف بجوار المراسل. ظهر على الشاشة وهو يشير بيديه بانفعال قائلًا بصوتٍ عالٍ:

_أم الديب دي بلطجية حتتنا وكلنا شايفين منها المر ولا قادرين نسيب بيوتنا ولا قادرين نعيش، من كام شهر ضربت الحاج محروس واتسببتله في إعاقة.

المراسل باهتمام:يعني دي مش أول مرة؟

الجار بكراهية:لا دي ست قادرة وينضرب بيها المثل.

بينما كان الجار يتحدث بانفعال أمام الكاميرا، ظهرت "أم الديب" فجأة من خلفه، غارقة في الغبار وآثار الحادث. وجهها كان مشحونًا بالسخط، وملامحها تعكس قهرًا جامحًا. اقتربت بسرعة، وأمسكت برأس الجار من الخلف، ثم انتزعت نعلها ووطأته بكل قوتها، وسط دهشة الحاضرين والمراسل. كانت تصرخ بصوتٍ عالٍ وهي تضربه، وتقول بحدة:

_هو انتوا لسه شوفتوا حاجة يا ولاد الكلـ*؟ ده اللي جاي أسود من اللي راح!

في أجواء من الغموض، كان أحمد جالسًا مع المخرج، بينما التلفاز يعرض برنامجًا تظهر فيه سامية، أخت زوجته جميلة. ولما رأى وجهها يتصدر الشاشة، وقف مذهولًا أمام المشهد. في ذات اللحظة، تدخلت أم الديب بتصرفاتها الصاخبة، وتفاقم الأمر حتى ألقت قالب صخر على الكاميرا، فكسرتها في انفعال. وأتت المذيعة لتوضح أن الخلاف قد تصاعد، موجهة الحديث إلى الجمهور بأن الشكوى من السيدة أم الديب تتكرر من جميع جيرانها، لتتساءل إن كان هناك تدخل حكومي محتمل لحل هذه الأزمة المتكررة؟. لم تكتفِ بذلك، بل أشارت إلى احتمالية أن يكون ما تفعله إما نتيجة لمشكلات عقلية ونفسية أو أنه تجبر وتسلط بلا مبرر. حينها، بادر أحمد بإطفاء الشاشة، مُحاولًا قطع دفق هذه الدراما المزعجة عنه وعن المخرج. وبرر فعله بأن هذا النوع من البرامج يمتلئ بالحوار الذي يشتت الأذهان، مما يعيق تركيزه في العمل. حول أحمد الحديث إلى مسار آخر، وقدم للمخرج بعض الأوراق لمتابعة أرباح البرنامج، مقترحًا أيضًا تغيير إعداد البرنامج، إذ إنه لا يرضيه هو ولا زوجته جميلة.

إلا أن المخرج بدا مستغربًا، مشيرًا إلى أن جميلة لم تذكر شيئًا عنه عندما تحدثت إليه سابقًا، إذ كانت تسأل فقط عن آخر مرة تم فيها متابعة أرباح القناة، ليؤكد لها بدوره أن العمل مستمر وأن التأخير ليس إلا بسبب ضغط المهام. في تلك اللحظة، انتبه أحمد إلى أمر ما، إذ لم يعتد أن تبدي جميلة اهتمامًا بهذا الشأن المالي، مما جعله يدرك أن شكوكها بدأت تتصاعد نحوه، وأنها قد بدأت تتبع خطواته بحذر. في تلك اللحظة، كانت جميلة وهايدي تجلسان على الأريكة في شقة أحمد، تتابعان المشهد على شاشة التلفاز بتركيز. وبينما كانت أم الديب تضرب الجار أمام الكاميرا، ارتفعت وتيرة الصراخ في البث المباشر. أصابت "هايدي" صدمة كبيرة من التصرفات غير المتوقعة، وضعت يدها على جبينها وأخذت نفسًا عميقًا. ثم التفتت إلى جميلة بنظرة مُحرجة، وقالت:

_كنت عارفة والله إنها هتعمل مصيبة جديدة! ماهي أصل قبل ما تعمل كارثة بيجيلي في الحلم إشارة.

لم تُجب جميلة، وبقيت صامتة تمامًا، بينما تُبقي عينيها مثبتتين على الشاشة، حيث الفوضى تتصاعد.
لم تستطع "هايدي" تجاهل صمتها، فالتفتت نحوها بملامح متعجبة، وسألتها باستغراب:

_مالك يا جميلة؟ ساكتة ليه؟

جميلة بابتسامة:لا يا حبيبتي مفيش حاجة.

هايدي بارتياب:ازاي مفيش؟ ده باين عليكي جدًا، مالك انتوا اتخانقتوا؟
جميلة ببسمة:لا محصلش حاجة.
هايدي باكتراث:طيب أمال في إيه؟

نظرت جميلة إلى "هايدي" بصمت، وكأنها تحاول أن تُخفي ثِقلًا لا تريد البوح به. لكن هايدي، التي ازدادت إصرارًا، اقتربت منها بنظرة ملؤها الضغط، ثم قالت بإلحاح:
_مانا مش هسيبك غير لما تتكلمي!

جميلة باستياء:أخوكي مش مظبوط خالص الأيام دي.

هايدي بغرابة:ازاي يعني؟
جميلة بدموع:بقي مهتم بنفسه زيادة عن اللزوم، ومبقاش يحبني أتدخل في حياته، لا أسأله رايح فين ولا هترجع امتي، حتي مبقاش يديني أي فرصة للكلام وعالطول ماسك الموبايل، ولو قعدت معاه بياخده ويروح حتة تانية، لأ والأكبر عايز يقعدني من الشغل!
هايدي بصدمة:انتي بتتكلمي بجد يا جميلة؟
جميلة بتأكيد:أه طبعًا.
هايدي بتكذيب:يمكن مضغوط من الشغل الأيام دي، هما عمومًا الرجالة مبيحبوش الكتمة، بيبقوا عايزين مساحة في حياتهم.
جميلة بيقين:عمره ما كان كده يا هايدي، في حاجات كتير بتتغير وأنا ابتديت ألاحظها وأحس بيها!
هايدي بقلق:قصدك إيه يا جميلة؟

صمتت "هايدي" للحظات، وقد برزا على وجهها التأمل والتفكير. ثم نظرت إلى جميلة بعينين تحملان مزيجًا من الجدية والحنكة، وقالت بحصافة:
_قصدك إنه ممكن يكون عارف واحدة عليكي؟
هزت جميلة رأسها ببطء، وعلامات الضيق جلية على ملامحها، مُؤكدة ما قالته "هايدي" دون الحاجة إلى كلمات. لكن هايدي، قالت باستنكار وهي ترفع حاجبيها:
_لا لا لا عمره ما يعمل كده، ده أخويا وأنا أعرفه أكتر منك! هو أصلًا ساعات بيبقي معانا كده و....
قاطعت "جميلة" حديث هايدي فجأة، وضعت يدها بلُطف على ساقها، وابتسمت ابتسامة خفيفة. ثم قالت بهدوء:
=القلب إحساسه دايمًا صادق يا هايدي ولما تحسي إن في، يبقى في فعلًا!

هايدي باعتراض:لا لا إن بعض الظن إثم، دي أوهام في دماغك! صدقيني مفيش الكلام ده، هو ضغط شغل اسأليني أنا! مانا زيك زياد بيعمل معايا كده برضة.

في شقة نعمة حيث يكتنفها الألم، كانت نعمة تجلس على السرير وقد وضع الطبيب لها لصقات على الجروح، بينما ليالي تقف بجانبها وتناولها مسكنًا يخفف من الألم. بنظرات مليئة بالعطف، عبّرت ليالي عن ارتياحها بأن الحادث لم يكن أشد قسوةً، فرغم السقوط، نجت نعمة بفضل الله. انتقل المقاول بعدها إلى الشرفة التي انهارت بشكل مفاجئ، إذ كان جلال يتساءل بحيرة حول كيفية إصلاحها بعد أن سقطت بالكامل مع مَن عليها، تاركةً وراءها أثرًا عميقًا على الأرض، وفي لحظة من الاستياء، عبّر جلال عن سخطه بمرارة، مُشيرًا إلى عظمة الخسارة التي حلت بالمنزل، وأشار حامد إلى الحظ الذي حالفهم بغياب الأطفال عن الشارع وقت وقوع الشرفة. بينما في مكان آخر، بعد الحادث، اتجهت أم الديب إلى منزل المعلم حنفي، لكن هذه المرة من الجهة الخلفية، مُتسللة بصعوبة عبر نافذة المطبخ التي علقت فيها بغير قصد. وفي الداخل، كانت جمالات تستعرض بمرح وترقص إزاء زوجها الذي يشجعها بتصفيق حار، غير مُدركة لما يجري خلف الأبواب. حيث قال "المعلم حنفي" لها:

_اعمليلي كوباية شاي على ما الغدا يجهز!

أم الفار بإرهاق:من عينيا.

بمجرد أن نزعت جمالات الرباط عن خصرها، ووضعته جانبًا، ظهر عليها الإرهاق من الرقص المتواصل، حيث انعكست آثار التعب على وجهها المتورد. دخلت المطبخ لتحضير كوب من الشاي للمعلم حنفي، وفي تلك اللحظة، لمحَت من طرف عينها أم الديب واقفة عند النافذة، محشورة بين زجاجها، تنظر بتجسس وملامح ساخطة. توقفت "جمالات" فجأة، وأخذت نفسًا عميقًا وهي تحمل إبريق الشاي بيدها، ثم استدارت نحوها. ومن فورها، ارتفع صوتها بصياح غاضب:

_يا لهوي، هو إنتي يا عرة يا زبالة؟

ثم وضعت إبريق الشاي جانبًا، وقد اشتعل وجهها غضبًا، ونادت بصوت عالٍ، تستغيث بالمعلم حنفي من المطبخ:

_الحقني يا حنفي، مراتك محشورة في شُباك المطبخ!

يتبع....

الفصل الثلاثون

حينما أبصر "المعلم حنفي" أمّ الديب محصورةً في نافذة المطبخ، هرع إليها مسرعًا كأنما الريح تدفعه، وقد لاحت السكين في قبضته عازمةً على غرسها في ذراعها. أما أمّ الفار، فتشبثت بالمكنسة اليدوية كجندي يستل رمحه في ميدان معركة. عندها صدح صوت المعلم حنفي، مشحونًا بالوعيد:

_هديكي في إيدك يا ولية!

أم الديب بصياح:جرا إيه يا راجل يا عرة؟ ابعد إيدك لا أخلي ليلتك طين إنت والولية أم ضب دهي!

أم الفار بسُخط:احترمي نفسك ومتنسيش إن صوباعك تحت ضرسنا! ده احنا ممكن نعمل فيكي عمايل سودة شبه وشك!

ألقى المعلم حنفي السكين جانبًا، كأنما اختار أن يُبدّل أداة الوعيد، ثم انتزع المكنسة من يد جمالات بقبضة غلبت على ضعفها. رفعها عاليًا، ثم هوى بها بقوة على ذراع أم الديب، فكأن الأرض اهتزت تحت وطأتها. صرخت "أم الديب" مُستغيثة، تقول بصوتٍ شُجيّ:

_الحقوني يا خلق!

خرجت "جمالات" من باب الشقة غاضبةً كالعاصفة، ثم انحدرت إلى الشارع بخطى موصولة بالنقمة. لم تلبث أن استدارت لتأتيها من الجهة الأخرى، كصقر يلتفّ حول فريسته. وما إن اقتربت، حتى رفعت المكنسة وهوت بها على مؤخرة أم الديب بقسوةٍ لا تعرف الرحمة، وهي تصرخ بصوتٍ يحمل في ثناياه لوعة الانتقام:

=ده أنا هخليكي تلعني اليوم اللي شوفتيني فيه وتندمي علي عمايلك دي!

أم الديب بإعوال:يا لهوي.

أم الفار بانتقام:أم الفار هتعرفك مقامك يا حشرة يا جربوعة يا رمامة الشوارع! بقي أنا تضربيني ليلة دخلتي يا زبالة؟

عادت جمالات إلى المنزل بخطواتٍ يملؤها الغليان، وأحضرت حبلًا متينًا كأنما عقدت عزمها على إخضاع خصمها تمامًا. رجعت إلى حيث أم الديب، وقيّدت ساقيها بالحبل وربطتهما بإحكام إلى حديد الجدران، وكأنها تثبّت جذع شجرة عنيدة. عندها تعالت صرخات "أم الديب"، تقول مستنجدةً بوجع:

_يا لهوي.

خرج المعلم حنفي وقد رمق بعينيه ضايع يقترب من بعيد، كظلّ يزحف نحوهم محمّلًا بالرهبة. ما كان منه إلا أن أمسك بيد زوجته بقوة، وسحبها معه مهرولين بعيدًا عن المكان، كأن الأرض تضيق عليهم. وبينما يفرّان بخطى مرتجفة، التفتت "أم الفار" إليه مذهولة، وقالت بصوت يحمل بين طياته الحيرة:

_في إيه يا حنفي؟ بتشدني ليه؟

المعلم حنفي بخَرَع:وطي صوتك! مانتي أصلك مش عارفة! ضايع أخوها جه، ده سفاح وبلطجي كبير وألعن منها بمليون مرة، ده هو ده اللي اتسبب في موت أخويا ومحدش فينا عرف ياخد معاه لا حق ولا باطل!

أم الفار باستهزاء:لا خوفت ياخويا! خوفت واترعبت وأعصابي سابت!

ثم توقفت فجأة، وصرخت في وجهه بحدةٍ كالسهم يخترق السكون، وقد امتلأت كلماتها بالسخط:
_انشف يا حنفي! مش أم الفار اللي تخاف من مخلوق على وش الأرض! احنا لينا حق والساكت على الحق شيطان أخرس يا حبيبي.

لكن المعلم حنفي لم يُعر صراخها أدنى اهتمام، بل شدّها بقوة أشدّ من ذي قبل، فكان يهرب من قدر محتوم. حاولت "جمالات" أن تتوقف وهي تقاوم قبضته، ثم صاحت بجلبةٍ يشوبها الغضب:
_برضه بتشدني؟ هو إنت طلعت خيخة ولا إيه؟ لا خد بالك أنا مبحبش الرجالة نص كم! أنا عايزة راجل أسد ميخافش من حد! يا خيبتك، يا ريتك زي ابنك جلال.
ثم ارتسمت على شفتيها حركة ساخرة، وهي تسخر من خوفه المفضوح. لكن "المعلم حنفي"، الذي تملكته الذعر، نظر إليها بعينين تراقبان الخطر من كل صوب، وقال لها بحيطة:
=مش وقته! ده هيخلي وشنا خريطة لو وقفنا قصاده! أبوس إيديكي يلا! اجري يلا!

وقفت أم الفار جامدة في مكانها، كأن صدمة اللحظة كبّلت قدميها. أما المعلم حنفي، فقد أفلت يدها واندفع يركض هاربًا من الحي كريحٍ أزعجها الخطر، حتى غاب أثره تمامًا. وعندما اقترب ضايع من أم الديب، وجدها محصورةً في مكانها، لكنه لم يدرك أنها أخته. وبمجرد أن رفع يده إليها بحركة دنيئة، انطلقت صرخة "أم الديب" مدوية، تهزّ صمت الحي، وهي تصيح بأعلى صوت:
_احترم نفسك يابن الكلـ* يا واطي يا عديم الرباية، أتفك بس وآني همسحك ببلاط الأرض!

ضايع بصدمة:إيه ده؟ بسمة أختي؟
أم الديب بدهشة:ايهي، هو إنت ضايع ياخويا؟
ضايع بذهول:أه ياختي، أمال إنتي إيه اللي عامل فيكي كده؟
أم الديب باستغاثة:طب فكني اللهي يسترك وآني هقولك!
ضايع بعون:قشطة ياختي.

أخذ ضايع يفكّ الحبال التي قيّدت ساقيها، ولكن كلما حاول جذبها للخلاص تعثرت جهوده، وكأن القدر يتلكأ في منحها النجاة. وبعد محاولات شاقة، تمكّن أخيرًا من تحريرها، فأنقذت روحها من قبضة الأسر. وقفت "أم الديب" تتنفس بغضب، ونظرت حولها بعيونٍ مشتعلة كالجمر، ثم رفعت رأسها متوعدةً للمعلم حنفي وجمالات، وقالت بنبرةٍ مغمورة الثأر والحنق:

_ماشي يا حنفي إنت والعقربة دهي، صبركم عليا بس! آه يا ضهري، يا عيني عليكي يا بسمة، كبرتي والدنيا جات عليكي! اللهي يخبطك طور أعمى في وسط السوق يا حنفي وما توعى تقوم منها.

أخرج "ضايع" السيجارة من جيبه بإيقاعٍ متثاقل، محاول التمهل في مواجهة ما يراه. أشعلها، ثم نفث دخانها بتأمل، ونظر إلى أم الديب بعينين يملؤهما الفضول الغامض، وسألها باستفهام مبطّن:

_إيه اللي حصل ياختي؟

أم الديب بشجن:هقولك ياخويا.

غادر ضايع وأم الديب الحي بخطواتٍ ساخطة، وقد ظلّت طيلة الطريق تسرد عليه ما جرى، تصوغ الأحداث بحبكة تخدم غاياتها. لم تكتفِ بإخبار ضايع بزواج المعلم حنفي عليها، بل سكبت الزيت على نار غضبه بأقاويل كاذبة، تدّعي فيها أن حنفي يسبّه في غيابه ويتحدث عنه بكلماتٍ تخدش كرامته. راحت كلماتها تتسلل إلى عقله، تُشعل فيه الحنق كجمرٍ تحت الرماد، وفي منزل أم الديب، كانت هايدي وجميلة تجلسان في غرفة الضيوف أمام التلفاز، تنساب على وجهيهما ملامح الاسترخاء. لكن جوّ السكينة لم يدم طويلًا؛ إذ اقتحم أحمد الشقة كالعاصفة، وجهه متجهم وحاجباه معقودان، حامل شحنة غضبٍ لا تحتمل. بدا واضحًا أنه قادمٌ للشجار، فقد علم أن جميلة تحدثت مع المخرج دون علمه، وهو الذي طالما استشاط غضبًا من تصرفات كهذه. رأى في ذلك تحركًا مبطنًا للتفتيش خلفه، وكأنها تسعى لتكشف خيانته. بينما "هايدي" لم تفارقها الابتسامة، فالتفتت إليه، وقالت:

_تعالى يا حبيبي!

نظرت هايدي إلى أحمد بدهشة وهي تراقب تغير ملامحه، لتجد عينيه مصوّبتين نحو جميلة بنظرة تحمل امتزاجًا من الامتعاض والاتهام. لم تغب تلك النظرات الغريبة عن جميلة، التي بدت متوترة قليلًا، ولا عن "هايدي"، التي ارتسمت على وجهها لمحة من الفطنة، ثم قالت بنبرة مشوبة بالهدوء الظاهري:

_أقعد يابني واقف ليه؟

أحمد بحدة:أنا عايز أعرف إيه اللي حصل ده!

جميلة باستغراب:إيه اللي حصل؟

أحمد بفظاظة:انتي ازاي يا جميلة تتصلي بالمخرج من ورايا وتسأليه تابعنا الأرباح امتى؟ هو إنتي مش واثقة فيا؟

جميلة بدهشة:أنا؟ وإيه المشكلة؟ مانا عالطول بكلمه، إيه الجديد يعني؟

أحمد بسخط:بتكلميه بعلمي مش من ورايا! ده غير إن الجديد إنك عمرك ما سألتيه عن التفاصيل دي، اشمعنا المرة دي؟

نهضت "جميلة" فجأة، وقد اشتعلت بداخلها نار الانفعال، فلم تعد تحتمل ما تتعرض له من ضغوط وإسقاط نفسي بسبب أحمد. وقفت أمامه بثبات، وعيناها تتوهجان بالحنق، ثم واجهته بحقيقة حاول كتمانها، قائلة بنبرة حادة مشوبة بالمرارة:
_وانت تقدر تقولي ميادة إيه جابها المستشفى يوم عملية هايدي؟

هايدي بقلق:يا جماعة مش كده، اهدوا بس واتكلموا براحة!

لم يعِر أحمد ولا جميلة أي اهتمام لحديث هايدي، وكلماتها تلاشت في صخب الشجار. ظلّ "أحمد" واقفًا أمام زوجته، عيناه تقدحان شررًا، والغضب يسيطر عليه كما لم يحدث من قبل. فجأة، رفع صوته عاليًا، كأنه زئير أسد جريح، وقال بصياحٍ يمزق هدوء المنزل:
_مانا قولتلك، إنتي ليه مصممة على نفس السؤال وانتي عارفة إجابته كويس؟

جميلة بوضوح:عشان مش مقتنعة!
أحمد بصخب:مش مقتنعة؟ وإيه يخليكي مش مقتنعة؟
هايدي بخجل:طب أنا هسيبكم تتكلموا براحتكم!

خرجت هايدي من الغرفة بخطواتٍ متثاقلة، يغمرها شعور بالإحراج، وقد آثرت الابتعاد عن ساحة النقاش المحتدم، تاركة أحمد وجميلة وحدهما ليواجها ما بينهما دون قيود. ما إن أغلقت الباب وراءها، حتى انفجرت "جميلة" بصخب، وصوتها يجلجل في الغرفة كالرعد، قائلة:
_مياده إيه جابها المستشفى؟

أحمد بخشونة:مانا قولتلك إن الكلام جاب بعضه!

كان أحمد يعاند بكل ما أوتي من قوة، وهو يدرك في أعماقه أنه على خطأ، لكن كبرياءه يعصيه على الاعتراف. كان يحاول الهروب من مواجهة الحقيقة التي تتلخص في تلك الليلة التي دخلت فيها ميادة إلى مكتبه في القناة، صافحته وجلست قبالته، يضحكون ويتبادلون الأحاديث لساعتين طويلتين، وفي منتصف الحديث، اختارت ميادة أن تفتح بابًا آخر للحديث، حيث جاءت سيرة قمر الدين، فاستخرج أحمد هاتفه ليريها فيديو ليلة زفافه، الذي اجتاح مواقع التواصل الاجتماعي وأصبح حديث الجميع. وبينما كان الفيديو يمر،

توقفت الصورة عند مشهدٍ يظهر هايدي وزياد معًا، وكان لحظتها يبدو أن حديث الفيديو قد التقط تلك اللحظة، فقالت "ميادة" بابتسامة خفيفة على شفتيها، دون أن تتوقف عند الحوار:
_ما شاءالله، هايدي عسولة وأكيد أحلى على الطبيعة.

أحمد ببشاشة:بكتير.
ميادة بفضول:ومعاها أولاد بقى ولا لسه؟
أحمد بوضوح:لا هي بصراحة عندها شوية مشاكل واحتمال تعمل عملية كمان يومين.
ميادة بصدمة:معقول؟ مشكلة إيه دي؟
أحمد:مشاكل في الخلفة، بس الدكتور طمنا.
ميادة بإصرار:لا خلاص إنت لازم تعرفني ميعاد العملية والمكان! وبالمرة أتعرف على هايدي، وجودنا جنبها هيطمنها!
أحمد بإحراج:لا مالوش لزوم تتعبي نفسك!
ميادة بابتسامة:لا لا ولا تعب ولا أي حاجة، أنا بجد ارتاحتلكم جدًا.

عاد أحمد إلى واقعه، محاولًا بإصرار أن يثبت لجميلة أن علاقته بميادة لا تتجاوز حدود الرسمية، مدعيًا أنها سطحية لا تشوبها شائبة. لكن الحقيقة كانت شيئًا آخر؛ فقد بدأت الخطوط الفاصلة بينهما بالتلاشي تدريجيًا، ووجد كلاهما نفسه يتجاوز تلك الحدود غير المعلنة، وهما يسيران نحو شيءٍ لا يُراد له أن يُكشف. وسط صمته المُربك ومحاولاته الواهية، لم تعد "جميلة" قادرة على كبح غضبها الذي كان يتأجج في صدرها كبركان، فانفجرت بصخب، قائلة:
_أحمد بليز إنت عارف إن أنا مبحبش الطريقة دي خالص! ده إنت حتى مابقتش عايزني أعرف تحركاتك!

أحمد بعجيج:جميلة لو سمحتي! احنا اتفقنا، وياريت منخرجش من الموضوع الأساسي، إنتي إيه خلاكي تتصلي بيه؟
جميلة بامتعاض:برضة؟ أقولك حاجة؟ الحقيقة أنا مش مرتاحة لتصرفاتك الفترة دي.
أحمد بصدمة:يعني كنتي بتتأكدي لأنك مش واثقة فيا؟
جميلة بهدوء:لا طبعًا يا حبيبي واثقة فيك، بس اللي بيحصل ده ميطمنش أي واحدة!
أحمد بجلافة:طيب يا جميلة بعد إذنك متكلميش أي حد غير بمعرفتي! وأه صحيح الموضوع اللي كنت عايز أقولك عليه، ياريت تهتمي بالبيت لأن أنا مش عايز حد غريب يدخل بيتنا، لا بيبي سيتر ولا خدامة!

جميلة بغرابة:نعم؟ هو إنت عايزني أقعد من الشغل بجد؟
أحمد بقساوة:أمال أنا بقول إيه؟ بيتك أولى بيكي، احنا عندنا الراجل هو بس اللي يشتغل والست تشتغل أه بس لو الشغل ضروري، لكن أنا مش شايف إن شغلك فيه أي حاجة ضرورية، يعني يا حبيبتي إنتي مش محتاجة أي حاجة، يبقى ليه تشتغلي؟ أقعدي في بيتك معززة مكرمة وطلباتك هتجيلك لحد عندك!

جميلة باحتجاج:بس ده مش هيحصل! أنا مذاكرتش ثانوية عامة وجيبت ٩٥٪ ودخلت إعلام أربع سنين عشان في الآخر أقعد في البيت! أنا مش هتخلى عن أحلامي مهما يحصل!
أحمد بعناد:يعني إيه يا جميلة؟ إنتي بتكسري كلامي؟ أنا طول التمن سنين اللي فاتوا وأنا عمري ما رفضتلك طلب وكل طلباتك مجابة، وفي الآخر طلبي بيترفض؟ تمام يا جميلة، شوفي إنتي عايزة إيه واعمليه مادام أنا كده كده ماليش لازمة.

كان أحمد يتلاعب بمحاولاته لإبعاد جميلة عن العمل، محاولًا جعل غيابها ذريعة تمنحه الحرية الكاملة للتحرك دون رقابة أو استجواب. كان يرى عملها ترفًا لا ضرورة له، معتقدًا أن مكانها الطبيعي هو المنزل، حيث تهتم بابنتيهما وتبقى قريبة منهما بلا غياب. لكن جميلة لم تكن مستعدة للتخلي عن حلمها الذي بذلت سنوات عمرها في السعي إليه، بدءًا من دراستها في المدرسة حتى الجامعة. احتدم النقاش بينهما حتى بلغت الأمور ذروتها، فخرج أحمد من الغرفة غاضبًا، ووجهه يفيض بالثورة، وكأن الغرفة أصبحت لا تحتمل وجودهما معًا. لم تمضِ لحظات حتى تبعته "هايدي" بخطى متسارعة، وسألته:
_استنى بس، مالك متضايق ليه؟

غادر أحمد الشقة بأكملها، وتضايقه لم يجد متنفسًا إلا في الهروب من المنزل. ما إن أغلق الباب خلفه، حتى اندفعت هايدي إلى داخل الغرفة حيث كانت جميلة تجلس، وقد أثقلها الحزن من الجدال المحتدم. اقتربت "هايدي" منها بخطى سريعة، ثم احتضنتها بحرارة، ودموعها تنساب بلا توقف. توقفت قليلًا لتجمع أنفاسها، ثم نظرت إلى جميلة، وسألتها بصوت مرتعش:
_إيه اللي حصل يا جميلة؟

انفجرت جميلة في البكاء داخل أحضان هايدي، لم تجد الكلمات التي تصف ما تشعر به، فقط عبّرت بنحيبها الحارق الذي مزّق صمت الغرفة. كانت تعلم، كما تعلم كل امرأة، أن تفاصيل صغيرة لا تخفى عنها تكشف تغيرات زوجها، فتدرك متى يكون وفيًا لها ومتى ينحرف عنها. تلك التفاصيل الدقيقة كانت كالمرآة التي تعكس حقيقتها المؤلمة. وفي منزل "أم الديب" ، بعد أن أنهت رواية كل ما جرى، صاغت الأحداث بحبكة زادت ضايع احتدامًا، فألهبت نيران الغضب في داخله. نظرت إليه بفظاظة مشبعة بالخبث، ثم قالت بنبرةٍ تقطر سمًا:
_هتسيب حق أختك يا ضايع؟

ضايع بعداء:مقدرش، اللي يجي علي أختي يبقي جه عليا!

نهض "ضايع" من مكانه، مستجمع كل ما في داخله من قسوة، ووجهه يعلوه شبح الانتقام. قبض يده بقوة، واشتعلت عيناه بوهج الحقد، ثم قال بصوت جهوري يحمل وعيدًا لا تخطئه الآذان:

_جايلك يا حنفي، استقبل يا روح أمك!

ترك ضايع أم الديب خلفه، متوجهًا بخطواتٍ مليئة بالغضب نحو القصاص من المعلم حنفي، بينما وقفت أم الديب تزغرد بفرحٍ يفيض من أعماقها، فلطالما كان ضايع هو سندها، واليد التي تنتزع حقها حين يقهرها الآخرون. في منزل حسين، عاد المعلم حنفي بخوفٍ يعتريه، واختبأ في ركنٍ سري، مترقبًا اللحظة التي قد يقتحم فيها ضايع المنزل للانتقام. لكن أم الفار لم تُعر خوفه أدنى اهتمام؛ كانت شجاعتها كالدرع الذي لا ينكسر، وهي جالسة على الأريكة قبالة شاشة التلفاز القديم، تستمتع بشرب النارجيلة في هدوء. فجأة، ارتطم الباب بعنفٍ وانكسر دون سابق إنذار، لتقتحم قوة ضايع الجسدية المنزل كعاصفةٍ لا تُرد، يبحث عن المعلم حنفي بنظراتٍ كالصواعق. نهضت "أم الفار" على الفور، متخلية عن هدوئها، ووجهها يفيض بالصدمة، بينما تقول:

_يا لهوي، إنت مين ياخويا؟

دخل "ضايع" في صمت مهيب يحيط به، كأنه عاصفة قبل الانفجار. بدأ يبحث عن المعلم حنفي بنظرات مُشتعلة، لم يكن بحاجة إلى كلمات؛ أفعاله وحدها كانت تتحدث. أمسك بالمرتبة بيدٍ واحدة ورماها جانبًا بقوةٍ مدهشة، ثم اتجه إلى الخزانة وضربها ضربة واحدة هشّمتها، فتح إحدى درفه بعنفٍ فخلعت في يده كأنها قطعة هشّة أمام قوته. ظل يجوب الشقة، يفتش هنا وهناك كوحشٍ يطارد فريسته، حتى عاد أخيرًا إلى أم الفار، التي كانت تتابعه بحذر. توقف أمامها، وعيناه تضيقان بغضبٍ مقيت، وسألها بنبرة فظة تخلو من أي رحمة:

=هو فين؟

أم الفار بلا مُبالاة:بتدور على مين ياخويا؟ قولي!

ضايع بعنف:بقى إنتي اللي حنفي اتجوزك على أختي؟

أم الفار بسخرية:وربنا أختك كانت في البيت، مكنتش تحت مني!

ضايع بصخب:بقولك إيه يا بت! استظراف وخفة دم مش عاوز! فين حنفي؟ لعلمك ضايع اللي هو أنا! قتل بعدد شعر راسه وإيده ورجله، مفهوم؟ يعني حركة كده حركة كده هقتلك وهداريكي في أي داهية، مفهوم؟

أم الفار بصياح:لا يا حبيبي، مش أم الفار اللي....

وقفت "أم الفار" مُستعدة لتطلق سيلًا من الشتائم، لكن قبل أن تفتح فمها، أمسك ضايع بعنقها بيدٍ واحدة، ورفعها عن الأرض كأنها لا تزن شيئًا. كانت قبضته قوية كالفولاذ، ونظرات عينيه تبرق بشرٍ مطبق، وجهه متجهم كأنه الشيطان ذاته. بدأت أم الفار ترتجف في مكانها، وجسدها يهتز بخوفٍ لا تستطيع كتمانه. حاولت أن تلتقط أنفاسها بصعوبة، وكلماتها خرجت متقطعة، متلعثمة، فتلفظت:

_خلاص خلاص هقولك! حنفي مستخبي في عشة الفراخ اللي علي السطح!

بكل قوته، ألقى ضايع "أم الفار" بعيدًا كأنها دمية بلا وزن، فتطاير جسدها وارتطم بعنفٍ بالحائط، مخلفًا صدى قويًا في المكان. سقطت على الأرض وهي تتلوى من شدة الألم، وصراخها يعلو، وقالت بصوت مختنق بالأوجاع:
_آه... آه.

فوق السطح، كان المعلم حنفي مختبئًا داخل عشة الدجاج، يجلس وسط الريش والقش، محاولًا الحفاظ على سكونه حتى لا يُكتشف أمره. مد يده المرتجفة نحو قطعة خبز أمامه، يأكلها بسرعة. رفع عينيه نحو الأعلى، فوجد أن السقف المتهالك كشف السماء الصافية، وكأنها شاهدة على حاله البائس. لكنه ما إن استدار للخلف حتى وجد ضايع يقف أمامه كجبلٍ لا يُهزم، نظراته تشتعل كالنار، وابتسامة باردة على وجهه. هجم عليه بلا تردد، وأمسكه من قميصه، رافعًا إياه في الهواء بكل قوته الجسدية الهائلة. صرخ المعلم حنفي في ذعر، بينما الدجاج والبط هربوا من العشة، يركضون في كل اتجاه وهم يصدرون أصواتًا مُضطربة. ارتفع المعلم حنفي عاليًا، حتى أصبحت الشوارع البعيدة تحت قدميه، وأخذ يرتجف كأنه معلق بين السماء والأرض، عاجزًا عن النطق أو المقاومة، وقد قال "ضايع" بصياح:
_بتتجوز على أختي يا كلب يا *؟ أختي اللي استحملتك كل السنين دي بتتجوز عليها؟ ده إنت حكمت على نفسك بالموت يا حنفي!**

المعلم حنفي بتلعثم:ها هقو...ها قو... لك!
ضايع بصلابة:ولا ربع كلمة، الضحايا بتوعي كانوا خمسين ودلوقتي هيبقوا واحد وخمسين!

قبل أن يوجه ضايع ضربته القاضية للمعلم حنفي، شعر بشيءٍ يقيد يده بقوة. التفت بغضبٍ ليرى من يعترض طريقه، فوجد جلال واقفًا خلفه، ويده القوية تمسك بذراعه مقيداه بسلاسل من حديد. كان وجه جلال متجهمًا، وعيناه تضيقان بسخطٍ مشوبٍ بشرورٍ دفينة، مواجه معركة داخلية بين حماية والده ومجابهة الحقائق التي تكسر الروابط. قال "جلال" بنبرةٍ صارمة، اعتراضًا على أن يعتدي ضايع على والده العجوز، وكلماته تقطر تحديًا وتهديدًا:
_لا يا خالي، أبويا خط أحمر!

ضايع بجلبة:كنت عارف إنه بيتجوز على أمك يا كلب؟
جلال بعجيج:إلزم لسانك يا خالي وبلاش غلط عشان اللي ما بينا ميتهدش!
ضايع بتحدي:وأنا بقى عاوزه يتهد!

اندلعت الفوضى فوق السطح. أمسك ضايع بجلال ووالده المعلم حنفي معًا، وبدأ في توجيه الضربات بلا هوادة، كأنه وحش انطلق بلا قيود. لكن جلال، بعزيمته الغاضبة، تمكن من الإفلات من قبضة خاله، ورد عليه بضربة قوية جعلت ضايع يتراجع للحظات. في خضم الاشتباك العنيف، استغل المعلم حنفي المعركة

وسحف على بطنه كالأفعى، متسللًا نحو باب السطح. بمجرد أن وصل إليه، وقف على قدميه بسرعة، ونزل ركضًا نحو الشقة، وهو يلهث من شدة الرعب. دخل إلى غرفة النوم واختبأ داخل خزانة الثياب، محاولًا الاحتماء من بطش ضايع. بينما على السطح، نهض "جلال" بقوة، متجاوزًا ألم الضربات، ثم أمسك بخاله وضربه بعنفٍ على الأرض، وصرخ بصوتٍ يهز الحي:

_أبويا خط أحمر يا خالي!

ضايع بصراخ:مش هعتقك لا إنت ولا أبوك يا جلال!

تلقى جلال ضربات قاسية من ضايع، حيث كان كل منهما يحاول أن يرد ضرب الآخر بكل قوة وعنف. اندلع الشجار فوق السطح بشكلٍ مروع، فتشظت الأشياء حولهما، وتحطمت قطع الأثاث، بينما الطيور هربت بعيدًا عن النزاع. وكان السطح ملآنً بالصراخ واللكمات، حيث ظلت يد ضايع تثبت قبضتها على جلال، في معركة غير متكافئة بين الأثنين، وفي شقة نعمة، كانت "ليالي" تجلس بجانبها على السرير، تعيش لحظات من السكون رغم ضجيج الأطفال في الصالة الذين كانوا يلهون. فجأة، تبادر إلى ذهنها فكرة جديدة، رغبة في تغيير الجو. نظرت إلى نعمة، التي كانت تجلس هامدة، جسدها يعاني من الحروق والجروح، وابتسامة خفيفة ارتسمت على شفتيها، ثم قالت بصوتٍ يمزجه الشغف:

_بقولك إيه يا نعمة! في مطعم لسه فاتح جديد بيبيع ساندوتشات ومكرونات وأسعاره حنينة، وبيقولك أكله حلو، ما تيجي نجرب؟

نعمة بألم:واحنا حيلتنا اللضا ياختي؟
ليالي بتضايُّق:يوه، إنتي هتسدديها في وشي ولا إيه؟ أنا كنت محوشة ٣٠٠ جنيه على جنب، ناخدلنا منها مية ونطلب لينا وللعيال.
نعمة بتأوه:آه يا رجلي آه، وانتي هتطلبيلنا إيه؟
ليالي بتفكير:نجيب اتنين مكرونة بشاميل وحواوشي للعيال، مقولكيش ياختي بيحبوه قد إيه!
نعمة بإنهاك:اعملي اللي تعمليه، أنا مش قادرة.
ليالي:طيب.

استخرجت "ليالي" هاتفها من جيب عباءتها، وأخذت تطلب رقم المطعم الجديد الذي افتُتح في القرية. اتصلت به ورفعت الهاتف إلى أذنها. تبادل الطرفان الحديث عبر الهاتف، فاستمرت في محادثتها بكل تركيز، قائلة:

_السلام عليكم، مطعم الحاجة معايا؟ طيب أما بقولك عاوزة ياخويا طبقين مكرونة بشاميل....أه....وخمس أرغفة حواوشي.... طيب حط معاهم بطاطس محمرة....الحساب كام؟.... خلاص ماشي، على العنوان اللي هقولهولك.

أبلغت ليالي مسئول الاتصالات بالمطعم بعنوانها، وأوضحت له طلباتها بما يكفيها هي ونعمة والأطفال. كانت مشاعرها مليئة بالحماس لتذوق طعام المطعم الجديد بعد فترة طويلة من عدم تجربة مثل هذه الأطباق، إذ أنها كانت قد اعتادت على تحضير الطعام في منزلها، خصوصًا أن جلال لا يحب المأكولات الجاهزة ويفضل وصفاتها الخاصة التي تتميز بنكهاتها الفريدة. بينما كان "أحمد" يخرج من المنزل في حالة محتدمة، جلس داخل سيارته، وتحدث مع ميادة التي كانت تجلس في غرفتها، منصتة لشكواه. كان في قلبه فيضان من الحزن، فقد شعر أن جميلة قد تغيرت عليه بشكلٍ كبير، وأصبح يبدو لها غير مهم، بالرغم من أنه كان يدرك تمامًا أنه هو المقصر في حقها. قال لها بضيق، بينما كانت أصوات الآهات تخرج من صدره:

_والله بصراحة أنا مابقتش مرتاح! جميلة عمرها ما كانت كده، فجأة اتقلبت ١٨٠ درجة.

ميادة برقة:أنا لو مكانها بجد وجوزي اللي أنا المفروض بحبه وواخداه عن قصة حب وطلب مني حاجة زي دي هوافق طبعًا، أصل الشغل يتعوض لكن الحب الحقيقي ميتعوضش، مينفعش الإنسان يكون أناني أبدًا! هي ليه بجد مش مقدرة قيمتك؟

أحمد بتبرُّم:يمكن شايفاني قليل ولا حاجة.

ميادة بإعظام:لا لا إنت عمرك ما كنت قليل! إنت حاجة كبيرة أوي وتستاهل كل حاجة حلوة! جميلة طبعًا غلطانة ومحتاجة تراجع نفسها وتعرف إنها غلط.

أحمد باستياء:جميلة مابقتش شايفة غير نفسها وبس! حتى كل اهتمامها بنفسها، مش مدياني ربع الإهتمام ده، وكل حاجة بقيت أنا اللي أعملها بنفسي كأني مش متجوز وعايش لواحدي!

ميادة بدهشة:معقول؟ هي ازاي بتعمل كده؟ أنا لو فعلًا مكانها ههتم بجوزي جدًا، وكمان كل وقتي هيكون له لواحده وبس! على العموم هي بس اللي مش مقدرة النعمة الكبيرة اللي هي فيها واللي مبيعرفش قيمة الحاجة بتروح منه.

أحمد بانشراح:انتي كلامك مُريح جدًا، بصراحة بحس إن أنا بكلم حد عاقل وفاهم صح! ياريت كل الناس زيك يا ميادة.

ميادة بلُطف:خلاص بقى، احنا بقينا زمايل شغل، ولو احتاجت أي حاجة في أي وقت حتى لو أنا نايمة فأصحي عشانك مخصوص، ده إنت تؤمر!

أحمد بهدوء:ربنا يخليكي يا ميادة، مش عارف أقولك إيه والله على كل اللي بتعمليه...انتي كنتي فين من زمان؟

ميادة بابتسامة:كنت موجودة، بس النصيب مكنش لسه جمعنا.

بعد هذا الحديث، أصبح أحمد وميادة أكثر قربًا من بعضهما، ويجدان في الحديث معًا راحة نفسية لا مثيل لها. تخلى أحمد عن كل ما قدمته جميلة من تضحيات كبيرة، فحتى عندما كانت أمامها فرص أفضل بكثير، اختارت أن تتنازل عن كل شيء وتقبل بحياة لا ترضي طموحاتها، فقط بسبب حبها له. لقد تألم قلبها

وأصيب جرحها العميق، لكنها بقيت معه، في غرفة صغيرة تكاد تختنق فيها أحلامها، ومع ذلك، بعد حديثه مع ميادة، شعر أحمد بأن بعض الأحمال النفسية قد خفّت، وفي خطوة جديدة أقدم على الذهاب للقائها في المقهى الذي طلبت أن يلتقيا فيه. كانت تلك المقابلة بالنسبة له بمثابة متنفس جديد يخفف من عبءِ سنواتٍ من الصمت. بينما في تلك الأثناء، كانت هايدي تجلس بجوار جميلة التي كان دموعها تتساقط بغزارة، محاولةً أن تفهم ما الذي يحدث داخل قلبها، لكن "جميلة" كانت ترفض الحديث عن ما يؤلمها، وتنكر أي رغبة في الحديث عن مشاعرها، معلنةً:

_بليز يا هايدي متضغطيش عليا أكتر من كده!

هايدي برأفة:خلاص ماشي، اهدي طيب وأنا هحضر أكل وناكل سوا!

جميلة برفض:ماليش نفس.

هايدي بإجبار:لا هتاكلي! اهدي طيب!

مررت هايدي يديها على كتف جميلة بحنان، محاولةً تخفيف الألم عنها، ثم غادرت الشقة عائدة إلى شقتها، ثم دخلت المطبخ، وبدأت في تجهيز الغداء، لكنها توقفت فجأة، وأخرجت هاتفها لتتصل بأحمد، إلا أن الهاتف أشار إلى أن خطه "مشغول". تعجبت "هايدي" من ذلك، وقالت لنفسها باستياء:

_ربنا يهديهم.

استخرجت هايدي الخضروات من المبرد، وبدأت في تحضير وجبة الغداء، لكن قلبها كان مضطربًا، مشغولًا بأقاويل أحمد وجميلة التي لا تزال تتردد في أذنيها. كان نزاعهما يشغل ذهنها، وتدور في عقلها تساؤلات عديدة حول ما يحدث بينهما. في نفس الوقت، دخلت "جميلة" إلى حجرة الثياب لتغير ملابسها، وأثناء قيامها بذلك، نظرت إلى نفسها في المرآة، وقالت في نفسها بشكٍ:

_أنا خلاص بقى الشك مالي قلبي، بس مفيش أي دليل في إيديا أتأكد منه، هتفضلي ساكتة؟ وهو مش عايزك تروحي الشغل ليه؟ مش يمكن في حاجة مستخبية هو مش عايزك تعرفيها؟ ماهو طول عمره عادي، اشمعنا الفترة دي دونًا عن أي وقت تاني فات؟

لم تهتم جميلة بمظهرها هذه المرة، وعلى الرغم من ذلك كانت لا تزال ملفتة للأنظار دون أن تعي ذلك. لم تضع المكياج كما اعتادت، بل اكتفت بإخفاء آثار بكائها باستخدام الكونسيلير. فجأة، لبست حقيبتها، وعدلت شعرها بسرعة، ثم نزلت إلى سيارتها، متوجهة للتأكد مما يدور في ذهنها، تاركة فتياتها نائمات في غرفتهن. كانت تود أن تفهم حقيقة ما يحدث، وما إذا كانت شكوكها في محلها، وفي الوقت نفسه، كان زياد قد اتصل بهايدي في منتصف يومه المزدحم في العمل، بعد أن أخذ برهة من الراحة بعيدًا عن ضغوط عمله في البنوك. كان في زيه الرسمي، وفكّر بهايدي فجأة، مما أثار فيه مشاعر من الحنين. ردت "هايدي" على الاتصال بحنو، قائلة:

_ألو يا حبيبي، عامل إيه في الشغل؟

زياد باشتياق:الحمدلله يا حبيبتي، أنا قولت أتصل بيكي في نص الشغل أطمن، عاملة إيه؟

هايدي بحنين:الحمدلله، مقولتليش صحيح أعملك أكل إيه النهارده؟
زياد بتلطف:لا ارتاحي أنا هجيبلك أكل وأنا مروح.
هايدي باكتراث:طيب يا روحي، المدير كويس معاك؟
زياد ببشاشة:أه الحمدلله، بصراحة أحسن معاملة، أنا مرتاح هنا أوي.
هايدي بتردد:طيب الحمدلله، شوفت اللي حصل؟
زياد بفضول:إيه اللي حصل؟

كانت هايدي مترددة بعض الشيء في أن تفتح قلبها وتخبر زياد بكل ما حدث، لكن مع الوقت قررت أن تخبره بما وقع بين أحمد وجميلة، وتستشيره في كيفية التدخل لإصلاح الأمور بينهما. كانت ترغب في أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه، حيث لم يكن يشهد أحدهما الشجار، بل كان الحب والمودة يملآن بينهما، ويتبادلان الكلمات الطيبة دومًا. في تلك الأثناء، في القرية، استمر النزاع الشديد بين جلال وخاله، حيث كان كل منهما يضرب الآخر بكل ما أوتي من قوة. لم يتوقف العراك إلا عندما سمعوا إنذار سيارة الشرطة يقترب. في اللحظة نفسها، قفز ضايع من سطح إلى سطح آخر، هاربًا من الموقف. بينما كانت ملابس "جلال" قد تمزقت، وبدت عليه آثار العراك، فهبط بعرجٍ إلى الطابق السفلي، وقال بغضب:
_ماشي يا خالي، هتروح مني فين؟ ده مصر كلها أوضة وصالة.

دخل جلال شقة عمه حسين ليجد "أم الفار" جالسة على الأرض، وجهها متلون من الفزع، وهي تحاول سحب المعلم حنفي من تحت الأريكة بعد أن غير مكانه من الخزانة إلى مكان آخر. كان الصوت الذي يخرج منها يحمل الكثير من الحسرة، فقالت له بسخرية:
_اطلع ياخويا اطلع! فضحتني وخليت راسي في الطين، ده إنت لا حصلت سبع ولا حصلت ضبع، ده دكر البط فيه رجولة عنك يا حبيبي.

المعلم حنفي بهلع:مشى؟
جلال بحدة:اطلع يابا! ده أنا قطعتهولك ضرب!

جلس جلال على الأريكة، وراح يمسح الدماء التي تناثرت على وجهه بيديه المرتجفتين، بينما جلس المعلم حنفي وأم الفار قبالته في صمت. كانت الشقة مشحونة بالرهبة، وفجأة، كسر "المعلم حنفي" الصمت قائلًا برهبة:
_إيه اللي جرالك ياض؟ هو مين اللي ضرب التاني؟

جلال بصياح:بقولك إيه يابا! جلال ميسكتش على حقه، ده أنا فرمتهولك مخليتش فيه حتة سليمة! لولا بس إنه سمع عربية الحكومة جاية، لقيته فص ملح وداب.
المعلم حنفي بسكينة:كده الواحد يقعد مرتاح.
جلال بإرشاد:أنا ماشي، وأبقوا اقفلوا الباب بالمفتاح! ولا باب إيه بقى؟ ده خلعه، أكتر واحد بيستنفع مننا في الليلة دي هو النجار....

ثم نهض فجأة وهو يخرج من الشقة، وأطلق جملة أخيرة وهو يبتعد:
_يلا سلامو عليكو.

ركب جلال التوكتوك مُتجهًا إلى مكان مجهول، عازمًا على الهروب من الواقع مؤقتًا قبل أن يعود إلى منزله. وفي ذات الوقت، وصل عامل التوصيل إلى منزل العائلة بعد ساعة إلا ربع، وهو ينادي "أم حمود" بينما كان يحمل أكياس الطعام. وكان الموتوسيكل الخاص به، المزين باسم المطعم، يقف بجواره. فأخرجت "أم الديب" رأسها من النافذة، وقالت له بغلاظة:
_انت مين يا راجل انت؟

عامل التوصيل:أنا بتاع الدليفري يا ست الكل.
أم الديب بتطفل:وإيه اللي معاك دهو؟
عامل التوصيل:مكرونة وحواوشي، هو مش الطلب بإسم جلال الديب؟
أم الديب بدسيسة:أه ياخويا ده ابني، اطلع فوق!

صعد عامل التوصيل بالطلبات إلى شقة "أم الديب"، وعندما دخل، نظر إليها بفضول فسألته أم الديب:
_مين اللي باعتك بالحاجات دهي؟ انطق!

عامل التوصيل:واحدة اسمها أم حمود.
أم الديب بغيظ:ايهي، دهي ليالي المخفية مرات ابني!

ثم قالت بغيظ، وهي تنظر إلى الباب، متذكرة ليالي التي تجري وراء لذائذ الطعام تاركة إياهم في الكوارث:
_بقى سايبانا في الكوارث اللي بتحصل ورايحة تطلبي الطفح اللي تطفحيه بالسم الهاري؟
ونزعت الأكياس من عامل التوصيل وتابعت بقسوة:
_هات الكيس دهو هات!

قبضت أم الديب على أكياس الطعام ووضعتهما جانبًا، ثم قفزت فوق "عامل التوصيل" وربطته بالحبال.
جلس على الأرض يصرخ، لكن أم الديب تقدمت نحوه وألصقت اللاصق فوق فمه، فكانت كل كلمة ينطق بها مكتومة، وهو يصرخ دون جدوى قائلًا:
=يا ست فكيني! عاوز أمشي!

ثم فتحت أم الديب أكياس الطعام وتناولت كل ما فيها بينما كان العامل ينوح قبالها، وعيناه مليئتان بالدموع من الألم. كانت تنظر له بغيظ، وكأنها تُملي على نفسها انتقامًا قاسيًا من ليالي بهذه الحركة الخسيسة التي تهدف إلى تحطيمها نفسيًا، تمامًا كما شعرت هي بالخذلان من تصرفات ليالي. أما ليالي، فقد كانت في منزلها غافلة عن ما يحدث.

يتبع....

الفصل الحادي والثلاثون

حينما تأخر عامل التوصيل، غمرت الشكوك عقل ليالي، تلتف كأمواجٍ مُتلاطمةٍ في بحرٍ من الحيرة. تساءلت بقلق: أترى المطعم قد ألغى الطلب؟ أم أن العامل أصابته يد الفصل فجأة؟ تهاوت الأسئلة عليها كالسيل الجارف، بينما أصوات الأطفال تعلو جوعًا، كجرسٍ يقرع دون هوادة. لم تجد "ليالي" ما تسكّن به تساؤلاتهم، فامتدت يدها إلى الهاتف، وكأنها تستنجد بصوت الأثير، لتجري اتصالًا بالمطعم قائلة بحزمٍ يختلط بالقلق:

_ألو السلامو عليك، أنا كنت طالبة أكل من ساعة إلا تلت ياخويا، هو اتأخر ليه؟

مسؤول الاتصالات بِاكتراث:بإسم مين؟
ليالي:جلال الديب.
مسؤول الاتصالات:ثواني.

تصفح "مسؤول الاتصالات" طلب ليالي بعينٍ يقظة، ليجد أن عامل التوصيل قد غادر به منذ خمس دقائق. ابتسم ابتسامةً خفيفة تخفي عجلته، ثم أجابها بصوتٍ يحمل نبرة الاطمئنان:

_الطلب طلع من خمس دقايق.

ليالي بتضايُق:أللاه، أمال متصلش عليا ليه ولا حتى رن الجرس؟
مسؤول الاتصالات:طيب هنتصل بيه.
ليالي بسُخط:طيب مع السلامة.

بعد أن أغلقت ليالي الهاتف، كانت الأجواء في المطعم مشحونة بالضجيج، وسط زحمة الزبائن التي لا تهدأ. حاول المسؤول مرارًا الاتصال بعامل التوصيل، لكن الهاتف ظل صامتًا كأنما يدٌ خفية كتمت أنفاسه. في تلك الأثناء، كانت أم الديب قد أحكمت قبضتها، قيدت العامل بالحبال كفريسة وقعت في شراكها، ومسحت الطعام عن الوجود، ليغدو أثره الوحيد في جوفها الجائع. بينما ما حدث كان خفيًا عن ليالي، اقتربت منها "نعمة" بخطوات مترددة، وعيناها تعكسان ألمًا. قالت لها بصوتٍ مثقلٍ بالمرارة:

_إيه يا ليالي؟ في إيه؟

ليالي بامتعاض:ياختي الأكل موصلش، هيقعدوا ساعتين يعملوا في شوية مكرونة وحواوشي؟
نعمة بخوف:لا يكون الراجل كله!
ليالي بضحك:ضحكتيني يا نعمة، ياكل إيه بس؟ ده يترفد فيها، يلا أدينا مستنيين.

بعدما شبعت "أم الديب"، وقد أطفأت نيران جوعها بما التهمت، راحت تفكر فيما يكمل لذتها. تاقت نفسها إلى شاي بالنعنع، راغبة في إغلاق هذه الوليمة العظيمة بختام يسر خاطرها. التفتت إلى العامل المقيد كفريسة عاجزة، وملامحها تفيض قسوة. نظرت إليه بعينيها الحادتين، ثم نطقت بصوت خشن:
_عاوزة أحبس!

تأوه عامل التوصيل بصوتٍ يختلط بالألم والقهر، وكل أمانيه أن يفر من هذا الكابوس الذي جره إليه هذا الطلب المشؤوم. غرق في ندمٍ كبير، وكأن خطاه التي قادته إلى هذا المنزل قد ساقت حتفه. فقد وجد نفسه في قبضة أفعى لا تعرف الرحمة، تنفث سمومها الحارقة في كل اتجاه. نظرت إليه "أم الديب" بعينين تضيقان بسخرية، وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة، وقالت:
_ايهي أوه إيه؟ جاك أوا.

ثم التفتت نحو الباب، وقد علت ملامحها سحابة من الغيظ، وكأن شيئًا لا يُرضيها على الإطلاق. أردفت بصوتٍ حاد كصفير الريح الغاضبة:
_بقى يا ليالي رايحة تطلبي كل دهو وسايبة حماتك، مهانش عليكي تجيبيلها أكل معاكي؟ ماهي لو أمك كان زمانك عاملالها وليمة، إيشي فراخ وإيشي بط وإيشي محاشي، لكن حماتك دهي كخة، يلا بألف هنا وشفا على قلبي.

دخلت "أم الديب" المطبخ بخطوات ثقيلة، تُعد الشاي كمن يتهيأ لمراسمٍ خاصة تُرضي مزاجها المتقلب. دقائق قليلة، وعادت تحمل كوب الشاي الدافئ، بخاره يتصاعد كأنفاسٍ تنذر بالسوء. تقدمت نحو عامل التوصيل الملقى على الأرض، وجلست قبالته بلا مبالاة بمعاناته. حدقت فيه بملامحها العابسة، وقطبت حاجبيها، وقالت بصوت يفيض بالامتعاض:
_عارف ياخويا؟ العرة اللي كنت موديلها الأكل عملت فيا إيه؟ مش هتصدق! من ساعة ما اتجوزت ابني وهي خاربة داره فلوس فلوس، أبوها سلامة اللي هو دباح الحمير، راجل عرة، أمال إنت فكرك إيه؟بيكرهني كره العما، وآني كمان بكرهه ولو أطول أدفنه صاحي هعملها! بقى الواد جلال ابني يقف في وشي عشان يتجوز بت دباح الحمير؟ طب دهو يرضي ربنا؟هي دهي ناس تتناسب ولا حد يتف في خلقتهم؟ ولا ياخويا أم أشرف مانت أصلك متعرفهاش! ولية كيادة وقليلة الأدب وشايفة نفسها... يا أرض اتهدي ما عليكي قدي، هي هتتهد أه بس من تقلها!

بينما كانت "ليالي" تنوي تبادل أطراف الحديث مع جارتها في الشارع، قررت الانتظار بالخارج حتى يصل طلبها. لكن، في طريقها، مرّت قرب شقة أم الديب، وهناك توقف الزمن للحظة عندما أبصرت عامل التوصيل مقيد اليدين والرجلين، وعلى فمه لاصق يكمم صرخاته. تملكها الذعر، فتقدمت بخطوات مُتسارعة، ودفعت باب الشقة دون تردد. اندفعت إلى الداخل كعاصفة، ونظرت إلى أم الديب بعينين تقدحان شررًا، ثم صرخت قائلة:

_يا لهوي يا لهوي، إيه اللي إنتي عاملاه ده؟

أم الديب بصياح:أوعي تقربيله يا بت لا أصوت وأقول لجلال إنه عشيقك وكان جاي يقابلك!

نهضت "أم الديب" بكوب الشاي في يدها، ترتشف منه بهدوءٍ مصطنع، وكأن الموقف لا يعنيها. رفعت حاجبيها بدهاء، ثم بدأت تفيض بأحاديث مختلقة، تلفق الأكاذيب عن ليالي بصوتٍ مملوء بالخبث:
_يا عيني عليك يا جلال مطحون في شغلك عشان تأكلهم وهي من تاني ناحية جايبة راجل غريب عندنا الدار.

لم تتمالك "ليالي" أعصابها أمام تلك الأكاذيب التي تلوح في الهواء كالدخان، فاندفعت بعنف، وقبضت على عنق أم الديب بأيدٍ مرتجفة من الغضب. تطلعت في عينيها، ثم نطقت بكلماتها كالرعد:
_مانا كمان ممكن أصوت وأقول للناس إنك جايبة عيل من سن عيالك وعلى علاقه بيه، ومش عاوزة أكمل وأقول حصل إيه وإيه!

عامل التوصيل بصدح مكتوم:أنا ذنبي إيه؟

أمسكت "أم الديب" ليالي من عنقها بكل قوة، ثم قلبتها على الأرض كأنها لا تملك رحمة، وجثمت فوقها، مغتاظة، وصوتها يملأ المنزل بالصراخ العنيف، قائلة:
_طب اعمليها كدهو يا بت الكلـ*! ده آني هفضحك وهقول للدنيا كلها إنك بتخوني ابني! وجايبة راجل غريب من وراه وهو في الشغل بيجري على أكل عيشه، وشوفي بقي هي حاجة من الإتنين: يإما هيقتلك ويغسل عاره بإيده، يإما هيطلقك وهتتجرصي في البلد كلها!

ليالي بصراخ:منك لله، اللهي ربنا ياخدك ويريحنا منك.
أم الديب ببغضاء:والنبي ما حد واخد عزاكي غيري!

نهضت "أم الديب" من فوق ليالي، مُفرغة شحنة غضبها، ثم تقدمت نحو نافذة الصالة، ففتحتها بعنف، ورفعت يديها الاثنتين للأعلى كأنها تستدعي قوىً غير مرئية. أطلقت صرخة عالية تملأ الحي، ثم قالت بنواحٍ يشوبه الكذب:
_يا لهوي مرات ابني صايعة يا خلق! بتخونه يا عالم! ابني غلبان ووقع في واحدة قليلة الأدب...يا لهوي!

عامل التوصيل بنبرة مكتومة:ربنا ياخدكم انتوا الإتنين.

فجأة، شعرت أم الديب بشدٍ قوي من وراءها، فاستدارت بسرعة لترى جلال، وملابسه ممزقة، وجروحه تغطي جسده كعلامات ألمٍ لا تُحتمل. نظرت إليه "ليالي" فصرخت بصوتٍ عالٍ، ثم ركضت نحوه، لتهوي في أحضانه وهي تنتحب بحرقة، دموعها تتساقط كأنها سيول لا تنتهي، وقالت:
_الحقني يا جلال، الحقني من أمك! أمك بتتبلى عليا ياخويا، والله ما عملت حاجة!
لكن حينما نظرت "ليالي" إليه بتركيز، اكتشفت أن ثيابه ممزقة، ووجهه وجسده مغطى بالجروح. ارتعدت من هول المنظر، وظنت أنه تعرض لحادث سير. صرخت بصوتٍ متعجبٍ وعاجزٍ، قائلة:
_إيه اللي قطع هدومك كده؟ مالك يا جلال؟ انطق!

جلال بسُخط:اطلعي فوق يا ليالي دلوقتي!
ليالي برهبة:مش قبل ما تقولي ياخويا!
جلال بصياح:اطلعي يا ليالي بقولك!

نظرت ليالي إلى "جلال" بلا كلمات، ثم أخذت نفسها بعمق، وركضت نحو شقتها، صاعدة الدرج بسرعة، دخلت غرفتها بأمرٍ من جلال، وأوصدت الباب خلفها وهي تنتحب بحرقة. في الجهة الأخرى، استخرج جلال سلاحه الفتاك من جيب بنطاله، وقام بتوجيه المطواة إلى وجه أم الديب التي ارتعدت من شدة الخرع.
في تلك اللحظة، نظرت إليه أم الديب بدهشة، بينما كان يحدق فيها بعينين تحترقان بالسخط، فقال:
_باعتة خالي يضرب أبويا وهو في السن ده ياما؟

أم الديب برهبة:ابعد المطوى عني يا ولا، متتهورش!
جلال بعجيج:هو إنتي إيه؟ أنا عاوز أفهم نوعك إيه ياما؟ مرة مفجرالنا أم الأنبوبة، ومرة ضاربة أبويا ومراته الجديدة ليلة دخلتهم، ومرة قاعدالنا فوق ليالي وهاتك يا ضرب فيها؟

ثم وجه "جلال" نظره نحو عامل التوصيل المربوط، وكان الخوف واضحًا في عينيه، نظراته تحمل في طياتها الكثير من الرعب، وكأن النهاية قد اقتربت منه في هذا المنزل المظلم. اقترب جلال منه، وعيناه تتسعان بدهشة ممزوجة بانزعاج، ثم نطق قائلًا:
_وإيه ده كمان ياما؟
خلع "جلال" اللاصق من فم عامل التوصيل بحركة سريعة، ثم نظر إليه بحدّة، وعيناه تشعان بالغضب. سأل العامل بصوتٍ قاطع:
_انت مين ياض ومين اللي عامل فيك كده؟

عامل التوصيل بألم:آه، الست دي هي اللي ربطتني! في واحدة من أهل البيت طلبت أكل ولما جيبته، الست دي قالتلي اطلع ولما طلعت عملت فيا زي مانت شايف كده!

فك جلال قيود "عامل التوصيل" بلُطف وساعده على النهوض، لكن العامل ارتجف قليلًا، وتردد قبل أن يتكلم. كان في قلبه شيءٌ من الخور، لكنه لم يقدر على كتمان رغبته. نظر إلى جلال بحذر، ثم قال بصوتٍ خافت وذليل، وهو يختار كلماته:
_أنا عاوز حساب الأكل!

جلال بحدة:أكل إيه ياض؟
عامل التوصيل بخور:الأكل اللي الست دي كلته!
أم الديب بجلبة:وانتوا كمان هتدفعونا؟
عامل التوصيل بدهشة:أمال يعني هتاكلي ببلاش؟
جلال بصخب:اتكل على الله وإياك يا معلم تيجي هنا تاني عشان متزعلش!
عامل التوصيل بتردد:بس أنا كده اللي هشيل الليلة!
جلال بصياح:اتكل على الله بقولك، لو عاوز تخرج سليم!

نظر العامل إلى "جلال" بخرع، ثم فزع وركض خارجًا من البيت، مُتنازلًا عن حقه في المال ليحافظ على سلامته. كان عازمًا على ألا يعود لهذا المكان مرة أخرى بعد الدرس القاسي الذي تلقاه. ركب دراجته النارية بسرعة وغادر دون أن يلتفت وراءه. تقدم جلال نحو والدته، وأمسك بها من ذراعها بعنف، وقال بصوتٍ يعج بالاحتقان:
_أنا عارف حلك إيه ياما، إنتي عاوزة تتحبسي عشان تحرمي!

أم الديب بنواح:هتحبس أمك يا جلال؟ أمك اللي ياما شالتك؟

جذب جلال أم الديب بقوة، ودفعها نحو المرحاض رغم مقاومتها وعنادها. كانت تحاول أن لا تدخل، لكن جلال دفعها بالإكراه، فأوصد الباب خلفها بينما هي تطرق الباب وتستغيث. ظل جلال يمسك بالباب بيديه، حتى استخرج دلاية المفاتيح من جيبه، وبدأ يبحث عن مفتاح المرحاض. بمجرد أن وجده، صك الباب عليها بالمفتاح، بينما كانت تصرخ من الداخل، تستنجد به أن يكف عن الانتقام بهذه الطريقة الوحشية. من داخل المرحاض، نطقت "أم الديب" بوعيدٍ ثقيل:
_افتح يا جلال، افتح يا ولا! افتح بدل ما أخلي أيامك طين إنت والعرة اللي متجوزهالنا! افتح وإلا هتندم يا جلال!

جلال ببُغض:معنديش أيها مشكلة ياما، أنا عاوز أربيكي! وآه أبقي افتحي شباك الحمام يدخلك ضوء أصل أنا هفصل كهربا الشقة.

فصل جلال كهرباء الشقة، فغرق المرحاض في الظلام، بينما كانت "أم الديب" محاصرة في هذا العذاب، دون أمل في النجاة أو اللجوء إلى أحد. كانت هذه طريقته في الانتقام منها، بطريقة قاسية قد تقود إلى ما هو أبعد من مجرد الألم، وربما تفتح أبواب الشرور. ومع حلول الليل، لن يكن أحد ليشعر بما يحدث داخل الشقة المظلمة. خرج جلال من الشقة وأوصد الباب خلفه، صاعدًا إلى شقته دون أن ينظر وراءه، تاركًا أم الديب في عذابها، وهي تطرق الباب بحشرجة، وتصرخ في يأسٍ:

_الدنيا هتليل وهتلبس يا خلق! الحمام هيبقى ضلمة! يا أم فاروق...يا أم محمد... يا جيران ياللي ورا!

صعدت "أم الديب" فوق قاعدة المرحاض محاولة أن تنادي الجيران من النافذة، لكن مع ثقل جسدها، انكسرت القاعدة تحتها، وسقطت على الأرض بقوة. ارتطم جسدها بالأرض، وألمٌ شديد اجتاحها، فبدأت تبكي بحرقة لا توصف، دموعها تنهمر كالشلال. قالت بصوتٍ مكسور، يتخلله النواح:

_يا عيني عليكي وعلى بختك في عيالك يا بسمة، بقى تحبسني في الحمام يا جلال؟ أصبر عليا أخرج بس والحرب هتشتغل!

لن يمر ما فعله جلال بحق والدته بسلام، فبمجرد أن تخرج أم الديب وتستعيد قواها، ستجعله يندم على فعلته، وستريه ما لم يكن ليصادفه طوال حياته، فالغضب الذي يختلج في قلبها لا يعرف الرحمة. عندما دخل جلال الشقة، جرت "ليالي" نحوه، واحتضنته بحنانٍ مشتاق، خوفًا عليه مما حدث، ورغبة في معرفة ما جرى. كانت عيونها مليئة بالقلق، وهي تقول بصوتٍ يرتجف:

_مالك ياخويا؟ جرالك إيه؟ قولي!

جلال بوصب:متخافيش يا بت، جهزيلي الحمام! هدخل آخدلي دش، وطلعيلي هدمة جديدة بدل اللي اتقطعت ولما أطلع هحكيلك على كل حاجة!

ليالي بصراخ:يا لهوي يا جلال، وأنا لسه هستني ياخويا لما تاخدلك دش وتلبس وتطلع؟ أنا على أعصابي مش قادرة أستحمل!

جلال بصياح:اسمعي اللي بقولك عليه، ومتتكلميش كتير!

ليالي بخَوَر:طيب.

دخل جلال إلى المرحاض ليغتسل من آثار يوم طويل ولصب، ففتح صنبور المياه وأغرق المرحاض بضوء الخرير. اقتلع ملابسه الممزقة والملطخة بالدماء، ورماها على الأرض بلا مبالاة، حيث سقطت قطرات الدم من جسده، لتروي قصة الشجار العنيف الذي دار بينه وبين خاله ضايع. مرر الصابون على جسده، يحاول أن يزيل آثار الصراع، لكن كل حركة كانت تذكره بالعنف الذي مر به، وبالدماء التي تلطخت بها يداه. في تلك الأثناء، كانت ليالي قد استخرجت له ثيابًا نظيفة، جهزتها فوق السرير، وجلست على الأريكة بفضول رهيب، تتساءل عما حدث في تلك الساعات الماضية، وبينما كان جلال يبتعد عن تلك الذكريات المؤلمة، كانت هي منشغلة في محاولاتها لفهم الموقف. أما جميلة، فقد كانت تظن أن أحمد في عمله، فتوجهت إلى

موقع القناة التلفزيونية. وعندما فتحت مكتبه، اكتشفت أنه لم يكن هناك. علمت على الفور أنه في مكان آخر بعيد عن هنا أو المنزل. وعندما كانت على وشك الخروج، صادفت "أحد أعضاء فريق الإعداد"، فمد يده لها بابتسامة، قائلًا:

_أهلًا بيكي يا جميلة، معقول خلاص هنبدأ شغل؟

جميلة بابتسامة:لا أنا مش جاية في شغل، هو أستاذ أحمد فين؟
المُعد ببشاشة:والله بصراحة مشوفتوش النهارده خالص، بس ليه؟
جميلة بتبسُّم:لا أصل فونه مقفول وأنا قلقت.
المُعد بحيرة:مش عارف بصراحة.
جميلة بقلق:طيب ممكن متعرفوش إن أنا جيت هنا لأن أنا عاملاله مفاجأة في البيت!
المُعد بود:خلاص مفيش أي مشاكل.
جميلة ببسمة:أوكي ميرسي.

خرجت "جميلة" من الموقع بسرعة، وعندما ركبت سيارتها، ألقت نظرة سريعة على الشارع فلاحظت أحمد وقد وصل إلى موقع القناة، لكن المفاجأة كانت عندما رآته نازلًا مع ميادة. قلبها قفز في صدرها، وعينيها ضاقت في تعبير من الصدمة. لم تستطع أن تصدق ما تراه، فتنفست بصعوبة، ثم انخفضت للأسفل من مقعد السيارة بحذر لتتجنب أن يراها أحد، وتبعتهم بعينيها بخوف، تراقبهم لحظة بلحظة حتى دخلا معًا إلى القناة. شعرت بقلق متزايد عندما تأكدت من وجودهما معًا. ظلت دقيقة داخل سيارتها، لا تعرف ماذا تفعل، هل تتابعهم أم تذهب؟ ثم قررت العودة إلى منزلها. دخلت شقتها وصكت الباب خلفها، وجدت نفسها جالسة في الصالة، عيونها ضبابية، وعقلها لا يهدأ. أمسكت برأسها بين يديها، ثم تساءلت بصوتٍ منخفض، تتنفس ببطء:

_معقول يكون اللي في دماغي صح؟ إيه اللي يجيبهم مع بعض أصلًا إلا لو في بينهم كلام؟ عشان كده متغير معايا، أنا بس مش عارفة أمسك دليل، ولو مسكت دليل واتأكدت بنسبة ١٠٠٪، إيه اللي ممكن يحصل؟ هننفصل صح؟ ولا هيداري الحقيقة حتى لو هي باينة؟ معقول يا جميلة تكون دي آخرتك بعد ما اتنازلتي عشانه؟ معقول؟

بدأ الشك يتسلل إلى أعماق جميلة بشكل متسارع، ومشاعرها تتناثر حولها كحبات الرمل في عاصفة. كانت تائهة بين الأسئلة، لا تدري ما الخطوة التالية التي يجب أن تتخذها لكشف الحقيقية المخبأة عن عينيها؟
شعرت وكأن وجودها قد أصبح غير ذي قيمة في حياة أحمد، فقد حلت مكانها ميادة، تلك التي لم تقدم له حتى ربع ما قدمته جميلة، ومع ذلك كانت تراه مغرمًا بها، بل يفضلها على غيرها. كانت أصابع جميلة ترتجف بشدة، وقلبها يخفق ونبضاته تشهد معركة داخلها. دخلت إلى غرفة فتياتها النائمات، وألقت عليهما نظرة حانية، ثم أغلقت الباب بهدوء، وذهب قلبها إلى مكان آخر، مليء بالاستياء. في تلك الأثناء، كان أحمد

وميادة قد استقرا في المكتب، حيث دخل أحد الموظفين حاملًا أوراقًا، طالبًا من أحمد توقيعه عليها. نظر أحمد إلى الأوراق دون أن يرفع عينيه عن الكتابة، وقال "الموظف" بحياد:
_عايز إمضاء حضرتك!

أحمد:تمام.

بعدما مضى أحمد على الأوراق، طلب "الموظف" منه التوقيع على ورقة أخرى، وأشار إليها قائلًا بنبرة رسمية:
_وهنا كمان!
بعدما وقع أحمد على الورقة، ابتسم "الموظف" ابتسامة خفيفة وقال:
_تمام يا أستاذ أحمد.

ثم تركهم الموظف وغادر، وأوصد الباب خلفه. نظرت "ميادة" إلى أحمد بنظرة رقيقة، ثم ابتسمت وقالت له بحذر، وهي تريه صور فساتين على هاتفها:
_كنت عايزة آخد رأيك في حاجة، أنا فرح بنت خالتي كمان أسبوع وبجد محتارة جدًا ألبس إيه، الإتنين أحلى من بعض!
كانت ميادة تتعامل مع أحمد وكأنه خطيبها أو زوجها، فتخطت كل الحدود الرسمية التي من الممكن أن تكون بينهما. العلاقة بينهما بدأت تتجاوز إطار العمل لتدخل في دائرة العشاق، حيث كانت نظراتها وتصرفاتها تشير إلى شيء أكثر من مجرد زمالة مهنية. نظر "أحمد" إلى الفساتين على هاتفها، وعيناه تعكسان إعجابًا لم يكن خفيًا. قال بانبهار:
=الإتنين أحلي من بعض فعلًا، بس أنا مبفهمش أوي في الكلام ده.

ميادة بدلال:بليز بقي حاول!

تمعن "أحمد" في الصور مطولًا، متأملًا كل تفصيل بعناية، حتى تأكد من الفستان الأنسب لميادة. ثم نظر إليها بابتسامة لطيفة وقال بلُطف:
_طيب حاضر، أنا متهيئلي التاني أحلى!

ميادة بدهشة:بجد؟
أحمد بابتسامة:أه ده احساسي يعني.
ميادة بضحك:أنا بقول كده برضة، ولا ده؟
أحمد بإصرار:لا لا اللي قولتلك عليه هيكون لايق عليكي جدًا.
ميادة ببسمة:ميرسي، بجد ذوقك حلو أوي.

أحمد بوداد:شكرًا يا ميادة، بس مش هيكون أحلى من ذوقك!
ميادة بلُطف:لا لا إنت ذوقك أحلى بكتير!
أحمد بابتسامة:ربنا يخليكي.

وضعت "ميادة" هاتفها على المكتب، غير مكترثة بالأعمال المتراكمة عليها في القناة. تركت عينيها تتأمل أحمد للحظة، مبتسمة بابتسامة غامضة، بينما كان الصمت يلف المكتب. ثم، دون سابق إنذار، سألته بتطفل وفضولٍ ملحوظ:
_هو إنت بتحب جميلة؟

أحمد بتردد:أه طبعًا.
ميادة بارتياب:بجد؟ ولا عشان هي مراتك فمينفعش تقول حاجة غير كده؟
أحمد باستياء:المشاكل دايمًا بتأثر على المشاعر، أو يمكن عدم الراحة اللي بقيت موجودة، أنا بحبها أكيد لإنها مراتي وأم بناتي ومينفعش أقول غير كده بس....
ميادة بمُقاطعة:بس إيه؟
أحمد بشجن:أنا عندي احتياجات كتير ومش لاقيها، إنتي فاهماني؟
ميادة بتفاهم:طبعًا فاهماك، بس الاحتياجات دي إيه؟
أحمد بشجب:مشاعر وحب واهتمام زيادة عن كده! أنا بقيت أحس كلمة "بحبك" جميلة بتقولها تقضية واجب عشان تراضيني وخلاص، بصي أنا بجد مشاعري كلها متلغبطة.

بدأت مشاعر أحمد تجاه جميلة في الاضمحلال بشكل تدريجي، فكلما مرت الأيام، بدأ يرى في علاقتهما شيئًا من الجمود، وأصبح لا يتذكرها بنفس النقاء والحيوية التي كانت تحيط بهما في البداية، كما لو أن تلك الأيام قد تلاشت مع مرور الوقت. كان يشعر بأنها، منذ ثمانية أعوام، كانت أكثر إشراقًا، كما لو أن كل شيء كان في مكانه، لكن مع مرور السنوات، وبعد أن أنجبت واهتمت أكثر بفتياتها، بدا وكأنها قد فقدت ذلك الرونق الذي كان يميزها. على الرغم من أنها كانت دائمًا تقدم له الدعم وتكون هناك من أجله، إلا أن أحمد بدأ يشعر بشيء من الملل، ذلك الملل الذي يسحب نفسه إلى أعماق قلبه، وهو يشعر أن الروتين والعادة قد استوليا على مشاعره، حتى وإن كانت جميلة في نظر الكثيرين فتاة أحلام الملايين من الرجال. وفي تلك اللحظة، بحركة جريئة ومفعمة بالثقة، شبكت "ميادة" يديها في يد أحمد، ولمساتها كانت تحمل بين طياتها مشاعر حب خفية لم تُصرح بها، لكنها كانت واضحة في عينيها، وقالت له بابتسامة مليئة بالغموض:
_أنا هساعدك!

أحمد بفضول:وانتي كان في حد في حياتك قبل كده؟

ميادة بتأثُر:كنت مخطوبة ومحصلش نصيب، ده حوار طويل هحكيهولك بعدين، المهم إنت بس!

ضحكت ميادة بصوت منخفض، ثم صمتت للحظة، بينما كان "أحمد" يراقبها بصمت. لم يستطع أن يمنع نفسه من الضحك أيضًا، فابتسم ابتسامة خفيفة قال بعدها:

_ماشي، نكمل كلامنا.

أحضرت أم الفار النجار ليصلح الباب الذي شطره ضايع نصفين، وكأنما فيل هو من كسره وليس بشريًا عاديًا. وقفت خلفه هي والمعلم حنفي، يراقبان عن كثب تصرفاته المهنية، غير مقتنعتين تمامًا أن هذا الباب يمكن إصلاحه كما كان. كان "النجار" يدرس الباب بدهشة، مُتأملًا التالف من كل زاوية، ثم قال بتردد:

_ده أنا مصلحلكم الباب ده مرتين قبل كده، هو إيه اللي بيحصله؟

أم الفار بقلق:بقولك إيه يا حاج! احنا عايزين نركب باب حديد برا! ماهو مش كل يومين ينطلنا البلطجي ضايع ويقسمهولنا نصين.

ثم حركت فمها حركة تنم عن السخرية وكأنها قاصدة بذلك القول أن زوجها ضعيف ولا يستطيع حمايتها من ضايع. نظرت للمعلم حنفي بابتسامة استهزاء، ثم قالت بصوت مشوب بالتهكم:

_ولا إيه يا حنفي؟

المعلم حنفي بشَدَه:أه.

النجار:طيب هاخد مقاسات الباب وهعملكم واحد!

أم الفار:وهيجي امتى؟

النجار:على الأسبوع الجاي إن شاء الله.

أم الفار برهبة:يا نهار مقندل! واحنا هنقعد أسبوع كامل من غير باب؟ أنا مش ضامنة! ما يمكن ضايع ده ينطلنا تاني! ده حتي الحاج حنفي صحته على القد ومش هيقدر عليه.

هزت شفتاها، ثم نظرت ناحية أخرى بسخرية، بينما كانت كلماتها تزداد حدة. فقال "المعلم حنفي" لأم الفار بعصبية وهو يحاول كبح سخطه:

_لا ميغركيش اللي حصل يا أم الفار! ده أنا جامد أوي وأعجبك!

أم الفار بازدراء:بأمارة عشة الفراخ اللي طارت من على السطح يا عينيا؟

المعلم حنفي بحُجة:الفراخ كانت محبوسة، وأنا قولت أسيبهم على راحتهم، دول روح برضة مهما كان.

بعدما انتهى النجار من إصلاح الباب، أخرجت "أم الفار" المال من حقيبتها وأعطته له بيدٍ مترددة، ثم قالت بنبرة جافة:

_خد، هتعملنا الباب امتى؟

النجار:هاخد مقاساته أهو.

استخرج "النجار" المتر بعناية، وأخذ مقاسات الباب المكسور، بينما كان المعلم حنفي وزوجته يراقبانه في صمت. وبعد خمس دقائق من أخذ التفاصيل، أعاد المتر إلى حقيبته، ثم نظر إليهما وقال وهو يتحرك نحو الخارج:
_طيب السلام عليكم.

المعلم حنفي:وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

دخل المعلم حنفي وأم الفار غرفة النوم فأوصد بابها، وجلس بجوارها على السرير. كانت أم الفار عبوسة الوجه، خافية مشاعر الغضب في وجدانها. شعرت وكأنها ألقت بنفسها في بركان من الندم عندما وافقت على الزواج من رجل ضعيف الشخصية، جبان، لا يعرف للشجاعة عنوانًا. بالنسبة لها، كان عنوانه الحقيقي هو الهروب من الأزمات، وكأن كل مواجهة تكون فرصة للهرب بعيدًا عن المسؤولية. شعرت بأنها هي الرجل في هذه العلاقة، وأن الأدوار قد تبدلت تمامًا بينهما. نظر "المعلم حنفي" إليها بدهشة، وعينيه تحاولان قراءة ما وراء تلك التجاعيد من الهموم في وجهها، فسأل:
_مالك يا أم الفار لاوية بوزك ليه؟

أم الفار باستشاطة:مش عاجبني الوضع اللي احنا فيه يا حاج! أنا أصلي فهمت ليه مراتك بسمة كانت هي راجل البيت، ماهو من اللي شايفاه.
المعلم حنفي بامتعاض:آني مسمحش!
أم الفار بسخرية:ولا تسمح؟ بُص يا حنفي لو عايزنا نعمر مع بعض يبقي تحط الكلمتين دول حلقة في ودنك! أنا أحب الراجل القوي الشديد، إنما الغلبان المخلع ماليش فيه.
المعلم حنفي بقلق:تقصدي إيه يا أم الفار بكلامك ده؟
أم الفار باستخفاف:إلعب رياضة يا حنفي ونزل الكرش ده! ربي عضلات ياخويا، عشان ضايع لما يطب علينا زي القضا المستعجل تعرف تاخد حقك منه تالت ومتلت!
المعلم حنفي بصدمة:رياضة إيه يا أم الفار؟ ده آني جد!

أم الفار بسخرية:وإيه يعني جد؟ هي الرياضة عملوها للشباب وبس؟ إلعب رياضة وخس، أنا مش عاجبني جسمك كده!
المعلم حنفي ببكاء:ربنا يسامحك.

أم الفار بامتهان:يوه، ده هيعيط! عارف يا حنفي أنا معيطش في حياتي غير مرة واحدة! ومش يوم موت أبويا، لا! كان يوم ما قطعت بصل في عزومة طليقي.
المعلم حنفي بصدمة:انتي تقصدي إنك مبتطبخيش؟
أم الفار ببسالة:لا مبطبخش، مش عاجبك ولا إيه؟
المعلم حنفي بخرع:لا عاجبني طبعًا.
أم الفار بعبوس:بحسب.

من الواضح أن المعلم حنفي قد اعتاد على الشخصية الضعيفة التي تبنى حوله، وكأن حياته قد مرّت في نفس الدائرة، متأثرة بالركود الدائم. فمن شب على شيء شاب عليه طوال حياته، وهو لم يتغير قط، حتى في لحظاته الأخيرة. أما بالنسبة لأم الفار، فقد اعتقدت أن أم الديب تمتلك شخصية متسلطة، مدفوعة بذلك الضعف الذي يتجلى في شخصية المعلم حنفي الذي يشبه الجدار المائل؛ من يتساند عليه يسقط به إلى هاوية من الكوارث. كانت تتمنى لو أن زوجها كان رجلًا مفتول العضلات، وقوي البنية، لكن حقيقة أنه أصبح عجوزًا، وساقاه قريبتان من قبره، جعلتها تدرك أنها لن ترى ما تأمل فيه أبدًا. في المقابل، بعدما استحم جلال وارتدى ثيابه النظيفة، خرج من غرفة النوم بهدوء، وجلَس بجوار ليالي. اقتربت منه "ليالي" بسرعة، وجثت في أحضانه، متشبثة به بقوة وكأنها تخشى أن يفلت منها في أي لحظة. كانت مشاعرها تجاهه لا تُوصف، فقد كانت تعشقه حبًا لا ينتهي، حبًا يجتاح قلبها ويغمر كل تفاصيل حياتها. قالت بلهجة يملؤها الاشتياق:
_أبوس إيدك يا جلال، ما تقرب ناحية خالك ده مرة تانية! أنا مش مستغنية عنك!

جلال برفض:يعني إيه يا بت؟ بقولك كان عاوز يضرب أبويا! ليه هو إنتي عاوزاني أستنى لحد ما أبويا يحصل عمي؟ يا بت، أبويا صحته علي قده! ده راجل كبير وضربة كده خبطة كده هيروح فيها!
ليالي بسخط:وهو خالك ده ماله بأبوك؟ ما يسيبه يتجوز اللي يتجوزها! هو ليه ملزق أمك فيه؟ هو مش من حق أبوك يعيش حياته برضة؟
جلال بتضايُق:خالي ضايع هو أساس أم الجوازة دي! لو خالي اتكل علي الله ومات، أمي هتتهد من ناحية أبويا، لكن هو اللي مقوي قلبها.
ليالي بشفقة:يا حول الله يارب، الله يكون في عونك يا حمايا، ويصرف أذاهم عن طريقك... المهم يا جلال، إنت كويس؟
جلال بهدوء:أه يا بت متخافيش!

تشبث جلال بيد ليالي بحُب جسيم، وقبلها قبلة مليئة بالشغف، ثم رفع نظره ليجد عينيها تحملان مزيجًا من الحب الكبير والخوف عليه. كان يشعر بأن قلبها ينبض فقط من أجل أن تحميه، وأنها هي الوحيدة التي تكترث لأمره في هذا العالم الذي يعج باللامبالاة. لحظاتٌ كانت كفيلة بأن تجعل "جلال" يدرك أن ليالي هي

سر قوته، رغم أن العالم من حوله لا يعيره أدنى اهتمام. وبينما كانت عينيه تلازمان عينيها، قال بصوت خافت مليء بالمشاعر:
_هو إنتي بتخافي عليا للدرجة دي يا ليالي؟

ليالي بحنان:قولتهالك وهفضل أقولهالك إن أنا بخاف عليك! ياخويا ده إنت أغلى واحد في حياتي بعد أبويا وأمي! هو أنا ليا غيرك بس؟ طب ده إنت لما بتغيب وبتروح شغلك مببقاش مرتاحة وحاسة إن في حاجة ناقصاني!
جلال بتعشُّق:بحبك.

انصدمت "ليالي" بتلك الكلمة المؤثرة التي لم تسمعها منه منذ سنوات، وكأنها عادت إلى لحظات سابقة مليئة بالحب والطمأنينة. تشبثت في عنقه بذراعيها، وهي تشعر بسعادة كبيرة تملأ قلبها، وكانت تفتقد لهذه المشاعر العميقة. وعينيها تلمعان من الفرح، قالت بلهجة ملآنة بالسعادة:
_ياه يا جلال مسمعتهاش منك من زمان أوي، قولها تاني والنبي!

جلال بغرام:بحبك يا ليالي.
ليالي بلذَّة:يا لهوي يآني، قولها كمان مرة!
جلال بتعجب:أللاه، ما خلاص يا بت، مالك زي الشبطة كده ليه؟
ليالي بهوى:ده أنا اللي بحبك أوي وبعشق التراب اللي إنت بتمشي عليه يا جلال!

قبلت ليالي جلال من وجنته برقة، فقبل هو رأسها بحُب وضمها لصدره بشغف، يعيشان لحظات من الرومانسية في عالم بعيد عن ضجيج الحياة اليومية وصخب الأطفال الذين كانوا في شقة نعمة. بعد لحظات، نهض جلال مع ليالي، ودخلا غرفة النوم، ليخلدا للنوم في هدوء بعيد عن كل ما مر بهما من أحداث كارثية. لكن فجأة، طرق الباب فاستفاق جلال ليخرج ويفتحه، ليجد "نعمة" تقف معوجة قليلًا، سيقانها تؤلمها ووجهها يحمل آثار لِسعات من الانفجار، وبنبرة قلق، قالت له:
_الحق يا جلال! أمك محبوسة في الحمام ومش مبطلة صويت، الجيران اتصلوا عليا ونزلت أخبط افتكرت إنها محبوسة!

جلال بندم:ياريتني ربطلها بوقها قبل ما أقفل عليها.
نعمة بنواح:يا لهوي هو إنت اللي عملت فيها كده يا جلال؟
جلال بشناعة:أه يا بت، ماهي تستاهل، مانتي أصلك متعرفيش هي هببت إيه!
نعمة بتوسل:أمي لا يا جلال، أحب على إيدك تروح تفكها، قصدي تفتحلها الباب!

جلال باعتراض:وربنا ما تحصل! أبويا كان هيحصل عمي بسببها، عارفة إيه اللي حصل يا بت؟ خالي ضايع راح لأبويا وكان هيموته، لولايا مسكت في خالك وإديته علقة محترمة، كان زمان أبويا ميت دلوقتي.

ليالي برفض:أسكتي يا نعمة مانتي أصلك مشوفتيهوش! ده كان راجع هدومه مقطعة وجسمه مليان خرابيش.
نعمة باستجداء:طب أمانة عليك تطلع أمك! هي خلاص زمانها عرفت غلطها!
جلال بقهقهة ساخرة:ده في المشمش يا نعمة، اطلعي يا بت شوفي شغل بيتك وسيبك من أمك!
نعمة بإلحاح:والنبي يا جلال والنبي، ألا هتتلبس ياخويا! ده الدنيا بتليل ومش هتشوف كف إيديها في الضلمة!
جلال بلا مُبالاة:يحصل اللي يحصل، مابقتش فارقة.
نعمة بإحباط:بقى كده يا جلال؟ طيب ماشي.

رفض جلال تمامًا أن يساعد أم الديب، فهو لا يستطيع أن يمد يد العون لها بعدما حبسها بنفسه، كيف له أن ينقذها وهو الذي يعاني من سلوكها القاسي؟ بل كان يرغب في أن يدفعها الثمن لما فعلته بحق والده الذي لم يرتكب خطأ سوى أنه كان يسعى لحياة هادئة. أراد التخلص من تلك الحياة التي قيدته، ويشعر بحاجة ملحة لبدء حياة جديدة مع امرأة تُشعره بالراحة، تزيل عنه هموم الأيام الطويلة. أما "نعمة"، فقد كانت حزينة جدًا على حال والدتها، ورغم الألم الذي كان يعتصر جسدها بسبب إصاباتها، نزلت ببطء على الدرج، تتعثر تارة، وتقف لتستعيد قوتها تارة أخرى، حتى وصلت إلى شقة والدتها. كان الجيران قد اتصلوا بها ليخبرونها عن والدتها المحبوسة في المرحاض، فرفعت صوتها بحزن، وقالت:
_ياما، إنتي محبوسة في الحمام بحق وحقيقي؟

أم الديب بصراخ:الحقيني يا نعمة، أخوكي حبسني!

لم تكمل نعمة حديثها حتى فوجئت بزوجها "حامد" صاعدًا على الدرج حاملًا كيسًا من الفاكهة. ضحك ضحكة عالية، حاملة معاني كثيرة من السخرية، ثم نظر إليها وقال بدهشة:
_إيه الصدفة دي يا نعومي؟

نعمة بهلع:تعالي والنبي يا حامد! أمي محبوسة في الحمام ومحدش فينا عارف يدخلها.
حامد بصدمة:ليه طيب؟ إيه اللي حصل؟
نعمة بتوجُّس:أبوس إيدك بس! نُط من المنور اطلع على المواسير وأدخل الشقة من الشباك!
حامد بارتداع:انتي مستغنية عني ولا إيه يا نعومي؟
نعمة بإلحاح:أحب على إيدك ورجلك، الدنيا بتليل يا حمو! أمي هتتلبس!

حامد بقهقهة:ليه؟ هي عباية؟

ربت حامد بيده على ساقه وهو يقهقه بصوت مرتفع، محولًا الموقف العسير إلى مشهد من الضحك المتواصل، غير مكترث بعواقبه، معترضًا بكل قوة على فكرة المجازفة بحياته من أجل إنقاذ أم الديب. كان خائفًا من أن يتعرض للسقوط من غرفة المنور، ليصاب بحادثٍ يجعله هو وزوجته مرضى راقدين في السرير، في وقت يحتاج فيه الجميع إلى القوة لا إلى المزيد من الأوجاع. بينما داخل الشقة، كانت أم الديب تصرخ صرخات متقطعة، وكأنها في صراع مع قوتٍ غير مرئية، حتى بدا وكأن الجان سوف يتسلل إلى جسدها.

يتبع....

الفصل الثاني والثلاثون

ازداد حامد قبحًا، حين تفنّن في السخرية من حماته التي تكابد مشقة الظرف القاسي. لكن "نعمة"، رغم ما يعتصر جسدها من أوجاع، لم تُسلّم لصمتٍ يُشبه الهزيمة. بل نهض صوتها كالصاعقة، صارخةً في وجهه بانفعالٍ يحمل كل مرارة الحنق:

_خلص بقولك! يلا!

حامد بتردد:طيب خدي كيس الفاكهة!

حملت نعمة كيس الفاكهة، متثاقلةً بخطواتها، بينما انحدر "حامد" على الدرج متجهًا نحو منور المنزل عبر الحظيرة الضيقة. وضعت نعمة الكيس على إحدى درجات السلالم ولحقت به. هناك، في قلب المنور، وقفا يحدقان نحو الأعلى. عيون حامد كانت تتفحص المسافة بدقة، يختبر إمكانية الوصول قبل أن يُقدم. لكنه، وقد عزم الأمر، توكل على الله. أمسك بمواسير الصرف بإصرار، وصعد بحذرٍ، كمن يتسلق الأمل. فجأةً، خانته قدمه فوق سطح مغطى بمادة بلاستيكية زلقة، فانزلق بطريقةٍ كادت تودي به، وصرخ بصياحٍ:

_بتزحلق يا نعمة!

نعمة بتشجيع:ياخويا نُط فوق وريحنا! خلاص هانت أهو!
حامد باستعداد:يا مسهل الحال يارب.

رغم سقوطه، لم يستسلم "حامد" لعجزه. قفز مرةً أخرى بعزيمة من يطارد المستحيل، متشبثًا بيديه بين الجدران الضيقة، وساقاه تتلمسان المواسير بإصرار. وحين بلغ حافة النافذة المطلة على الصالة، التي كانت يومًا غرفة هايدي، تشبث بها كالغريق الذي يعانق طوق النجاة. رفع نفسه بصعوبة، يكابد ألمًا يكاد يُسمع أنينه في الصمت المحيط. شيئًا فشيئًا، ارتفع حتى تسلل من النافذة وسقط منهكًا على أرضية الصالة، أنفاسه مضطربة وعيناه تبحثان عن هدفه. نهض متثاقلًا، واتجه نحو باب المرحاض حيث تقف أم الديب، وقال لها بنبرة مطمئنة، يخفي وراءها وجعه:

_متخافيش يا حماتي، لعله خير!

أم الديب بصراخ:لعله خير إيه يابن المعبوطة؟ آني محبوسة في الحمام وهتلبس يا خلق!
حامد:أصبري بس على رزقك!

انقضَّ حامد على باب المرحاض بعنفٍ، يوجه له ضرباته المدوية مرارًا، ولكن الباب صمد بعنادٍ في وجه محاولاته. في تلك الأثناء، كانت نعمة قد صعدت بخطواتٍ متسارعة، ووقفت أمام باب الشقة تطرقه بإلحاح. فتح لها حامد الباب، وملامحه متجهمة من خيبة المحاولة. نظرت "نعمة" حولها بعينٍ تبحث عن بارقة حل، وأخذت الأفكار تتراقص في ذهنها، حتى وجدت ضالتها. التفتت إليه وقالت بنبرة يملؤها الحرص:

_بقولك إيه! هات السكينة وافصل اللسان عن الباب!

أم الديب بنواح:الحقوني يا عالم!
نعمة بقلق:أصبري ياما، أدينا بنحاول أهو!

عاد حامد من المطبخ، يحمل سكينًا. استأنف محاولاته بشراسة، يضغط ويجرب، حتى انقضت ساعة كاملة من الجهد والإصرار. أخيرًا، انفتح الباب، ليخرج منه المشهد المروع: أم الديب، بعينيها المتقدتين كجمرتين، وبفمها ينفث دخان السخط. تحركت بخطواتٍ متثاقلة نحو الأريكة، حيث جلست في صمتٍ، ترتب الأفكار كمن يضع خطة حرب. كان صمتها يُرعب، فهو أشبه بالهدوء الذي يسبق زئير العاصفة. أما "نعمة" لمعت عيناها بشوقٍ خفيّ، وقالت بارتياحٍ:
_حمدالله على السلامة ياما!

حامد بابتسامة:طب إيه يا حماتي؟ مفيش كلمة شُكر طيب؟
أم الديب بتجهُّم:اطلعوا برا وسيبوني لواحدي!
نعمة بريبة:ماشي ياما اللي تشوفيه.

غادر حامد ونعمة الشقة، متجهين إلى شقتهما في الأعلى، وحامد يحمل كيس الفاكهة كما لو كان يحمل عبء يومه. دخل حامد المطبخ، وبدأ بغسل الفاكهة، متأهبًا لتقاسم لحظة هدوء مع زوجته والأطفال، بعيدًا عن زخم الأحداث. أما "أم الديب"، التي بقيت وحيدة في أسفل المعركة، كانت ملامحها تشتعل غضبًا، وأفكارها تفيض بالانتقام. جلست تحدق في الفراغ وكأنها ترسم سيناريوهات الغضب القادمة، ثم نطقت بصوتٍ ملؤه العدوان:
_ماشي يا جلال الكلب، ماشي!
على جلال أن يستعد لما تخبئه له أم الديب؛ فقد تمكن منها في المرة الماضية، لكن هذه المرة ستكون لها الكلمة العليا، بأسلوبها الملتوي الذي لا يعرف الهزيمة. انسحبت الشمس من الأفق، وأرخى الليل سدوله على العالم، ليُضفي على الكون سكونًا غريبًا. كانت جميلة جالسة على الأريكة، تحدق في اللاشيء، وظلت على هذا الحال حتى انتصف الليل. لم يغمض لها جفن، فانتقلت إلى السرير، وهاتفها بين يديها، تقلبه بلا اهتمام. فجأة، انفتح الباب بهدوء، ودخل أحمد، متأخرًا بشكلٍ غير مألوف. كانت المشاجرة بينهما قبل ساعات لذا تردد "أحمد" في الحديث معها، لكنها أجواءٌ لم يحتملها طويلًا، فقال بجفاء:
_مساء الخير.

جميلة بعُبوس:مساء النور، أحضرلك الأكل؟
أحمد بقُطُوب:لا أنا كلت برا، لو إنتي عايزة تاكلي كلي.
جميلة باستياء:أوكي، أخبار الشغل إيه؟

أحمد بتكشير:الحمدلله، سيليا وأسيل فين؟
جميلة بشجن:في أوضتهم.
أحمد:ماشي.

دخل أحمد غرفة الفتيات، حيث كانت سيليا متكئة على وسادة صغيرة، تحمل جهاز الأيباد وتشاهد رسومًا متحركة على منصة يوتيوب الأطفال، بينما أسيل تجلس فوق السرير، منهمكة في ترتيب عرائسها وهي تعيش في عالمها الصغير. اقترب أحمد بخطواته الهادئة، وطبع قُبَلًا دافئة على رؤوس صغيرتيه. ما إن شعرت "سيليا" بحضوره، حتى ألقت جهازها جانبًا وانغمست في حضنه، ترفع وجهها نحوه بملامح مفعمة بالشوق، قائلة بنبرة حانية:
_بابي وحشتني!

أحمد بحنين:وانتي كمان يا حبيبتي، عاملة إيه؟
سيليا بشوق:كويسة، إنت ليه يا بابي مش بتقعد معانا زي زمان؟
أحمد بابتسامة:شغل والله يا سيليا، بس هعوضك متقلقيش!
سيليا بسرور:أوكي.

خرج أحمد من غرفة الفتيات بخطواتٍ مثقلة بتعب اليوم، متجهًا نحو المرحاض ليغتسل ويغسل عن نفسه أعباء النهار. دخل وصك الباب خلفه، ثم وقف تحت المنضحة، حيث بدأ الماء يتساقط بغزارة، محدثًا ضجةً شقت سكون الشقة. في الخارج، اقتربت "جميلة" بخطواتٍ خجولة من باب المرحاض، توقفت قبالته، وطرقت عليه برقةٍ تكاد لا تُسمع. بصوتٍ لطيف لا يخلو من الحذر، سألته بهدوء:
_حبيبي، محتاج أي حاجة؟

أحمد برفض:لا شكرًا يا جميلة.

بعد أن سمعت جميلة صوت الماء المتدفق من الشاور، علمت أنه دخل في لحظته الخاصة. انطلقت نحو موبايله بحذر، تتسلل بأصابعها بين الأزرار، حتى تمكنت بصعوبة من فتحه. دخلت إلى تطبيق الواتساب، لكن سرعان ما تبين لها أنه لا شيء يثير الريبة. وبينما كانت تفكر في الخطوة التالية، قررت أن تفتح حسابه على موبايلها، مدفوعة بشكوكٍ عميقة. وبعد أن تفحصت كل شيء، وجدت ما كانت تبحث عنه، ثم أغلقت كل شيء بسرعة وكأن شيئًا لم يحدث. حيث عادت إلى السرير، وجلست هادئة، لكن بداخلها كانت الأفكار تتصارع. بعد لحظات، دخلت "سيليا" إلى الغرفة، وقد بدت عليها دلالات الجوع، فاقتربت بخجل، وقالت بصوتٍ منخفض:
_مامي ممكن تعمليلي الـ Dinner بتاعي؟

جميلة بحنان:الأكل جاهز يا حبيبتي، تعالي معايا!

ذهبت جميلة مع سيليا إلى المطبخ، حيث كانت الأجواء تعجّ بروائح الطعام الشهية. استخرجت لها المعكرونة بالجمبري والصوص الأبيض، وعناية الأم واضحة في كل خطوة، حتى وضعت الطبق أمام سيليا على الطاولة. جلست "سيليا"، وبدأت تأكل بتلذذ، وكأن كل قضمة تحمل طعمًا من الحنان، مُندهشة من براعة والدتها في صنع الطعام. رفعت رأسها بابتسامة مليئة بالإعجاب، وقالت بفرح:
_واو الأكل تحفة!

جميلة بحنو:Enjoy Your Meal يا حبيبتي.

جلست جميلة على الأريكة، وقد امتصت الراحة من لحظات هادئة بعد يوم طويل. أمسكَت بهاتفها وتصفحت ما فيه، حتى تلقت إشعارًا جديدًا على تطبيق واتساب أحمد، فكان المُرسل "ميادة"، التي أرسلت له رسالة مشبعة بالشوق، تحمل كلماتها بين السطور كما لو كانت تبحث عن شيء مفقود في قلبه. قرأت جميلة الرسالة، التي كانت تقول:
_وحشتني!

انصدمت جميلة بشدة مما رأت عيناها، فقد كان وقع الصدمة أقوى من أي شيء توقعته. كيف يمكن للأمور بينهما أن تنحدر إلى هذه الدرجة الحقيرة من تبادل المشاعر؟ وهو متزوج ولديه طفلتان، أليست تلك روابط عائلية مقدسة؟ تأكدت تمامًا من خيانته لها، وبدأ قلبها ينبض بتأكيدات مشاعرها التي كانت قد زرعت الشكوك منذ البداية. لم يكن إحساسها عبثًا، بل كان نابعًا من فطرة سليمة. استمرت "ميادة" في إرسال الرسائل النصية لأحمد، وكأن كلماتها تتناثر كأشواك في قلب جميلة، حتى أضافت في رسالتها التالية:
_بقى لسه سايق وموصلتش البيت؟ يا ترى روحت فين؟

بعد خمسة عشر دقيقة من الضغط العصبي الذي كاد يفتك بروح جميلة، وهي تحاول تمالك نفسها وسط زوبعة من المشاعر المتناقضة، خرج "أحمد" أخيرًا من المرحاض، وقد أخذ قسطه من الراحة تحت الدش، وأحاط جسده بالمنشفة التي تلتف حوله كما لو كانت تحجب الحقيقة عن نظره. دخل غرفة النوم، وأغلق الباب وراءه بتكتم، ثم جلس على السرير يفتش في هاتفه، يترقب وصول رسائل ميادة. ما إن فتح الإنترنت حتى تأكد من شعوره العميق، فارتسمت الابتسامة على وجهه، وكأن كل شيء قد وقع في مكانه، وبنغمة اشتياق متبادل، كتب لها قائلًا:
_يا سلام؟ لا لا أنا كنت في الحمام باخد شاور، أنا وصلت من بدري.

ميادة بابتسامة:أه طبعًا، اصل أنا اتعودت عليك وارتاحتلك جدًا.

أحمد بمحبة:هتصدقيني لو قولتلك إن أنا كمان ارتاحتلك جدًا، وحسيت إن في ما بينا حاجات مشتركة كتير؟ يكفي بس التفاهم اللي ما بينا!
ميادة بإعزاز:علشان احنا شبه بعض، ودي حاجة كويسة جدًا.
أحمد بسعادة:طبعًا، أنا مبسوط أوي!
ميادة بدهشة:ليه؟

عندما رأت جميلة تلك الكلمات، لم تستطع تحمل الصدمة أكثر. تكسرت أعصابها تمامًا، فأمسكت بهاتفها بسرعة، وصوّرت المحادثة بين أحمد وميادة، عازمة على أن تكون هذه دليلًا قويًا ضد خيانته لها. ثم هرعت مُسرعة إلى شقة هايدي، قلبها يعتصره الألم. عند وصولها، كان زياد جالسًا في الصالة أمام شاشة التلفاز، بينما كانت هايدي هي من فتحت الباب. وما إن دخلت جميلة حتى انهارت في حضنها، تتناثر دموعها بغزارة، وهي تبكي بهستيريا، وكل ألم العالم قد تجمّع في قلبها. كانت مجروحة في أعماقها، من خيانة زوجها أحمد الذي وثقت به. نظرت "هايدي" إليها وقالت:
_جميلة! جميلة مالك؟ مالك يا حبيبتي في إيه؟طمنيني طيب!

جميلة ببكاء:اللي كنت خايفة منه حصل يا هايدي! حصل والله، أنا مش قادرة أصدق اللي أنا شايفاه بعينيا!

نهض زياد بسرعة، وهو يحاول فهم ما حدث، مستشعرًا حجم القلق. دخلت جميلة إلى الداخل، وأغلقت هايدي الباب خلفها، وكان وجهها يعكس رهبة من معرفة المجهول، وقد أصبح كل شيء مشوشًا في ذهنها. أمسكت جميلة بهاتفها، ومدت به إلى هايدي، وهي تلوح به كدليل دامغ على خيانة أحمد. رأى "زياد" الصمت الذي ملأ المنزل، فاقترب، ووجهه يعكس القلق العميق، وقال بصوتٍ خافت:
_مالك يا جميلة في إيه؟ في إيه يا جماعة؟ حد يفهمني!
عندما رأت هايدي المحادثة بين أحمد وميادة، لم تستطع أن تُخفي صدمتها. كان وقع الكلمات عليها كالصاعقة، فركت عينيها وكأنها تحاول تصديق ما تراه. بسرعة، أخذت يد جميلة، وسحبتها إلى الغرفة، حيث أغلقوا الباب خلفهم ليتمكنوا من الحديث بحرية بعيدًا عن فضول زياد. وقف زياد في الخارج، يحاول أن يلتقط أي صوت أو همسة، لكنه كان غارقًا في الحيرة. كان لا يفهم ما يحدث، ولم يعرف بعد ما الذي يخبئه له الوضع. وقف مستندًا على الجدار، يحاول الاستماع بدقة إلى أي شيء قد يكشف له الحقيقة. قال "زياد" لنفسه بدهشة، وهو يحاول فك اللغز:
_في إيه؟ أنا مش فاهم حاجة!

هايدي بصدمة:يا نهار أسود، يا نهار أسود، أحمد أخويا أنا؟ ازاي طيب؟ إنتي متأكدة يا جميلة؟

جذبت جميلة الهاتف من يد هايدي، وعينيها مليئة بالدموع التي تكاد تنهمر، ثم فتحت بروفايل الواتساب الخاص بأحمد لتثبت لها أنها لم تكن مجرد أوهام، بل كانت خيانة حقيقية. ظهرت صورة أحمد على الشاشة، وجعلت كل شيء أكثر وضوحًا أمام هايدي، التي كانت لا تزال في حالة من الصدمة. بينما كانت "جميلة" تدمع بشدة، قالت بصوت مبحوح يملؤه الألم:

_صورته أهي! ورقمه، أنا مش مصدقة يا هايدي حاسة إن أنا بحلم! ده... ده كل الناس قالتلي إنتي كتير عليه!ياريت بعد كل ده يقدر قيمتك، ده أنا بيعت الدنيا كلها عشانه واخترته هو! وفي الآخر يعرف واحدة عليا؟

هايدي بهاجس:أنا مش قادرة أصدق! أخويا أنا يطلع منه كل ده؟ازاي؟ طب هو ناقصه إيه؟ متجوز واحدة زي القمر من مستوى حلو أوي، وتعليم عالي... مذيعة وكل الناس بتحبك، وبتخلفي ومعندكيش أي مشاكل! جيبتيله بنتين زي القمر، ذكية وفيكي كل الصفات الحلوة، ازاي؟ وشاف فيها إيه زيادة عنك؟
جميلة بنحيب:عرفتي، لما كنت بقولك إنه متغير معايا بقاله فترة مكنش عشان أنا مهملة في البيت زي ما بيقول! وكان عشان يعرف واحدة عليا؟ أنا قصرت معاه في إيه يا هايدي؟ قوليلي قصرت في إيه؟
هايدي بحزن:اهدي يا جميلة! يمكن نزوة وهتعدي، يمكن يفوق لنفسه ويعرف إنه غلطان في اللي بيعمله ده!
جميلة باستياء:لا لا لا أوعي تقولي الكلمة دي تاني! دي مش نزوة! هو شاف فيها حاجات أحسن مني لدرجة إنه رماني وراحلها هي! أنا شكلي هيبقي إيه قصاد بابي ومامي وأخواتي بعد ما وقفت قصادهم عشانه؟ هيقولولي إيه؟ هيقولولي ده اختيارك انتي! أخوكي خلى شكلي وحش أوي قصاد نفسي قبل الناس!
هايدي بمُواساة:اهدي طيب! لو الموضوع ده قدرنا نوصل فيه لحل ساعتها أنا هقف في وشه! أنا عمري ما آجي على حد! أنا بحب العدل وكلمة الحق سيف علي رقبتي! متبينلوش أي حاجة يا جميلة لحد ما نقدر نتصرف! علشان خاطري تماسكي شوية عن كده وبلاش تاخدي أي قرار تندمي عليه بعدين!

تأكدت هايدي أن شكوك جميلة لم تكن عبثًا، بل كانت استشعارًا حقيقيًا لما كان يحدث. كل مشاعرها كانت واقعية، حتى وصل إليها الدليل القاطع، ووجّه قلبها السؤالات العميقة عن أخيها الذي خان ثقة زوجته.
جميلة، التي هي نموذج لكل ما يتمنى الرجل أن يجد في شريكته، كيف يمكن لشخص يمتلك نعمة مثلها أن يرفضها ويقسو عليها؟ كان عقلها مقتنعًا بما يحدث، لكن قلبها كان يشك في أنها ربما تكون مجرد كابوس عابر. استمرت جميلة في الحديث مع هايدي لساعات، تتناثر دموعها وهي تبث آلامها، حتى تمكنت أخيرًا من مسح دموعها وتهدئة نفسها. اتفقت هايدي معها على أن تعود إلى شقتها وتحاول أن تسيطر على مشاعرها. دخلت جميلة الغرفة بخطوات بطيئة، وهي تخشى أن تواجه أحمد، وتجنبته بأعينها حتى لا ترى سوى أوجاع قلبها. وعندما نظرت إليه، كان نائمًا في سبات عميق، مما زاد من حدة شعورها بالخذلان. في تلك اللحظة، وضعت الوسادة بينهما وكأنها جدار يفصل بين العالمين. بينما في صباح اليوم التالي، مع طلوع الشمس في تمام الساعة العاشرة، جاء خبر لأم الديب أن سعاد، أختها، تعاني من الأنفلونزا. قررت أن تصطحب نعمة معها لزيارة سعاد. كانت خطواتهما ثقيلة، والتعرجات في سيرهما تذكّرهما بالحادث الذي

وقع في الحي، خصوصًا أن جيرانهما أم عمر وأم خالد اختفوا بعد ذلك الحادث. وبينما كانتا تسيران بجوار الترعة، نظرت "نعمة" إلى والدتها وقالت:
_يا حول الله يارب، طب مخدتش إبرة ليه تنزلها الحرارة؟

أم الديب:آني لاقيتها مكتومة كاتمة الكحك بقالها مدة، وجاني خبر تعبها... خالتك سعاد عمرها ما تعبت، طول عمرها زي الحصان، الله يباركلها يارب.
نعمة بسخرية:بعد ده كله والله يباركلها؟ ده احنا شوية وهنسمعهم بينادوا عليها.
أم الديب بصياح:ليه يا بت؟ قصدك إن آني عيني صفرا ولا حسادة؟
نعمة بخوف:لا ياما مش القصد، هي لسه بتخزن مِش عندها ولا خلص؟

أم الديب بفخر:أمال؟ دهي عندها مِش وجبنة قديمة ولبن رايب وفطير فلاحي وقشطة ومورتة وسمنة وزبدة و....
نعمة بتضجُّر:خلاص ياما!
أم الديب بفضول:وانتي عاوزة منها إيه يا منيلة؟
نعمة:الجبنة اللي عندنا خلصت ياما، عاوزة أجيب غيرها، أصل حمو بيعشق الطماطم بالجبنة القديمة، ده كل يوم يضربله تلات أطباق.
أم الديب بشُح:دهو مفجوع وطفس يا بت! ومع ذلك ولا يبان عليه.
نعمة بتضايُق:بالهنا والشفا على قلبه ياما.

أم الديب بسخرية:ياختي هو آني يعني هكرهله الخير؟ آه يا ركبي آه، مابقتش قادرة أمشي يا نعمة، أقفي يا بت شوفيلنا توكتوك ولا أي نصيبة! ولا أقولك عم إبراهيم جاي بالعربية الكارو! احنا نركب وراه لحد دار خالتك.

كان الجار عم إبراهيم يسير بعربة الحمار، جالسًا فوقها، يوجه حماره بحركة يديه كما يشاء، متبعًا المسار المعتاد. وعندما اقترب منهما، لاحظت "أم الديب" وجوده، فالتفتت نحوه بابتسامة ودودة على وجهها، ابتسامة كانت تحمل في طياتها نية كاذبة من أجل مصلحتها فقط، لا غير. ثم قالت له بنبرة حانية:
_ازيك يا عم إبراهيم، عامل إيه؟

عم إبراهيم بحفاوة:يا ألف مرحب، رايحين فين الساعة دي؟
أم الديب بابتسامة:خدنا في طريقك ياخويا، أصلنا رايحين للحاجة سعاد.
عم إبراهيم ببشاشة:طب اركبوا، آني رايح نواحيها.
نعمة بسعادة:بختنا حلو ياما.
أم الديب بسرور:أمال إيه؟

ركبت أم الديب ونعمة مع عم إبراهيم في عربة حماره، حيث سار بهما بين الأراضي الزراعية، بينما كانت الرياح العليلة تنعش الأجواء حولهم. وكان الطريق هادئًا، يتخلله صوت خفيف لحوافر الحمار وأصوات الطيور في السماء. وبينما كانت أم الديب وابنتها تستمتعان بالمنظر الريفي، كان "عم إبراهيم" يحاول إضافة لمسة من الأحاديث ليمر الوقت بسهولة، فقال بلُطف:
_عيالك عاملين إيه يا حاجة أم الديب؟

أم الديب بقلق:كويسين يا حاج، ركز في طريقك بس!
عم إبراهيم باكتراث:والحاج حنفي؟
نعمة بتبسم:أبويا كويس يا عم الحاج.
عم إبراهيم بوداد:ربنا يديه الصحة.
نعمة بتمني:يارب.

عبر عم إبراهيم بهما عن غير قصد فوق قضبان السكة الحديدية بدلًا من التوجه مباشرة إلى منزل سعاد. بدا وكأن الحمار قد ملّ من معاملة عم إبراهيم له، أو ربما كانت تلك لحظة مصيره المحتوم. فجأة، شعر وكأن الموت يقترب، فقرر بكل غريزة حيوانية أن يتحمل النهاية، ليختار تلك اللحظة ليقف مكانه بشكل مفاجئ. شبكت العربة في القضبان، وحاول "عم إبراهيم" أن يصرخ في الحمار ليحركه، لكن ذلك الأخير تمسمر في مكانه أكثر من السابق. تزايدت نبضات قلبه بينما كان القطار يقترب بسرعة. نظر حوله بخوف، ثم صاح برهبة، وصوته يرتجف:
_إيه اللي حصل؟ لا إله إلا الله.

أم الديب:على مهلك ياخويا!

نزل عم إبراهيم بسرعة ليفحص العربة التي كانت عالقة في القضبان، يربطها الحمار الذي تمسّك بمكانه وكأنه يرفض الخروج من المصيدة. كان القطار يقترب بسرعة، وصوت صفيره يعلو من بعيد، ليصبح علامة على اقترابه الوشيك. حاول عم إبراهيم أن يسحب حماره بكل قوته، لكن ذلك كان دون جدوى، فقد كان الحمار ثابتًا في مكانه، وكأن الموت قد حلّ في عينيه. بينما كانت "أم الديب" تمسك بذراع نعمة، تقيدها دون قصد عن الفرار، ارتجف قلبها من الخوف وراحت تكبت دموعها، تتمنى أن تتجاوز اللحظة المميتة، قائلة:
_أسترها علينا يارب.

عم إبراهيم بصراخ:اتحرك يلعن أمك، اتحرك!

كان الجار عم إبراهيم يحاول بكل ما في طاقته أن يحرر الحمار من العربة التي كانت عالقة في القضبان، لكن القطار كان على بعد ثلاثون مترًا فقط، وكان الوقت يمر بسرعة، بينما لم يكن هناك أي فرصة للفرار. إذا اقترب القطار أكثر، كان سيصطدم بهم جميعًا، مع الحمار المقيد في العربة، مما يعني موتًا محققًا بطريقة بشعة. مع اقتراب القطار بشكل مرعب، تزايد صوت صفيره وأصبح القلق يزداد، فركض عم إبراهيم مبتعدًا عن الحمار، يائسًا من تحريكه. ترك الحمار خلفه، وكان القطار يقترب بسرعة شديدة، بينما كانت نعمة تصرخ بأعلى صوتها، وهي تلطم وجهها في حالة من الهلع. حاولت أم الديب أن تتمسك بها بكل قوتها، لكن بثقل جسدها ووزنها الزائد كانت تعاني من النزول، ومع ذلك لم تترك يد نعمة. قالت "نعمة" بنواحٍ عالي:

_يا لهوي القطر ياما! القطر ياما يا لهوي، انزلي بسرعة!

أم الديب بهدوء:متخافيش يا بت!

نعمة بصخب:يا لهوي، انزلي بسرعة ياما، انزلي!

كلما حاولت نعمة النزول، كانت أم الديب تجذبها مرة أخرى بقوة، وهي لا تستطيع أن تفلت منها. كانت نعمة تصفع وجهها بشدة، لدرجة أن حجابها انحلّ بسبب كثرة اللطم. وفي النهاية، حينما نزلت أم الديب بصعوبة، حاولت نعمة أن تشدّها للخارج بأقصى ما في قوتها، لكن أم الديب كانت تشدها إلى الداخل في كل مرة، كما لو كانت تصارع لاحتجازها. في تلك اللحظة العصيبة، تلفظت "نعمة" بصراخ عالي جدًا:

_يا لهوي!

فجأة، وبينما كانت اللحظة على وشك النهاية، جرى الجميع بعيدًا في سرعة جنونية. وفي تلك اللحظة، جاء الجار ومعه رجال آخرون، وقد تمكنوا من سحب عربة الحمار بسرعة هائلة بعيدًا عن القضبان. وفيما كانت الأرض ترتجف من قوة مرور القطار، مرّ القطار بسرعة هائلة بجانبهم، مما جعل نعمة تنقضّ على الأرض، عيونا ملأى بالدموع، تتناثر منها كلمات الذعر. عبرت اللحظة، لكن "نعمة" كانت لا تزال في حالة من الفوضى النفسية، مغمورة بمشاعر الرعب، وهي تصرخ بصوتٍ هيستيري، قائلة بصراخ مدوٍ:

_كنا هنموت بسببك ياما... آه.

أم الديب بصياح:قومي يا بت الكلـ*!

نعمة بنواح:آه يا قلبي آه.

الحمد لله، نجا الجميع بفضل الله أولًا، ثم بفضل جهود الرجال الذين تدخلوا في اللحظة الأخيرة. اجتمع الرجال حول نعمة وهي لا تزال تصرخ، مغمورة بالهلع، وكان وجهها شاحبًا من شدة الخوف. رفعوها برفق إلى الأعلى محاولة تهدئتها، ثم سألها "أحدهم" بقلق، وقد ظهر على وجهه الخوف على حالتها:

_انتي كويسة؟

نعمة بصراخ:دي معجزة والله، معجزة!

أحضر الرجال المشروبات لأم الديب ونعمة من أقرب كشك، وأصرّوا على إجبار نعمة على شربها، حتى يروي لسانها الذي جفّ من الذعر الذي تعرضت له. كانت تشعر وكأن أعصابها قد تجمدت تمامًا من شدة ما مرّت به. جلست على الرصيف، بجانب أم الديب، تسحب أنفاسها بصعوبة، وتنزع دموعها واحدة تلو الأخرى. الأيام الأخيرة كانت كابوسًا، وكانت تعيش لحظات عسيرة لم تفارق ذهنها. أما جميلة، فقد كان الليل طويلًا عليها، عجزت عن النوم بسهولة بسبب أوجاع قلبها، كانت تستيقظ وتنام في دوامة من الأفكار والآلام. وعندما ذهب أحمد إلى عمله، كانت جميلة تتابع تحركاته عن طريق الواتساب، ولا تفوت لحظة من تفاصيل حياته، علمت أنه سيتوجه إلى المطعم للقاء ميادة. وفي المطعم، حيث كان أحمد وميادة يجلسان قبالة بعضهما البعض على الطاولة، وأمامهما قائمة الطعام، يختاران بعناية ما سيطلبونه، لم تفوت "ميادة" فرصة أن تنظر إليه بابتسامة مليئة بالثقة، ثم قالت له بنبرة دافئة:
_عامل إيه دلوقتي، أحسن صح؟

أحمد بارتياح:ياه بكتير، وكله بفضلك! لولاكي كان زماني زي مانا مفيش حاجة اتغيرت.
ميادة بتمني:يارب دايمًا بخير.
أحمد بمُغازلة:أنا اللي مستغربه ازاي واحدة زيك خطوبتها مكملتش! اللي زي ده إنسان غبي، يبقي معاه واحدة فيها كل المواصفات دي ويسيبها؟ طب والله أنا لو كنت مكانه ما كنت عملت كده!
ميادة بغرام:ده نفس اللي بيحصل معاك، وإنها مش عارفة قيمتك ولا مقدراها، هي عايزة إيه أكتر من كده؟ عايزاك تبقى ملياردير زي باباها؟ معقول اللي هو كونه في أربعين سنة هتيجي إنت في يومين وتعمله؟ دي حاجة غريبة أوي.

أحمد باتفاق:فعلًا، جميلة معندهاش رضا، مبتحمدش ربنا على اللي عندها، ودايمًا عايزة أحسن حاجة حتى لو على حساب راحتي.
ميادة:غلطانة أوي! ده إنت لو معاك ألف جنيه بس بالمواصفات القمر دي، المفروض تمسك فيك بإيديها وسنانها، بجد مستغرباها جدًا.
أحمد:أنا مابقاش يفرق معايا غير إن أنا وصلت للمستوى اللي كان نفسي أوصله من زمان، دي أهم حاجة.
ميادة بإحراج:هسألك سؤال وبكل صراحة، هو إنت اتجوزتها عشان تعلي من مستواك المادي؟
أحمد باستنكار:هو مش بالظبط! هو أنا أعجبت بيها أه، بس كل إنسان برضة لازم يدور على مصلحته، معتقدش إن أنا لو مكنتش اتجوزتها كنت هوصل للمستوى ده في يوم من الأيام.

لم يكن أحمد يعلم أن جميلة كانت خلفه، قد جاءت على غير موعد، تتبع خطواته بهدوء، وتستمع لكل كلمة دارت بينه وبين ميادة. كانت في حالة نفسية محطمة، تبدو غير مهندمة هذه المرة، كأنما الأيام الماضية قد أخذت منها كل شيء. اقتلعت نظارتها الشمسية من على عينيها، ليتكشف أمامه وجهها المتورم من شدة البكاء طوال الليل. كانت عيونها حمراء، مليئة بالدموع. لحظة صمت شديدة خيمت على المكان، ثم قالت "جميلة" بصوت يكاد يخرج من بين أنفاسها المكسورة:
_آه، وإيه كمان؟

نهض "أحمد" بسرعة، مفاجأً بتواجد جميلة أمامه، فيما ظلت ميادة جالسة بلا مبالاة، وكأنها لم تعنِ لها تلك اللحظة شيئًا. تمسّك أحمد بمكانه، عاجزًا عن العثور على الكلمات التي يمكن أن تصف ما يشعر به، وتملكه الارتباك من هذا التواجد غير المتوقع. نظر إلى جميلة بعينين مليئتين بالحيرة، ثم قال باضطراب:
=جميلة إنتي إيه جابك هنا؟

جميلة بفظاظة:جيت أكتشف حقيقتك!
أحمد بحدة:إيه يا جميلة اللي بتقوليه ده؟ حقيقة إيه بس؟
ميادة بلا مُبالاة:هاي يا جميلة، أخبارك إيه؟

نظرت "جميلة" إليها، ولم ترد على سؤالها، فلا تستطيع أن تجد ما يعبر عن الألم الذي يخالج قلبها. ثم، وكأنها تجمّعت فيها كل مشاعر الخذلان، وواصلت حديثها معه، تعاتبه بحسرة، قائلة:
_أنا... أنا كنت مجرد جواز مصلحة؟ عشان بس توصل لأحلامك؟ أنا مش مصدقة اللي أنا شايفاه بعينيا ده! ليه تخليني شكلي وحش أوي كده؟ وعلشان إيه؟

أحمد بخجل:انتي فاهمه غلط يا جميلة، في سوء تفاهم!
جميلة بصياح:سوء تفاهم بعد اللي أنا شايفاه بعينيا؟ أنا مصدومة فيك! قصرت معاك في إيه عشان تعمل كده؟ زيادة عني في إيه؟ إيه اللي لقيته فيها زيادة عني؟ أنا بجد مش قادرة أصدق إن الشخص اللي حبيته واختارته عن كل الناس في الآخر يكسرني كده، ويخلي شكلي وحش!

كانت المواجهة عسيرة جدًا، وكانت "جميلة" تشعر بأن قلبها يكاد ينفجر من شدة الألم. وجهت نظرها إلى ميادة، التي كانت لا تزال تنظر في قائمة الطعام بلا مبالاة، وكأنها لم تفعل شيئًا، والأمور كلها تسير كما ينبغي. في تلك اللحظة، تجمد الزمن بالنسبة لجميلة، ثم، قالت لها بقسوة:
_وانتي! ارتاحتي كده صح؟ ارتاحتي لما وصلتي للي إنتي عايزاه؟ يارب تكوني مبسوطة دلوقتي!
نظرت جميلة لهما باشمئزاز، قلبها يمتلئ بالغضب والألم، ثم غادرت المكان دون أن تود الاستماع إلى أي كلمة من أحمد. خرجت مسرعة نحو سيارتها، والدموع تتساقط من عينيها كما لو أن قلبها قد تحطم إلى قطع صغيرة. كانت تسير بسرعة، تبكي بقهر على ما آلت إليه الأمور. أما أحمد، فحمل هاتفه والمفاتيح من على

الطاولة وركض خلفها بسرعة، محاولة اللحاق بها قبل أن تبتعد. كان قلبه مثقلًا بالذنب، ولكنه لم يعرف كيف يواجهها أو ماذا يقول. أما "ميادة"، فقد جلست هناك، لا تأبه بما يحدث، ثم قالت باستهزاء، وهي تحاول أن تبدو غير مهتمة بما يجري:
_واحنا عملنا إيه يعني لكل ده؟ مش فاهمة بصراحة.

أحمد:جميلة...جميلة...يا جميلة إنتي فاهمة غلط! أنا معملتش حاجة! احنا كنا قاعدين قاعدة شغل ومفيش حاجة ما بينا! صدقيني احنا زمايل شغل مش أكتر!

وقفت "جميلة" قبالة سيارتها، يداها ترتجفان بشكل واضح، وقلبها مشتعل بالشجن. استخرجت هاتفها وفتحته على المحادثات السرية بين أحمد وميادة، التي كانت تسجل خيانتهم بوضوح. نظرت إلى الشاشة لبرهة وهي تبحث عن المزيد من الجروح التي ستؤذي قلبها، ثم فجأة صاحت بصراخ عالي يلتفت له المارة في الشارع:
_منظرك إيه دلوقتي؟ شكلك بقى حقير! بتخوني مع دي؟ وأنا أقول متغير معايا أوي كده ليه؟ طلع عشان في واحدة تانية! مصدومة فيك بجد، ليه كده؟ ليه؟

صوب أحمد نظره في الأرض، عجز عن الرد على كلماتها التي كالسكاكين التي غرست في قلبه. كانت جميلة قد فقدت قدرتها على التحمل، فتركته ورحلت بسرعة، صاعدة إلى سيارتها، بينما ركض هو خلفها بسيارته. لم يفوت الفرصة ليثبت لها الحقيقة، محاولًا الوصول إليها. كانت جميلة تقود سيارتها بسرعة هستيرية، وكأنها تهرب من كل شيء، والطريق قد أصبح ساحة لسباق نفسي بينهما. كانت سيارتها تكاد تصطدم بكل شيء في طريقها، بينما أحمد كان يحاول أن يوازيها، يلاحقها بنظراته من النافذة، وعندما وصلوا إلى المنزل، توقفت جميلة فجأة، ونزلت منهارة من سيارتها، تحمل ثقل العالم على كتفيها. أما "أحمد"، فقد نزل مُسرعًا، يجري خلفها، يناديها، ومصير قلبه في يديه. أمسك بها من يدها، عينيه مليئتين بالندم، وقال بصوت مكسور:
_يا جميلة افهميني...طب هفهمك... استني طيب! يا جميلة!
حينما دخلوا الشقة واغلقوا الباب وراءهم، اشتعلت المشكلة بشكل أكبر مما كان يتوقعه أحمد، وكانت جميلة في حالة انهيار عصبي. صرخاتها كانت تملأ الأرجاء، فهي تصرخ في وجه العالم بأسره، مسترجعة كل ما فعلته من أجله طوال السنوات الماضية، وفي النهاية كان جزاؤها الخيانة. لم تستطع تحمل الألم، فأصابها انهيار كامل، وجعلت صرخاتها ترتد في الحي كله. في تلك اللحظة، كانت "هايدي" في شقتها عندما سمعت صراخ جميلة ركضت نحو شقتهم بسرعة، خوفًا عليها. وصلت إلى الباب، وفتح أحمد لها، فدخلت مُسرعة إلى غرفة النوم حيث كانت جميلة تنهار. نظرت إليها بوجه مفزوع، وعيناها مليئة بالقلق، وقالت بسرعة:
_في إيه يا أحمد؟ جميلة مالها؟

جميلة بدويّ:بعد ما وقفت في وش أهلي كلهم عشانه! واتنازلت عن حقوقي! وجيت علي نفسي، وكان شكلي دايمًا زفت قصادهم بسببه! في النهايه يخوني يا هايدي بعد كل حاجة عملتها يا هايدي.

ثم واصلت بنواحٍ عالي جدًا، وكان صوتها يغمر الغرفة. تخبطت صدر أحمد بيدها، وعيناها مملوءة بالدموع، وعبرت عن الألم الذي يعصر قلبها، قبل أن تصرخ في وجهه بكل قسوة، قائلة:
_أنا عايزة أتطلق! طلقني، طلقني بقولك!

هايدي بخرع:يا نهار أسود، إنت عملت إيه؟

جذبت "هايدي" أخاها من ثيابه، عيونها مُتسعة من الصدمة، فلم تصدق ما سمعته، وكان العتاب يتسلل إلى صوتها، وهي لا تستطيع التحكم في مشاعرها الممزقة. وبعجيج لافح يحيطها، قالت له بلهجة مليئة بالعتاب الأليم:
_عملت إيه؟ انطق!

أحمد بتلعثم:أنا مش... أنا معملتش حاجة، قوليلها حاجة يا هايدي! متسكتيش كده!
هايدي بصياح:يخربيتك، إيه القرف اللي إنت هببته ده؟

ثم توجهت نحو جميلة، واحتضنتها بشدة، محاولة أن تمنحها بعض الأمان وسط هذه العاصفة العاطفية. كان جسدها مرتجفًا من شدة الصدمة، وسألتها برعب، وهي تود أن تتأكد مما يحدث:
_إيه اللي حصل يا جميلة؟

جميلة بإعوال:عايزة أطلق، أنا عايزة أطلق! اتصليلي بمامي! اتصلي يا هايدي بقى، متقفيش كده!

كانت "جميلة" في حالة صعبة للغاية، وكأن قلبها أصبح مكسورًا إلى قطع صغيرة. كلما اقترب منها أحمد، كانت تدفعه بعيدًا، معترضة أن يقترب منها بعد أن خانها. وهي تعول وتبكي بألم عارم، قالت بصوت متهدج، يملؤه الحزن:
_ابعد، متقربش! فاهم؟

ثم استدارت في الغرفة، عيونها تتنقل في كل مكان بحثًا عن هاتفها، وهي تبحث عن مخرج من هذا الجحيم الذي أوقعها فيه أحمد. كانت كلماتها تخرج بصعوبة، ولكن صوتها كان مليئًا بالإصرار على إنهاء هذه المعاناة، وهي تصرخ بكل ما في قلبها، قائلة:
_موبايلي فين؟ راح فين؟

في تلك اللحظات كانت جميلة تعيش أسوأ كابوس في حياتها؛ كانت تراقب حياتها تتفكك أمام عينيها كأنها شظايا مرآةٍ مكسورة. خيانة أحمد ليست مجرد خطأ عابر، بل كانت طعنةً غائرة في قلبها، طعنة جمّدت دماءها في عروقها وأحرقت روحها بصمتٍ قاتل. لم تصدق في البداية، ظنت أن ما رأته ربما كان وهمًا، لكنها حين واجهته بشكوكها، انكشفت الحقائق التي كانت تختبئ خلف حجاب الثقة الذي طالما اعتقدت أنه لا يهتز. كان أحمد قد أوقع نفسه في علاقة سرية، تتعارض مع كل القيم التي ظنت جميلة أنه يؤمن بها. تهاوت معها تلك الأحلام الصغيرة التي نسجتها من محبته، فتحتار كيف لشخصٍ قضت معه سنين العمر أن يغيّر وجهه ويغدر بهذه القسوة؟ بينما كانت هايدي تراقب بعينٍ متوقدةٍ، لم تستطع أن تحجب مشاعرها الحانقة، هي أيضًا تشعر بخيبةٍ تجاه أخيها الذي تراه في صورة لم تكن تتخيلها يومًا. مع وصول أم قمر الدين وزوجها وسامية، اشتدت حدة الصراخ. المشهد لم يكن سوى فوضى يملؤها النواح والخزي والصدمة، فكل منهم كان يبحث عن تفسير لهذه الخيانة التي قلبت حياتهم رأسًا على عقب، وألقت بظلالها الثقيلة على تلك اللحظات التي كانت جميلة تحاول فيها فقط أن تتماسك، حيث قالت "هايدي" لأحمد بصياح:

_حرام عليك يا أخي، إنت إيه؟ معندكش إحساس ولا دم؟ إنت نسيت هي اتنازلت عشانك كام مرة؟ ورضيت بفقرنا اللي مفيش واحدة ترضى بيه! إنت لو كنت لفيت الكرة الأرضية مكنتش هتعرف تتجوز واحدة زيها! من الواضح إنك نسيت نفسك.

أحمد بصياح:يا شيخة خليكي محضر خير! إنتي بتولعي الدنيا زيادة بدل ما تقولي كلمتين حلوين!
هايدي بجلبة:وهو بعد اللي إنت هببته ده في حاجة نافعة؟ الدنيا خربت خلاص، دي خيانة يا بابا مش حاجة بسيطة! فاهم يعني إيه؟

لا يجد "باسم الهواري" حلًا سوى الانفصال، فكل شيء قد انهار قباله، فلا مكان للمساومة بعد أن خذله أحمد بكل هذه الخيانة. حبه الذي قدمه لابنته، أصبح الآن شبحًا يطارده، وتبدو الأمور أكثر تعقيدًا من أن تحتمل المزيد من التهاون. لن يقف مكتوف اليدين أمام هذا الانكسار، بل سيتفاقم الأمر بشكل لا يتوقعه أحد. فكل ما أُعطي بالحب سيسلب بالإكراه، رغمًا عن الجميع، ليعود إلى نقطة الصفر.

يتبع...

الفصل الثالث والثلاثون

في تلك اللحظة، كانت العاصفة على وشك أن تنفجر داخل جدران المنزل. مع دخول أم قمر الدين، وباسم، وسامية إلى الشقة، كانت وجوههم مُتجهمة تحمل أثقال التوجس، باحثين عن جميلة التي طالما ظنوا أنها تعيش حياة هادئة مُطمئنة. توجهوا إلى الغرفة التي كانت هايدي تشير إليها، وحين دخلوا، وجدوا جميلة مُحطمة تمامًا، مُنهارة كليًا، حاملة في صدرها جبالًا من الألم. ما إن رأت جميلة وجه والدتها، حتى انهارت أكثر، وارتمت بين ذراعيها، محملةً إياها عبء الخذلان الذي لم تجرؤ على البوح به من قبل. كان مشهدها وهي تلتصق بأمها مؤلمًا لكل من في الغرفة، وصرخاتها العالية تروي تفاصيل الخيانة التي مزقت عالمها وأطاحت بأمانها، وبينما تحاول والدتها تهدئتها، كانت كلمات جميلة تكشف عن صدمةٍ لم يتخيل أحدٌ حدوثها. أما باسم، فقد وقف مشدوهًا قبال حجم الكارثة التي ألقت بظلالها على العائلة بأكملها. لم يتقبل أن تتعرض ابنته، التي حماها طيلة حياتها، لخيانةٍ بهذا الشكل من الرجل الذي اعتقدوا أنه سيحفظها ويصونها. حين استمع لكلماتها عن الخيانة وما رأته من أدلة دامغة، اشتعل في داخله سخط الأب الذي لا يحتمل المساس بكرامة ابنته. بينما كانت سامية تعبر عن امتعاضها هي الأخرى، غادر باسم الغرفة غاضبًا، وتوجه نحو أحمد، ليواجهه بالحقيقة. بينما أحمد يقف أمامه بعينين مطأطئتين، كمن يعلم أنه لا مفر من مواجهة الحقيقة التي كشف عنها الستار.

حيث قال "باسم" لأحمد بحدة:

_الكلام اللي حصل ده بجد؟

أحمد بخجل:في سوء تفاهم ما بينا يا عمي.

باسم بحدة:وإيه هو الصح لما ده سوء تفاهم؟

أحمد بتلجلج:أنا وميادة زمايل شغل مش أكتر وجميلة لما شافتنا مع بعض افتكرت إن بينا حاجة.

باسم بصياح:والمسدجات اللي شافتها ما بينكم دي إيه؟

أطرق أحمد برأسه إلى الأرض، وكأنها صارت ملاذًا يُخفي فيه ما يعتريه، ولم ينطق بحرف. عندها انبرى "باسم" صارخًا، وهو يردف:

_يبقى الكلام ده حصل ومش سوء تفاهم ولا حاجة زي ما بتقول! أنا بعد ما وافقت عليك كنت بعتبرك زي ابني وشيلت الفروقات ما بينا وقولت خلاص ده أمر واقع ومبقاش ينفع نغيره، خصوصًا إن بقى في أولاد، والإنفصال أمر مش هين في الحالة اللي زي دي! بنتي وقفت في وشنا عشانك وكانت هتموت نفسها عشانك، وفي النهاية تخونها مع واحدة جربوعة جاية من الشارع؟ أنا بنتي كانت طول عمرها هانم! اتربيت في قصور، مكنتش بتشيل أي حاجة، الخدم اللي عندنا هما اللي كانوا بيقوموا بخدمتنا كلنا! جميلة لما كانت بتروح جامعتها كانت بتروح في عربية مرسيدس بالسواق بتاعها! وطول عمرها متفوقة في دراستها وحياتها، اتقدملها بدل التلاتين مية، وكانت بترفض دكاترة ومهندسين وظباط ورجال أعمال، ولما حبيت أكرم جوز بنتي اللي أنا اعتبرته ابني، أول ما فتحت القناة عينتك مديرها، ومستخسرتش فيك أي حاجة، لكن تيجي هنا وتقف! جميلة بنتي اتخانت واتكسرت كرامتها! وأكتر حاجة توجع الست الخيانة!

لما تثق في واحد وفي الآخر يخون ثقتها فيه، واللي يوجع أكتر إنها تكون عملت عشانه كل حاجة وفي الآخر متقدرتش ولا اتحفظت كرامتها! إنت مرفود من القناة إنت والست هانم اللي خونت بنتي عشانها!

أحمد بانكسار:طيب ممكن حضرتك تد....
باسم بفَصم:ولا كلمة! أنا بنتي خط أحمر، واللي يجي عليها يستحمل اللي هيجراله!

خرجت "أم قمر الدين" من الغرفة بخطى مثقلة، وعلى وجهها الحزن الذي يحكي قصصًا من الألم. التفت إلى أحمد بعينين تغمرهما العتاب، قائلة بصوت تختنق فيه العبرة:
_ليه كده يا أحمد؟ ده إنت أكتر واحد في أجواز بناتي كنت بحبه! جميلة عملتلك إيه وحش عشان توجعها بالشكل ده؟

باسم بجلبة:العتاب محبة، وأنا مش عايزك تعاتبي حد ولا تتكلمي معاه! خلاص الموضوع انتهى!
أم قمر الدين بحسرة:يا خسارة.

لم يخطر ببال أم قمر الدين أن ينحدر أحمد إلى هذا الدرك من الخِسَّة، فيبيع ابنتها التي ألقت الدنيا بأسرها خلف ظهرها لأجله، لتُختم بذلك قصة علاقتهما بخاتمة مأساوية. غير أن باسم كان حاسمًا، فلم يمنح العتاب مجالًا، ووقف بملامح صارمة كأنه صخرة لا تهتز، مُعلنًا بلهجة قاطعة أن أحمد مرفود من عمله، ولا نصيب له بعد اليوم في القناة، عقابًا على خيانته لجميلة. بعد دقائق معدودات، خرجت جميلة من غرفة النوم وهي تجر حقيبتها ذات العجلات التي اكتظت بثيابها، وخلفها سامية تحمل أسيل، وفي المؤخرة سيليا بخطى وئيدة. غادر الجميع الشقة، لكن "أحمد"، وقد أدرك فداحة ما اقترفت يداه، هرع نحو جميلة وهو ينتحب بحرقة، متوسلًا بصوت يرتجف ندمًا:
_يا جميلة استني، متمشيش! أنا مش عارف أقولك إيه غير إنك متمشيش!

لم تُعِر جميلة توسلات أحمد أي اهتمام، ومضت في صمتٍ. اصطحبتها أسرتها هي والفتيات، وركبوا السيارة، عائدين إلى القصر الذي شهد نشأتها وأحاطها بحبٍ لا ينضب. هناك، بين أحضان أهلها، تعود جميلة إلى موطنها الحقيقي، إلى من يصونون كرامتها ولا يطأونها أبدًا، متكفلين بكل شؤونها كأنها لم تعرف يومًا زواجًا أو إنجابًا. بعد رحيلهم، ارتمى أحمد على الأريكة، تتقاذفه أفكار الجنون والندم، بينما "هايدي" بجواره تنتحب بمرارة، تصرخ فيه بغضبٍ:
_ارتاحت كده؟ خربت بيتك بسبب القرف اللي عملته!وأديك اترفدت من الشركة وخسرت مراتك وشغلك، قولي هتعمل إيه دلوقتي؟ ولسه بقى لما ماما تعرف دي هتطين عيشتك وهتخلي أيامك سودة!

أحمد بصياح:أسكتي بقى يا هايدي! أسكتي مش وقتك قولت!

هايدي بصراخ:انت مش أخويا! وإن مصلحتش غلطتك دي ورجعت جميلة البيت تاني أنا هقطع علاقتي بيك للأبد!

اندفعت هايدي بانفعال كمن تفرّ من طوفانٍ عاصف، تاركة شقة أخيها، لتدخل شقتها وتغلق الباب خلفها بعنفٍ، وهي تريد أن تقطع كل خيط يربطها بذلك الخلاف المؤلم. شعورها بالخسارة كان جارفًا؛ فقد فقدت جميلة، التي لن تسامحها أبدًا على ما حدث، ولن تصغي إليها بعد أن تبددت صورة أحمد في عينيها، من الزوج الوفي إلى الخائن الذي ركض وراء أهوائه. في الجهة الأخرى، كان أحمد يصرخ كمن فقد عقله، يضرب الجدار بيديه بقوة، والألم الجسدي يُطفئ شيئًا من نيران ندمه. عيناه لم تفارق صورة زفافه مع جميلة المعلقة على الحائط، تلك الذكرى التي تحولت إلى شبح يطارده. أما هايدي، فجلست في شقتها تبكي بمرارة، حتى لم تجد مهربًا من عذاباتها إلا بالاتصال بزياد، الذي كان منشغلًا في عمله. بينما في مكانٍ آخر، بعدما أنهت أم الديب زيارة أختها سعاد برفقة نعمة، عادتا محملتين بالخيرات التي تحمل رائحة الريف: الفطير المشلتت، والجبن الطازج، والقشطة الغنية، والرقاق الفلاحي، وغيرها من النعم التي تفوح منها رائحة البساطة. وأثناء سيرهما بخطواتٍ متثاقلة من ثقل الأحمال، إذا بـ "جلال" يمر بسيارته التمناية. توقف فجأة، وقد علت وجهه علامات الدهشة، وهمس لنفسه بصدمة:

_يا لهوي هي أمي خرجت؟ خرجت ازاي بس؟

ثم مال برأسه خارج نافذة السيارة، وصاح بأعلى صوته:

_يا نعمة...كنتوا فين الساعة دي؟

التفتت نعمة وأم الديب نحوه، وقد أثقل التعب خطواتهما، فتقدمتا نحو نافذة السيارة. قالت "نعمة" بصوت يقطعه الإنهاك، والكلمات تتساقط منها بصعوبة:

=كنا عند خالتك سعاد، أصلها تعبانة.

جلال بصدمة:عندها إيه؟

نعمة بتأوه:عندها سخونية، ماتاخدنا في طريقك احنا معانا شيل!

جلال بقلق:اركبوا!

تقدمت أم الديب لتحتل المقعد الأمامي بجوار جلال، تاركة نعمة تتكدس مع الأكياس في المقعد الخلفي. تحرك "جلال" بالسيارة وهو يشعر بتيار من القلق يتسرب إلى قلبه، فالنظرات الغامضة التي كانت ترسلها أم الديب نحوه بين الفينة والأخرى أشبه بسحب سوداء تنذر بعاصفة قادمة. تملكه الريبة، فالتفت نحوها بحذر، وعيناه تمتلئان بالخوف، وقال بصوت متردد يخفي قلقه:

_ازيك ياما؟

أم الديب بمكر:زينة.

جلال بفضول:أمال إيه اللي معاكوا ده يا نعمة؟
نعمة:دول شوية قُرص فلاحي على فطير وجبنة وقشطة.
جلال باشتهاء:ابقي اعملي حسابي معاكي في فطيرتين!
نعمة بإكرام:من عينيا، ده إنت تؤمر ياخويا.
جلال بوداد:الله يخليكي.

بينما كان جلال يقود السيارة، راحت "أم الديب" تلتفت يمينًا ويسارًا كأنها تبحث عن شيء غير مرئي. فجأة، انقضت على عنقه بكل قوتها، مُحكمة قبضتها عليه. كانت تجز على أسنانها، تشتد بكل عضلاتها على عنقه، بينما بدأت السيارة تتأرجح على الطريق في فوضى مُرعبة. جلال، الذي بدأ يفتقد القدرة على التركيز، كان همه الوحيد أن تتركه والدته ليلتقط أنفاسه. نظرت إليه بعينيها المملوءتين بالقسوة وقالت:
_بتحبسني في الحمام يابن الكلـ*؟ عاوزني أتلبس؟ ده آني هطين عيشتك!

خلعت أم الديب نعلها في لحظة ساخطة، وضربت رأس جلال بكل قوتها، ثم، كالعاصفة، عادت لتخنقه من عنقه مرة أخرى بينما هو يقود السيارة، غير مكترث بكل شيء سوى محاولاته اليائسة للهروب من قبضتها. قد بلغ بجلال التعب والاختناق مبلغه، صرخ بأعلى صوته، بينما كانت نعمة تعول أيضًا بقوة، تحاول بشدة أن تزيح يد والدتها عن عنقه، يائسة من إنقاذه مما هو فيه، حيث قال "جلال" بألم:
_أوعي ياما...آه!

نعمة بنواح:لا ياما والنبي!
أم الديب بغلاظة:ماهي العقربة بت الحمير هي اللي مقوياك عليا، وبتلعب في دماغك، وبتكرهك فيا!
جلال بصراخ:وسعي ياما، هنعمل حادثة، وسعي!
أم الديب بغيظ:والنعمة مآني سايباك!

أزاد جلال من سرعة السيارة حتى أصبح يسرع بها كأنما يحاول الهروب من قدره، لدرجة أن الطريق اختفى أمامهم، وكأنهم على متن صاروخ ينفجر في السماء. تركت أم الديب عنقه أخيرًا، ظلت تصرخ بشدة، فيما نعمة كانت تلطم وتعول هي الأخرى، وكل منهم غارق في رعبه. أما جلال، غير مبالٍ بما حوله، اندفع بين الطرق والحقول الزراعية كالمجنون. صفعت "أم الديب" وجهها بكل قوة، تعبيرًا عن فزعها الذي كاد يفتك بها، ثم ناحت بصوت مملوء بالخرع:
_يا خرابي، أقف يا ولا!

أم الديب بنواح:هنموت يا نعمة!

حينما تجد أم الديب نفسها في مأزق لا مفر منه، لا تجد سبيلًا إلا أن تُطلق الزغاريد، كأنها بذلك تُجبر نفسها على مواجهة المصير. ارتدت زغاريدها في السيارة وكأنها صرخات متلاحقة في وجه الشر، بينما كانت ما تزال مختبئة في أسفل المقعد، عيناها مغلقتان خوفًا من رؤية الطريق عبر النافذة. في تلك اللحظة، وضعت "نعمة" يدها على كتف جلال، وصوتها يعلو بالنواح، تنبعث من قلبها كل مشاعر الخوف، وقالت:
_لا يا جلال أبوس إيدك! هدي السرعة يا جلال والنبي!

جلال بسخط:مش إنتي عاوزة تخنقيني ياما؟ وربنا لألففك حوالين نفسك، أصبري بس!
أم الديب بذعر:يا لهوتي!

انزلقت أم الديب تحت الكرسي أكثر من المرة الأولى، حتى احتجزت تمامًا. بينما جلال يواصل قيادة السيارة بسرعة جنونية، يتجاوز المطبات وكأنهم في رحلة جحيمية، حتى كادت رؤوسهم تتهدد من شدة الاصطدام بالسقف. السيارة تتأرجح يمينًا ويسارًا كما لو أنهم عصابة هاربة من مطاردة الشرطة. كل هذا كان جلال يفعله بنية أن يلقن أم الديب درسًا قاسيًا، ليعرفها ألا تجرؤ على إيذائه مرة أخرى. لكن "نعمة" تشبثت بذراع جلال، وهي تتوسل إليه بكل خوف أن يبطئ من سرعته قبل أن يودي بهم إلى حادث لا مفر منه، وقالت بذعر:
_يا جلال أبوس إيدك أنا عندي عيال غلابة مستنيني! أبوس إيدك عاوزة أربيهم!

جلال باحتقان:يا نعيش عيشة فُل يا نموت احنا الكل.
أم الديب بنواح:موت لواحدك يابن الكلـ*، آني عاوزة أعيش يا عالم، يا لهوي!

بعد عشر دقائق من السرعة الجنونية، توقفت السيارة أمام المنزل بلا مبالاة، ففتحت نعمة وأم الديب الباب بأيدٍ ترتجف بشدة، ونزلتا منهما وهما ترتعشان، تتخبطان في بعضهما البعض، مصابتين بدوار شديد ورغبة ملحة في التقيؤ، وسيقانهما ترتعش كأنهما في حالة ضعف تام، حتى اصطدمتا ببعضهما وسقطتا على الأرض. خرج "المعلم حنفي" من غرفة النوم، ليجد جمالات جالسة على الكرسي، تدخن السيجارة وساقها مرفوعة على الأخرى، فجلس على الكرسي المقابل لها، نظراته تحمل دهشة، ثم سأل مستفسرًا:
_هو إنتي متعودة على كده يا أم الفار؟

أم الفار بتبجُّح:أمال؟ مانا أصلي مزاجي ميتعدلش غير بالسيجارة دي! تاخدلك سحبة؟
المعلم حنفي بحياء:آني مبشربش غير شيشة، ماليش في السجاير.
أم الفار بدهشة:غريبة دي! اللي بيشرب شيشة يشرب سجاير عادي.
المعلم حنفي باستياء:ما بقولك يا أم الفار، ما بلاش الجو ده! هو آني سايب الولية اللي هناك عشان آجي ألاقيكي كده؟
أم الفار بغُرور:كده ازاي يا عينيا؟

المعلم حنفي بتضايُّق:أهو كده وخلاص.
أم الفار باستهزاء:أما قولي يا حنفي، مش ناوي تنزل دكانك بدل مانت قاعدلنا زي القليطة؟
المعلم حنفي بصياح:آني مسمحش يا أم الفار!
أم الفار بسخرية:هو في إيه؟ مالك ماسكلي أنا مسمحش أنا مسمحش؟ انشالله ما سمحت، هي كلمة الحق بتيجي على كرامتك ولا إيه؟
المعلم حنفي بدهشة:انتي عاوزة تزحلقيني ولا إيه؟
أم الفار بضحك:ليه صابونة؟

ضحكت "أم الفار" ضحكة ساخرة مرتفعة، كأنها تستهزئ بكل ما حدث، ثم سحبت نفسًا عميقًا من السيجارة، ونظرت إلى المعلم حنفي بعينين ملؤهما التحدي، وهي تقهقه قائلة:
_عسل.

المعلم حنفي باهتمام:أما قوليلي يا أم الفار، معندكيش عيال من جوزك الأولاني؟
أم الفار بمقصد:يا شيخ ده أنا بحمد ربنا، هو اللي زي ده يتعاشر؟ طب ده حتي كان فيه شبه منك.
المعلم حنفي بابتسامة:بس إيه رأيك في الباب بعد ما اتصلح؟ مش بقى أجمد من الأول؟

أم الفار بقهقهة:أه، أمال؟ عقبالك كده يا حنفي.

نهض "المعلم حنفي" بعصبية عارمة، شعر بتغيير كبير في تصرفات أم الفار، التي بدأت تستهزئ به وتقلل من رجولته، تمامًا كما كانت تفعل أم الديب معه في الماضي. تطايرت شرارات الغضب من عينيه وهو يقول بسخط:
_تقصدي إيه يا أم الفار؟

أم الفار بصياح:مالك ياخويا وقفلتي كده ليه؟ تِف في عبي تُف، خوفتني تصدق؟
المعلم حنفي بحنق:آني مسمحش!
أم الفار بعجيج:ما تترزع بقى وشوفلنا كلمة غيرها!

نهضت "أم الفار" بلا اكتراث، وألقت السيجارة تحت نعلها فدعستها بقوة، ثم أخرجت آخر دخان من فمها، تراقب المعلم حنفي بعينين مليئتين بالاستفزاز. عدلت عباءتها وهي تقف بشكل غير مكترث، ثم قالت له بفظاظة:

_أنا رايحة أزور ليالي، تيجي معايا؟ ولا أقولك خليك انت، لسه أعصابك سايبة من آخر مرة، يلا سلامو عليكو.
ثم خرجت من المنزل، وهي تلف حجابها بإحكام حول رأسها. وقف "المعلم حنفي" أمام بوابة المنزل، وأوصدها بحذر، مُدركًا تمامًا الخطر الذي يحيط بهم. كان يشعر بالقلق العارم من قدوم أي شخص غير مرغوب فيه، خاصة وأن باب الشقة مكسور، مما يجعل الجميع في الداخل مكشوفين دون أي حماية. دخل الشقة ووجهه مشبع بالخوف، ثم قال بلهجة قلقة:
_زيادة أمان برضة، يا ترى يا ضايع المرة الجاية هتكسرلنا إيه؟

دخل المعلم حنفي غرفة النوم وأوصد الباب بالمفتاح، حريصًا على أن يبقى محميًا من أي تهديد محتمل، خاصةً من ضايع الذي قد يظهر في أي لحظة. كان يخشى أن يضطر للخروج إلى الصالة دون أي حماية، خاصة مع الوضع المقلق الذي يعانون منه بعد أن تم كسر الباب. في تلك الأثناء، اتجهت جمالات لزيارة ليالي، غير مكترثة بما يمكن أن يحدث أو من قد تواجهه، بما في ذلك أم الديب التي لا تعني لها شيئًا. أما أم الديب ونعمة، فقد استفاقتا من دوار الصدمة التي تعرضتا له، وحاولتا تمالك أعصابهما بعد تلك التجربة المروعة التي مررتا بها هذا اليوم. لم تستطع قدماهما الوقوف بثبات، فصعدتا على الدرج ببطء، وكانت كل خطوة كأنها تثقل من جسدهما، وسيقانهما ترتجفان من آثار ما حدث، وبينما كانتا تسيران بصعوبة، قالت "نعمة" بارتجاف:
_آه ياما آه، مرة البلاكونة تقع بينا، ومرة عربية الحمار تشبك على سكة الحديد، ومرة جلال يهددنا ويجري بالعربية بسرعة جامدة، وأهو كله تبصيله في الآخر تلاقيه بسببك!

أم الديب بإرهاق:بقولك إيه يا بت! رمي بلا مش عاوزة! أهو كله قدر ومكتوب، فمتجيش تلبسيها فيا!
نعمة بمُعاناة:ماشي ياما، ماشي.

أعطت نعمة كيس الطعام لوالدتها التي دخلت شقتها وأغلقت الباب وراءها، في حين واصلت نعمة طريقها بمفردها، تتسلل خطواتها في صمت حتى وصلت إلى شقتها. بعدما فتحت الباب ودخلت، خرج "حامد" من الغرفة مبتسمًا، ملامحه تحمل لمحة من المرح، فقال بمزاح وهو يقترب منها:
_إيه يا نعومي، خالتك ماتت ولا لسه عايشة؟

نعمة بحزن:حرام عليك يا حمو، بتفَول عليها ليه طيب؟

وضعت نعمة الكيس فوق الطاولة وجلست على الأريكة، ممدة ظهرها للوراء ورأسها مرفوعة للأعلى، وهي تحتاج لحظة من الراحة بعد يوم مرهق. نظر "حامد" إليها بقلق، تلمح في عينيه علامات الاهتمام، فسأل بصوت خافت يملؤه التساؤل:
_مالك يا بت، إيه اللي جرا؟

نعمة بإنهاك:كارثتين جداد يا حمو، مابقتش ملاحقة على الكوارث ياخويا، كنا هنعمل حادثة وهنموت!

انفزع "حامد" مما سمعه، فجلس بجوارها بسرعة، ومرر يده على كتفيها بحنان، يحاول أن يخفف من ألمها، ثم قال بصوت منخفض مفعم بالقلق:
_يا ستار يارب، ليه كده طيب؟

نعمة بتأوه:أمي جرت شَكل جلال في العربية لحد ما جرى بينا على آخره، بقيت أنا وهي نصوت ونبوس علي إيده ورجله، وهو أبدًا طاير وولا فارق معاه، كنا هنلبس في شجرة وهنموت.
حامد ببغضاء:وهي أمك دي مش عاوزة تتهد؟ دي أُص المشاكل كلها، عارفة؟ لو دي تتكل على الله الدنيا هتبقى وردي!
نعمة بصدمة:حرام عليك يا حمو، مالك كده ياخويا؟ هي عملتلك إيه؟
حامد بانفعال:تصدقي بالله؟ إنتي هتعبطيني معاكي! تشتكي منها ولو حد اتكلم عليها نص كلمة تتقمصي، إنتي إيه حكايتك؟
نعمة بنُصح:دي مهما كان أمي برضة، ادعيلها بالهداية وخلاص.
حامد بتردد:طب بقولك!

نعمة بعناء:قول.
حامد:أمي عاوزانا نروح نعيش هناك في بيت العيلة، ومش عاجبها قعدتنا هنا! أنا بقالي كام يوم مش عاوز أقولك إكمنك مبتحبيش أمي.
نعمة بود:ومين قالك إن أنا مبحبهاش؟ ده أنا بحبها ربنا العالم، هي اللي مبتحبنيش، معرفش ليه!
حامد بصراحة:أصل أمي مش راضية عن قعدتنا هنا فتلاقي كلامها ناشف شويتين، إنما لو طاوعناها هتبقى مية مية.
نعمة باعتراض:لا يا حمو، قاعدة هناك أنا مش هقعد! وهفضل أقولك، أنا مش هسيب بيت أمي مهما يحصل!

حامد بإغراء:يا بت ده أنا هعملك شقة في بيت أهلي على مستوى! ده بيتنا واسع ويرمح فيه الخيل وهعملك مطبخ مفتوح كمان!
نعمة باحتجاج:لا برضة يا حمو، انشالله تجيبلي قصر أنا قاعدة هنا مش متحركة!
حامد بمَوجدة:تصدقي بالله يا نعمة؟ إنتي وش فقر! خليكي هنا ياختي وأنا هروح أقعد في بيت أهلي!

كان حامد مصرًا على أن يأخذ نعمة وأطفالهما إلى منزل عائلته، حيث كان أهله مستعدون لبناء شقة لهم فوق شقة أخيه أشرف إذا لزم الأمر. كان حامد يدرك تمامًا أن الوضع الذي يعيشونه ليس طبيعيًا، وأنه من

المتعارف عليه أن تعيش المرأة في منزل زوجها وعائلته، وليس العكس. ولكن نعمة، التي كانت ترفض بشدة هذا الاقتراح، تمسكت بموقفها، فمحيطها في منزل والدتها وليالي أصبح جزءًا من حياتها اليومية، وكان من الصعب عليها الابتعاد عنهما. كما أن لديها خوفًا كبيرًا من رد فعل أم الديب القاسي، التي اشترطت في بداية زواجها أن يعيش حامد معهم. نهضت "نعمة" من الأريكة، وجهها يعكس اعتراضًا حازمًا، وقالت باستياء:

_بقولك إيه يا حمو متتعبنيش معاك ياخويا! كفاية اللي أنا فيه، هو أنا هلاقيها منك ولا من العيال؟ أما العيال فين؟

حامد:عيالك خمرانين نوم هما الإتنين، وواكلين وشاربين وكله تمام.

نعمة بابتسامة:طيب يلا ياخويا، ده أنا محضرالك مفاجأة حلوة أوي!

حامد بفضول:مفاجأة إيه دي يا نعومي؟

نعمة بسعادة:جيبتلك الجبنة اللي بتحبها! لأ ومش بس كده ده أنا جايبة خيرات ربنا كلها، فطير وقرص وقشطة، إيه رأيك بقى؟

حامد بفرح:هو ده الكلام يا نعومي، يلا حطي الأكل عقبال ما أفرش الأرضية!

نعمة بتبسم:قشطة.

حامد ببهجة:ده احنا يومنا زي الفل.

دخلت نعمة المطبخ وهي تحمل كيسًا مليئًا بخيرات الطبيعة، تلك التي جلبتها لها خالتها سعاد. كانت سعاد متميزة بصنع مشتقات الجاموس، بالإضافة إلى المخبوزات الريفية الدسمة التي تتسم بنكهات فريدة تجذب كل من يتذوقها. كان حامد، الذي كان دائمًا يستمتع بهذه الوجبات، متحمسًا جدًا لهذه المرة أيضًا، فهو يعشق تلك الأطعمة التي تمنحه شعورًا بالراحة، وتزيل عنه هموم الحياة. بينما كان حامد يستعد للجلوس على الطبلية، وضع مشمعًا بلاستيكيًا فوقها ليحميها من الاتساخ. دخلت نعمة المطبخ وأخرجت بعناية ما في الكيس، حيث بدأت في ترتيب المأكولات على الأطباق. كان الفطير لا يزال ساخنًا، وعبيره يملأ الشقة، مما جعل من الصعب مقاومته، وكان يشجع الجميع على تناوله بسرعة. أما في منزل أم الديب، وصلت جمالات على مهل، حرصت أن يكون صوت نعلها خفيفًا حتى لا تسمعها أم الديب. تسللت بحذر حتى وصلت إلى شقة ليالي، وعندما طرقت الباب، خرج لها "حمود" بابتسامة عريضة على وجهه، وسألها:

_مرات جدي صح؟

أم الفار بضحك:عفارم عليك، ذكي وشاطر، أمك فين يا واد يا حلو انت؟

ثم جذبت حمود من ذقنه وقبلت وجنتيه برقة، في لفتة مليئة بالحنان. استدار "حمود" برفق، متجهًا نحو المطبخ حيث كانت ليالي مشغولة بتحضير الطعام، ثم نادى عليها بصوت دافئ، محاولًا جذب انتباهها وهو يبتسم:

_ياما، مرات جدي عاوزاكي!

خرجت "ليالي" من المطبخ مُرتدية مريلة المطبخ التي تحمل بقع الصلصة، لكن ذلك لم يمنعها من إظهار ابتسامتها العريضة. اقتربت من جمالات، وعانقتها بود، وكأنها لم تَرَها منذ فترة طويلة، ثم قالت ببسمة واسعة:

_ده إيه الزيارة الحلوة دي؟ وحشاني!

جمالات بود:وانتي كمان يا حبيبتي!

ليالي بترحيب:تعالي خُشي!

دخلت جمالات خلف ليالي وصكت الباب خلفها بهدوء، ثم جلستا معًا على الأريكة في الصالة. نظرت ليالي إلى جمالات بدهشة، متعجبة من شجاعتها التي لم تكن متوقعة. كانت قد دخلت منزل عدوتها دون أدنى خوف أو تردد. قد توطدت في هذا المكان كما لو كان دارها. فتنهدت "ليالي" بابتسامة خفيفة، وقالت بضحك:

_طلعتي ازاي بذمتك؟

جمالات ببسالة:زي الناس، هو أنا يعني هخاف منها ولا إيه؟

ليالي بفضول:أه، أما قوليلي حمايا عامل معاكي إيه؟

جمالات بحزن:أهو ماشي الحال، بيني وبينك لو كنت أعرف إنه مخلع مكنتش اتجوزته! ده بيدخل الحمام في سنة.

ليالي بتفاهم:معلش يا أم الفار، ماهو برضة مهما كان راجل كبير، ولا هو يعني كان ضحك عليكي وفهمك إنه شاب صغير ويوم الفرح اتفاجئتي بإنه شايب؟

جمالات بحسرة:خلاص يا ليالي متقلبيش عليا المواجع! ماهو الجواز زي البطيخة يا تطلع حمرا يا تطلع قرعة.

ليالي بشفقة:يا حول الله يارب، طب والعمل إيه بس يا أم الفار؟ مانتي خلاص اتجوزتيه، ارضي بنصيبك بقى!

جمالات برضى:يلا الحمدلله.

لم تكن "جمالات" تتوقع أن يكون المعلم حنفي ضعيفًا بهذه الطريقة. كانت تتخيله قويًا وشجاعًا، رجلًا يملك القدرة على أن يكون سندًا لها في مواجهة أي تهديد، سواء بالكلمات أو الأفعال. لكن الواقع كان مغايرًا تمامًا؛ فقد أظهر العكس، حيث كان يحتمي بها خوفًا من الأشرار، وبدلًا من أن يكون هو القوة، كان يرتجف عندما تتشبث أصابعها بيده في لحظة رومانسية، وكأنها هي من يجب أن تحميه. هذا الأمر جعلها تشعر

بالتحسر على نصيبها، الذي كان مرة أخرى مليئًا بالخيبات. نهضت ليالي، محاولة أن تغير جو الحديث بتقديم بعض الضيافة لجمالات، فسألتها باهتمام:
_شاي ولا قهوة يا حبيبتي؟

أم الفار بندامة:شاي وأبقي حطيلي عليه المُر عشان يبقى بطعم المرار الطافح.
ليالي بضحك:اهدي بس يا أم الفار، متعمليش في نفسك كده! كل حاجة وليها حل، هعملك شاي!

دخلت ليالي المطبخ لتصنع الشاي لجمالات، وفي الوقت نفسه كانت تتابع تحضير الطعام بعناية، تنثر فيه من لمساتها التي تعودت عليها. بينما كان حمود يلهو في الصالة، مُنشغلًا في شيء ما، لكن "جمالات"، التي كانت تراقبه بحذر، نظرت له بابتسامة ماكرة على وجهها، ثم نادته بصوت مرح، قائلة:
_تعالي يا ولا أقولك!
حضر حمود نحوها، فرفعت "جمالات" يدها برفق على كتفه، ثم اقتربت منه قليلًا وأخفضت صوتها حتى لا تسمعها ليالي. بنبرة خافتة، قالت له بحذر:
_أنا عاوزاك تعمل مقلب في ستك يطلع من نفوخها!

حمود بخوف:دي تضربني، دي إيديها تقيلة أوي.
أم الفار بتحريض:لا يا بابا إنشف! ولو ضربتك كف إديها عشرة، أنا عايزاك تاخد ده تحطهولها في دولابها!

استخرجت "جمالات" من حقيبتها ورقة مدونة بالطلاسم الحمراء، عيونها تراقب ليالي في المطبخ بحذر شديد. كانت تدرك تمامًا ما تفكر فيه، وفي ذهنها كانت تدور خطة محكمة للانتقام من أم الديب. بسرعة، وضعت الورقة في يد الطفل، وهمست له بنبرة خافتة، تحمل معها نواياها المبيتة:
_وإياك تاخد بالها، داريه كويس أهم حاجة!

حمود بفضول:ده إيه ده يا مرات جدي؟
أم الفار بتردد:دي ورقة ومتسألش كتير! اعمل اللي بقولك عليه وإياك تقول لحد!
حمود:طيب.

فرحت "جمالات" بمساعدة حمود لها، فقررت أن تكافئه على دعمه. استخرجت من حقيبتها الصغيرة عبوة بسكويت فاخرة، وقدمتها له بابتسامة دافئة، وقالت:
_خد مش خسارة فيك.

أخَفَى حمود العمل في جيبه بسرعة، ثم فتح عبوة البسكويت وأخذ قضمة منها وهو يفكر في عقله كيف سيتصرف دون أن تلاحظ أم الديب تصرفاته. كان يخطط في ذهنه كيف سيقوم بما عليه دون أن يكون في مرمى الشكوك، فكل خطوة يجب أن تكون محسوبة. بينما كانت ليالي في الداخل، مشغولة في تحضير الطعام، قلبت الصلصة في القدر بحذر، وهي مُستعدة لتحضير اللوبيا باللحم البقري للغداء. أما جميلة، فقد تغيرت حياتها بشكل دراماتيكي بعد الأحداث الأخيرة مع أحمد. عادت إلى منزل عائلتها، واستقرت في غرفتها التي كانت قد نشأت فيها، تلك الغرفة التي شهدت كل مراحل حياتها من طفلة إلى شابة، مليئة بالذكريات التي تتأرجح بين الفرح والحزن. كانت تجلس على سريرها، تتأمل الجدران التي كانت تعرف كل زاوية فيها، باحثة عن إجابة لأسئلة تشغل بالها. لم تستطع أن تتقبل ما فعله أحمد بحقها، وكان الألم يعتصر قلبها كلما تذكرت خيانته. حولها كانت والدتها وأخواتها يحاولون تهدئتها، يواسونها في هذه اللحظات الصعبة. عانقت "أم قمر الدين" ابنتها برفق، وعينيها مليئة بالحب، وقالت لها بحنان:
_اهدي يا جميله يا حبيبتي! إنتي من ساعة ماجينا وانتي مش مبطلة عياط! كل ده غلط على نفسيتك!

جميلة بتألُم:تعبانة أوي يا مامي، ومش قادرة أصدق، يارب أكون بحلم! أحمد؟ طب ازاي؟ ده أنا كل صحابي كانوا لما بيشوفونا مع بعض يقولولي يا بختكم ببعض! ده أنا بيعت الدنيا كلها عشانه واشتريته! وهو في الآخر باعني! ليه يعمل فيا كده؟ أنا كنت جواز مصلحة؟ ازاي طيب؟ ازاي عيشت كل السنين دي معاه وأنا مغفلة وفاكرة إنه اتجوزني عشان بيحبني؟ مش عشان يكبر على حساب مشاعري؟

أم قمر الدين بتبرُّم:حاسة بيكي يا روحي وعارفة قد إيه إنتي تعبانة ومجروحة أوي من جواكي، وأنا ذات نفسي مش مصدقة، مش إنتي لواحدك! ياه يا جميلة يا حبيبتي.
سامية بشفقة:عرفتي واتأكدتي إنه مكنش ينفعنا؟ بس بعد إيه؟ بعد الوقت الضايع؟ بعد ما اتجوزتوا وخلفتوا بنتين؟ لو كان ده حصل بدري شوية كان كل واحد فيكم خرج بس بطوله، بناتك لما يكبروا هيكون إحساسهم إيه وهما عايشين في أسرة مفككة؟ يا ترى هيكرهوا أبوهم ولا أبوهم هيكرهم فيكي؟
نرمين باستياء:خلاص يا سامية! الكلام ده مابقاش له لازمة، أهم حاجة نكون كلنا جنب جميلة في الفترة الصعبة دي ونساعدها تخرج منها.

أم قمر الدين بحنان:اهدي يا روحي! دموعك غالية جدًا، دي مش غلطتك إنتي يا حبيبتي! دي غلطتنا احنا يوم ما سمعنا كلامك ووافقنا عليه، لا هو ولا أهله من مستوانا ولو اشتغلوا طول حياتهم عمرهم ما هيوصلوا لربع اللي احنا فيه ده، بس يا حبيبتي احنا لاقيناكي مصممة وهتموتي نفسك فمقدرناش نشوفك في الحالة دي! ووافقنا واحنا مجبرين!
جميلة بتعاسة:أنا عايزة مهدئات ومنوم يا مامي، بجد مش قادرة، أنا تعبانة أوي فعلًا.
أم قمر الدين بابتسامة:لا يا جميلة! غلط عليكي الحاجات دي! إنتي الأحسن تاخدي شاور وتنزلي الطاقة السلبية دي وتعملي يوجا وتنامي شوية... حاولي يا حبيبتي!
جميلة باعتراض:مش قادرة أعمل أي حاجة!

لم ترغب "جميلة" في هذه اللحظة سوى أن تحتضن فتياتها، اللتان كانتا تجلسان مع منى في غرفتها، لتجد في حضنهن الراحة التي تفتقدها. كانت عيونها يملؤها الشجن، ولكنها حاولت أن تخفيه حتى لا تشعر فتياتها بمزيد من الألم. التفتت نحو نالا، التي بدت متأثرة مما يحدث لها، وقد نزلت دموعها مع كل لحظة من الصمت بينهما. بهدوء، طلبت منها أن تحضر الأطفال، قائلة:

_نالا، هاتيلي سيليا وأسيل من عند منى!

نالا بحدب:حاضر.

توجهت نالا نحو الغرفة الأخرى لتجلب البنات الصغار، محاولةً تهدئة جميلة التي كانت تعاني من الاستياء. نهضت سامية، متأملة وجه جميلة المتجعد من كثرة البكاء، محاولة تهدئتها بكلمات بسيطة تشير إلى أن دموعها لا تستحق ما فعله أحمد. بدت جميلة مصدومة، تعبر عن خديعة عميقة اكتشفتها بعدما خدعها أحمد طوال الشهور الماضية. لكن أم قمر الدين، عبرت عن دعمها، مؤكدةً أن لا أحد يمكنه خداع جميلة، وأن اكتشافها للحقيقة في الوقت المناسب كان أفضل من أن تعيش في الخديعة لفترة أطول. عادت نالا مع البنات، وجميلة احتضنتهم برفق، كأنهم مصدر السعادة في حياتها وسط الحزن الذي تعاني منه. طلبت جميلة من الجميع أن يتركوها وحدها مع بناتها، بينما حاولت نرمين طمأنتها ودعتها لعدم التفكير الزائد في الأمور. قبلت أم قمر الدين جميلة قبل مغادرتهن، وغادرن، مُغلقن الباب خلفهن، تاركن جميلة في عزلتها، وهي تغلق عينيها، وتمرر يداها على رؤوس البنات. تلفظت "جميلة" بتعاسة:

_سوري! اللي حصل ده مكنش مني، كان من باباكم! هو اللي كدب عليا وهان عليه كل حاجة بينا.

سيليا بشجن:مامي، إنتي اتخانقتي مع بابي؟

وقع السؤال كالصاعقة على رأس جميلة، فالكلمات عاجزة عن الخروج من فمها. كانت تواجه معضلة قلبية كبيرة، هل تخبر ابنتها الحقيقة المُرة عن والدها، تلك الحقيقة التي قد تدمر صورة الأب في عينيها وتدنس كل ما كانت تراه مصدر قوة لها؟ أم تفضل أن تحتفظ بالصورة المشرقة التي ترى فيها والدها الحنون والمخلص، متجاهلة ما فعله في حقها؟ كان الصراع الداخلي يشتعل داخلها، كيف ستواجه ابنتها بهذه الحقيقة التي قد تؤثر على حياتهن جميعًا؟

يتبع...

الفصل الرابع والثلاثون

لم تجد "جميلة" ما يُشرق به لسانها أمام سيليا، فاستنزفت لحظات من الصمت المرهف، قبل أن تقرر أخيرًا قول:

_لا يا حبيبتي، احنا كنا بنمثل عشان هنعمل فيلم! بس الفيلم ده صعب، صعب أوي.

انهمرت دموع جميلة كشلال يتدفق من سفح قلبٍ موجوع، واحتضنت فتياتها إلى صدرها الحنون، تُوزّع قبلاتها على جبين كل واحدة بعدل كمن يُوزّع أنفاسه بالتساوي. كذبت على ابنتها لتظل صورة أحمد نقية في عينيها، خوفًا من أن يزرع الكره جذوره في قلبها الغض. ومع مرور الوقت، أخذها التعب إلى نوم عميق بجوارهما، والأحلام وحدها قادرة على تسكين آلامها. أما في الطابق السفلي، كانت أم قمر الدين تجلس في الصالون مُحاطة ببناتها، يحاصرهن القلق ويبحثن عن حلٍ يكسر قيد هذه الأزمة، وفي حجرة المكتب، كان صوت قمر الدين يتصاعد كعاصفة من سخط، يتحدى صمت القصر المهيب، إذ كان الباب موصدًا لكن صداه اخترق الجدران، يعاتب والده بحرقة على خيانة أحمد لجميلة. كيف لمن رفضته العائلة وأصرّت جميلة على الارتباط به أن يطعن قلبها مع امرأة لا تساوي شيئًا؟ صرخ "قمر الدين" بغضب يشتعل في صدره، وقال:

_كلب ولا يسوا! بقى أختي يتعمل فيها كل ده بعد ما كنا رافضينه؟ هو نسي نفسه ولا إيه؟ خد بالك أنا مش هسيبه في حاله عشان تبقى عارف! وأنا حطيته في دماغي وهحجز على كل ممتلكاته وهخليه يرجع بلدهم يعيط لأمه، بس يصبر عليا بس!

باسم بثَورة:وتفتكر إن أنا سكتله؟ أنا رفدته من الشركة هو والبنت دي! دي لواحدها مشكلة لما يقعد من غير شغل ومعتقدش إنه لو لقي شغل هيلاقيه بنفس المرتب الضخم اللي كان بياخده! أحمد بعد ما بقى مليونير بسببنا قلب على بنتنا، خلاص مابقاش محتاجها! ماهو وصل للي هو عايزه، هيحتاج إيه تاني؟

قمر الدين بعتاب:ليه كده يا جميلة رخصتي نفسك؟ ما كنتي اتجوزي واحد من نفس مستوانا على الأقل مكنش هيغدر بيكي بسبب نقصه! عاجبك اللي بقيتي فيه دلوقتي؟
باسم بامتعاض:اهدي بقى يا قمر الدين! متزودش عليا مشاكلي!
قمر الدين باِهتياج:ماشي يا بابا، بس والله لأوريه أيام سودة!

توعد قمر الدين أن يسلب من أحمد كل ما رفعه يومًا فوق الأرض، أن يهوي به إلى حيث لا يُرى، فقرر أن يحتجز على جميع ممتلكاته بلا هوادة. وفي لحظة غليان، انطلق نحو مقر القناة، مُصطحبًا رجال الحرس كأنه قائد معركة، يسأل بعزم غاضب عن موقع ميادة، تلك التي زرعت خنجر الخيانة في صدر أخته حين أغرمت بزوجها. وحينما دلّه أحد العاملين على مكتبها، اقتحم المكان كالطوفان، وألقى على ميادة كلماته القاسية، طاردًا إياها بقوة وهو يقول لها إن وقع نظره على وجهها مرة أخرى، ولو صدفة، سيجعلها عبرة لمن لا يعتبر. غادرت ميادة موقع القناة بلا اكتراث، خافية تحت هذا البرود خطة أخرى تُخبّئها للمواجهة

القادمة. بينما في منزل "أم الديب"، كانت جالسة على أرضية المطبخ، مُستمتعة بالفطير المشلت الذي صنعته أيدي أختها سعاد، تتلذذ بالجبن القديم والعسل الأسود، وفجأة، دخل حمود الشقة، وبمجرد أن تلاقت أعينهما، باغتته بسؤالها:

_ايهي إنت جيت يا ولا؟

حمود بتَمويه:أه يا ستي، مشوفتيش مسدس الخرز بتاعي؟
أم الديب بإغفال:لا يا ولا مشوفتوش، دور عليه وخلصنا!
حمود بمكر:طيب يا ستي.

تزحزح حمود بخطوات حذرة حتى بلغ حجرة النوم، وفتح الخزانة بخفة كأنما يتحرك في خفاء الليل، دسّ الورقة وسط ثنايا ملابسها ثم أغلقه بعناية، وكأن شيئًا لم يكن. لكن حين استشعر اقتراب خطوات أم الديب، سارع بالانحناء نحو الأرض، مُتظاهرًا بالبحث أسفل السرير. دخلت أم الديب وهي تحمل في ملامحها قلقًا يشوبه شك، إحساسًا داخليًا ينبئها بأن "حمود" يتحرك وفق تعليمات خفية، وما إن اقتربت منه حتى انتفض واقفًا بتظاهر مُتقن للغضب، وكأن الأمر يُثقل عليه، ثم قال بنبرة مُنزعجة:

_يوه مش موجود تحت السرير!

أم الديب بفظاظة:وهو إيه اللي هيلقحه هناهو؟ بقولك يا ولا! هات بصلتين وبطاطساية من عند أمك!
حمود بحِرص:بس دول كتير!
أم الديب بحدة:مفيش حاجة تكتر عليا، يلا خلص!
حمود بخوف:طيب.

صعد حمود الدرج بخطى واثقة، يحمل في صدره شعور الظفر، مطمئنًا أن المهمة أُنجزت كما خططت لها أم الفار بدقة. أما جدته، فعادت إلى لذة الفطير المشلتت وكأنه وطنها الصغير في لحظات الراحة. عندما فتح حمود باب الشقة، استقبله مشهد ليالي وجمالات تجلسان في الزاوية على الأريكة، تحتسيان الشاي بشغف، تنظران إلى شاشة هاتف جمالات وتتبادلان تعليقات خفيفة. وبينما كانت "ليالي" تُقلب الصور بعينيها، قالت:

_بس العباية دي في منها كتير، ده أنا شايفاها في كل حتة.

أم الفار:عادي أهي تريند الموسم ياختي.
ليالي بفضول:ويطلع إيه التريند ده كمان؟
أم الفار بحداثة:يعني حاجة مشهورة وكل الناس بتتكلم عنها، ده الإنترنت مسابش حاجة إلا لما فهمك معناها.
ليالي بحذر:بس غلط على العيال الصغيرة يا أم الفار!

أم الفار بنُصح:خدي بالك من عيالك ومش هيبقي غلط! المهم يا ليالي أنا قايمة أصل ورايا كذا مشوار على السريع.
ليالي بتعجب:وهو احنا لحقنا نقعد بس؟

نهضت "أم الفار" من مجلسها بخفة تخفي وراءها ثقل الأسرار، واقتربت من ليالي بعناقٍ دافئ، ثم قبّلت وجنتيها برقة، وقالت بابتسامة تحمل في طياتها ما لا يُقال:
_معلش تتعوض في مرة تانية، يلا سلامو عليكو.

ليالي بمَعزة:وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، خدي بالك من نفسك!
أم الفار بود:من عينيا.

خرجت "أم الفار" من الشقة بخطوات واثقة، فيما كانت ليالي تتبعها بنظرات حائرة، ثم استدارت أم الفار نحو حمود الذي كان يقف قريبًا، وقالت له بصوت يفيض حنانًا:
_سلام يا حمود يا عسل.

حمود بابتسامة:مع السلامة يا مرات جدي.

هبطت أم الفار "جمالات" درجات السلم بخطوات متوجسة، تتحاشى اللقاء بأم الديب، فهي على يقين بأن مواجهة كهذه ستشعل نيرانًا لا تُطفأ. وفي الأعلى، كانت ليالي تراقبها حتى تأكدت من مغادرتها بسلام، فأغلقت الباب بإحكام وعادت إلى المطبخ لتحضير الغداء، مُستغرقة في أعمالها اليومية وكأن شيئًا لم يكن.
أما زياد، فقد كان في مكتبه غارقًا في دوامة من القلق، إذ لم يستطع تجاهل ما سمعه من هايدي. تصاعدت اضطراباته حتى عجز عن كبح مشاعره، فقرر مغادرة العمل مبكرًا، غير مكترث بالعواقب. جلس على حافة السرير بجوار هايدي، وكلٌّ منهما تائه في أفكاره، غير قادر على استيعاب حقيقة ما حدث بين أحمد وجميلة. التفت "زياد" نحو هايدي بنظرة متجمدة تحت وطأة الصدمة، وقال:
_يا نهار أسود، يعني جميلة خدت حاجتها وبناتها ومشيت؟

هايدي باستياء:أيوه، دي كانت الدنيا قايدة نار، محدش فيهم كان عايز يسكت وطنط بسملة وعمو باسم وسامية جم، احنا كده اللي غلطانين وشكلنا بقي زي الزفت... أنا عايزة أعرف كان عقله فين لما عمل كده؟ ما الدنيا كانت ماشية حلو! من ساعة ما الحقيرة دي ظهرت وحاجات كتير اتغيرت!
زياد بشَدَه:والله العظيم أنا مصدوم زيي زيك، أحمد يعمل كده؟ مش قادر أستوعب! يا بنتي احنا من فترة كنا قاعدين مع بعض وسألته بتحب جميلة؟ قالي بعشقها، وقالي كلام من جماله أنا كانت الدمعة هتفر من عيني! يعني كان بيضحك عليا أنا كمان؟

هايدي بتَرَح:أنا حاسة إن دي مؤامرة عليه عشان يوقعوا ما بينهم!أنا هتجنن والله! بقولك إيه إنت روح كلمه وإفهم منه كل حاجة عشان نشوف حل للمصيبة دي!
زياد بتعجب:وأنا كلامي هيغير إيه بعد اللي حصل؟
هايدي بإلحاح:حاول يا زياد! وأنا كام يوم كده وهكلم جميلة تكون هديت شوية ونحاول نصلح ما بينهم. أنا صعبان عليا البنات أوي.
زياد باستجابة:طيب يا هايدي هحاول وأمري لله.

خرج زياد من شقته، لا يزال مرتديًا زي العمل، متجهًا نحو شقة أحمد بخطى حاسمة، يثقل صدره الهمّ. كان عزمه أن يتحدث مع أحمد، ليعرف منه كل التفاصيل، ويستجوبه، لعله يجد إجابة عن سبب هذا الفعل الذي جرح جميلة. كما كان يخطط أيضًا لتقديم بعض النصائح التي قد تُنقذ العلاقة أو تُعيدها إلى مسارها الصحيح. لكن في الطريق، توقف "زياد" فجأة حين لمح امرأة غاضبة تسير بسرعة نحو شقة أحمد، تمعن في ملامحها، وكان شيئًا في عينيه يدله على أنه قد رآها من قبل. تلاشت خطواته وهو يقترب منها، ليتوقف أمامها ويعترض طريقها، ثم سألها بفضول مشوب بالحذر:
_انتي مين؟

ميادة بجرأة:أنا ميادة، زميلة أحمد في الشغل.
زياد بصياح:هو انتي؟ ده إنتي سبب خراب الدنيا، إيه اللي جابك هنا؟ أنا بجد مش فاهم إيه البجاحة دي!
ميادة بنَجادة:أنا معملتش حاجة! وسع لو سمحت أنا عايزة أحمد في موضوع مهم!
زياد بصخب:لا ده إنتي عبيطة رسمي بقى! وشكلك عايزة تتعالجي.

كان السبب وراء مجيء ميادة إلى هنا أنها حاولت الاتصال بأحمد مرارًا وتكرارًا، لكن مكالماتها كانت تذهب سدى، وأخيرًا تلقت رسالة صوتية تخبرها أن هاتفه مغلق وغير متاح. فقد قررت أن تأتي إليه مباشرة، وجهًا لوجه، علها تجد حلًا لهذه الكارثة التي حلت فوق رؤوسهما بعد أن طردهما قمر الدين من العمل، ليصيرا في مواجهة مصيرٍ مجهول. بينما كانت ميادة تقف على عتبة شقة أحمد، كان صوت الصياح في الخارج قد جذب انتباه "هايدي". خرجت مُسرعة لتكتشف أنها ميادة التي قلبت الأمور رأسًا على عقب. وقفت أمامها، وبدون مقدمات، صرخت فيها بلهجة غاضبة:
_يا نهار أسود، إنتي إيه اللي جابك هنا يا زبالة؟ بعد ما خربتي البيت وكمان ليكي عين تيجي؟

ميادة بهدوء:وسعوا من قدامي عشان مستعجلة!
هايدي بصراخ:لا ده إنتي بجحة أوي بقى!

أمسكت هايدي ميادة من شعرها بعنف، وانهالت عليها ضربًا بلا رحمة، فتعالى الصراخ في العمارة. بينما كان زياد يحاول جاهدًا الفصل بينهما، لكنه وجد نفسه عاجزًا أمام هذا الشجار العنيف. حتى تزايد الصوت

بشكل مُرعب، ما دفع أحمد إلى الخروج من شقته، ليجد مشهدًا لم يتوقعه. لم تكتفِ هايدي بذلك، بل دخلت مُسرعة لتلتقط سكينًا، وعادت لتغرزه في قلب ميادة بلا تردد. سقطت ميادة على الأرض، والدماء تتناثر حولها كأنها لوحة من العنف. تجمد أحمد في مكانه، يراقبها بدهشة مُفزعة، ثم وضع يده على رقبتها، يحاول التحقق مما إذا كانت على قيد الحياة، ليؤكد في النهاية أنها فارقت الحياة في الحال. انهار "زياد"، وأمام عينيه الحلم الذي تهدم بسبب تهور هايدي، صرخ فيها بألمٍ، قائلًا:
_يخربيتك وديتي نفسك في ستين داهية!

أحمد بصدمة:انتي عملتي إيه؟

صرخت "هايدي" بصدمة، ثم استفاقت فجأة لتجد نفسها في المستشفى، ملقاة فوق سريرها، وهي تتعرق بغزارة، ووجهها مغمور بالماء. كانت نبضات قلبها مُتسارعة بشكل غير طبيعي، ولا تدري ما يحدث حولها. كان ذهنها مشوشًا، لا تصدق ما تراه أو ما تشعر به. تساءلت بصوت منخفض عن تواجد أحمد وجميلة رغم انفصالهما، مُستغربة مما يحدث حولها. حاولت أن تركز على ما حولها، لتكتشف أن أفراد أسرتها كانوا يقفون بجانب سريرها، ينظرون إليها بابتسامات فرحة، بعدما فاقت من غيبوبتها التي استمرت لأيام. وفي لحظة، اقترب منها زياد، مذعورًا لكنه في ذات الوقت يحمل في قلبه شوقًا لا يوصف. اندفع نحوها، عانقها بشدة، ثم قبل رأسها ويديها، والدموع تتساقط من عينيه كالشلال. لكن هايدي كانت في حالة من الارتباك، تردد اسم ميادة بلا توقف، قائلة:
_ميادة... ميادة.

أحمد بدهشة:ميادة مين؟
جميلة باستغراب:مالك يا هايدي؟
زياد بدموع:الحمدلله إنك فوقتي يا هايدي! بقالنا يومين على الحال ده، دخلتي في غيبوبة بعد العملية!
نعمة بفرح:ألف سلامة عليكي يا هايدي، الحمدلله إنك فوقتي وقومتلنا بألف سلامة، ده احنا كنا مرعوبين عليكي!
هايدي بدهشة:هو إيه اللي حصل؟

كانت خيانة أحمد لجميلة ما هي إلا خيط من خيالات حلم طويل عاشت فيه هايدي أثناء غيبوبتها، تلك التي امتدت لأيامٍ كانت فيها أسرتها في حالة من الذعر، يتناوبون على زيارة المستشفى يوميًا لطمأنتها ولتقديم الدعم لزياد، الذي كان في حالة نفسية بالغة الصعوبة، يبكي بحرقة خوفًا عليها. لقد كانت العملية التي أجرتها هايدي المتعلقة بالإنجاب، ولكنها أصابت جسدها بمضاعفات قوية جعلت حالتها تزداد سوءًا.
استرجع زياد ذكرياته وهو يحاول أن يسرد ما حدث لها في تلك الفترة، كان ذهنه مشوشًا، لكنه كان يعرف أنه في تلك الليلة، بعد حفل زفاف المعلم حنفي على جمالات بيوم، سقطت هايدي فجأة على الأرض مغشيًا

عليها، فاقدة كل قوتها في لحظة واحدة. دخل "زياد" إلى الغرفة وهو يحدق في شاشة هاتفه، ثم تحدث إليها بلهجة مليئة بالقلق، قائلًا:

_بقولك يا هايدي، أسجل في الموقع اللي قولتلك عليه ولا....

وهو لا يزال يكمل جملته، التفت نحوها، مما جعله ينخفض إليها بسرعة، قلبه ينبض بعنف. حاول أن يعيدها إلى الوعي، وهو ينادي باسمها بعينين مليئتين بالفزع:

_هايدي! مالك يا حبيبتي؟ مالك إيه اللي حصل؟ هايدي ردي عليا! هايدي!

خرج زياد من الغرفة، قلبه يكاد يخرج من صدره من شدة الفزع، ركض مسرعًا نحو شقة أحمد، وطرق الباب بقوة، وفي لحظات فتح أحمد الباب، ووجهه مليء بالدهشة، إذ لم يتوقع هذا الطارئ. صرخ "زياد" بصوت مرتجف، مستنجدًا به، وهو يتلفظ:

_الحقني! هايدي مغمى عليها وأنا مش عارف أتصرف!

أحمد بفزع:طيب استنى، أنا جاي معاك!

فر "أحمد" مُسرعًا وراء زياد، خطواته ثقيلة وكأن الأرض تهتز تحت قدميه. دخل الشقة بأسرع ما يمكن، وتوجه مُباشرة إلى غرفة النوم حيث كانت هايدي ملقاة على الأرض. ركع أحمد على ركبته بسرعة، محاولًا رفعها بعناية، وقد ارتسمت على وجهه الصدمة. قال بصخب، وهو يرفعها إلى صدره:

_هاتماية بسرعة!

ركض زياد نحو المطبخ، قلبه يخفق بشدة وهو يفتح الثلاجة ويسحب زجاجة المياه، ثم عاد مسرعًا إلى غرفة النوم. سلم الزجاجة لأحمد الذي أمسك بها بسرعة، ورشّ الماء على وجه هايدي بأمل أن تعود إلى وعيها، لكن رغم محاولاتهما، ظلت فاقدة للوعي، فقال "زياد" بيأس، وهو يراقب حالتها:

_طيب شيلها معايا يا أحمد، نوديها المستشفى!

أحضر زياد هاتفه والمفاتيح بسرعة، وضعهما في جيبه، ثم عاد إلى أحمد وحمل هايدي بين يديه، وخرجوا بها من الشقة بعد أن أغلقوا الباب وراءهم. اتجهوا نحو المستشفى، وأحمد يقود السيارة بسرعة جنونية، حتى وصلوا إلى هناك. حملوها داخل المستشفى، ودخلت حجرة الكشف حيث حضر الطبيب فورًا ليتخذ الإجراءات اللازمة. لقد اكتشف الطبيب أن حالة هايدي ناتجة عن الأنيميا الحادة بسبب العملية السابقة، وبدؤوا في بذل جهود مضاعفة لإنقاذها. رغم ذلك، دخلت في غيبوبة استمرت لأيام، مما استدعى نقلها إلى العناية المركزة. وصل الخبر إلى أفراد العائلة الذين جاءوا مُسرعين ومذعورين، حيث كان زياد يبكي بحرقة في زاوية الغرفة، بينما كان أحمد بجواره يحاول تهدئته. بعدما سرد زياد ما حدث لهايدي في تلك الأيام العصيبة، وها هما في الحاضر نظرت "هايدي" إلى أحمد بدهشة، وقالت بتردد:

_انت مخونتش جميلة؟

جميلة بتعجب:يخوني؟ يخوني إيه؟
هايدي باستغراب:انتي رجعتي امتى يا جميلة؟
جميلة بابتسامة:يا حبيبتي أنا ممشيتش عشان أرجع! وبعدين أرجع منين؟
أحمد بفضول:مالك يا هايدي؟ إيه الكلام اللي بتقوليه ده؟
هايدي بحَيرة:يعني ده كان حلم؟
نعمة بسرور:ألف حمدالله على السلامة يا هايدي، وزي ما الداكتور قال لازم تتغذى كويس إكمن عندك أنيميا حادة وهي اللي دخلتك في الغيبوبة دي، اللهم لك الحمد والشكر يارب إنها طلعت بخير.

أطلقت "ليالي" الزغاريد، مفعمة بالحمد، وهي لا تستطيع أن تخفي سعادتها بعودة هايدي إلى وعيها بعد تلك الفترة العصيبة. تقدمت نحو سريرها، وعيونها تلمع ببريق الأمل، وقالت بفرح:
_حمدالله على السلامة يا هايدي.

هايدي بألم:الله يسلمكم.

ثم نظرت لأحمد وجميلة، وكأنها تكاد تجن من التفكير، مُتسائلة إن كان ما حدث مجرد حلم عابر أم حقيقة مؤلمة؟ في اليوم التالي، عادت هايدي إلى منزلها، وكانت جالسة على الأريكة، تحمل الكانيولا في يدها، وبجوارها "زياد" الذي لم يتوانَ عن العناية بها. كان قد اشترى كرتونة مليئة بعصائر متنوعة، وأخرى مليئة بالكعك المحشو بالكريمة، راغبًا في أن يقدم لها كل الرعاية حتى تستعيد قوتها وتعود كما كانت، إن لم تكن أفضل. اقترب زياد منها بحذر، أمسك بعلبة العصير، ورفعها نحو فمها، وهو يلح عليها بأن تشرب رغم أنها كانت قد شربت العديد منها بالفعل، ومع ذلك، لم يكن هناك مكان في جسدها يحتمل المزيد. نظر إليها بحنان، وقال:
_خدي دي كمان يا هايدي!

هايدي برفض:خلاص يا زياد دي سادس علبة عصير أشربها! أنا مابقاش عندي مكان يكفي كل ده!
زياد بإصرار:يا حبيبتي عشان خاطري! تخيلي إنك اتسحب منك دم كتير قبل العملية وانتي أصلًا عندك أنيميا؟ احنا ازاي مخدناش بالنا من حاجة زي دي؟
هايدي بتوعُك:لا أنا من يومها ابتديت أحس بدوخة بس كانت خفيفة وجيت في الآخر كنت خلاص جيبت أخري.

زياد بتحنان:طيب و ليه مقولتليش؟ يعني تبقي تعبانة وتخبي عليا؟
هايدي باعتلال:مكنش له لزوم والله، خصوصًا التعب كان بسيط، أنا بس عايزة أعرف مين ميادة دي؟
زياد بشغف:أنا اللي نفسي أعرف مين ميادة، اللي من ساعة ما فوقتي وانتي بترددي في اسمها!

هايدي باستياء:حلم طويل أوي يا زياد ووحش أوي، أنا حاسة إنه كان فيلم مش حلم عادي زي اللي بيجي لأي حد.

زياد بقلق:اللهم اجعله خير يارب.
هايدي بتردد:يعني أحمد مخانش جميلة؟
زياد بدهشة:يا بنتي والله ما حصل! وهو هيخونها ليه بس؟
هايدي بتعاسة:مش عارفة يا زياد، أديني بتأكد بس.
زياد بضحك:ماشي يا هايدي.

نهض زياد بحرص من مكانه ليذهب لتحضير الطعام لهايدي، فهو الوحيد الذي تولى مسئوليتها في هذه اللحظات الصعبة، وكان يخشى عليها من كل شيء، لا يريد أن ينقصها شيء من الراحة أو العناية. بينما كان يستعد للذهاب، نظرت "هايدي" إليه بدهشة، وقد أثار اهتمامها، فسألته بفضول:
_رايح فين؟

زياد ببشاشة:هجهز الأكل ليا وليكي!
هايدي برفض:صدقني مابقاش في مكان خالص، ده أنا من ساعة ما رجعت وانت كل شوية تجيبلي يإما أكل يإما عصير!
زياد بإجبار:ماهو خدي بالك يا هايدي! أنا مش هسيبك إلا لما تخفي وأتأكد وأسمعها من الدكتور ذات نفسه! هو أنا عندي كام هايدي؟ ده هي حيالله واحدة بس محيلتيش غيرها!

هايدي بحُب:ربنا يخليك ليا يا حبيبي وميحرمنيش من وجودك في حياتي أبدًا.
زياد بتعشُّق:ويخليكي ليا يا أحلى هايدي في الدنيا كلها، وأعيش وأشوفك دايمًا مبسوطة.
هايدي بتمني:يارب.
زياد بحنو:أشغلك التليفزيون يسليكي لحد ما أخلص؟
هايدي بابتسامة:ماشي.
زياد ببسمة:حاضر.

قام زياد بتشغيل التلفاز على القناة المفضلة لديها، ثم عاد ليقبلها من رأسها برقة، مُرَكِّزًا على سعادتها، ثم ذهب إلى المطبخ بسرعة. هناك، استخرج المعكرونة من الخزانة، والخضروات من الطبق، والصلصة من الثلاجة، عازمًا على تحضير أفخر طبق معكرونة بالصلصة مع بانية مقرمش، فهي الوجبة التي كانت العائلات تلجأ إليها في أول عشرين سنة من الزواج. أما في شقة أحمد، فكانت جميلة مُنهمكة في صنع اللازانيا، إلى جانب البطاطا المقلية التي كانت تملأ الشقة برائحتها الشهية. بينما كان أحمد مع سيليا في

الريسيبشن، يقومان بتنظيفه. وبعدما نظفت سيليا الطاولة بعناية، أشار "أحمد" نحو الجزء الذي لا يزال متسخًا، وقال:
_شاطرة يا سيليا، إنتي اعملي الحتة دي وأنا هعمل دي!

أشارت "سيليا" فجأة تحت الأريكة بيدها، وقد ارتسمت على وجهها ملامح الرعب، وصرخت بقوة، مدعية أنها رأت صرصورًا كبيرًا يختبئ هناك. قالت بلهجة مرعوبة:
=الحق يا بابي في صرصار!
فر "أحمد" مسرعًا نحو المطبخ ليحضر عصا المكنسة، ثم عاد لها ببسالة، عازمًا على القضاء على الصرصور الذي أربك سيليا. وقف بثبات أمام الأريكة التي كان يختبئ تحتها الصرصور، ورفع العصا بيديه، متظاهرًا بالشجاعة، وقال بحزم:
_فين ده؟

أشارت "سيليا" بيدها أسفل الأريكة، وهي ما زالت تصرخ برعب، قائلة:
=أهو يا بابي، هناك!

أحمد بإمعان:مفيش حاجة!
سيليا بمرح:ضحكت عليك!

كانت سيليا تمزح مع أحمد وتثير خوفه، لكنها تأكدت أنه شجاع ولا يهتز من وجود صرصور صغير كهذا، فهو معتاد على رؤية مثل هذه الأشياء منذ الصغر وأكثر بكثير. حملها أحمد فوق ظهره، وهو يضحك بمرح، ثم دخل بها المطبخ حيث كانت جميلة مشغولة برص المكونات في الصينية. قال "أحمد" ضاحكًا:
_كده يا سيليا بتضحكي عليا؟ ينفع كده يعني؟

سيليا بقهقهة:أه يا بابي.
أحمد بضحك:انتي حبيبتي، إيه رأيك نغسل إيدينا ونروح نساعد مامي؟
سيليا باحتجاج:بس أنا مبعرفش أطبخ!
جميلة باعتراض:لا لا خليكوا انتوا وظبطوا الريسيبشن، أكون أنا خلصت الأكل.
أحمد بضحك:انتي بتدبسينا في الحاجة الصعبة يعني؟
جميلة بلطافة:لا طبعًا مقدرش، بس الأكل ده مش أي حد يعرف يعمله!

أحمد بمزاح:ده أكيد، بس تقصدي إيه بالكلام ده؟ قصدك إن أنا مبعرفش أطبخ؟
جميلة بمرح:لا خالص يا حبيبي بتعرف طبعًا، بس قولي! عمرك دخلت مطبخ في بيتكم؟
أحمد بندم:كانت مرة وحيدة، وكانت أسود مرة في حياتي.

حملت جميلة قدر البشاميل وأسكبته على وجه الصينية بعناية، بينما كان أحمد يحكي لها عن المرة الوحيدة التي دخل فيها المطبخ ليواجه صدمة العمر. رجع "أحمد" بالزمن سنوات طويلة، مسترجعًا تلك اللحظة في أيامه الجامعية عندما كان في الدفعة الثانية من كلية التجارة. عاد من الجامعة في يوم مرهق، جوعه يعصر معدته بعد يوم طويل، وكان في جيبه ما لم يكفي بالكاد لشراء الطعام من أي مطعم. دخل إلى الحظيرة ليجد والدته نائمة وأخواته مشغولين، فقرر أن يتجه إلى المطبخ. فتح الثلاجة وهو يبحث عن شيء يخفف عنه هذا الجوع، لكنه لم يجد سوى جزرة وحيدة في المثلج، معانقة الفراغ. كانت تلك الجزرة بالنسبة لأم الديب خطًا أحمر لا يمكن الاقتراب منه، لكن الجوع دفعه للتغاضي عن ذلك. أخذها وهو يقول بمسغبة:

_البيت كله ومفيهوش إلا دي؟ يلا أحسن من مفيش.

أخذ "أحمد" الجزرة وأخذ يقشرها بحذر، في محاولة لإزالة الطبقة السوداء التي كانت تحيط بها، لكنه لمح فجأة من زاويته كيسًا أسود تحت الحوض. اقترب منه بشك وفتح الكيس بحذر، ليكتشف بداخله رأس حمار. تفاجأ بشدة، فألقى الكيس على الأرض، واهتز جسده من الصدمة، وازداد نبض قلبه بشكل غير طبيعي.

أصبح في حالة من الارتباك، يدور حول نفسه، وهو يصرخ بفزع:

_يا نهار أسود، راس حمار؟ راس حمار مرة واحدة؟

بينما كان أحمد في حالة من الذهول، نظر خلفه ليجد أم الديب تقف وراءه، ووجهها مشبع بالحنق الذي لم يفهم مصدره. تساءل في نفسه: لماذا استيقظت في هذه اللحظة؟ وما هذه رأس الحمار؟ لكن الحقيقة المُرة كانت أن أم الديب احتفظت بها لتصنع لعائلتها "لحمة رأس" بدلًا من شراءها من الجزارين بأسعار باهظة، وكانت هذه طريقة تفكيرها المريضة التي لا ترى فرقًا بين اللحم، طالما أنه صالح للأكل. قالت "أم الديب" له بغلاظة، وهي تحدق به بعينين قاسيتين:

_انت إيه اللي دخلك المطبخ يا ولا؟

أحمد بتلجلج:أصل أنا كنت بدور على أكل!

أم الديب بجلافة:هات أم الجزرة دهي وإياك تمد إيدك في حاجة تاني!

أحمد بتردد:طيب مانا عايز آكل!

أم الديب بصياح:أصبر وهتطفح إنت وأخواتك، يلا اطلع برا!

أحمد برهبة:طيب.

خرج أحمد من المطبخ وهو مترقب، يراقب أم الديب من بعيد بعينين مشدودتين، ينتظر ما ستفعله. ترقبته كانت مليئة بالقلق، حتى لاحظها وهي تدخل إلى البلكونة لتأخذ بصلًا، ثم عادت إلى المطبخ. دخلت وغسلت رأس الحمار، ثم سلقت رأسه بعناية، وبعدما استوى، قطعته وأضفت إليه البصل والتوابل بحرفية. ساعات من الطهي مرت حتى اكتملت الوجبة. خرجت "أم الديب" في النهاية، وهي تحمل الطبق المعد بعناية، حيث

كانت الأسرة مجتمعة حول الطبلية، مستعدة للطعام دون أن يعلم أحدهم الحقيقة. جلست بينهم، وابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت:
_كلوا يا عيال يلا!

جلال بحماس:الريحة مفحفحة ياما، الأكل المرة دي شكله عسل.
أم الديب بمكر:كُل ياخويا كُل!

مد جلال يده نحو الخبز، ووضعه فوق لحمة الرأس، وابتلعها بشهية مفتوحة، بينما تبعه أخواته بنفس الحماسة، عدا أحمد الذي جلس في صمت، ينظر إلى الطبق بنظرة مشوشة، خاشيًا أن يفضح الحقيقة التي لا يريد أن يشاركها مع أحد. بينما كان الجميع يأكل في سعادة، نظرت "أم الديب" إلى أحمد بدهشة، ثم سألته بصوت حاد:
_مالك يا ولا مبتاكلش ليه؟

أحمد بتلعثم:شبعت.
أم الديب بتعجب:ايهي شبعت إيه؟ هو إنت طفحت حاجة؟ مد إيدك وكُل!
أحمد باعتراض:لا أنا شبعت الحمدلله.

أخذت أم الديب قطعة خبز بلحمة رأس الحمار وحشرتها في فم أحمد بعنف، حتى ما لبث أن هرع إلى المرحاض يتقيأ، في حالة من الفزع. ظل ثلاث أيام ممتنعًا عن الطعام، لا يستطيع أن يتناول شيء، وفي النهاية أخبر أخواته بالحقيقة، لكنه نبه عليهم بشدة أن لا يخرجوا هذا السر لأمهم، خشية انتقامها الشديد. عاد أحمد الآن من سرد تلك الذكرى المريرة لجميلة، بينما كانت هي تدخل صينية اللازانيا في الفرن. توالت الأحداث في ذهنه، ثم نظرت "جميلة" إليه باشمئزاز، وهي توصد باب الفرن، وقالت بحنق:
_أوه ماي جاد، أنا قرفانة أوي بجد، إنت كده هتخليني عمري ما هفكر آكل من إيديها أي حاجة!

أحمد بتقزز:ده أنا كان الله يعيني، بجد أنا وهايدي شوفنا كتير، أنا من ساعة الموقف ده وأنا عندي آكل تراب ولا إني آكل حاجة من إيديها.
جميلة باشمئزاز:شئ مقزز جدًا، بليز متقولش كده تاني قدام حد غريب!
أحمد بخجل:مقدرش، هي دي حاجة تتحكي؟ ربنا يهديكي يا ماما.

خرج أحمد من المطبخ، يواصل تنظيف الريسيبشن مع سيليا، بينما في المطبخ كانت جميلة مشغولة بتنسيق الطعام، حيث أضافت اللمسات الأخيرة على البطاطا المقلية. كانت الأجواء هادئة، لكن أعين الجميع تراقب الوقت في انتظار وجبة الغداء التي ستجمعهم قريبًا. بينما في شقة ليالي، بعد تناول الغداء وشُرب الشاي، بدأ الضوء يتراجع تدريجيًا ليعطي السماء لونًا ذهبيا مع ميل الشمس نحو الغروب. من بعيد، عاد الغنامون مع

قطعانهم الضخمة، يقودون الأغنام عبر الطريق الترابي المحاذي لمنزل أم الديب. كان صوت الأغنام يملأ الحي، يتداخل مع نداءات الراعي. بينما في الأراضي الزراعية القريبة، كان الفلاحون قد انتهوا لتوهم من جمع المحاصيل، وأدواتهم الملطخة بالطين تشير إلى نهاية يوم طويل من العمل. كانت "ليالي" مشغولة في الشرفة، حيث نثرت الثياب المبللة على الحبال لتجف في نسيم المساء. كانت تراقب الحركة في الخارج، وفي لحظة من التركيز، رن هاتفها فجأة. فزعت للحظة، ثم نادت على حمود بصوت مرتفع:
_يا حمود، إنت يا واد هاتلي التليفون أشوف مين بيتصل! يا ولا!

لكن من الواضح أن حمود كان غير مستجيب، غارقًا في تناول رقائق البطاطا أمام التلفاز، بينما كانت أخته تقى جالسة بجواره على الأريكة، تمضغ بعضها وتتابع برنامجًا مملًا على الشاشة. كان الجو في الصالة هادئًا، سوى من أصوات القضم والحديث الخفيف بينهما. أما "ليالي"، فبعد أن وضعت المشبك على قميص جلال لتعلق الثوب في مكانه، دخلت بسرعة لترد على المكالمة التي كانت من جمالات. رفعت الهاتف وابتسمت قليلًا قبل أن تقول:
_ألو.

أم الفار بصراخ:الحقيني يا ليالي! المعلم حنفي قاطع النفس، حوسة لا يكون مات!
ليالي بفزع:يا نهار أسود، جراله إيه بس؟
أم الفار ببكاء:بلغي جلال وتعالوا بسرعة!
ليالي بقلق:طيب حاضر، سلام دلوقتي.

بمجرد انتهاء المكالمة مع جمالات، اتصلت ليالي على الفور بجلال الذي كان يقود التوكتوك، متجهًا بالزبائن نحو موقعهم. كان معه امرأتان ورجل في الثلاثين من عمره، وتردد صوت المحرك في الخلفية مع هدوء المسافة. رد جلال على المكالمة بصوتٍ يحمل بعض الجهد نتيجة القيادة، لكن "ليالي" لم تمنحه فرصة للحديث، حيث نطقت بصراخ:
_ألو يا جلال، مرات أبوك بتقول إن حمايا قاطع النفس وشكله تعبان أوي.

جلال بارتياع:طيب يا بت، روحي وأنا مسافة الطريق وجاي!
ليالي برَوع:طيب مع السلامة.
جلال بخوف:سلام.

وصل جلال بالزبائن إلى موقعهم في حي هادئ مليء بالأشجار الكثيفة، حيث استلم ماله بسرعة، ثم غادر مُسرعًا نحو منزل عمه حسين. كانت حركته متوترة، يراوده شعور بقلق كبير بسبب المكالمة التي تلقاها من "ليالي". أما ليالي، فقد ارتدت عباءتها السوداء، ولفت الحجاب حول رأسها بإحكام، ثم خرجت من الغرفة

وهي تشعر بالهاجس يساورها. اقتربت من أطفالها الذين كانوا مُنهمكين في مشاهدة التلفاز، ووضعت يدها على قلبها، وهي تهمس بتوتر:
_ولا يا حمود! خد بالك من أختك وعلى الله تنزل وتسيبها لواحدها!

حمود باهتمام:رايحة فين ياما؟
ليالي بجَزَع:مشوار على السريع.

أخذت ليالي هاتفها ونزلت مُسرعة من المنزل، وبكل عجل وصلت إلى هناك. فوجدت المعلم حنفي مستلقيًا على السرير، ساكنًا تمامًا، وكأنه قد فارق الحياة. كان المنظر صعبًا عليها، فغرقت في موجة من الذعر. لم تتمالك أعصابها، واقتربت منه بحذر، ثم لمست كتفه لتتأكد من حالته، لكن لا شيء كان يطمئن. نظرت إلى جمالات التي كانت واقفة بجانب السرير، وجهها مليء بالحزن، وبيأس، صرخت "ليالي" قائلة:
_يا لهوي ده قاطع النفس بجد! إيه اللي جراله بس يا أم الفار؟ إنتي عملتي فيه إيه؟

أم الفار بعُبوس:أبدًا ياختي، ده أنا يا دوب سيبته خمس دقايق وطلعت البلاكونة دخلت لقيته كده، ده الشكمان مقطع وحالته حالة.
ليالي بتلعثم:طيب هاتي شويةماية يمكن الشكمان يتظبط... قصدي نَفَسه!
أم الفار بتعاسة:من عينيا.

دخلت جمالات المطبخ بسرعة لتحضر المياه، بينما أتى "جلال" من الخارج بعدما سمع ما في المكالمة التي أجرتها ليالي، فشعر بالفزع. هرع نحو الشقة وهو يلهث من الجري، وعيناه تحملان شيئًا من الرهبة. دخل بسرعة ليجد زوجة أبيه في الممر، فتوقف أمامها، وقلبه يخفق بشدة، حيث سألها بصوت مرتجف، ووجهه شاحبًا:
_أبويا ماله يا مرات أبويا؟

أم الفار بوُجوم:مانا لو أعرف هقولكم، إنما أنا معرفش.
جلال بارتياع:ده شكله عاوز داكتور.

دخل "جلال" الغرفة، وعينيه مكتظة بالقلق، وتوجه مباشرة نحو المعلم حنفي الذي كان مستلقيًا على السرير. تشبث بذراعيه بحركة عصبية، وحركه بحذر، وهو في حالة من الارتباك، يخشى أن تكون الأخبار قد تحققت وأن المعلم قد توفى. فقال بصوت متقطع:
_يابا اصحى! مالك بس جرالك إيه؟ مانت كنت حصان، يابا!

خرجت "أم الفار" من المطبخ، وفي يديها كعكة بيضاء مزينة بالشمع، والسعادة تتألق في عينيها وهي تحتفل بشيء عظيم. كانت تغني بصوت عالٍ، ملأ المنزل بهجة، فلا تحمل هموم العالم، حيث دخلت الغرفة بابتسامة عريضة، وقالت بفرح:

_يلا حالًا بالًا بالًا حيوا أبو الفصاد، هيكون عيد ميلاده الليلة أسعد الأعياد، هنوا أبو الفصاد.

يتبع....

الفصل الخامس والثلاثون

اليوم يشرق بذكرى ميلاد ليالي، ولكن جمالات بحنكةٍ عميقة وحيلةٍ ذكية آثرت أن تحتفل دون أن تبوح بسرّها. فهي تعرف يقينًا أن ليالي، بطبعها الزاهد في المظاهر، ستصدُّ أي محاولة لإقامة حفل بسيط، إذ لا ترى في هذا اليوم إلا حدثًا عابرًا ينساب كالماء. أحيانًا تقتني الكعكة على مضض، وأحيانًا أخرى تُعرض عنها تمامًا. لكن "جلال"، الذي انتزعته الأحداث من عمله وألقت به في دوامةٍ من القلق على أبيه، وجد نفسه أمام مشهدٍ لم يكن في الحسبان، حفل ميلاد! فما كان منه إلا أن اشتعل غضبًا، وصاح بصوتٍ هزّ أركان المنزل وهو يصيح:

_بلا أبو الفصاد بلا أبو قردان! ما جرا إيه يا مرات أبويا؟ جايبانا على ملى وشنا عشان تغني أبو الفصاد وأبو القرود على دماغكم؟

انتفض "المعلم حنفي" من مضجعه، كأنما يستمدُّ من الأرض عزيمةً جديدة. مدَّ ذراعه بتأنٍ فوق كتف جلال، وجذبه إلى صدره بحنانٍ أبوي، ثم انفرجت شفتاه بابتسامةٍ دافئة وضحك عفوي، وقال:

_إيه رأيك ياض؟ مش بذمتك أعصابك سابت؟

ليالي باستغراب:إيه ده يا أم الفار؟ ويطلع ده عيد ميلاد مين إن شاء الله؟
أم الفار بفرح:عيد ميلادك يا ليالي، مش إنتي عيد ميلادك النهارده؟
ليالي بذهول:أيوه بس إنتي عرفتي منين الحوار ده؟
المعلم حنفي بابتسامة:عيب عليكي يا ليالي، حماكي حافظ تاريخ ميلادك وبالساعة كمان.
ليالي بضحك:كمان؟ ليه كنت مع أمي يوم ما ولدتني؟

ثم أقبلت "ليالي" نحو جمالات تعانقها عناقًا مشحونًا بالعرفان، وهي تريد أن تنقل عبره شكرًا أعمق من الكلمات. رفعت عينيها إليها، وقالت بصوتٍ يفيض ودادًا:

_تسلميلي يا أم الفار، هو أنا أه اتخضيت علي حمايا بس، لا تشكري!

جلال بانفعال:ماهو يابا أصل الكلام ده مينفعش! كنتوا عرفوني طيب بدل مانا جاي وأعصابي مشدودة كده!
المعلم حنفي بمرح:تعيش وتاخد غيرها ياض!
جلال بتضايُق:خلاص يابا مردودالك!
المعلم حنفي بتبسُّم:يلا عشان نطفي الشمع.

وضعت جمالات الكعكة في مركز الطاولة، فتجمّع الجميع حولها في لحظةٍ تحفّها البهجة. بدأت جمالات تُثبّت الشموع واحدًا تلو الآخر، تشعلها بنار الولاعة التي تتراقص ألسنتها، ثم غرست صاروخ الحفل في قلب الكعكة المزدانة بالكريمة البيضاء والكرز الأحمر. عندها، ارتسمت ابتسامةٌ واسعة على وجه "المعلم حنفي" ، وقال بلهجةٍ مرحة:

_انفخي يا ليالي!

ليالي بابتسامة:طيب.

أم الفار بإعزاز:كل سنة وانتي طيبة ياختي والسنة الجاية يكون معاكي عيلين كمان.
ليالي بسعادة:وانتي طيبة يا أم الفار، منتحرمش منك.

بعدما نفخت "ليالي" في الشموع، أطفأتها بهدوء ودون أن تصاحبها أهازيج الميلاد المعتادة. عادت مباشرة لتعانق جمالات مرة أخرى، وهي تودّ أن تقول لها الكثير دون حاجة إلى كلمات. كانت السعادة تلمع في عينيها، ممتنة لذكرى اعتبرتها غائبة لولا جمالات، على النقيض من أم الديب التي طالما ألهبت قلبها بالسب والقهر. عندها، همست برضى وشعورٍ دافئ نحو زوجة المعلم حنفي الجديدة، وقالت:
_شوف يا جلال أهو سبحان الله ربنا بيعوض ياخويا، اللي بقالها يومين جواز وشوف عاملالي مفاجأة وأمك اللي عايشة معاها من سنين مهانش عليها تعملي مفاجأة مرة!

جلال برضى:أصل أنا أبويا عرف ينقي المرة دي.

ثم التفت نحو أم الفار، وارتسمت على وجهه ابتسامة تحمل في ملامحها الرضا، وقال وهو يغلف كلماته بمودة:
_الله يباركلك يا مرات أبويا.

أم الفار بود:تسلم يا جلال، ده انتوا متتخيلوش انتوا غاليين عندي قد إيه! ده أنا بعتبركم أخواتي الصغيرين.
ليالي بمَعزة:الله يخليكي، الصراحة أنا الجوازة دي راضية عنها وقلبي مرتاحلها، ربنا يخليكم لبعض يارب.
أم الفار بحُب:ويخليكوا لينا، يلا نقطع التورتة!
المعلم حنفي بابتسامة:كل سنة وانتي طيبة يا ليالي.
ليالي ببشاشة:وانت طيب وبصحة وسلامة يا حمايا.

بعد شهرين من الأحداث المتلاحقة، قررت أم الديب إنشاء شرفة جديدة بدلًا من تلك التي انهارت، لتحسين أوضاع المنزل. استدعت مقاول للسؤال عن سير العمل، فاكتشفت أن التكلفة ستبلغ أحد عشر ألف جنيه، مما أثار اعتراضها، إذ كانت تواجه صعوبة في تدبير هذا المبلغ، بجانب معاناتها من افتقار الشرفة للشمس اللازمة لنشر الملابس. أبدى المقاول، الذي كان يعاني من زكام، لامبالاة زادت من غضبها، لتعرض عليه

دفع ألف جنيه فقط، وكأنها تساوم في سوق. بينما تتفاوض، دخلت نعمة برفقة أطفالها، وسألت عن آخر المستجدات. تفاجأت بمبلغ الألف جنيه الذي عرضته أم الديب، وأكدت أن تكلفة الشرفة لا يمكن أن تقل عن خمسة آلاف جنيه. لكن أم الديب استمرت بالتفاخر بحماية ضايع وقدرته على حل مشاكلها. أثار هذا استغراب نعمة، لكنها قررت التوجه إلى زوجها حامد، الذي كان يخطط لافتتاح مطعم صغير. سخرت أم الديب من مهاراته في الطهي، قبل أن يقطع المقاول الحوار بسؤاله عن المبلغ المتفق عليه.

ردت أم الديب بشكل غريب، متذرعة بحاجتها للطعام. بعد مغادرة نعمة، عادت أم الديب إلى المطبخ غارقة في أفكارها حول هموم الحياة اليومية، متأرجحة بين السعي لتحسين ظروفها والرغبة في الاستمتاع بلحظات بسيطة، رغم كل ما يتطلبه ذلك من جهد. بينما بعد مرور شهرين على عملية هايدي، التي تحسنت خلالها بشكل كبير عن حالتها السابقة، وبعد فترة من تلقي العلاج والزيارات المتكررة للمستشفى، كانت هايدي جالسة في غرفتها بينما كان زياد في عمله. بدأت تشعر بأعراض غريبة، مثل تأخر موعد العادة الشهرية، وكثرة دخولها إلى المرحاض طوال الليل، إضافة إلى شعورها بالغثيان كلما استيقظت في الصباح. بدت تلك الأعراض علامات تشير إلى أن هناك أمرًا يستدعي الاهتمام. قررت هايدي أن ترتدي ثيابها بعناية، وتضع مكياجًا خفيفًا قبل أن تتوجه للطبيب. لكنها قبل أن تخرج، طرقت باب "جميلة"، التي خرجت لها مبتسمة، وعانقتها بحرارة، قائلةً بترحيب:

_تعالي يا حبيبتي، اتفضلي!

هايدي ببسمة:عاملة إيه يا جميلة؟

دخلت "جميلة" وهايدي الشقة، وجلستا معًا على الأريكة في صمتٍ يعمُّ المكان. كانت الأجواء هادئة. نظرت جميلة إلى هايدي بتمعن، وقد لاحظت شيئًا غريبًا في ملامح وجهها، فعبست قليلًا وسألتها بفضول:

_الحمدلله بخير، كنتي نايمة ولا إيه؟

هايدي بإنهاك:لا أنا صاحية من بدري أوي.
جميلة بشك:أمال مالك؟ حاساكي تعبانة!
هايدي بإعياء:أنا تعبانة فعلًا، بفكر أروح أكشف، فقولت أعدي عليكي وتيجي معايا.
جميلة باهتمام:مالك حاسة بإيه؟
هايدي بحَيرة:أنا همشي بكلام الدكتور، وكل شهر هتابع يمكن في جديد، أنا بس كل اللي مضايقني إن أنا فعلًا مش حاطة موضوع الخلفة ده في دماغي دلوقتي، مش عارفة لو بقي معايا طفل، هقدر أشوف شغلي وحياتي ولا هتعطل؟

جميلة بدعم:يا حبيبتي سيبيها على ربنا، هاتي بيبي إنتي بس ومالكيش دعوة بأي حاجة تانية.

هايدي بتعجب:ازاي بس يا جميلة؟ ماهو هيكون محتاج إهتمام، ومحتاج اللي يشوف أكله وشربه واللي يغيرله ويديله كل وقته.
جميلة:انتي شاكة في حاجة؟
هايدي بريبة:بصراحة شاكة بس عايزة أقطع الشك باليقين.
جميلة:خلاص أنا هلبس ونروح سوا للدكتور ولو في حاجة يبقى خبر جميل، ولو مفيش حاجة يبقى عرفنا.

كانت هايدي تشعر بخوفٍ من فكرة الحمل، فهي لا تشعر بأنها قادرة على تحمل مسؤولية طفل رضيع يتطلب الكثير من الرعاية والاهتمام من مأكلٍ ومشربٍ وملبس. علاوة على ذلك، كانت ترغب في معالجة نفسها من الانهيار النفسي الذي نتج عن المعيشة القاسية في منزل أم الديب، حيث غمرت والدتها قلبها بالحزن والأسى، مما جعلها تشعر بالاختلاف عن من حولها. كانت هي وجلال مِن أكثر مَن عانوا مِن قسوة أم الديب، بينما كان أحمد يمر بفترة صعبة، وفي النهاية كانت نعمة تعيش تحت ضغطٍ خفيفٍ من والدتها.
نهضت "جميلة" بابتسامةٍ مأمولة، لتسرع لتغيير ملابسها استعدادًا للذهاب مع هايدي إلى الطبيب، متمنية أن تحمل الأخبار السارة معها، فكل ما كانت تأمله أن تعودا مع خبرٍ يُسعد قلب هايدي ويخفف عن عاتقها، فقالت بابتسامة:
_أنا هدخل ألبس ويارب نرجع مبسوطين!

هايدي:ماشي يا جميلة.

دخلت جميلة إلى غرفة الفتيات قبل أن تغير ثيابها، وفي طريقها طلبت من سيليا أن تذهب معها لترتدي ملابسها. حملت أسيل بين ذراعيها ودخلت بهما إلى حجرة الثياب "الدريسينج روم"، حيث بدأت جميلة ترتدي ثيابها مع الفتيات. بينما كانت تضيف لمسات من المكياج التي أظهرت أناقتها بلمحةٍ ساحرة، رغم أنها لم تكن في حاجة لذلك، فهي كانت بالفعل فاتنة الجمال. في الخارج، كانت هايدي تجلس بصمتٍ تتصفح برامج التواصل الاجتماعي، تنتظر خروج جميلة مع بناتها. بعد نصف ساعة من الانتظار، خرجت جميلة حاملة أسيل، وبجوارها سيليا، ليغادروا جميعًا الشقة. ركبوا سيارة جميلة متوجهين إلى معمل التحاليل، ثم إلى عيادة الطبيب الذي كانت تتابع معه جميلة وأخواتها خلال فترة الحمل. بعد إجراء تحليل الدم لهايدي في المعمل، انتظروا في الخارج لمدة نصف ساعة حتى خرجت النتيجة. استلموها وذهبوا بها إلى "الطبيب". كانت جميلة تعلم أن النتيجة إيجابية، لكنها ذهبت لتتأكد من باقي التفاصيل. جلسوا أمام مكتب الطبيب، حيث نظر في التحليل، وابتسم قائلًا:
_ها يا دكتور طمنا، هايدي حامل ولا لا؟

الطبيب بفرح:مبروك يا هايدي، هي بس في مشكلة إن الحمل ضعيف جدًا جدًا ومحتاجة مثبتات يوميًا، أقل حركة غلط عليكي للأسف.

جميلة بقلق:طيب، يعني يا دكتور في مشكلة عندها ولا إيه؟
الطبيب بوضوح:هي المشكلة كلها تتركز إن الحمل ضعيف ومش ثابت، ممكن مع أقل مجهود يحصل إجهاض.
هايدي باستياء:يعني أفرح ولا أزعل؟
جميلة بسعادة:افرحي طبعًا يا هايدي! أكيد في حل!

لم تشعر هايدي بالفرحة كما توقعت جميلة، بل غمرها خوفٌ عميق، خوفٌ من أن تفقد جنينها في أي لحظة، خاصة أن الحمل في مراحله الأولى وكان غير ثابت بعد، مما يتطلب الراحة التامة والابتعاد عن أي حركة قد تؤثر عليه. كان القلق يلوح في عينيها، وهي تتخيل العواقب التي قد تحدث. بينما كانت هايدي في صمتها، نظرت "جميلة" إلى الطبيب بترقب، قائلةً، في محاولةٍ لتهدئة الأجواء:
_مش كده برضة ولا إيه يا دكتور؟

الطبيب بإرشاد:الحل هنا هو المثبتات مع النوم على الضهر طول التسع شهور حمل! ودخولك التويلت هيكون ببطئ شديد، ولو نقدر نركبلك قسطرة هيكون أفضل.
هايدي بصعوبة:أنا مش هقدر أنام في السرير التسع شهور! شوفلي حل كويس يا دكتور! أنا هيبقى عندي شغل ولازم أنزل شغلي، مش هينفع خالص اللي حضرتك بتقوله ده.

الطبيب:والله في سبيل سلامة الجنين ده أهم مليون مرة من أي شغل، وكله في الأول والآخر لمصلحتك انتي!
هايدي بتمني:طيب مش ممكن المثبتات دي تساعدني شوية وتخليني أتحرك عادي؟
الطبيب باستبانة:بس مش بالقدر الكافي اللي يخليكي تنزلي شغل، عمومًا احنا لينا متابعة إن شاء الله مرة كل أسبوعين! وهكتبلك العلاج اللي هتاخديه قبل وبعد الأكل ده غير حقن المثبت.

بعد محادثاتٍ قصيرة بين الطبيب وهايدي وجميلة، أمر الطبيب هايدي بالنهوض إلى سرير الكشف ليستخدم جهاز السونار ويتفقد باقي التفاصيل المتعلقة بالجنين. تبين له أن حمل هايدي في مراحله الأولى، عمره شهر ونصف فقط، وهو ما جعل القلق يزداد في قلبها، فقد كان الحمل في مرحلة حساسة. حاولت جميلة بكل قوتها أن تزرع البهجة في قلب هايدي، لكن الأخيرة كانت ما تزال غارقة في مخاوفها. بعد أن انتهى "الطبيب" من فحص السونار، جلس على مكتبه وأعد لها روشتة دواء، ثم سلمها لجميلة، وابتسم الطبيب لهايدي بابتسامة مطمئنة وقال:
_ألف مبروك، نتمنى وصول المولود بألف سلامة.

هايدي ببسمة:الله يبارك في حضرتك.
جميلة بلطافة:ميرسي يا دكتور.

الطبيب بتبجيل:نورتوني.

صافحت جميلة الطبيب بامتنان، ثم غادرت مع هايدي وطفلتيها حتى وصلوا إلى السيارة. جلست أسيل في كرسي الأمان الخاص بها بواسطة جميلة، وبجوارها استقرت سيليا، بينما أخذت جميلة مقعد القيادة وهايدي بجانبها. انطلقت السيارة ببطء من الحي، في حين كانت هايدي شاردة الذهن، تفكر في العواقب التي قد تترتب على حملها، وكيف ستبلغ زياد بهذا الخبر الذي يحمل في طياته الفرح وربما يمحو آلام الماضي؟ لكن "جميلة"، وهي تركز على الطريق، رأت أن هذه اللحظة تستحق الاحتفاء دون قلق، فقالت:
_هايدي أنا مش عايزاكي تخافي بجد! لو عملتي اللي الدكتور قالك عليه مش هيحصل أي مشكلة!

هايدي بتردد:بجد خايفة أقول لزياد وفي الآخر يحصل حاجة وفرحتنا تبوظ!
جميلة بنصيحة:يا بنتي خليكي إيجابية شوية عن كده! وممكن ميحصلش أي حاجة من اللي في دماغك ده! جربي إنتي مش خسرانة حاجة!
هايدي بارتياع:خايفة بجد يا جميلة!

سيليا ببهجة:عمتو، هو إنتي هتجيبي بيبي جديد؟
هايدي بشجن:مش عارفة يا سيليا بصراحة.
جميلة بتضايُق:بطلي سلبية بقى يا هايدي وافرحي يا حبيبتي!
هايدي بتعاسة:هحاول.
جميلة بفرح:مبروك يا روحي.
هايدي بعُبوس:الله يبارك فيكي.

قررت هايدي أن تتجاهل مخاوفها وتعيش فرحة اللحظة كما نصحتها جميلة. ألقت بأحزانها جانبًا، وملأ قلبها التفاؤل وهي تتخيل حياة جديدة مع طفلها، تتساءل بين نفسها عن ملامحه، هل ستكون نسخة منها أم من والده أم مزيجًا بينهما؟ في تلك الأثناء، قادت جميلة السيارة باتجاه الأجزخانة لشراء الأدوية قبل العودة إلى المنزل، تشارك هايدي سعادتها وكأنها شقيقتها. في منزل "أم الديب"، كان المقاول قد غادر بعد أن ناقش تفاصيل إعادة بناء الشرفة مع المهندس المدني، ليبدأ العمل قريبًا. في غرفة أم الديب، حيث الظلام يلفها، كانت غارقة في نوم عميق. فجأة، اجتاحها حلم مخيف؛ رأت كلابًا سوداء تطاردها، ترتدي عباءتها التي وُضع فيها السحر بأمر من أم الفار. لم تستوعب المغزى، لكن نهاية الحلم كانت مؤلمة، إذ نال أحد الكلاب منها. استيقظت مذعورة، تتحسس مكان الإصابة، قلبها يضج بالهلع، بينما شبح الحلم لا يزال حاضرًا في ذهنها فقالت بصراخ:
_يا ساتر يارب، يا ساتر يارب... تفوه عليك يا شيطان يابن الكلـ*... الحلم دهو آني متوهش عنه! الكلاب السودة دهي ليالي وأهلها!

عادت "أم الديب" لتغفو مجددًا بعد أن هدأت قليلًا من أثر الحلم الأول، لكن نومها لم يكن هادئًا. هذه المرة، رأت نفسها تسير وحيدة وسط المقابر ليلًا، مُحاطة بظلال قبور غامضة. شعرت بالخوف يتسلل إلى أعماقها، يتربص بكل خطوة تخطوها. فجأة، استيقظت للمرة الثانية، قلبها يخفق بشدة، والخرع ينهش ملامحها. جلست في الظلام تنوح، قائلة:

_لا آني مش عاوزة أموت! آني عاوزة أعيش! آني لسه وردة مفتحة!

دخل حمود ومحمد إلى الغرفة بلهو، كعادة أفراد العائلة الذين لا يحتاجون للاستئذان في منزل أم الديب بما أن الباب دائمًا مفتوح. كان كل منهما يحمل عوامة البحر، مرتديين شورتات ملونة تنبض بروح المرح.
وقف "حمود" عند الباب، مُبتسمًا، مُحاولًا كسر جو الكآبة المخيم، وقال:

_بقولك يا ستي، ما تنزلي تبلبطي معانا شوية في الترعة!

أم الديب باستغراب:ترعة إيه يا ولا في الوقت دهو؟
حمود ببَرَم:احنا زهقانين وعاوزين ننزل الترعة، هتيجي معانا ولا لا؟
أم الديب بنعاس:انزلوا وآني هحصلكم!
حمود:طيب.

ما إن غادر حمود ومحمد وهما يقفزان بمرح نحو الترعة، حتى نهضت أم الديب من السرير، مُتجهة نحو الصالة حيث وُضع عمر على الوسادات اللينة. كان الطفل نائمًا بسلام، بعدما تركته والدته لدى جدته، لتتمكن من مساعدة زوجها في العمل وتحقيق حلمهما بفتح مطعم بدلًا من الاعتماد على العربة الصغيرة التي لا تكفي لأدواتهما. حملته أم الديب بين ذراعيها وصعدت به إلى شقة ليالي. طرقت الباب، وبعد لحظات، فتحته "ليالي"، مرتدية روبها، وشعرها مسدول بحرية على كتفيها. نظرت إلى أم الديب بضيق، وعلامات النفور واضحة في ملامحها، متسائلة بنبرة لا تخلو من الاستياء، قائلة:

_هو انتي؟

أم الديب بإجبار:خدي الواد عندك لحد ما أمه ترجع!
ليالي بتأفُّف:مانا الدادة بتاعتكم.
أم الديب بصخب:بتبرطمي بتقولي إيه يا بت؟
ليالي بخوف:ولا حاجة، هو أنا فتحت بوقي بكلمة؟ هاتيه، بسم الله.

حملت ليالي ابن نعمة بين ذراعيها، وهي تلقي نظرة مليئة بالاشمئزاز نحو حماتها، ثم أغلقت الباب خلفها لتتولى رعاية الصغير حتى عودة والدته من العمل. في المقابل، ارتدت أم الديب جلبابًا مصنوعًا من البوليستر ونزلت تلهو مع أحفادها عند الترعة القريبة من المنزل، فتتناسى متاعب الحياة. أما في عمل حامد رغم صغر حجم العربة، كانت الزبائن تتكدس حولها طلبًا لطعامه. انشغل حامد بحشو الكبدة في أرغفة

الفينو، بينما نعمة تقطع البصل والطماطم والفلفل لتحضير السجق، ودموعها تنساب بفعل البصل. رفع "حامد" عينيه نحوها سريعًا، متأملًا جهدها، وقال بنبرة تشجيعية:
_الله ينور يا نعمة.

نعمة ببسمة:أي خدمة.

وضع حامد كيس المخلل بعناية بجانب أكياس الساندويتشات الجاهزة، ثم ناولها لعلي، مساعده النشيط. تقدم "علي" نحوه بخطوات سريعة، يحمل ورقة الطلبات الجديدة، وهو ينادي بحماسة، قائلًا:
_ستة كبدة، وخمسة سجق، وأربعة قلب.

حامد بتخمين:وتلاتة مخ؟
علي بدهشة:عرفت منين؟
حامد بحصافة:واضحة زي الشمس.

استخرج حامد المخ البانية من القدر بعناية، ثم حشوه داخل الخبز بحركة مدروسة، بينما كان يجهز كيس المخلل المليء بأنواع مختلفة من الجزر والخيار واللفت والزيتون وغيرهم، ليكمل بذلك تجهيز الساندويتشات. أما نعمة، فقد كانت تتعثر في تقطيع البصل بسرعة كما اعتاد "حامد"، الذي كان يتميز بقدرته على تقطيع كيلوات من البصل في خمس دقائق فقط. فابتسم لها بحنان وقال بنبرة تحفيزية:
_يلا يا نعومي سَرعي إيدك شوية!

نعمة بعَجَلة:أهو ياخويا، على أخري والله.

بينما كانت "نعمة" تحاول تقليد حامد في طريقة تقطيعه السريعة التي اعتاد عليها، انزلق السكين فجأة فوق إصبعها، فجرحه بعمق، واندفعت الدماء منه على غير قصد، مما جعلها تتوقف في الحال، تبعد يديها عن السكين، وتشعر بألم شديد يغزوها، بينما كانت تنظر إلى الجرح الذي بدأ ينزف، قالت:
_آه يا صوبعي، آه نار.

حامد بفزع:يا نهار أزرق، مانا قايلك مية مرة خدي بالك وركزي يا نعمة! الجرح كبير ولا إيه؟

نعمة بألم:أه ياخويا عميق، إنت سكاكينك حامية أوي.
حامد بخوف:سلامتك ألف سلامة يا نعومي.

ثم نادى المساعد، وقال له بصياح وهو يشعر بالقلق:

_اجري يالا هات لزق وشاش للمدام!

علي بفضول:ليه حصل إيه؟

حامد بصياح:اتجرحت وهي بتقطع بالسكينة، اجري بسرعة ومتتأخرش!

علي:ماشي.

هرول علي مُسرعًا نحو أقرب أجزخانة ليحضر اللاصق الطبي والشاش والمرهم، بينما كانت "نعمة" جالسة على الكرسي، تمسك بيدها المجروحة، وتتألم بشدة. نظرت إلى جرحها، فكان الألم واضح على وجهها، ثم قالت بتأوه:

_كمل إنت بدالي!

وقف حامد يواصل عمله بحيوية، يغمر الخبز بلحم الرأس والبصل، الذي كانت له نكهة مميزة تجذب الزبائن من كل مكان. كانت العربة تعج بالزبائن كما هو الحال دائمًا. وفي تلك اللحظة، عاد علي حاملًا كيسًا يحتوي على كل ما طلبه. استلم حامد الكيس، ثم توجه مباشرة نحو نعمة، تاركًا المهام لعلي ليتابعها بمفرده. اقترب "حامد" من نعمة بحذر، استخرج القطن من الكيس، ثم مسح إصبعها المصاب بلُطف، محاولًا أن يخفف عنها الألم. بعد أن وضع المرهم برفق، لف إصبعها بالشاش بحذر. ثم نظر إليها بتأثر وقال بصوت خافت:

_تصدقي بالله يا نعومي؟ أنا حاسس إن قلبي أنا اللي اتجرح، بس يلا تخفيف ذنوب.

نعمة بتأوه:نار ياخويا في صوبعي! كان مالي بس ومال شغل المطاعم ده؟ مانا كنت قاعدة في البيت مرتاحة.

حامد برحمة:خلاص يا نعمة، لو قعدتك في البيت هتريحك، أقعدي!

نعمة باعتراض:لا يا حمو، أمال مين هيساعدك طيب؟

حامد بتعجب:ده إنتي شخصية غريبة يا نعمة.

نعمة باستياء:الله يسامحك.

حامد بإغراء:معلش يا نعومي استحملي معايا شويتين! عشان بكرا المطعم يتفتح يا بت ويبقى معانا فلوس ونحقق كل اللي نفسنا فيه.

نعمة بمُبتغى:يارب يا حمو ده يبقي يوم الهنا، بدل وقفتك في الشارع كده ياخويا، ده أنا ببقى خايفة الحكومة تطب علينا وتسحب منك العربية، ده احنا محيلتناش غيرها ومن غيرها هنضيع.

كأن الشرطة استمعت للحوار بينهما، ففي ذلك اليوم كان هناك حملة تفتيش قوية من حكومة الضرائب، مما جعل جميع المتاجر تغلق أبوابها خوفًا من أن يتم شمع متجرهم، وتنتهي حالتهم ببيع المناديل فوق المطبات

على الطريق. لكن "حامد" لم يكن يعلم أن حظه سيء لهذه الدرجة. فجأة، توقفت سيارة الشرطة أمام عربة الطعام، فانفض المكان بسرعة من الزبائن الذين تركوا العربة مذعورين. صفع حامد وجهه بيديه، وهو يشعر بالذعر، وقال بإحباط:

_بركاتك يا نعمة.

نهضت نعمة بهلع، وعينيها ملؤها الخوف من أن تتفاقم الأمور أكثر. في تلك اللحظة، صرخ "حامد" في علي بأعلى صوته، يأمره بالتحرك بالعربة في أسرع وقت، قائلًا بصراخ:

_لم الحاجة وبسرعة يالا!

حاول علي جمع الأغراض بسرعة، كأنه يسابق الزمن لإنقاذ كل شيء، لكن "الضابط" تقدم نحو العربة، وأمر المفتشين برفع العربة فوق سيارتهم النصف نقل. صاح بصوت حاسم، وهو يوجه التعليمات:

_شيلوا العربية دي من هنا!

حامد بصراخ:لا يا باشا أحب على راسك بلاش العربية! ده احنا أكل عيشنا كله منها، أبوس إيدك يا باشا!

نعمة بإعوال:يا لهوي.

الضابط بعجيج:العربية دي مش مترخصة، خدوها يلا!

حامد بنواح:أبوس إيدك ورجلك يا باشا كله إلا العربية، ده احنا نروح في داهية من غيرها، ده هي اللي بتصرف علينا!

الضابط بصياح:بس يالا منسمعش صوتك!

حامد بصراخ:يا باشا أحب على رجلك! بقولك العربية دي هي أكل عيشنا! يا باشا رد عليا متسيبنيش كده!

توسل حامد للضابط بأن لا يسحب عربته منه، وهو يلح عليه كاد أن يبكي من شدة الحزن. كانت نبرته مليئة بالصراخ، بينما نعمة لطمت وجهها يأسًا من الوضع. اجتمع رجال الشرطة حول العربة ورفعوها فوق سيارتهم النصف نقل. فركب الضباط السيارة وغادروا بسرعة، تاركين وراءهم حامد وعلي ونعمة يركضون وراءهم بكل قوتهم، لكن السيارة كانت أسرع منهم حتى اختفت من أمامهم تمامًا. نظر حامد إلى الأرض بكل أسى، وكان شقاءه وتعب سنواته ينهاران أمام عينيه. كانت هذه العربة مصدر رزقه الوحيد في ظل صعوبة الأوضاع الاقتصادية التي تعصف بهم. ولكن، مع اختفاء العربة، اختفت آماله أيضًا. في تلك اللحظة، نظرت "نعمة" إلى حامد، وقالت بنواح يملؤه القهر:

_يا لهوي يا لهوي يا لهوي، العربية اللي حيلتنا يا ناس... اتفقرنا يا حمو، اتفقرنا! يا لهوي علينا وعلى بختنا الأسود.

حامد بحسرة:عربيتي يا نعمة، الله يخربيتك أديكي نبرتي فيها لحد ما جُم، يا خراب بيتك يا حامد! بيتك اتخرب وهتسف تراب الشوارع يا حامد!

نعمة بإعوال:جات الحزينة تفرح ملقتلهاش مطرح.

اجتمع الفلاحون حولهم يواسونهما، ناصحين حامد بالذهاب إلى نقطة الشرطة لحل الأزمة قبل أن تتفاقم الأمور ويتم إرسال العربة إلى أسواق الخردة. لم يكن أمام حامد من خيار سوى أن يسرع في اتخاذ قرار سريع، فغادر برفقة نعمة مُتوجهين إلى منزل عائلته. هناك، قابل أخيه أشرف ليخبره بما حدث ويطلب نصيحته في التعامل مع الموقف، وفي نفس الوقت، كانت "هايدي" في الأجزخانة مع جميلة التي تركت طفلتيها في السيارة، حيث كانت تراقبهن بين كل حين وآخر. كان الصيدلي قد بدأ في إعطائها الحقنة المثبتة للحمل، وهي أول خطوة في رحلتها نحو الإنجاب. إلا أن الإبرة ألمتها بشدة، وبعدما أخذتها وضعت يدها فوق القطنة وهي تتألم، وسألت الطبيب الصيدلي بصوت خافت:

_آه، هي بتوجع كده ليه يا دكتور؟

الطبيب:هي حقن البرونتوجيست كده بتكون مؤلمة شوية، بعد ما تروحي حطي عليها تلج والورم هيخف.
هايدي بتأوه:وأنا معقول كل تلات أيام هاخدها وهتعذب كده؟ دي بجد مؤلمة أوي.
جميلة بمواساة:معلش يا هايدي إنتي مضطرة، كله يهون عشان البيبي.
الطبيب:أنا ممكن أحطلك جل مخدر قبل ما تاخديها وخلاص المشكلة اتحلت.
هايدي بتألُّم:طيب يا دكتور، شوفلنا باقي العلاج!

بدأ الطبيب في البحث عن باقي الأدوية بعناية، بينما كانت هايدي تضع يديها على موضع الحقنة، تحاول تخفيف الألم. وكانت "جميلة" تربت عليها برفق، محاولة تهدئتها. وفجأة، رن هاتف جميلة، وكان أحمد هو المتصل. ارتسمت البسمة على وجهها، فأجابته بسرعة، قائلةً:

_ألو يا حبيبي.

أحمد باشتياق:إيه يا حبيبتي، إنتي فين؟
جميلة برقة:أنا كنت مع هايدي عند الدكتور وعندنا ليكم خبر حلو أوي، بس بليز متعرفش زياد أي حاجة لحد ما نرجع!
أحمد بفضول:خبر إيه ده؟
جميلة بضحك:هتعرف لما نرجع، هو إنت فين صحيح؟
أحمد بابتسامة:في البيت طبعًا، أنا رجعت ملقتكيش وخبط على هايدي محدش رد، قولت شكلكم خرجتوا.

خرجت جميلة من الأجزخانة تواصل حديثها مع أحمد، بينما كان هو قد عاد مبكرًا من عمله. دخل المنزل فلم يجد جميلة والفتيات كما اعتاد، مما أثار قلقه. فرفع هاتفه واتصل بها، محاولًا فهم ما يجري. كان فضوله في هذه اللحظة يزداد، وعقله يتأرجح بين الأفكار المختلفة، لكنه لم يتمكن من الوصول لإجابة حاسمة، وفي تلك الأثناء، أحضر "الطبيب" جميع الأدوية ووضعها على جهاز التسعير، ثم نقلها بعناية إلى العبوة البلاستيكية، مُرتبًا إياها بعناية فائقة، وقال:

_كل العلاج قدام حضرتك.

هايدي:كام يا دكتور؟
الطبيب:سبعمية.

استخرجت "هايدي" المال من حقيبتها وأعطته للصيدلي، وقالت بلُطف:
_شكرًا.

الطبيب بابتسامة:العفو.

أخذت هايدي الأدوية وخرجت، بينما كانت "جميلة" تواصل حديثها في الهاتف. كانت تلفظ آخر كلماتها مع أحمد، قائلة:
_أه خلاص هايدي خلصت، احنا راجعين....أوكي باي.
بعدما أنهت "جميلة" المكالمة، وضعت الهاتف في حقيبتها والتفت نحو هايدي وسألتها باهتمام:
_خلاص يا هايدي؟

هايدي:أه خلاص.
جميلة:طيب يلا بينا.

ركبت جميلة وهايدي السيارة معًا، وبدأت السيارة في السير عبر الشوارع الهادئة. كانت هايدي تلتزم الصمت، بينما كانت جميلة تتأمل الطريق في سكون أيضًا، محتفظة بتفكيرها في كل ما مر بهما خلال اليوم. بعد دقائق قليلة، وصلوا إلى المنزل، ونزلوا من السيارة، ليصعدوا مباشرة إلى شقة جميلة عبر المصعد. عند دخولهم الشقة، كانت الأجواء هادئة، إذ كان أحمد في انتظارهن. كان يجلس على الأريكة، يراقب الساعة بين حين وآخر، والقلق يسيطر عليه بسبب غيابهن. كان الفضول يقتل أحمد ليعرف ما كان يحدث، فقد شعرت جميلة أنها تركته في حالة من الترقب. وبينما دخلت هايدي وجميلة الشقة، اندفعت أنظارهما نحو "أحمد" الذي استقبلهم بابتسامة، وهو يقول:
_حمدالله على السلامة.

أجابت "هايدي" و"جميلة" بنفس الرد، بينما كانت نظراتهما تتبادل التلميحات دون أن تكشف عن شيء أكثر:
=الله يسلمك.
ثم جلستا مع الطفلتين في مقابل "أحمد" الذي نظر إليهما بفضول، يتساءل في داخله عما جرى أثناء غيابه. كان يتابع حركاتهما بعينين مليئتين بالاستفهام، وحين التقت نظراته مع نظرات جميلة، تبددت بعض الحيرة التي كانت تحيط به. أخيرًا، رفع حاجبيه وكسر الصمت قائلًا:

_خبر إيه ده بقى؟ عشان أنا الفضول هيموتني بصراحة!

جميلة بمزاح:نلعب بأعصابك شوية طيب!
أحمد بضحك:قولي بقى يا جميلة، خبر إيه ده؟
جميلة ببسمة:في بيبي جديد جاي في العيلة!
أحمد بتفكير:انتي ولا هايدي؟
جميلة بسعادة:لا طبعًا أنا إيه؟ أنا خلاص كفاية عليا سيليا وأسيل. هايدي حامل وهتجيبلنا بيبي جميل!

شعر أحمد بسعادة عارمة بعدما استمع لخبر حمل أخته، التي كانت في السابق ترفض أي عرض زواج، مشوهة بتصوراتها عن الحياة الزوجية ومتأثرة بمواقف سابقة جعلت عقدة الزواج متضخمة في عقلها. كانت ترفض فكرة الشريك في حياتها بكل قوة، حتى أن فكرة وجود زوج كانت بعيدة تمامًا عن تفكيرها. لكن الأمر تغير الآن، حيث وجدته الشخص الذي يكمل حياتها، وها هي الآن تحمل في رحمها حياة جديدة، قطعة بشرية صغيرة تنمو وتكبر يومًا بعد يوم. نهض "أحمد" من مكانه على الفور، والفرح يجري في عروقه، ليعانق أخته هايدي بكل سرور، معبرًا عن سعادته بالخبر الذي غمر قلبه، قائلًا:
_بجد يا هايدي؟ ياه بعد كام شهر أخيرًا قررتي تجيبلنا طفل؟ يعني أخيرًا سيليا وأسيل هيلاقوا حد يلعبوا معاه؟ وأنا هبقي خالو؟

جميلة بقهقهة:يا حبيبي إنت خالو من زمان!
هايدي بحزن:أيوه بس للأسف الدكتور كلامه ميطمنش!
أحمد بقلق:ازاي يا هايدي؟ هو في مشكلة ولا إيه؟
هايدي باستياء:الدكتور بيقول إن أنا لازم أمشي على المثبتات ومتحركش، عشان ميحصلوش حاجة!
أحمد بنُصح:طب ما تعملي كده يا هايدي ومتتحركيش! جميلة هتساعدك وهتعملك كل اللي إنتي عايزاه!

جميلة بإرشاد:هايدي أنا بجد مش عايزاكي تشيلي هم أي حاجة! أنا هساعدك لحد ما البيبي يوصل بألف سلامة.
هايدي برفض:لا يا جميلة إنتي برضة عندك شغلك ومينفعش تتعطلي بسببي، ده غير إن ليكي بيتك وبناتك، كل ده هيكون كتير عليكي.
جميلة بإصرار:لا يا هايدي مفيهاش أي حاجة، بجد أنا بعتبرك أختي!
هايدي بمَحبة:ربنا يخليكي ليا يارب.
جميلة بإعزاز:ويخليكي ليا يا حبيبتي.

قبل "أحمد" رأس أخته، وبارك لها بسرور، بينما كان قلبه مليئًا بالفخر، قائلًا:
_ألف مبروك يا هايدي.

هايدي بحماس:الله يبارك فيك، أنا هتصل بزياد أقوله!
جميلة بتهلل:ده هيفرح أوي.

قررت "هايدي" الاتصال بزياد أخيرًا لتخبره بالخبر السعيد الذي سيغير مجرى حياتهم إلى الأفضل، خبر يفوق قيمة مليارات الأموال. كانت تشعر بتوتر خفيف في قلبها بينما ترفع هاتفها، وتبحث عن اسمه المسجل في قائمة الاتصال تحت لقب "My other half". في نفس الوقت، كان زياد غارقًا في ضغط العمل. كان العملاء يتوافدون بشكل مستمر، وعليه التعامل مع كل منهم بسرعة وكفاءة. لكن رغم انشغاله، بمجرد أن ظهرت رسالة الاتصال القادمة من "ديدي♥" على شاشته، توقف عن كل شيء، وأجاب على الفور. كان قلبه ينبض بسرعة وهو يترقب صوتها، وهي تقول بفرح:
_عندي ليك خبر هيفرحك أوي!

زياد بتمني:ياريت، أنا عايز أفرح من زمان.
هايدي بابتسامة:هتبقى بابا... أنا حامل يا زياد!

يتبع....

الفصل السادس والثلاثون

بينما كانت "أم الديب" تسير بخطى مُثقلة نحو الترعة، حيث اعتادت أن تغمس ذكرياتها في مائها العذب مع حفدتها، باغتتها نوبة دوار كأنما جُرّدت الأرض من تحت قدميها. غفت عيناها للحظات كأنها سقطت في عالم آخر، فرأت نفسها تسير وحيدة بين المقابر، ظلال الموت تلفّها بصمتٍ. استيقظت مرعوبة، كأن حلمها كان نذيرًا، فغيّرت وجهتها صوب منزل الساحر الكامن في أطراف القرية، حيث لا يبلغ المكان إلا من تجرّأ على تحدي مخاوفه. كان المبنى غامضًا كوحش رابضٍ، تتشابك حوله أشجار ملتوية كحراس له. أهل القرية لا يقتربون منه، فقد نسجت حوله الأساطير عن شرّ لا ينضب. أما أم الديب، فقد كانت قدماه تسلكان الطريق إليه بلا تردد، وهي تربت على هذه الزيارة حتى صارت جزءًا من يومياتها. هناك، جلست قبال الدجال، رجل طمست الشعوذة روحه، يتلاعب بمصائر البشر كدمى تحركها أصابع شريرة. كان مُنهمكًا في طقوسه المُريبة، يصنع من الظلام أدواتٍ للخراب. فقالت له بصوت مثقل بالريبة، بينما يعبث بأدواته الملعونة:

_بقولك إيه ياخويا! آني من كام يوم وآني مش مظبوطة وعمالة أحلملك بكلاب وجبابين وتعابين، ما تقولي ياخويا دهو يطلع إيه؟

الساحر بجشع: ٥٠٠ جنيه وأقولك!

أم الديب بشح:ايهي ٥٠٠ جنيه دول كتير أوي أوي، اعمل معايا الواجب ده آني عالطول بجيلك وبنفعك!

الساحر بحسم:أقل من ٥٠٠ مش هتكلم نص كلمة!

أم الديب بتضايُق:يادي النيلة السودة، طيب آني هتصرف وهرجعلك!

الساحر بشَعوذة:أسيادنا راضيين، مبسوطين، فرحانين، الله.

حدّقت "أم الديب" في وجهه المُريب، عيناه كانتا كجمرتين تخفيان أسرارًا أعمق مما يحتمل العقل. شعرت برعدة تسري في جسدها، والمكان ينزّ خوفًا. نهضت فجأة، دون أن تجرؤ على التفوّه بكلمة، واستدارت خارجةً من ذلك المبنى المشؤوم. الباب، كان يمتلك إرادةً خفية، أغلق خلفها بصدحٍ ثقيل يطنّ في أذنيها. عادت إلى منزلها، وكل خطوة تجرّ أطنانًا من التفكير. بحثت بين أغراضها عن المال، تتحسس القطع النقدية. راودها شعور بالندم، إذ شعرت أن دفع هذا المبلغ أمرٌ يفوق احتمالها، ليس فقط ماديًا، بل حتى نفسيًا. جلست على سريرها، وتمتمت لنفسها بصوتٍ خافت:

_ما تخليكي يا أم الديب وتريحينا! ماهو أصل ٥٠٠ جنيه دول مش قليلين! يا لهوي دهم يكفوني سنة كاملة يا عالم، ايهي وفي الآخر ياخدهم مني ويطلع مفيش حاجة وتبقى فلوسي راحت على الأرض؟ لا بلاش، هو احنا بنلاقي الفلوس في الشارع؟ دهي بتيجي بطلوع الروح.

قررت أم الديب أن تصرف نظر عن كشف الساحر، مفضّلة أن تبقي المال لشيء أنفع يعينها على متطلبات الحياة. جلست تفكر في أولوياتها، بينما "جلال" كان يجوب شوارع القرية الخاوية، يقود التوكتوك كما يقود مزاجه، تتناثر حوله أصوات أغاني المهرجانات. في يده سيجارة يعبث بدخانها، وفي عينيه نظرة سخط على يوم لم يحمل له زبونًا واحدًا. فجأة، ودون سابق إنذار، ارتطم توكتوك آخر بوسيلته من الخلف، فانكسر الفانوس وساد المكان توتر كاد أن يخنق الهواء. توقف جلال بغتة، وأعصابه اشتعلت دفعة واحدة. اندفع

نحو السائق الآخر كإعصار لا يُوقف، وجذبه من ثيابه بقوة، وهو يريد اقتلاع اعتذاره بالقوة. صاح بصوتٍ ملأ الشارع، متجاوزًا حتى ضجيج الأغاني التي لم تتوقف عن الصدح، فقال بامتعاض:
_جرا إيه يابن العامية؟ مش تفتح؟ التوكتوك اتفشخ! كسرتلي أم الفانوس، إنت عبيط ياض؟

السائق بصياح:ما تلم لسانك يا عم! هو أنا يعني كان قصدي؟ وبعدين إنت اللي داخل عليا وماشي غلط!
جلال بصخب:لا ياض أنا ماشي في سكتي، ومش حتة عيل زيك هيقولي أمشي ازاي! طلعلي ٥٠٠ جنيه يإما هدفنك صاحي!
السائق بعجيج:ما براحة على نفسك بس يا عم! ٥٠٠ جنيه إيه اللي أديهملك؟ مانا قولتلك مكنتش قاصد!
جلال بجلبة:ياض متتنحش عشان متزعلش! طلع ٥٠٠ جنيه بدل مانا اللي أطلع روحك! خلص يالا!
السائق بعناد:وربنا ما مطلع حاجة وأعلى ما في خيلك اركبه!
جلال بمسبة:انت قد الكلام اللي بتقوله ده يابن الـ****؟**
السائق ببذاءة:ده إنت اللي ابن ستين ****!**

تصاعد النزاع بين جلال والسائق الآخر، والكلمات النابية التي تبادلاها كوقود أشعل نيران الغضب. انحدرت الشتائم إلى مستوى خطير، تمس الأمهات والآباء. لم يستطع جلال ضبط أعصابه، وكأن الغضب قد تغلغل في أعماقه حتى أفقده السيطرة. في لحظةٍ عمياء، خلع قميصه بشراسة، واستل مطوى كانت مختبئة في جيب بنطاله. بلا وعيٍ أو تردد، ضرب بها السائق في خصره، فانهار الأخير على الأرض يصرخ بألمٍ يمزق سكون الشارع. هرع جلال نحو التوكتوك، عازمًا على الهرب، لكن صرخات المصاب استدعت أهل القرية الذين هرعوا من كل اتجاه، والتفّوا حول جلال كطوقٍ محكم، وأمسكوه بقوة، ثم اقتادوه مع السائق المصاب إلى قسم الشرطة. هناك، كان جلال يقف ممتعضًا، عيناه مليئتان بالتمرد. بينما في زاوية الغرفة، كان السائق يتلوى وينزف، يملأ دمه الأرض كشاهد صامت على الحادثة. اقتحم "الضابط" المكتب بصياح، صوته ينذر بالصرامة، وقال:
_إيه اللي حصل يا بلطجي منك له؟

جلال بصراخ:ابن الـ*** خبط التوكتوك بتاعي كسرلي الفانوس ومش عاوز يديني حقه!**
السائق بتأوه:لا يا باشا هو اللي كان ماشي مُعاكس، هو اللي غلطان وكمان مش عاجبه، أنا عايز حقي يا سعادة الباشا!
الضابط بحدة:بطايقكم!
جلال بتردد:أنا لا مؤاخذة بطاقتي في البيت.
الضابط بتعجب:وانت بطاقتك في البيت بتعمل إيه؟
جلال بكذب:نسيتها.

أخرج السائق بطاقته الشخصية بيدٍ مرتجفة، ووضعها أمام "الضابط"، الذي التقطها بنظرة صارمة كأنه ينقب في حروفها عن إجابات مخفية. تفحّصها للحظات، ثم رفع عينيه نحو جلال، وصوته يقطر حدةً:
_اسمك إيه؟

جلال بتلجلج:جلال.
الضابط بسخرية:مكتوب في البطاقة جلال بس؟ أنا عايز الإسم ثلاثي!
جلال بقلق:جلال حنفي الديب.

ثم التفت "الضابط" نحو العسكري المتواجد بجانبه، ونظراته تحمل قرارًا لا يقبل النقاش، وأمره بلغة قاطعة:
_أنا عايزك تشوفلي الإسم ده على الكمبيوتر!

العسكري بطاعة:أوامرك.

توجه العسكري إلى حجرة مجاورة، حيث جهاز الكمبيوتر الذي يحتفظ بسجلات القرية وأسرار سكانها. بدأ البحث عن اسم جلال في الملفات، محاولًا كشف ما إذا كانت لديه أحكام أو سوابق قضائية. في تلك اللحظة، رفع "جلال" يده، معترضًا بحركات تمثيلية توحي بالبراءة. قال بصوتٍ ممتزج بين الحدة والتوسل:
_لا يا باشا كمبيوتر إيه؟ ده أنا ماشي سليم ومية مية.

الضابط بتجهُّم:هنشوف.

كان جلال يقف متوترًا، يتلفت يمينًا ويسارًا، وكأن كل ثانية تمر تحمل معها حكمًا مجهولًا. عرقه يتصبب ببطء، وخفقات قلبه تتسارع كأنها تدق على أبواب القلق. عاد "العسكري" أخيرًا من الحجرة الأخرى، يحمل نظرةً مشوبة بالغموض. وقف مستقيمًا أمام الضابط، وأعلن بصوتٍ ثابت، يقطع صمت الحجرة:
_عليه تلات أحكام يا باشا.

الضابط بدهشة:الله الله... تلاتة مرة واحدة؟ ماشاء الله، أنا بصراحة خايف أحسدك.
جلال بارتباك:لا يا باشا تلاقيه تشابه أسامي، لكن أنا طول عمري ماشي جنب الحيط.
الضابط بفضول:إيه الأحكام اللي عليه؟
العسكري:سرقة موتوسيكل، التعدي على رئيس مجلس النواب بأبو حلاوة، والتعدي على الممتلكات الحكومية.
الضابط بابتسامة:الله ينور، وتقولي طول عمرك ماشي جنب الحيط؟

رفع "الضابط" صوته فجأة، وكأن أمرًا قد صدر من أعلى، ناظرًا إلى جلال بنظرة حادة ملؤها الحسم. نادى على العساكر الذين كانوا يقفون في الجوار، قائلًا بصياحٍ عارم:
_خدوه على الحجز!

جلال بصياح:أنا معملتش حاجة يا سعادة الباشا! الكلام ده محصلش! ده ظُلم، يا باشا أنا مبكدبش، تلاقيه تشابه أسامي لكن جلال ميعملش اللي بتقوله ده!

أخذ العساكر جلال وجرّوه داخل الحجز، حيث أغلقوا الباب خلفه بقوة، ولكن بعد لحظات قليلة، بدأ يضرب الباب بعنف، وهو يصرخ محاولًا الخروج، قلبه يعتصره الخوف. نظر "الضابط" إلى السائق الذي كان ما زال في زاوية الغرفة، يتألم من جروحه، ثم التفت إلى العسكري الذي يقف بجانبه. رفع صوته مرة أخرى، هذه المرة أكثر حزمًا، وقال للعسكري بصياح:
_وشوفلي الأخ ده كمان! ده احنا ليلتنا طويلة.

أخذ العسكري بطاقة السائق ليتأكد من سجله، لكن النتيجة كانت خالية من أي أحكام قضائية. فقررت الشرطة نقله إلى المستشفى لتلقي العلاج قبل أن تتفاقم حالته. بينما كان السائق يصرخ متألمًا. بينما في منزل عائلة حامد، حيث كانت العائلة مجتمعة في الصالة، فوق الجلسة العربية، تتبادل الحديث حول ما حدث لعربة "حامد" التي احتجزتها الشرطة. كان حامد يجلس في صمت، يغمره الألم النفسي. نظر إلى العائلة من حوله، وكأن كل شيء حوله ينهار. وقال بصوت مليء بالقهر:
_يا بختك الأسود يا حامد! أنا اتفقرت ياما، هأكل نعمة والعيال ازاي؟ دي مصيبة سودة.

أم أشرف بمقصد:ماهو لما الواحد يبقى وراه واحدة مايلة، هتهبطه وهيفضل يفشل ويقع... إنما اللي بيتجوز واحدة جدعة وست بصحيح، هتفضل في ضهره لحد ما يبقى من أكبر أعيان البلد.
نعمة بسخط:تقصدي إيه بالكلام ده يا أم أشرف؟ تقصدي إن أنا مايلة عشان كده ابنك مايل وفاشل؟
هبة ببسمة:لا لا يا نعمة، حماتي مش قصدها! هي قصدها يعني إنك أقفي جنب حامد لحد ما يقف على رجله من تاني!
نعمة بانفعال:إيه يا هبة اللي جاب الكلام ده للكلام اللي هي بتقوله؟ مانا طول عمري واقفة جنبه، وإن كان على فشله فدي مشكلته هو.

كان حديث أم أشرف جارحًا، واضحًا كالشمس في وضح النهار، تحاول به أن تقلل من قيمة نعمة وتظهرها في صورة سيئة أمام الجميع. كان قصدها جليًا، وكلماتها تحمل شحنة من الإهانة التي لا تخفى على أحد. استاءت نعمة بشدة من هذا التصرف، وخرجت عن شعورها، إلا أن هبة تدخلت بسرعة، محاولةً تهدئة الموقف بينهما. في تلك الأثناء، نظر "أشرف" إلى حامد بتركيز، وعيناه مليئتان بالتفكير كما لو كان يدبر أمرًا في عقله. وبعد لحظة صمت، قال:

_بُص يا حامد! أنا هروح أشوفلك الحوار ده وهنعملك ترخيص وعربيتك هترجعلك تاني! إنت بس لو كنت تسمع كلامي وتعمله من زمان، عاجبك اللي حصل ده؟

حامد بندم:ياريتني سمعت كلامك ولا كان حصل كل الكلام ده.
أم أشرف بحسرة:كلمة ياريت ما بتعمر بيت.
حامد بتضايُق:خلاص بقى ياما! أنا هروح مع أشرف ونخلص الحوار ده ويارب يتحل، وإلا هنقف على المطبات نشحت.
نعمة بخوف:لا يا حامد كفى الله الشر، ربنا ما يكتبها علينا ولا يشمت فينا أعدائنا.
أشرف باستعداد:قوم يا حامد يلا!

نهض حامد وأشرف في الحال، وعيناهما مليئتان بالعزم، فخطر الحل في أذهانهما وكان لا بد من تنفيذه بسرعة. خرجا معًا متجهين إلى نقطة الشرطة في أبو حلاوة، عازمين على إيجاد حل للمشكلة ومحاولة استخراج الترخيص للعربة. كانت كل خطوة يخطونها حاسمة جدًا في سبيل حل الأزمة. وفي الوقت الذي خرج فيه حامد وأشرف، نهضت نعمة لتغادر منزلها، ولاحظت "هبة" تحركاتها، فتبعتها بسرعة، مشغولة بقلق على حالها. وعندما وصلت إليها، سألتها بلهجة مليئة بالتوجس:
_رايحة فين يا نعمة؟

نعمة بانزعاج:ماشية، راجعة بيتي.
هبة بإلحاح:أقعدي يا نعمة، خليكي معانا!

نهضت "أم أشرف" بلا أي اهتمام، وكأنما لا يعنها ما يحدث من حولها. توجهت إلى غرفتها، ووجهها لا يحمل سوى علامات القسوة. قبل أن تدخل الغرفة، التفتت إلى هبة وقالت بنبرة قاسية:
_أنا داخلة أنام يا هبة، متبقوش تصحوني!

هبة بخجل:طيب يا ماما.

دخلت "أم أشرف" غرفتها وأغلقت الباب خلفها بقوة، كأنما تعلن عن حاجتها إلى عزلة تامة. بينما في الصالة، اقتربت نعمة من سلفتها هبة، وعانقتها بحرارة، بينما كانت تودعها قبل أن تغادر. وعلى وجهها عبوس واضح، قالت بنبرة مُتجهمة:
_يلا مع السلامة.

هبة باستغراب:برضة يا نعمة؟

نعمة بعِزة:مانتي شايفة ياختي، هو أنا يعني محتاجة أتكلم؟ ماهي كل حاجة واضحة زي الشمس أهو.
هبة بود:طيب يا نعمة، خدي بالك من نفسك!

غادرت نعمة منزل عائلة زوجها، حيث لم تجد فيه ترحيبًا أو احتفاءً. كانت علاقتها بحماتها فاترة، بل مليئة بالكره. كانت تشعر وكأنها ضيفة غير مرغوب فيها، تُعامل كما لو كانت عبئًا على العائلة، تمامًا كما تفعل أم الديب مع ليالي. بدت العدالة الإلهية وكأنها تعمل في الخفاء، تعاقبها بما لم يكن لها فيه يد. لكن نعمة، رغم الظروف التي تمر بها، لا ترى أنها أخطأت في شيء. هي بعيدة كل البعد عن تصرفات والدتها، فهي طيبة القلب ومتسامحة مثل والدها. هي وأحمد لا يحملان في قلبيهما سوى النية الطيبة، ولا يضمران الشر لأحد. في المقابل، كان جلال، متسلط على الجميع، يتحكم بكل شيء من منطلق الجبروت، دون رحمة. أما هايدي، فكانت دائمًا صاحبة الشخصية الانفعالية، فحينما يتجاوز أحدٌ عليها، تجدها لا تتراجع ولا تغفر بسهولة. كان لكل منهم صفاته الخاصة، فبعضهم يشبه أم الديب في صرامتها وسلوكها القاسي، وبعضهم الآخر يحمل بعضًا من طباع المعلم حنفي، بحنوه. في مكان آخر، كان "زياد" في حالة من الاضطراب، فقد سمع خبر حمل هايدي، الخبر الذي كان ينتظره منذ شهور. رغم كل المحاولات، لم يكن يصدق أن أمنيته قد تحققت أخيرًا. غادر عمله على عجل، واستأذن من مديره ليعود إلى المنزل بسرعة. دخل شقة أحمد، وعانق هايدي بقوة، وقبّل رأسها ويديها بحب غامر، بينما كان يشع بالسعادة. كانت عيونه مليئة بالحب، وكأن الدنيا قد أهدت له أروع هدية، فقال:
_بجد يا هايدي ولا انتوا عاملين فيا مقلب؟

هايدي بضحك:والله بجد، هنعمل مقلب فيك ليه بس؟
جميلة بابتسامة:هي بس هايدي لازم متتحركش خالص لمدة التسع شهور وتفضل نايمة على ضهرها، دي توصية الدكتور!
زياد بفرح:ليه طيب؟ ما تتحرك عادي!
هايدي بشجن:علشان للأسف البيبي ضعيف جدًا، أنا بصراحة مكنتش عايزة أقولك عشان لو حصل حاجة متزعلش بعد ما تفرح!
زياد باستبشار:لا مش هيحصل كده، بس احنا نسمع كلام الدكتور بالحرف، وإن شاء الله مش هيحصل أي حاجة.

أحمد بتهنئة:ألف مبروك ليكي يا هايدي إنتي وزياد.

أجاب "زياد" و"هايدي" بصوت واحد، تغمرهما السعادة التي بدت كأنها توحدت بينهما، كلماتهما خرجت مفعمة بالفرح:
_الله يبارك فيك.

جميلة بلُطف:يلا يا حبيبتي عشان هنبدأ ننفذ كلام الدكتور، بس براحة على مهلك!
هايدي بخوف:ماشي ربنا يستر.

تساندت هايدي على جميلة، تتكئ على ذراعها بخطوات بطيئة، خاشية أن تزعزع حركتها سلامة الجنين. تحركتا معًا نحو غرفة النوم، حيث كانت الراحة هي الأولوية القصوى كما أوصى الطبيب. جلست هايدي على السرير بهدوء. بينما جميلة رتبت الوسائد بعناية، محاولة أن تبعث الراحة في الغرفة. لحظات قليلة وطرقات خفيفة على الباب تبعتها دخول سيليا إلى الغرفة، خطواتها حذرة ونظراتها مليئة بالفضول. جلست بجانب هايدي، تراقبها بصمت قبل أن تقطع "هايدي" هذا الصمت، وهي تتلفظ:
_طيب في مشكلة!

جميلة باكتراث:مشكلة إيه؟
هايدي:كده محتاجين الدكتور يجي كل تلات أيام عشان حقنة المثبت!
جميلة بابتسامة:لا عادي خالص، هنتفق معاه يجي كل تلات أيام، متقلقيش من حاجة!
سيليا بفرح:انتي هتجيبي بيبي يا عمتو هايدي؟
هايدي بتأكيد:إن شاء الله يا سيليا.
سيليا بمرح:طب ينفع تجيبي بيبي بنوتة عشان ألعب معاها أنا وأسيل؟
هايدي بضحك:حاضر.
جميلة بمزاح:ويفرض جه Boy يا سيليا، هتعملي إيه؟
سيليا بلباقة:كده هضطر ألعب معاه يا مامي، بس متخافيش أنا هكون أكبر منه بكتير!

علت ضحكات جميلة وهايدي أرجاء الغرفة ، بينما اقتربت جميلة من سيليا لتحتضنها بدفء، في لحظة تعبق بمشاعر الألفة. في تلك الأثناء، كان أحمد يجري اتصالًا بنعمة ليطمئن على أحوالها وأحوال أسرتها، خاصة بعد الأحداث العصيبة التي واجهتها مؤخرًا. عند حديثه معها، أحس بتغير في صوتها وحزن دفين يعكر صفوها، ليكتشف بعد ذلك أن عربة حامد قد صودرت من قبل الحكومة بسبب عدم ترخيصها، مما أثقل كاهل نعمة وزوجها حامد، إذ باتوا يدورون في دوامة محبطة محاولين إيجاد حل. رغم محاولات أحمد في تقديم المساعدة عبر معارفه، إلا أن نعمة فضلت انتظار ما سيأتي به القسم الذي اتجه إليه أشرف وحامد، على أمل أن تحل المشكلة قريبًا. لم يكن أحمد يريد أن ينهي المكالمة دون أن يحاول رفع معنوياتها، فقرر مفاجأتها بخبر سعيد سيبدل حالها، مفعم بالأمل. وبعد محاولاته لجعلها تخمن الخبر، أخبرها أن هايدي حامل، وأنها ستصبح خالة للمرة الأولى، فما كان من نعمة إلا أن أطلقت زغاريد الفرح من شدة البهجة، غير مصدقة ما سمعته. وقبل أن يلتقط أحمد أنفاسه، كان الفرح قد استولى على مشاعرها لدرجة أنها أسقطت الهاتف من يدها وانطلقت نحو أم الديب لتزف لها الخبر بنفسها. بينما كانت أم الديب تجلس على الأريكة بهدوء، انفتح الباب فجأة على مصراعيه، مما جعلها تنتفض مرتعبة وتفقد توازنها لتسقط من على الأريكة، مستقبلة صخب الفرح الطارئ دون أي مقدمات، قالت "نعمة" بسرور:

_افرحي ياما افرحي! بتك هايدي حامل وكلها كام شهر وعيلتنا هتزيد واحد!

أم الديب بصياح:حد يدخل علي حد كدهو يا بت الكلـ*؟ ده آني فكرت في مصيبة حصلت.

جذبت "نعمة" والدتها من على الأرض بحنان، ورفعتها برفق حتى جلستا معًا على الأريكة. كانت نعمة تغمرها السعادة، تزغرد بأعلى صوتها كأنها تعلن فرحتها لكل أرجاء المنزل. لم تستطع كتم حماسها، فقد كان حمل أختها أخيرًا بمثابة خبر أعاد إليها البهجة التي غابت طويلًا. كان المنزل يضج بصدى زغاريدها، ووجهها يشع فرحًا لا تسعه الكلمات. رغبت في مشاركة هذه اللحظة السعيدة مع كل من تعرفه، حتى أنها فكرت في توزيع الشربات على أهل القرية بأكملها. نظرت إلى والدتها، وكأن عينيها تنطق قبل لسانها، وقالت بفرح:
_افرحي ياما، ده احنا ربنا يكتر من أفراحنا كمان وكمان.

أم الديب بفضول:ازاي يا بت؟
نعمة بدهشة:هو إيه اللي ازاي ياما؟
أم الديب بإعوال:هو مش آني قولت ابن حسين المبقع ميقربش منها؟ يا فضيحتك يا أم الديب يا لهوتي!
نعمة بسعادة:انتي بتقولي إيه ياما؟ هو شاقطها من على الكوبري؟ دي مراته حلاله! مالك كده في إيه؟ افرحي ياما افرحي! ده احنا هنملى البيت زغاريد لحد الصبح.

وقع الخبر كالصاعقة على أم الديب، لم يمر في قلبها طيف فرحة كما يحدث لأي أم في مثل هذا الموقف. بدلًا من ذلك، اجتاحها شعور بالحقد، إذ لم تتقبل أبدًا أن تعيش ابنتها هايدي حياتها الزوجية بحرية، كما رفضت فكرة ارتباطها بزياد منذ البداية. كانت كراهيتها لزياد عمياء، لا تجد له مكانًا في قلبها، وزاد الأمر سوءًا مع سماعها نبأ حمل هايدي منه. شعرت وكأن هذا الخبر أشعل في داخلها نيران السخط. على النقيض، نعمة لم تستطع احتواء فرحتها. نهضت مُسرعة تطلق الزغاريد من أعماق قلبها، مفعمة بالبهجة التي لم تعرف حدودًا. صعدت إلى شقة ليالي بخطوات خفيفة مليئة بالحماس، وطرقت الباب بشدة، ولسانها لا يتوقف عن ترديد نغمات الفرح. فتحت "ليالي" الباب بوجهٍ يحمل دهشة ممزوجة بتساؤل، ونظرت إلى نعمة قائلة:
_إيه يا نعمة صوت الزغاريد ده؟ في حاجة ولا إيه؟

نعمة ببهجة:هايدي حامل يا ليالي! ده أنا مش مصدقة نفسي! دي ياما طلعت عينينا عشان توافق على عريس وتتجوز وحتى بعد الجواز كانت قرفانا معاها برضة... يا مانت كريم يارب.

انطلقت الزغاريد من "ليالي"، تناغمت مع زغاريد نعمة كأنهما تعزفان سيمفونية من الفرح. كانت ملامح ليالي تشع بهجة، فهذا الخبر أضاء ظلمة الأيام الماضية، وحوّل الحزن الذي خيّم على الأجواء إلى فرح يغمر القلوب. بصوت يفيض بالسعادة، قالت ليالي، وهي تبتسم من أعماق قلبها:
_تصدقي بالله يا نعمة؟ فرحتيني أوي أوي، لا بقولك إيه! احنا نروحلها بكرا نباركلها وناخدلها معانا حاجة تليق بمقامها.

نعمة بسعادة:أيوه مانا كنت لسه هقولك وبالمرة لو عايزة حاجة نعملهالها!

ثم التفتت "نعمة" نحو الجدار، وكأنما تخاطب هايدي رغم غيابها، والابتسامة لا تفارق شفتيها. بصوت مفعم بالسرور، قالت:
_ربنا يقومك بالسلامة يا هايدي وأشوف ابنك ولا بتك على خير يارب.
توقف صوت الزغاريد على شفتي نعمة بعد لحظات من البهجة الصاخبة، وقررت في نفسها زيارة هايدي غدًا برفقة العائلة، ليشاركوا جميعًا في تهنئتها ومباركتها بهذا الخبر السعيد الذي أضفى على الأيام طعمًا جديدًا، وفي نقطة الشرطة بقرية أبو حلاوة، كان أشرف يقف أمام الضابط، يتحدث معه بهدوء حول إمكانية إطلاق سراح العربة المحتجزة. بعد نقاش قصير، طلب الضابط من "أشرف" تقديم الترخيص اللازم ليتمكن من إتمام الأمر. مد أشرف يده ليصافح الضابط بابتسامة واثقة، وقال بلُطف:
_ألف شكر يا باشا، بإذن الله هنعدي عليك كمان يومين واحنا معانا الترخيص.

الضابط:تمام.
أشرف:يلا يا حامد.

في طريقهما للخروج من نقطة الشرطة، لمح حامد وأشرف مشهدًا مفاجئًا: العسكري يجرّ جلال من الكلبشات بقوة، ووجه جلال يشي بالسخط. توقفت خطواتهما فجأة، وارتسمت الصدمة على ملامح "أشرف"، الذي لم يصدق ما تراه عيناه. تقدم أشرف نحو جلال بخطوات مُتسارعة، ونظراته مليئة بالقلق والاستفهام، حتى وصل إليه وسأله بصوت مضطرب:
_جلال؟

حامد بصدمة:يا نهار أسود، إنت إيه اللي جابك هنا؟
جلال بقهر:طلعوني ياض منك له! أنا اتحبست ظلم!
أشرف بتعجب:إيه اللي حصل أساسًا؟
جلال بورطة:خبط في توكتوك وطلع عليا تلات أحكام، خرجوني! ده لو ليالي عرفت حاجة هتنكد عليا شهرين قدام وانت عارفني، ماليش خُلق لولولة النسوان وهطيح فيها وهترجعوا تزعلوا!
أشرف بصراحة:انت بصراحة يا جلال، حواراتك كتير مبتخلصش!

جلال بفظاظة:بقولك إيه يا أشرف! يا تخرجوني يإما تنقطنا بسكاتك يا جدع! أنا مش مستحمل الكلمتين بتوعك دول!

وسط دوامة من القلق، كان حامد يقف متوترًا، يدفع بأشرف للتقدم نحو مكتب الضابط، عسى أن يعرف ما ينتظر جلال. داخل المكتب، انصدم أشرف حين علم أن جلال محكوم عليه بسبع سنوات من السجن، وأنه خلال يومين فقط ستتم إحالته للمحكمة ليبدأ قضاء العقوبة. أمام هذه الصدمة، لم يتمالك جلال نفسه من الاعتراض، معبرًا عن استنكاره لما يحدث، مؤكدًا براءته وحسن نواياه، فهو يعتقد أن كل من يعرفه يدرك تمامًا أنه ليس من مثيري المشاكل. ولكن محاولاته في الدفاع عن نفسه لم تحرك شيئًا لدى الضابط الذي بقي ثابتًا على قراره، مشيرًا إلى أن دخول السجن قد يكون وسيلة لتأديبه وإعادته إلى الطريق المستقيم. رغم إصرار الضابط، حاول أشرف التوسل واستفسر عن إمكانية دفع كفالة لإطلاق سراح جلال، موضحًا أن جلال ليس من أصحاب السوابق ولن يكرر أخطاءه مرة أخرى. أخيرًا، وبعد تردد، وافق الضابط على إطلاق سراح جلال بعد دفع كفالته بشرط ألا يراه في المكتب مجددًا. اضطر أشرف وحامد إلى استدانة المبلغ اللازم لدفع الكفالة، لتجنب العواقب الوخيمة التي قد تحدث لأسرة جلال إذا ما علمت بمصيره. بينما في صباح اليوم التالي، استيقظت "ليالي" لتفاجأ باختفاء جلال من المنزل، لتبدأ بالبحث عنه في أرجاء الشقة دون جدوى، غير مدركة لرحلة الأحداث التي جرت في الظل، فقالت باستياء:

_كده يا جلال ترجع متأخر وتنزل الصبح بدري ومشوفكش؟

جلست "ليالي" على الأريكة، مُرتدية روبها الأحمر، بينما كان شعرها ملمومًا للخلف على هيئة كعكة مشدودة. خيم على الشقة جو من الهدوء المريب، حيث كانت الأنوار مطفأة، وضوء النهار الباهت يتسلل بخجل عبر النوافذ، مضفيًا على الصالة شعورًا بالجمود. أمسكت ليالي هاتفها بيدين مرتجفتين، محاولة الاتصال بجلال الذي تأخر عن العودة بشكل غير مألوف. زادت دقات قلبها مع كل رنة لا يجيب عليها. شعرت بأن ثقلًا غامضًا يضغط على صدرها، وكأن هناك ما هو غير طبيعي يحدث. عندما انقطع الاتصال دون رد، أسندت الهاتف إلى حضنها وأطلقت زفرة إحباط ثقيلة، وهي تقول بنبرة محبطة:

_مابتردش ليه طيب؟ رد وطمنا بدل ماحنا على أعصابنا كده!

حاولت "ليالي" الاتصال بجلال خمس مرات متتالية، وكل محاولة كانت تزيد من شعورها بالقلق. لكن بعدما فقدت الأمل في الرد، أقنعت نفسها بأنه ربما عاد إلى المنزل أثناء نومها، وغادر صباحًا للعمل دون أن يوقظها، حرصًا على راحتها. ومع ذلك، لم تستطع كبح خيالها عن الذهاب إلى أسوأ الاحتمالات. لتهدئة قلقها، قررت الاتصال بنعمة، لعلها تعرف شيئًا عن جلال. في تلك اللحظة، كانت نعمة تقف في المطبخ، ترتشف كوبًا من الماء بعد عناء الصباح، حينما رن هاتفها. أجابت نعمة بسرعة، ومن نبرة صوت ليالي شعرت بأن الأمر يحمل شيئًا من القلق. استمعت نعمة بتركيز، وليالي تقول:

_صباح الخير يا نعمة، مشوفتيش جلال؟

نعمة:لا بس حمو بيقول إنه مسافر يومين في شغل.

ليالي بانفعال:هو إيه العبط ده؟ يعني إيه مسافر في شغل؟ومقاليش حاجة ليه؟
نعمة بهدوء:بيقولك جه على فجأة، هيشتغل يومين بالتمناية بألفين جنيه، بس حمو بيقولك إنه تليفونه فاصل عشان متقلقيش لو اتصلتي!
ليالي بغيظ:شايفة عمايل أخوكي يا نعمة؟ وهو اللي بيعمله ده يرضى ربنا؟ يعني إيه يسافر فجأة وميعرفنيش؟ هو أنا مراته ولا رِجل كنبة؟

نعمة بمواساة:معلش يا ليالي ماهو برضة بيدور على مصلحتكم وعلى أي حاجة تجيبلكم فلوس عشان ميحرمكمش من حاجة! المهم إنتي بس البسي عشان هنروح لهايدي!
ليالي بمأزق:هنروح ازاي؟ ده أنا كنت حاطة في دماغي إن جلال هيجي معانا بالتمناية!
نعمة بتساهُل:يا ستي مش لازم، نركب مواصلات وخلاص! بس الله يسترك بسرعة شوية!
ليالي بحَنَق:طيب يا نعمة، مع السلامة.
نعمة:سلام.

أخبرت نعمة ليالي بكل ما قاله حامد لها، دون أن تزيد أو تنقص شيئًا من التفاصيل، إذ كانت الحقيقة المخفية غير واضحة لها. لم تكن تعلم ما وراء تصرفات جلال أو ما يخفى عن الجميع. جلال كان يخشى أن تتوجه "ليالي" ونعمة إلى نقطة الشرطة، ويصرخان في وجهه حين يخرج، لأنهما تعلمان جيدًا أن جلال يحب إثارة المشاكل كما يحب عينيه. لكن بعد انتهاء المكالمة، اجتاحت ليالي مشاعر الغيظ. شعرت بأن جلال تصرف دون أن يقدر مشاعرها أو يهتم لها، فكان هذا التصرف بالنسبة لها تكرارًا لخطواته السابقة التي اعتاد فيها أن يقرر الأمور بنفسه دون العودة إليها. نظرت إلى الهاتف في يدها، وعيناها تغليان بالغضب، وقالت بصوت حاد، يعبر عن سخطها:
_قال إيه جاله سفر فجأة، طيب يا جلال لما ترجع بس!

خرج حمود وتقي من غرفتهما بعد استيقاظهما من النوم، يبدوان منهكين قليلًا من أثر النوم، لكنهما ابتسمَا عندما لمحتهم "ليالي". نظرت إليهما بدهشة، تساؤل يتدفق في عيونها، ثم قالت لهما بصوت مليء بالاستفهام:
_انتوا لسه صاحيين ولا إيه؟

حمود:أه ياما.
ليالي بأَمر:طيب خشوا استحموا واحد ورا التاني عشان رايحين لعمتكم هايدي!
تقى بحماس:أنا هستحمى الأول!
حمود بعناد:لا أنا!
تقى بشكاسة:لا أنا!
ليالي بصراخ:يا لهوي عليا، وانتوا هتتخانقوا على مين يستحمى الأول؟

نهضت "ليالي" ببطء، ومرت يديها برفق على رؤوس أطفالها، وهي تشعر بارتياح في لمسهم، معبرة عن حب لا ينتهي. ثم التفتت إلى تقى، عيونها مليئة بالحنان، وقالت بصوت دافئ:

_خشي يا تقى انتي!

دخلت تقى المرحاض، بعدما غلبت أخاها في الشجار الذي اندلع بينهما على من يستحم أولًا. أوصدت الباب وراءها، وجلسَت في البانيو الصغير الذي لا يتسع سوى لجسدها بسبب ضيق المساحة في المرحاض. فتحت الصنبور، وسمحت لبرودة المياه أن تعانق جسدها في حر الصيف، مُستمتعة بالانتعاش. بينما كانت "ليالي" تجذب حمود من يده برفق، قالت له بصوت هادئ:

_تعالى يا حمود أعملك ساندوتشات على ما أختك تخلص!

دخلت ليالي المطبخ ومعها طفلها، تتحرك بسرعة ونشاط في إعداد ساندويتشات الجبن وشرائح الخيار، بينما تفكر في يومها المزدحم قبيل السفر إلى هايدي. كان الحماس يعم أجواء المنزل، إذ الجميع كان في غاية السعادة، مستبشرين بخبر حمل هايدي الذي طالما انتظروه. كان الفرح يلمع في عيونهم قبل أن ينطلقوا في رحلتهم المنتظرة. أما في شقة نعمة، فكانت مشغولة أيضًا في المطبخ، تجهز الطعام بحب. كانت تهرس الفول بحذر، تضيف له الزيت الحار والليمون، وتعد الفلافل المحشوة بالطماطم والدقة، إلى جانب المخلل الذي يضفي نكهة مميزة. كانت الأجواء هناك أيضًا مليئة بالحيوية. وفي هذه الأثناء، استغل حامد الفرصة ليتحدث في غرفة النوم مع أشرف. كان الصوت خافتًا وهو يوجه حديثه إليه بينما يوجه وجهه نحو الباب، خوفًا من أن تلاحظ نعمة محادثته. وقال "أشرف" معترضًا، صوته يحمل معاناة:

_واحنا ذنبنا إيه نشيل شيلته؟ ما يشيلها هو لواحده!وبعدين احنا ندفعله ليه أساسًا؟ ده يستاهل كل اللي بيجراله ماهو من بلطجته وقلة أدبه!

حامد بقلق:طب والعمل إيه يا أشرف؟ ده أنا قولت لنعمة إنه مسافر في شغل يومين، ووارد تكون قالت لليالي! وبعد ماليومين يخلصوا كل حاجة هتتكشف!

أشرف بثبات:حتى لو اتكشفت فاحنا ملناش ذنب، احنا اكتشفنا ده بالصدفة.

حامد بحَيْرة:طب والعمل؟

أشرف:العمل عمل ربنا.

دخلت نعمة الغرفة كما توقع حامد، فأخفض الهاتف عن أذنه بسرعة، وعيناه تراقبها بتوتر، ينتظر ما ستقوله. كان قلبه ينبض بقوة، وهو يحاول إخفاء قلقه. فقالت "نعمة" بصوت هادئ، وهي لم تلاحظ شيئًا:

_بقولك يا حمو، أنا رايحة لهايدي مع ليالي وهناخد العيال معانا.

رفع "حامد" الهاتف إلى أذنه مرة أخرى، وكان صوت نعمة لا يزال يتردد في ذهنه. استجمع نفسه للحظة، ثم قال لأشرف بصوت هادئ، لكنه يحمل توترًا خفيفًا:

_طب هكلمك بعدين يا أشرف، سلم على الموجودين، سلام.

بعد انتهاء مكالمة الأخوين، وضع حامد هاتفه على السرير بحركة سريعة، ثم اقترب من "نعمة" التي كانت تراقب تصرفه بعناية، معتقدة أنه كان يتحدث مع أشرف بخصوص العربة المحجوزة. نظرت إليه باهتمام، ثم قالت، محاورة إياه بشكل غير مباشر:
_هو في جديد ولا إيه؟

حامد بارتباك:لا لسه مفيش حاجة، طب ما آجي معاكم!
نعمة بتمني:ياريت تبقى ريحتنا، طب لو جاي معانا البس!
حامد بابتسامة:من عينيا يا نعومي، هلبس أهو.

خرجت "نعمة" من الغرفة بهدوء، ثم دخلت غرفة أبناءها، حيث كان محمد يلهو مع عمر على السرير.
نظرت إليهما بابتسامة خفيفة، ثم قالت بلُطف:
_يلا يا محمد البس! رايحين لخالتك هايدي!
ثم دخلت المطبخ مرة أخرى، وواصلت إعداد الطعام بحرص. وعندما انتهت، وضعت الأطباق على الطبلية، ثم اجتمعت مع زوجها وابنها الأكبر محمد لتناول الطعام بسرعة استعدادًا لزيارة هايدي، حيث كان حامد بين كل لحظة وأخرى يلتفت إليها بنظرات قلق، يخشى اللحظة التي ستكتشف فيها كذبته. كان يعلم أن الحقيقة عن غياب جلال بعيدة عن ما أخبرها به، فهو لم يسافر للعمل كما قال، بل كانت نهايته في حجز الشرطة، حيث لقي حتفه بين من يشابهونه في الشر.

يتبع....

الفصل السابع والثلاثون

بعدما اجتمع أفراد العائلة حول مائدة الإفطار وعمّت اللحظة ببركة الرضا، شرع كل منهم في ارتداء ثيابه، وخرجوا جميعًا إلا أم الديب التي آثرت البقاء. حاولت نعمة إقناع والدتها بمرافقتهم، إلا أن الأخيرة رفضت، متعلّلة بمشقة الطريق، وبروحها المغمورة بشيء من الضيق تجاه خبر حمل هايدي، ذلك الخبر الذي أثار في نفسها سخطًا منذ أن بلغ مسامعها. توجهت نعمة برفقة حامد وليالي والأطفال إلى متجر الحلويات بالقرية، حيث اشتروا علبةً من الجاتوه، مكوّنة من إحدى عشرة قطعة تتنوع بين الفانيليا والشوكولاتة البيضاء والشوكولاتة الداكنة. ثم انطلقوا نحو موقف السيارات في قرية أبو حلاوة، مُستعدين للسفر إلى القاهرة. ورغم التنقل بين أكثر من وسيلة، وصلوا في النهاية منزل هايدي بسلام، حيث كانت الغرفة تغص بأفراد العائلة والأطفال بما فيهم أحمد وجميلة، وعلى السرير استلقت هايدي تستريح تحت رعاية زياد، الذي أخذ إجازة قصيرة ليعتني بها في بداية حملها. بخطى هادئة ووجه مفعم بحنان الأخوة، اقتربت "نعمة" من هايدي وقبّلت جبينها برفق، قائلة بفرحة غامرة:

_ألف ألف مبروك يا هايدي.

هايدي بحبور:الله يبارك فيكي يا نعمة.
ليالي بغبطة:احنا من ساعة ما سمعنا الخبر واحنا على الحال ده طول اليوم، ده احنا والله الفرحة مش سايعانا.
هايدي بإعزاز:تسلميلي يا ليالي.
نعمة ببسمة:والداكتور قالك حامل في الشهر الكام؟
هايدي بابتسامة:شهر ونص، بس الحالة مش مستقرة للأسف، أنا مش عارفة ازاي هعيش تسع شهور كاملين وأنا نايمة على ضهري؟ ده كفاية حقنة المثبت دي لواحدها مُتعبة أوي.
ليالي بضحك:عشان تعرفي يا هايدي، أمي وأمك وكل الأمهات تعبوا قد إيه! ماهو أصل مفيش حاجة بالساهل، طب ده أنا أختي هبة كانت نفس حالتك وأهو الحمدلله ربنا رزقها ببنت.

هايدي بفضول:بجد؟ يعني محصلهاش أي مضاعفات؟
ليالي بطمأنينة:كانت بتتعب، بس ده الطبيعي، ومع الإبر وشوية الأدوية بقيت زي الفل.
هايدي بتمني:طب يارب يا ليالي يارب.
نعمة بحسرة:ده أنا أمي لما عرفت قالتلي ازاي.
هايدي بتعجب:هو إيه اللي ازاي؟
نعمة بضحك:أنا إيه دراني باللي في نيتها؟
حامد بمزاح:بس تبقوا تجيبوا ولا عشان يلعب مع محمد وعمر، كده يبقوا أربع ولاد، وتلات بنات.
ليالي بابتسامة:ما شاءالله، الله أكبر، ربنا يحميهم ويحفظهم من العين، ويكفينا شر العيون الحاسدة.

كان السرور يغمر القلوب، وكأن الخبر أزهر فرحًا في أجواء الغرفة. جلس زياد بجوار هايدي، وأمسك بيديها برفق، يسكب دفء محبته في أناملها المرتعشة بفرحة الحمل، وبينما الأطفال يمرحون حولهم، التفتت "جميلة"، والحيرة تعلو وجهها البريء، لتسأل بدهشة:
_أمال طنط مجاتش معاكم ليه؟

نعمة:أنا أمي ركبها عفريت من ساعة ما عرفت وكل ما أكلمها مبتنطقش بكلمة، هي حرة بقى هنعملها إيه طيب؟
ليالي ببُغض:اسكتي يا نعمة! خلينا مرتاحين منها، هي يعني هتيجي تزودنا إيه؟

ما إن انتهت ليالي من حديثها حتى قاطعهم صوت طرق على الباب، فالتفت الجميع بفضول نحو مصدر الصوت. نهض زياد معتقدًا أن الطارق هو المعلم حنفي وزوجته جمالات، لكنه، وللحظة أربكته المفاجأة، وجد قباله أم الديب واقفة بشموخ، تحمل على رأسها صندوقًا بلاستيكيًا مغطى بالأوراق. وقبل أن تخرج الكلمات من شفتيه، اندفعت أم الديب إلى الداخل بخطوات ثابتة، وعيناها تسبحان في بحر من العزيمة. قال "زياد" بدهشة غلبت ملامحه:
_مرات عمي؟

أم الديب بتجهُّم:أه ياخويا مرات عمك! فين بتي؟

أوصد زياد الباب خلفها ببطء، وعيناه تحملان ظلالًا من الحنق. فقد كان حضورها ثقيلًا على قلبه، إذ نبه مرارًا ألا تطأ حماته عتبة منزله بعد أن تسببت في وفاة والده. ومع ذلك، كتم غليانه ودفن كلماته المرّة في أعماق صمته، حفاظًا على قلب هايدي وسكينتها، وفي تلك اللحظات، شقت "أم الديب" طريقها عبر ممر التوزيع، تنظر في كل زاوية وكل غرفة بعينين متحفزتين، وكأنها تفتش عن كنز دفين. كانت تنادي بصوت يملأ أرجاء المنزل، قائلة:
_انتي فين يا هايدي؟
انفجرت زغاريد "أم الديب" من أعماقها، لكنها حملت نغمةً غريبة تجمع بين الفرحة المكابرة والغضب.
دخلت الغرفة بخطوات صارمة، لتجد جميع أفراد العائلة ملتفين حول هايدي، وقد خيم عليهم صمت مفاجئ كأنما انطفأت أصواتهم برؤيتها. وضعت الصندوق البلاستيكي على الأرض بقوة تنم عن ثقل ما في قلبها، ثم نظرت إليهم بعينين تقدحان شررًا، وقالت بغيظ كامن:
_ايهي، ده كلكم متجمعين، أما محدش منكم هان عليه يسألني جاية معاكم ولا لا.

نعمة بصدمة:مش أنا عيدت عليكي السؤال كام مرة ياما وانتي مردتيش عليا؟

أم الديب بصياح:كنتي اسأليني تاني وتالت ورابع لحد ما أرد! بس شكلك ما صدقتي! ولا يمكن في واحدة من العرر اللي تعرفيهم لعبت في دماغك!

ثم نظرت إلى ليالي بنظرةٍ تحمل في طياتها البغضاء، كما لو كانت تُشير إليها بكل غيظٍ. بينما دخل زياد الغرفة، ساخطًا من تصرفاتها، لكنه رفض أن يطلق أي كلمة، مكتفيًا بوضع يديه في جيوب بنطاله القماشي، وعيناه تشعان بنظراتٍ حادة، تعكس ما يعتمل في صدره من انزعاج. أمّا "أحمد"، فقد نظر إلى الصندوق العجيب بفضولٍ، متمنيًا لو يستطيع معرفة ما يخفيه بداخله. اندفع قلبه يسأل:
_إيه اللي معاكي ده يا ماما؟

أم الديب بسعادة:دهي حلاوة الخبر العسل اللي جالنا، حاجة كدهو تليق بهايدي وجوزها، حاجة هتعجبكم أوي.

رفعت "أم الديب" الورق الذي كان يغطي الصندوق، وكشفت عن مفاجأة مُرعبة؛ حمامٌ مذبوح، لا تزال الدماء تسيح منه، وريشه عالق به. قررت أم الديب أن تهدي ابنتها هذه الهدية غير التقليدية بمناسبة الخبر السعيد، فكانت هذه طريقتها في التعبير عن حبها. أحضرته لهايدي من أجل أن تُنظفه بعناية، وتزيل الريش وتتبله وتملؤه بالأرز، وهي المهمة التي كانت تجد فيها نوعًا من التقليد الذي يربطها بحكايات الأجداد. ثم ألقت الحمام في يد كل فرد من أفراد العائلة، كما لو كانت تقدم لهم رمزيةً غريبة عن التعبير الحقيقي للمحبة، مبتسمة بابتسامة مشحونة بمعانٍ لا يفهمها الجميع، قائلة:
_خدي يا هايدي! خد يا أحمد! خدي يا نعمة! خدوا حمام، واعملولكم حمام محشي، خدي يا ليالي!

نهض الجميع مفزوعين، بما فيهم هايدي التي ارتجفت من المفاجأة. ظلوا يركضون في الغرفة، يهرولون بأسرع ما يستطيعون، حتى خرجوا إلى الصالة، هاربين من الدماء التي لطخت ثيابهم وغمرت الأرض. كانت حالة من الفوضى تسيطر على الجميع، وحركاتهم غير منسقة من شدة الرعب. في تلك اللحظات، بدأت ليالي بالصراخ، صوتها يختلط بالخرع، بينما كانت أم الديب تجري خلفهم، عازمةً على استمرار ما بدأته، حيث نطقت "ليالي" بإعوال:
_حرام عليكي يا شيخة بهدلتي هدومنا!

أم الديب بصراخ:ايهي حد يرفص نعمة ربنا ياللي ترفصكم حمارة عارجة؟ إنت يا ولا منك له، استنوا!

بينما كان الجميع يركضون في فزع، توقفت "هايدي" فجأة، وقد برز على وجهها التعب الشديد، بعدما بذلت مجهودًا غير مقصود. شعرت بآلام شديدة في رحمها، وكأن الجسد يصرخ من داخلها، فما كان منها إلا أن تهمس بصوت ضعيف، يكاد لا يُسمع، وهي تمسك بيدها على بطنها، قائلة:
_آه.

زياد بفزع:يا نهار أسود ومنيل بستين نيلة، مالك يا هايدي؟
هايدي بتأوه:ألم شديد في بطني، آه!
نعمة برهبة:مالك يا بت في إيه؟

فجأة، لاحظت هايدي أن الدم بدأ يهبط على بنطالها، وعندما رأت "نعمة" و "ليالي" ذلك، ارتفع صوتهما بصدمة وخوف، وصاحتا بأعلى صوتهما، يملؤه الذعر:
_يا لهوي!

تدفقت الدماء بسرعة حتى غمرت ثيابها، متساقطةً على الأرض. في تلك اللحظة، حمل زياد هايدي بمساعدة أحمد، وركضوا بها إلى السيارة، مُتوجهين إلى المستشفى بأقصى سرعة. تبعتهم جميلة مع طفلتيها، برفقة ليالي ونعمة وحامد والأطفال. في المستشفى، حمل الممرضون هايدي على كرسي متحرك وهي تصرخ بشدة، والدماء ما زالت تتساقط منها، حتى دخلت غرفة العمليات. وقف أفراد العائلة أمام جناح العمليات، بما فيهم أم الديب التي وصلت بعد أن ركبت التاكسي وأسرعت إليهم. كان "زياد" يدور حول نفسه بقلق، مغطى بحالة من التوتر، يخشى على حياة هايدي أولًا، ثم على الجنين. كان قلبه يغلي بالدماء من شدة التوتر، بينما كان يقول لأحمد بعصبية:
_أقسم بالله كنت حاسس إن في مصيبة هتحصل أول ما شوفتها!

أحمد بهاجس:إن شاء الله مش هيكون حصل حاجة.

بينما كان زياد يقف بعيدًا قليلًا عن باقي الأسرة، لم تتمالك "نعمة" نفسها أمام هذا الصمت. كانت ترى أختها في حالة مأساوية، والمشاعر المتراكمة تجاه والدتها، التي ربما تكون السبب في هذا الوضع الصعب، جعلتها تنفجر بعتاب قاسي. قالت لها بصوت عالٍ:
_هو إنتي إيه ياما؟ يعني البت ممنوعة من الحركة وانتي جاية تلففينا كلنا حوالين نفسنا؟ يفرض البت جرالها حاجة، نعمل إيه ساعتها؟

ليالي بكراهية:ولا يمكن قاصدة، أنا الصراحة عمري ما شوفت واحدة مستخسرة الفرحة في بنتها بالشكل ده.
أم الديب بنواح:يا بختك المايل يا أم الديب، محدش من عيالك طايقك، رايحة تفرحيهم ودابحالهم ١٢ جوز حمام وفي الآخر لا اتقالك شُكر ولا حمدانية.

استدار "زياد" نحو الموجودين، وارتفع صوته بالاحتدام، قائلًا:

_مع احترامي لكل اللي قاعدين، بس لو هايدي حصلها حاجة أنا مش هسكت!

أحمد بتآلف:بصراحة حقك، محدش يقدر يقولك حاجة.

لم يجرؤ أحد على رفض شرط زياد، فهو صاحب الدار وله الحق في اختيار من يدخل إلى منزله. خاصة عندما تعلق الأمر بأم الديب، التي لم يشعر زياد براحة في استقبالها، بل كان يتملكه ضغطٌ نفسي هائل. في تلك اللحظة، ربت أحمد على ظهر زياد، محاولًا تهدئته بنظرةٍ ملأنة بالاطمئنان. أما في الداخل، كانت هايدي في حالةٍ حرجة بعد أن أجرت عملية الكشط، إثر تعرضها للإجهاض وفقدان جنينها. استمرت العملية لفترة نصف ساعة، حتى خرج الطبيب من جناح العمليات. تجمع أفراد العائلة حوله، يملؤهم القلق، وأعينهم تبحث عن إجابة تطمئنهم، فسأل "زياد" بخَور:
_إيه يا دكتور في إيه؟ هايدي حصلها إيه؟

الطبيب بأسف:للأسف حصلها إجهاض، ربنا يعوض عليكم ويديكم اللي فيه الخير.

ظهرت الصدمة على وجوه الجميع، لكن "زياد" كان أكثرهم تأثرًا، فقد اتسعت عيناه بشدة، وقلبه ينهار تحت قوة الألم. كانت حالته النفسية في غاية الصعوبة، لا يمكن لأحد أن يتحمل مثل هذا الوجع. لقد كان قد تعشم في الجنين الذي كان ينمو ببطء يومًا بعد يوم، وكان يحلم بأن يعيش معه لحظات جميلة، يروي له ذكريات والده كما عاش هو نفسه تلك الذكريات. لكن الحلم تحطم قبال عينيه، كأن الأمل قد انقضى فجأة. بصوتٍ ملؤه الحدة، التفت نحو أم الديب، وصرخ في وجهها، متفجرًا بما يعتمل في صدره، قائلًا:
_أنا مش عايز أشوف وشك تاني! ورجليكي دي متعتبش عتبة بيتي! لو عايزة تشوفي بنتك شوفيها في حتة تانية! لكن أنا عمري ما هدخلك بيتي تاني ومش عايز أشوف ولو صدفة، إنتي إنسانة جاحدة ومتجردة من الحنية والرحمة!
ابتعد زياد عن أم الديب تمامًا، وذهب إلى زاوية أخرى. أراد أن يهرب من ألمه. بينما نظر أحمد إلى أم الديب نظرة عتاب ثقيلة، دون أن ينطق بكلمة، ثم تبعه مغادرًا ليهدئ من ثورته، وهو يهرول محاولًا اللحاق به. في تلك اللحظة، رفعت "نعمة" يديها إلى السماء، مملوءة بالتعاسة عما حدث لأختها، وجسمها يعتصره الألم لما جرى. ودموعها تغمر عينيها، قالت في صوتٍ مكسور، كأنها تستغيث بالسماء:
_يا لهوي يا فرحة ما كملت، يا فرحة ما كملت، يا بختك الأسود طول عمرك يا هايدي ياختي، عمرك ما حاجة كملتلك علي خير، بعد البهدلة دي وفي الآخر تسقط؟

ذهب حامد وراء أحمد وزياد، محاولًا تهدئة الأمور والحديث معهما ليشجعهما على الهدوء حتى يستطيعوا التفكير بعقلانية في هذه اللحظة العصيبة. أما ليالي، فقد وضعت نفسها في مكانة هايدي، تخيلت كيف سيكون شعورها لو أن والدتها قاست عليها بهذه القسوة؟ لكن، لم تستطع التحمل، إذ أن مجرد الخيال جعل

قلبها ينفطر، وشعرت بمرارة مآسي هايدي التي لا تجد لها عونًا. اتجهت "ليالي" نحو أم الديب، وعينها تشتعل بالكراهية، ثم قالت لها بصوت يتقطر استنكارًا:

_زياد ده الله يكون في عونه، ده لو واحد غيره كان قتلك وخلص عليكي!

نهضت أم الديب فجأة، وأمسكت بليالي بقسوة شديدة من جلبابها، مما جعل المسافة بين رأسهما تختفي تمامًا، وكأن لا مجال لالتقاط الأنفاس. لم يكن هناك وقت للتفكير، حيث اندفعت نعمة وجميلة نحوهما، تقفان بينهما بفزع، مُحاولتين تهدئة الأمور، لكن محاولاتهما كانت بلا جدوى أمام نيران أم الديب. توقف الوقت للحظة، وتحوّل الجو إلى عناد مشحون بالعداوة، بينما "أم الديب" صرخت في وجه ليالي بصوت قاسٍ، وعباراتها تخرج كالسياط:

_انتي بتقولي إيه يا بت الكلـ* يا واطية؟ ايهي إنتي شمتانة في بتي الغلبانة؟ يا لهوتي مرات ابني شمتانة في بتي يا خلق... الحقونا يا دكاترة ياللي هناهو! تعالوا اتفرجوا وشوفوا اللي مرات ابني بتعمله فينا!

ليالي بصخب:آه، ابعدي عني! ده إنتي زي السرطان يا شيخة، ده إنتي زي البرص كل ما يقطعوا ديله يطلع تاني! إنتي بتطلعينا من أنهي داهية؟ يا شيخة حرام عليكي بتك الغلبانة دي!

أم الديب بعجيج:آني هخليه يطلقك ويرميكي في أي كومة زبالة ويتجوز واحدة تانية! آني المرة دهي هنقيله واحدة على مزاجي... توبة إني أجوزه واحدة صفرا زيك تاني يا بت الكلـ*.

ليالي بصراخ:أنا برضة اللي صفرا ولا انتي؟ ده إنتي صورمك لافف على رقابتك من كتر الحقد والغل اللي جواكي!

نعمة بجلبة:مش وقته! احنا في إيه ولا إيه؟

جميلة بإحراج:إيه الفضايح دي بجد؟ انتوا حاجة فظيعة أوي.

جلست جميلة على المقعد بتقزز جسيم من التصرفات الحقيرة التي كانت تدور أمامها، لم تستطع تحمل هذه الأجواء المسمومة لحظة واحدة، فجلست حانقة، واضعة ساقًا فوق الأخرى، وهي تفكر بحزن فيما جرى لهايدي. كان قلبها يعتصر ألمًا عليها، تفكر كيف ستشعر هايدي بعد أن تخرج من غرفة العمليات، لتكتشف فقدانها لجنينها الذي طالما انتظرته؟ بينما كانت أم الديب وليالي تتصايحان مع بعضهما في مشهد مملوء بالفوضى، كان الصراخ يحيط المستشفى ويشعل الضوضاء. في تلك اللحظة، وقفت "نعمة"، عيونها مليئة بالغضب، ثم هتفت بصوتٍ قوي، يتناثر منه العويل، قائلة:

_بس بقى بس... ارحمونا!

صمت الجميع، وكأن الزمن توقف لحظة واحدة. دفعت نعمة ليالي بعيدًا عن أم الديب، وكأنما تباعد بين النار والبنزين، محاولةً إخماد لهيب الشجار الذي كان يوشك على الاشتعال. بفضل تدخلها، هدأت النفوس قليلًا، وتراجعت حدة الصراع بينهما. ثم جلست نعمة على المقعد بجوار جميلة، وعيناها غارقتان في التفكير. كانت تحمل على عاتقها لحظة معرفة هايدي لذلك الخبر الصادم عندما تخرج من غرفة العمليات. كانت تلك اللحظة تتطلب الكثير من الصبر، فهي تعلم جيدًا ما ينتظر أختها من صدمة بعد ما سيكتشفه قلبها المنكسر. في مكان آخر توجه أشرف إلى خال جلال، المعروف بلقب "أبو محمد"، وشارك معه ما وقع له. كان جلال في حاجة ماسّة لمبلغ ثلاثين ألف جنيه، مبلغ اعتبره الخال كبيرًا ومتعذّرًا توفيره بسهولة. حين

أعرب أبو محمد عن إحباطة من كيفية جمع هذا المال، شرح له أشرف دوافع قدومه إليه، مؤكدًا على ثقته في حكمته، وأنه لم يجد ملاذًا آمنًا آخر يلجأ إليه. أشار أبو محمد عليه بالذهاب إلى المعلم حنفي، لكن أشرف ردّ بأن المعلم حنفي شخصية غير متفاعلة، وكأنما يتحدث إلى حجرٍ لا يستجيب.

شعر أبو محمد حينها بجسامة الموقف وعبر عن أسفه، لكنه وعد أشرف بأنه سيبذل جهده حتى نهاية اليوم لإيجاد حلٍّ يساعده. أعرب أشرف عن امتنانه الكبير له، متيقنًا من وقوفه إلى جانبه. ثم غادر المنزل بعد أن ودعه أبو محمد، مشددًا على دعائه له بأن يسدد خطاه في مساعدة الآخرين. أما في منزل حسين، كان المعلم حنفي جالسًا على الأريكة، يدخن النارجيلة، عيناه مشغولتان بشاشة التلفاز التي تعرض برامج لا تحمل في طياتها سوى الملل. بينما دخلت عليه "أم الفار"، مرتدية عباءتها السوداء الثقيلة، وهي تجر عربة التسوق القماشية المثقلة بالخضار والفواكه الطازجة. ألتفت جمالات إلى المعلم حنفي بنظرة استهزاء، وهي لا تجد فيه الرجل الذي طالما حلمت به، الرجل الذي كانت تأمل أن يكون سندًا لها وشريكًا في الحياة. شعرت وكأنها على بُعد خطوة واحدة من الرحيل إلى عملها، بينما هو لا يزال مُستريحًا في المنزل. وضعت العربة جانبًا ثم قالت بسخرية، كأن كلماتها تطلق نارًا خفيًا في الهواء:
_عيني على الرجالة اللي قاعدة علي الكنبة، والحريم هي اللي نازلة تشتري وتتمرمط في عز الحر.

المعلم حنفي بفخر:خدي بالك آني راجل أوي!

أزاحت "جمالات" سيقان المعلم حنفي التي كانت تعيق مرورها بسهولة، وبحركة قاسية، أظهرَت قوة لا تخلو من استهزاء، رافضة أن تعرّف نفسها بأنثى ضعيفة في تلك اللحظة. ثم عبرت إلى الجهة المقابلة، ورفعت صوتها قائلة بصياح:
_أوعى! بلا راجل أوي بلا راجل نُص نُص، ده أنا وقعت و لا حدش سمى عليا.

المعلم حنفي بمزاح:مانا قولتلك يا أم الفار متلبسيش كعب عالي!
أم الفار بضحكة ساخرة:لا ضحكتني يا حبيبي، ده أنا وقعتي دي أنيل من وقعة المرة اللي فاتت، وبمراحل ياخويا! قوم كده وشمر كمامك عشان تعملنا الغدا!
المعلم حنفي بحزم:لا آني هنا راجل البيت وآني اللي أقول أعمل إيه ومعملش إيه! آني هغير الجلابية دي ومش مشمر كمامي! ليه عاوزة الأكل يطرطش على الجلابية يبهدلها؟
أم الفار بدناءة:في كلمة كده ياخويا لو كان ينفع تتقال كنت قولتهالك، بس خليني ساكتة أحسن.

جلست أم الفار على الأريكة، واضعة ساقًا فوق الأخرى بكل جبروت، ساعية لإثبات نفسها كقوة لا يستهان بها. كانت عيناها ترصد كل حركة من المعلم حنفي الذي نهض فجأة ودخل الغرفة بعدما شعر بنظرتها المحتقرة له. كان يشعر بأنه أصبح في نظرها بلا قيمة، وأنه لم يعد ذلك الرجل الذي كان يأمل أن يراه الجميع. بدأ عقله يتيقن أن المشكلة تكمن فيه هو، وليس في أم الديب أو جمالات. منذ زواجه من أم الديب،

اكتشف أنه يعاني من ضعف الشخصية، وإذا كان قد أظهر قوته في يوم من الأيام، لما وصل إلى هذا الوهن. بينما في غرفة هايدي بالمستشفى، بعدما نقلها الممرضون على سريرها، بدأت هايدي تستفيق ببطء. كانت عيناها تتفتح شيئًا فشيئًا، وكل لحظة تحمل معها تجددًا في الوعي. كانت الرؤية تتضح لها تدريجيًا، ثم تلاقت عيناها بأفراد عائلتها الذين كانوا يقفون بجانب سريرها، بينما كانت أم الديب قد غادرت المستشفى بعدما كانت السبب في الإجهاض. كان من المفترض أن تشعر بالذنب لما حدث، لكن على العكس، كانت لا تبالي، ولم تُظهر أي اهتمام بما وقع. بينما اقترب زياد من هايدي، لامس يدها برفق، محاولة منه لطمأنتها وتخفيف الألم الذي كان يرهق قلبه، في حين أن باقي أفراد العائلة كان وجههم يعكس تأثرًا عميقًا، فقد كانت ملامحهم مليئة باليأس. في تلك اللحظات، شعرَت "هايدي" بوجود ألم قوي في بطنها، وأحست أن الجنين في حالة حرجة، فاجتاحها شعور بالخوف. نظرًا لوهن جسدها، قالت بصوت مُرهق:

_زياد! في إيه؟

زياد بقُطُوب:مفيش حاجة يا هايدي، حمدالله على سلامتك!
هايدي بهلع:إيه اللي حصل يا نعمة؟
نعمة بتردد:سقطتي يا هايدي.
هايدي بصدمة:إيه؟ سقط؟ ازاي؟
ليالي بشفقة:شدي حيلك يا هايدي، المؤمن دايمًا مُصاب، يمكن ربنا شايلك حاجة أحسن من كده.
هايدي بصراخ:لا، قولوا حاجة غير كده! بعد التعب اللي شوفته؟ ده أنا مكملتش يومين! يومين بالظبط وكانت كل حاجة راحت! أنا ليه بختي وحش دايمًا ومفيش حاجة بتكملي على خير؟

اقتربت "جميلة" ونعمة من سريرها، واحتضنت كل واحدة منهما هايدي بمواساة، محاولة تخفيف الألم الذي تعيشه. كانت دموع جميلة تتساقط على وجنتيها، لكنها ابتسمت بحزن، وقالت لها بصوتٍ هادئ مليء بالتعاطف:

_اهدي يا حبيبتي، متعمليش في نفسك كده!

هايدي بنحيب:كل حاجة وحشة بتحصلي بتكون ماما هي السبب فيها، أنا كرهتها كره العما ومش عايزة أشوفها تاني! أنا بجد بكرهها وكل يوم كرهي ليها بيزيد!
نعمة بنُصح:متقوليش كده يا هايدي لا ربنا يزعل منك! دي في الأول والآخر أمك برضه!
ليالي بسخرية:وهي ياختي أمها دي كانت خافت عليها؟ دي ولا فارق معاها، سبحان الله تقوليش عدوتها؟

نعمة بصياح:أسكتي يا ليالي، خليكي محضر خير!

قبلت "نعمة" رأس أختها بحنان، وأمسكت بيدها بحُب، وقد غمرتها مشاعر المواساة في وسط الحزن الذي يلف الغرفة. حاولت أن تزرع الطمأنينة في قلبها المثقل، مقدمة لها كلماتٍ تحاول بها أن تخفف من ألم الفقد. ابتسمت نعمة ابتسامة كانت تخفي وراءها العذاب الذي يعتصر قلبها، وقالت:

_متعيطيش يا هبلة! بكرا ربنا يرزقك بعيل واتنين وتلاتة كمان، يمكن العيل ده كان فيه مشاكل ولا لما يكبر يبقى قاسي عليكي! كل شر ووراه خير ليكي مستخبي.

هايدي بنحيب:يارب يا تاخدني يا تاخدها هي! أنا اتدمرت نفسيًا بسببها، أم إيه دي بس يارب؟ دي عمرها ما إديتنا أي حاجة من اللي الأمهات بتعملها مع عيالها!

زياد باستياء:بعد الشر عليكي يا هايدي! وخلي كل الموجودين شاهدين على كلامي!

رفع "زياد" يده فجأة، وصوته ارتفع محذرًا الجميع من أن تسمح أي جهة بدخول أم الديب منزله مرة أخرى. فقد أصبح في نظره، ومن بعد ما تسببت في وفاة والده، هي سببًا في تدمير كل ما يتعلق به، حتى طفله الذي كان يعقد عليه آمالًا كبيرة. شعر أن وجودها أصبح خطرًا يهدد أمانه وأمان من حوله، فصرخ بصخب:

_مرات عمي مش داخلالي بيت تاني ومهما يحصل! ولو هايدي حنت في يوم من الأيام، يبقى تروح تشوفها برا! لكن والله العظيم ولا هتتكرر مرة تانية!

هايدي بنشيج:أحن؟ أحن لأقسى خلق الله؟ بقولك كرهتها يا زياد!

زياد بتحنان:أنا مش عايزك تتعبي نفسك أكتر من كده! وزي ما نعمة قالت يمكن خير! بكرا إن شاء الله ربنا يعوضنا بغيره.

ازدادت هايدي بكاءً، قلبها يئن من القهر، وكأن الحياة كلها قد اجتمعت عليها، لا مكان فيها للفرح ولا مجال له. شعرت أن الأمل قد تلاشى منها، وأنها مجرد ضيف ثقيل على هذا العالم. كانت تعول قهرًا، وزياد يحاول تهدئتها بعناق حار، مُؤكدًا لها أنه لن يتركها أبدًا. بينما ضمتها "نعمة" إلى صدرها بحنان، محاولة أن تعطيها شيئًا من السلام المفقود، وقالت لها بصوتٍ دافئ:

_لا يا قلب أختك متعمليش في نفسك كده! ده إنتي غالية عندي أوي، وبتقطع لما بشوفك في الحالة دي!

ليالي بتأثُر:ربنا يعوض عليكي يا هايدي، ويريحنا من أمك.

خرجت هايدي من المستشفى في الليل على كرسي متحرك، يدفعه زياد بينما كانت جميلة وأحمد يجاورانهما مع طفلتيهما. عادت نعمة وليالي وحامد مع الأطفال إلى القرية، وكانوا قد اقتربوا من الوصول. دفع زياد الكرسي نحو السيارة، وحاول مع أحمد رفع هايدي برفق حتى جلست على المقعد، ثم ركبا مع جميلة وأطفالهما في السيارة، مُتجهين نحو المنزل. عندما وصلوا، ساعدهم البواب في رفع هايدي إلى المصعد، ثم

وضعوها على سريرها في غرفتها. كانت مُنهكة للغاية، غير قادرة على تصديق ما آلت إليه الأمور، وكل ما كان يشغل تفكيرها هو الألم الذي يحيق بقلبها. بينما في منزل حسين، قرر "المعلم حنفي" أن يرضي جمالات بعدما شعرت باليأس تجاهه. فقام بتحضير وجبة عشاء خفيفة، حمل الطبق في يد والخبز في يد أخرى، ثم خرج بابتسامة خفيفة على وجهه، على أمل أن يكون قد أحدث تغييرًا في نظرتها إليه، وقال:
_عملتلك شوية بطاطس بالبيض هتاكلي صـ....

استمر المعلم حنفي في محاولاته لإرضاء جمالات، ولكنه فوجئ برؤية ضايع جالسًا معها على كراسي الطاولة، حيث كانت الستارة تهتز من الرياح التي تسللَت من باب الشرفة. كان ضوء القمر ينعكس على الأراضي الزراعية، ليضفي منظرًا هادئًا، ولكن كل ذلك كان يتناقض مع شرارة الشر التي كانت تتجسد في عيون ضايع، الذي كان يراقب المعلم حنفي بنظرة مليئة بالعنف. في تلك اللحظة، وقعت صينية الطعام من يد "المعلم حنفي"، مما جعل يده ترتجف بشدة، وهو يتلعثم في كلامه، محاولًا استعادة توازنه وسط هذا الموقف المفاجئ، قائلًا بصوت متردد:
_ده...ده...ضايـ...ضايع...سبحان الله ده إنت شبهه الخالق الناطق، تقولش هو؟

أم الفار بخوف:مالك يا حنفي جتتك اتهزت كده ليه لما شوفته؟
المعلم حنفي بارتجاف:هو مين؟
أم الفار باستخفاف:ضايع!

نهض ضايع فجأة، ممسكًا بالمعلم حنفي من لياقة جلبابه بقسوة، وكأنما يريد أن يعاقبه على ضعفه، ثم دفعه بلا رحمة ليجبره على الجلوس على الكرسي. كانت النظرة بينهما مشحونة بالكراهية، وأخذ "المعلم حنفي" ينظر في عيني ضايع بتردد، والكلمات تلتبس في فمه، بينما كان قلبه ينبض بعنف، وقال بتلجلج، وكل حرف يخرج بصعوبة:
_الله يباركلك.

ضايع بشراسة:بُص بقى يا روح أمك! إنت عارفني ماليش في السكك العوجة، أنا جايلك دوغري وعلى بلاطة، أنا هتجوز أم الفار، آمين؟
المعلم حنفي بخرع:هو في واحدة تعرفها بنفس الإسم؟
ضايع بضراوة:لا أم الفار واحدة بس، الفرح بعد بكرا، تكون إنت طلقتها النهارده!

المعلم حنفي بارتجاف:والعِدة؟
ضايع بسماجة:العِدة في الورشة يا روح أمك، يلا قوموا!

نهض "المعلم حنفي" من على الكرسي بفزع، وعيناه مليئتان بالقلق، ثم دخل الغرفة مُسرعًا وهو يشعر بأن ضايع يقترب منه كظل ثقيل. كان يعي تمامًا أن الوضع قد خرج عن السيطرة. بينما ضايع يتبعه بخطوات ثابتة، بدا المعلم حنفي في حالة من الارتباك، فقال بخوف:

_هيحصلك إيه أكتر من كده؟ ده إنت فاضلك شوية وتتسخط قرد من كتر غضب ربنا عليك.

ضايع بفضول:بتقول إيه يا حنفي؟
المعلم حنفي بابتسامة:بقولك ربنا يتمملكم على خير.
ضايع بحدة:ركز معايا يا حنفي في الكلمتين دول، أصل دي آخر فرصة ليك في الحياة! هتطلق أم الفار وترجع لبسمة أختي ولو سمعت إنك تعرف واحدة غيرها هشقك! سمعت هعمل إيه؟ ها... شو... قاك!
المعلم حنفي بارتياع:أسترها علينا يارب.
ضايع بإجبار:طلقها!
المعلم حنفي بحَيرة:بسمة ولا أم الفار؟
ضايع بإذلال:لا ده إنت شكلك مش مركز! وأنا محبش غير الناس المركزة اللي مطرطقها ودانها... يلا!

كان ضايع يتحكم في المعلم حنفي كما لو كان دمية في يديه، يحركها كيفما شاء. فقد مرَّت أعوام طويلة منذ أن أجبره على الزواج من أم الديب بالإكراه، واليوم ها هو يضغط عليه ليرغمه على طلاق جمالات. رغم أن المعلم حنفي لم يرغب في طلاقها، لأن قلبه تعلق بها وأحب وجودها إلى جانبه، إلا أنه كان يشعر بأن رفضه لهذا الطلب سيجلب له العواقب الوخيمة. كان يفكر في أخيه المتوفى، الذي كان ضايع يملك من الجبروت ما يجعله على سيفه في القبر. نظر "المعلم حنفي" إلى أم الفار بتردد، كانت نظراته مشحونة بالحيرة، وكان يشعر وكأنه يقف بين نارين، كل خيار يبدو أصعب من الآخر. أخيرًا، استسلم لواقع ضايع وأطلق كلمات مرتجفة، قلبه يكاد ينهار، وهو يتلفظ:

_انتي طالق يا أم الفار!

ضايع بصخب:بالتلاتة!
المعلم حنفي بتلعثم:انتي طالق بالتلاتة!

بمجرد أن طلق "المعلم حنفي" زوجته، شعر بضايع وكأن قبضته الحديدية تلتف حول عنقه، وفي لحظة لا يُصدقها العقل، رفعه ضايع بيد واحدة وكأنما كان يحمل ريشة، ثم خرج به من الشرفة. لم يرحمه، بل دفعه منها بقوة، فسقط على الأرض يصرخ من الألم، بينما كان العالم يدور حوله. أغلق ضايع الباب خلفه، وقفل الستائر، وكأنما أراد أن يحجب عن المعلم حنفي نور الأمل. نهض المعلم حنفي بصعوبة، والألم يجتاح جسده، خاصة بعد أن انجرحت يديه. وقف بتردد، يعاني من الجروح النفسية والجسدية، وقال بمعاناة:

_آه، طول عمرك إيديك ناشفة!

قرر المعلم حنفي العودة إلى منزل أم الديب بعدما أصبح مشردًا لا مأوى له، يحمل في قلبه الهزيمة، وفي تلك الأثناء، وصلت العائلة إلى القرية بعد رحلة طويلة، حيث نزلوا من وسيلة المواصلات وركبوا اثنتان من وسيلة التوكتوك. كان نعمة وليالي وعمر في أحدهما، بينما ركب حامد مع باقي الأطفال في الآخر.
وعندما وصلوا إلى المنزل، نزلوا جميعهم أمامه. حامد، وهو يحمل عمر بين يديه، صعد أولًا، بينما بقيت ليالي ونعمة مع الأطفال الذين ألحوا على شراء المثلجات والشيبسي. بعد فترة قصيرة، عاد الأطفال محمد وحمود وتقى، وهم يأكلون الجيلاتي بسعادة، ثم صعد الجميع على الدرج. كانت "ليالي" متأثرة بشكل واضح بما حدث لهايدي، فقالت:
_أختك صعبانة عليا أوي يا نعمة، دي ملحقتش تتهنى بالخبر.

نعمة بقهر:وأنا كمان وربنا، ده لا احنا لحقنا ولا هي كمان لحقت.
ليالي بشجن:بس احنا مشوفناش أمك من بعدها، هي راحت فين؟
نعمة بتبرُّم:تلاقيها ركبت مواصلات ووصلت قبلنا، يمكن تكون هنا أو تكون راحت لخالتي!
ليالي بغيظ:ده زمانها من حي ما قالت علينا، تبقى غلطانة فينا وتطلعنا احنا الغلطانين قصاد الناس!
نعمة:بس أنا خالتي سعاد مبتصدقهاش في حاجة!
ليالي بدهشة:وانتي مين قالك؟
نعمة بتمني:هي خالتي من زمان بتاخدها على قد عقلها، تصدقي بالله كان نفسي خالتي تبقى أمي، خالتي سعاد دي طيبة أوي، يا بخت عيالها بيها!

وصلت الأسرة إلى شقة ليالي، وكانت ليالي ونعمة لا تزالان تتحدثان، بينما كان الأطفال مُنهمكين في تناول المثلجات، غير مكترثين بما يحدث حولهم من كوارث تصنعها الجدة. وفي خضم حديثهما، شعرت "ليالي" بالجوع العارم، خاصة أنهم لم يتناولوا الطعام منذ الصباح. فكرت قليلًا ثم قالت بنبرة متعبة:
_يا بخت اللي هيبقوا مراتات عيالها، على الأقل مش هتعمل معاهم اللي أمك بتعمله معايا، المهم إنتي عندك صلصة طماطم؟

نعمة:أه عندي، تعالوا اطلعوا فوق نعمل الأكل ونتعشا سوا!
ليالي بقلق:طيب وبالمرة أتصل على جلال، أنا قلبي واكلني عليه أوي.
نعمة ببسمة:إن شاء الله هيطلع زي الفل، متخافيش عليه!

طمأنت نعمة ليالي بوجهها البشوش، واستمروا في صعود الدَرَج، وخلفهم الأطفال الذين كانوا يضحكون ويتناولون المثلجات بمرح. بينما كان حامد منهمكًا في محادثته الهاتفية مع أشرف، يتحدث بصوت عالٍ، والكلمات تخرج من فمه بشكل مُتسارع. لكن، ولسوء الحظ، دخلت نعمة مع ليالي والأطفال في تلك اللحظة، ليصيروا جميعًا مستمعين لكل كلمة قالها "حامد". كان صوته يرتفع وهو ينطق:

_وأنا الصراحة حوار السفر ده حاسه مش داخل دماغهم، ده لو عرفوا إن جلال مسجون هتحصل كوارث!

ليالي بنواح:يا لهوي، هو جلال مسجون مش مسافر؟

يتبع....

الفصل الثامن والثلاثون

شعر "حامد" باضطرابٍ يعتري أعماقه، حينما وقعت كلماتُه على مسامع نعمة وليالي، فخفض هاتفه بحركة مترددة. ثم تقدم نحوهما بخطى ثقيلة، يعلو شفتيه طيف ابتسامة واهنة، تخفي خلفها سيلًا من الهواجس، وقال بصوت مكسوّ بالقلق:
_لا لا ده، في سوء تفاهم!

ليالي بصخب:يا لهوي، سوء تفاهم إيه بعد اللي سمعته بوداني ده؟جلال جراله إيه؟ انطق!
نعمة بصياح:إيه اللي حصل يا حمو؟ جلال ماله؟
حامد بتردد:جلال مية مية، صلي على النبي في قلبكم بس، وأنا هفهمكم كل حاجة!
ليالي بنحيب:أنا كان قلبي حاسس إن في حاجة، مكنتش قادرة أصدق كلامكم وأهو طلع إحساسي صح!

رفعت "ليالي" ذراعيها إلى السماء، تُطلق عويلًا يقطّع نياط القلب، بعدما انكشفت لها حقيقة جلال. لم يكن مسافرًا في عمل كما زعمت نعمة، بل كان قابعًا بين الحثالة في غياهب السجن. أخذت الأفكار تشتد وطأتها في رأسها، كأمواج عاتية تضرب شواطئ عقلها، تتساءل بمرارة: أكان لصًا ينهب حقوق الغير؟ أم بلغت به الوحشية حد القتل؟ وأخيرًا، انفجرت بالبكاء والعويل، صارخةً بصوت يمزق السكون، وقالت:
_عملت إيه يا جلال؟ عملت إيه ياخويا عشان تضيع نفسك وتتلقح في السجن؟

حامد بإلحاح:أقعدوا بس يا جماعة ونتكلم كلمتين!
نعمة بصراخ:بقى تضحك عليا ياخويا وتفهمني إن جلال مسافر في شغل، وهو محبوس في السجن؟
حامد بخَور:أقعدوا وانتوا هتفهموا كل حاجة!

رمقت نعمة "ليالي" بنظرة مشحونة بالأسى، قبل أن تهوي بجسدها المثقل بالحزن على الأريكة إلى جوار حامد. أما ليالي، فقد استسلمت لبحرٍ من الشجن، وعيناها تفيض بالدموع التي تأبى التوقف. قالت بصوت متحشرج، يكاد يقطر تعاسةً، وهي تمسح دموعها دون جدوى:
_أدينا قعدنا أهو، إيه اللي جرا بقى؟

حامد بإستبانة:جلال دخل في خناقة مع سواق توكتوك، وضربه، والحكومة جات خدتهم طلع عليه تلات أحكام.
ليالي بنواح:يا مصيبتي السودة، تلاتة مرة واحدة؟
حامد بوضوح:وعشان يطلع لازم يدفع تلاتين ألف جنيه، وأشرف أخويا راح لخال جلال، أبو محمد وحكاله اللي حصل وهو دلوقتي بيدبرها.

ليالي بإعوال:يا لهوي يا جلال، ارتاحت دلوقتي ياخويا؟ ارتاحت وانت قاعد وسط المجرمين وقتالين القتلة؟

ثم اندفعت تكمل حديثها، وقد ارتفع صوتها بالصراخ المفعم باللوعة، وكلماتها تخرج من أعماق جرح نازف، قائلة بحرقة:

_ماهو أنا أصلي عارفة، جلال مكنش هيهدي ولا يرتاح إلا لما يجيب لنفسه مصيبة!

نعمة بحسرة:يا عيني عليك يا جلال ياخويا يا حبيبي.

حامد بانزعاج:أهو جلال مكنش عاوز حد يعرف عشان اللي بيحصل ده.

ليالي بسخرية:وهو إنت فاكرنا لما نعرف خبر أسود زي ده، هنتحزم ونرقص؟

واصلت "ليالي" توجيه كلماتها إلى نعمة، وقد علا صوتها بالنواح الذي يهز القلوب. أما نعمة، فقد انسابت دموعها بصمتٍ موجع، تشاركها الألم دون أن تجد للرد سبيلًا. وحدث تمامًا ما تنبأ به جلال، إذ قالت ليالي، بصوت متقطع يغلبه البكاء:

_أخوكي جاب لنفسه مصيبة يا نعمة!

نعمة ببكاء:آه، هو احنا مالنا؟ بيجرالنا إيه؟ تكونش عين؟ أه والله هي عين، وعين قوية كمان... ماحنا الناس كلها بصالنا في حياتنا.

ليالي بصراخ:اتنيلي، هيبصولنا على إيه؟ عندنا إيه زيادة عن اللي عندهم؟ أسكتي والنبي يا نعمة! قال يحسدونا قال.

حامد بنُصح:اهدوا يا جدعان خلونا نتصرف بدل الوَش ده!

ثم استدار "حامد" نحو ليالي، وقد ارتسم على ملامحه مزيج من الحزم واللين، وقال لها بنبرة تنبيه تحمل بين طياتها حرصًا دفينًا:

_وانتي يا ليالي معلش متأخذنيش في الكلمة يعني، بلاش لما تشوفيه تعملي اللي بتعمليه ده! أصل الصراحة هو مستحلفلك!

ليالي بجلبة:بعد المصايب اللي عملها ومستحلفلي؟ أللاه وأنا مالي طيب؟

نعمة بندب:يا عيني عليكوا يا ولاد أخويا.

حامد:أنا بلغتكم وعملت اللي عليا.

ليالي بوَلولة:ده إنت ليلتك سودة معايا يا جلال! فاكر نفسك هتروح مني فين؟ وانت مصايبك كترت وبقيت بعدد شعر راسك.

ثم التفتت إلى نعمة التي غمرتها الدموع، وأردفت بغيظ يكشف عن احتدام مشاعرها المتأججة:
_أخوكي لازمله واقفة عشان يتهد ويخاف على نفسه وعلينا!

كانت ليالي تواصل نصح زوجها جلال كلما زادت مشكلاته مع الآخرين، محاولةً إعادته إلى الطريق القويم. كانت تذكره دومًا بأن التهور لا يجلب إلا الهلاك، وأن عواقب الشجار قد تكون مدمرة، إما حياة تملؤها العجز أو نهاية مأساوية. لكنه، رغم ذلك، ظل متمسكًا بأسلوبه العنيف، غير عابئ بتحذيراتها. جلال، ذلك البلطجي الذي بثّ الخوف في قلوب أهل القرية، لم يعرف سوى لغة التهديد لكل من يحاول تجاوز حدوده. ورغم أنه كان الدرع الحامي لعائلته، فإن طغيانه الزائد كان سيفًا ذا حدّين، قد يودي به في لحظة طيش. في تلك الأجواء المشحونة، قرر حامد أن يكسر حدة التوتر. نهض متثاقلًا وتوجه إلى المطبخ، حيث انشغل بإعداد مشروب الليمون البارد، عله يكون بردًا وسلامًا على أعصاب الجميع، وفي الجهة الأخرى من الأحداث، عاد المعلم حنفي إلى المنزل بعد تنفيذ أوامر ضايع. صعد الدرج بخطوات ثقيلة تعكس إجهاد يومه، ودخل الشقة ليجد "أم الديب" تنهض من جلستها على الحصير. تحركت نحوه بسرعة، تتشبث بجلبابه بعنف، قائلة بصراخ:
_إيه اللي جابك هناهو يا راجل يا عرة؟ إنت ليك عين تيجي بعد ما اتجوزت عليا أم ضب؟

المعلم حنفي بتلجلج:اسـ... اسمع... اسمعي يا ولية! آني جاي أصلح اللي اتكسر ونرجع الماية لمجاريها!
أم الديب بغلظة:ما خلاص ياخويا البلاعة اتسدت، واللي اتكسر مبيتصلحش يا عرة الرجالة، ده آني هدفنك هناهو! أصبر عليا بس!

ثم اندفعت نحو "المعلم حنفي"، ممسكةً برأسه بعنف. كانت قوتها المفاجئة تفوق حجم جسدها، ما جعل المعلم حنفي يشعر بألمٍ شديد. ومع تمايل جسده تحت ضغط قوتها، فقد توازن وسقط أرضًا. كان يتألم بشدة، بينما كان يئن من شدة الألم، محاولًا التملص من قبضتها، قائلًا:
_ضهري... ضهري يا ولاد الكلـ*!
بينما كانت أم الديب تعلو المعلم حنفي، تضغط بيدها على جبهته، وتغرقه في نظرات مليئة بالكراهية، كان المعلم يصرخ من شدة الألم، وفي تلك اللحظة، دخل "حامد"، ظنًّا منه أنها لحظات خاصة بين حماه وحماته، فاندفعت قهقهاته من أعماقه، وقال ضاحكًا بضحكٍ يملؤه الاستهزاء:
_هو أنا جيت في وقت مش مناسب ولا إيه يا حمايا إنت وحماتي؟ طب كنتوا اتكنوا جوا مش هنا كده! يفرض عيل شافكم؟
نهضت أم الديب بثقل جسدها، ضاغطة على ذراع "المعلم حنفي"، الذي انفجر في صرخات عالية، متألمًا من الضغط الذي لا يحتمل، بينما كان صوته يملأ الأرجاء، مكتظًا بالاستغاثة، قال:

_الله يحرقك، دراعي!
تركت "أم الديب" المعلم حنفي، واندفعت نحو حامد، الذي ارتجف من شدة المفاجأة. تشبثت في عنقه بكل قوتها، وعيناها تشعان بغضبٍ لا حد له، بينما كان صراخها يتردد في أرجاء المنزل، معبرةً عن سخطها، قالت:
_انت بتقول إيه يا ولا؟

حامد بارتياع:لا لا يا حماتي مبقولش... يلا عاوزة حاجة؟

لكن "أم الديب" لم تكتفِ بذلك، بل شدّته إليها أكثر، وكأنها تريد أن تفرض سلطتها عليه، وقالت له بعتاب صارخ، وكلماتها تتطاير من فمها كالسهام:
_فين شاندوتشات الكبدة والسجق اللي نعمة قالت هتجيبهملي إمبارح؟ انطق! فين؟

حامد بارتجاف:هو أنا مقولتلكيش؟
أم الديب بفظاظة:مقولتش إيه؟
حامد بشجا:الحكومة سحبت العربية مني!

تفككت يدي حامد من قبضتها القوية، فركض مسرعًا نحو الدرج، هاربًا من الغضب المشتعل وراءه. بينما كان "المعلم حنفي" يحاول النهوض، متألمًا من السقطة، راحت أم الديب تتابع خطواته بلا هوادة، وعادت إليه مجددًا، متشبثة بثيابه بجبروت، وكأنها لا تترك له أي فرصة للهرب. كان جسده يرتجف من الخوف، وهو ينطق بكلمات متقطعة، محاولةً درء القلق الذي يعصف به، وقال:
_إيه يا ولية، مالك في إيه؟

أم الديب بقَسَاوة:اطلع برا داري! اطلع بدل مانا اللي أطلع بزمارة رقبتك يا راجل انت!

أول أن هرب المعلم حنفي من قبضتها، انطلق جريًا وراء حامد، مُحاولًا اللحاق به. بينما نظرت "أم الديب" إليهما بنظرة امتعاض، ثم بصقت في المكان الذي كان يقف فيه المعلم حنفي، وهي ترفض حتى أن يلامس قدماه الأرض. ثم أوصدت الباب بقوة، صوت الصفيح يتردد في أرجاء المنزل، قبل أن تصرخ بصوتٍ عالي يحمل في طياته سخطًا لا يطاق:
_اتفوه عليكم، شوية ناس رمة، جاتكم القرف.

جلست أم الديب على الأريكة، التعبٌ يغزو جسدها، لكنها سرعان ما شعرت بالنعاس. ومع ذلك، لم تستطع مقاومة فكرة وجبتها المفضلة التي طالما كانت تعزز مزاجها في مثل هذه الأوقات. نهضت على الفور،

دخلت المطبخ، وبدأت تتناول العشاء للمرة الثالثة في تلك الليلة، قبل أن تستسلم للنوم في هدوء. في المقابل، استقر المعلم حنفي في الحظيرة الصغيرة الواقعة في منزلهم. كانت الحظيرة خالية من الحيوانات، لكن رائحتها وأثرهم لا يزال عالقًا في الأركان. نظف حنفي المكان بيديه المُتعبتين، ثم جمع القش ليصنع وسادة من الحشائش المتناثرة. وضع رأسه عليها، واغتسل في النوم على ضوء اللمبة الخافتة التي تبعث ضوءًا برتقاليًا دافئًا. أما في منزل حسين، وبعدما طرد ضايع المعلم حنفي من دار أخيه، كان ضايع لا يزال في حوار مع جمالات. كان يتحدث عن رغبته في الزواج منها، مستعرضًا أفكارًا غير مكترثة بعواقب ما يقول. كانت فكرة شهور العدة بعيدة عن تفكيره، وكان يعتقد أنه قادر على الزواج من امرأة متزوجة دون النظر إلى الحكم الشرعي في ذلك، مُتجاهلًا ما حرمه الله. لكن ضايع لم يكن شيخًا، بل كان يعيش في حال من التمرد على الشرع والأخلاق، بينما كان أخوه الشيخ التقي يعكف على نصحه بالإرشاد إلى طريق الهداية. كان ضايع ينصت لما يقوله أخوه كما لو كان يسكب الماء في المصفاة، بلا جدوى، وقد قال "ضايع" لجمالات بالإجبار:

_يومين بالظبط، تمانية وأربعين ساعة ميزيدوش ساعة واحدة وتكوني مراتي وعلى ذمتي!

جمالات باعتراض:متآخذنيش يا سي ضايع، بس اللي بتقوله ده ميرضيش ربنا! احنا نستنى تلات شهور العدة وبعدين نتجوز!

ضايع بصُداح:ضايع ميتقالوش لا يا بنت الـ***!**

رغم خوف جمالات من ضايع، إلا أنها جمعت شجاعتها وقررت أن ترفض عرضه. أخبرته بوضوح أنها لن تتزوج منه قبل انتهاء شهور العدة، متمسكة بما تمليه عليها مبادئها. لكن ضايع لم يتقبل هذا الرفض، فقد كان يرغب في قول الكلمة مرة واحدة، وتنفيذها فورًا، دون تردد. انهار صبره فجأة، فنهض من مكانه وهو يسبها بألفاظ شنيعة، يتحدث إليها بلهجة شريرة تشي بالعنف. لكن "جمالات" لم تسمح له بأن يستمر في سلوكياته الجارحة. نهضت هي الأخرى، وعينها مليئة بالحزم، وعززت وقفتها بتصميم. صاحت في وجهه، قاطعةً عليه كل محاولة للإساءة، قائلة:

_احترم نفسك يا ضايع ومتخليش لسانك يطول عليا! لو إنت عندك لسان فأنا عندي عشرة!

من ذا الذي يجرؤ على مخاطبة ضايع بهذه الطريقة؟ لم يستوعب رد فعل جمالات، ومع سماعه لتلك الكلمات، امتلأ غضبًا حتى انفجر، وكأن الدم ضرب في رأسه. تشبث بها من شعرها بكل قوته، ورفعها بيد واحدة من عنقها، محدثًا شعورًا مرعبًا بالضغط في حلقها. صرخت "جمالات" بصوت مبحوح، وجسدها يتحرك يائسًا في محاولة للهروب من قبضته، لكن دون جدوى. كانت تختنق، والدموع تغرق عينيها، بينما قالت بألم:

_نزلني، نزلني يا ضايع، نزلني بقولك!

ضايع بجَهامة:انتي اللي حكمتي على نفسك يا أم الفار!

ثم وضع ضايع جمالات فوق الأريكة، وقبض على عنقها بكل قوته، مخنقًا إياها حتى منع عنها الهواء. بدأ وجهها يشحب تدريجيًا بينما كانت تتنفس بصعوبة، تصارع الموت بكل ما أوتيت من قوة، ولكن كان ضايع يضغط على عنقها بلا رحمة، متكئًا عليه بكل ثقل جسده. في لحظة، شعرت جمالات بأن روحها تغادر جسدها، وتفارق الحياة بكل ألم. ظل ضايع يضغط عليها، غير مكترث بتوسلاتها أو محاولاتها للحياة، حتى تأكد من موتها. عندما تركها أخيرًا، سقطت على الأرض كما لو كانت دمية بلا حياة، مودعةً هذا العالم، ولكن ضايع لم يلتفت. هرب مُسرعًا إلى مكان مجهول، عازمًا على إخفاء جريمته قبل أن يبلغ الجيران عما حدث. بينما كان يركض في الظلام، لمحه أحد الجيران من النافذة وهو يهرول مُسرعًا. ساورته شكوكٌ حول حدوث أمر غريب. فقرر أن يتسلل بحذر إلى منزل حسين. وعندما دخل، صُدم لرؤية جمالات ملقاة على الأرض، جسدها أزرق تمامًا وخالي من الروح. صرخ الجار، وعلا صوته بالعويل وهو يركض نحو الجيران، مما دفعهم للاتصال بالشرطة التي وصلت بسرعة.

اليوم الثاني في منزل عم سلامة، كان الجميع مشغولًا في تجهيز شقة صابر، استعدادًا لحفل زفافه. كان المقاولون والنقاشون يعملون بلا توقف لإنهاء تركيب السيراميك والدهانات. الشقة كانت شبه جاهزة، مع بعض اللمسات الأخيرة في الأثاث والألوان. في تلك اللحظة، كان عم سلامة جالسًا في الصالة مع زوجته تباهي وابنه صابر، يشربون الشاي بالنعناع أمام شاشة التلفاز. كان الجو هادئًا، وأجواء الهدوء تعكس التوقعات الكبيرة لزفاف صابر بعد شهور قليلة، وبينما كانوا يتناولون مشروبهم، اختلط الفضول بحديث "تباهي" التي سألت بفضول:

_يعني انتوا كده فاضلكم العفش والأجهزة؟

صابر بتأكيد:آه ياما.
تباهي باهتمام:طب وهتجيبوا العفش منين؟
صابر:بنفكر نجيبه من دمياط، هناك الحاجة أحسن.
عم سلامة بدهشة:وتجيبه من هناك ليه؟ ده الحاجة غالية، ما نعملك العفش عمولة عند النجار وبسعر أرخص!
صابر برفض:لا حاجته مبتعجبنيش، وبعدين يابا، هو إنت هتجوزني كل يوم؟ ده هي مرة!
تباهي ببشاشة:صابر عنده حق، سيبهم يفرحوا ويتهنوا ده هي جوازة العُمر!
عم سلامة بِإقتصاد:أنا بس بدورله على الأرخص عشان يعرفوا يكملوا باقية الشقة وميتعجزوش.

كان عم سلامة يعمل جاهدًا لتوفير كل جنيه من أجل حفل الزفاف المنتظر، حيث كان يعتقد أن الأثاث العمولة هو الأفضل والأكثر متانة مقارنة بالأثاث الجاهز الموجود في معارض الأثاث. ومع ذلك، كان صابر ووالدته تباهي يريان أن الأثاث الدمياطي هو الأفضل بلمسته الفريدة التي تميز كل قطعة. وكانت المناقشات تدور بينهم حول هذا الموضوع، لكن عم سلامة كان مصرًا على رأيه. بينما كانوا جالسين في الصالة، ارتشف كل منهم مشروبه المفضل، والجو مملوء بأصوات المسلسلات التي تغمر المنزل. كانت

الإعلانات تظهر على الشاشة بين الحين والآخر، مشوشةً التركيز. وفي تلك اللحظة، تلقى "صابر" مكالمة هاتفية من عروسه بدرية. ارتسمت البهجة على شفتيه فور سماع صوتها، وهو يجيب على المكالمة بكلمات مليئة بالاشتياق، قائلًا:

_ألو يا عروسة، أخبارك إيه؟

لكن تلك البسمة التي ارتسمت على شفتيه لم تكتمل، فقد تلقت أذنه خبرًا مفجعًا عن وفاة جمالات. تم قتلها بلا رحمة، وفقدت حياتها في لحظة غدر. نهض "صابر" في الحال من مكانه، وارتسمت ملامح الصدمة على وجهه. فزعًا، خرجت صرخته قوية، وهو في حالة من الذهول، قائلًا بحزنٍ:

_خالتك ماتت؟ ماتت ازاي؟.... لا حول ولا قوة إلا بالله.... لقوها مقتولة في شقة الحاج حسين؟ مين اللي عمل فيها كده؟.... يا فرحة ما تمت.

نهض "عم سلامة" في الحال، وجذب صابر نحوه بتشبث عنيف، علامات الفزع تظهر على وجهه، وهو يسأله بقلق:

_في إيه يا صابر؟ في إيه؟

صابر بصراخ:الحاجة أم الفار لقوها مقتولة يابا!

تباهي بإعوال:يا لهوتي.

نزلت دموع تباهي بغزارة، وهي في حالة صدمة شديدة لا تستطيع استيعاب ما حدث لأم الفار. لم تكن وفاتها نتيجة مرض أو حادث طبيعي، بل قُتلت بيد غادرة. تساءلت في نفسها: من الذي ارتكب هذه الجريمة البشعة؟ لا يمكن أن يكون المعلم حنفي، فتراودت في ذهنها صورة ضايع، حيث كان يشك الجميع أنه قد يكون هو الفاعل. في الليلة السابقة، حضرت سيارات الشرطة إلى مسرح الجريمة، وبدأ التحقيق مع الجيران. سأل المحققون عن المعلم حنفي، لكنهم أخبروا الشرطة أنه لم يُرَ منذ ليلة الحادث. في تلك الأثناء، ارتدى عم سلامة وصابر وتباهي ثيابهم بسرعة، وخرجوا مُتوجهين إلى منزل العروس بدرية، لعلهما يحصلان على مزيد من المعلومات حول الحادث. بينما في مكان آخر، كان الألم يملأ قلب هايدي وهي مستلقية على سريرها، بعد فقدان جنينها. كانت تضع يدها على بطنها بين الحين والآخر، وكأنها تستشعر الفراغ الذي تركه الجنين. بجانبها كان زياد، وقبالها أحمد وجميلة وطفلتيهما، جميعهم في حالة تأثر وشجن عارم. كانت الأمنيات تراودهم بأن يعوضها الله عن فقدها بطفل آخر قريبًا. أما "جميلة"، وهي تشعر بالحزن على حال هايدي، قالت لها بابتسامة حانية، محاولة أن تواسيها وتخفف عنها، وتقدم لها الدعم والمساندة في هذا الوقت العصيب:

_خلاص يا هايدي اللي حصل حصل، هتعملي إيه؟يمكن ربنا شايلك حاجة أحسن بكتير! وبعدين إنتي مكنتيش عايزة تخلفي دلوقـ....

هايدي بشجن:اتعلقت بيه!

جميلة بتعجب:اتعلقتي بيه ازاي؟
هايدي باستياء:أنا أه مكنتش عايزة أخلف دلوقتي، بس لما بقى أمر واقع اضطريت أوافق وأرضى بنصيبي وابتديت أتخيل شكله وملامحه لما يكبر هتكون عاملة ازاي! ولما يجي الدنيا هنعيش سوا مع بعض وهنعمل ذكريات حلوة ولا وحشة؟ طيب لما يكبر ويبقى شاب هيعاملني ازاي؟ يوم واحد بس ورسمت حاجات كتير معاه وفي الآخر أحلامي اتدمرت... عرفتي أنا ليه مكنتش عايزة زياد يعرف؟
زياد بتساهُل:وإيه المشكلة يا هايدي لما أنا عرفت؟ هل لما حصل كل ده أنا سيبتك أو غيرت وجهة نظري؟ مانا لسه معاكي زي مانا ومفيش حاجة اتغيرت!
أحمد بتبرُّم:كل ده بسبب ماما، لو مكنتش جات كان زمان كل حاجة ماشية تمام زي ما هي.
جميلة بجَزَع:فعلًا...

أردفت "جميلة" لزياد وهي تراه أكثر حكمة في رأيه، فقد كانت مقتنعة تمامًا بما قاله، ووجدت أن كلامه يحمل من الحقيقة ما يكفي. لم يكن من الممكن أن تنفصل تلك الأحداث عن بعضها، فقد اقترن هذا الحضور المؤلم بفقدان هايدي لجنينها، ويبدو أن كل شيء تتابع بشكل مرير منذ تلك اللحظة. قالت وهي تنظر إلى زياد بعينين تملؤهما الحزن:
_وبصراحة يا زياد إنت عندك حق في قرارك، وشكلي أنا كمان هعمل كده.

أحمد بشك:ماما مابقتش طبيعية، أنا ابتديت أحس إن عقلها ده فيه مشاكل مش مشكلة واحدة! أنا بفكر أوديها لدكتور أمراض عقلية وأعرض حالتها عليه بس من غير ما تعرف!
زياد بثقة:لا يا أحمد، أمك سليمة وزي الفل، هي اللي سايقة الهبل.
أحمد بضَياع:مابقتش عارف هل هي كده فعلًا ولا هي اللي بتستعبط!

نهض "أحمد" بخطى ثقيلة نحو هايدي، ووقف بجانبها وهو يضع يده على رأسها برفق. نظر في عينيها بعمق، حزينًا على ما مرت به، ثم قال بصوت دافئ مليء بالدعم:
_على العموم أنا مش عايزك تشيلي في قلبك يا هايدي، قدر الله وما شاء فعل.

هايدي بقناعة:الحمدلله.

زياد بابتسامة:أيوه احنا مش عايزين غير الكلمة دي، الحمدلله.
هايدي بإنهاك:أنا تعبانة وعايزة أنام، ممكن تسيبوني لواحدي؟

نظر "زياد" إلى أحمد وجميلة بتردد، ثم نهض في هدوء. اقترب من هايدي وهو يربت على كتفها، ثم قبّل جبهتها بحنان، كأنه يحاول أن يخفف عنها ولو جزئيًا من الألم الذي تعيشه. ابتسم ابتسامة خفيفة، حاول أن يخبئ وراءها الكثير من الآلام، وقال بصوت ملآن بالمرارة:

_حمدالله على سلامتك يا حبيبتي.

هايدي بشجن:الله يسلمك.

خرج الجميع من غرفة هايدي، وكان أحمد آخر من غادرها، حيث أغلق الباب وراءه بهدوء. في الصالة، جلس الجميع يتحدثون، بينما تركوا هايدي بمفردها في الظلام، تنتحب بصمت. مرت يديها برفق على بطنها، والقهر يعتصر قلبها كما لو كان هناك نيران مُشتعلة في داخلها. كانت دموعها تتساقط دون توقف، ولا تجد الكلمات التي تعبر بها عن حزنهما. في داخلها، كانت المرارة تجاه والدتها تشتعل. كانت قد اتخذت قرارًا حاسمًا: لن تخبر أم الديب بأي شيء بعد الآن، سواء كان ما يحدث في حياتها سلبيًا أو إيجابيًا، فهي لا تستحق أن تشاركها في أي شيء. راودتها فكرة أن أم الديب قد تكون هي من دفعتها لهذه النهاية الأليمة، وأنها ربما كانت تتمنى أن تجهض طفلها، خاصة وأنها لم تكن سعيدة بفكرة حملها من زياد. أما المعلم حنفي، فكان نائمًا في الحظيرة التي دخلها ضوء النهار. كان غائبًا عن الأحداث التي جرت، وخاصة ما حدث مع أم الفار. وفجأة، اقتحمت الشرطة المنزل، ودخل "الضابط" وأصدر توجيهًا صارمًا إلى العساكر، وهو ينطق:
_أدخلوا هنا وأنا هطلع فوق!

العسكري بطاعة:تمام يا فندم.

صعد العساكر بسرعة إلى الطابق العلوي، حيث بدأوا بتفتيش كل زاوية من المنزل بحثًا عن المعلم حنفي. كان نصفهم يتجه نحو شقة أم الديب، بينما اتجه النصف الآخر إلى الحظيرة. وعندما انفتح جفنا المعلم حنفي في الحظيرة، وجد نفسه أمام الشرطة. كان في حالة من الذهول، لم يستوعب ما يحدث حوله. سحب الضابط المعلم حنفي من مكانه بقوة، فسأله "المعلم حنفي" بصراخ محمل بالدهشة:
_في إيه؟

في الأعلى، كان الضابط الآخر والعساكر يطرقون باب أم الديب بقوة شديدة، مما جعلها تستيقظ فجأة من نومها، مفزوعة. كان شعرها مجعدًا، وأذناها تبرز منهما بشكل غريب، بينما كانت ثيابها متسخة. فتحت الباب، لتجد الشرطة أمامها، حيث دخلوا مُسرعين دون أن ينطقوا بكلمة واحدة. بدأ كل منهم يبحث في كل زاوية من المنزل عن المعلم حنفي. دخلت "أم الديب" خلف الضابط، ووجهها يعكس الغضب من هذا الاقتحام المفاجئ، فسألته بغلاظة، محاولَة فهم ما يحدث:
_ايهي، إنت مين ياخويا؟

الضابط بصياح:فين المعلم حنفي؟ راح فين؟
أم الديب بصخب:وآني مالي؟ روحوا شوفوه متلقح في أنهي داهية!

الضابط بحدة:يعني متعرفيش؟
أم الديب بغلاظة:لا معرفش.

ظل الضابط يتفحص الشقة بسرعة، بينما كانت "أم الديب" تتبعه بخطوات سريعة، كظلة تلاحقه، وعينيها تحملان مزيجًا من السخط والدهشة. صرخت بصوت مرتفع، قائلة:
_استني هناهو هي وكاله من غير بواب ولا إيه؟ إنت رايح فين يا حضرة الظابط؟
صعد "أحد العساكر" إلى شقة أم الديب، وصرخ بصوت عالي ليُلفت انتباه الضابط، قائلًا:
_لقينا المعلم حنفي يا باشا!

الضابط باهتمام:لقيتوه فين؟
العسكري:في الزريبة اللي تحت.
الضابط:تمام.

كانت الشرطة على وشك استكمال بحثها في باقي الشقق، لكن بعد العثور على "المعلم حنفي"، نزلوا إلى الأسفل حيث قيدوه بالكلبشات، ثم خرجوا به مُتجهين نحو سيارة الشرطة. تجمع الجيران حولهم، مشغولين بالفضول، فيما خرج آخرون من شرفاتهم لمتابعة هذا الحدث الغريب. بينما كانوا يسيرون بالمعلم حنفي، وهو يحاول المقاومة بشدة، صرخ قائلًا بكل ما لديه من قوة:
_آني معملتش حاجة يا باشا، جايبني معاكم ليه؟

الضابط:هتعرف كل حاجة هناك.

دفعوه داخل سيارة الشرطة، وانطلقت بهم نحو قسم الشرطة. خرجت أم الديب من منزلها، لتقف مع الجيران الذين كانوا يحدقون بها بفضول، يسألونها عن السبب وراء القبض على المعلم حنفي. كانت هي الأخرى في حيرة، لا تفهم شيئًا مما يحدث. وصلت الشرطة مع المعلم حنفي إلى النقطة، حيث تم إدخاله إلى غرفة وكيل النيابة. وقف المعلم حنفي أمامه، يرتجف بشدة، فقد علم من العساكر أنه متهم بالقتل، وهو الذي لم يقترب من الضحية ولم يجرؤ على فعل شيء من هذا القبيل. كان في حالة من الإنكار التام، لا يفهم ما يحدث، فكان ينتحب بقوة حيث تلفظ "الضابط" بصياح:
_أنا لحد دلوقتي مفهمتش منك ولا كلمة! إنت آخر مرة شوفت أم الفار كانت امتى؟

المعلم حنفي بتلعثم:النهارده... بس والله... والله يا باشا والله وحياة النعمة ما قتلتها... آني هقولك اللي حصل!
الضابط بإصغاء:قول.

بعد أن تحدث المعلم حنفي مع "الضابط"، وهو ينهار منتحبًا، كانت كلماته تتلعثم وتخرج بشكل غير واضح، يحاول شرح موقفه، لكن الحزن والخرع كانا يسيطران عليه. بعد أن استمع الضابط إلى ما قاله، نظر إليه بجدية، ثم قال له بلهجة قاطعة:
_يعني ضايع كان موجود وهو اللي طردك؟

المعلم حنفي ببكاء:أه والله يا باشا.
الضابط بحسم:المعلم حنفي هيشرف معانا تلات أيام على ذمة التحقيق.
المعلم حنفي بصراخ:لا يا باشا أبوس إيدك لا! والله ما عملت حاجة، آني راجل غلبان ومظلوم!

ندم "المعلم حنفي" على معرفته بضايع، الذي لم يجلب له سوى الخراب والدمار. نظر إلى الأرض بحسرة، ودموعه تتساقط، ثم رفع يديه إلى السماء في دعاءٍ من أعماق قلبه، قائلًا بحرقة:
_الله يخربيتك يا ضايع الكلب، ربنا يقصف عمرك بدري إنت وأختك ويريحني منكم.
في إحدى اللحظات التي تكشف عن تتابع المشكلات، انطلق أبو محمد وأشرف في مسعى لإخراج جلال من الموقف الذي يواجهه. حين وصلوا إلى مكتب الشرطة، فوجئوا برؤية العسكري وهو يقتاد المعلم حنفي خارج المكتب، فتملكت الصدمة وجه أشرف، الذي بدت عليه الدهشة. دنا أبو محمد وأشرف من العسكري بخطوات مُضطربة، وقد اكتنف قلوبهم التساؤل عن سبب اقتياد المعلم. علموا حينها من العسكري أن المعلم حنفي متهم بجريمة قتل، وهي التهمة التي أيقظت في قلبه طوفانًا من المشاعر، فلم يكن منه سوى أن ارتفعت نبرته في محاولة للدفاع عن نفسه، مناديًا في الناس بشكواه، ومعبرًا عن مظلمته. لكن العسكري لم يمنحه فرصة للتبرير، وأسرع في إبعاده. تحرك أبو محمد وأشرف خلفهم، إذ يعرفان جيدًا أن المعلم حنفي رجل مسالم، لا يمكنه الإقدام على مثل هذه الجريمة. التفت أبو محمد نحو السماء، مستغفرًا ومستعيذًا بالله من هذا البلاء، ثم قرر مع أشرف التوجه إلى الضابط بحثًا عن الحقيقة، وفي داخلهما أمل في كشف براءة هذا الرجل الذي ظلمته الأيام. بينما كان جلال جالسًا على أرض السجن، مستندًا إلى الحائط ورافعًا ساقيه، يضع يديه عليهما ليأخذ قسطًا من الراحة، دخل العسكري إلى الزنزانة وأدخل المعلم حنفي. فور رؤيته لوالده، قفز جلال في أحضانه بشوق، متعجبًا من وجوده هنا. في هذه اللحظة، أغلق العسكري الباب خلفه، بينما كان بقية السجناء يراقبونهما بدهشة. نظر "جلال" إلى والده، وقال بشوق:
_أبويا، أبويا!

المعلم حنفي بصدمة:انت إيه اللي جابك هنا يا جلال؟
جلال بدهشة:انت اللي إيه جابك هنا يابا؟ جاي هنا بتعمل إيه؟
المعلم حنفي بنحيب:بعد ما طلقت أم الفار تحت تهديد سلاح خالك ضايع وطردني من بيت عمك، الشرطة نطوا عليا واتهموني إن أنا اللي قتلتها يا جلال!
جلال بعَجَب:يا نهار أسود يابا، أم الفار اتقتلت؟
المعلم حنفي بنشيج:أه يا جلال، ومفيش حد يعمل العاملة السودة دي غير خالك ضايع.

ضرب "جلال" كفًا على كف، حيث كان مستغربًا جدًا من خبر وفاة جمالات، فسأل بصدمة:
_ازاي يابا؟ ازاي؟

المعلم حنفي بقهر:الله يرحمك يا أم الفار، ملحقتش أتهنى بيكي، هتعيش وتموت بختك مايل يا حنفي.
جلال بتأثر:أنا مش مصدق يابا، بقى مراتك الجديدة اتقتلت؟ ومن مين؟ خالي ضايع؟ هما كان في حاجة ما بينهم يابا؟
المعلم حنفي بغم:أمال إيه ياض؟ مش خلاني أطلقها عشان يتجوزها هو؟
جلال بحزن:ياه يا مرات أبويا، دي كانت ولية طيبة، دي ملحقتش تعمر معاك أسبوع!
المعلم حنفي بكآبة:مش بقولك بختي أسود؟

جلال بشفقة:طب خلاص يابا، نجوزك غيرها ولا تزعل نفسك!
المعلم حنفي باحتجاج:لا، أم الفار دي مكنش ليها مثيل! كانت ست شديدة وقوية ومع ذلك محافظة على أنوثتها، مش أمك اللي كانت زي الدكر في كل حاجة.
جلال بابتئاس:لا لا مش مصدق، في حاجة غلط يابا، ألطشني كف يمكن أنا بحلم!
المعلم حنفي بتَرَح:لا ياخويا مش بتحلم، مقولتليش إيه اللي جابك هنا؟

لم يكن جلال يصدق ما حدث لجمالات، وكيف أنها توفيت على يد خاله الذي هرب بعيدًا. كانت صدمة كبيرة له، فالحكومة تبحث عنه الآن في كل أرجاء مصر، وقد أصبح رجلًا مطلوبًا بعد أن ارتكب العديد من الجرائم. شعر المعلم حنفي أن الحياة قد انقضت على سعادته وأخذت منها ما كانت تمنحه له. مستشعر بألم شديد لفقدان زوجته أم الفار، وكان يراها كأنها جزء من حياته التي تهدمت أمام عينيه. كان يظن أنه قد بدأ حياة جديدة مليئة بالأمل، لكن سرعان ما خُطف منه هذا الأمل على يد الأشرار. انهمرت دموعه وهو يجلس على الأرض مع جلال، يتبادلان الأحاديث. بينما في المنزل لدى ليالي ونعمة، لم يكن أحد يدرك ما حدث بعد حتى حضرت الشرطة. بينما كانت ليالي ونعمة نائمتين في شقتهما، استيقظ الجميع بعدما حدث. نزلت نعمة لتواسي ليالي التي كانت في محنتها، فجلستا معًا على الأريكة. كانت "ليالي" تندب حظها، والألم يملأ قلبها. شعرت بالخوف من المستقبل، مشتاقه إلى جلال الذي غاب عنها في هذه الأيام القليلة. وبدون أن تتمالك نفسها، صَفَعَت فخذيها بقهر، تقول بإعوال:
_مش قادرة أعيش من غيرك يا جلال، أعمل إيه بس؟ بحبك ياخويا ومقدرش على بعادك! آه لو بس تسمع كلامي، كان زمان حالنا اتصلح.

نعمة باستياء:جلال مبيسمعش غير لدماغه وبس، هو كده طول عمره، لا بيسمع كلامنا ولا بيسمع كلام أمي ولا بيسمع لحد... هقول إيه؟ شيطانه راكبه.

رن هاتف "ليالي"، فنظرت إليه بضجر، غير قادرة على الرد، لكن أشفقت على نفسها من تجاهله، فأمسكت الهاتف لتجد مكالمة من هبة، أختها. دون أن تفكر، ردت على المكالمة وهي تبكي، وقد تكومت آلام قلبها على شفتيها، فقالت بصوت مبحوح، مختنق بالدموع:

_ألو يا هبة ياختي.

تلقت "ليالي" خبر وفاة جمالات، السيدة التي ارتاحت في مجاورتها، تلك التي زرعت الفرح في قلبها بعكس أم الديب التي كانت سلبته منها، حيث نهضت فجأة، وفمها مفتوح في صرخة منذهلة، متسائلة بحيرة، وقد تداخلت الآلام مع الصدمة، قائلة:

_يا لهوي أم الفار اتقتلت؟ يا لهوي! يا حول الله يارب، يا حول الله يارب... ازاي يا هبة؟ ازاي؟

يتبع....

الفصل التاسع والثلاثون

اجتاح "نعمة" طوفان من الذهول حينما انكشف لها أن زوجة أبيها قد لقيت مصرعها غيلة على يد مجهول، دون أن تدرك أن القاتل لم يكن سوى خالها ضايع. فوضعت يدها على صدرها، وصرخت بصوت مختنق يحمل في طياته دهشةً ووجعًا:

_يا نهار أسود، اتقتلت ازاي يا ليالي؟ ومين اللي عمل كده؟

لكن ليالي لم ترد عليها، بل استمرت في حديثها مع هبة عبر الهاتف. كان هذا الخبر كالسهم النافذ، يمزق كل ألم آخر، حتى غياب جلال تلاشى أمام وطأته. تصدر هذا النبأ قائمة الأحزان بلا منازع، محققًا السيادة على كل ما عداه. انهمرت دموع "ليالي" بغزارة، وهي تقول بصوت متقطع:

_أه ... أه ...أيوه ...أيوه ياختي، إنتي نسيتي إنها خالة العروسة؟ ما لازم يتأجل، عيني عليكي يا أم الفار، تبقى دي نهايتك؟ طيب يا هبة أنا هلبس وجاية، سلام.

أنهت ليالي حديثها مع أختها، وكلتاهما تتهيآن لارتداء أثوابهما والذهاب إلى منزل أهل العروس، حيث سيحضرن عزاء جمالات التي قتلت في ملابسات تلفها الغموض. وبينما اندفعت ليالي إلى الغرفة بخطى مُتسارعة، لحقت بها "نعمة" وقد ارتسمت على وجهها ملامح الذعر، ثم قالت بصوت متهدج يفيض خوفًا:

_في إيه يا ليالي؟ ما تفهميني ياختي!

ليالي ببكاء:أم الفار اتقتلت في شقة عم حسين.

نعمة بصراخ:مين اللي عمل كده؟

ليالي بنحيب:لسه مش عارفين، وبيقولوا خدوا حمايا على نقطة الشرطة اللي في بلدنا.

كانت ليالي تتنقل بخطوات متعثرة، كأنها تسابق الزمن دون أن تدري ما العمل. خرجت من غرفتها على عجل، ثم اندفعت نحو غرفة أطفالها، ونعمة تلحق بها بخوف يكسو وجهها. هناك، وقفت "ليالي" فجأة، وصرخت بصوت ملؤه الانفعال:

_واد يا حمود، يا تقى... تعالوا معايا يلا!

نعمة بنشيج:استني يا ليالي أنا هاجي معاكي!

صعدت نعمة إلى شقتها مرتدية عباءة سوداء، وقلبها ينبض كطبل قلقًا وريبة، فالغيوم الكثيفة التي تحيط بمقتل أم الفار تضاعف إحساسها بالخطر، خاصة أن حياتها أُزهقت بين عشية وضحاها دون أي تفسير.
وفي الطابق الأسفل، كانت ليالي قد دخلت غرفتها ترتدي عباءتها هي الأخرى، بينما كان أطفالها منشغلين بارتداء ثيابهم الصغيرة. لكنها، رغم عجلتها، لم تستطع مقاومة شعور الخوف الذي يطاردها من تركهم بمفردهم، خشية أن يظهر ضايع فجأة، كما فعلت الأقدار مرارًا، وبعد ثلث ساعة من التوتر، خرجوا جميعًا

من المنزل مُتجهين إلى موقف سيارات أبو حلاوة، حيث استقلوا إحدى سيارات الأجرة مع أطفالهم، مُتجهين نحو قرية المقتول. الطريق كان صامتًا كأنه يعكس وقع المأساة، ولكن الدموع التي لم تتوقف عن الانهمار من عيون ليالي ونعمة كانت كافية لتروي قصة وجعهما. عيون ليالي المنتفخة والحمراء أثارت استغراب الركاب، الذين اكتفوا بالنظر إليها في صمت، دون أن يجرؤوا على اقتحام عالمها المنكوب، وفي الجانب الآخر من هذا العالم القاسي، حيث يتقاطع مصير المحبوسين، كان جلال ووالده يستقران على الأرض بين المساجين في زاوية ضيقة من الزنزانة. الزمان هناك ينساب ببطء قاتل، والحديث بينهما كان الملاذ الوحيد من وحشة الأسوار، فقال "جلال" باستياء:

_الدنيا دي بقيت صعبة أوي يابا، بقيت زي الصخرة تقيلة على القلب.

المعلم حنفي بشجن:أه والله يا جلال، ومبتجيش إلا على الغلبان اللي زينا.

أتى "العسكري"، وفتح باب الزنزانة بصوت حاد يشبه قسوته. وقف للحظة يتفحص الوجوه المتعبة بنظراته الحادة التي تجوب بين المساجين، ثم صاح بصوت عالٍ يكسر الصمت:

_جلال حنفي الديب.

رفع "جلال" ذراعه، وعيناه تتوهجان كاللهب، وقال بصخب، وصوته يزلزل الحجرة:

_أنا أهو يا جدع!

العسكري بحدة:الباشا عايزك!

نهض "جلال" من مكانه بخطوات سريعة، ولحق به المعلم حنفي وقد ارتسمت على وجهه ملامح مزيج من الحزن، والأمل فقال جلال بارتياح:

_يامانت كريم يارب.

المعلم حنفي بأمل:طب وآني، مش هتخرجوني؟

العسكري بفظاظة:لما الباشا يطلبك.

جلال بطمأنينة:متخافش يابا، محلولة بأمر الله.

خرج جلال يتبع العسكري بخطوات هادئة، وعيناه تبحثان عن مخرج من شراسة الأحزان التي تطارده. أوصد العسكري الباب خلفه، ثم قاده عبر الممرات الباردة نحو غرفة الضابط. في الزنزانة، جلس المعلم حنفي مكانه، عيناه معلقتان بالأرض، والدموع تنساب من مقلتيه. لم يحتمل أحد المساجين مشهد حزن المعلم، فنهض بعد أن تأكد من مغادرة جلال، الذي طالما كانت هيبته تكبل حركتهم. أخرج سيجارًا من جيبه، ومده إلى المعلم حنفي كأنه يقدم له لحظة عزاء في عتمة الخسارة. بينما في غرفة الضابط، كان أبو محمد يقف إلى جانب أشرف، ملامحهما مرهقة لكنها تنبض بإصرار. كان أبو محمد قد دفع كفالة جلال بعد

أن باع دراجته النارية التي ظلت راكنة في بدروم منزله لسنوات، لكنه لم يتردد في التضحية بأغلى ممتلكاته من أجله. وقف "الضابط" خلف مكتبه بنظرة حادة، وصوته يحمل الجدية، مخاطبًا جلال بنبرة صارمة، فقال:

_الحاج أبو محمد، دفعلك تلاتين ألف جنيه، شوف عمل إيه، والله أعلم استلف من مين المبلغ ده عشان يخرجك!

عانق "جلال" خاله بعاطفة، وهو يطبع قبلة على رأسه كعلامة امتنان لا توصف. كانت يده المرتجفة تحمل كل معاني التقدير، بينما كانت عينيه تفيض بالفرح الذي لا يُخبأ. ثم قال بصوت يختلط فيه السرور بالراحة:

_تُشكر يا خالي، مش عارف أودي جمايلك عليا فين!

الضابط بشكاسة:المرة الجاية أنا مش هقبل أي كفالة انشالله لو وصلت مليون جنيه، أنا عايزك تمشي جنب الحيط وتخاف على نفسك!

جلال بابتسامة:لا يا باشا متقلقش كله في السليم، توبة إني أغلط غلطتي دي تاني.

أشرف بتجهُّم:احنا شيلنا الأحكام اللي عليك، كده تقدر تتحرك براحتك.

جلال بامتنان:طب وربنا حبيتك، إنت جدع ياض وبتفهم في الصح، دماغك دي عجبتني، دماغ متكلفة صحيح.

لأول مرة، شعر جلال براحة غير مسبوقة تجاه أشرف، وخيوط البغضاء قد انحلّت ليظهر أمامه شخصًا يحمل بين جنبيه شخصية محترمة، تستحق التقدير. لكن في قلب أشرف، كانت غصة ماضية لم تُمحَ بعد، فالغضب الذي كان يعتمل في صدره تجاه جلال بسبب ما حدث بينهما في المصيف لم يزل حيًا. ومع ذلك، كان "أشرف" يخفف من مشاعره تلك حينما صافح الضابط بحركة مليئة بالتبجيل، قائلًا:

_طيب هنستأذن احنا يا باشا، وشكرًا لتعب حضرتك.

الضابط بشموخ:اتفضلوا، احنا تحت أمركم في أي وقت.

أبو محمد بإكتهاء:السلام عليكم.

الضابط بابتسامة:وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

خرج جلال ومن معه من نقطة الشرطة، وقلبه قد تحرر أخيرًا من قيود كانت تكبله خلف القضبان، بعد أن عانى طويلًا من مرارة السجن. ظلوا يمشون في هدوء حتى وصلوا إلى الشارع حيث ضوء النهار يملأ الأفق، والمارة يسيرون من حولهم في عالم آخر بعيد عن أوجاعهم. هناك، وضع "أبو محمد" يديه برفق على كتف جلال، وهو يسترجع في ذاكرته كل المرات التي جاء فيها لينقذه من مستنقع مشاكله. كانت كلمات الخال تحمل عبق الحياة وتجاربها، فحاول أن يعظه لعل دروس الماضي تُجنبه الأخطاء المستقبلية. فقال بعظة حكيمة، وهو ينظر في عينيه:

_هما كلمتين وتحطهم حلقة في ودنك! مراتك وبيتك وعيالك مالهمش ذنب، امشي عدل يحتار عدوك فيك! الدنيا والله ماهي مستاهلة الخناق والمشاكل يا ولدي! ده إنت حتى لو متشاكلتش مع حد بس هتجيب الضغط والسكر لنفسك وانت لسه شاب في عز شبابك وعندك عيال زي الورد حافظ عليهم! ده كفاية قلب مراتك اللي زمانه مقهور عليك.

جلال بثقة:لا يا خالي ده أنا موصي حامد يقولهم إن أنا مسافر في شغل، يعني ميعرفوش أيها حاجة عن اللي حصل، أمانة عليكم انتوا محدش يجيبلهم سيرة!

أشرف بحسم:لا يا جلال اطمن، بس اعمل في حسابك احنا ورانا مشاغلنا وحياتنا يعني يوم ما تعمل مصيبة جديدة، المرة دي يا عالم هتلاقينا ولا لا.

جلال بارتياح:لا ياض، ربنا ما يجيب مصايب أبدًا.

أدرك جلال قيمة الحرية وهو بين عائلته، تلك النعمة العظيمة التي لا تُقدّر بثمن. رغم سماعه خبر وفاة جمالات، إلا أن خروجه من السجن منح قلبه راحة طال انتظارها. اتفق أبو محمد مع جلال وأشرف على الذهاب إلى قرية المقتول لتقديم التعازي لأهل الضحية، لكن قبل ذلك طلب أشرف المرور سريعًا على الوحدة المحلية بأبو حلاوة للاستفسار عن ترخيص عربة حامد، الذي لم يصدر بعد. بعد إنهاء الأمر، توجهوا إلى منزل أم الديب. هناك، استقل جلال سيارته وقادها بصحبة خاله وأشرف. أما "أم الديب"، فقد كانت مُنشغلة بطقوسها اليومية، لا يشغلها سوى الطعام والشراب. خرجت من المطبخ تحمل كوبًا من الشاي وطبقًا من الترمس، وجلست أمام التلفاز تتابع مسلسلًا قديمًا، غارقة في أفكارها الممزوجة بالخيبة، قائلة:

_الواد حامد طنشني، كنت قايلاله من يجي يومين يجيبلي شوية بقسماط أسقسقهم في الشاي وعاوزني أصفاله بعد اللي عمله؟ ودهو يطلع مسلسل إيه دهو كمان؟

بما أن دارها كان فارغًا، ولا أحد سواها فيه، حيث إن ليالي ونعمة وأطفالهما قد سافروا إلى قرية المقتول، وجلال خرج قبل دقائق مع خاله وأشرف، حتى حامد ترك المنزل مُتوجهًا مع والده عبد الغني، ووالدته لتقديم التعازي. فجأة، سمعت طرقًا على الباب. تأملت الصوت وهي تغوص في أفكارها، مترددة في النهوض، فقد بدا الأمر شاقًا عليها. لكنها نهضت بصعوبة، متكئة بيدها على الحصير، وأطلقت صرخة تشق السكون، قائلة:

_يادي النيلة وآني لسه هقوم؟ مين ياللي على الباب؟

سعاد بخِداع:آني سعاد أختك يا بسمة!

أم الديب بتعجب:ايهي هي مش راقدة في السرير زي الفرخة المدبوحة؟ إيه اللي جابها دلوقتي؟

بعدما استقامت، وفتحت الباب، لم تجد أحدًا. تملّكها شعور بالريبة، فبصقت في جلبابها، وقالت بارتياع، طاردة الخوف الذي تسلل إلى قلبها:

_بسم الله الرحمن الرحيم... إنتي فين يا سعاد؟

وألقت نظرة في كل الاتجاهات، لكنها لم تجد أحدًا. أغلقت الباب وعادت نحو التلفاز، وقبل أن تجلس، سمعت الطرق يتكرر مرة أخرى. ظنت أن أحد أحفادها الصغار قد بقي في المنزل وقرر ممازحتها. اقتربت من الباب بخطوات سريعة وسألت بصوتٍ عالٍ يملؤه الضيق:

_مين؟

سعاد بِغِش:آني سعاد أختك.

اندفعت "أم الديب" تجري نحو الباب وفتحته، لكنها لم تجد أحدًا. تجمدت في مكانها، وجسدها قد أصابه الفزع، وابتلعت ريقها بصعوبة. شعرت أن شيئًا غريبًا يحدث، إذ تأكدت أن المنزل خاوٍ تمامًا، وأن من يعبث معها ليس حفيدها، بل جان النداهة الذي يُتقن تقليد الأصوات الحقيقية بمهارة. ارتعش جسدها، وخرجت منها كلمات متهدجة وهي تقول بارتعاش:

_بسم الله الرحمن الرحيم، وجعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا.

صكت الباب بسرعة وهي ترتجف، لكن فجأة سمعت طرقًا عنيفًا على الباب، فاندفعت تجري نحو باب الغرفة وأغلقت على نفسها. وقفت تتنفس بصعوبة، ثم نظرت نحو باب الشرفة، الذي تحطّم في الحادث الأخير، ولم يتم إصلاحه بعد. تقدمت بحذر وأخرجت رأسها من الباب، تبحث عن أي مارة يمكن أن يساعدوها، وصرخت بصوت مرتعش مستغيثة، قائلة:

_يا جيران ياللي تحت، حد يطلعلي شقتي! آني خايفة يا عالم... في حاجة بتزاولني قدام باب الشقة! يا لهوتي!

وفجأة، سمعت صوت باب الشقة يُفتح، تلاه وقع خطوات تتردد في أرجاء الصالة. تجمدت في مكانها، وجسدها يرتعش من الخرع الذي اجتاحها. بصوت يملؤه النواح، صرخت قائلة:

_يا لهوتي يا لهوتي يا لهوتي، انجدوني يا عالم! هموت من الخوف يا ناس!

اختبأت أم الديب تحت الغطاء على سريرها، تتلو آيات القرآن بصوت خافت يملؤه الرهبة، لكن الكلمات كانت تفلت من ذهنها مع كل موجة خوف تجتاحها. كانت تدرك أن الجان هو من يعبث بها، فتارة تختبئ تحت الغطاء، وتارة أخرى تخرج رأسها من النافذة مستنجدة بالجيران. بينما في منزل محروس، والد العروس بدرية، كان المكان يعج بالعائلة والأقارب والمعارف. الرجال تجمعوا في الخارج، بينما النساء داخل المنزل، جميعهن مرتديات الثياب السوداء، ومن بينهن تباهي وابنتاها، هبة وليالي. كانت أصوات النحيب تملأ المنزل، خاصة من أخوات الضحية جمالات، اللاتي يبكين بحرقة، وعلى رأسهن زينات، والدة العروس. في هذه الأجواء التعيسة، وقف "محروس" في منتصف الجمع، وحين صمت الجميع، صرخ بأعلى صوته، مشدود الملامح، وهو يقول بحزم:

_احنا حدانا معناخدش عزا المجتول غير لما ناخد بتاره الأول، واحنا الليلة دي عاد مش هنهدى ولا عيرتاحلنا بال غير لما ناخد بتار أم الفار!

ازدادت صرخات "النساء" في المنزل، وتداخلت أنينهن وبكاؤهن في صخب مُتسارع، حتى أصبح الصوت لا يُحتمل. كانت دموعهن تسيل بحرقة، وتختلط نبرات الحزن في الجو. فجأة، تردد صوتهن في أرجاء المنزل، قائلين:
_يا لهوي.

محروس بصياح:خُلص الكلام، معسمعش صوت مرا هتصوت!

خرج محروس من المنزل، وعندما صمتت أصوات النساء، عمّ الصمت المكان. كانت تباهي، وليالي، وهبة، ونعمة جالسات إلى جانب بعضهن، وكل واحدة منهن غارقة في تفكيرها. لم يكن يعرفن أن جلال قد خرج، وفي لحظة، اكتشفت "ليالي" أنه لا يوجد عزاء. إذ قرر أهل المتوفية ألا يقيموا العزاء حتى يأخذوا بثأر من قتلها. بينما كانت تنهض من مكانها، نظرت إلى أطفالها الذين كانوا قريبين منها، وقالت بحزن:
_يلا يا نعمة يلا يا عيال!

تباهي بتعجب:هو إنتي لحقتي يا بتي؟ إنتي عايزة الناس تقول علينا إيه؟ كانوا جايين يقضوا واجب بالإسم ويمشوا وخِلصنا؟
ليالي ببكاء:مش قادرة ياما، بُعد جلال عني مولع نار في قلبي! مش قادرة أستحمل ولا طايقة! أنا راجعة البيت لحد ما أسمع خبر يفرح عن جلال.
تباهي بفضول:طيب وانتي كمان يا نعمة هتمشي؟
نعمة باستياء:هعمل إيه طيب يا أم ليالي؟ مينفعش أسيبها لواحدها.

نهضت "نعمة" لترافق ليالي في طريقها، ولكن قبل أن تغادرا مع أطفالهما، توجهتا نحو أهل المتوفية واحتضنتاهم، مقدمتين التعازي. وفي تلك اللحظة، كانت دموع نعمة تتساقط على وجهها المتجهم، وعينها مليئة بالشجن، فاقتربت من زينات، أخت الضحية، وعانقتها بقوة، وقالت بصوت حزين:
_شدي حيلك يا حاجة، ربنا يجعلها آخر الأحزان.

زينات بنواح:يارب.

عانقت "ليالي" حماة أخيها صابر، وقدمت لها المواساة، بينما دموعها كانت تنهمر بغزارة على وجهها، وتنتحب بصوتٍ عالٍ، قائلةً في نحيبٍ مرير:
_البقية في حياتك يا أم العروسة.

زينات بنشيج:حياتك الباقية، منجيلكمش في حاجة وحشة.

صافحت ليالي بقلب مثقل باقي أفراد عائلة المجني عليها، هي ونعمة، في جو من الحزن. ثم، وبعد لحظات من الوداع القاسي، خرجتا مع أطفالهما من المنزل، وكل خطوة كانت تزيد من شقاء قلبها. وبعد أن ساروا مسافة، توقفت ليالي فجأة أمام إحدى السيارات الراقدة على جانب الطريق، وكأنها تحتاج إلى شيء ما يعيد لها توازنها. هناك، انفجرت دموعها فجأة، فاندفع البكاء منها بحرقه، وفي تلك اللحظة، كانت نعمة تستمع إلى صرخات النساء القادمة من منزل محروس، مع بكاء ليالي الذي اشتد وكأنه يعتصر قلبها. اقتربت "نعمة" منها بخطوات هادئة، وعينها مليئة بالحزن، وسألتها:
_انتي بتعيطي دلوقتي عشان جلال مسجون ولا عشان أم الفار؟

ليالي باشتياق:عشان جلال، كل ثانية بتعدي عليا يا نعمة بحس كأنها مليون سنة، مش هتحسي باللي فيا غير لما تجربيه!
نعمة بشفقة:ربنا ما يوريني نار الفراق، ويهون عليكي بعاد جلال.
ليالي ببكاء:يارب.

فجأة، برز "صابر" من بعيد مع جلال وأشرف، قادمين من منزل بدرية بعد أن انتهوا من واجب العزاء. وعيناه تبحثان في الوجوه المحيطة، متفاجئًا من مغادرة ليالي ونعمة بتلك السرعة، وكأن شيئًا غير مألوف قد حدث. وقف لبرهة، ثم تقدّم بخطواته نحوهم، ملامحه تحمل تساؤلًا، فرفع حاجبيه وسأل:
_إيه يا ليالي وانتوا لحقتوا؟

ليالي بصراخ:جلال!

لم تعرِ ليالي اهتمامًا لحديث صابر. تفاجأتا بأن جلال قد خرج أخيرًا من السجن بعد انتظار طويل، وكأن قيدًا كان قد انكسر في حياتهما. قفزت ليالي نحو زوجها، وضمت جسده إلى جسدها باشتياق شديد، تئن وتنتحب بحرقة وكأنها لا تصدق أنه عاد ليكون معهما من جديد. أما نعمة، فلم تكن أقل تأثرًا، فاندفعت لتحتضن جلال بحُب وتبكي بين يديه. شعر جلال في تلك اللحظة بمدى أهمية وجوده مع زوجته وأخته، والحياة قد استعادته أخيرًا. وبينما كانت "نعمة" تمسح دموعها، قبّلت جنة جلال وهي تقول بحُب:
_يا حبيب أختك، يا حبيبي يا جلال، كانت هتموت عليك والله... إنت خرجت ازاي؟
ضحك "جلال" بصوت هادئ يحمل بين طياته فرحة لا توصف، ثم مد يده ليقبل رأس أخته وزوجته، وعيناه مليئتان بالإعزاز. قال بحب، وهو ينظر إليهما بعينين ملؤهما المَعَزة:
_هو أنا طلعت غالي عليكم أوي كده؟

ليالي بتوبيخ:كده يا جلال؟ إخص عليك ومليون إخص! حرام عليك بقى! ارحم نفسك وارحمنا معاك! إنت مش هترتاح غير لما نشوفك ميت؟ إنت بتعمل فينا كده ليه؟

جلال بحدة:بس يا بت! لينا بيت نتكلم فيه، يلا يا ليالي إنتي ونعمة والعيال!

ذهب "جلال" بأسرته إلى السيارة التي ركنت بين السيارات في قطعة أرض نائية بعيدة عن دار محروس. بدأ يقود سيارته، وجواره ليالي التي كانت تتشبث بيديه، عيونها تلاحقه بحنين لا يفارقها. خلفهم كانت نعمة تحمل عمر، وحامد بجوارها، بينما كان باقي الأطفال في الصف الأخير. قطعوا الطريق لمسافة طويلة، وأخيرًا وصلوا إلى مقصدهم. عندما نزلوا من السيارة، تفاجأوا جميعًا بأم الديب جالسة على عتبة منزلها، وقد امتلأت عينيها بالدموع، وهي تبكي بكاء حارًا كأنما الدنيا قد أغلقت أمامها. كان المنظر غريبًا بالنسبة لجلال، فهو لم يتخيل أبدًا أن أم الديب ستتأثر بوفاة جمالات، خاصة أن علاقتهما كانت مليئة بالصراعات والمشاجرات التي كانت تترك آثارها بينهما. نظر إليها بدهشة، وقال مستفسرًا:
_ياه ياما، أنا المشهد ده أول مرة أشوفه في حياتي، لا ده إنتي تتحسدي! أنا الصراحة مش مصدق عيني، ياه ياما؟ بقى إنتي زعلانة على أم الفار أوي كده؟

نعمة بتوجُّع:أمال إيه يا جلال؟ عشان تعرف إن أمك طيبة وقلبها أبيض وعشان تصدقوني لما أقولكم كده.
جلال بشَدَه:وربنا ده مشهد تاريخي، ده احنا المفروض نصوره للذكرى، هو إنتي طلعتي بتحسي زينا ياما؟
حمود بضحك:ستي زعلانة على مرات جدي.
نعمة بأنين:ادعيلها ياما ربنا يرحمها ويغفرلها.

أقنعت نعمة جلال أن والدته طيبة القلب، وأن ما كان يصدر منها من تصرفات قاسية لم يكن سوى ناتج عن غضب عابر، مؤكدة أن "أم الديب" هي من أطيب الشخصيات التي قد يقابلها أي إنسان. ولكن الحقيقة كانت أبعد من تلك الكلمات الطيبة، فبينما تبادل الجميع التوقعات والأفكار عن سبب بكاء أم الديب، نهضت فجأة من مكانها، وصرخت بقوة، قائلة:
_ياكش تولع مطرح ما حطوها! آني بعيط إكمني خايفة من العفريت ابن الجِنية اللي بيزاولني من ساعة مانتوا مشيتوا، مآني مش فارقة معاكم أهم حاجة نفسكم وبس.
فجأة، اقتربت "أم الديب" من نعمة، وتغيرت نبرتها لتصبح أكثر هدوءًا، وكأنها تروي سرًا قديمًا ظل حبيسًا في أعماقها. تابعت كلامها بصوتٍ خافت، يتسلل منه الخوف، وقالت بحذر:
_تقوليش يا بت يا نعمة لبس خالتك سعاد ولا إيه نصيبته؟ قعد يا بت ينده عليا ربع ساعة وكل ما أطلعله ملاقيش حد وفي الآخر استخبيت في الأوضة وزعقت على الجيران.

جلال بانفعال:أنا كنت حاسس إن في حاجة غلط، ده لو السما اطبقت على الأرض عمرك ما هتتغيري...

ثم أردف لليالي بنبرة مليئة بالغيظ، والكلمات التي يخرجها تتناثر من بين شفتيه كالرصاص:
_يلا يا ليالي!

صعد جلال مع زوجته وأطفاله إلى شقتهم، وأوصدوا الباب خلفهم كأنهم يغلقون صفحة من معاناة الأيام الماضية، ليجدوا في عزلتهم راحة مؤقتة تتيح لهم استجماع قواهم. بينما صعدت نعمة مع أم الديب وحامد، وفي قلبها رغبة في طمأنتها، فهي بدت أكثر هشاشة من أي وقت مضى. قالت "نعمة" لها بطمأنينة، محاولَةً أن تخفف من الارتياع الذي يثقل كاهلها:

_طب مشغلتيش قرآن على التليفزيون ليه ياما؟

أم الديب بغلاظة:وهو كان حد فيكم قالي أغير التلافزيون ازاي؟
نعمة بتقويم:قصدك القنوات ياما!
أم الديب بصخب:أيوه ياختي هي القنوات دهي.
نعمة بأمان:متخافيش ياما، اقريله قرآن وهيتحرق، ولا تخوفي نفسك!

دخلت نعمة وحامد وطفليهما مع أم الديب إلى شقتها، حيث كانت أم الديب قد أصرت على أن يبقوا معها حتى نهاية اليوم، خوفًا من هجمات الجني التي كانت تظن أنها قد تأتي في أي لحظة. فاضطرت نعمة وحامد للمكوث معها، وبينما كانت الأجواء مغمورة بالملل، حاولت أم الديب أن تملأ الفراغ باقتراحها على حامد أن يذهب إلى الجزار ليشتري لها كبدة، ويعدها بطريقته الخاصة. وافق حامد على الفور، وذهب بالفعل إلى الجزار، حيث وقف وسط الزحام إلى أن استلم طلبه وعاد بسرعة إلى المنزل. بينما في المنزل، كانت نعمة تتعاون مع حامد، تقطع الفلفل والثوم استعدادًا لإعداد الطبق، وعينها ترقب السكين بحذر، لكن حامد نبّهها بأن لا يصاب إصبعها بجرح كالذي حدث في المرة السابقة. أما في الصالة، كانت أم الديب مطمئنة، تجلس بين أحفادها، تغمرها السكينة كما لو كانت ناعمة، رغم قسوة الزمن. بينما في المطبخ، كان حامد يجهز الكبدة، والجو ملئ برائحة الطعام الذي بدأت تملأ الشقة. بعد نصف ساعة تقريبًا، اجتمعت العائلة حول المائدة، تتناول الكبدة الشهية، والمخلل، والبطاطا المقلية التي أعدتها نعمة بإتقان. تناولوا الطعام في جو من التآلف، ثم بعد الغداء، ارتشفوا الشاي في سكون، بينما كانت أم الديب تراقبهم بابتسامة هادئة على وجهها، وعندما قرروا المغادرة، أصرّت أم الديب على أن يبيتوا عندها، لكنهم اقترحوا عليها بدلًا من ذلك أن يستضيفوها في منزلهم. وبالفعل، صعدت معهم إلى شقتهم، حيث نامت بجوار محمد في غرفته. بينما في اليوم التالي، بعد أحداث الأمس المغمورة بالأحزان، استيقظت هايدي من نومها، لتجد قبالها "زياد" وهو يحمل صينية الإفطار. جلس أمامها مبتسمًا، بينما كانت عيناها مليئة بالإرهاق والتفكير في ما حدث، لكنها لا تستطيع إنكار الراحة التي شعرت بها لحظة رؤيته، حيث قال لها بحنان:

_صباح الخير يا حبيبتي.

هايدي بتألُّم:صباح النور، هي الساعة كام؟
زياد بوضوح:الساعة ١٢ الضهر.
هايدي بتأوه:ياه، ومروحتش شغلك ليه طيب؟
زياد بتحنان:مينفعش أسيبك في الظروف اللي زي دي، لازم أبقى جنبك!

هايدي باعتراض:يا زياد مينفعش كده! إنت كده بتتعطل بسببي!
زياد بعشق:فداكي أي حاجة، فداكي والله... المهم طمنيني عليكي، حاسة بألم صح؟
هايدي بقهر:وده سؤال يعني؟ أكيد طبعًا، بس الألم اللي جوا قلبي أقوي بكتير منه.

زياد بتلطُّف:يا حبيبتي مش عايزك تزعلي نفسك! بكرا ربنا يعوضنا بعيال كتير مش واحد بس! وهينسوكي أي تعب أو حزن كان في حياتك!
هايدي بيأس:لا خلاص، أنا طلعت الموضوع ده من دماغي.
زياد باستغراب:موضوع إيه؟
هايدي بنحيب:إننا يكون عندنا أطفال، احنا كده لواحدنا أحسن، بس زي ما قولتلك لو إنت عايز تخلف اتجوز واحدة تانية ده حقك، بس بعد ما تطلقني!
زياد بانفعال:إيه العبط اللي بتقوليه ده يا هايدي؟ إنتي عارفة إنتي بتقولي إيه! يعني إيه أطلقك وأتجوز واحدة تانية؟ ومش عايزة يكون عندنا أطفال، إنتي ليه بتعملي كده؟

هايدي ببكاء:عشان إنت مش مكاني يا زياد، فعمرك ما هتحس بيا، أنا اتعذبت وجيت على نفسي عشان يكون عندنا طفل وبعد كل ده فشلت، يبقي ليه أتعب تاني وتالت وأنا عارفة إن مصير اللي جاي زي اللي قبله؟
زياد برِثاء:هايدي حبيبتي، لو كل الناس بتفكر كده مكنش حد بقي عنده ولاد! ده في ناس بتعمل عمليات كتير وكل مرة بتفشل بس في النهاية ربنا بيكرمهم! هي مش قاعدة إن عشان أول مرة فشلتي يبقى كل مرة هتفشلي، صوابعك مش زي بعض! وبعدين يا هايدي إنتي مفشلتيش! بالعكس احنا لو كنا مشينا على كلام الدكتور كان زمان الموضوع عدى على خير، لولا مرات عمي اللي أنا مش مسامحها مكنش حصلك كده.
هايدي بأنين:أنا بكرهها أوي يا زياد، بجد بقيت بكرهها من كل قلبي.

يأست هايدي من فكرة حملها لآخر، فقد ألقت بكل أملها جانبًا بعد أن تعرضت للإجهاض، وأيقنت أن حلم الأمومة قد أضحى بعيدًا عنها. كأنها تسير في درب مُظلم يلتهم كل بصيص أمل. شعرت وكأنها ستعيش حياتها ملآنة بالقهر، ستكبر وتذبل دون أن يكون لها رفيق يواسيها، وأن نهايتها ستكون وحيدة، كما ظنّت. كان تفكيرها معقدًا جدًا، فبعدما تربت على يد أم الديب التي زرعت في قلبها الكثير من المفاهيم الملتوية والظلال السوداء عن الحياة، أصبح من الصعب عليها التخلص من تلك الأفكار التي تقيدها. كان "زياد" يرى هذا التغير في تفكيرها، وكان ينزعج من سوداوية أفكارها، لكنه لم يتخلَّ عنها أبدًا. بل كان يحاول بكل ما أوتي من حُب أن يهدئ من روعها، ويتحمل كل شيء من أجلها، لأنه ببساطة لا يريد سواها. في تلك اللحظة، أمسك يديها بلُطف، محاولًا أن ينقل لها الدفء الذي كان يتسلل إليه من قلبه، وقال:
_اهدي يا هايدي عشان خاطري! مرات عمي مش هتدخل بيتنا تاني! احنا خلاص اتفقنا، ولو حصل أي جديد مش لازم تعرف! الحاجة اللي مرات عمي مبتعرفهاش بتكمل، صدقيني هتكمل بس لو هي معرفتش حاجة، هاتيها فيا أنا يا هايدي وحقك عليا!

مسحت "هايدي" دموعها بحركات مُتسارعة، ساعية أن تمحو معها كل الأوجاع التي تراكمت في قلبها. ثم نظرت إليه بعينين غارقتين في الحزن، وقالت له بشجن، صوتها مليء بالندم على كل كلمة سلبية قالته له، وعلى كل لحظة أفقدته فيها الأمل:
_آسفة يا زياد على اللي قولته، إنت أكيد مقدر حالتي، كل ده من غلبي والله مش أكتر!

زياد بحنو:أنا عارف يا هايدي من غير ما تقولي، أنا بس عايزك تفوقي لنفسك وتبطلي التفكير السلبي ده، ممكن؟

حركت هايدي رأسها ببطء، وابتسمت ابتسامة خفيفة. كانت تلك الابتسامة على شفتيها بمثابة محاولة لإخفاء الندم الذي يعصر قلبها. قرب "زياد" منها صينية الطعام، وعيناه مليئة بالدعم، ثم قال بتشجيع:
_يلا يا حبيبتي كُلي عشان تاخدي علاجك!
قرب زياد الطعام من فم هايدي، وهو يطعمها برفق، حريصًا على أن تتغذى جيدًا بعد الإجهاض الذي تعرضت له، ليتمكن جسدها من التعافي ويعود إليها بعض من قوتها. كان يعرف أن عليها تناول الدواء في مواعيده المحددة كما نصح الطبيب، فكان يتعامل معها بحذر، مُحاولًا أن يسهل عليها كل شيء. أما في شقة جلال، فقد كان جالسًا مع ليالي على السرير، حيث كانت متشبثة بحضنه وكأنها تخشى أن يفلت منها. كان عودته بالنسبة لها حدثًا يفوق كل الكلمات، كأنها وجدت نفسها في حضن الأمان بعد أيام من القلق. كانت متيمة به، وسعيدة بعودته، تخشى أن يبتعد عنها مجددًا. حاول "جلال" أن يباعد يديها برفق وهو يحاول النهوض، لكنه شعر بمقاومتها، فتوقف للحظة وقال:
_يا بت عاوز أقوم!

ليالي بخوف:مش هتقوم يا جلال، خليني في حضنك شوية، ده إنت بقالك يومين غايب عني!
جلال بدهشة:وهو أنا ههرب منك يا ليالي؟ مانا متلقح قدامك أهو، محسساني إني ههرب يعني.

تركها جلال بحذر، وغادر الغرفة، ثم جلس على الأريكة، يستنشق الهواء النقي الذي كان يتسلل عبر النافذة، محاولًا أن يهدأ من تلك اللحظة المليئة بالعواطف المتضاربة. لكن ليالي لم تتحمل البعد عنه، فتبِعته وجلست بجواره، وعانقته بقوة للمرة الثانية، محاولة أن تلتصق به لتؤكد لنفسها أنه لن يغادر أبدًا. ضحك "جلال" بسخرية لطيفة وقال لها بدهشة:
_لا إله إلا الله، يا بت دول يومين مش سنتين!

ليالي بارتعاب:مانت متعرفش اليومين دول عدوا عليا ازاي! أنا كان هيجرالي حاجة عشانك ياخويا، طب والنبي لو كان جرالك حاجة كنت هعمل إيه أنا وعيالك؟ ده أمك كانت هترمينا لكلاب السكك.
جلال:مانتي أصلك مش فاهمة، دي كانت خناقة خفافي....

ثم باعد "جلال" يديها عن ذراعه بلُطف، ولكنه كان يحمل في نبرته شيء من العصبية، وكأن تلك العواطف الزائدة قد بدأت تثقل عليه، فقال بانفعال وهو ينظر إليها:

_أوعي بس دراعي وجعني!

باعد "جلال" يديها بحركة هادئة، ثم نهض ليشعل سيجاره، وهو يحاول تهدئة أعصابه. سحب نفسًا عميقًا من السيجارة، ثم استرسل في حديثه وهو مندمج في كلامه، والكلمات تخرج منه بلا وعي، فقال بشجاعة:

_الواد هو اللي غلطان فأنا حبيت أعلم عليه وأعرفه غلطه، جلال طول عمره شبح وكل الناس بتعمله ألف حساب فأنا حبيت أخليهم ألف وزودي عليهم واحد.

ليالي بوعيد:بقولك إيه يا جلال أنا المرة الجاية مش قاعدالك فيها عشان تبقى عارف!

جلال بمزاح:الباب قدامك أهو يفوت ألف جمل.

ليالي بغيظ:والله يا جلال بقى كده؟ يعني مش همك؟

كانت محاولة من ليالي أن تلوي ذراعه وهي تهدده، قائله إنه إذا لم يمتنع عن المشاكل، ستغادر منزله وتغضب في دار أهلها، لكن المفاجأة أنها اكتشفت أنه لم يكن يكترث لذلك؛ فقد كان يمزح لا أكثر. كانت كلماتها تذهب سدى في الهواء، وهو منشغل بسيجارته كأنما لم يسمعها. بينما دق باب الشقة فجأة، فنهض جلال ببسالة، وبتلك الثقة التي كان يتمتع بها في المواقف الصعبة، فتح الباب ليصطدم بصدمة غير مُتوقعة.

يتبع....

الفصل الأخير

حين فتح جلال الباب، لم يجد أحدًا أمامه، فتملكته الحيرة. صعد الدرج بخطوات وئيدة ينظر بعينيه المتربصتين، ثم نزل إلى الأسفل يبحث كأنما يتعقب أثرًا مجهولًا، لكن عبثًا، فلم يجد أحدًا هناك أيضًا. عاد إلى الداخل وقد بدا على وجهه عبوس متوجس، فأوصد الباب بإحكام. راوده ظنٌ عابر أن أحد الصغار يلهو معه بهذا الأسلوب الثقيل، لكنه لم يكن من أولئك الذين يتقبلون المزاح كيفما كان. وما إن التفت ليغرق في أفكاره حتى سألته "ليالي"، وهي ترفع حاجبيها بدهشة عفوية:

_مين يا جلال؟

جلال بحَيْرة:مش عارف.

ما إن وطأت قدما جلال عتبة غرفة النوم، حتى اخترق سكون المنزل صوت طرقٍ أشد وأقوى من سابقه، وكأن الطارق عازم على إثارة القلق. انطلق جلال بخطى مُتسارعة نحو الباب، غير أنه وجد "ليالي" قد سبقته وفتحت الباب قبله، تقف هناك وقد ارتسم على ملامحها انفعال لا تخطئه العين. كانت عيناها تجولان في الأفق القريب، تبحث عن مُحدث ذلك الاضطراب، وهي تهتف بصوتٍ مشحون بالسخط:

_مين اللي بيخبط ويجري كل شوية؟

جلال بانفعال:أوعي يا ليالي أما نشوف مين ابن الكلـ* اللي بيخبط على الباب!

حينها غادر "جلال" الشقة بخطوات تحمل ثقل الحنق، ووقف في منتصف الدرج كأنه قاضٍ في محكمة الصمت، يجلجل صوته في جنبات المنزل، محذرًا ومتوعدًا. قال بصوتٍ يتردد صداه في الأرجاء:

_لم نفسك ياللي بتخبط على الباب ألا وربنا لو شوفتك هعملها معاك!

ليالي بإهماد:خلاص يا جلال يمكن الولا محمد بيلعب معانا... هو حمود فين؟

دخلت "ليالي" إلى الغرفة، تتفحص المكان بعينيها القلقتين، فلم تجد سوى تقى جالسة في ركن الغرفة، ممسكة بهاتفها، غارقة في عالم ألعاب تلبيس الفتيات. اقتربت ليالي منها، متصنعة الهدوء رغم اضطرابها، وسألتها بنبرة حازمة تخفي قلقًا متزايدًا:

_أخوكي فين يا تقى؟

تقى بلا مُبالاة:معرفش.

ليالي باستغراب:غريبة يعني.

صرخ "جلال" بأعلى صوته، كأنه بركان ثائر ينفجر، وتوعد بصوتٍ مدوٍ ارتجت له جدران المنزل:
_لم نفسك يالا عشان متزعلش مني! أنا لو شوفتك هسفلتك!

ليالي بتَسكين:خلاص طيب.

جذبت "ليالي" زوجها من ذراعه برفق، وصكت الباب بحذر كأنها توصد خلفه ما تبقى من توتره. جلست إلى جواره على الأريكة، وقد غشى الحزن ملامحها، وهي تستعيد نبأ تأجيل زفاف أخيها صابر لخمسة أشهر إثر وفاة خالة العروس. نظرت إليه بعينين يغشاهما الأسى، وقالت بصوت مفعم بالشفقة:
_صابر صعبان عليا أوي، هيأجلوا الفرح خمس شهور كمان!

جلال بلا اكتراث:ما يأجلوه ولا يهببوه، أنا داخل أستحمى.
ليالي:أصبر ياخويا أجهزلك الصابون.

وفي تلك اللحظة، دخلت ليالي المطبخ لتبحث عن الصابون في درج المطبخ، لكنها لم تلبث أن سمعت صوت خبطٍ قوي على الباب. اندفع جلال بسرعة، كمن يسابق الرياح، عازمًا على الإمساك بمن يلهو معه، فتح الباب بعنف، لكنه لم يجد أحدًا. وقف للحظة متفكرًا، حتى اختطفته الذكرى وتذكر كلام "والدته"، الذي صرختة كانت لا تزال تتردد في أذنه، قائلة:
_ياكش تولع مطرح ما حطوها، آني بعيط إكمني خايفة من العفريت ابن الجِنية اللي بيزاولني من ساعة مانتوا مشيتوا، مآني مش فارقة معاكم أهم حاجة نفسكم وبس.
استفاق "جلال" من غفوته العميقة، وأفاق عقله من دوامة الخيال، فتبين له في يقينه أن من يراوغه ليس سوا الجني الذي يختبئ في زوايا دارهم. شعر بصدمة عنيفة تجتاح قلبه، وكأنما سقطت عليه حقيقة مرعبة من السماء. تفجر صوته في الهواء، وهو يقول:
_الصلاة على النبي.

ليالي بفضول:إيه ياجلال في إيه؟
جلال بتردد:بيتنا مسكون يا ليالي.
ليالي بصراخ:يا لهوتي.

وطأت ليالي يديها على وجهها، مشدودة نحو الصدمة، وكأنما غمرتها المأساة حين اكتشفت أن ما كانت تظنه طفلًا ليس سوى الجني الذي يسكن منزلهما. ارتجف جسدها بشدة، وأصابها من الهلع ما لا يوصف. خرجت بسرعة من المطبخ حاملةً الصابون وقدمته لجلال، الذي دخل المرحاض ليغتسل. كلما تساقطت المياه فوق رأسه، كان حديث أم الديب يتردد في ذهنه كدقات ناقوس في الأعماق. كيف حضر الجني إلى منزلهم؟ ولماذا اختارهم هم بالذات؟ تذكر أنها كانت قد ذهبت إلى الدجال في الآونة الأخيرة، لعل ذلك هو

السبب. قد يكون هو من أرسل الجني ليعبث بحياتهم.، وفي تلك الأثناء، تم نقل المعلم حنفي إلى محكمة جنايات القاهرة، حيث تحولت القضية من شك إلى جريمة قتل ضخمة. طوال الليل، لم يتمكن من النوم، وكان يبكي على فراق جمالات التي أخذت معها قلبه إلى العالم الآخر، وفي قاعة المحكمة التي كانت مكتظة بالمحامين والأهالي، حيث كانت الأنظار مشدودة إلى آخر التطورات القضائية، كان المعلم حنفي يرتجف من الخرع وهو يقف أمام القاضي، يتساءل في نفسه كيف أصبح في هذا الموقف، حيث تلفظ "القاضي":
_احنا دايمًا لما بيحصل جريمة قتل أول حد بيجي في بالنا الزوج أو الزوجة، قولي يا حاج! إيه نوعية المشاكل اللي كانت ما بينكم؟

المعلم حنفي ببكاء:أحلفلك بإيه يا حضرة القاضي، إن آني مقتلتهاش؟ آني مظلوم يا باشا!
القاضي برحمة:خلاص طالما مظلوم، إدينا فرصة نعرف إذا كنت مظلوم فعلًا ولا لا، ضايع هو اللي قتلها؟
المعلم حنفي بأنين:آني واثق إنه هو اللي قتلها! ضايع ده قتال قتلة، وقتل نص حريم مصر، ده كل يوم يطلعله بداهية جديدة! يا باشا آني راجل غلبان من يومي وبشهادة كل الخلق، أحب على إيدك تخرجني من هنا آني مابقتش حِمل بهدلة!
القاضي:متقلقش، أول مانمسك أدلة في إيدينا وتظهر براءتك وقتها هنخرجك.
المعلم حنفي بنحيب:يارب إنت المُعين! أسترها معايا ده آني ماليش غيرك.

كان المعلم حنفي يتمنى لو يستطيع الخروج من ذلك السجن اليوم قبل غد، فقد أصبح لا يطيق البقاء وسط المجرمين وقاتلي النفوس، الذين يتناثرون حوله كقطع الشطرنج في لعبة مظلمة. كان يشعر أنه أبسط بكثير مما يتخيل أحد، كيف له أن يرتكب جريمة قتل؟ هذه الفكرة كانت تثير في قلبه اضطرابًا. في تلك الأثناء، كانت الشرطة تكثف جهودها في البحث عن ضايع، ذلك الشخص الذي كانوا يعلمون في أعماقهم أنه له يد فيما جرى، لكن الأدلة والاثباتات كانت هي المعيار الحاسم، وفي اجتماع طارئ في أمن الدولة، كان الضباط مُجتمعين حول شاشة عرض ضخمة، يعكفون على خططهم وتصوراتهم للقبض على ضايع. بعد مجادلات عدة ومناقشات محتدمة حول استراتيجيات القبض، قال "أحدهم" للعساكر بحسم، فهي كلمة الفصل في القضية المعقدة:
_أنا عايزكم تطلعلولي ضايع من تحت الأرض، ضايع يكون عندنا النهارده، مفهوم؟
كانت الشرطة قد بذلت جهودًا مضنية في محاولة للقبض على ضايع، لكنها كانت تدرك تمامًا أن هذا المجرم هو كالظل الذي يظهر ويختفي في لحظات، لا يمكن لأحد أن يلاحظه أو يقبض عليه بسهولة. على الرغم من كل المحاولات المستمرة منذ سنوات، كان ضايع يتنقل بحرية بين ظلال الجريمة، متفاديًا القبض عليه مرارًا. لقد وصل عدد ضحاياه إلى مئات، قتلهم بدم بارد في كل أسبوع، وأعدادهم لا تقتصر على المئة قتيل كما قيل، بل تجاوزت ذلك بكثير. إلى جانب جرائمه البشعة في القتل، كان ضايع متورطًا في العديد من الكوارث الأخرى، مثل نهب الأموال، والتجارة في المخدرات والأعضاء البشرية، فضلًا عن قضايا التحرش والاغتصاب، والتعدي على حقوق الآخرين. كان يبث الفساد والخراب في المجتمع بشكل لا يُصدق، ويجعل من حياة الأبرياء جحيمًا لا ينتهي. لكن إذا وقع ضايع في الفخ، فلن يكون وحده من يسقط، بل سينهار كل من معه، فهو ليس مجرد مجرم عادي، بل هو قائد شبكة من الأشرار، وحين يضرب،

يتداعى الجميع. في موقعه السري تحت الأرض، كانت هناك غرفة مُظلمة وموحشة، لا يعرفها حتى الجن الأزرق. كانت مكتظة بجثث القتلى، وروائح الموت المتعفنة، كأنها قبر متجسد على الأرض.

كان هذا هو المكان الذي يختبئ فيه ضايع، مركز شره وفساده، وفي هذا اليوم تحديدًا، تم نقل المعلم حنفي إلى السجن، مُرتديًا بدلته الزرقاء، مجهول المصير، لا يعلم ماذا سيخبئه له القدر في الأيام المقبلة. تمر الأيام ببطء، والجميع ينتظر أي جديد بشأن ضايع، المجرم الذي شغل الرأي العام وأرهق الجميع. ثم جاء اليوم الذي غيّر كل شيء، يوم مشرق، مليء بالأمل. نجحت الحكومة أخيرًا في القبض على ضايع، حين داهمته الشرطة في موقعه السري، محاصرين إياه بسياراتهم. بعد ربع ساعة من المطاردة في زوايا مكانه المخفي، تمكنوا من الإمساك به. وبينما كانوا يبحثون في كل ركن من أركانه، اكتشفوا الأموات الذين كانوا هناك ضحايا لأفعاله. تم اقتياده إلى قسم الشرطة، وكان من الصعب السيطرة عليه، لدرجة أنهم احتاجوا إلى خمسة من رجال الشرطة ليتمكنوا من تكتيفه، حيث كان يصر على المقاومة. وقف اثنان آخران من الضباط قباله، وعيناهما تلمعان بالارتياح. تقدم "أحدهم" نحو ضايع، ويداه في جيوبه، وحاجباه مرفوعان في مظهر من السخرية، وقال بلهجة لا تخلو من التحدي:
_يا أهلًا وسهلًا بالمجرم العظيم، أستاذ ضايع اللي مغلب الحكومة كلها عشان يلاقوه؟ بس النهارده فرح، أصلك مش عارف قد إيه أنا مبسوط إننا أخيرًا لاقيناك.

ضايع بشر:فكوني وإلا....

الضابط بصياح:احنا مبنتهددش! إنت في حرم الحكومة يبقى تقف زي الألف ومحدش يسمعلك حِس! قتلتها ليه؟

صمت ضايع، وعيناه تشتعلان بالكراهية، لكنه اكتفى بنظراته الطالحة التي تكاد تقتل الضابط في مكانه. كانت عيناه كالمصابيح الحارقة، ترمق الضابط بنظرة لا رحمة فيها. لكن "الضابط"، الذي لم تهتز له شعرة واحدة، لم يظهر عليه أي تراجع. بل أخرج يده من جيبه، واقترب منه بخطوات ثابتة، ثم صرخ في وجهه بأعلى صوته، قائلًا:
_ما ترد، ساكت ليه؟

ضايع بشؤم:أنا متعود على كده من زمان أوي.

الضابط بحدة:طب حلو، أهو إعتراف منك بإنك اللي قتلتها! قتلتها ليه بقى؟ إيه أسبابك؟
ضايع باحتدام:كلامها مدخلش دماغي، من الآخر كده معجبنيش!
الضابط بفظاظة:ده لو كل الناس ماشية بتفكيرك المتخلف ده كان زمان باقي مليون من أصل ١٠٤ مليون مصري، وهو إنت كل ما بيعجبكش حد ولا كلامه يخش دماغك، تقوم قاتله؟

ضايع بتأجُّج:فكني وإلا هوريك الوش التاني! أنا قدامي دقيقتين وهتحول، اتقوا شري!
الضابط بتمني:ورقك هيتحول دلوقتي على المحكمة وهتستني ١٥ يوم كمان لحد ما ينطقوا بالحكم، وبإذن الله هتلبس البدلة الحمرا قريب أوي.
ضايع بوعيد:هخلص عليك، وهحرق قلب أهلك كلهم واحد واحد عليك وهتندم أوي!
الضابط ببسالة:الحكومة مبتتهدش وأعلى ما في خيلك اركبه يا بلطجي! وياحنا يانت والشاطر اللي هيضحك في الآخر!

كان الضابط غارقًا في تعصب جسيم، وعيناه تقدحان شررًا، بينما كان خمسة من رجال الشرطة يحاولون جاهدين تقييد ضايع الذي كان يقاوم بكل ما أوتي من قوة. بعد جهد مضنٍ، تمكنوا أخيرًا من السيطرة عليه، وأدخلوا إلى الحجز في غرفة انفرادية ضيقة. لم يتركوه حرًا ولو للحظة، بل ربطوه بقيود حديدية في الحائط، تأكيدًا على أنهم لن يسمحوا له بالهرب بطريقته المعتادة. على الرغم من ضيق الغرفة، كان ضايع يعلم أنه ليس هناك مفر من مصيره المحتوم. ظل اثنان من رجال الشرطة يقفان أمام الزنزانة يراقبونه عن كثب، عيونهم لا تبرحان مكانه، خوفًا من أي حركة مُفاجئة. مرت خمسة عشر يومًا، وجاءت الجلسة الثانية للمعلم حنفي في المحكمة. جلبوه من السجن، وكان وجهه شاحبًا، فقد كان مرعوبًا من مواجهة ضايع، الذي كان يقبع في السجن، يُنظر إليه من النافذة كظلٍ ثقيل يلاحقه. عندما اجتمع الجميع في المحكمة، وقف المعلم حنفي خلف القضبان، يلتفت حوله بتوتر، محاولًا التقاط أنفاسه في هذا الموقف العصيب، وفي تلك اللحظة، ألقى "القاضي" نظرة حادة على الجميع، ثم نطق بكلمات فصلت مصيره، قائلًا:
_بناءً على الأدلة المقدمة، والتي ثبت من خلالها يقينًا أن المتهم الحقيقي في هذه القضية هو ضايع فوزي عباس سعد الديب، فإن المحكمة تقرر إخلاء سبيل المتهم الموقوف حنفي السيد رضا محمد الديب لانتفاء التهمة عنه وإثبات براءته.

المعلم حنفي بشَدَه:يعني إيه يا باشا؟ آني مش فاهم حاجة!
القاضي بوضوح:يعني براءة.
المعلم حنفي بفرح:يامانت كريم يارب، يا مانت كريم، الحمدلله، مش قولتلك يا باشا إن آني غلبان ومليش في المشاكل؟ وأهو ربنا نصرني!

سقط "المعلم حنفي" على الأرض، ساجدًا، شاكرًا الرحمن على براءته التي نالها أخيرًا بعد معركة مريرة مع الظُلم. كانت دموعه تتدفق بغزارة، كالنهر الذي خرج من أعماق قلبه. همس بكلمات تعبق بالإيمان، قائلًا بصوتٍ مرتجف:
_اللهم لك الحمد والشكر.
نهض المعلم حنفي، والدموع ما زالت تغمر وجهه، وقد ارتسم على ملامحه الفرج بعد سنوات من المعاناة. كانت شفتاه ترتجفان، وعيناه غارقتان في بحر من الدموع. إلا أن صوت "القاضي"، الذي كان يملأ قاعة المحكمة بهيبة، قطع لحظات الفرح تلك. نظر إليه القاضي بوجه جاد، ثم قال بصوت حازم:

_مبروك برائتك.

المعلم حنفي بسعادة:الحمدلله، اللهم لك الحمد والشكر.

خرج "المعلم حنفي" من السجن، قلبه يغمره شعور بالفرح والشكر لله الذي كان معه وأخرجه من تلك الأزمة المظلمة. كان يشعر بنشوة عارمة لأن ضايع تم القبض عليه أخيرًا، وتحقق العدالة. قرر أن يعود إلى المنزل، ولكن ليس فقط للراحة، بل ليُفرح أم الديب بهدية صغيرة، عسى أن يرضيها وتسمح له بالدخول مرة أخرى. كان يتمنى لو يجد ملاذًا في منزل حسين، لكن الذكريات التي أرهقته بعد وفاة أخيه وجمالات في هذا المنزل، جعلته يشعر وكأن هذا الدار مقبرة أكثر منه منزلًا. أخذ كيلو موز كهدية، وخرج ليطرق الباب. حينما فتحته أم الديب، كانت ممسكة بعصا في يدها، كأنها مستعدة لأي مفاجأة. نظر إليها المعلم حنفي، وارتسم على وجهه خوف ظاهر، وقال:
_إيه يا ولية الخرزانة اللي في إيدك دي؟ إنتي بتدي دروس من ورايا ولا إيه؟

أم الديب بارتياع:أسكت لا يتنيل يظهر تاني!
المعلم حنفي بفضول:هو مين؟
أم الديب بارتعاب:العفريت اللي ساكن دارنا، ايهي هو إنت خرجت ازاي؟ هما مش كانوا عاكشينك؟
المعلم حنفي بابتسامة:ماهو الحمدلله ربنا نصرني وخدت براءة وأخوكي هو اللي اتحبس.
أم الديب بإعوال:أخويا ضايع؟ يا لهوتي.
المعلم حنفي بتضايُق:أهو ابتدينا.

ألقت "أم الديب" العصا الخشبية على الأرض بعنف، وكأنها تفجر غضبًا في قلبها منذ زمن طويل، ثم تعالت صرخاتها في الأرجاء، مملوءة بالصدمة:
_يا لهوتي يا لهوتي أخويا ضايع اتسجن؟ ده طول عمره ماشي جنب الحيط!

المعلم حنفي بسخرية:أمال؟ واحنا اللي كنا بنجري على المشاكل بالأمارة!

ام الديب بصراخ:دهو كان غلب الدنيا كله فيه!
المعلم حنفي بتهكم:أه الله يباركله، كان بينقط حنية.
ام الديب بنواح:دهو كان لسانه حلو مع كل الناس وعمره ما حد اشتكى منه!
المعلم حنفي بازدراء:أوي.

فجأة، تغيرت نبرة صوت "المعلم حنفي" بشكل مفاجئ، بعد أن كان يسخر منها، ليصبح صوته صارمًا وعاليًا، كمن انفجر بركان من الأعماق، وقال بصخب:

_ما تبطلي كدب بقى يا ولية! ده إنتي هتخشي جهنم حدف من كتر كدبك، هو مين ده اللي كان غلب الدنيا فيه ولسانه حلو مع كل الناس؟ ده كان كل كلامه غلط وشتيمة، ده لسانه كان أطول من كوبري ستة أكتوبر.

تشبثت أم الديب بالمعلم حنفي بشدة، ومدت يديها بسرعة لتخلع النعل وتضربه كما اعتادت، لكن "المعلم حنفي" كان أسرع، فقبض على يديها بقوة، ومنعها من تكرار الإساءة له. نظر إليها بعينين ملتهبتين بالحنق، وقال بعجيج مرتفع:

_اتحشمي يا ولية!

فجأة، ألقى المعلم حنفي عبوة الموز في وجه أم الديب، ليكتمل المشهد بشيء من التحدي. ثم دخل الغرفة بسرعة، تاركًا إياها واقفة في المكان. نظرت "أم الديب" إلى العبوة، وعينيها تتسعان من السخط، ثم قالت بصياح ساخر، والكلمات بزغت من بين أسنانها كالسكاكين:

_ايهي كيس موز؟ ليه فاكرني غوريلا بروح أمه؟

دخلت "أم الديب" الغرفة خلفه، وعينيها تتوقدان غضبًا، ولا تحمل سوى الكلمات الجارحة. اقتربت منه بعنف، ثم قالت بغلاظة، وهي تعاتبه بقسوة:

_انت يا راجل إنت مجيبتش جوافة وتفاح ليه؟

أخذت "أم الديب" الكيس بسرعة ودخلت المطبخ، بينما يداها تعبثان بالموز، وفي خلال ثلاث دقائق لم تترك منه شيئًا. لكنها لم تشعر بالارتياح، بل ظلت جائعة، وكأنها لم تأخذ شيئًا. كانت معدتها تئن من الجوع، وتفكر في الطعام الذي تشتهيه بشدة. شعرت برغبة ملحة في تناول الأرز واللحم والدجاج، تلك الأطعمة التي تراها سعادة قلبها. نهضت فجأة، وركضت نحو الباب بكل ما فيها من حيوية، ثم قالت بصوت عالٍ، وهي تعول:

_آني لسه جعانة، يا خرابي نسيت الباب مفتوح.

أوصدت "أم الديب" الباب بسرعة، وهي تشعر براحة مؤقتة كما لو أنها تخلصت من تهديدٍ ما، لكن في قلبها كانت تعلم أن الجني ليس كإنسان عادي يمكن منعه. حيث يتنقل بين الجدران كروحٍ حرة، يتسلل من أي مكان يشاء. ومع ذلك، حاولت أن تطمئن نفسها قليلًا، فقالت بارتياح، على الرغم من شعورها بالخوف الدائم:

_كدهو العفريت ميدخلش، أيون هو دهو الكلام.

دخلت "أم الديب" الغرفة، وعينيها تلمعان كما لو أنها في عالم آخر بعيد عن همومها، ثم نادت بصوت عالٍ المعلم حنفي، وكأنها نسيت كل شيء حولها:

_انت يا حنفي، إنت يا راجل!

دخلت أم الديب الغرفة لتجد المعلم حنفي مستلقيًا على السرير، مرهقًا من عناء الأيام التي قضاها في السجن، ورغم قسوة السرير، بدا أنه أرحم له من النوم على الأرض الصلبة التي كانت تقيد حركته في الزنزانات. محاول أن يغمض عينيه لينعم ببعض الراحة بعد المعاناة التي مر بها. في الوقت ذاته، عاد جلال من عمله، ليجد ليالي مشغولة في المطبخ تطهو الطعام. استقر على المقعد، ولكن سرعان ما شعر بشيء غريب يعبث في شعره، فالتفت بسرعة، مليئًا بالدهشة. في نفس اللحظة، تحرك القدر عن رخامة المطبخ بشكل غير طبيعي، ما جعل ليالي تصرخ فزعًا، وتختبئ هي وأطفالها خلف ظهره. بسرعة، دخل المطبخ ليحضر عصا المكنسة، فيما كانت أسرته تختبئ وراءه في رعب. فقال "جلال" بانفعال:
_يا بت حِلي شوية! مالك لازقة فيا كده ليه؟

ليالي بذُعر:خايفة يا جلال، أنا جتتي ملبشة من ساعة اللي جرا.
تقى ببكاء:العفريت هيعضنا يا ماما!
جلال بسخرية:ليه يا بت حد قالك إنه كلب؟ ده عفريت يعني حاجة من الإتنين يإما يلبسنا يإما يلبسنا مالهمش تالت.
ليالي بخوف:والعمل إيه يا جلال؟ احنا هنفضل خايفين كده كتير؟
جلال بخشونة:اتكلمي عن نفسك يا ليالي! جلال ميخافش غير من اللي خلقه، إنتي متجوزة راجل مش عيل خيخة من بتوع اليومين دول!

سمعوا صراخ أم الديب يتناثر من الأسفل، وكان الصوت مليئًا بالألم، وكأنها تعاني من تلبس الجان بجسدها. ركض الجميع بسرعة إلى شقتها، وعندما وصلوا، وجدوا أم الديب على الأرض في حالة من التشنجات العنيفة، بينما كان المعلم حنفي يقف عاجزًا، لا يعرف كيف يتصرف، ولكن بمجرد أن رأى "جلال" والده، انقض في حضنه بشوقٍ كبير، كما لو كان يراها لحظة فرح بعد غياب طويل. قبّل رأسه ويديه، وقال بفرح:
_أبويا، إنت رجعت امتى؟

ليالي بغبطة:حمدالله على السلامة يا حمايا.

عانقت ليالي حماها بكل فرح، وكانت ملامح وجهها تنبض بالراحة بعد طول انتظار لرؤيته. في الوقت نفسه، كانت أم الديب ملقاة على الأرض، تنتحب بصوت غليظ، لكن لا أحد يكترث لأمرها في تلك اللحظة، فقد كان كل ما يشغلهم هو عودة المعلم حنفي من السجن بعد أن حصل على البراءة من القضاء. في الأعلى، بشقة نعمة، كانت تقشر البطاطا في هدوء، بينما كان زوجها "حامد" جالسًا في الصالة يشاهد التلفاز. لكنه سمع صراخًا مسموعًا، فأخفض صوت التلفاز على الفور، وأنصت بتمعن. ثم نهض بارتياع، وعيناه تتسعان بالدهشة، وقال لنعمة بقلق:
_هو ده صوت أمك؟

نعمة بإصغاء:أيوه هو، جيب العواقب سليمة يارب.

نزلت نعمة وحامد، والفزع يملأ قلوبهما. كل خطوة كانت تثير في خيالهما مشاهد مرعبة، وكانا يسابقان بعضهما البعض للوصول إلى شقة الوالدة. وعندما دخلا، وجدا أم الديب ملقاة على الأرض، تتشنج بحركات غريبة، بينما كان جلال وليالي يعانقان المعلم حنفي بكل سرور. فجأة، أطلقت "نعمة" الزغاريد فرحًا، وعانقت والدها بشدة، وقالت بسعادة لم تخلُ من البهجة:

_أبويا رجع يا ناس! أبويا رجع لحضننا من تاني! وحشتني أوي يابا.

عانق "حامد" حماه، وهو يبارك له على رجوعه بين أفراد الأسرة، قائلًا بابتسامة دافئة على وجهه:

_حمدالله على السلامة يا حمايا يا غالي.

المعلم حنفي بشوق:الله يسلمكم، وحشتوني أوي.
أم الديب باستغاثة:الحقوني يا ناس آني بتحول!
نعمة باشتياق:وانت كمان يابا وحشتنا أوي، ده ربنا العالم.
جلال بحنين:ياه يابا كل دي غيبة؟ ده العيال كانوا كل يوم يسألوا عليك حتى اسأل حامد!
حامد بفرح:أه يا حمايا والله، كانوا كل يوم على الله، يسألوا جدنا حنفي فين.
ام الديب بنواح:آني تعبانة يا ناس، ودوني للشيخ يا عيال!
المعلم حنفي بسعادة:اديني رجعتلكم وهنعوض الأيام اللي فاتت.
ليالي بفرح:ألف مليون حمدالله على السلامة يا حمايا يا غالي يا أغلى الناس.
المعلم حنفي بابتسامة:الله يسلمك يا ليالي.

بعدما بارك الجميع للمعلم حنفي على عودته سالمًا إلى داره، ولم يلتفت أحد إلى أم الديب الصارخة على الأرض، تمايلت "نعمة" نحوها، وأخذت تسألها بدهشة، بينما كان الفزع يملأ عينيها:

_إيه ده ياما؟ هو إنتي بتصوتي؟

أم الديب بسخرية:لا بغني يا بت، أغنيلك ياللى على الترعة حود على المالح، قلبى بيوجعنى من ليلة إمبارح؟

رقص "جلال" مع "ليالي"، وهما يلفان في الهواء كأنيهما في حلم بعيد، متشبثين بأيديهما بحبٍ. كانت خطواتهما تنساب كأنهما يرقصان مع نسيم الريح، وعيناهما لا تفارقان بعضهما. وسط الضحكات التي ملأت الصالة، غنيا معًا بصوتٍ عذب، قائلين:

_رجلي بتوجعني من مشى إمبارح.

أم الديب بإعوال:يا لهوتي بموت يا ولاد الكلـ*!

نهضت أم الديب فجأة، متشبثة برأس جلال، وهي تصرخ بصوت غليظ، كأنها كانت تتحرر من قيد طويل. وطأته مع زوجته بغيظ، وظلت تطوح بكل من كان يقف في الصالة، كأنها تسعى للانتقام منهم على ما حدث. كان وجهها مليئًا بالغضب، وعينها تشتعل بالشر. فجأة، أشار "المعلم حنفي" بيده نحوها، وقال بثقة لا تهاون فيها:

_ملبوسة!

كانت حالة أم الديب عسيرة، حيث كانت تصدح وتتأوه من الألم، وجسدها يمر بتجربة غريبة لا تحتمل. كانت مشاعرها متضاربة، وكلما شغلوا لها القرآن، ازداد صراخها حدة، كأن شيئًا غريبًا يتسلل إلى دخيلتها. لم تهدأ لحظة، وكانت الأصوات المنبعثة منها تغمر الحي، وتثير الارتياع في قلوب العائلة. قرر الجميع بسرعة الذهاب بها إلى شيخ موثوق في أبو حلاوة. وصلوا إلى منزل الشيخ ووقفوا قباله، حيث طرق جلال الباب. خرج الشيخ لاستقبالهم، وابتسم لهم بترحيب، لكنه سرعان ما تغيرت ملامحه حين سمع صراخ أم الديب من السيارة. استقبلهم بكلمات مطمئنة، لكنه كان واضحًا في جديته، وأمرهم بالدخول إلى منزله.

دخلوا إلى صالته المشرقة، التي كانت تنعم بالهواء الطلق بفضل النوافذ العديدة التي كانت تفتح الأفق على الحديقة الخارجية. كانت الجدران بيضاء، حيث جلس الجميع في صمت، وكان الشيخ ينظر بعناية إلى أم الديب التي كانت ما تزال تعاني، وعندما نظر "الشيخ" في عيني أم الديب بتمعن، قال بصوت هادئ، لكنه مليء بالثقة:

_الحاجة عليها عمل.

جلال بصدمة:ازاي يا شيخنا؟ ومين اللي عامله؟

الشيخ بتردد:واحدة في ذمة الله.

ليالي بتخمين:في ذمة الله؟ تقصد أمها؟

نعمة باستياء:وهي ستي هتعمل لأمي برضه يا ليالي؟ هو في واحدة تعمل لبتها؟

جلال بتوقُّع:مفيش غير الولية أم الفار اللي أبويا كان متجوزها، دي لسه جثتها طازة مبقالهاش يومين.

نظر الشيخ له وحرك رأسه بمعنى أن حديثه صحيح، وهو يُدرك ما تعانيه الوالدة، بينما ليالي صرخت من صدمتها، لا تصدق ما تسمعه. كيف يمكن لأم الفار، التي كانت بالنسبة لها رمزًا للحكمة، أن تستخدم أعمال الشعوذة مثل حماتها؟ فهي لم ترَ منها سوى الخير طوال فترة الزواج. تجمدت "ليالي" في مكانها، وعينيها مليئتان بالذهول، فقالت بصوت متقطع، يعكس صدمتها:

_يا نهار أسود! بس دي كانت ست طيبة وزي الفل، دي من ساعة ما اتجوزت حمايا واحنا مشوفناش منها حاجة وحشة!

الشيخ بغموض:طفل صغير كان له يد في اللي حصل!
نعمة بتشوُّش:طفل إيه يا عم الشيخ؟ ما تفهمنا!
جلال بالِتباس:وإيه اللي هيخلي عيل صغير يعمل كده؟
الشيخ باستبانة:ابنكم حط العمل في هدوم سته، بعد ما المرحومة طلبت منه يعمل كده!
ليالي بإبهام:استنى بس يا شيخنا وخدنا واحدة واحدة الله يسترك! إنت بتتكلم عن أنهوا عيل؟ أصل هما عيلين محمد ابن نعمة وحمود ابني.
نعمة بتكذيب:أنا ابني عمره ما يعمل كده يا ليالي!

ليالي باستنكار:وأنا كمان يا نعمة، ابني عمره ما يعمل كده، ده أنا اللي مربياه وعارفة بقولك إيه كويس!
الشيخ بتأكيد:ابنك يا ليالي!
ليالي بصراخ:ابني أنا؟
جلال بصياح:جرا إيه يا عم؟ إنت بتخرف بتقول إيه في سنتك الزرقا دي؟ وهو الواد هيعمل كده ليه؟
الشيخ بثقة:روحوا لشيخ واتنين وتلاتة هيقولولكم نفس الكلام، أنا راجل حافظ كتاب الله، وإمام مسجد وعارف بقولكم إيه كويس! ابنكم دس العمل في هدوم ستُه بالإتفاق مع مرات أبوك اللي ماتت!
ليالي بصدمة:يا لهوي ابني أنا يعمل كده؟

توعدت "ليالي" لحمود بعدما علمت أنه ساعد أم الفار في وضع السحر داخل ثياب جدته، وامتلأت عينيها بالغيظ، وهي تود أن تعاقبه على ما فعله. قالت بصوت حاد، يتردد فيه صدى التوبيخ:
_طيب يا ولا لما أرجعلك البيت هرنك علقة سخنة تحلف بيها طول عمرك!

جلال بعجيج:شايفة تربيتك ياختي؟ شايفة؟

ليالي بصيحة:ماهي تربيتك إنت كمان! هي تربيتي لواحدي أنا يعني؟ وبعدين أنا معلمتش الواد يعمل كده، شوف هو متعلم المصيبة السودة دي من مين!
الشيخ بهدوء:هنبدأ أول جلسة علاج، حطوا الحاجة قدامي!

نهضت نعمة وجلال، وسندا أم الديب، وأجلسوها قبالة الشيخ ليبدأ رحلة العلاج. بدأ الشيخ في قراءة القرآن بصوت هادئ، لكن أم الديب كانت لا تزال تعول بعنف، وهي في حالة من الصراع الداخلي. في لحظة جنون، اقتلعت طاقيته، ثم ضربت بيديها فوق رأسه، حيث كان أصلعًا، وعمت الفوضى في الغرفة. فجأة، جذبتها "نعمة" بعيدًا عنها في محاولة للسيطرة على الموقف، وقالت بخوف، مُحاولة تهدئتها:
_لا ياما لا لا لا، اهدي أبوس إيدك!
لم تتحمل ليالي هذا المنظر، حيث كان الشيخ يخرج الجان من جسد أم الديب، وقد أحضر عصا لاسعة ووطأها على جسدها ليعذب الجان فيخرج. كانت الغرفة مكتظة بالصرخات، حتى خرجت ليالي وابنتها تقى

من المنزل، وأخذت محمد معها. وقفوا قبالة السيارة، في حالة من الارتباك، بينما لم تفارق أعينهم الصورة التي أمامهم. فنهض "جلال" فجأة، وقال لحامد بحدة، وعينيه مشتعلة بالقلق:
_اسند معانا ياض بدل مانت ساكت كده!

حامد بفزع:ماهو انا مش عاوز أتلبس!
جلال بضَجَّة:ليه كان من جمالك يالا؟
حامد باستهزاء:يعني هو كان من جمالها هي؟

حاول جلال والمعلم حنفي التحكم في أم الديب، بينما كان الشيخ يقرأ آيات القرآن بصوت مسموع، في محاولة طرد الجان الذي يسيطر على جسدها. كانت أم الديب تعول بشدة، وكأن بها قوة غير مرئية تكفي عشرين رجلًا. تشبثت نعمة وزوجها بها، في محاولة لتثبيتها، بينما أصبحت أم الديب مقيدة من جميع أفراد الأسرة. لكن فجأة، وبشكل لا يُصدق، طردت أم الديب الجميع عن جسدها بقوة غريبة. طاروا جميعًا بعيدًا، وسقطوا على الأرض، يضربون الجدران ويدورون في الهواء. وقعوا جميعًا على الأرض، حيث تلقّت "نعمة" ضربة مؤلمة في أسفل ظهرها. حاولت النهوض رغم الألم، وقالت بصراخ، وهي تقف مجهدة:
_ضهري يا حمو!

حامد بارتجاف:تعالي نطلع برا!

بينما كان حامد يحاول أن يسحب نعمة للخروج، تفاجأوا جميعًا عندما سحبتهم "أم الديب"، وهى ممسكةً بأهداب ملابسهم بكل قوة، وكأنها تمسك بحبال غير مرئية. ثم صاحت بصياح قوي، يهز المبنى:
_رايحين فين؟ تعالوا!

بعد تلاوة الشيخ للرقية الشرعية على أم الديب، شعرت بوَهَن عارم. أوضح الشيخ لجلال أن الجني قد هرب، لكن أم الديب تحتاج إلى تحصين يومي بقراءة سورة البقرة واستخدام بخور لتطهير المنزل. بينما نعمة كانت قلقة، وحامد تذكر الفترة الصعبة التي عاشوها، بينما حذرهم الشيخ من العودة للسحرة. غادروا المكان بعد أن قدم جلال للشيخ مبلغًا، وهم يساندون أم الديب المُتألمة. عادت ليالي إلى المنزل وواجهت ابنها حمود بسخط، متهمة إياه بخيانة ثقتها بعد استماعه لنصائح "أم الفار" ووضعه الطلاسم في ملابس جدته. حاول حمود الإنكار، لكن صراخها لم يتوقف. فتدخل جلال بامتعاض، وأمسك بحمود وجلجل في وجهه، مما دفع حمود للبكاء، إلا أن ليالي وقفت بينهما، مُطالبة جلال بعدم استخدام العنف مع ابنهما. لكن جلال اتهم ليالي بالتقصير في التربية، ثم دخل إلى الغرفة ساخطًا، بينما ظلت ليالي مذهولة، محاولةً تهدئة أطفالها واحتضانهم بحزن . بعد تجديد خمسة عشر يومًا لضايع بالتحديد في قاعة المحكمة، كانت الأجواء مشحونة بالترقب بانتظار خروج القاضي والمستشارين، بينما كان ضايع خلف القضبان، عاكسًا شرًا وكراهية.

أم الديب الجزء الرابع   رانيا عمارة

همست تقى بخوف لليالي، التي بدورها شعرت بالرهبة من مظهر ضايع، وتمنت نعمة أن يحميهم الله من شره. عبّر حامد عن ارتياعه الشديد من احتمال هجوم ضايع، مما زاد من توتر نعمة. في المقابل، كان المعلم حنفي يأمل في حكم الإعدام كحل لمشكلاته، بينما تمتم أبو محمد بدعاء لروح ضايع. عند إعلان الحكم بالإعدام شنقًا، خرج القاضي وجلس بين المستشارين، يحدق في الأوراق الماثلة أمامه بتركيز، بينما امتلأت القاعة بالوجوه المتوترة التي تنتظر القرار النهائي. أفراد العائلة كانوا جميعًا في القاعة، وكل منهم يحمل مشاعر مختلفة. بعضهم كان يرتجف خوفًا من أن يفلت ضايع من العقاب، والبعض الآخر كان يتمنى بشدة أن يُحكم عليه بالإعدام، وكأن ذلك القصاص سيعيد لهم جزءًا مما فقدوه. كان زياد يجلس في الزاوية بجوار هايدي، عيناه لا تفارق ضايع، وذكريات الماضي تلتهمه ببطء. رأى صورة والده الذي قضى قهرًا بعدما أذاقه ضايع مرارة الظُلم. قلبه ينبض بالرهبة أن يفلت هذا الوحش من يد العدالة. بعد دقائق من الصمت المتوتر، رفع "القاضي" يده وضرب على الخشبة بحزم. توقفت الأنفاس في القاعة، وغرق الجميع في سكون مهيب ينتظرون سماع القرار الذي سيغير مصير الجميع، حيث قال:
_حكمت المحكمة حضوريًا بإجماع الآراء، إعدام ضايع فوزي عباس الديب شنقًا.

أم الديب بصَرخة:يا لهوتي!

بدأت أم الديب بالصراخ واللطم، غير قادرة على تصديق ما حدث. في لحظات من الهستيريا، كانت تتجول في أرجاء قاعة المحكمة، تصرخ بصوت عالٍ وتضرب وجهها بيديها، تحاول محو المأساة التي حلت بها. صرخاتها كانت تعبيرًا عن الألم والشجن العميقين، معبرةً عن صدمتها من حكم الإعدام الذي صدر ضد ضايع، الذي عاش حياته في قلب الظلام، يسبب الأذى للناس ويقتات على معاناتهم. أما ضايع، الذي كان يمثل رمزًا للرعب والشر في حياة الكثيرين، سيصبح الآن مجرد ذكرى ماضية، قطعة متعفنة تحت باطن الأرض بعد أيام قليلة. هو الذي سرق الحياة من الكثيرين، ونهب حقوقهم، وقام بجرائم عديدة ضد الإنسانية، سيلقى مصيرًا لا يتناسب مع حجم الأذى الذي ألحقه بالآخرين. كان الناس يخافون منه ويهابونه، لكن الآن، سيُدفن بعيدًا عن عالمهم، ويصبح جزءًا من التراب، يذكرهم بحقيقة مؤلمة عن العدالة ومصير كل من تسوّل له نفسه تدمير حياة الآخرين.

يتبع في الجزء الخامس....